

٩٥

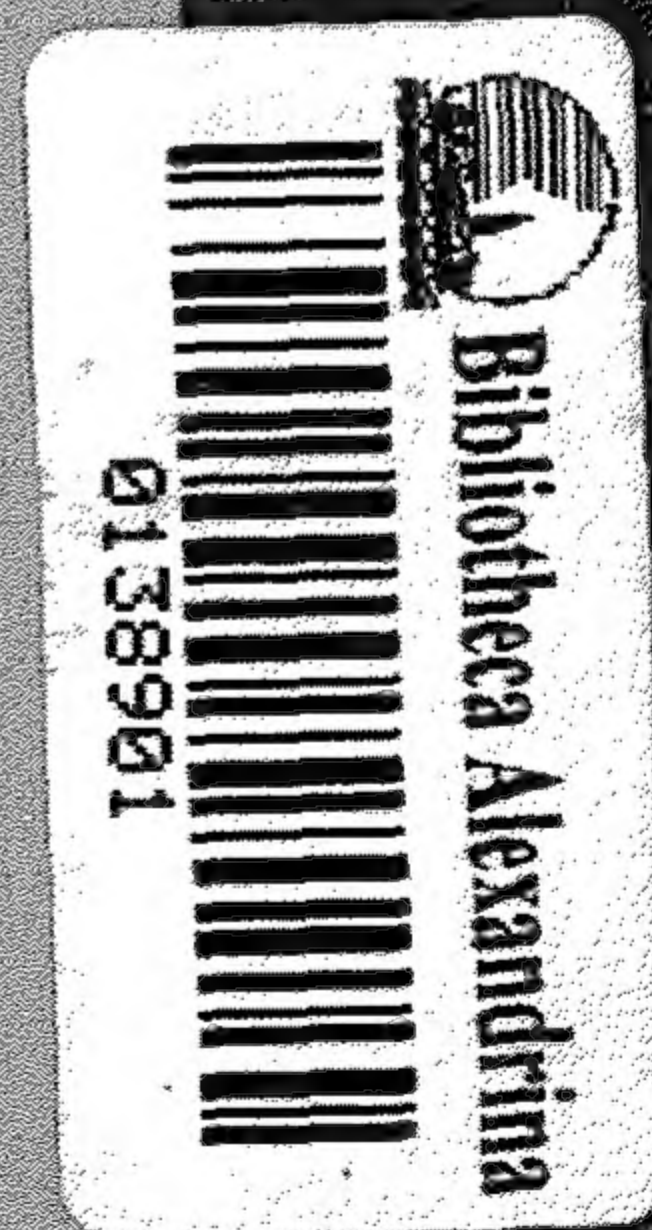
الألف كتاب (الثاني)

أحرف و الصنائع في مصر الإسلامية

منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

٢٠ - ٥٦٧ هـ / ٦٤١ - ١١٧١ م

د. السيد طه السيد أبو سديرة



المكتبة المصرية العامة للكتاب

الألف كتاب (الثاني) ٩٥

أحرف والصناعات في عصر الإسلام
سدا الفتح العربي حق نهلية العصر المناط
٢ - ٥٦٧ هـ . ٦٤١ - ٣١١٧

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير سرهان
رئيسة مجلة البداة

رئيس التحرير
لمنعي المطيعي

مدير التحرير
أحمد صليحة
سكرتير التحرير
محمود عبد

الإشراف الفني
محمد قطب

الإخراج الفني
مراد نسيم

أحرف والصناعات في مصر الإسلامية

منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي

٥٦٧-٩٠ هـ / ٦٤١-١١٧١ م

تأليف

د. السيد طه السيد أبو سديرة



المكتبة الوطنية والمحفوظات

١٩٩١

مقدمة

الحمد لله فاتحة كل خير ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . . . فقد حظيت الدراسات الحضارية باهتمام كبير من جانب الباحثين في الآونة الأخيرة . حتى شملت الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وأثرها البارز في نهضة الأمم وتقدمها في مجالات الصناعات والفنون . وكان من بين هذه الموضوعات الهامة التي أفردت لها هذا الجزء من الكتاب لمعالجته دور طوائف الحرفيين والصناع في مصر الاسلامية ، وما بذلوه من الجهد والعرق في أعقاب الفتح الاسلامي حتى زوال حكم الفاطميين ، وما بلغه هؤلاء الحرفيون من مظاهر التقدم والرقى في مجال حرفهم أو صناعتهم .

وليس من شك في أن الذين عملوا على بناء صرح الحضارة الاسلامية على أرض مصر الطيبة ، يستحقون منا التوفر على دراسة أحوالهم وظروف معيشتهم ، ومدى العون المادي والأدبي الذي نالوه من جانب الولاة أو الخلفاء والوزراء من الحكام المسلمين .

ويتناول هذا العمل مظاهر الحرف والصناعات بكافة أنواعها أي كل الأعمال والمهن والصناعات التي يتكسب الانسان منها ، وإن كانت المصادر العربية لا تفرق كثيرا بين الحرفة والصناعة في معظمها .

وقد اشتملت دراسة هذه المظاهر والجهود التي بذلها الحرفيون والصناع خلال تلك الحقبة التي نحن بصددتها على عدة فصول هامة نتناول على سبيل المثال أهم العناصر الرئيسية للفصول الأولى منها .

تناولت في الفصل الأول من هذه الدراسة صناعة الكساء والنسيج ودور الطراز في عصر الولاة ، وما كان يصنع بها من القباطى المصرية وغيرها من أنواع الثياب الكتانية والصوفية ، وشهرة كل من الاسكندرية وتنبس ودمياط وغيرها في شمال البلاد فضلا عن حاضرة الديار المصرية القسطنطية ، وأيضا مصانع النسيج في كل من الفيوم والبهنسا والأشمونين والتبس وطما وأسيوط واخميم في صعيد مصر ، وشملت الدراسة حرفة الصباغة وصناعة الألوان والمواد اللازمة لها وأماكن استخراجها ، كما تم التركيز على أسباب تقدم صناعة النسيج في عهد الطولونيين والاختشيديين أو في العصر الفاطمى ، وما أنتجته دور الطراز من الديباج والحريير والشرب والقصب والبوقلمون ، واستخدام أنواع منه للدعاية الفاطمية ، ومظاهر ازدهار فن الزخرفة بفضل تشجيع الحكام الفاطميين ومهارة الصناع والنساجين والصباغين والرسامين ، وما تشهد به تلك القطع الباقية المحفوظة منها بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة أو في المتاحف العالمية .

وقد عقدت الفصل الثانى للحديث عن صناعة البردى في مصر وشهرتها في عصر الولاة ، وما كانت تصدر منه لسائر أنحاء العالم آنذاك ، والأسباب التى أدت الى تقدم الوراقة وصناعة الكتابة أيام الطولونيين والاختشيديين من بعدهم ، وشهرة أسواق القسطنطية في مجال الوراقة واقترانها بالعاصمة بغداد حاضرة الخلافة العباسية . كما أنهيت هذا الفصل بتناول العوامل التى أدت الى ازدهار حرفة الوراقة في العصر الفاطمى وذكر العديد من هؤلاء الوراقين العلماء والأدباء وما بلغه هؤلاء الكتاب الفاطميون في مجال الانشاء والترسل والكتابة واستخدامهم في سبيل الدعاية والاعلام لمذهبهم وحكمهم الذى استمر نحو قرنين من الزمان .

أما الفصل الثالث فكان لتتبع جهود الحرفيين في صناعة الفخار والخزف والزجاج ، ومدى استغلالهم للمواد الخام الموجودة في مصر حينذاك ، وفي دراسة مظاهر التأثير الحضارى بين الصناع المصريين وأقرانهم في العراق خاصة في مجال صناعة الخزف ذى البريق المعدنى في عهد الطولونيين ، وما كشفت عنه حفائر القسطنطية من نتائج فنية في هذا المجال ، ومتابعة الدراسة خلال العصر الفاطمى ، وما أبدعته أيدي الخزافين والزجاجين وغيرهم من صناع البللور والمدارس الفنية المتميزة بصناعاتها وما احتوت عليه القصور الفاطمية وخزائنها من روائع الفن الفاطمى .

وأفردت الفصل الرابع للحديث عن الصناعات المعدنية المختلفة وما كان يتم استخراجها من المعادن في داخل البلاد ، ودور القبائل العربية في استخراج معدن التبر بمنطقة العلاقى بصعيد مصر ، وغير ذلك من

الأحجار الكريمة كالزمرد والياقوت والمرجان سواء من باطن الأرض ، أو من سواحل البحر الأحمر كاللؤلؤ والمرجان أو البلور .

وفى هذا الفصل أمكن معالجة سبل الحصول على الحديد والفضة والنحاس ، وطرق صهرها بمسابك الحديد والفولاذ والنحاس بالعاصمة القسطنطينية ، وما صنعه الحفارون وغيرهم من الأواني والآلات والتحف المعدنية ، وما بلغت صناعة التكفيت للأواني والأدوات المعدنية زمن الفاطميين .

كما درست فى هذا الفصل أيضا صناعة سك النقود بدور الضرب المصرية من الدراهم والدنانير ، وأنواع الفلوس النحاسية ، والاشراف على هذه الدور وما تضمنه من السباكين وغيرهم من الصناع . ولا يمكن أن نفصل صناعة الحل والجواهر الكريمة فى هذا الصدد ، وطوائف الصاغة فى أسواق القسطنطينية والاسكندرية وغيرهما من المدن المصرية وما كشفت عنه المصادر التاريخية والكتابات العربية من أسماء هؤلاء الصاغة والشهرة التى حظى بها هؤلاء وعلى الأخص فى عصر الفاطميين .

واختتمت الحديث عن الصناعات المعدنية بالوقوف على ما كانت عليه صناعة الأسلحة ، وما اشتهرت به مصر من أنواع المناجيق وغيرها من أنواع الأسلحة الثقيلة ابان الفتح العربى ، وذلك بالإضافة الى أنواع الأسلحة الخفيفة كالسيوف والرماح والجواشن وغيرها ، والتى أقبل العرب على شرائها والانتفاع بها فى عصر الفتوحات الإسلامية ، وشرح الأسباب التى أدت الى اهتمام كل من الطولونيين والاختشيديين بصناعة السلاح وغيرها من أدوات القتال والحرب فى البر والبحر ، ومدى ما بلغت هذه الصناعة من التطور والرقى بعد أن أصبحت مصر مقرا للخلافة الفاطمية .

أما المصادر التى استعنت بها فى اعداد هذا الكتاب فقد كانت كثيرة ومتنوعة ، وذات أهمية بالغة ، ذلك أن البعض منها كان معاصرا لأحداث الحقبة التى قمت بدراستها ، حيث كان أولئك المؤرخون وغيرهم من الرحالة شهود عيان فيما أوردوه من روايات ونصوص عن أسواق القسطنطينية والاسكندرية وغيرهما من المدن المصرية ، وما حفلت به مؤلفاتهم من حقائق تاريخية عن الحرفيين والصناع فى مصر الإسلامية .

ولعل من الانصاف أن أبدأ بأوراق البردى اليونانية والعربية التى تم تحقيقها ونشرها بمعرفة كل من أدولف جرومان ، وبل وجرنفل وغيرهم ، فقد أمدتنا بمعلومات قيمة عن حياة الحرفيين والصناع وما كانوا يتقاضونه

من الأجور وما يؤدونه من الضرائب والالتزامات الأخرى ، وذلك بالإضافة الى أنواع السلع والثياب التى شاع نسجها فى دور الطراز واستعمالها منذ فجر التاريخ .

وبلى ذلك فى الأهمية تلك الكتابات الأثرية التى جمعها كل من فان برشم وسوفاجيه وكومب وفيت فى السجل التاريخى أو مجموعة شواهد القبور ، فهى كتابات معاصرة ومحايطة سواء ما نقش منها على لوحات الرخام على جدران المساجد والمشاهد أو على شواهد القبور وسائر العمارات فضلا عن الكتابات التى زخرفت بها المنسوجات ومن هذه الكتابات أمكن الاستدلال على أسماء العديد من أصحاب الحرف والمهن المختلفة ، وأسماء دور الطراز والأمراء والوزراء والخلفاء العباسيين والفاطميين .

وقد أفدت من المخطوطات العديدة التى أمكن الاطلاع عليها ، مثل كتاب فضائل مصر وأخبارها لمؤلفه ابن زولاق الذى كان معاصرا للاخشيديين وأوائل الحكم الفاطمى ، حيث أشار الى شهرة مصر ووفرة خيراتها ومعادنها ، وما كان يعمل بها من الدوايب والأرحية والمناجيق وخبرة المصريين فى سائر الصناعات والفنون .

ومن المخطوطات التى رجعت اليها مخطوط عيون المعارف وأخبار الخلايف لمؤلفه القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ ، حيث ترجع أهميته الى أن مؤلفه كان مؤرخا معاصرا للفاطميين ، وأنه أفادنى بصفة خاصة فيما بذله الخلفاء الفاطميون فى سبيل إقامة المساجد وشتى المنشآت فى عاصمتهم القاهرة . كما أفدت من مخطوطة صناعة الورق والليق والحبر المحفوظة بدار الكتب المصرية ، ومخطوطة عدة الكتاب وعدة ذوى العقول والآداب والألباب فى عمل الليق وصناعة الأدهان . فانهما كشفنا النقاب عن طريقة الوراقين فيما كانوا يتبعونه فى تعتيق الورق وفى عمل أنواع المداد والأحبار المختلفة ، وما يتصل بحرفة النسخ وزخرفة الخزف والزجاج ونحو ذلك من أعمال الرسامين والصباغين .

ونشير أيضا الى بعض المخطوطات الأدبية التى أشادت بأصحاب الحرف والصنائع فى العصور الوسطى مثل مخطوط « النوادر والطرف للوظائف والحرف » لمؤلفه محمد بن مسلم الشافعى ، ومخطوط « دار الطراز » لمصنفه ابن سناء الملك الأديب المتوفى سنة ٦٥٨ هـ ، فقد ألح كل منهما الى ما كان شائعا من الطرف التى تخص أهل الحرف ومكانتهم عند الناس ، وما كانت تضمه دور الطراز أو مصانع النسيج من الحريريين والرسامين والمطرزين ونحوهم .

ونذكر من المخطوطات التاريخية مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لمصنفها ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ، وكذلك الجزء السادس والعشرين من نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ، فقد أمدنا كليهما بمعلومات هامة عن سياسة الفاطميين وتسامحهم نحو أهل الذمة ، فضلا عما حمله المعز لدين الله من سبائك الذهب الى القاهرة ، وعن قيام الفاطميين بإنشاء العديد من القصور والمناظر والمساجد وغيرها مما أدى الى ازدهار فن العمارة فى مصر الفاطمية .

ومن أقدم المصادر المطبوعة التى أفدت منها فى مجال البحث كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، فقد ألح فى فقرات عديدة الى عرفاء القرى وعرفاء القبائل العربية ودورهم فى تقدير الضرائب والالتزامات الأخرى على الصناع ، كما أشار الى تخطيط الفسطاط واقامة الأسواق بها وما كانت تضمه من الحذائين وأصحاب القراطيس ودار الضرب بالقرب من جامع عمرو بن العاص ، وعما اشتملت عليه دور الفسطاط من الحمامات التى تم بناؤها من الآجر والحجارة .

ومن المصادر الهامة التى رجعت اليها كتاب الولاة والفضاة للكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، فقد أمدنا بأسماء الحكام والولاة المسلمين الذين لعبوا دورا هاما فى تشجيع الحرفيين وفى تقدم بعض الصناعات كصناعة النسيج والبناء منذ فجر الاسلام . أما كتاب ابن الكندى الذى ألفه فى عهد كافور الاخشيدى ، المعروف باسم فضائل مصر ، فقد أمدنى بالفقرات الهامة التى تشير الى شهرة مصر وما كان يعمل بها من السلع وأنواع النسيج من طراز البهنسا وغيرها من القصب التنيسى والديبقي وثياب دمياط ، وعما كان يحمل من مصر الى سائر بلاد العالم من قراطيس البردى وعسل النحل وغيرها من المواد المصنوعة بأيدي المصريين .

وقد أفدت أيضا من كتاب سيرة أحمد بن طولون للمؤلف عبد الله البلوى المتوفى بعد نيف وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة ، لما اشتمل عليه من أخبار بناء القطائع وحصن الجزيرة ودار الصناعة ، واهتمام مؤسس الدولة الطولونية بدور الطراز وما كان ينسج بدمياط من الخلع الثمينة التى كان يقدمها الى بلاط العباسيين واهتمامه أيضا بديوان الانشاء وتفضيل المصريين على غيرهم من الكتاب للعمل به .

أما كتاب العيسون الدعج فى حلى دولة بن طفج الذى نقله إلينا ابن سعيد المغربى فى سيرة محمد بن طفج الاخشيد ، فلا شك أننى استفدت منه ، فقد أتى على ذكر أسماء المماريين الذين قاموا ببناء القصر والبستان

ودار الصناعة في عهد الاخشيديين كما أشار الى مشاركة أصحاب الحرف في تلك الاحتفالات والمناسبات المختلفة التي أقيمت بالقسطاط .
ومن أهم المصادر الأصلية المعاصرة نذكر كتاب أخبار مصر من تأليف المؤرخ الفاطمي محمد بن عبد الله المسبحي الذي تم نشر الجزء الأربعين منه مؤخراً فقد أشار الى الأسواق المشهورة مثل دار الجواهر ودار الصرف ودار الأنماط وسوق السلاح ، كما أشار الى دور المحتسب والوفاء وديوان العرائف ، وذكر بعض أسماء الدقاقين والنحاسين وفيما اشتهر بعضهم من عمل الدراهم والدنانير وصناعة الزجاج .

ومن المصادر التي اعتمدت عليها كتاب أخبار مصر لمؤلفه ابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م ، وبخاصة فيما احتوت عليه خزائن القصور الفاطمية من أنواع السلاح والفرش والأمتعة والتحف وغيرها من الكتب والمجلدات الثمينة . كما أمدنا ابن ميسر بفقرات هامة عن اهتمام الفاطميين بصناعة البناء واقامة المرصد الفلكي وصناعة الكتابة وعن انشاء دار الضرب بالقاهرة في عهد الخليفة الأمر بأحكام الله .

ومن المصادر التي أفدت منها كتاب كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية لمؤلفه منصور بن بعره الذهبي ، وهو من أغنى المصادر وأقدمها في الحديث عن دور الضرب ودور الصنائع بها من السباكين والضرابين في مصر الاسلامية . كذلك كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار للمؤلف أحمد بن يوسف التيفاشي المتوفى عام ٦٥١ هـ ، وترجع أهميته الى أن مؤلف هذا الكتاب كان خبيراً في خواص الأحجار الكريمة . وقد أشار الى كيفية استخراج الزمرد في جنوب الصعيد والى خصائص حجر الطلق وجيد البلور ، والى صناعة المجوهرات الرائجة في القسطاط والقاهرة والاسكندرية وغيرها .

ووجدت في كتاب قوانين الدواوين لابن ممتي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ من الفقرات والاشارات الحافلة بذكر المدن والجهات المصرية ودور الصناعة المختلفة كدار العيار ودار الضرب وخزائن السلاح ، فضلاً عن الفقرات الخاصة بأنواع المراكب والسفن التجارية والحربية التي كانت تصنع في مصر والاسكندرية ودمياط وغيرها من الثغور المصرية زمن الفاطميين ، بالإضافة الى ذكر أنواع الكتاب في ديوان الخراج وغيره من الدواوين الحكومية .

ورجعت الى مقدمة ابن خلدون الشهيرة وأفدت منها خاصة تلك الفصول التي تحدث فيها عن أمهات الصنائع كالبناء والنجارة والحياكة

وشارات الملك المتصلة بالطراز والسكة والخاتم وغيرها من الأسباب التي أدت الى رواج الصناعات وازدهارها في العصور الوسطى .

ولا يمكن أن نبخس أهمية كتاب للانتصار لواسطة عقد الأمصار لمؤلفه ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ هـ ، فهو سجل حافل بأسماء المدن المصرية وأسواقها الهامة وخاصة أسواق القسطنطينية وقيسارياتها ودروبها مثل درب الحدادين والتجارين والحجارين والرفائيين ، وسوق السراجين والوراقين ، والأساكفة ، التي ظلت رائجة منذ عصر الولاة وحتى أواخر أيام الفاطميين ، كما أوضح ابن دقماق ما اشتهرت به القسطنطينية من مطابخ السكر والصابون وغيرها من مسابك الزجاج والفولاذ والنحاس مما اختلفت به العاصمة المصرية آنذاك دون غيرها من الديار المصرية .

ومن المصادر التاريخية التي استفدت منها كتب المقرئى ، مثل كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، واغاثة الأمة بكشف الغمة ، واتعاظ الحنفا ، وترجع أهمية مؤلفات المقرئى الى أنه نقل كثيرا من الفقرات والفصول عن المؤرخين الذين سبقوه من أمثال الكندى والقضاعى والمسبحى وابن الطويل وغيرهم ، ومن أهم الفقرات كانت ما نقله عن صاحب كتاب الذخائر والتحف التي أثرت البحث ، فقد أفاضت اللثام عما كانت تحتويه خزائن الفرش والتحف والطرائف وغيرها من خزائن القصر الفاطمى وما بلغه الحرفيون والجوهريون وغيرهم من صناعات الأسلحة من التقدم والرقى فى صناعاتهم المختلفة .

ولا شك أننى اعتمدت كثيرا على كتب الرحالة والجغرافيين الهامة مثل كتاب البلدان لليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م ، وما تضمنه من ذكر أسماء بعض مراكز الصناعات الهامة كصناعة البردى والنسيج . وكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م ، وما أشار فيه الى الجواهر الكريمة مثل الزمرد ومناطق استخراجها فى صعيد مصر ، وما كان يستخرج بالقرب من شواطئ الاسكندرية من أحجار البوقلمون وغير ذلك من أنواع المعادن التي كانت تجلب من بلاد الهند كالحديد والأخشاب كخشب العاج وشن القيل أو العاج من سواحل أفريقية وغيرها .

وقد أفدت من كتب الجغرافيين والرحالة بصفة خاصة كتاب المسالك والممالك لابن حوقل المتوفى بعد سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وكتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم لمؤلفه المقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ ، وترجع أهمية كل منهما الى ذكر أسماء المدن المصرية وبعض الجهات

وما اشتهرت به من الصناعات المختلفة كطحن الغلال واستخراج الزيوت وغيرها من صناعة الورق والنسيج منذ فجر الاسلام ، وما كان يجلب الى البلاد من المعادن المختلفة كالحديد والفضة والنحاس وما يصدر من مصر الى سائر أنحاء الدنيا من المصنوعات المصرية .

ولا شك أن كتاب سفر نامة للرحالة الفارسي ناصر خسروا الذي قام بزيارته لمصر في عهد الخليفة المستنصر ، كان له من الأهمية خاصة في وصف أسواق القسطنطين وما اشتهرت به المدن المصرية كتنييس ودعياط وأسيوط وقوص وعيذاب من الأنشطة الصناعية والاقتصادية المختلفة . بالإضافة الى وصفه الضافي للقصر الفاطمي والدور في كل من القاهرة والقسطنطين مما أفادني في مجال الحديث عن مظاهر تقدم فن المعمار في العصر الفاطمي .

كما أخذت من كتاب رحلة ابن جبير وكتاب الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر لمؤلفه عبد اللطيف البغدادي ، فقد حفل كل منهما بالإشارات المفيدة في مجال البحث .

ومن كتب الجغرافيين والرحالة كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ، وقد رجعت اليه فهو سجل حافل بالبيانات والمعلومات الحصبة عن المدن والقرى المصرية وما اشتهر به أهلها من الحرف والصناعات فضلا عن المدن والجهات الأخرى في البلاد الاسلامية التي كانت مصر تحصل منها على بعض المواد الخام كالحديد والفضة وغيرها . ويشبه كتاب معجم البلدان في الفائدة كتابي نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للدريسي المتوفى سنة ٤٩٥ هـ / ١٢٥١ م وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني المتوفى سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ، فهما من المعاجم الشهيرة أيضا التي حفلت بالأخبار والحقائق التاريخية عن المدن والجهات الاسلامية المختلفة في العصور الوسطى .

وتأتي بعد كتب الرحالة في الأهمية كتب الحسبة ، ومن أهمها كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري المتوفى سنة ٨٥٩ هـ ، وكتاب المدخل الى تنمية الأعمال بحسن النيات لابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٧ هـ / ٦٣٣٧ م وكتاب معالم القرية في أحكام الحسبة لابن الاخوه القرشي المتوفى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م وفي آداب الحسبة للسقطي وكتاب معيد النعم ومبيد النقم تأليف عبد الوهاب السبكي وكتاب الأحكام السلطانية لمؤلفه الماوردي . وقد كانت من أهم المصادر الاسلامية في معالجة دور المحتسب وأعوانه من العرفاء والأمناء حيث كان ينبغي عليهم مراقبة الحرفيين والصناع

جميعهم ، كما كان عليهم أن يكونوا من أهل الخبرة والمعرفة بأسرار الصنائع المختلفة وطرق غشها ومنع هؤلاء الحرفيين من فعل ذلك .

ولا شك أنني أفدت كثيرا من مصادر عربية أخرى مثل كتاب التبصر بالتجارة للباحظ والاشارة الى محاسن التجارة للدمشقي ، والاشارة الى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفي ووفيات الأعيان لابن خلكان وغيرها من المصادر الأصلية كالكوكب السيارة لابن الزيات وصبح الأعشى في صناعة الانشا للقلقشندي المتوفى سنة ٨٢٣ هـ / ١٤١٨ م .

كما اعتمدت على مصادر فرعية أخرى تتمثل في جملة من المعاجم العربية والأجنبية وعلى مواضع متفرقة من دائرة المعارف الاسلامية .

وقد استفدت أيضا في بحثي هذا من بعض المراجع الحديثة ومنها مؤلفات الأساتذة : زكي محمد حسن ، حسن ابراهيم حسن ، محمد جمال الدين سرور ، حسن أحمد محمود ، عبد المنعم ماجد ، سيد كاشف ، سعاد ماهر ، حسن عبد الوهاب ، عبد الرحمن فهمي محمد ، ابراهيم أحمد العدوي ، راشد البراوي ، محمد عبد العزيز مرزوق ، ومن المؤلفات الأجنبية لكل من الفريد بتلر ، وجوستاف لوبون ، وجواتياين ، والفريد لوكاس ، وآدم مترز ، وجونسون وفيت ولينبول وديماند وغيرهم .

كما يجب التنويه الى ما حظيت به من الفائدة العلمية خلال زيارتي لكل من المتحف المصري والمتحف القبطي ومتحف الفن الاسلامي ، وما حفلت به من قطع النسيج والتحف الخشبية وأواني الخزف ذي البريق المعدني والمصنوعة من الزجاج وغيرها من ألواح الجص وبعض الألواح المنحوتة من الرخام ومن أنواع الحلى وأدوات السلاح والآلات والمعدات المعدنية الدقيقة التي صنعت بأيد مصرية خلال حقبة البحث التي قمت بدراستها .

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة الا أن أتقدم بخالص شكرى لكل من قدم لي يد العون في سبيل اخراج هذا العمل الى حيز النور ، كما أرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت فيما قصدت ، وعلى الله قصد السبيل ؟

سوهاج

د. السيد طه ابو سديرة

الفصل الأول

صناعة النسيج منذ فجر الاسلام حتى نهاية العصر الفاطمي

- ١ - صناعة النسيج في عصر الولاة .
- ٢ - دور الطراز في عهد الطولونيين والاختشيديين .
- ٣ - حرفة الصباغة وصناعة الألوان .
- ٤ - مظاهر تقدم صناعة النسيج .
- ٥ - مراكز صناعة النسيج وازدهار فن الزخرفة في العصر الفاطمي .

١ - صناعة النسيج في عصر الولاة

عرفت مصر زراعة الكتان منذ القدم في دلتا النيل وفي مصر الوسطى وخاصة في منطقة الفيوم (١) . كما عرف المصريون تربية الأغنام ، واستخراج مادة الصوف منها في صعيد مصر ، وتدل أوراق البردي على وجود نقابات لرعاة الأغنام وغيرهم من أصحاب الحرف منذ العصر البيزنطي (٢) .

(١) أشار هيرودوت الى زراعة الكتان في مصر والى ما كان المصريون يلبسون من ثياب الكتان ، وطريقة النسيج المصرية منذ القرن الخامس قبل الميلاد . وأنهم كانوا يدفعون اللحمة من أعلى الى أسفل ، بينما كان الاغريق وغيرهم ينسجون الكتان دافعين اللحمة من أسفل الى أعلى . كما أشار أدولف جرومان الى مراحل الاعداد والتجهيز لصناعة الكتان في مصر الفرعونية ، حيث كانت تبدأ باقتلاع سيفان الكتان من جذورها وتجميعها وربطها في حزم وتركها تجف ، ثم تمشيطها وتعطينها حتى يلين لحاؤها ، وطرقها بالمطارق وكشط اللحاء عنها ، ثم تندية أليافها وفتلها أو غزلها بالغلكة وأخيرا نسجها . وكانوا يستخدمون لها انوالا أفقية يجلس الصانع أمامها على الأرض جلسة القرمصاء ، كما يجلس نساجو الحصر الآن . . . وقد أشار بليتي الى الناحية التجارية لزراعة الكتان في مصر اذ يقول : انه وبمعونتها تستورد مصر السلع التجارية من بلاد العرب والهند ، ويضيف الى ذلك أن مصر قد حصلت من الكتان على أعظم الأرباح .

هيرودوت يتحدث عن مصر ، ص ١١٧ ، ١٢٤ ، مصر والحياة المصرية القديمة ، ص ٥١٩ - ٥٢٠ ، لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٣٦ .

(٢) كانت أفرديتو (كوم اشقاو) وهي قرية حاليا تابعة لمركز طما بمحافظة سوهاج . تضم العديد من النقابات ومنها نقابة لرعاة الأغنام في القرن السادس الميلادي .
Johnson : Byzantine Egypt, p. 153.

الحرف والصناعات - ١٧

وقد اشتهرت كل من تنيس ودعياط والاسكندرية بنسيج الكتان في شمال البلاد ، وأيضا مدينة الفيوم ومدينة البهنسا (اكسيرنخوس) في ذلك العصر (٣) .

وتشير المصادر الى وجود العديد من المناسج الخاصة بنسيج الصوف وغيره من أنواع النسيج في كل من أسيوط ومدينة اخميم ، وكثيرا ما كان انتاجهما من النسيج يصدر الى روما وبيزنطة ، لاسيما المنسوجات الفاخرة التى كانت تستعمل كثيرا فى الكنائس والاديرة .

وقد اظهر الصناع الأقباط فى هذه المناسج أو المصانع مهارة فائقة فى تصميم نماذج من الزخارف الهندسية والنباتية ، مما عثر عليه مرسوما على أوراق البردى (٤) ، كما دلت قطع النسيج المحفوظة فى بعض المتاحف على اسراف النساك المصريين قبل الفتح العربى فى رسم الموضوعات الدينية المستمدة من الكتاب المقدس وشيوع استخدامها فى زخرفة النسيج (٥) . كما ينسب الفضل فى اختراع النول اليدوى الى هؤلاء النساك المصريين واستخدمهم له فى مناسجهم منذ القرن الخامس الميلادى .

أما عن الأقمشة الحريرية فى ذلك العصر ، فكانت تنسج فى دبيق والاسكندرية وكانت صناعة الحرير تخضع لقيود شديدة (٦) ، وحيث كان التجار يرتحلون للحصول على ما تحتاج اليه من بيزنطة من مواد الترف

(٣) Ibid, pp. 119-124.

(٤) يضم متحف برلين مجموعة من أوراق البردى عليها مسودات تدل على أن النساكين المصريين كانوا يرسمون على تلك الأوراق لبيان زخرفة النسيج بطريقة القباطى (التابستري) فى مصر قبل الفتح العربى .

Johnson : Ibid, p. 121.

(٥) يحتفظ متحف الفاتيكان بقطعة من النسيج المزخرف المصنوع من الحرير وعليها احدى صور البشارة للسيد المسيح .

(٦) أصدر أباطرة الرومان عدة مراسيم وقوانين ، منها مرسوم سنة ٤٣٨م يحرم نسج الحرير بمصانع جنسيم التى كانت موجودة بالاسكندرية ، يبدو أن هذا التحريم جاء نتيجة اخضاع الأقمشة المصبوغة بالألوان الأرجوانى أو الموشاة بالذهب وغيرها من نسج الحرير بمصانع جنسيم التى كانت موجودة بالاسكندرية ، يبدو أن هذا التحريم جاء فى القرن الخامس جرائم الاعتداء على شخص الحاكم واستخدام الأفراد للثياب والجواهر المخصصة لهؤلاء الأباطرة ، وأصبح علاجها الوحيد احتكار الدولة وتحريمها لانتاج بعض السلع المحرمة . لوبز : محمد وشرمان إعادة نظر ، ص ١٠٩ ، بحث - نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - ترجمة توفيق اسكندر .

والزينة ، ومن بينها الحرير الخام من غلات الهند والصين لسد حاجة المصانع الامبراطورية في الاسكندرية .

وكانت غالبية الثياب منسوجة بطريقة القباطى ، وهى اقدم المنسوجات المزخرفة ، وقد حفلت قاعة النسيج بالمتحف القبطى بالعديد من النظم المنسوجة بهذه الطريقة التى يرجع تاريخ صنعها الى القرن السادس الميلادى (*) . ومن الواضح أن صناعة النسيج كانت من الحرف المألوفة لدى الرهبان داخل الأديرة ، كما أن مصانع للنسيج وانصباغة كانت تمتلكها الدولة غير أن ذلك لم يمنع من تشغيل بعض المناسج فى دور بعض التجار الذين كانوا يستخدمون عمال المصانع الحكومية فى غير أوقاتهم المحددة .

وكان نساجو الكتان يشكلون فى أنحاء البلاد نقابات تحافظ على أسرار حرفتهم التى كانت تنتقل الى أفرادها بطريق التوارث ، كما اشتهر كل مركز أو مدينة مثل الفيوم أو اخميم بنوع من النسيج كانوا ينتجونه سواء للأسواق المحلية أو الخارجية . وكان المشرف على اقامة الأنوال والمناسج يعطى لهؤلاء النساج تراخيص باقامة أنوالهم ومزاولة عملهم ، وذلك فى مقابل أقساط شهرية تدفع منهم كضريبة لمزاولة المهنة فى مناسجهم الخاصة .

وهكذا كانت صناعة النسيج فى مصر عند الفتح العربى فى منتصف القرن السابع الميلادى ، وكان العرب يعرفون قدر المنسوجات المصرية ويطلقون عليها عامة اسم القباطى نسبة الى أقباط مصر ، وقد روى المقرئى أن المقوقس أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أهدى قباء وعشرين ثوبا من القباطى . كما ورد ذكر هذه القباطى فى عدة موضوعات ، فيذكر الأزرقى أن عمر بن الخطاب كسا الكعبة بالقباطى من بيت المال وكان يكتب الى والى مصرى لصناعتها . وكذلك فعل عثمان بن عفان بعده ، فلما تولى معاوية كسا الكعبة كسوتين كسوة القباطى فى آخر رمضان ، وكسوة الديباج فى يوم عاشوراء من كل عام .

وكانت الكسوة للكعبة الشريفة تصنع بشطا وتونة ، ويذكر المقرئى أن الفاكهى رأى كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه » ، مما أمر به الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعة فى طراز شطا كسوة الكعبة سنة ١٩١ هـ ، . ويذكر الفاكهى أيضا أنه رأى كسوة مما يلى الركن الغربى من الكعبة مكتوبا عليها : « مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى » ،

(*) أرقام السجل : ٦٧٦٣ ، ٩٨٢٨ .

بأمر الفضل بن سهل ذي الرياستين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة ، • كما روى كذلك أنه شاهد شقة من قباطى مصر فى وسطها ، الا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود ، مما أمر به أمير المؤمنين سنة ست ومائتين •

وقد شجع الولاة العرب على ذلك أنهم قاموا بالاستيلاء على مراكز النسيج والمصانع العاملة بسائر الجهات والمدن المصرية والتي كانت ملكا للحكومة البيزنطية عند الفتح ، وكانت تلك المصانع تنسج بها الملابس الرسمية وغيرها للدولة ويتم إرسالها الى القسطنطينية • كما شجع فى نفس الوقت على تقدم صناعة النسيج فى العصر الأموى ميل الخلفاء والأمراء العرب ورغبتهم فى الاكثار من الثياب واقتناء الفاخر منها ، خاصة بعد أن زاد تدفق الثروة فى أيديهم من تلك الأقطار التى فتحوها ، فأقبلوا على المنسوجات المصرية وغيرها يسرفون فى اقتنائها ، ويحملون النساج على التسابق فى اجادة نسجها ، وابتكار الأنواع الجديدة منها •

وقد تحدث المسعودى عن اهتمام الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) بأنواع الثياب الفاخرة وعمل الوشى الجيد لارتدائه (٧) وفى عهده لبس الناس جميعا جيابا وأردية وسراويل وعمائم وقلائد ، وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته دون أن يكون عليه ثوب من هذا النوع • وكانت مدينة الاسكندرية شهيرة بانتاجه ، وكما يذكر الجاحظ فإن خير الوشى السابورى ثم الوشى الاسكندراني الكتان البحت •

وفى أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) عمل نوع من الخبز (٨) أقبل الناس جميعا على استعماله •

ومن مراكز صناعة النسيج الهامة فى العصر الأموى ما كانت تشتهر بانتاج أنواع معينة من المنسوجات البيضاء أو الملونة الرقيقة أو الثقيلة التى أقبل عليها الحكام العرب وغيرهم من سائر الرعية فضلا عن المصريين وفى الوجه البحرى اشتهرت من هذه المراكز كل من الاسكندرية وتونس ودمياط وغيرها ، وكانت مصانعها تنتج أنواعا من المنسوجات خاصة الكتانية البيضاء •

(٧) الوشى هو نوع من الثياب الرقيقة المنسوجة من الحرير وهى مرقومة باللون شتى ، وكان يصنع منها فى كل من الاسكندرية واليمن والكوفة •

(٨) الخبز هو نوع من نسيج الحرير ، أفضله كان مارق نسجه وثقل وزنه ، وأرداه الضعيف السدى الخفيف الوزن ، الرخو النسيج ، الردى الحرير •

الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٤٥ •

ويشير اليعقوبى الى شهرة مدينة تنيس الواقعة فى شمال الدلتا على جزيرة وسط بحيرة اشتهرت باسمها فى العصور الوسطى (بحيرة المنزلة حاليا) بصناعة المنسوجات الكتانية ، فهو يقول عنها : « وكان يحاك بها ثياب الشروب (٩) والأقمشة الرفيعة والرقاق من الدبيقى ، والقصب والبرود والمخل والوشى » . وقد عمت شهرة ثيابها وكانت تصدر الى سائر الآفاق حتى قيل عنها فى صدر الاسلام « انه ليس فى الدنيا منزل الا وفيه من ثوب تنيس ولو خرقة » .

وكانت دمياط تقارب تنيس فى الشهرة فى نسج الكتان ، وكان يعمل بها فى عصر الولاة الثياب الشرب والقصب ، وربما بلغت الحلة من ثيابها اذا كانت مطرزة بالذهب ألف دينار ، وبدون ذهب بمائة أو مائتين دينار . واشتهرت من مراكز صناعة نسج الكتان ، التى اشتهرت بطرزها العديدة العامة والخاصة فى العصر الاسلامى - وما سنعرض له بعد قليل - من نواحى شمال الدلتا أيضا ، شطا ودبيق ودميره وتونه وكانت تقع بين دمياط وتنيس بالقرب من شاطئ البحر المتوسط ، وقد ذكرت المصادر عن شطا أن مصانعها كانت تنسج الشرب الرفيع الذى تبلغ قيمة الثوب منه ثلاثمائة درهم ، وكانت تعمل بها كسوة الكعبة فى طرازها الخاص .

أما دبيق فكانت من المدن المصرية الصناعية القديمة ، وذاعت شهرتها منذ فجر الاسلام بانتاجها للثياب المثقلة والعمائم والشرب الملونة والدبيقى المزركش ، وكان يصدر منه الى بلاد العالم الخارجى آنذاك .

كما أنتجت مناسج دمييره الرفيع من المنسوجات والشرب ، وكذلك تونه وبوره فقد اشتغل الناس بهما فى نسج الثياب الكتانية ، وكانت توجد بها مصانع تابعة للدولة أطلق على كل منها دار الطراز . كما اشتغل الرهبان والراهبات فى الأديرة المصرية بحرفة النسيج (١٠) ، وشاركت المرأة بالغزل فى المنازل خاصة فى مدن الدلتا ، حيث كانت تترك للرجال مهمة النسيج ، وقد كانت تتقاضى نظير عملها فى الغزل الأجر بحسب ما تقدمه ، مما ساعد فى ذلك الوقت على وفرة الانتاج من غزل ونسج الكتان وأنواع المنسوجات المختلفة منه .

(٩) وهى جمع شرب وهو مارق من الكتان ، أما القصب فهو نوع من القماش رقيق جدا يصنع من الكتان . الثعالبى : فقه اللغة ، ص ٢٤٣ .

(١٠) يذكر لينبول أن الرهبان الأيرلنديين مدينون بالفضل لزملائهم الرهبان المصريين وذلك فى تعليمهم لهم العديد من الحرف الشائعة داخل الأديرة المصرية ، سيرة القاهرة ، ص ٧٢ ، ترجمة حسن ابراهيم وآخر .

وفى عصر الولاة اشتهرت مدينة الفيوم بصناعة ستائر ثمينة من الكتان يبلغ طول الستر الواحد منها ثلاثين ذراعا ، وقيمة الزوج منه كان يباع بثلاثمائة دينار . وكان أهالى مدينة البهنسا يعملون بالنسيج منذ العصر البيزنطى ، وقد ذاعت شهرتهم فى عصر الولاة ، والعصور اللاحقة بعد ذلك بعمل أنواع الستور والمضارب والفساطيط الكتان والطرف وغير ذلك ، ويذكر ابن حوقل أن قيمة زوج الستور من نسيجها كان يساوى ثلاثمائة دينار .

أما حرفة غزل الصوف والاشتغال بنسجه ، فكانت تلى نسيج الكتان فى الأهمية ، ومن أشهر مراكز نسيج الصوف فى مصر الوسطى والعليا ، كانت البهنسا والقيس ومدينتى أسيوط وأخميم ، فقد أنتجت البهنسا المنسوجات الصوفية بالإضافة الى شهرتها بنسيج الكتان ، وكان يكتب على طرازها من النسيج اسم المتخذ له عادة ، استمر ذلك جيلا بعد جيل .

كما اشتهرت فى صدر الاسلام مدينة القيس (١١) بإنتاجها لثياب الصوف الجيدة ، وقد انفردت بعمل نوع خاص من أكسية المرعز العسلى غير المصبوغ ، ولم يكن له نظير فى المناسج الأخرى ، يذكر ابن الكندى أن معاوية لما كبر كان لا يدفا ، فأجمعوا أنه لا يدفته الا أكسية تعمل فى مصر من صوفها المرعزى العسلى غير المصبوغ ، فعمل له منها عدد ، فما احتاج منها الا الى واحد . وكما يذكر المؤرخون فان الصوف المصرى كان من خير الأكسية ، فقد ذاع صيته لجودة صناعته ودقته وما كان يعبر منه الى خارج البلاد .

ومن مراكز نسيج الصوف مدينة أسيوط ، وهى من أعظم مدن الصعيد . وبها يعمل الفرش القرمزى الذى يشبه الأرمنى . وقد اكتسب صوفها شهرة واسعة فى ذلك الوقت وكان يسمى بالصوف المصرى . كما أن مدينة أخميم وكانت كورة الاقليم فى العصر الاسلامى فانها اشتهرت بنسيج الصوف وخاصة فى تلك الفترة الممتدة من أوائل القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الميلادى . (١٢)

(١١) تقع مدينة القيس غرب النيل ، وهى الآن قرية من قرى مركز بنى مزار محافظة المنيا وسميت كذلك نسبة الى قيس بن الحارث الذى أرسله عمرو بن العاص لفتح بلاد الصعيد ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ١٩٦ .

(١٢) عثر فى المقابر القديمة التى تقب عنها عن نماذج ممتازة لنسيج يرجع أقدمه الى القرن الثانى أو الثالث الميلادى وأحدثه الى الثامن أو التاسع ، ويشبه نسيج أخميم فى تلك الفترة أرقى أنواع الجوبلان الفرنسى فى القرون الوسطى .

سعد الحادم : الصناعات الشعبية فى مصر ، ص ٦٠ - ٦١ .

ومن الجدير بالذكر أن مصانع النسيج في تلك المدن كانت ملتزمة بإنتاج كميات من الثياب الصوفية ، حيث كانت تعطى كنوع من الجزية ، يعزز ذلك ما ذكره البلاذري بشأن تأدية هذه الجزية حيث قال : « وألزم جميع أهل مصر لكل رجل منه جبه صوف وبرنسا أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام ، أو عدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا ، وكانت الكسوة التي يكسوها أمير المؤمنين من الجزية التي فرضت على المصريين ولعل شهرة مصر في ذلك الوقت بإنتاج الصوف وغيره من أنواع النسيج ، قد شجع الحكام العرب على تقرير ذلك .

ومما يذكره الكندي أنه في ولاية الحسن بن التخنخاح على مصر سنة ١٩٣ هـ ، قدم الوالى العطاء كاملا لديوان الخلافة ببغداد ، وكان قيمة الثلث منه من البز أو الثياب .

ويضم المتحف القبطى قطعا كثيرة من المنسوجات الصوفية ترجع صناعتها الى عصر الولاة ، منها قميص من الصوف منسوج بطريقة القباطى عليه زخارف آدمية ونباتية ، كما يحتوى المتحف على مجموعة من أدوات النسيج كأمشاط الأنوال الخشبية والمغازل التي رسم عليها بعض الزخارف الحيوانية والهندسية (١٣) وقد أشار ابن عبد الحكم الى تلك الدار التي كانت معروفة بدار المغازل بالحراء بمدينة القسطنطينية ، ومن أسماء العاملين بنسج الصوف وتجارته ، وصل إلينا عن طريق أحد شواهد القبور وهو مؤرخ في شعبان سنة ٢١٦ هـ باسم : يعقوب بن يحيى الصواف الحولانى .

أما إنتاج نسيج القطن ، فيبدو أنه ضئيل للغاية في عصر الولاة ، ولم يكن يعمل منه في مصر نسيج خالص ، بل كان النساج المصريون يمزجونه بالكتان أو الصوف (١٤) . وهناك من يرى أن زراعة القطن وتجارته وصناعته قد اتسعت بعد الفتح العربى ، حتى أنه وجدت مخازن كبيرة للقطن بمدينة القسطنطينية في القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى .

(١٣) عثر على هذه الأدوات الخاصة بالفزل والنسج بمنطقة الغيوم وترجع صناعتها الى القرن السابع الميلادى .

(١٤) ذكر جروهمان في تعليقه على قائمة حساب بزاز من القرن الثانى الهجرى أو الثالث أن القمصان كانت تصنع من الكنان والقطن والحرير المخلوط أو الجلد ، وجاء في تعليقه على قائمة بثياب مختلفة تم بيعها لبعض الأشخاص . وكان منها عمامة قطن أو كتان سعر الواحد منهما دينار ، مما يدل على أن العمائم في مصر كانت تصنع من القطن أو القطن المخلوط بالكنان .

أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ٢٨٠ ص ١٤٠ .

لكن الشيء الملاحظ أنه لم يرد ذكره في أوراق البردي العربية (١٥) ، كما أن المتاحف المصرية قد خلت من وجود أية قطعة من نسيج القطن المصرى الخالص ترجع صناعتها أو نسجها الى تلك الفترة وحتى سقوط الدولة الفاطمية (١٦) .

ونختم الحديث عن صناعة النسيج في عصر الولاة بتناول موضوع نسج الحرير ، وكان يستورد خام الحرير من الهند والصين قبل انتاجه محليا في الشام ومصر في القرن السادس الميلادى (١٧) ، ومن الملاحظ أنه بدأت صناعته تنتعش منذ العصر الأموى ، كما أشرنا الى ذلك من قبل حينما أمكن استخدام الوشى الجيد في بلاط الأمويين .

وقد استمرت مراكز نسج الحرير في مصنع الاسكندرية ومنسج دبيق ، التى اشتهرت به منذ العصر البيزنطى ، فكانت تنتج منه في صدر الاسلام هذا النوع من نسيج الوشى ، وهى ثياب من الحرير مرقومة بألوان شتى (١٨) . كما ظلت مدينتا اخميم وأسيوط في صعيد مصر من أهم

(١٥) لم يرد لفظ القطن الا في اشارة غابرة على احدى أوراق البردي تسمى ببيع القطن قرابة أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى ويبدو من الصيغة أن سعره كان مرتفعا للغاية حيث يشكو المسرى من ذلك السعر فقد جاء النص كآلاتى : « قليل قطن ياأبا متطلنى ، وسعر القطن عندنا سبعة أرطال بدينار وحسبى الله ورسوله » أوراق البردي العربية ، ج ٥ ، ص ٧٩ ، ٨٠ .
Johnson : Byzantine, Egypt, p. 122.

(١٦) تشير المصادر الى أن زراعة القطن قد تم ادخالها الى مصر في العصر الرومانى ، لكنه لم تذكر عنه المصادر شيئا الا نادرا في أوراق البردي اليونانية التى ترجع الى العصر البيزنطى .

(١٧) ذكر جونسون Johnson أن انتاج الحرير بدأ منذ القرن الخامس أو القرن السادس الميلادى في مصانع الحرير السورية بالشام ، كما ظهر تقليد نسيج الصوف وطريقة القباضى المصرية لدى الساسانيين في مصانعهم . وقد عثر على الحرير المنسوج في كل من اخميم وفافو وأماكن أخرى ، والذي ترجع صناعته الى القرن السادس الميلادى ، كما يحتفظ متحف برلين برسومات على أوراق البردي لطريقة نسجه في ذلك الوقت .

(١٨) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

ولا غرو فقد كانت دور الطراز « جنسيم » التى وجدها العرب بالاسكندرية عند الفتح ، وهى تعنى ائكان المخصص الملحق بالقصر وفيه أرقاء كانوا ينسجون ويصبغون الحرير ويعملون ملابس القصر ، وكان محروما على الرعية أن ينسجوا أقمشة تشبه تلك التى كان يعملها نساج القصر . ويبدو أنها أصبحت ملحقة بقصر الوائى أو العامل بالاسكندرية في العصر الأموى ، وزادت من انتاجها حتى أن أقمشتها صارت تصل الى بلاد المشرق والمغرب .
مرزوق : الزخرفة المنسوجة ، ص ٢٢ - ٢٢ المسيد عبد العزيز مسالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٤٩٦ .

مراكز نسج الحرير . وليس لدينا من دليل يشير الى توقف تلك الصناعة منذ ازدهارها في العصر البيزنطي ، بل انه يوجد من الأدلة ما ينفي ذلك فقد عثر في احميم على لباس من الحرير كتب عليه اسم الخليفة مروان ، ولم يذكر تاريخ صناعته أو نسجه لمعرفة المقصود بالخليفة هنا هل هو مروان بن عبد الحكم أم أنه مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، ومهما كان الاختلاف في نسبة الاسم فانه يكفي كدليل واضح على استمرار تلك الصناعة في ذلك العصر .

هذا ولم يقف الحكام والمسلمون الاوائل موقفاً يؤثر على تقدم صناعة المنسوجات الحريرية ، ولكنهم عملوا فقط على تنظيم استعمالات الحرير ، وربما كان في انتاجه للنساء دون قيد ، وتحديد استخدامه بالنسبة للرجال (١٩) ، قيمة من الناحية الفنية ، ففي ظل ذلك التحديد ازدهرت طريقة تزيين الأثواب بالأشرطة الحريرية بطريقة التابستري أو القباطي المصرية الشائعة .

ومن أسماء صناع الحرير في مصر في ذلك الوقت ، كما ورد على شاهد رخام مؤرخ في صفر سنة ٢٤٠ هـ / يوليو ٨٥٤ م ، عبد الله بن أحمد المصفي الحريري ، حيث كان يطلق لفظ الحريريين على الموضح التي اتخذوها أسواقاً لتجارة الحرير أو صناعته في المصور الوسطى . كما يضم متحف الفن الاسلامي من كان يشتغل بالأدب أيضاً ، مثل السري الشاعر المعروف بالسري الرفاء . وايضا وردت أسماء على شواهد حجرية كان أصحابها يعملون بمهنة الحياكة وتفصيل الثياب . وهكذا حفلت المتاحف بأسماء العديد من هؤلاء المشتغلين بحرفة النسيج وما يتصل بها في مدينة القسطنطين وغيرها من المدن المصرية (٢٠) .

(١٩) يرى كريستي أنه على الرغم مما ورد عن النبي (ص) أنه كان يحرم استعمال الملابس الحريرية تحريماً باتاً فان المسلمين لم يكتفوا بتشجيع مصانع الحرير القائمة بل كانوا ينشئون مصانع الحرير أينما ذهبوا .

تراث الاسلام ، ج ٢ ، ص ٦١ - ترجمة ذكي محمد حسن .

(٢٠) من تلك الشواهد الرخامية المحفوظة بمتحف الفن الاسلامي شاهد مؤرخ سنة ٢١٧ هـ باسم أحمد بن عبد الحميد الحيات ، وشاهد آخر من أسوان باسم أمينة ابنة عيسى ابن جميل الحياط .

حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف ، ج ١ ، ص ٥٠٩ .

وهكذا استمرت صناعة النسيج في عصر الولاة ، والتي يمكن القول بأنها كانت امتدادا طبيعيا لما كان سائدا منذ العصر البيزنطي ، وان ازداد نشاطها لتلبية احتياجات البلاط الأموي ، والخلافة العباسية في صدر الاسلام ، فضلا عما كانت ترسله مصر الى بلاد الحجاز ولا سيما كسوة الكعبة الشريفة .

- وليس من شك في أن تشجيع الولاة ، فضلا عن وفرة المواد الخام داخل البلاد من الكتان والصوف ، كان خير حافز للصناع الأقباط من أجل العمل على تطوير صناعتهم ، بما يتمشى وتعاليم الدين الاسلامي (٢١) . وقد ظهر ذلك جليا فيما أنتجته دور الطراز المصرية في شمال البلاد وجنوبها ، خاصة في مصر الوسطى .

(٢١) ذكر البيهقي أن طراز القراطيس والثياب والستور وغيرها مما كان يصنع في مصر كان يحمل طراز الروم ، فلم يزل كذلك في صدر الاسلام الى أن ولي عهد الملك ابن مروان شنون الخلافة ، وقام بعريب الدواوين ، يقول البيهقي : « فامر بالكتابة الى عبد العزيز بن مروان وكان عامله على مصر . بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من أثواب وقرطاس وستر وغير ذلك » وهكذا أصبح الطراز أو ما يكتب على النسيج وغيره من أوراق البردي ذا طابع اسلامي ، حيث لم يقتصر الطراز على ما كان يطرز به النسيج أو ما شاع بعد ذلك في اطلاقه على المصنع أو المكان الذي تصنع فيه مثل هذه المنسوجات ، بل اطلق كذلك على الكتابة الرسمية التي كانت تكتب على درج البردي أو القراطيس .

الحاسن والمساوي . ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، جروهمان : أوراق البردي العربية ،

ج ١ ، ص ٣ - ٤ .

٢ - دور الطراز فى عهد الطولونيين والاختشيديين

اختلف المؤرخون فى تعيين الموطن الاصلى الذى نشأت فيه مصانع الطراز (١) وكان ابن خلدون على رأس الفريق الذى قال بأن مصانع الطراز الفارسية كانت هى الأصل فى ذلك النظام ، اذ كان من عادة ملوك فارس قبل الاسلام أن يزينوا ملابسهم بصور الملوك وبأشكال معينة تميزا لهم عن غيرها . ومما يعزز هذا الراى ما أوضحه روبرت سى . لوبتز أحد الباحثين الغربيين حين قال بأن العرب اتخذوا مثل هذا الاجراء فى ثيابهم الرسمية المطرزة تقليدا لملوك الفرس .

أما الفريق الثانى وعلى رأسه كرايتشك وكوتل ، فقد لجأ الاثنان الى مصانع جنسيم التى كانت قائمة فى الاسكندرية زمن الفتح العربى ، حيث عثرا على قطع من النسيج المصرى عليها أسماء بلاد وأشخاص ، مما يدل على أن عادة التطريز للثياب كانت بيزنطية الأصل ، وأن هذه المصانع كانت تحتفظ بسر نظام العمل بالنسبة لبعض الأقمشة الغالية .

والواقع أن مصانع الطراز الحكومية كانت موجودة فى الدولة

(١) كلمة طراز فارسية الأصل مأخوذة من كلمة (طرازيدن) ومعناها التطريز وأطلقت على الثوب الذى يزدان بشغل الابر ، ويذكر ديمانند أن طراز تعنى ذلك الشريط المشتمل على كتابة منسوجة أو مطرزة ، وكذلك أطلقت على الأقمشة المزخرفة بهذه الطريقة ، ثم صارت تطلق على المصنع أو المكان الذى تطرز فيه هذه الأشرطة وتنتج فيه هذه الأقمشة . وخير مثال على ذلك ما أوضحه المقرئى فى طراز مدينة البهنسا حيث كانت تكتب على الثياب أو الستور اسم المتخذة ، مضوا على ذلك فى مصانعهم جيلا بعد جيل ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٤٣ ، ديمانند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٤٩ ، سعاد ماهر : النسيج الاسلامى ، ص ٢٤ .

الساسانية والبيزنطية على السواء ، ولكن مصر كانت تابعة للبيزنطيين . وظلت مصانعها تنتج أنواعا من الثياب عليها الطراز البيزنطى حتى عهد الخليفة الأموى ابن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) حينما أمر أن تكون الكتابة على النسيج بلغة العربية ، يقول البيهقى (٢) « فأمر بالكتابة الى عبد العزيز ابن مروان وكان عامله بمصر بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك ، كما أمر واليه وابنه عبد الله بن عبد الملك بعد ولايته على مصر سنة ٨٦ هـ بأن يتخذوا زيا مخالفا لزي الأقباط . ومن ثم ظهرت بعض الحروف العربية والعبارات الاسلامية مكتوبة على النسيج المصرى ومنها « لا اله الا الله محمد رسول الله » .

ولعل مصانع الاسكندرية الحكومية التى أطلق عليها الجنسليم فى مصر البيزنطية ، كانت أول دار للطراز اتخذتها الادارة الأموية ، خاصة فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) يؤيد ذلك قطعة من النسيج عثر عليها ومحفظة فى متحف الفن الإسلامى يرجع تاريخها الى عام ٨٨ هـ .

وتشير المصادر الى وجود نوعين من الطراز ، حيث نشأت المصانع الحكومية التى أطلق عليها دار الطراز الخاص ، وكانت هناك مصانع حكومية أيضا تمثل دور الطراز العامة ، وقد كانت تماثلها فى انتاج ما يحتاج اليه الخلفاء الأمويين والعباسيين من ملابس وثياب وخلع وكسوة للكعبة ، غير أنها تزيد على ذلك بانتاج منسوجات أخرى لأفراد الشعب . يدلنا على ذلك قطعة من الكتان الأبيض عليها أسطر بالحرير الأحمر نصها « هذه العمامة لصمويل بن عيسى ، عملت فى شهر رجب من الشهور المحمدية سنة ثمان وثمانين » .

وقد خضعت كل من المصانع أو دور الطراز الخاصة والعامة فى العصر العباسى ، وأصبحت تشرف عليها الحكومة اشرافا تاما ، وكان لزاما على

(٢) الحاسن والمساوى ، ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

ويذكر البيهقى وكما نقل الدميرى عنه أن السبب فى تغيير الطراز أن القرامطة المصرية كانت تطرز بالرومية وعليها العبارات المسيحية (الأب • الابن • الروح القدس) وأنه حدث أن وقع قرطاس منها فى يد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، وحينما ترجم له معنى ما ورد على طراز ذلك القرطاس أنكر ذلك وأمر بأن يستبدل الطراز بسورة التوحيد (وشهد الله أنه لا اله الا هو) وكذلك الأمر بالنسبة للستور والثياب وغيرها . . . ومهما كان مبلغ صدق الرواية فإنها تنفق وتلك السياسة العامة التى اتخذها وهى تعريب الدواوين فى عهده ، وحيث اللغة العربية أصبحت هى اللغة الرسمية لى جميع أجزاء الامبراطورية الاسلامية • الحاسن والمساوى ، ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، الدميرى : حياة الحيوان الكبرى ، ج ١ ، ص ٥٨ ، ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ، ج ٢ ، ص ١٦٤ - ١٦٦ .

تلك المصانع أن ينسج شريطا من الكتابة العربية يحمل اسم الخليفة ومكان الطراز كما كان على صاحب الطراز أن يختار من القطع التي تصنع بدور الطراز ، فيرسلها الى الخليفة تمشيا بما كان يقتضيه نظام الالتزام . وكان الخليفة العباسي يخلع بذلك القطعة المختارة على كبار رجال دولته وذلك تقديرا منه على جليل أعمالهم .

ومن أقدم المنسوجات التي وصلت إلينا من العصر العباسي من دور الطراز المصرية التي كانت تزين الأقمشة المنسوجة من الكتان بزخارف من الحرير تلك القطعة المحفوظة بمتحف برلين والمسجل عليها اسم الخليفة هارون الرشيد واسم مروان بن مرعي ، وعليها الكتابات الكوفية والأشكال الهندسية وهي منسوجة بخيوط من الحرير المتعدد الألوان . وقد عثر أيضا على قطعة نسيج صنعت بطراز العامة بمصر للخليفة الأمين ، وعليها الكتابة الآتية : « بسم الله بركة من الله لعبد الله الأمين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بصنعه في طراز العامة بمصر على يدي الفضل بن الربيع ولي أمير المؤمنين » .

والواقع أنه كان لتنظيم دور الطراز في سائر الولايات الإسلامية أهمية كبيرة عند الخلفاء ، فقد كانوا يتبارون في إرسال الكسوة السنوية الى الكعبة من المنسوجات النفيسة ، وقد اشتهرت دور الطراز المصرية في تنيس وشطا ودبيق وغيرها بصناعة هذه الكسوة الشريفة في ذلك الوقت . كما عني الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة ، وكانت الكتابة على النسيج بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان .

وقد برع النساجون والمزخرفون في تطريز اسم الخليفة وألقابه ، وبعض عبارات الأدعية ، وكثيرا ما كان يذكر اسم المدينة أو الجهة التي تضم دار الطراز الخاصة أو العامة ، وكذلك اسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز ، وكان الغرض من هذه الكتابات على الأقمشة إثبات اسم الأمير أو الوالي الذي عملت في عهده ، أو ذلك الشخص الذي خلعت عليه .

وكان من أشهر مراكز الدلتا الصناعية دور الطراز العديدة بها كطراز كل من تنيس وتونه ودبيق ودمياط وشطا والاسكندرية وكانت تنتج

أنواعا من المنسوجات المركبة المزركشة أو ما عرف في ذلك الوقت بنسيج الزردخان (٣) .

كذلك كانت تضم الفسطاط دارا للطراز الخاصة وأخرى عامة ، وقد أحصى فيه العديد من القطع التي تم نسجها في طراز العامة بمصر، كما عثر على قطعة صنعت في عهد الخليفة المأمون في طراز الخاصة وذلك في سنة ٢١٦ هـ ، وهناك قطعة من النسيج باسم المعتز بالله عملت في طراز العامة بمصر ترجع صناعتها الى سنة ٢٥٤ هـ .

واشتهرت من دور الطراز أيضا طراز الفيوم وطراز القيس والبهنسيا وغيرها ، وكان طراز الفيوم بعضه منسوج من الكتان ، والشريط المزخرف من الصوف أو الحرير ، والبعض الآخر رقعته مرسومة من الصوف ومن الجدير بالذكر أن طراز الفيوم في صدر الاسلام قد أخذ الكثير من عناصر الزخرفة القبطية ، أما طراز القيس التي كانت شهيرة بانتاج نوع من الصوف الجيد ، فقد عمل الصناع على أن تكون زخارفه متميزة عن الطرز الأخرى ، حيث حصرت تلك الزخارف في أشرطة أفقية متعددة ، تملأ جزءا كبيرا من النسيج ، فكانت أرضيته من الصوف . والواقع أن أهم ما كان يميز دور الطراز في تلك الفترة إنما كانت طريقة الزخارف التي عن طريقها أمكن تحديد أماكن وجهات وتواريخ صناعتها ، وقد كانت ألوان الزخارف باختلاف مادة النسيج ، وتلك الرسوم الحيوانية والنباتية التي كانت تملأ الفراغ كله أو بعض من أرضية النسيج .

ويمكن القول بأن صناعة النسيج في العصر الطولوني كانت تمثل فترة انتقال بين العصر القبطي والعصر الاسلامي الخالص زمن الفاطميين ، ولم يكن من الممكن معرفة ذلك إلا بواسطة تلك الزخارف التي عثر عليها في قطع النسيج المختلفة . ولا شك أن دور الطراز قد نشطت في انتاج المقادير الكبيرة من المنسوجات تلبية لاحتياجات البلاط الطولوني ومظاهر الدولة شبه المستقلة .

ومن المعروف أن الجزية التي كانت ترسلها مصر الى بلاط الخليفة

(٣) الزردخان : كلمة فارسية معناها دار السلاح ، ولعل السبب في اتخاذها اسما لتلك المنسوجات ، إنما يرجع الى أن الدروع المتخذة من الزرد الناعم وغيرها من الأسلحة كانت تغطى بطريقة من نسيج سميك مزركشة من الحرير الأصفر والأحمر وغير ذلك . والواقع أنه لا غرابة في ذلك فإن دلاص (من أعمال الصعيد) كانت في فجر الاسلام مشهورة بصناعة نوع من الدروع الكتانية . الثعالبى : فقه اللغة ، ص ٢٥٦ ، مسعود ماهر : النسيج الاسلامي ، ص ٦٩ .

العباسي والهدايا التي أرسلها أحمد بن طولون كانت جميعها من دور الطراز في العصر الطولوني ، فقد ذكر البلوي أنه أنفذ كاتبه إلى الحضرة أحمد ابن محمد الواسطي ، وحمل إليه من المال وكل شيء حسن وغريب من دق تنيس ودمياط ومن الخيل والبغال بما يحوز الوصف حسنا وقدرًا ، وكذلك الهدايا التي بعث بها أبو الجيش خماروية بعد وفاة أبيه إلى الخليفة المعتضد عام ٢٧٩ هـ ، فقد كانت تضم كثيرا من المنسوجات النفيسة والأقمشة الفاخرة ، ومن هذه القطع واحدة باسم الخليفة المعتمد يرجع تاريخها إلى سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ هـ . وتشبه كل الشبه قطعة أخرى باسم المعتمد وجدت في البعثة في سامرا ، وهي محفوظة الآن بالقسم الاسلامي من متاحف برلين .

ومما يؤيد ذلك ما يذكره الطبري ، فقد أشار إلى أنه حمل مع ابن الجصاص الجوهرة إلى المعتضد الهدايا ومن بينها صندوقان فيهما طراز وذلك في عام ٢٧٩ هـ ، ولا شك أنها كانت من مصانع الطراز الخاصة بمصر .

وفي العهد الطولوني استمرت دور الطراز بمصر في تنيس ودمياط وشطا وديق والاسكندرية في انتاج كسوة الكعبة ، وتلك الخلج الثمينة التي كان يغدق بها الخلفاء والأمراء على رعاياهم تشجيعا لهم ، وتقديرا لخدماتهم الجليلة ، وكانت هذه الدور تضم من النسيج والصناعات فنيهم الحريري والمذهب والساذج والمعلم وغيرهم من أصحاب حرفة النسيج .

كما نهجت تلك المصانع في مدن الصعيد نفس النهج مثل الفيوم والبهنسا والأشمونين وطحا واشتهرت بطرزها المختلفة ، ولم يختلف المنتج منها الا في ذلك الأسلوب الزخرفي الذي جاء على غرار طراز سامرا ، الذي شجع عليه ابن طولون وأبناؤه من بعده . الا أنه من الملاحظ أن هذا الطراز لم يستمر طويلا على النسيج المصري ، إذ لم يلبث أن اختفى بمجرد سقوط الدولة الطولونية في سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م (٤) .

وقد بقيت المصانع الأهلية بجوار مثيلاتها الحكومية ، بسائر المدن تعمل في الانتاج دون طراز ، وتمتد التجار بحاجاتهم من مختلف الأقمشة

(٤) لم ينتشر هذا الأسلوب الزخرفي في طراز مصر الخاصة أو العامة إلا بعد أن جاء إليها ابن طولون عام ٢٥٤ هـ وكان لنشأته في قصر الخلافة ببغداد - وتأثره بالفن الساساني السائد بها إلى حد كبير أثر واضح في نقل طراز سامرا العراقي إلى مصر .

Garner : Islamic pottery, p. 49.

ويظهر أنه لم تكن حرة في نسج ما تشاء بالقدر الذي تريده (٥) ، بل كانت الحكومة هي التي تمدّها بالمواد الخام التي كانت تختتم عادة بدور الطراز أو المصانع الحكومية للنسيج . وكانت الحكومة تختص وحدها ببيع تلك المواد الخام بالسعر الذي تحدده بمعرفة موظفي دور الطراز .

وقد كانت دور الطراز تكلف النسيج في تلك المصانع الأهلية أن يحملوا ما ينسجون الى مكان خاص يحدد لهم ، حيث تطوى فيه الأثواب وتشد وتوضع في الاسقاط ، وكل عملية من هذه العمليات كان يقوم بها أحد موظفي دور الطراز الذي كان يحصل على أجر عمله من صاحب المصنع الأهلي . أما دور الطراز الخاصة والعامة فكانت تتبع بيت المال في الفسقاط ، وكان يشرف عليها موظف كبير يسمى صاحب الطراز أو ناظر الطراز . وكان مقره الفسقاط ، يتبعه مساعدون في مصانع النسيج في الأقاليم ، كان يسمى المتوكل بطراز الأقاليم ، فقد جاء في وثيقة بردية ترجع الى القرن الثالث الهجري « قبض حسين بن يحنس بن رماح بن يوسف المتوكل بطراز أشمون وأنصني » .

وقد حفل جامع الكتابات الكوفية الذي صنّفه عالم الآثار (فيت) بأسماء العديد من دور الطراز ، وبيان قطع النسيج وتواريخ نسجها في مصر الإسلامية . فمن هذه القطعة التي وردت قطعة باسم الخليفة المهدي، عملت بطراز الاسكندرية على يد محمد بن هلال سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م . وقطعة نسيج حملت اسم أمير المؤمنين أيده الله ، مما عمل بطراز الاسكندرية أيضا وذلك في سنة ٢٩٦ هـ أي بعد زوال الدولة الطولونية .

ومن القطع التي عملت بطراز الخاصة والعامة بتنيس بشمال الدلتا، قطعة من النسيج تحمل اسم الخليفة المعتمد وقد تم انتاجها في طراز تنيس سنة ٢٧٨ هـ / ٩٨ م . وهناك قطعة ثالثة باسم المعتضد والأمير أبو موسى هرون بن خماروية صادرة من طراز تنيس على يد عمر بن شاهين وعبد الغفار بن جمعة في سنة ٢٨٥ هـ . ولعل عمر بن شاهين كان هو المتوكل على الطراز في ذلك الوقت .

ومن قطع النسيج التي انفردت بحمل اسم هرون بن خمارويه قطعه

(٥) تشير بعض أوراق البردي الى حسابات خاصة لبعض الأشخاص الذين كانوا يودعون أغناما لدى بعض الرعاة لتربيتها في مقابل إعطائهم الأجر المناسب ، وترجع هذه الأوراق الى القرن الثالث الهجري . ومن المرجح أن مالكي هذه الأغنام كانوا يستغلونها في الحصول على مادة الصوف منها ، أو هؤلاء التجار الذين كانوا يملكون بعض المصانع الأهلية للنسيج .

عملت بطراز تنيس على يدى محمد بن خلف ويرجع تاريخها الى سنة ٢٨٧ هـ . وكذلك وردت قطعة نسيج تحمل اسم الخليفة المعتضد وهرون ، وقد تم نسجها أيضا فى طراز تنيس وترجع الى سنة ٢٨٨ هـ ، كما حملت اسم عبيد الله بن سلمان متولى دار الطراز . وقطعة أخرى وردت باسم المكتفى بالله من طراز العامة وتنيس سنة ٢٩٣ هـ .

ومما تجدر الإشارة اليه أن مؤسس الدولة الطولونية منذ توليه حكم مصر لم يحرص على ذكر اسمه فى الطراز لأنه كان يعمل على أن يظل ولاؤه للخليفة العباسى نفسه (٦) . أما خمارويه وهارون فقد ظهرت أسماء كليهما فى طراز تنيس ودمياط وغيرهما كما أشرنا من قبل ، فمن القطع التى حملت اسم الخليفة المكتفى وخمارويه تلك القطعة التى أمر بعملها فى طراز دمياط فى سنة ٢٨٩ هـ .

كما أنه يمكن القول بأن العهد الطولونى لم تخل فيه قطع النسيج او المنسوجات من تلك التقاليد الزخرفية القديمة والقبطية التى ظلت سائدة فى صناعة النسيج ، وقد لعبت دور الطراز فى زخرفة المنسوجات دورا هاما ، حيث حرصت الادارة الحكومية على استخدام أمهر النساج وأمهر الرقامين ، وأغلى المواد الخام ، حتى تنتج من أفخر الثياب ما يتناسب بالخلفاء والأمراء العباسيين ورجال دولتهم فى ذلك الوقت .

وكانت المصانع الأهلية تحاول السير على منوال دور الطراز ، وتستمد الوحي فى اتقان الصنعة والزخرفة مما تنتجه تلك الدور الحكومية ، يؤيدنا فى ذلك ما ذكره المقرئى عن شهرة ثياب الاسكندرية خاصة نوع الشرب ، حيث بلغ من قيمة الثياب المنسوجة فى مصانعها الأهلية ، أنه كان يباع كل زنة درهم منها بدرهم فضة ، وما يدخل فى الطراز منه كان يبلغ ثمنه أضعاف ذلك . ومن هؤلاء الديباجيين الذين كانوا يعملون بنسج الحرير وتجارته فى عهد الطولونيين أحمد بن الحسين بن عبدان المعروف بالديباجى وكانت وفاته فى سنة ٢٩٣ هـ .

وبعد سقوط الدولة الطولونية وعودة مصر الى حظيرة الخلافة العباسية ، أصبحت دور الطراز المصرية تنتج فاخر الثياب وعليها طرازها وترسل الى بغداد وكانت تحمل أسماء الخلفاء العباسيين ووزرائهم فى نفس

(٦) وتظهر أهمية ذكر الخليفة على الطراز مما ذكره ابن الأثير فى سنة ٢٦٩ هـ . بينما لعن الخليفة المعتضد ابن طولون فى دار العامة وأمر أن يلحن كذلك على المقابر لأن ابن طولون امتنع عن ذكر الموفق فى خطبة الجمعة وحذف اسمه من الطراز . تاريخ الكامل ، ج ٧ . ص ١٦١ .

الوقت ، وقد أحصى (فيت) من قطع النسيج التي أنتجتها مصر وعليها أسماء الخلفاء ، فوجد العديد منها مما عمل بطراز الخاصة والعامة ، بمدينة القسطنطينية ، منها قطعتان تحملان اسم الخليفة العباسي وترجع صناعتها الى سنة ٢٩٤ هـ . وقطعة أخرى مما عمل بطراز العامة بمصر سنة ٢٩٨ هـ وتحمل اسم الخليفة المقتدر ، وحملت قطعة من النسيج أيضا من نفس دار الطراز ترجع الى عام ٣٠٠ هـ .

وقد تكرر اسم شفيح المقتدرى صاحب الطراز فى تلك الفترة ، فقد ورد اسمه فى طرز كثيرة ، كما تكرر اسم الوزير العباسى على بن عيسى وقد حملت اسمه قطع من النسيج ، وأيضا الوزير حامد بن العباس وعلى ابن محمد من الوزراء العباسيين . واشتهرت من دور الطراز فى تلك الفترة كل من طراز تنيس ودمياط ودبيق والبهنسا ، فضلا عن طراز الاسكندرية الشهير . ومن بين تلك القطع التي عملت فى طراز العامة بمدينة دمياط ، قطعة تحمل اسم الوزير العباسى على بن محمد ومعه بشر الخادم مولى أمير المؤمنين ، يرجع تاريخها الى سنة ٢٩٦ هـ .

وقد ظل نظام الطراز يتطور حتى بلغ فى العصر الاخشيدى حدا كبيرا من الجودة والانتاج ، وكانت الحكومة تراقب صناعة النسيج الأهلية مراقبة دقيقة وتختتم الأقمشة بخاتم رسمى ، ولا تسمح بأن يتولى التجارة فيها الا التجار الذين ترخص لهم بمزاولة هذا العمل . وكان عليهم تقييد ما يبيعونه فى سجلات رسمية . كما كان حزم الأقمشة وربطها وشحنها لا يقوم به الا عمال من طرف الحكومة ، يتبادل كل منهم ضريبة معينة كموظف مسئول عن هذه الصناعة .

واهتم محمد بن طغج الاخشيد فى أعقاب توليه الحكم للمرة الثانية بشئون الصناعة ومنها صناعة النسيج ، وأنشأ بجزيرة الروضة خزائن للكسوة تضم مجموعة من الحرفيين العاملين فى مجال الحياكة والنسيج والتطريز . كما أنشأ المتاجر الخاصة بالثياب والمنسوجات بمدينة القسطنطينية ومنها السوق الخاصة التى تسمى قيسارية البز ، مما يدل على ازدهار تلك الصناعة ورواج تجارتها .

وكانت القسطنطينية تزخر بألوان الزينة وأنواع الديباج الثقيل فى أسواقها وشوارعها ، فقد ذكر ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق لما أرسل الخليفة الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) الى الاخشيد بكسوة الشرف وخلعة الولاية اكتظت الشوارع والأسواق بالأقمشة الثمينة والسجاجيد الفاخرة . وزينت أبواب المسجد العتيق بالأقمشة الحريرية المشجرة بالذهب وذلك بمناسبة تولية الاخشيد شئون مصر فى سنة ٣٢٣ هـ .

وقد كتب ابن حوقل الجغرافى والرحالة المعاصر للاخشيديين عن شهرة تنيس ودمياط وذكر ما بهما من الحلل السنية التى ليس فى جميع الأرض ما يدانيها فى الحسن والقيمة . وربما بلغ الثوب من ثيابهم مائتى دينار اذا كان فيه ذهب ، وما لا ذهب يبلغ المائة دينار ، كما أشار الى ما كان يصنع فى البهنسا من الستور والبسط والمضارب والفساطيط وذكر أن الزوج من بعض هذه الستور كان يساوى نحو ثلاثمائة دينار .

وكانت المنسوجات المصرية فى العصر الاخشيدي لا تزال متأثرة بالخارق التى استعملها النساجون فى نهاية العصر القبطى وفى فجر الاسلام ، وأكثرها رسوم طيور أو حيوان أو أشكال آدمية صغيرة فى جامات بيضية الشكل متعددة الأضلاع أو موزعة توزيعا غير منتظم ، وفيها اشكال هندسية وخطوط متقاطعة ودوائر متماسة .

وقد اشتهرت الثياب الديبكية بزخارفها المتنوعة والتى كان يلبسها بعض الناس فى عاصمة الخلافة العباسية ، ومنهم خدم الوزير على ابن الفرات . وكان ساقى العامة ببغداد فى ذلك الوقت ، يسير مؤتظرا بمنديل مصر ، ومعتما بمنديل ديبقى من طراز ديبقى ، كما وردت على أسواق بغداد البسط الديبكية المطرزة .

وكانت مصر فى ذلك العصر تصدر من المنسوجات الى أسواق بغداد ما قيمته عشرون ألف دينار الى ثلاثين ألف دينار سنويا ، وظلت هذه المنسوجات ترد الى العراق الى أوائل الحكم الفاطمى ، حيث منع الوزير يعقوب بن كلس تصديرها الى العاصمة العباسية .

وبرغم المنازعات السياسية بين الدولة الاسلامية وبيزنطة ، فانه لم تتوقف العلاقات التجارية ، اذ كانت بيزنطة فى حاجة الى بعض المصنوعات المصرية الممتازة خاصة ما ينتج فى مدينتى تنيس ودمياط من أنواع النسيج ، وكثيرا ما عمل الأباطرة البيزنطيون على شراء تلك الأنواع الفاخرة لتزيين قصورهم .

وقد بلغت شهرة دور الطراز المصرية وما تنتجه من منسوجات ثمينة جعلت الحكام والأمراء وعامة الشعب معها يميلون على اقتنائها ، ووسيلة للاهداء والتقرب ، فمما ذكره المقرئى أنه لما حج الوزير أبو بكر محمد ابن على الماذرائى كان من بين ما وهبه للقرمطى بمكة المكرمة نحو مائتى قميص من طراز ديبقى ثمن الثوب الواحد منها خمسون دينارا .

كانت أسماء الخلفاء العباسيين تنسج في العصر الاخشيدي في الأقمشة الثمينة بلحمة من الذهب أو الفضة ، ومن الخطوط المتعددة الألوان وذلك تمجيذا لهم ، ودليلا على أنها صنعت في عهدهم ، وكان على العاملين بدور الطراز أن يتقنوا في اخراج ما يشبه التحف الثمينة هذه . لكنه من الملاحظ أن أسماء الأمراء الاخشيديين لم تظهر في كتابات المنسوجات المطرزة أو المزخرفة ، وذلك كما ظهرت أسماء خمارويه وهارون من الأمراء الطولونيين ، وأغلب الظن أن الاخشيد والأمراء من بعده لم يحفلوا بهذا المظهر من مظاهر الاستقلال أو علامات الملك ، فقد كان الاخشيد شديد العناية بتقليد ابن طولون الذي لم يحرص على ذكر اسمه في الطراز .

ومن الملفت للنظر أن ما حملته قطع النسيج التي صدرت من دور الطراز كانت لأسماء الخلفاء العباسيين ووزرائهم ، والمشرفين على تلك الدور ، دون ذكر هؤلاء الأمراء الاخشيديين ، فقد تكرر اسم شفيع المقتدر في قطع من النسيج حتى قبل تولي الاخشيديين . فظل يذكر اسمه على الطراز الصادرة في عهد الاخشيديين يتضح ذلك من تلك القطعة التي يرجع تاريخ نسجها الى سنة ٣٢٦ هـ .

ويمكن التعرف على أسماء المشرفين أو المتوكلين بالطراز في ذلك الوقت ، مما كانت تنتجه المصانع الحكومية ، ومن قطع النسيج التي أمدتنا بمعلومات لا ترقى اليها الظنون أو الشك ، فمن أصحاب الطراز في العصر الاخشيدي ورد اسم كل من جابر وشفيع وبكير وأبو زيد وعبيد وفائز ، ولا شك أنه كان لهؤلاء نشاط ملحوظ في الاشراف على تلك المصانع والعمل على تطوير انتاجها بصفة مستمرة ، لا سيما وأن ما تنتجه من المصنوعات كان يحمل أسماءهم .

وقد ورد اسم جابر على عدد من قطع النسيج ، منها قطعتان احدهما من الحرير والأخرى من الكتان ، وذلك بعد اسم الوزير الفضل بن جعفر ابن الفرات ، وعلى قطعة نسيج أخرى مؤرخة في سنة ٣٣٠ هـ ، وعليها اسم جابر بعد اسم الخليفة المتقي بالله العباسي (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ) .

كما حملت الينا قطع النسيج التي أمكن الوصول اليها أسماء بعض دور الطراز بمصر في ذلك العهد ، بالإضافة الى أسماء هؤلاء المشرفين عليها ، ومن تلك القطع ما كان من طراز مصر أو القسطنطينية ومن تنيس ودمياط ، وذكر في طرازها كل من بكير وعبيد وفائز ومنها قطعة مما عمل بطراز شطا على يد فائز يرجع تاريخها الى سنة ٣٥٧ هـ .

وهكذا كانت دور الطراز الخاصة والعامة الخاضعة لأشراف الإدارة

المصرية تنتج من أنواع الثياب المزخرفة أو المطرزة بما يكفي حاجة البلاد وأسواق بغداد من الثياب والبسط والديقية ، بالإضافة الى ما كانت تزرع به خزائن الكسوة في قصور الطولونيين والاختميين مما دق من دور تنيس وديمياط ، ولا شك أن الخلع الثمينة التي كانت تحمل أسماء الخلفاء العباسيين ووزرائهم التي حاکتها أيدي النساج وعملت على تطريزها داخل دور الطراز ، كانت من أهم ما أنتجته هذه الدور في ذلك العصر .

ولا يسعنا أن نختم الحديث عن صناعة النسيج سواء ما كانت تنتجه دور الطراز العامة والخاصة أو المصانع الأهلية في ذلك العصر ، قبل أن نعرض للأسعار التي كانت تباع بها المنسوجات كما وردت في أوراق البردي العربية ، وكذلك الأجور التي كان الصناع يتناولونها نظير اشتغالهم بعمليات الخياطة وغيرها .

وقد أورد جرومان بعض هذه الأسعار ضمن قائمة حساب بتسليم أثواب مختلفة يرجع تاريخها الى القرن الثالث الهجري على النحو التالي :

النوع	الثمان
ثلاثة أسفاط من الثياب	مبلغ الثمن خمسة دنانير ونصف
عشرة أثواب	خمس دنانير
عشر شقات مشدودة	الثمان ثلاثة دنانير
ثوب شرب	الثمان ثلثا دينار
ثوبين شرب	الثمان ديناران
ثمان جبة خز	أربعة دنانير وثلث
ثمان منديل تنيسي	ديناران وقيراط
ثمان جبة صوف	دينار ونصف
ثمان رداء بغدادى	ثلاثة دنانير وثلث

أما عن قيمة الأجور التي كان يتقاضاها الخياطون فيمكن معرفتها من البيان الذى ورد فى احدى البرديات ويتضمن ما يلى :

« بطانة صفراء بالحشيش ، وفرد بطانة حمراء بالقم وجبة خز حمراء صفراء ، وقميص وسراويل معصفر بدرهمين ، وأيضا جبة عتابة وبطانة صفراء ، وهذا حساب خالد » .

كما ورد فى بردية أخرى أن أجرة خياطة القلايل وهى ثياب النساء المصنوعة من الأنسجة البيضاء الرقيقة مما اختصت به دور الطراز المصرية ، وغيرها أربعة دراهم وربع . ونستدل من ورقة بردى أخرى على أن أجرة عمل الثوب كانت ثمن دينار . ولا شك أن هذه الأجور كانت تتناسب فى ذلك العصر وأسعار المواد الغذائية بنوع خاص ، وهى تثبت أن حرفة الخياطة وأجرها كان أعلى بكثير من أجرة عامل اليومية فى الزراعة التى كانت لا تزيد عن سدس الدانق . وهكذا كانت حرفة الخياطة وغيرها من الحرف المتصلة بالنسيج تدر على أصحابها ما يجعلهم يقبلون على عملهم فى رضا وسرور ، مما سنعرض له دون إيجاز فى أحد الفصول القادمة .

٣ - حرفة الصباغة وصناعة الألوان

ترتبط مواد الصباغة بصناعة النسيج ارتباطا وثيقا ، وتدل ألوان الخيوط المصبوغة بثباتها وزهائها رغم ما مر عليها من قرون طويلة ، على أن المصريين قد برعوا فى فن الصباغة (١) ، وأنهم قد استخدموا أجود أنواع مواد الصباغة الطبيعية (٢) وقد ورث الأقباط عن المصريين القدماء هذه الحرفة (٣) ، وعرفوا طريقة استخلاص الأصباغ والألوان المختلفة من خاماتها الطبيعية سواء أكانت نباتية أو حيوانية أو معدنية مثل الكرم

(١) أنفن الفراعنة فن النلوتين وصباغة المنسوجات بالرسوم المختلفة ، وكانوا يكتفون فى أول أمرهم بصباغة النسيج بلون واحد مثل الأحمر أو الأزرق ، ولكنهم بضمى القرون أخذوا يصبغون الثياب بألوان عدة - مرزوق الزخرفة المنسوجة ، ص ٧٣ ، ٧٤ -

(٢) اكتشف عالم الآثار بترى وجود مصبغة فى تل اتريب ترجع الى العصر الرومانى وذكر أن أحواضها كان معظمها أزرق داكنا بسبب وجود بقايا وآثار النيل وبعضها أحمر . كما عثرت بعثة ايطالية فى سفائر كوم البريجات على معمل صباغة وتنظيف يرجع الى العصر الرومانى أيضا -

(٣) وقد عثر فى الأقصر على بعض أوراق البودى المصرية المكتسوبة بالانغريقية ألفها بولس ديموقريطس وهى محفوظة - الآن بمتحف استكهولم بالسويد وتمتد أقدم دليل مكتوب ، ذكر فيه شئ ، عن صناعة الأصباغ فى القرن الثالث الميلادى بمصر وفى هذه الأوراق يمكن التعرف على طريقة المصريين الأقباط فى غسل الصوف بالأعشاب المسابونية وتنظيفها وكيفية غليه من أملاح النحاس والحديد والتسب ، وأشارت الأوراق أيضا الى حمامات الصباغة وكيفية تثبيت الألوان وإزالتها -

الفريد لوكلان : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٦٤٢ -

وقشر الرمان والحناء والنيلة والشبب وغيرها (٤) . وعرف المصريون كذلك كيفية استخراج الشبب واستخدامه وأملاح الحديد في تثبيت الأصباغ على النسيج ، كما استخدموا بذور شجرة السنط (القرظ) الذي كان ينمو بكثرة بمصر من أجل ذلك (٥) .

ولا شك أن وفرة المواد الخام بجهات مصر المتفرقة سواء عن طريق زراعتها كما هو الحال في الرمان والآس والسلجم والبلسان والصفير والقرطم والنيلة ، أم في استخراجها من أماكن وجودها كالشبب والنطرون، وكان الشبب يستخرج من الواحات الداخلية والخارجة بالقرب من أسوان ، ومن المعروف أن الحكومة البيزنطية كانت تحتكر إنتاجه والنطرون قبل الفتح العربي للبلاد .

وقد شجع الحكام العرب بعد الفتح هؤلاء المحترفين بحرفة الصباغة وعمال النسيج المصريين ، ولم يجد الحرفيون الأقباط صعوبة كبيرة في إرضائهم ، نظرا لميلهم في زخرفة الأقمشة والمنسوجات إلى العناصر الهندسية والنباتية ، ولكرهية العرب المسلمين تصوير الإنسان أو الحيوان وكان هذا الميل نفسه قد دب إلى الفن القبطي منذ منتصف القرن الخامس الميلادي .

كما فضل العرب الفاتحون الملابس المصنوعة من الكتان الأبيض أو الصوف الكحلي ، وقد استعمل الإنسان الألوان لترمز عن أحواله فرمز باللون الأحمر للحرب مثلاً ، وفصل الناس بعض الألوان على بعضها البعض الآخر ، فكان الاهتمام باللون الأخضر لأنه يرمز للسلام ، واللون الأبيض يرمز للاطمئنان والسروء .

أما اللون الأسود فقد كان رمزاً للحزن والحداد ، وقد فضل العباسيون شعارهم السواد ، وكانت الدولة تتخذ في حروبها بعض البنود والأعلام ألواناً معينة كشعار لها ، لكي تتميز بها أثناء القتال .

وكذلك استخدمت ألوان الثياب في عصر الولاة للتمييز بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة ، يذكر المقرئزي أن الخليفة المتوكل أمر التميميين في

(٤) الشبب مسحوق قابض استخدم منذ زمن بعيد في تثبيت الألوان وفي أعمال الصباغة ، المستعدي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٧ ، الفريد لو كاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٤٧ .

(٥) المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ، ويذكر المقرئزي : أن الحكومة كانت تحتكر إنتاجه فلا ينصرف به إلا الديوان ، ومنه وجد منه مع أحد شئ ، اشتراه من غير الديوان فكل به واستهلك ما وجد منه منه .

سنة ٢٣٥ هـ. بلبس الطيالس العسيلية ، وعمل رقعتين على لباس رجالهم
تخالفان لون الثوب قدر كل واحدة منها أربع أصابع ، ولون كل واحدة
منها يختلف عن لون الأخرى .

وهكذا أصبح من الأهمية بمكان ، أن يقوم الصباغون والرسامون
وغيرهم من أصحاب حرفة الصباغة باستخلاص الألوان وقاء للاحتياجات
المتنوعة في صناعة النسيج وغيرها من الصناعات ، واستطاع الصباغون
في مراكز النسيج المنتشرة ، استخلاص الأصباغ اللازمة من المواد النباتية
والحيوانية والمعدنية الموجودة داخل البلاد أو ما كان يستورد منها من
الخارج (٦) .

وقد أمكن الحصول على الصبغة الحمراء من مادة اللؤلؤ بعد دخول
العرب مصر ، إذ عملوا على جلبها من الهند ضمن مجموعة الغلات والمواد
الأخرى .

كما أمكن الحصول على القرمز من بلاد أرمينية التي اشتهرت به في
العصر الإسلامي ، وكان يستخرج منها اللون الأحمر (٧) ، وفضلا عن ذلك
فإن الصنائع المصرية أمكنهم استخلاص الأصباغ الحمراء من المعادن ،
لا سيما معدن الزرنيخ الأحمر والزرنيخ الزماني (أكسيد الزئبق الأحمر) ،
واشتهرت مدينة اخميم باستخلاص العصارة الحمراء ، وكان من
أسباب تفوقها في فن الصباغة وصناعة الألوان ، أنه كان ينمو بالقرب
منها نبات السلجم وكانت له عصارة حمراء يمكن استعمالها في
الصباغة (٨) ، ومن الجدير بالذكر أن هذا النبات كان يعرف باسم «ملوك»

(٦) جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ٦ ، ص ٧٦ ، ٨٠ ، وكان المصريون
في العصر القبطي يستخدمون الفوه غود وهي صبغة حمراء يحصلون عليها من جذور ونبات
عشبية ، ويبدو أن الحصول عليها لم يكن من المستور ، وكانت كمياتها قليلة لا تكفي
لاحتياجات الانتاج المتزايد من المنسوجات بعد الفتح العربي ، وذلك فضلا عن أن
مادة اللؤلؤ كانت صبغتها أقوى وأجود .

(٧) يغير الاصطخري إلى شجرة الأرمينية وجود القرمز بها فيقول عنها : « ولهم صبغ
يسمى القرمزية أحمر يصبغ الصوف ، وبلغنى أنه دودة تنسج على نفسها مثل دودة القز »
والصالح ص ١٧٠ ، وقد سبق الجاحظ الاصطخري في الحديث عن مادة القرمز
وصنفها بأنها دودة حمراء كانت تنسج في ثلاثة مواضع بنجشبات الأنديلس وشيراز وأرض
فارس ، كما يشير إلى احتكاك طائفة من اليهود ومعرفة بتلك المواضع واستخراج القرمز
منها ، التبصر منها ، التبصر بالنجارة ، ص ٣١ .

(٨) شاع استخدامه في استخراج الألوان الحمراء منه وصبغة الثياب ، فقد ورد في
أوراق البردي التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري أو الثالث ضمن قائمة حساب
بزاز ، أنه باع فرد بطانة حمراء بالقمم ، جروهمان : أوراق البردي العربية ،
ص ١٨٨ .

لأن عصارته الحمراء الداكنة كانت تستخدم في صناعة الحرير القرمزي الذي كان يتم تصديره الى بيزنطة قبل الاسلام ، وكذلك تمكن في مصر من استخدام شجر البقم ، واستخراج اللون الأحمر منه ، وكان يدخل في تركيب الأصباغ وفي الحصول على ألوان جميلة لتزيين المخطوطات .

كما كان يتم استيراد الزعفران النقي والعصفر والزعفران العربي المسمى العروس ، وهو نبات يشبه السمسم ويكون في اليمن ، ويتحدث عنه آدم متز فيقول : « وكانت جمال اليمن التي تحمل الزعفران الى الشمال تصفر ألوانها بتأثير أحمالها الغالية » ، ويظهر أنه كان يحمل بعد ذلك من ميناء عدن أو من جدة الى مصر عبر البحر الأحمر حتى يصل الى القلزم وقد تم استعماله في التلوين باللون الأصفر ، بالإضافة الى ما كان ينبت في مصر من نبات العصفر أو القرطم في صعيد مصر ، وأمكن استغلاله في الحصول على اللون الأصفر كذلك (٩) .

أما عن شجر النيلة ، الذي كان يستخلص منه اللون الأزرق فإنه كان يزرع بمصر منذ المصور القديمة (١٠) ، وقد زادت زراعته بعد الفتح العربي زيادة عظيمة خاصة في الصعيد الأعلى ، ويشير المقرئزي الى طريقة زراعته وحصاده ، حيث كان شجر النيلة ، بمصر يحصد في كل مائة يوم ، وهو يبقى في الأرض الجيدة ثلاث سنين . ولا شك أن وفرة زراعته قد أتاحت للحرفيين والصباغين المصريين سهولة الحصول على الألوان الزرقاء في ذلك الوقت .

كما أتاحت وفرة الشب المستخرج من الواحات في صبح الأحمر ، وفي تثبيت الألوان ، وكان يحمل من الواحات الى قوص واخميم وساحل أسبوط ، ثم ينقل في المراكب على صفحة النيل حتى يبلغ القسطنطينية ، حيث كان يباع منه أكثر من خمسة آلاف قنطار أو أكثر في السنة .

وقد اشتهرت أسبوط في مصر الاسلامية بحرفة الصباغة لسهولة حصول هؤلاء الصباغين على مواد الصباغة كالشب والنيلة حيث كانت تلتقى

(٩) وكانت القمصان والبراويل يستخدم في صباغتها اللون الأصفر كما ذكر ذلك في أوراق البردي العربية ، فمن قائمة أحد التجار للثياب أوردت الأوراق أنه باع « قميص وبراويل مصفر » من جملة الثياب . جروسان : أوراق البردي العربية ، ج ٦ ، ص ٧٩ .

(١٠) كان الصباغون يستعملون اللون الأزرق في صباغة الأقمشة والألوان الأخرى . وقد ذكر Milne أن الضرائب على الصباغين في جهة أيشميريا ، كانوا يؤدون نحو ٢٦٥ دراخمة سنويا ، وذلك في العصر الروماني والبيزنطي .

A History of Egypt under Roman rule, p. 157.

عندها الوارد من هذه المواد من الواحات المجاورة لها . ولا شك أن وفرة مسحوق الشب كلن خير معين في اشتغال الناس لتثبيت أصباغهم الطبيعية في النسيج المصرى ، مما أدى الى شهرته وتصديره الى سائر البلدان . وكان لدى مصر من محصول الشب والنظرون ما يزيد عن حاجتها ، فكان يصدر منه الى أوروبا لحاجتها اليه في صناعة النسيج وغيرها ، وليس كما يرى رات حين قال : « ولم يكن استخدامه واسع النطاق في الصناعة المصرية » .

ويضم متحف الفن الاسلامى مجموعة من شواهد القبور تكشف لنا عن أسماء عدد من الصباغين (١١) ، منها شاهد حجر رملى من أسوان باسم « أحمد بن عباد بن ادريس الصباغ » . وشاهد آخر مؤرخ في شعبان سنة ٢٣٩ هـ / ٨٥٤ م باسم قاسم بن عبد الله الصباغ . مما يدل على انتشار حرفة الصباغة في عصر الولاة .

ومن أسماء الصباغين التى أمكن العثور عليها فى المهدى الطولونى والاششيدى ، ورد ذكر عبد الغنى بن جعفر بن سليم الصباغ على شاهد حجر رملى من الصعيد ويرجع الى القرن الرابع الهجرى ، كما ورد نص جنائزى من أسوان مؤرخ فى ذى القعدة سنة ٣٥٦ هـ باسم أحمد ابن ابراهيم بن يحيى بن ابراهيم آل صباغ ، وتوضح مجموعة الفيوم من النسيج التى ترجع الى ذلك العهد مدى قيام الرسامين والصباغين فى تطوير حرفتهم (١٢) ، يتجلى ذلك فى قوام زخرفة تلك المجموعة من صور الطيور والحيوانات والأشكال الآدمية ، وبألوانها الزاهية القوية ، وعليها كتابة تتضمن أنها صنعت فى طراز الخاصة بأحدى جهات الفيوم .

ويؤيد ذلك ما أبداه ابن حوقل من إعجاب شديد فى بداية العصر الفاطمى ، بأنواع المصنوع من النسيج فى كل من الفيوم والبهنسا ، وما كانت عليه من دقة الألوان وثباتها ومهارة الصباغين فى دور الطراز بكل منهما ، فهو يصف طراز الفيوم وشهرته قائلا : « وبالفىوم مدن كبار جليلة وطرز مشهورة للسلطان والعامه ، وفيها من الامتعة ما يستغنى

(١١) كما ورد لفظ ذيل الصباغ فى احدى أوراق البردى العربية التى يرجع تاريخها الى القرن الثالث الهجرى .

جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ٢٠٩ .

(١٢) يضم متحف الفن الاسلامى مجموعة من الافشة اصطلاح علماء الآثار على تسميتها بمجموعة الفيوم وهى ترجع الى القرنين الثالث والرابع الهجريين .

بشهرته عن أعادته كالبهتسما المعمول بها الستور والاسترقاق والشرع والخيام والأحلة والستائر والبسط والمضارب والفساطيط العظام بالصوف والكتان بأصباغ لا تستحيل وألوان تثبت فيها من صور البقة الى الفيل .

وقد اتسع نطاق استخدام الألوان في العصر الفاطمي ، وتعددت أغراضه فظهر لون القرنفل المتدرج في رسم الزهر ، والأخضر الزراعي ، والأصفر العاجي ، والأزرق السماوي ، والزخرفة المذهبة وبها الألوان المتدرجة .

ولا شك أنه كان لتقدم صناعة الكيمياء في ذلك العصر ، وخبرة الصباغين الكيميائية بصناعة الألوان وصباغتها أثر كبير في ازدهار فن الزخرفة في الأقمشة المنسوجة ، وفي ذبح الجلود وغيرها من الصناعات السائدة .

وقد بلغ من مهارة الصباغين والرقامين والرسامين والمصورين المصريين أن أوجدوا أصباغا لتلوين الأنسجة ، وكذلك للفسيفساء ، والأواني الخزفية والزجاجية وغيرها . وكان الصناع المصريون هؤلاء يستخدمون طرقا معينة في ختم الزخارف وطبعها على المنسوجات كان منها استخدام ألواح الخشب وقد عثر على قطعة من النسيج ذات زخارف مرسومة بنفس الطريقة ترجع صباغتها وزخرفتها الى أوائل العصر الفاطمي .

كما يذكر لنا ابن بسام طريقة أخرى استعملها عمال تنيس في ختم زخارفهم ، وهي طريقة الحجارة المنقوشة لضرب الثياب ونقائها وتلوينها .

وقد شجع الفاطميون على زيادة عمل الأصباغ وصناعة الألوان المختلفة ، كما شجعوا المصورين والرسامين على استخدام الرسوم والأشكال آدمية وحيوانية . ولم يجفل فقهاء الشيعة برفض أهل السنة وكرههم لرسم الكائنات الحية (١٣) ، حيث أنه من الملاحظ على صناعات الفاطميين أنها زينت بصور آدمية وحيوانية كثيرة .

وفي أوائل القرن الخامس الهجري ظهر في مصر نوع جديد من القماش المسمى « بوقلمون » وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار ، ويشير آدم متر الى هذا النوع من القماش فيقول : ويظهر للرائي في ألوان مختلفة ، وكان يصنع في تنيس وحدها ، ويمكن القول بأنه لولا نفوق الصباغين في تلك المدينة وغيرها من المدن الصناعية المصرية ، وخبرتهم

(١٣) أورد الذهبي في كتابه الكبار ثخيم التصوير في الثياب والمخيطان والحجر والدرهم وسائر الأشياء . كتاب الكبار ، ص ١٩٥ .

الوطيدة. في صناعة الألوان في ذلك الوقت ، لما أمكن لمصانع تنيس من
انتاج البوقلمان .

ويبدو أن أصحاب حرفة الصباغة قد نجحوا في مزج القصوص
المعروفة بالبوقلمون والتي أمكن استخراجها من قاع البحر بالقرب من
شواطئ الاسكندرية والتي قال عنها المسعودي : « وهي ترى ألوانا مختلفة
من حمرة وخضرة وصفرة تتلون في المنظر ألوانا مختلفة » وهذا يفسر لنا
ما أوضحه آدم متز ويتمشى في امكانية استخراج هذه المادة العجيبة وظهور
هذا النوع الجديد من القماش بعد صباغته بهذه المادة الجديدة في العصر
الفاطمي .

ومن أسماء الصباغين التي وصلت إلينا من جنوب الصعيد في عهدي
ال خليفة الحاكم وابنه الظاهر ، كما يتضح لنا من نص جنائزي كان جعفر
ابن محمد الصباغ ، ومن الملاحظ في ذلك العهد أو تلك الفترة أنه تم
الترخيص برسم الأشخاص ، وكما أصبحت صناعة مزج الذهب بالألوان
زاهرة ، ووجدت الأعداد الهائلة من التراكيب الزخرفية والهندسية ،
مما يدل على تقدم فن الزخرفة في أواخر القرن الخامس ، وأمكن للصناع
المصريين مزج الألوان بطريقة يخيل معها للرائي أن في الزخارف شيئا
من البروز :

وقد ترجم المقرئ في كتابه ضوء النبراس لمجموعة من المصورين
الذين كان جل اهتمامهم بلا شك صناعة الأصباغ وكيفية استخدامها في
العصر الفاطمي وما تلاه من العصور (١٤) ، وهناك من المضارب والخيام
الفاطمية ما كانت رسومها وألوانها تبعث على الدهشة وشدة الإعجاب ،
ونقل عن أبي الحسن بن الحسن الخيمي أنه من بين ما وجد من أنواع
الخيم في خزائن الفاطميين فسطاطا كبيرا قد صور في رفرفه كل صورة
حيوان في الأرض وكل عقد مليح وشكل ظريف . وكذلك ما ذكر من أنه
وجد في القصور الفاطمية حين نهبت في سنة ٤٦٠ هـ ألف قطعة من
المنسوجات مصورة على حاشيتها خلفاء العرب مع مقاتلين ورجال مشهورين .
وكانت البسط المصنوعة من نسائج الذهب والحرير والمخمل مستورة
بتصاوير ممثل بها رجال وحيوانات من كل نوع .

وكانت الفسطاط من أهم مراكز صناعة الأصباغ ، فقد أطلق اسم
الصباغين على تلك الأحياء التي كانوا يعملون بها ، حيث أشار المقرئ

(١٤) لم يصل إلينا ذلك الكتاب وهو طبقات المصورين المنعوت بضوء النبراس وأنس
الجلال في أخبار المزدوقين من الناس .

الى وجود عدة حوانيت للرسمين ، والى عقبة الصباغين وقيسارية العصفر ،
وكما اشارت وثائق الجنيز الى اسم أحد أصحاب المصانع بالفسطاط وكان
يدعى « عروس بن يوسف » من المهديّة بتونس ، وكان له نشاط واسع
فى عالم التجارة فى ذلك الوقت خاصة فى البحر المتوسط .

ومما يدل على انتشار حرفة الصباغة فى الفسطاط وغيرها من المدن
المصرية ما اشارت اليه كتب الحسبة حول أساليب الغش فى مواد
الصباغة ، وما كان يقوم به الصباغون فى حوانيتهم ، فقد كان أكثر صباغي
الحرير الأحمر وغيره يصبغون الغزل والثياب بالحناء بدلا من الفوه ،
فيخرج الصبغ حسنا مشرقا لفترة وجيزة ، فاذا أصابته الشمس تغير لونه
وزال اشراقه . كما يذكر الشيزرى أن بعض الصباغين كانوا يستعملون
الزاج فى صباغة الثياب المراد صباغتها باللون الكحلى ، فتخرج الثياب
صافية اللون شديدة السواد ، فاذا مضت عليها أقل مدة تعود الى أصلها
ويتغير لونها ، وكان على المحتسب وأعوانه منع هؤلاء امصباغين من فعل
ذلك .

ومهما قيل عن غش الصباغين فى ذلك الحين ، فان التصميمات
الزخرفية التى اتبعت فى العصر الفاطمى الأخير تدل على مدى ما بلغت
حرفتهم من تفوق ، وعلى الاهتمام الشديد بالزخرفة ، وما تطلبت من عمل
الأصباغ الزاهية ، والتفنن فى تركيبها وتكوينها والتلوين بها ، فقد ظلت
هذه الأصباغ ثابتة حافظة على بهائها طوال ألف سنة حتى الآن .

٤ - مظاهر تقدم صناعة النسيج فى العصر الفاطمى

تقدمت صناعة النسيج وراج انتاجها بعد الفتح الفاطمى للبلاد ، واتخاذهم القاهرة مقرا لخلافتهم ، وقد رغبوا فى اتخاذ المنسوجات كوسيلة من اجل تحقيق اهدافهم السياسية ، والعمل على نشر مذهبهم والاشادة به ومحاولة تركيز ذلك فى نفوس الناس داخل البلاد وخارجها ، كما رغبوا فى اتخاذ المال والاعداق به على المصريين حتى تحدث الناس عن ذلك وقالوا « ذهب المعز » ، ولا غرو فقد حمل معه المعز لدين الله حين قدومه الى القاهرة ما يشبه الطواحين من السبائك الذهبية .

ولا شك أن قطع النسيج المطرزة بالعبارات الدينية والدعائية باسماء الائمة التى بدأت دور الطراز فى انتاجها فى أعقاب الفتح مباشرة ، وكانت خير شاهد على ذلك ، فضلا عما سعى اليه الفاطميون فى منافسة الخلافة العباسية وبزها فى ميادين الأبهة والعظمة ومظاهر الترف والنعيم .

وقد سعى الامام المعز لدين الله اول الخلفاء الفاطميين للتقرب الى الشعب المصرى ، واستمالة قلوب الناس نحو حكمه ، وكانت الخلع الثمينة من الثياب من أهم الوسائل لتحقيق ذلك .

عمل المعز لدين الله على انشاء دار الكسوة ، وكان يفصل فيها أنواع الثياب والبز ، ويكسو بها الناس على اختلاف اصنافهم كسوة الشتاء والصيف ، وقد اتخبط لها مهرة الصناع وعينهم فيها ، يصنعون له ما يشاء من أفخر الثياب والملابس الثمينة ، ولا ريب أنه كان لذلك الأثر البعيد فى تطوير الصناعة ذاتها لدى أرباب الحرف والصنائع من عامة الشعب

المصري ، لأن ما يخرج منه صناعات البلاط الفاطمي من هذه التحف كان بمثابة نماذج يعمل الحرفيون على تقليدها .

وتبدو مهارة الصانع ومدى حذقهم لفنون الحياكة والتطريز ، من وصف الكسوة التي أمر الخليفة المعز بعملها للكعبة عام ٣٦٢ هـ في دار الكسوة هذه ، وقد عبر ابن ميسر عن إعجاب الحاضرين في إيوان القصر ، وذلك حينما نصب المعز الشمسية وكانت من الديباج الأحمر ، ودورها اثنا عشر هلال ذهب ، في كل هلال أترجة ذهب مشبك ، جوف كل أترجة خمسون درة كبار كبيض الحمام وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وفي دورها مكتوب آيات الحج بزمرد أخضر وحشو الكتابة در كبار لم ير مثله ، يقول ابن ميسر : « ولم يبق أحد حتى دخل من أهل مصر والشام والعراق فذكروا أنهم لم يروا قط مثل الشمسية » .

كانت خزانة الكسوة في القصر الفاطمي تستعمل على خزانتي أحدهما الخزانة الظاهرة ، وقد خصصت لصناعة الملابس الرسمية للخليفة وكبار رجال الدولة والبلاط الفاطمي ، يذكر المقرئزي أنه كان يحمل إليها مما يدخل في طراز تنيس ودمياط والاسبكندرية من خاصي المستعمل ، كما كان يخصص لها مبلغ من المال ، بلغ حوالي ستمائة ألف دينار في السنة . كما كان بها من أنواع الأقمشة الفاخرة مثل الأقمشة الكتانية الرقيقة والحريير الموشى بالذهب أو القلاطون . وكان يوجد فيها صاحب المنص وهو مقدم الخياطين .

أما الخزانة الباطنة فهي منفصلة عن الخزانة الظاهرة ، يتولى أمر الإشراف عليها امرأة تنعت بزين الخزان ، بين يديها ثلاثون خارية ، ليس الخبرة والمهارة في أعمال الحياكة وفن التفصيل ، وما يلزم ملابس الخليفة في زيه المتنوع عند الركوب وسائر المناسبات الدينية والأعياد القومية الأخرى .

والحقيقة أن توزيع الكسوة على الناس كان عادة عند الخلفاء العباسيين ، وقد شاركت دور الطراز المصرية من قبل في عصر الولاة في إنتاج مثل هذه الكسوات وأرسلها إلى بغداد ، وفي عهد الطولونيين والأتششيديين أيضا ، إلا أن الفاطميين كانوا أكثر توسعا في هذا العمل إلى حد كبير . ولا ريب أن الحكومة الفاطمية ما كانت لتتفق المبالغ الطائلة إلا من أجل تحقيق أهدافها السياسية والعمل على استمالة المصريين واجتذاب قلوبهم بصفة مستمرة ، لدرجة أن الفاطميين خصصوا لذلك ديوانا خاصا يسمى

ديوان خزائن الكسوة يشرف على توزيعها في المناسبات المختلفة (١) .

ولا غرو فقد كانت الكسوات تفرق في مناسبات عديدة منها غرة رمضان وأول العام وأعياد الفطر والنحر ، وكسر الخليج وعيد القدير ، وكان هؤلاء الصناع والمهرة من الحرفيين يعملون في خزائن الكسوة تلبية لتلك الاحتياجات الكبيرة منها ، وما يستلزم من الأزياء المطلوبة لكل من الخليفة وأرباب المناصب والأقلام ، وغيرهم من رجال البلاط الفاطمي ، والمتطلبات الأخرى .

وقد أفاض المقرئى وغيره من المؤرخين في وصف أنواع الكسوات التي كان الخليفة الفاطمي يمنحها للأمراء والأميرات وموظف القصر وأطباء البلاط ووالى كل من القاهرة والفسطاط ، كان لمنح هذه الكسوات مواسم خاصة يصدق في كل منها على طائفة معينة من هؤلاء الذين تقدم ذكرهم ، فيما عدا عيد الفطر ، فقد كانت تعم فيه الحلل على الجميع حتى أنه أطلق عليه اسم « عيد الحلل » . كانت تختلف هذه الكسى باختلاف الأشخاص الممنوحة لهم ، فالحلل والبديل المذهبة إنما كانت تمنح للأمراء ورجال القصر ، وكبار الموظفين وعظماء الضيوف الوافدين من الخارج .

وربما كان أول من خلع عليه المعز لدين الله بعد وصوله الى القاهرة عام ٣٦٢ هـ قائده جوهر الصقل ، فقد ذكر المقرئى أنه خلع عليه خلعة مذهبة وعمامة حمراء وقلده سيفاً ، وقاد بين يديه عشرين فارساً مسرجة وحمل بين يديه خمسين ألف دينار وثمانين تختاً من الثياب . وكانت القاعدة المرعية أن يرفقوا الخلع ببراءات يصدرها ديوان الانشاء المختص بمثل هذا العمل .

وكان للقواد نصيب وافر من الخلع الثمينة هذه ، كما حدث عند خروج منجوتكين على رأس الجيش الى حلب لاختضاع ابن سعد الله ، اذ خلع عليه الخليفة العزيز بالله ، واشتملت الخلعة على مائة قطعة من الثياب الملونة وعشر قباب ومناطق مثقلة وأهلة وفروش وخمسين بنداً .

ويصف المقرئى ما أنعم به الحاكم بأمر الله على الحسن بن عمار بوساطة ولقبه بأمين الدولة ، وقد اشتملت الخلعة على مقدار خمسين ثوباً ملونة من البز الرفيع ، وكما يمدنا المسيحي بما خلع به الظاهر لاعزاز

(١) يصف المسيحي ما كان عليه زى الخليفة الظاهر عند ركوبه لكسر الخليج عام ٤١٤ هـ

ويقول : كان عليه في وقت نزوله الى مصر قميص مذهب ، وعلى رأسه شاشية مرصعة ، وزيه في طلوع ثياب ديبقى ، وعلى رأسه عمامة شرب مسكر مذهبية « - أخبار مصر ، ص ٣٠ - ٣١ .

دين الله على محمد بن علي بن ابراهيم الرسى نقيب الطالبين في عام ٤١٤ هـ ، وكانت الخلعة عبارة عن ثوب ديبقى مذهب مصنف بأطواق عراض ، ومن تحته ثوب مصمت مذهب ، وغلالة مذهبة وعلى رأسه عماما شرب مذهبة ، يقول المسيحي : « وخرج وفي يده سجل عنوان من عبد الله وولده الامام علي بن أبي الحسن الظاهر ولاعزاز دين الله أمير المؤمنين ابن الامام الحاكم أمير المؤمنين الى نقيب الطالبين محمد بن علي الحسنى الرسى سلمه الله » وهكذا كانت براءة الخلع والتشريف وما جاء فيها من أمثال هذه العبارات ، من قبيل الاشادة بمركزهم الدينى الممتاز وتحقيق المغزى الحقيقى من الدعاية لهم .

والواقع أننا نلاحظ كثرة مثل هذه العبارات التى استخدموها على الملابس والمباني وغير ذلك ، فقد جاء فى قطع النسيج عبارات مثل « الحمد لله رب العالمين ونصر من الله لعبد الله ووليه المنصور أبى على صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وتسليما مما أمر فى طراز الخاصة تونه سنة سبع وثمانين وثلاثمائة . . لا اله الا الله الخير معين ان شاء الله والتوفيق » . وكذلك العبارة التى وردت فى قطعة النسيج الصادرة من طراز العمامة بتأسيس سنة ٤١٢ هـ فى عهد الخليفة الظاهر جاء فيها : « مما أمر بعمله الامام الظاهر لاعزاز دين الله أمير المؤمنين بن الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين صلوات الله عليهم » . وهكذا كانت الدعاية الفاطمية لها أصولها وقواعدها واستخدام المنسوجات فى كل مناسبة والاكتثار من توزيع الكسوات على الناس مما يساعد الى حد كبير على تحقيق هذه الأهداف .

ومما لا شك أن ما كان يحوزه كبراء القوم من الملابس والخلع الثمينة وقطع النسيج وما كتبت عليه من العبارات الدعائية ما يضيق حصره يشهد بذلك ما خلفه الأمير جوهر عند وفاته من الثياب الديباج ، وقد بلغت خمسة وسبعين ألفا ، ولما قتل برجوان فى سنة ٣٩٠ هـ ، وجد له مائتان وأحدى وستون بقجة من القماش وألف قميص حرير اسكندري وألف منديل شغل اسكندرية ، ومائة منديل يعنى عمامة كلها شروب ملونة معمة شائبة .

واشتملت تركة السيدة وشيدة على ثلاثين ألف ثوب خسروانى وعشرين ألف من الثياب المحصنة ألوانا وذلك عند وفاتها عام ٤٤٢ هـ . وتطالعنا المصادر العربية بتلك المقادير من قطع النسيج المختلفة الأشكال والأنواع مما خلعه الخلفاء والوزراء ووجوه الدولة ، مما يحمل المرء على الشك فى مدى صحتها ، فقد ذكر مؤلف كتاب الذخائر : وقومنا ما أخرج من خزائن القصر - يعنى فى سنوات الشدة العظمى - من سائر ألوان

الخسرواني ما يزيد على خمسين ألف قطعة أكثرها مذهب . وأرسل ناصر الدولة يطلب المستنصر بما بقي لغلمانه ، فذكر أنه لم يبق عنده شيء إلا ملابسه فأخرج ثمانمائة بدلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة .

ولا شك أن خزائن الأمراء والوزراء المملوءة بأنواع الكسوات كانت رمزا لمركزهم الأدبي ودليلا على ثرائهم ، وخير شاهد على ذلك ما وجد في خزائن الأفضل عند مقتله في سنة ٥١٥ هـ ، فقد ذكر ابن ميسر أنه وجد له من أصناف الديباج وما يجري مجراه من عتابي وغيره تسعون ألف ثوب وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها ديبقي عمل بتنيس ودمياط ، على كل صندوق شرح ما فيه وجنسه ، وقد نقل الأمر بأحكام الله ما بدار الأفضل إلى القصر ، وكان الخلفاء إذا سخطوا على وزير أو كبير صادروا خزائن الكسوة في داره وحملوه إلى قصورهم أو ربما تصرفوا فيها بالبيع وحصلوا على أثمانها .

وقد بلغ ما أخرج من خزائن الكسوة في أيام المأمون البطائحي وما عمل لكسوة الشتاء بحكم حلوله سنة ٥١٦ هـ أربعة عشر ألفا وثلاثمائة وخمس قطع (٢) . وكانت خلع الفاطميين على الأمراء الثياب الديبقي والعمائم بالطراز الذهب وكان قيمة طراز الذهب والعمامة لا تقل عن خمسمائة دينار ، ويخلع على أكابر الأمراء الأطواق والاسورة والسيوف المحلاة .

وقد استمرت الكسوات والخلع الثمينة يقدق بها الخلفاء على أمرائهم ووزرائهم حتى نهاية دولتهم ، يصف أبو شامة خلعة الخليفة العاضد على صلاح الدين الأيوبي الوزير فيقول : « وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنيسي مطرز ذهب وثوب ديبقي بطراز ذهب ، وجبه تحتها سقلاطون بطرازي ذهب وطيلسان ديبقي بطراز دقيق ذهب ، » وهكذا ظلت خزائن الكسوة في العصر الفاطمي عامرة بالنشاط الحرفي والصناعي ، فقد كشف حاصل الخزائن الخاصة بعد وفاة العاضد سنة ٥٦٧ هـ ، وقيل أن الموجود فيها مائة صندوق كسوة فاخرة من موشى مرصع وعقود ثمينة وذخائر فخمة .

ومن مظاهر تقدم صناعة النسيج أنه لم يقتصر الأمر على استخدام أنواع النسيج لعمل الملابس والكسوات ، بل اتخذ المصريون من انتاج

(٢) المقرئى : الخط ، ج ٢ ، ص ١٣٠ - ١٣٦ .

وقد حفظ لنا المقرئى بيان تلك الكسوة وكذلك ما أخرج في الشهر نفسه من كسوة العبد المسمى بعبد الحلال ، منها ما يختص بالخلقة وأخيه أبى الفضل جعفر والموالى وهم الجلساء من بنى الأعمام ومن البنين والبنات من بنى الأعمام غير الجلساء والاساتذة المحتكين وكتاب ديوان الانشاء ووالى القاهرة ووالى مصر وغيرهم كثير .

المناسج ودور الطراز العامة أشياء لا حصر لها مثل الخيم والمضارب والحصون والقصور والشراعات والمشارع والفساطيط المحمولة من الديبقي والخسروان والديباج والبهنساوى وصنعوا من القماش والمساند والمخاد والمراتب والبسط والمقاطع والستور والعصائب النسائيات والفوط والخرائط للسيوف من الديباج الأحمر والأصفر . كما صنعوا منها البنود والرايات ، وكانوا يحلون مكان الجلد والسروج الديباج الأحمر والأصفر وغيرهما من الألوان ، والسقلاطون المنقوش بالوان الحرير .

وكان الطلب شديدا على مختلف أنواع النسيج ، لتوافر الأموال فى أيدي الفاطميين الأثرياء من التجار وغيرهم من أمراء الاقطاع وعامة الناس حيث كانوا يدخرونها لوقت الحاجة ، ومن هنا كان اقبالهم على شراء النسيج ، سواء احتاجوا اليه أو لم يحتاجوا ، لأنه كان يعد نقدا مدخرا ، خاصة اذا كان من الأصناف الثمينة ، وهكذا أصبحت الأقمشة الفاخرة معدودة من أعيان الثروة فى ذلك العصر (٣) .

وليس من شك فى أن حياة الترف والنعيم التى أدهشت ناصر خسرو ، كما أدهشت الصليبيين من بعده ، قد دعت الى تقدم صناعة النسيج وغيرها من الصناعات فى العصر الفاطمى ، وذلك من حيث الكم والكيف ، كما ألقت أعباء جديدة على الانتاج الصناعى المحلى . ومن الظروف التى ساعدت على النشاط الصناعى أيضا اتساع نطاق العلاقات التجارية مع البلاد الأجنبية . وليس لدينا من دليل يبعث على الاعتقاد بأن الحال تغيرت بين مصر وبيزنطة برغم المنازعات السياسية فقد استمرت المصنوعات المصرية الممتازة مما تنتجه مناسج تنيس ودمياط تصدر اليها . ويظهر أن المنسوجات المصرية الفاخرة تمتعت برواج عظيم فى الامبراطورية حتى أن ناصر خسرو سمع أن أحد الأباطرة عرض على السلطان (يعنى الخليفة) مائة مدينة مقابل تنيس وحدها ، وكان قصده من هذه المدينة القصب والبوقلمون .

ومن المؤكد نتيجة للتوسع التجارى أن مقادير كبيرة من انتاج المناسج المصرية من الأنواع الممتازة والسميكة كان يصدر الى الخارج ، وربما كانت الحكومة الفاطمية تشجع هذا الانتاج الصناعى حتى تستغل الفائض عن حاجة السوق المحلية فى التبادل التجارى كى تحصل على ما يلزم من مواد

(٣) كان كل رجل مسور يحرم على أن يكون لديه تخت ثياب أى صندوق من الأقمشة والثياب المصنوعة ، كما يفعل بعض الناس فى الوقت الحاضر اذ يرغبون فى اقتناء أنواع السجاد المسمى الفالى الثمن . حسين مؤنس : عالم الاسلام ، ص ٣٤٨ .

كالحديد والنحاس والأخشاب وغيرها مما لا يتوافر في البلاد ، وينبغي التنويه عن مجهود الحكومة نفسها في النهوض بصناعة النسيج ، فقد كانت تدير لحسابها عددا من المصانع وتشرف على ادارتها اشرافا دقيقا يكفل لها انتاج الأنواع الفاخرة وبخاصة ما يتصل بكسوة الخليفة نفسه ورجال البلاط الفاطمي ، فضلا عن الكسوة الخاصة بالكعبة الشريفة .

وقد كانت هذه الكسوة ترسل الى مكة ، كما يذكر ناصر خسرو أنها كانت ترسل مرتين في السنة ، وكانت كسوة الكعبة من الديباج الأبيض شعار الدولة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر ، ولم يكن يقتصر الأمر على هذه الكسوة بل انه حدث في عام ٤٤٠ هـ أن هاجر الى مصر من أهل الحجاز نحو خمسة وثلاثين ألفا ، فكساهم السلطان جميعهم ، وأغدق عليهم بالصلوات ، ثم أمر بترحيلهم الى الحجاز .

كما كان من أسباب نشاط صناعة النسيج انشاء العديد من الخزائن الأخرى بخلاف خزائن الكسوة ، ومنها خزانة السروج وكان بها عدد كبير من الصناع لا يفترون عن العمل ، وخزائن الخيم أو القساطيط التي كانت تصنع أقمشتها في دبيق والبهنسا والقيوم وغيرها من دور الطراز الفاطمية ، وقد اشتهر كل من أبي الحسن علي بن الحسن الخيمي ، وزميله أبي الحسن المعروف بابن الأيسر الحلبي بصناعة الخيام المعروفة بالمدورة ، وكانت من عجائب الصناعة .

نقل المقرئزي عن أبي الحسن علي بن الحسن الخيمي أنه أخرج من خزائن القصر أيام المارقين (يعني الثوار من الجند الأتراك) فسطاطا أكبر ما يكون ، يسمى المدورة الكبيرة يقوم على فرد عمود طوله خمسة وستون ذراعا ، ودائر فلكه عشرون ذراعا ، وقطرها ستة أذرع وثلاثا ذراع ، وعدة قطع خرقه أربع وستون قطعة ، كل قطعة منها تحزم في عدل واحد ، يحمل خرقه وحباله وعدته على مائة جمل ، كان أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري قد أمر بعمله أيام وزارته ، فعمله الصناع وعدتهم مائة وخمسون صانعا في مدة تسع سنين ، وبلغت تكاليفه ثلاثين ألف دينار .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الفسطاط الكبير في خلافة المستنصر قام بعمله الصناع على غرار القاتول (٤) ، الذي كان الخليفة العزيز بالله أمر بعمله أيام خلافته إلا أن هذا أعلى عمودا منه وأوسع وأعظم . وكانت تلك الخيام تقام بمناسبة الاحتفال بفتح الخليج وفي المناسبات الأخرى .

(٤) سمي بهذا الاسم لأن فراشا من العاملين في اقامته سقط من أعلاها فمات ، وكان من السمة بحيث يشبه القصر المستدير وتزيد مساحته على فدائين .

أما الخيام التي كانت تقام لرجال الدولة فكانت كثيرة تختلف في قيمتها وفي بعدها أو قربها من خيمة الخليفة ، بحسب درجاتهم وهي من جميع الأنواع والأشكال مصنوعة من سائر الأقمشة كالقماش المزركش الدبيقي ، والقماش الثقيل المخمل ، والقماش الموشى بالديباج من كل الأنواع وكان جميع هذه الخيام مبطنة من الداخل بغرائب النقوش والألوان البديعة وسائر الأشكال منها على شكل القيلة أو السباع أو الخيل أو الطاووس . ومنها ما هو على شكل الطيور والأدميين .

فلا غرو ان احتاجت الى مئات الصنائع والحرفيين لصنع جميع آلاتها من الأعمدة الملبسة بأنايب الفضة ، والثياب المذهبة وغير المذهبة من سائر أنواعها وألوانها . وكانت خزائن الخيم الفاطمية تحتوى على ما تحتاج اليه تلك الفساطيط الكبيرة من الدك والمحاريب والأسرة والعود والصندل والعاج والأبنوس والبقم ومن هؤلاء النجارين وأصحاب الصنعة الشيء الكثير من أجود ما يكون . يذكر ابن ميسر أنه عمل للأفضل بن أمير الجيوش خيمة سماها خيمة الفرح ، اشتملت على ألف ألف وأربعمائة ألف ذراع ، وقائمتها بارتفاع خمسين ذراعاً بذراع ، أنفق عليها عشرة آلاف دينار ، وقد مدحها جماعة من الشعراء .

ولابد لنا من التنويه في هذا المقام عن خزانة البنود التي أنشأها الفاطميون ، وكانت تشتمل على كميات كبيرة من الرايات والأعلام وآلات الحرب ، وكان بها نحو ثلاثة آلاف صانع لصنع هذه الأشياء ومعظمها من أخصر أنواع النسيج (٥) . ومما يذكر أن الخليفة العزيز حينما خرج بنفسه الى بلاد الشام كان جيشه يحمل من البنود نحو خمسمائة من البنود ومثلها من الأبواق .

ومن الجدير بالذكر أنه لم يقتصر على استخدام تلك البنود أو الأعلام في أوقات القتال فقط ، بل كان لها في العصر الفاطمي شأن كبير في سائر الاحتفالات خاصة الدينية مثلها ، وكان الصنائع ينسجون عليها أو يطرزون فيها الشهادتين وبعض الآيات القرآنية أو العبارات الدينية . وقد ازدهرت صناعة البنود في ذلك العصر ، ويشير جروهمان الى خط البنادين في أوراق البردي العربية ، نذكر منها مثلاً عقد بيع مؤرخ في شوال سنة ٤٥٩ هـ .

(٥) كانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير ، بناها الخليفة الظاهر لاغزاز دين الله ويذكر المقرئى نقلاً عن صاحب كتاب الذخائر والتحف أن مبلغ ما كان فيها من سائر الآلات والأمنعة والذخائر لا تعرف له قيمة عظاماً وإن المنفق فيها كل سنة من سبعين ألف دينار الى ثمانين ألف دينار . المخطوط ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .

وقد تعرضت خزانة البنود لالسنة النيران والحريق فى عهد المستنصر وكما ينقل المقرئى كانت لتلك غلبة عظيمة وخوف شديد فيما يليها من القصر ودور العامة والأسواق .

ولم تكن خزائن الفرش والأمتعة أقل من الخزائن الأخرى التى ذكرنا ، وكانت تحتوى على سائر أنواع الفرش الفاخرة مثل المراتب الملونة والأبسطة والحصر السامان المطرزة بالذهب والفضة وبسائر أنواع الصور والستور الحريرية المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها وأطوالها ، ومقاطع القماش المختلفة المنسوجة بالذهب والمحل بالرسوم المختلفة . ولا ريب أن مثل هذه الخزائن كانت تتطلب من أنواع النسيج ومن المواد الخام الشئ الكثير ، فضلا عن آلاف الصناع المهرة فى سائر الحرف والصناعات .

وهكذا يمكن القول بأن خزائن الكسوة والفرش وخزائن الخيم والبنود التى ضمت آلاف الصناع المهرة من الحاكة والحريريين والمذهبين وغيرهم ، كانت من أهم مظاهر التقدم والازدهار لصناعة النسيج فى العصر الفاطمى . ولم يكن تشجيع الفاطميين وتعيينهم لأحد أعيان الدولة للإشراف على دور الطراز الخاصة والعامة المنتشرة فى سائر أنحاء البلاد (٦) ، إلا من أجل تلبية مطالبهم من أنواع النسيج ، ووفاء لاحتياجات هذه الخزائن العديدة ، فضلا عن كفاية حاجة الاستهلاك المحلى والأسواق الخارجية .

(٦) نقل المقرئى عن ابن الطوير أن الخدمة فى الطراز كان لا يتولاها إلا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف وله اختصاص الخليفة دون كافة المستخدمين ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

٥ - مراكز صناعة النسيج وازدهار فن الزخرفة : فى العصر الفاطمى

١ - المنسوجات الكتانية :

ظل الكتان المادة الرئيسية المستعملة فى النسيج بسبب انتشار زراعته فى جهات كثيرة فى مصر وخاصة فى الدلتا والفيوم . وهذا يفسر لنا جانبا هاما من الأسباب التى استدعت تركيز صناعة المنسوجات الكتانية فى مصر الشمالية والوسطى . وقد استمرت الأولى فى صنع الأنواع الدقيقة من الشرب والديبقي والقصب والبوقلمون ، وبلغ من شهرة هذه الأنواع من ثياب الكتان المصرية أنه كانت أكبر مدينة بفارس لصنع ثياب الكتان مدينة كازرون تسمى دمياط « الأعاجم » وكانت أنواع الأقمشة بفارس هى الأنواع المصرية من الديبقي والشرب والقصب ، مما يدل على تلك الصلة الوثيقة بين الصناعتين بمصر وفارس فى أوائل العصر الفاطمى .

ويذكر المقدسى أنه كانت تصنع بمدينة سينيز ثياب تشاكل القصب ، وأنه ربما حمل اليهم الكتان من مصر ، وفى كلام المقدسى هذا دليل على أن صناعة نسيج الكتان نقلت الى فارس من مصر . ولا غرو فقد أعجب المقدسى عند زيارته لمصر فى عهد الخليفة العزيز بالله بمهارة المصريين وتفوقهم فى كثير من الحرف والصناعات على أقرانهم فى الدول الأخرى فهو يقول : « فاما الخصائص فلا نظير لأقلامهم وزاجهم ورخامهم وحليهن وصوفهم وخيشهم وبزهم وكتانهم وصبغهم وغزلهم » .

وقد أحصى (فيت) عالم الآثار من قطع النسيج التى عملت فى دور الطراز المصرية خلال العصر الفاطمى أعدادا كبيرة ، تكشف لنا عن أسماء هذه الدور أو أسماء المصانع الحكومية التى كانت تعمل فى كل من

الاسكندرية ودمياط وتينيس ودميره وبوره ودبيق وشطا وغيرها في منطقة الدلتا ، وكذلك في جهات الفيوم والبهنسا والأشمونين وطحا وغيرها في صعيد مصر ، وتؤكد المصادر التاريخية على صحة ما أوضحته الأدلة الأثرية (١) فمن ذلك ما يشير اليه المقریزی من شهرة تونه وتينيس ودمياط وما تنتجه مصانعها من فاخر الثياب والأقمشة في بداية العصر الفاطمي فهو يقول : « أنه حينما جلس المعز لدين الله في قصره لاستقبال وفود المهنتين ، حمل اليه أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحسيني هديته وكانت أحد عشر سقطا من متاع تونه وتينيس ودمياط . وقال : كنت أشتهى أن يلبس منها المعز ثوبا أو يتعمم بالعمامة التي فيها ، فما عمل الخليفة قط مثلها » .

كان طراز تونه من الشهرة في العصر الفاطمي ، وقد وصل إلينا من قطع النسيج في عهد الحاكم بأمر الله نحو ست قطع ، مما أمر بعمله في طرازها العامة والخاصة وهي بحسب توالي السنين ترجع الى سنة ٣٨٨ هـ ، وسنة ٣٨٩ هـ ، وفي سنة ٣٩٥ هـ وكذلك مما عمل بطرازها الخاص في سنة ٣٩٧ هـ .

ومن مراكز صناعة المنسوجات الكتانية كانت بوره أو بورا Bura وهي من جملة كورة تينيس ، تنتج أنواع الثياب ليس فقط للبلاط الفاطمي ، وإنما لعامة الشعب أيضا ، ومما يدل على ذلك ما ورد من قطع للنسيج التي تحمل طرازها ، منها قطعة باسم الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) .

أما شطا فقد ظل انتاجها من المنسوجات التيلية منذ فجر الاسلام وحتى أواخر العصر الفاطمي ، وكان من أسباب شهرة طرازها أنه كان يعمل بها كسوة الكعبة الشريفة ، وقد جاءت العبارات الدينية للأئمة الفاطميين المنسوجة على طرازها الخاصة والعامة ، دليلا واضحا على اتخاذ المنسوجات وسيلة دعائية من أجل تحقيق أهدافهم السياسية في ذلك الوقت .

وكانت دبقو من النواحي التي اشتغل أهلها بنسج الكتان وكان لها طرازها ، وقد أمدنا (فيت) بالعديد من قطع النسيج التي حملت أيضا

(١) ومن أهم أوراق البردي العربية إحدى الأوراق التي تم اكتشافها في مدينة البهنسا وهي ترجع الى العصر الفاطمي وتتضمن قائمة بأشخاص يملكون أنوالا للنسيج ، وقد أوضحت هذه الوثيقة الهامة أن من هؤلاء الأشخاص من كان يملك أربعة أنوال ومنهم من يملك خمسة ، مما يبرهن على رواج صناعة النسيج واشتغال أهالي البهنسا في غالبيتهم بهذه الصناعة التي كانت فخر الصناعة المصرية في ذلك العصر . جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ٦ ، ص ٧٠ - ٧٢ .

اسم الخليفة الحاكم بأمر الله منها قطعة مؤرخة في سنة ٣٩١ هـ وأخرى مما أمر بعمله في طراز العامة بدبقو ترجع الى سنة ٤٠٣ هـ .

واذا اتفقنا على أن دبِقو كانت هي دبِيق التي أشار اليها المقرئى ، فانه أمكن لأهلها إنتاج أنواع جديدة من المنسوجات في عهد العزيز بالله (٢) ، منها نسيج العمائم الشرب المذهبة ، حيث بلغ طول العمامة منها مائة ذراع وفيها رقعات منسوجة بالذهب ، وكانت تباع بنحو خمسمائة دينار . كما اشتهرت دبِيق في العصر الفاطمى بنسيج القماش المسمى بالدبِيقى الثقيل ، وكان يستخدم في رسم الخرائط عليها بالأصباغ المشبعة .

وربما كانت مدينة تنيس هي أشهر المراكز الصناعية لنسيج الكتان وغيره من المنسوجات في العصر الفاطمى ، وكان من أهم المنتجات نوع القماش المسمى باللقصب الملون وكان ينسج منه الحمامات والوقايات وملابس النساء ، ولم يكن ينسج مثله في أى جهة أخرى والواقع أن أكثر ما ورد ذكره من قطع النسيج في ذلك العصر ، إنما كان من جملة إنتاج تنيس ومن طرازها ، وقد أحصى (فيت) العديد من تلك القطع التي حملت أسماء الخلفاء الفاطميين ، مما عمل في دار الطراز الخاصة والعامة بها ، ويذكر ناصر خسرو أنه كان بتنيس صناع مختصون بنسيج ملابس السلطان (يعنى الخليفة الفاطمى) ويقول : « وقد سمعت أن عاملا نسج عمامة السلطان ، فأمر له بخمسمائة دينار ذهب مغربى ، وقد رأيت هذه العمامة ويقال انها تساوى أربعة آلاف دينار مغربى » ومهما كان لون المبالغة في رواية ناصر خسرو فانها تدل على مدى مهارة الصناع والنساج في مدينة تنيس .

ولا غرو فقد انفردت هذه المدينة بعمل ذلك الثوب الشهير الذى يقال له « البدنه » للخليفة الفاطمى ، حيث كان لا يدخل من الغزل سدهاء ولحمته غير أوقيتين وينسج باقيه من الذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة ، وتبلغ قيمته ألف دينار .

ويشير ناصر خسرو الى أن ملك فارس أراد أن يعمل له في تنيس

(٢) تقع دبقو بين القرمات وتنيس على ساحل البحر المتوسط ، وقد وردت في كتاب الخطط للمقرئى باسم دبِيق بتقديم الباء على الباء وقال أنها من قرى دمياط وينسب اليها الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة والدبِيقى العلم المذهب . وقد اندثرت ومكانها اليوم يعرف بتل دبِقو بالقرب من شاطئ بحيرة المنزلة في الشمال الشرقى بناحية صان الحجر بمركز فاقوس بمحافظة الشرقية . ابن دقماق : الانتصار ، ج ٥ ص ٧٨ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٣ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .

المصرية على غرار هذا الثوب ، وأرسل رسله الى تنيس بعشرين ألف دينار ، وقد بقي رسله بالمدينة ، عدة سنين ولم يستطيعوا الحصول عليه ، ومهما كان مبلغ الصندق في روايته أيضا إلا أنها تعبر في جلاء عن مدى شهرة تنيس وتفوق أهلها في صناعة النسيج في ذلك العصر . ولا غرو فقد انفردت تنيس بنسيج القماش المسمى البوقلمون ، حيث كان لا ينسج في مكان آخر من جميع العالم ، وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار ، وتحمل أثوابه من تنيس الى المشرق والمغرب وقد علق آدم متر على هذا النوع من القماش وقال : « وفي القرن الخامس الهجري ظهر نوع جديد من القماش وهو المسمى « أباقلمون » . وهو قماش يظهر للرائي في ألوان متقلبة ، وكان يصنع في مدينة تنيس وحدها ، وقد أشرنا من قبل الى اسباب ظهور مثل هذا النوع من الأقمشة وقدرة الصباغين في استخدام تلك الفصوص والاحجار التي اطلق عليها المسعودي ذات الاسم قبل قرن من الزمان .

ويمدنا ابن بسام بصورة صادقة عن نشاط أهل تنيس واشتغالهم بحرفة النسيج في غالبيتهم ، وكانوا من ذوى اليسر والثراء ، فهو يقول عنها : « وبها من المناسج التي تعمل فيها الثياب خمسة آلاف منسج ، عدد عمالها عشرة آلاف نفس سوى من يطيب أو يرقم من ذكر أو أنثى ، وعدد ما فيها من الأسفاط ألف وخمسمائة سبط ، ومن الرزم ألف رزمة » .

وهكذا تبدو الحركة الصناعية بها ، ولا شك أن الفاطميين شجعوا على نشاط هذه الحركة وعملوا على زيادة الانتاج وجودته ، اذ لم يكونوا ليبخسوا الصناع بل كانوا يبذلون الثمن كاملا لمنسوجاتهم .

ومن الجدير بالذكر أن مدينة تنيس بقيت عامرة بنشاط أهلها الصناعي والتجاري الى حين خربها الملك الكامل محمد بن أيوب وهدم سورها وبيوتها في سنة ٦٢٤ هـ (٣) .

(٣) كانت تنيس من أجمل المدن وكانت بالقرب من دمياط قال المسعودي كان طول مدينة تنيس من الجنوب الى الشمال ثلاثة آلاف ذراع وكان عرصها من المشرق الى المغرب ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وثمانين ذراعا . وكان لها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد ، وكان بها عدة مساجد نحو مائة وستين مسجدا ، وبكل مسجد منارة ، وكان بها مائة وثلاثون حماما . ولم تزل عامرة الى سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م حتى جاء اليها نحو اربعين مركبا يسوقها جماعة من الفرنج وحاصروا أهلها ، فلما انهفوا على المدينة هرب أهلها الى ثغر دمياط وتركوا المدينة فاستول عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ثم ألغوا فيها النار فاحترقت كلها ، ثم أخذوا ما قدروا عليه من الخنائم وتركوا المدينة خرابا ورحلوا عنها واستمرت على ذلك الى سنة أربع وعشرين وستمائة (١٢٢٦م) في دولة الملك الكامل محمد بن أيوب فأمر بهدم ما بقي من سورها وبيوتها واستمرت خرابا ، ولم يبق منها سوى رسومها في وسط بحيرة المنزلة الحالية .

وكانت دمياط تلى تنيس في الأهمية من حيث اشتغال أهلها بحرفة النسيج ، وكانت تنتج في العصر الفاطمي القصب الأبيض ، ويحتفظ متحف الفن الاسلامي بالعديد من قطع النسيج الصادرة من دار الطراز الخاصة والعامة ، وخاصة في عهد الحاكم بأمر الله . وقد استمرت مصانعها تنتج أنواع المنسوجات الكتانية الرقيقة والتي عرفت بالقماش المسمى « دق دمياط » يتضح لنا ذلك من القطعة التي عملت بطرازها الخاص ، وهي تحمل اسم الخليفة المستعلي بالله (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ / ١١٩٤ - ١١٠١ م) .

وكان يشرف على دور الطراز في العصر الفاطمي موظف كبير من الأعيان والأماثل ومن أرباب العمائم والسيوف ، يتبعه مائة رجل لتنفيذ الاستعمالات بالقرى ، تحت امرته عشاري ديماس وثلاث مراكب من الدكاسات (٥) ، ولها رؤساء ونواتية نفقاتهم جارية من مال الديوان .

ويذكر القلقشندي أن صاحب الطراز كان له اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين ، ومقامه بدمياط وتنيس وغيرها من مواضع الاستعمالات . ومن عنده تحمل المستعمالات الى خزانة الكسوة . وكان الخلفاء اذا احتاجوا الى صنع شيء من الأمتعة والفرش وغيرها من المنسوجات ، صدرت به تذكرة من ديوان الخزانة وسيرت الى موظفي الطراز مقرونة بما تقرر من نفقاتها من المال والذهب المفزول . ويذكر المقرئزي أن تذكرة الطراز في أيام الأفضل بلغت واحد وثلاثون ألف دينار ، ثم اشتملت أيام الوزير المأمون بن البطائح على ثلاثة وأربعين ألف دينار ، وتضاعفت في أيام الأمر .

(٤) نعد هذه القطعة من النخف النخبة من المنسوجات الفاطمية ، وهي عبارة عن عباءة طولها ٣١٠ سم وعرضها ١٥٠ سم ، وقد كانت محفوظة بداخل قارورة صغيرة ، وحفظها على هذه الصورة مع كبير حجمها ، يدل دلالة واضحة على دقة نسيجها ورقته ، وقد استطاع الأساذ فيت أن يقرأ منها « مما عمل في طراز الخاصة بدمياط سنة تسع ٠٠٠ » وعلى أساس ذلك نرجع العباءة هذه اما الى سنة ٤٨٩ هـ او سنة ٤٩٠ هـ ، فهي ترجع الى عهد الخليفة المستعلي . وهي محفوظة الآن بكنيسة سانت آن بمدينة آبت في جنوب فرنسا وقد درس كل من جورج مارسيه وجاستون فيت هذه العباءة دراسة مستفيضة حلا رخارفها وقرأ ما عليها ويرجع محمد عبد العزيز مرزوق أن هذه العباءة كانت مصنوعة من القماش المسمى « دق دمياط » الذي أشار اليه المؤرخون ، والذي وجدت منه مئات الأتواب في تركة الأفضل وزير الخليفة المستعلي ،

Repertoire, tome, 8, No. 2874, pp. 36-37.

الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٥) الدكاسات نوع من المراكب التي كانوا يخصصونها في العصر الفاطمي لكبار رجال

الدولة ، سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ، ص ٣٤٢ .

وكان لكل دار طراز ناظر ومشارف وعامل وشاهد ، وذلك من أجل التنظيم والاشراف الدقيق على صناعة النسيج فى كل مراحلها ومراقبة الصناع بها ، حيث كانت تلك المصانع الحكومية تختص بصنع ما يلزم لخزائن الكسوة والفرش والامتعة ، لا سيما دار الطراز الخاصة التى كان لا يباع انتاجها لأفراد الشعب .

وكان النسيج فى دور الطراز يعملون بالأجر ، أما فى المصانع الأهلية فكانوا يعملون لحسابهم ، حيث يأتى الناس بالغزل اليهم ليقوموا بنسجه وهذا يسمونه بالقبالة ، أو أنهم كانوا يشترون الغزل وينسجونهم لحسابهم ثم يقومون ببيعه بعد ذلك . ويبدو أن بعض السماسرة كانوا يتولون هذا العمل ، فيسلمون الغزل الى عمال يقيمون فى غرف يستأجرونها لهذا الغرض ويقوم النساجون بنسجها ، ثم يسلمونها أثوابا ، كما كان يحدث فى دمياط وغيرها ، وقد عبر القزوينى عن ذلك عند وصفه لمدينة دمياط ونشاط أهلها بقوله : « ومن طريف أمر دمياط فى قبليها على الخليج غرفا تعرف بالمعامل يستأجرونها من الحاكم لعمل ثياب الشرب فيها ، فان عمل بها ثوب ونقل الى غير هذه الغرف ، علم بذلك السمسار المبتاع للثوب ، وينقص من ثمنه لاختلاف جوهر الثوب ، وهكذا كان السماسرة يسيطرون على ما تنتجه المناسج الأهلية فى دمياط ويبيعونه بمعرفتهم بعد ذلك .

وكما أشرنا من قبل فان صناعة المنسوجات الكتانية لم تكن قاصرة على تنيس ودمياط وغيرها من قرى الدلتا ، بل ان جهات عديدة مثل بنشا ودلاص وأنصنا وأشمون كان يشتغل أهلها بحرقه النسيج ، وخاصة الأقمشة التيلية . وقد توطدت صناعة مثل هذه المنسوجات خلال العصر الفاطمى فى مصر الوسطى بسبب اعتماد هذه المنطقة على ما كان يزرع فى الفيوم من الكتان .

وكانت أهم المراكز الصناعية فى تلك المنطقة أهناس والبهنسا والأشمونين ، وكان أهل البهنسا يصنعون الستور المنسوبة اليها وينسجون المقاطيع والمضارب الكبار والثياب المحبرة . واشتهرت كذلك بصنع الفساطيط الكبار والطرف السلطانية ، ومما لا شك فيه أن عمال النسيج فى البهنسا وغيرها من تلك المراكز كان عليهم أن يزدوا من انتاجهم لتلبية احتياجات البلاط الفاطمى ، وما أشار اليه المؤرخون من حياة الترف التى عاشتها الخلافة الفاطمية لا يقع تحت حصر ، ويكفى دليلا على ذلك ما جاء فى وصف خزائن الفرش والامتعة والخيام وما كانت تحتويه من عجائب الستور والفساطيط المصورة .

وقد ذكر ابن حوقل أن الفيوم كان يسكنها في أيامه - أي في أوائل العصر الفاطمي - الصنّاع وأرباب الحرف والنساجون خاصة ، ولكنه لم يحدد نوع المادة التي استخدمها هؤلاء النساجون ، ومن المرجح اشتغال بعضهم بعمل المنسوجات الكتانية وذلك بالإضافة إلى عمل الجيش .

٢ - صناعة المنسوجات الصوفية :

اشتهرت منطقة مصر الوسطى بصناعة الصوف ونسجه في العصر الفاطمي ، وذلك بسبب وفرة الصوف لكثرة تربية الأغنام على أيدي القبائل العربية التي استوطنت في القرن الخامس الهجري وتفوقها من حيث الجودة . على كل من صوف أرمينية وجزيرة كريت .

ومن أهم مراكز نسج الصوف في تلك المنطقة كانت طحا ، وكان يشتغل أهلها بعمل ثياب الصوف الرفيعة . ويشير ابن حوقل إلى شهرتها في أوائل العصر الفاطمي ، ويقول : « أنه كان فيها غير طراز » مما يدل على رواج صناعة النسيج بها . وذكر أبو صالح الأرميني مركزا هاما لعمل النسيج من شعر الماعز وهو سمالوط وقال عنه أنه لا مثيل له في العالم .

أما مدينة القيس الشهيرة بانتاجها من نسيج الصوف منذ عصر الولاة ، فأنها كانت من أهم المراكز الصناعية في العصر الفاطمي ، يعزز ذلك ما ذكره ياقوت عن نشاط أهلها واشتغالهم بحياكة ثياب الصوف . كما يتحدث المقرئ عن طرازها ومدينة البهنسا فيقول : « ولهم طراز القيس والبهنسا في الستور والمضارب يعرفون به ومنه طراز أهل الدنيا » والواقع أنه كان لأهالي البهنسا نشاط كبير في صناعة النسيج خلال العصر الفاطمي ، ولم يقتصر عملهم على المصانع الحكومية بل كان كثير ، منهم يملك الأنوال العديدة (٦) .

ومن أهم مراكز النسيج في العصر الفاطمي كانت مدينة أسيوط ، فقد ذكر ناصر خسرو أنهم كانوا ينسجون في تلك المدينة عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها في العالم (٧) ، والصوف الدقيق الذي يعمد إلى بلاد

(٦) ذكر جروهمان أن بعض الأشخاص في مدينة البهنسا كان يملك أربعة أو خمسة أنواع ، مما يدل على أنهم كانوا يعملون لحسابهم أو في مصانعهم الأهلية .

أوراق البردي العربية ، ج ٦ ، ص ٧٠ - ٧٢ .

(٧) يقول ناصر خسرو : « وقد رأيت في أسيوط فوطه من صوف الغنم لم أر مثلاً لها في لاهور أو ملتان وهي من الرقة بحيث تحسبها حريرا » سفرنامه ، ص ٧١ .

فارس المسمى الصوف المصرى ، وقد اشتهرت به مصر فى ذلك الوقت ، وكانت تصدر منه مقادير كبيرة الى الاقطار الأخرى .

وكانت اخميم بها مناسج حكومية تعرف بالطراز ، وكان ثمن الثوب من الطرز الصوف الرقيق أو المعلم أو المطرف من الكتان يبلغ عشرين دينارا . وقد ظلت اخميم محافظة على شهرتها فى انتاج أنواع الفرش الأنماط (٨) التى أشار اليها المقريزى وأطلق عليها لقب الأنطاع ، وكانت تصدر منها الى سائر البلاد الأخرى فى العصور الوسطى .

٣ - صناعة نسيج الحرير :

لم تلبث القاهرة بعد تأسيسها فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، أن ازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية . فقد أنشأ الوزير يعقوب بن كلس دارا لصناعة الديباج والحرير برسم البلاط الفاطمى (٩) . كما شجع الخليفة العزيز بالله على انتاج نوعين جديدين من النسيج ، النوع الأول هو العتابى والثانى ما يسمى بالسقلاطون ، وينسب الأول الى بغداد والثانى الى بلاد الروم .

ومما لا شك فيه أن الفاطميين وقد رغبوا فى التفوق على بغداد فى مظاهر حياتهم ، فإنهم لم يتوانوا فى البحث عن الأنواع الممتازة من منسوجات الحرير وغيرها فى الدول المعاصرة ، حتى يصنع مثلها فى مصر . وبؤيد هذا الاتجاه ما أشار اليه المقريزى من تكليفهم بعض الوكلاء فى شراء التحف النادرة والأنواع الثمينة من سائر الجهات . ولم يكن نوع العتابى الا الثياب الحريرية التى كانت تصنع فى بغداد (١٠) ، ويمكن

(٨) الأنماط هى البسط التى تفرش وبانها يسمى الأنماطى ، وكانت تستخدم كذلك فى صناعة الستور التى توضع على الهودج فوق الجبال والمظية السروج .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣١١ .

(٩) المقريزى : المخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ .

الديباج هو قماش لامع ويعتبر تقليدا للحرير الصينى ، وهى كلمة فارسية تعنى لباس السروج ، عبد المنعم ماجد . تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، ص ١٢٢ .

(١٠) كانت تصنع فى محلة العنابية ببغداد وتنسب اليها ، وهى ثياب مخططة تحاك من خيوط القطن والحرير ، وكانت هذه المنسوجات تصدر من بغداد الى أنحاء أخرى من العالم الاسلامى ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١١ ، الكبيسى : أسواق بغداد ، ص ١٧٠ .

القول بأن العلاقات الطيبة التي سادت بين الخليفة الفاطمي العزيز بالله وبين عضد الدولة كانت تسمح بذلك . كما عمل الفاطميون على نقل الحبرات الفنية من أجل انتاج نوع من القماش السقلاطون المنسوج من الحرير وذلك من بلاد الروم .

وتشير الدراسات الى أن الفاطميين قد بذلوا جهدهم في أن يستحذوا، على تجارة الهند من أيدي منافسيهم العباسيين ، وكان من أهم غلات الهند والصين التي تجلب الى مصر الحرير والغضائر والكاغد والدار صيني . وكانت تنقل عن طريق عدن وجده ، ولها سوق رائجة لدى المصريين خلال العصر الفاطمي . وهكذا أصبح من الميسور الحصول على الحرز والمادة الخام اللازمة لنسج الحرير . وهناك اشارة واضحة وردت ضمن أوراق الجنيزة تذكر لنا قوائم البضائع التي أرسلت من موانئ عدن الى مصر ، ومنها أقمشة حريرية وملبوسات وزجاج في ذلك الوقت .

وكانت هناك أصناف من المنسوجات الحريرية لا تصنع الا للخليفة الفاطمي نفسه ، ومع ذلك فقد انتشر استخدام نسيج الحرير ، فكان أفراد الشعب يحصلون على أقمشة نفيسة ، تفصل منها الجلابيب والقمصان والعمائم والأحزمة وتزينها شرائط من الحرير أخذ حجمها في الزيادة حتى صارت في القرن السادس الهجري معظم الأرضية في الأقمشة . يعزز ذلك ما أشار اليه الدمشقي وهو من علماء ذلك القرن الى استخدام الديباج في أغراض متنوعة ، فمنه يصنع نوع من الثياب وما يحتاج منه في صناعة الفرش وغير ذلك (١١) .

ويصف المسيحي لنا قصر الذهب في عهد الخليفة الظاهر ، وقد تزين بالبسط وعلقت فيه الستائر الديباج والستور المذهبة الحسان ، وجميع السقائف علق عليها بالستور وفرشت بالفروش ، مما يدل على كثرة الأغراض التي كان يستخدم فيها نسيج الحرير في العصور الفاطمية .

ومن أهم مراكز صناعة المنسوجات الحريرية كانت الاسكندرية ، فقد ظلت تنتج منها أفضل الأنواع خلال العصر الفاطمي ، وخير دليل على ذلك ما تذكره المصادر التاريخية لنا ، فقد خلفت ست الملك عند وفاتها ثلاثين قطعة من شقق الحرير الأحمر ، ولما قتل برجوان الصقلي في عهد

(١١) ويصف الدمشقي : نوع الحرير الجيد أو الديباج المستخدم للباس أو الفرش فيقول : « وأفضله ما حسن صبغه وانتظمت نقوشه ودق حريره ، وصفي نسجه وأشرق لونه وثقل وزنه وسلم من النار في جندرة » .
الإشارة الى معاسن التجارة ، ص ٩٥ .

الحاكم بأمر الله وجد له ألف قميص حرير اسكندري . ويذكر ابن ميسر فيما خلفه الأفضل حيث وجد له من أصناف الديباج وما يجرى مجراه من عتابي وغيره تسعون ألف ثوب ، لعلها من انتاج الاسكندرية وكانت شهرة الاسكندرية في ذلك الوقت عظيمة حتى أن الصناع المصريين في غيرها من المراكز الصناعية كانوا يقلدون انتاج مناسجها ويبيعونه على أنه المصنوع بها . وقد أحصى فيت في كتابه جامع الكتابات الكوفية قطعتين من الحرير .

أما عن مدينتي ثنيس ودمياط التي عمت شهرتهما الآفاق في ذلك العصر في صناعة النسيج ، فتشير المصادر الى صناعة الشرب بهما ، وهو نوع من القماش الشفاف (Chiffon) وكانت تدخل في صناعته خيوط حريرية أو مذهبية ، كما كان يدخل في صناعة ثوب الخليفة الشهير « بالبدنة » نوع من الحرير المرقوم . ولعل تلك الهدية التي بعث بها صلاح الدين الأيوبي الى نور الدين في دمشق ، كانت من انتاج طراز هاتين المدينتين ، وكانت تشتمل على أربعة وعشرين ثوبا من الحرير ومثلها من الوشي الحريرية .

وكذلك كان أهل أبوان أو الأبوانية من الأقباط يعملون في انتاج نوع من الشرب الفائق على غرار ما كان يتم نسجه في مصانع ثنيس .

كذلك كانت سمناي مشهورة بنسيج الأقمشة الحريرية ويبدو مما ذكره المقريزي عنها أنها كانت عامرة بأهلها في العصر الفاطمي ، وأنهم كانوا يحترفون كثيرا من المهن والصناعات .

أما بالنسبة لمدينة القسطنطاط ، فإن المصادر لم تذكر شيئا عن نوع النسيج الذي كان يصنع منه قماش الفستان (Fustian) المنسوب اليها ، والمرجح أن يكون من الحرير الذي كان يصنع في الاسكندرية وفي دبيق وغيرها من الجهات السابق ذكرها . وليس من المستبعد أن يكون هذا النوع من القماش الحريري من صنع طراز مصر أو القسطنطاط نفسها ، ومما يعزز ذلك القول ما أشار اليه الشيزري في حديثه عن الحريريين وحوانيتهم بها ، وقد أوضح لنا شيئا عن أعمالهم وما كان يجب عليهم من حيث عدم قيامهم بصباغة القز قبل تبييضه لئلا يتغير لونه بعد ذلك فهو يقول عنهم : « ومنهم من يثقل الحرير بالنشأ المدير ، ومنهم من يثقله بالسمن أو الزيت ونحو ذلك » مما يدل على اشتغالهم بتجهيز واعداد نسيج الحرير قبل بيعه واستعماله في اللباس أو الستور ونحو ذلك .

ونحن لا نستبعد قيام الصناع في دار الطراز بمصر (القسطنطاط) بنسيج اثياب الحريرية ، خاصة بعد أن غدت عاصمة البلاد حتى مجيء

الفاطميين الى مصر وتأسيسهم لمدينة القاهرة ، ومن المرجح أن يكون محمد ابن جعفر التميمي قد زاول حرفة القزازة منذ صغره بمدينة الفسطاط ، وكان قد اشتهر بتلك الحرفة وعرف بالقزاز ، حتى بعد أن ذاع صيته وبلغ تلك المنزلة السامية في علوم العربية والنحو ، يقول ابن خلكان عن شهرته : « ان القزاز فضح المتقدمين وقطع السنة المتأخرين » . وليس هناك ما يمنع اشتغاله بالحرفة وعلم النحو في نفس الوقت ، تماما كما كان شأن بعض الفقهاء وغيرهم من أهل العلم والأدب في العصور الوسطى .

ومن المعروف أن حرفة القزازة كان صاحبها يقوم بنسج الحرير وبيعه بعد ذلك ، حيث كان بعض الحائكين يملكون المحال الصغيرة لمزاولة المهنة ، وقد روى ابن الزيات عن أبي محمد بن أبي الفرج بن ابراهيم المعروف بالكيزاني أنه كان له معمل قزازة وكان يدير الدولاب بيده . كما أشار ناصر خسرو الى كثرة المحلات الصناعية والتجارية بالفسطاط وقال : انه كان في مدينة مصر وحدها مائتا خان لبيع المنسوجات ايجار الواحد منها كان لا يقل عن اثني عشر ألف دينار في السنة .

ويتبين لنا من أوراق البردي أن مدينة الأشمونين في منطقة مصر الوسطى كانت احدى مراكز حرفة القزازه ، فقد أشارت الأوراق الى وجود عدد كبير من القزازين أو ناسجي الحرير بتلك المدينة ، نذكر من هؤلاء قلته بن كيل وقد ورد اسمه في عقد مؤرخ يرجع الى سنة ٤٤١ هـ ، أبو العلا القزاز وجاء اسمه في عقد مؤرخ سنة ٤٤٢ هـ .

ومن أسماء الحائكين أيضا التي ذكرتها أوراق البردي قلته القزاز ، ورد اسمه في عقد مؤرخ سنة ٤٥٩ هـ ، وأيضا عبد المسيح القزاز ، وقد ذكر في عقد يرجع تاريخه الى سنة ٤٦٠ هـ . وهكذا تكشف أوراق البردي عن ازدهار صناعة نسج الحرير في تلك المدينة في العصر الفاطمي ، وخاصة في عهد الخليفة المستنصر .

وعلى كل حال فمهما تعددت مراكز نسج الحرير في ذلك العصر ، فانها لم تكن تكفي حاجة البلاد من الأقمشة الحريرية (١٢) ، وعلى الرغم من تلك القيود التي أشار اليها فقهاء أهل السنة في استعمال الرجال لهذا النوع من النسيج ، فانه يبدو مع حياة الناس في ظل الحكم الفاطمي ، وما نعموا به من الاستقرار والثراء أن كانت مصر تستورد من صقلية

(١٢) الملح المتريزي الى أن المصريين كانوا يقومون بحضانة دودة القز في برمهات من الشهور القبطية ، ولا تكفي تلك الإشارة العابرة للنهوض دليلا على أن مصر كانت من البلاد التي تعنى بتربية دودة القز من أجل انتاج الحرير . الخطط ، ج ١ ، ص ٥٠٩ .

ما ينسج بها من الأنواع الفاخرة (١٣) ، وكان بها وفرة فى الانتاج على عكس الحال فى الديار المصرية ، فقد ذكر ناصر خسرو أن السفن كانت تتوجه من موانئ مصر الى هذه الجزيرة وتعود محملة بالمنسوجات من الثياب المنقوشة ، وكانت القطعة الواحدة تباع فى أسواق مصر بعشرة دنانير مغربية .

كما كانت أسواق الحرير بمدينة الاسكندرية ، وكانت تتراوح أسعاره ما بين سنة ٤٥٢ - ٤٩٤ هـ ، ما بين ٢١ ، ٢٣ ديناراً لكل عشرة ارطال كما كان تجار الغرب يدفعون لتجار الشرق ثمن السلعة حريراً بدلاً من الذهب .

ويمكن القول بأنه مهما كان اختلاف الباحثين حول المناسج المصرية وانتاجها من الأقمشة الحريرية الخالصة قبل عصر المماليك ، فإن ما أوضحته قطع النسيج يعنى أن الأمر لم يقتصر على خيوط اللحمة الملونة فى نسيج الحرير ، بل أمكن استعماله كذلك فى خيوط السدى ، وأصبحت كلها منسوجة من الحرير خاصة فى أواخر العصر الفاطمى .

ازدهار فن الزخرفة فى العصر الفاطمى :

قسم علماء الفنون والآثار المنسوجات الفاطمية من حيث الزخرفة الى أربعة أنواع تمثل العصور الرئيسية فى تاريخ الدولة الفاطمية ، وقد ضم متحف الفن الاسلامى بالقاهرة مجموعات من قطع النسيج توضح لنا حقيقة التطور فى هذا الفن ، وما برع فيه النساجون والمزخرفون المصريون من تفوق وازدهار . كما يضم من الشواهد المنحوتة من الحجر الرملى ، ما يحمل أسماء المطرزين فى ذلك العصر (١٤) .

فالنوع الأول وينسب الى عصر المعز والعزى والحاكم ، كان قوام زخارفه أشرطة من الكتابة توازيها أشرطة أخرى ، بها جامات بيضاوية الشكل يتداخل بعضها فى بعض وعليها رسم حيوان أو طائر أو ورود . كما يتضح من القطعة المحفوظة بمتحف المتروبوليتان وعليها نقش يتضمن

(١٣) اتفق علماء الآثار على ضم المنسوجات المصنوعة فى جزيرة صقلية الى النسيج الفاطمى وذلك لحضوع تلك الجزيرة للغواطم مدة قرنين من الزمان . سعاد ماهر : النسيج الاسلامى ، ص ٨٧ .

(١٤) عشر على أحد الأحجار بجبانة أسوان مؤرخ فى شعبان سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م باسم « جمال أم ولد على بن عبد الله المطرز » والمطرز هو الذى يشتغل بالتطويز على القماش أى بالزخرفة . حسن الياسا : الفنون الاسلامية والوظائف ، ج ٣ ، ص ١١٠٧٦ .

اسم الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٦ هـ - ٣٨٦ هـ) ، وحروف تلك القطعة رشيقة وهي منسوجة من الحرير الأصفر ، ومحددة بخيوط زرقاء .

وأمكن للصانع المصري أن يبتكر العديد من التصميمات الجديدة التي لم تكن معروفة قبل مجيء الفاطميين الى مصر ، منها تلك القطعة التي نسجت في طراز الخاصة بدمياط في سنة ٣٨٧ هـ . كما أصبحت الكتابة الخطية عنصرا زخرفيا تميز بالجمال والتنوع في العصر الفاطمي ، ومن ذلك القطعة التي تزdan بزخرفة نباتية يعلوها سطر من الكتابة الكوفية يتضمن اسم اليازوري وزير الخليفة المستنصر ويظهر من هذه الكتابة أنها نسجت في طراز العمامة بمدينة تنيس سنة ٤٤٣ هـ . وثبتت أنواع الزخرفة بها أنها تنسب الى عصر الظاهر والمستنصر أو النوع الثاني بحسب التقسيم المصطلح عليه . وقد تنوعت الأشربة الزخرفية واتسعت ، وقوامها جامات عليها رسوم وطيور وحيوانات ، تحيط بها سطور من الكتابة الكوفية ، كما نرى الصانع وقد ملا الفراغ الموجود بين سيقان الحروف بزخرفة هندسية قوامها دوائر بداخلها نقط قد نسق وضعها .

وكانت الكتابة على قطعة النسيج تشمل اسم الخليفة وحده أو مع اسم الوزير الذي أمر بصنعها ثم مكان الصناعة وتاريخها ونوع الطراز وأحيانا يكتب اسم المشرف أو صاحب الطراز ، ومن النادر ذكر اسم الصانع نفسه ومن ذلك القطعة التي حملت اسم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ، والتي عملت بطراز العمامة بتنيس سنة ٤١٢ هـ .

ومن أقدم المنسوجات المؤرخة قطعة كبيرة من الكتان عليها اسم الخليفة الظاهر ، ويزينها شريطان على كل منهما صف من الجامات الحمراء المتبادلة مع جامات أخرى سوداء ، وبداخل الجامات رسم طيور وعقبان . وقد أنتجت المصانع الفاطمية في تلك الفترة قطع من النسيج وفيها أكثر الصناعات من استعمال خيوط الحرير من مختلف الألوان مع مراعاة التناسق التام واستخدام الخيوط الذهبية ، يصف ديماندا لنا قطعة من نسيج الكتان أيضا حيث تزينها أشربة أفقية ويزين الشريط الأوسط منها رسم أزواج من الصقور على أرضية خضراء والأشكال المستخدمة في الزخرفة من نسيج الحرير والخيوط المصنوعة من الجلد المطروق بالذهب (١٥) . ويتجلى

(١٥) كان الصانع في ذلك الوقت يقطعون الذهب الى صفائح رقيقة ، ثم يسحبون تلك الصفائح الى خيوط ، ثم يقومون بصف الحيوط الذهبية مع خيوط من الجلد أو الكتان أو غيرها من مواد النسيج ، ويرجع استخدام الذهب في النسيج الى ما قبل الميلاد ، ولعل المصريين القدماء كانوا أول من ابتدع طريقة استخدام الحيوط الذهبية في زخرفة النسيج ، مرزوق : الزخرفة المنسوجة ، ص ١٠٦ .

ذلك فيما عمل بطراز تنيس في عهد المستنصر ، خاصة الثياب الخلفية المسماة بالبدنة . وقد أحييت مصر هذه الصناعة في العصور الوسطى .

كما نلاحظ استمرار تطور فن الزخرفة فيما نسب الى عهد الخليفتين المستعلي بالله والآخر بأحكام الله (٤٨٧ - ٥٢٤ هـ / ١٠٩٤ - ١١٣٠ م) فقد أحدث النساجون تطورا في أسلوب الزخرفة ، وظهرت عناصر جديدة مثل الأشرطة والجداول التي تتموج وتتداخل ، ويدخل بينهما جامات تضم رسوم طيور وحيوانات وكؤوسا ، تتخللها سطور من الكتابة الكوفية تتضمن اسم الخليفة ووزيره . وقد ضم متحف الفن الاسلامي العديد من القطع التي توضح ذلك (١٦) .

أما النوع الأخير ويرجع الى أواخر العصر الفاطمي ويشمل عهد الخلفاء الحافظ والظاهر والفائز والعاقد (٥٢٤ هـ - ٥٦٧ هـ) فكان أهم ما تميز به من فنون الزخرفة هو استخدام الحرير الذهبي اللون ، لما كان له من مكانة ممتازة في النفوس ، فكثر استعماله في زخرفة المنسوجات ، وكذلك استعمال خط النسخ المدور لأول مرة على المنسوجات ، حيث أصبح هذا النوع من الخط هو المفضل في العصر الفاطمي الأخير ، فكان يجذب نظر الرائي بشكله الفخم ومنظره الرائع . ولا شك أن هذه التقسيمات الأربعة من حيث الفنون الزخرفية تثبت مدى نشاط الرسامين والصباغين وغيرهم من العاملين في صناعة النسيج ، كما تدل على ما تميزت به أعمال الزخرفة وقد صارت اسلامية بحتة خلال العصر الفاطمي ، وإن كانت لم تغل تماما تلك الزخارف من سمات العلاقة بماضيها في وادي النيل .

وهكذا نخلص الى القول بأن هؤلاء الحرفيين من النساجين والصباغين والرسامين أو غيرهم من الحريريين والمذهبين ظلوا في حركة دائبة وفي نشاط مستمر داخل دور الطراز الفاطمية وخارجها ، ولم يكن استعمالهم لخيوط الحرير من مختلف الألوان والخيوط الذهبية وغيرها من خط النسخ المدور في أعمال الزخرفة الا دليلا واضحا على مهارتهم ومقدرتهم الفائقة على التنوع والابتكار في مظاهر الزخرفة المنسوجة في كل مرحلة من مراحل صناعة النسيج ، والتي أصبحت تعد بحق فخر الصناعة المصرية أيام الفاطميين .

(١٦) كانت خيوط الذهب عبارة عن أمعاء الحيوانات لصفت بها صفائح الذهب ، وقد كانت تصدر هذه الخيوط بكثرة من ميناء الاسكندرية . مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ١٠٦ .

الفصل الثانى

حرفة الوراقة وفن الكتابة

- ١ - صناعة البردى فى عصر الولاة .
- ٢ - الوراقة فى عهد الطولونيين والاختشيديين .
- ٣ - صناعة الكتابة فى مصر منذ فجر الاسلام حتى
نهاية عصر الطولونيين والاختشيديين .
- ٤ - ازدهار حرفة الوراقة وفن الكتابة فى العصر
الفاطمى .
- ٥ - الكتاب فى العصر الفاطمى .

١ - صناعة البردى فى عصر الولاة

انفردت مصر بانتاج ورق البردى المستخدم فى الكتابة لجميع شئون الدولة والمجتمع منذ العصور القديمة (١) . وتكاد تجمع المصادر على أن الاسكندرية كانت وحدها الميناء التى تصدر منه أوراق البردى الى سائر بلاد العالم قبل الفتح العربى . ويبدو أن حق انتاج وبيع البردى الذى ظلت الدولة تحتكره فى العصر البطلمى ، قد منح فيما يبدو وفقا للسياسة الرومانية فى تشجيع النشاط الاقتصادى لبعض أهالى الاسكندرية ، وأصبح هناك مصانع حكومية ومصانع أهلية للورق ، وأن هذه المصانع الأخيرة كانت تبتاع حق مزاولتها هذه الصناعة .

ولكن بعد أن صدرت مراسيم الامبراطور البيزنطى جستنيان عام ٥٣٦ م ، ألغى هذا الحق ، وأصبح انتاج البردى قاصرا على مصانع للدولة ويدخل فى الطراز ، وصار على الموثقين العموميين وغيرهم من رجال الادارة البيزنطية مراعاة عدم تحرير العقود الا اذا كانت الورقة الاولى من درج البردى سليمة وهى الورقة التى تحوى أسماء موظفى الدولة المشرفين على انتاج البردى ، وأيضا اسم الامبراطور ورسم الصليب وشعار التثليث . وهكذا كانت الحكومة البيزنطية تحتكر صناعة أوراق البردى .

(١) يضم متحف برلين مجموعة من أوراق البردى ترجع الى العصر البيزنطى ، وقد تم استخدامها على شكل مسودات رسمت عليها طريقة زخرفة النسيج التى كانت شائعة فى ذلك العصر قبل الاسلام وهى طريقة القباطى -

وتشرف عليها اشرافا دقيقا الى حين نجاح العرب فى استيلائهم على البلاد فى منتصف القرن السابع الميلادى .

كان نبات البردى ينمو فى مناطق وجهات متفرقة من مصر وبخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم ، وبعد أن يقطع هذا النبات كانت توضع سيقانه فى الماء لتنعم ثم تنزع عنها القشرة الخضراء ، وتقسم الساق الى شرائح ثم ترص عليها شرائح أخرى أفقية وتغطى بشيء أو أداة ثقيلة ، ويقوم الصناع بعد ذلك بصقلها بآلات من العاج ، وكانت الصحائف يوصل بعضها ببعض فتكون لفائف يسهل استعمالها ، يطلق عليها درج البردى أو الدرج (٢) .

وقد ظل العمل بمصانع البردى جاريا دون تغيير يذكر فى العمال أو فى مستوى الانتاج . كما استمرت هذه المصانع خاضعة لرقابة الدولة بعد الفتح الاسلامى للبلاد . ومن أهم المراكز لصناعة البردى أو القراطيس كما ورد فى القرآن الكريم وعلى لسان العرب (٣) ، كانت بوره ووسيمة وهما من المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط . كذلك كانت افراحون فى شرق الدلتا (٤) ، والفيوم تضم مصانع لانتاج البردى .

ويبدو أن العاصمة الفسطاط كانت توجد بها مصانع للقراطيس منذ وقت مبكر ، حيث يذكر ابن عبد الحكم أن العرب كانوا يختطون حول اصحاب القراطيس الدور والسكن . كما يشير ابن ظهيرة الى أن مدينة اسيوط بالصعيد كانت تضم مصنعا لانتاج البردى أو القراطيس ، ولها طراز خاص بها .

ولا شك أن أهم مصانع الورق أو البردى ما كان يوجد منها بالانكندرية ، فقد اشتهرت منذ العصور القديمة بانتاجها ، وكان من أهم منتجات مصر ذات القيمة الاقتصادية ، حيث كان يتم تصديره الى بيزنطة وغيرها من بلاد العالم الخارجى .

وفى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، حين أمر بتعريب الدواوين وكتابة المراسلات بالعربية ، تنبه الخليفة الى ما كان يكتبه

(٢) أشار المقرئ الى أنه كان يطلق عليها فى صدر الاسلام الصحف المدرجة أو الدرج . المخطوط ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٣) قال الله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » ، سورة الانعام : الآية ٧ .

(٤) وردت فى هذه الجهة بالتعريف فى الفراحون من أعمال الشرقية . ابن الجيعان التبعة السنية ، ص ٦٤ .

الصناع الأقباط في مصر في طراز القراطيس من العبارات المسيحية (٥) ، فكان أن أصدر إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وإلى مصر آنذاك بضرورة تغيير ذلك ، فحلت العبارات الإسلامية في طراز النسيج والبردي المعد للتصدير محل بسملة التثليث ، وكان أن توقف تصدير البردي إلى حين . وعندما اضطرت بيزنطة إلى استيراد حاجتها منه بطرازه الغربي من مصر وكانت المنتج الوحيد ، اضطرت إلى مجاراة الظروف الجديدة ، وعمل الأباطرة البيزنطيين على نقل بسملة التثليث والصليب التي كانت على البروتوكول ، إلى قائمة الوثيقة (٦) .

كان الصناع المصريون يجيدون عمل أنواع من البردي منه ما نعم وغلا ، ومنه ما خشن ورخص حتى قيل أنه كانت المصانع المصرية تنتج سبعة أصناف من ورق البردي ولا شك أن هذه الأنواع الجيدة المستخدمة في الدواوين كانت ياهظة التكاليف غالية الثمن ، ومما يوضح ذلك أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) أصدر تعليماته بالاقتصاد في استعمال الورق (٧) .

وقد ذكر أن دروج البردي منها ما بلغ في طوله ما يقرب من خمسة عشر مترا ، وكان يباع زوج الطومار منه كما تشير أوراق البردي بمبلغ درهم ونصف ، كما يباع الدرج الواحد منها من النوع الجيد بدينار

(٥) كان الطراز على القراطيس في مصر لا يزال يكتب عليه بسملة التثليث ، وقد حدث كما يذكر البيهقي وينقل عنه الدميري ، أنه حينما مر عليه ذلك الطراز ثقت نظره وقال : ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام أن يكون طراز القراطيس وهي تحمل في الأواني والثياب وغيرها وأصدر مرسومه الخاص للكتاب بإبطال ذلك الطراز على ما كان به من ثوب وقراطيس وسائر وغير ذلك وأن يأخذ صناع القراطيس بتطريزها بسورة التوحيد « وشهد الله أنه لا إله إلا هو » ، المحاسن والمساوي ، ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، حياة الحيوان ، ص ١١٥ .

(٦) يذكر Wiêt أنه على الرغم مما قام به الصناع من استبدال ذلك بما يتفق والدين الإسلامي إلا أن الكتاب ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الدولة الرسمية
Precis de l'Histoire d'Egypt, tome 2, p. 147.

(٧) قيل إن أبا نواس في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز شكاً من حاجته إلى الورق فقال :

أريد قطعة قرطاس فتعجزني
وجل صبحي أصحاب القراطيس
لهنهم الله عن ود ومعرفة
إن المياسير منهم كالمفاليح

أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

ونصف (٨) . وقد ذاعت شهرة مصر بانتاجها من البردى أو القراطيس ، وظلت الدولة الاسلامية تستورده منها في صدر الاسلام .

والواقع أن انتاج البردى لم يكن قاصرا في استخدامه أو استغلاله على التصدير والحصول على الدنانير البيزنطية فحسب ، بل كان النساخ المصريون في أعقاب الفتح الاسلامي يستعملونه في كتابة المخطوطات وزخرفتها (٩) ، وكان جلهم من الرهبان في الأديرة القبطية ، حيث ينفقون أعمارهم في نسخ الكتب القديمة وتحلية صفحاتها بأنواع الزخارف وأجمل الألوان .

ومن تلك الأديرة التي ذكرها المقرئزي دير أرض الحاجر بالقرب من أسيوط (١٠) إذ كان يضم عدة نساخ من الرهبان لنسخ الكتب الدينية وخاصة الانجيل ، بالإضافة الى كتب العلوم الأخرى .

وكانت أول بردية كتبت بالعربية في مصر الاسلامية بقلم حنا العمدة والشماس وأبي حديدة ، كما ورد بالبردية من مدينة اهناسيا ، وقد عثر عليها مؤرخة بعام ٢٢ هـ . ويبدو أن كثيرا من رجال الكنائس والأديرة ظلموا يمارسون فن الكتابة والنسخ واعداد المخطوطات والكتب ، ولا غرو فقد مارس الرهبان وغيرهم العديد من الحرف والصناعات داخل تلك الأديرة والكنائس القبطية في عصر الولاة . ويعزى لينبول نبوغ الرهبان الايرلنديين وتفوقهم في أعمال النسخ والنقوش البيزنطية الذهبية والفضية في مخطوطاتهم الى هؤلاء الرهبان المصريين ومحاولة تعليمهم وتدريبهم على الكثير من الحرف ، خاصة أعمال النسخ والكتابة وزخرفة المخطوطات .

كما تبرهن تلك المخطوطات والكتب الدينية الاسلامية على أن المسلمين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام غيرهم من أهل النعمة من الأقباط . ويعد أقدم كتاب مكتوب على ورق البردى أو القراطيس المصرية هو كتاب في الحديث (١١) لأبي محمد عبد الله بن وهب الفهرى المولود عام ١٢٤ هـ أو ١٢٥ هـ ، وقد

(٨) جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١٨٠ .

الطومار والطامور مشتقة من اللفظة اليونانية Tomarian وهي بمعنى اللقاعة وجمع

الطومار طوامير . عبد العزيز الدالي : البرديات العربية ، ص ٣٠ .

(٩) كانت زخرفة الجلد واستخدامه وتغليف المخطوطات والكتب صناعة زاهرة في العصر

القبطي ، واستمرت كذلك في عصر الولاة .

(١٠) كان من جملة أديرة درنكة دير بالقرب من مدينة أسيوط ، وكان يقع على طرف

جبل يطلق عليه : أرافونه وأغرافونا ، ومعناه النساخ . المقرئزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٥٦٠ .

(١١) وهو من جمع عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي ، وقد نشره وعلق عليه

David Wiell ضمن مطبوعات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة عام ١٩٣٩ .

عبد العزيز الدالي : البرديات العربية ، ص ٥٨ - ٥٩ .

عثر عليه بمدينة ادفو بالقرب من أسوان ، ولا ريب أنه كان من عمل النساخين المسلمين ، كتلك المصاحف الشريفة التي نسخت بالخط الكوفي على الرق في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة (١٢) .

ومن الطبيعي أن تكون المصاحف الشريفة ميدانا فسيحا لفن تجويد الخط ، وكان النساخ أو الخطاطون في بداية عهدهم يكتبونها بضروب من الخط الكوفي الذي تطور على أيديهم ، وقد أمكن معرفة الأبجدية لخطوط المصاحف المخففة من أبجدية أحد المصاحف التي نسخت منذ وقت مبكر بخط أحمد بن الاسكافي الوراق ، مما يدل على تقدم حرفة الوراقة وأعمال النسخ والكتابة في عصر الولاة .

وتعد أوراق البردي العربية التي جمعها وعلق عليها جروهمان والتي ترجع الى ذلك العصر ، من أهم الوثائق التي تكشف لنا عن شيوع استخدام الطوامير أو القراطيس ، كما أطلق عليها العرب ، واستغلالها في تحرير العقود والمراسلات وغيرها من أعمال نسخ الكتب والمخطوطات العلمية والأدبية ، ولا غرو فقد انفردت مصر بصناعة هذا النوع من الورق ، فضلا عن شهرة المصريين في صناعة الأقلام والمحابر وأدوات الكتابة الأخرى .

وكان الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون يفضلون القراطيس المصرية على غيرها من تلك المواد الأخرى ، ولا سيما ما كان يستخدمه العرب من اللخاف والعشب كأرضيات للكتابة عليها ، أو ما كان حتى المصريون يستعملونه مثل الألواح الحجرية وكسر الفخار وتلك الألواح الخشبية الموصولة قبل الاسلام .

ويبدو شغف أبي جعفر المنصور واهتمامه بأمر الحصول على القراطيس (١٣) هذه من مصر ، حيث كانت ترد الى أسواق بغداد ، فقد وقف الخليفة العباسي على كثرتها في خزائنه وهم يبيعها اذ أوعز لصاحب المصلى ببيع القراطيس المكدسة حتى لو بيع الطومار بدانق ، في الوقت الذي كان يباع الطومار بدرهم الا أن المنصور عدل عن رأيه هذا وقال

(١٢) يضم معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة مجموعة من المصاحف المخطوطة منها مصحف شريف مخطوط بالقلم الكوفي مكتوب على رق غزال على طريقة أبي الأسود الدؤلي (قاعة المعرض لوحة ٣) .

(١٣) وقد شمل كل من الجزء الأول والخامس والسادس أوراق البردي التي بلغت نحو مائتين وأربع وخمسون بردية في الجزئين الآخرين منها ما يتعلق بحسابات الزراعة والصناع والتجار وعقود البيع وغيرها من شئون المجتمع ، وقد كان (H. Becker) أو من نشر نصوصا بردية عربية ، حيث قام في عام ١٩٠٦ ، بنشر اثنين وعشرين ورقة بردي عربية مما عثر عليه في كوم اشقاو .

عبد العزيز الدالي : البرديات العربية ، ص ٧٩ .

لصاحب المصلى : « فكرت فى كتبنا ، وأنهبنا قد جرت فى القراطيس ،
وليس يؤمن حادث بمصر فتقطع القراطيس بسبب فنحتاج الى أن نكتب
فيما لم نعوده عمالنا فدع القراطيس استظهارا على حالها » .

والواقع أن الجهشيارى لم يوضح لنا أسباب خشية المنصور أو ماهية
الظواهر الطبيعية التى قد تعوق وصول القراطيس المصرية الى عاصمة
الخلافة العباسية ، أم أن أبا جعفر كان يتوقع نفوذ الأمويين وتطلعهم الى
السيطرة على شمال افريقيا ، فتخرج ولاية مصر من قبضة الخلافة لتنضوى
تحت راية بنى أمية فى الأندلس ؟

ومهما يكن من أمر ، فقد ظلت أسواق بغداد تستورد قراطيس مصر
الى أن صارت تزاحمها كواغيد سمرقند فى هذه الأسواق .

كما ظل الصناع فى مراكز صناعة أوراق البردى أو الدروج كما
أشار المقرئى من المصريين الأقباط حتى بداية القرن الثانى الهجرى بدليل
تاك الصيغة التى نجدها على هذه الأوراق التى يرجع تاريخها الى ذلك
الوقت ، حيث تمتع البردى المصرى بشهرة واسعة فى العالم الى نهاية القرن
الثالث الهجرى وبداية القرن الرابع بعد الهجرة .

وتكشف لنا أوراق البردى التى أمكن العثور على بعضها فى القيوم
والقيس والأشمونين وفى كوم اشقاو بسوهاج ، عن رواج صناعة البردى
وشيوخ استخدامه فى شئون الزراعة والمعاملات مثل عقود العمل والايجار
والزواج والبيوع ، فضلا عن أمور الدولة وما يخص الادارة المالية وجوازات
السفر وغيرها . والواقع أن ورق البردى المؤرخ الذى وصل إلينا
ينتهى فى عام ٣٢٣ هـ فى بداية عهد الاخشيديين ، على حين أن الوثائق
المكتوبة على الكواغيد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ ، يشهد بذلك الطراز
المكتوب بتولية أبى موسى عيسى بن موسى النوشرى عاملا على مصر من قبل
الخليفة المقتدر أى بعد زوال الدولة الطولونية وهو على ورق بردى أصفر
يميل الى السواد وتاريخه يرجع الى سنة ٢٩٥ هـ ، ولدينا عقد بيع على
ورق أبيض مؤرخ فى شهر المحرم سنة ٣٤١ هـ ، ولعله كشف بمدينة
الفيشوم .

وهكذا كانت أهمية القراطيس المصرية ، وعلى الرغم من أن الكاغد

أو الورق الأبيض أمكن تصنيعه في بغداد في عهد الخليفة هرون الرشيد (١٤) فانه ظل الخلفاء يفضلونه في أوائل العصر العباسي ، وقد ذكر اليعقوبي أن « الخليفة المعتصم أرسل الى واليه على مصر أن يحمل اليه من يعمل القراطيس وغيرهم من أهل الحرف والصناعات » ونحن لا نشك في أن صناع القراطيس انما كان الهدف من طلبهم صناعة الكاغد أو الورق والمشاركة في اقامة المصانع الخاصة بذلك في مدينة سامرا العراقية الشهيرة » .

ولا شك أن سيادة مصر البردية في عالم الورق وصناعته ، وجدت لها منافسا خطيرا باستخدام الكاغد في الأقاليم الشرقية للدولة الإسلامية منذ منتصف القرن الثاني الهجري/الناامن الميلادي ، الا أن مصانع الورق في شمال الدلتا وفي الاسكندرية ظلت تنتج قراطيس البردي حتى سقوط الدولة الطولونية في مصر وعودة البلاد الى حظيرة الدولة العباسية (١٥) .

ويبدو أن قيام صناعة ورق الكتابة وما يسمى بالكاغد الذي نقلت طريقة صناعته من الصين الى البلاد الإسلامية ، انما جاءت مع الوقت الذي انتهت فيه صناعة الورق المصنوع من البردي وقيام دولة الاخشيديين (١٦) ، وكما قيل في ذلك الوقت من أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر . كما يعزى الى تدهور صناعة قراطيس البردي في العهد الاخشيدى قلة العملات الأجنبية الواردة الى مصر بسبب قلة الصادرات المصرية من البردي .

وخلاصة القول أن مراكز صناعة البردي ظلت تنتج من القراطيس أو الطوامير طيلة ثلاثة قرون بعد الهجرة كما كان الصناع المصريون يعملون منها ما يبلغ طوله ثلاثين ذراعا وأكثر .

(١٤) استولى المسلمون على مدينة سمرقند على يد قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ٩٤هـ ، وقيل انه تم استغلال هؤلاء الأسرى من عمال الصين في هذه المدينة في تطوير صناعة الكاغد أو الورق والعمل على تنقيته من الشوائب ، بحيث أصبحت سمرقند بعد فترة قصيرة من أهم مراكز صناعة الكاغد . وقد انتقلت صناعته من سمرقند الى بغداد حينما أشار الوزير العباسي الفضل بن يحيى البرمكي على الرشيد بضرورة اقامة مصنع للورق ، وأمر اخاه جعفر بالعمل على احلال الورق المصنع داخل بغداد محل الورق في دواوين الدولة .

قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٤٠٨ ، آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٣٤ - ١٣٥ . (١٥) يقول كرايتشك : ان صناعة تجهيز ورق البردي بمصر قد أصبحت منتهية بالاجمال حوالى منتصف القرن العاشر الميلادي .

(١٦) اذ نجد أن الورق المصرى المصنوع من نبات البردي ينتهى في عام ٣٢٣هـ/٩٣٥م انتهاء تاما ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠هـ/٩١٢م وذلك وفقا لما تم العثور عليه وأمكن نشره من أوراق البردي . جروهمان : أوراق البردي . ج ١ ، ص ٥٥ ، ص ١٥٣ .

ومن أسماء أصحاب القراطيس التي وصلت إلينا على إحدى شواهد القبور ، علي بن جامع القراطيبي وكانت وقاته في ربيع الأول سنة ٣٠٢ هـ . ويبدو أنه كان يزاول حرفته في مدينة القسطنطينية .

والواقع أن حرفة الوراقة والكتابة كانت مرتبطة أشد ما يكون بصناعة قراطيس البردي المصرية وغيرها من الأرضيات المستخدمة في الكتابة منذ فجر الاسلام كالرق والجلود . ولا شك أن اتخاذ الدواوين ومحاولة تعريبها في عهد عبد الملك بن مروان ، وتعدد كتاب الديوان ، وما أفرد له العلماء كما يذكر المقرئ في كتابة الخراج والانشاء والرسائل وكتابة الجيوش من عدة مصنفات قد شجع على تقدم وازدهار صناعة الورق ونشاط الوراقين في بغداد والقسطنطينية وغيرها من الحواضر الاسلامية .

٢ - الوراقه فى عهد الطولونين والاشيدين :

تشير المصادر الى انتشار محال الوراقه بمصر منذ القرن الثالث الهجرى ، فى احدى اوراق البردى ورد خطاب يتضمن ارسال بعض العقاقير والكتب المنسوخة ، يقول المرسل فيه « وأحب منك أكرمك الله أن تتفضل وتوجه الى دفاتر ملاح أكون أقرا فيها » ، وفى بردية أخرى يرجع مكان اكتشافها الى مدينة الأشمونين من القرن الثالث الهجرى ، ومن أهم ما ذكر بها بيان بتلك المصروفات التى دفعت لكل من المكاري الذى قدم بالكتب والحارس الذى خرج بالكتب ، ومن المرجح أنها كانت مرسله من القسطنطين الى الأشمونين والعامل عليها من قبل الوالى المصرى حينذاك .

ولا شك أن البهنسا التى تقع بالقرب من الأشمونين كان بها عدد من الوراقين وهواة اقتناء الكتب أو المخطوطات فى العصر الاسلامى ، ولا غرابة فى ذلك فقد كشف خطاب بردى طريف من عهد غير بعيد عن الحياة الممتعة التى كان يعيشها بعض أهالى المدينة من هواة الكتب والدفاتر منذ العصرين الرومانى والبيزنطى (١) . ومن المعروف فى العصر الاسلامى أن البهنسا ظلت تحافظ على شهرتها فى صناعة النسيج وغيرها من الحرف والصناعات حتى أن الصناع كانوا يكتبون على الستور والثياب المصنوعة من البصوف أو القطن أسماء مستعملى هذه الثياب . يقول المقرئ فى شأن ذلك : « فلا بد أن يكون فيها اسم المتخذ له مكتوبا » على ذلك مضوا . جيلا بعد جيل » .

(١) ورد فى ذلك الخطاب طلب نسخ وارسال الجزئين السادس والسابع من كتاب شخصيات فى الكوميديا ، ويشير المرسل للخطاب أنهما يوجدان لدى ديمتريوس بائع الكتب . بل : مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

كانت الوراقة في الفسطاط والاسكندرية وغيرهما من المدن المصرية تشمل صناعة الورق ونسخ المخطوطات وبيعها ، وصناعة أدوات الكتابة مثل الأقلام والمحابر وأنواع المداد أو الأحبار الى غير ذلك . ويمدنا القلقشندي بمعلومات عن نوع الورق المصري الجديد الذي صنعه الوراقون في الفسطاط ، فهو من القطع المنصوري ، وكان أكبر قطعاً وحجماً من نوع الحموي والبغدادى ، ولكنه دونهما في الرتبة . وكان فيه ما يصقل من كلا الوجهين ويسمى في عرف الوراقين المصلوح وهو على درجتين من حيث القيمة فمنه الوسط ومنه غالى الثمن .

ويظهر أن صناع الورق في أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجرى كانوا يستخدمون مادة الكتان المضروبة بالقطن كما كانوا يصنعونه من الخرق البالية (٢) ، ولا شك أنها كانت متوفرة جميعها في نواحي عديدة من البلاد مثل منطقة القيوم وشمال الدلتا ، ومن الجدير بالذكر أن الورق الذي أخذ الوراقون يصنعونه في مصر في عهد الطولونيين والاشيدين لم يكن يباع بسعر واحد ، بل كانت أسعاره تختلف بحسب جودته ، فالورق الأبيض المصقول الذي يصنع في الصيف أغلى ثمناً من الورق الأسمر الخشن الذي يصنع في الشتاء ، ويرجع الفرق بينهما في نوع المادة المستخدمة في الصناعة فالنوع الجيد ما كان يتم صنعه من الكتان المضروب بالقطن ، أما الوسط فهو ما كان يصنع من الخرق البالية والمواد الأخرى (٣) .

ومن أنواع الكاغد أو الورق ما كان يتم تعتيقه بمعرفة الوراقين ، حيث يتخذ من الأواني النحاسية المناسبة ما يوضع فيها الماء العذب الصافى ويطرح فيها النشا النقى الجيد ويتم غليانه حتى ينفص الماء ، ثم يضاف اليه يسير من مادة الزعفران بقدر ما يحتاج اليه من تلوين الورق ، ويصب في أطباق واسعة ، ثم يغمس فيه الورق غمساً رقيقاً ، ثم ينشر بعد ذلك لكي يجف حتى لا تلتزق أطراف الورق على بعضها ، وكلما جف يسيراً يقلب على الغاب لئلا يلتصق فيه ، وهكذا حتى يصير الورق في أحسن حالاته لاستخدامه في الكتابة .

(٢) تم العثور على مخطوط يرجع تاريخه الى سنة ١٠٠٩م محفوظ بمكتبة الاسكوريال وترجع أهميته الى أنه يثبت أن العرب كانوا هم أول من صنع الورق من القطن . لوبون : حضارة العرب ، ص ٥٠٩ ترجمة عادل زعيتر .

(٣) ذكر عبد اللطيف البغدادى أن الناس كانوا يبحثون بين المقابر عن الأكفان القديمة المنسوجة من القنب وبييعونها الى مصانع الورق في مصر . عبد اللطيف البغدادى في مصر ، ص ٤٨ .

كما تفنن الصناع في صناعة الليق المختلفة وهي تشبه المداد في استخدامها ، فمنها ما أطلق عليه بالليقة الذهبية وغيرها (٤) ، وكذلك برع هؤلاء في اتخاذ الشب الأبيض والكبريت الأصفر وغيرها من المواد لمحو الكتابة على الورق ، فكانوا يسحقون هذه المواد ويضيفون عليها الخل الأحمر حيث تحك بها الدفاتر أو المخطوطات فانها تزول كتابتها .

أما أدوات الكتابة وصناعة الأقلام والمعاير ، وما كان الوراقون أو النساخون يستعملونها في نسخ المخطوطات والكتب ، فتشير المصادر الى صناعة أنواع من أقلام البوص منذ فجر الاسلام ، بعد أن كان يتم عملها من نوع السمار ، حيث كان ينمو بكثرة في جهات متفرقة وخاصة في المستنقعات والبرك المالحة . وقد شاع عملها أيضا من الغاب والقصب .

وكان الغالب يقطع ويبرى أو يقام ، ويذكر القلقشندي أن الوراقين كانوا يتخيرون من أنابيب القصب أقلها عقدا وأكثرها لحمًا وأصلبها قشرا وأعدلها استواء . وكان يصنع من الأقلام الجيدة خمسة أنواع منها قلم الطومار ، وقلم الراسي والنصف وقلم الثلث ، كما كان لكل خط نوع من الأقلام ينسخ به ، وقد أشارت المصادر الى الشروط الواجب توافرها في عمل القلم الجيد ، وكلها أمور كان يجيد عملها النساخون أو العاملون بحرفة الوراقة في عهد الطولونيين والاختشيديين .

كما صنع الوراقون أنواعا مختلفة من المداد المستخدم في كتابة المخطوطات ، فكانت تتخذ من سخام النفط ، وقد أوضح ابن مقلة طريقة صنع أجود المداد أو الحبر وبيان النسب بين المواد المستعملة من الماء والملح والصمغ والنفط والعسل وغير ذلك . كما أشار صاحب عمدة الكتاب الى الطرق الصناعية التي كان على النساخين اتباعها في عمل الأحبار بالوانها المختلفة ، حيث كان ما يعمل منها الحبر الأصفر والأحمر والذهبي وحبر السماق ومنها صناعة الأحبار الخاصة بنسخ المصاحف الشريفة . ولا ريب أن الخطاطين والنساخين قد أجادوا هذه الطرق العديدة لصناعة الأحبار ، وما يناسب منها للكتابة على الرق أو الورق كما تكشف لنا أوراق البردي عن شيوع استخدام الحبر الأسود في كتابة الرسائل والايصالات والعقود وغيرها خلال القرن الثالث الهجري .

(٤) وذكر من عمل الليق الذهبية انه كان يؤخذ من الزاج الأصفر الجيد ومثل ريمه من النوشادر بحيث يلق الزاج جريشا مع النوشادر ويجعل في إحدى الزجاجات ثم يحكم اغلاقها وتوضع على تنوير فاتر لطيف الحرارة مدة نهار كامل ثم يتم اخراج المادة الكثيفة فيكتب بها على الثياب والرقوق بعد جفافها بما يشبه الذهب .

وقد ذكر القلقشندي أن هناك نوعا خاصة للرق هو الحبر الراسي فهو المناسب ولا دخان فيه ، وإذا كتب به في الكاغذ نفذ منه مباشرة ، وكان يصنع من العفص الشامي المجروش بعد اضافة المقدار المناسب عليه من الماء ويجعل في طنجير ويوضع على النار حتى ينضج .

وذكر أحمد بن يوسف الكاتب أنه كان يأتي اليه رجل يصنع من أنواع المداد أو الأحبار في عهد خمارويه ، لم ير أنعم منه ولا أشد سوادا منه ، فسأله المعروف بابن الداية من أي شيء استخرجه فأخبره أنه من دهن بذر القبل والكتان أمكن له صناعة هذا النوع الجيد من المداد .

وتدل مجموعة المحابر الفضية والأدوات الكتابية الأخرى المحفوظة بالمتاحف على تقدم صناعة تلك الأدوات وغيرها من المساحن لصناعة المداد بأنواعه المختلفة (٥) ، كما تكشف لنا عن استخدام ألواح من الخشب والعاج للكتابة عليها ، وشيوع استعمال الكتان الى جانب الحرير كأرضيات يكتب عليها منذ فجر الاسلام (٦) . وقد اشتهرت كل من بوصير وسمنود في مصر بإنتاجهما نوعا من الكتان كمادة يكتب عليها .

وقد انتشرت محال الوراقة في عهد الطولونيين والاختشيديين خاصة بعد شيوع صناعة الورق وتقدمها بإيراد منذ أوائل القرن الرابع الهجري ، ولم تعد هناك معوقات في سبيل رواج عمل الوراقين ، حيث كانت أسعار الطوامير وقراطيس البردي باهظة اذا قيست بسعر الورق .

ويمدنا ابن زولاق بصورة صادقة عن نشاط سوق الوراقين بمدينة الفسطاط في ذلك العهد ، وما كان يدور فيها من المناظرات والمساجلات العلمية والأدبية فضلا عن مزاولة الوراقين لعملهم في نسخ المخطوطات وبيع الورق والأقلام والأدوات الكتابية .

ولم تقتصر صناعة الورق وعمل النساخ والمجلدين على العاصمة الفسطاط ، بل انه يمكن القول بأن تنيس ودمياط والاسكندرية وغيرها من

(٥) يضم المتحف القبطي مجموعة من المحابر الفضية وعدة من أقلام الغاب ، كما يضم معرض دار الكتاب المصرية واحدا منها كان يستخدم في القرن الرابع الهجري - رقم السجل : ١٨٩٦٠ .

(٦) وتحفظ دار الكتب أيضا مجموعة من الفخار كانت تستخدم كمذكرات ، وقطعة من الخشب مكتوب عليها سورة « والنجم اذا هوى » وقطعة من الحجر الرخام مكتوب عليها ترجع الى عهد الوليد بن معاوية المتوفى ٢٠٥ هـ . ويحتفظ المتحف القبطي بقطع من العظم والخشب مكتوب عليها نصوص دينية وأعداد حسابية وأيضا من قطع الفخار عليها نصوص عربية من الجهتين وبعض القطع الأخرى .

المدن والمراكز الصناعية كانت تضم أسواقا هامة لهؤلاء الوراقين ، فقد نقل ياقوت عن يوسف بن صبيح أحد كتاب ديوان الرسائل في العصر العباسي ، أنه رأى بمدينة تنيس خمسمائة صاحب محبرة يكتبون الحديث وأنه دعاهم سرا الى بعض جزائرها وعمل لهم طعاما يكفيهم فتسامع الناس فجاءه من هؤلاء النساخ ما لا يحصى كثرة ، مما يدل على ازدهار وازدهام المدينة بالنساخ والوراقين .

ويذكر ياقوت أن الوزير أبا الفضل بن جعفر كان فاضلا يحب العلم ونقل عن بن الحبال المؤرخ المصري أنه كان يصنع للوزير ابن حنزابه الكاغد بسمرقند ويحمل اليه في كل عام ، كما كان في خزائنه عدة من الوراقين الذين يعملون في نسخ الكتب وتجليدها (٧) ومما قيل أن أحد الوراقين حاول ترك خزائنه يوما ، لكنه تبين أن عليه ديناً مقداره نحو مائة دينار ، فعاد الى الوراقة وصرف الأمر عن رفعه الى القضاء .

ومن هؤلاء الوراقين الذين ذاع صيتهم في أيام الاخشيديين . على ابن الحسين بن علي العبسي المعروف بابن كوجك ، كان وراقا أدبيا فاضلا ، والكاتب ابن حنزابه في عهد الاخشيديين وأوائل حكم الفاطميين .

(٧) ذكر أبو المحاسن أن الوزير ابن الفرات كانت له خزابة كتب خاصة ضمت ألف جزء من كتب التفسير ، كما كانت لديه مائة كتاب في التفسير وأخرى في التاريخ وقد خلف ثمانية عشر صندوقا من الكتب أكثرها بخطه ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٦٨ .

٣ - صناعة الكتابة في مصر منذ فجر الاسلام حتى نهاية عصر الطولونيين والأخشيديين :

ظل الكتاب من الأقباط المصريين في أعقاب الفتح العربي يعملون وفقا للأنظمة البيزنطية الادارية منها والمالية حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) وقد أشار ساويرس بن المقفع الى الكاتبين الأرثوذكسيين اثناسيوس واسحق في عهد عبد الملك وواليه على مصر أخيه عبد العزيز ابن مروان ، حيث كان أحدهما مختصا بديوان مصر العليا ، والآخر بديوان اسفل الأرض أو شمال البلاد . كما ظل رؤساء المالية أو مندوبى ديوان الخراج والأموال من الأقباط .

وقد ارتبطت كتابة الدواوين في صدر الاسلام بما كان يستعمله هؤلاء الكتاب من الدروج وأوراق البردى حتى زوال الدولة الأموية ، ولم تلبث الأمور أن بدأت صناعة الكواغيد في سمرقند وبغداد ، فاتخذت الكواغيد وشاع استخدامها لدى كتاب الدواوين المختلفة . وكان لكل ولاية ديوان ببغداد يشرف على شئونها .

ويشير المقرئى الى تعدد الكتاب ، فأصبح منهم كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الشرطة وكاتب القاضى ، وكان أهم هؤلاء الكتاب فى الرتبة كاتب الرسائل . ويوصى الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان أخيه عبد العزيز والى مصر بأن يهتم بأمر كاتبه فهو يقول له : « تفقد كاتبك وحاجبك وجليسك ، فإن الغائب عنك يخبره عنك كاتبك ، والمتوسم يعرف بحاجبك ، والداخل عليك يعرفك بجليسك » . وحينما خلف عبد الله بن عبد الملك عمه عبد العزيز عام ٨٦ هـ على ولاية مصر ، صرف عبد الله اشناس الكاتب القبطى عن الديوان ، وجعل عليه ابن يربوع الفزائى

من أهل حمص ، وذلك من أجل تعريب الديوان وما ينسخ فيه من شئون
الإدارة والحكم .

والواقع أن مصر كانت دار إمارة ليس لديوان الانشاء بها شأن يذكر ،
وكان الولاة يتخذون كتاب رسائل لهم يعملون على تحرير الكتب وصياغتها ،
والقيام بارسالها الى مقر الخلافة في دمشق ثم بغداد بعد أن أصبحت عاصمة
الخلافة العباسية .

ويظهر نشاط الكتاب لاسيما كتاب الخراج في عهد الوليد
ابن عبد الملك وواليه على مصر عبد الملك بن رفاعه ، ويذكر ابن عبد الحكم
أنه حينما تولى إمارة مصر عام ٩٦ هـ خرج الى سائر أنحاء البلاد ليحصى
أهلها وبرفقته طائفة من الأعوان والكتاب ، فأقام في ذلك ستة أشهر
بالصعيد حتى بلغ أسوان ، والكتاب في جد وتشمير يكفونه ذلك ، ثلاثة
أشهر بأسفل الأرض ، فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية .
ولا شك أن قيام الكتاب بعمل ذلك الإحصاء لعدد السكان والقرى إنما كان
لتقدير الخراج والجزية والضرائب الأخرى التي فرضت على الحرفيين
والصناع في القرى المصرية .

وكما احتاج الوالى الى كتبة كثيرين ليستعين بهم في تحرير رسائله
الى مختلف الجهات في مصر والى الخليفة نفسه ، مما يدل على أنه كان بمصر
في ذلك العهد ديوان رسائل أو ديوان انشاء ، الا أنه قليل الأهمية بالنسبة
لديوان الخلافة أو ديوان الانشاء في مصر في بداية الدولة الطولونية .

وتبدو أهمية كتاب الخراج والشئون المالية في عهد الخلافة العباسية ،
وقد وردت كتابة بخط عكرمة أحد كتاب ديوان أسفل الأرض في خلافة
أبى جعفر المنصور وواليه على مصر حميد بن قحطبة سنة ١٤٣ هـ . كما
يروى الجهشيارى أنه كان لعمر بن مهران عامل الرشيد على مصر
جهبذ (٨) وهو أحد كتاب الخراج يقوم بوظيفة محاسب لدى العامل
أو الوالى في مصر آنذاك .

وكان على هؤلاء الكتاب أن يكونوا من الفصاحة والبلاغة وحسن
الالفاظ ، ولهم ملكة يقتدرون بها على مدح المذموم وذم المدوح على حد
تعبير الكتاب أنفسهم كما كان من شروط الكاتب أن يكون عالما بصنوف
الحياة وما تتطلبه من اجادة فن الحساب وعلوم الهندسة والرى ، ومعرفة

(٨) يرجع ظهور الجهبذ ككتاب خراج الى زمن الساسانيين ، وقد عرف عند المسلمين
عند أوائل حكم الأمويين في عهد معاوية بن أبى سفيان .

عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

بالموازين وأنواع المكاييل ، يقول ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ : « من لم يكن عالماً في وزن الموازين وذرع المثلث والمربع ومختلف الزوايا ، ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه وحال أدوات الصناعات ، ودقائق الحساب ، كان ناقصاً في حال الكتابة » .

وهكذا كانت صناعة الكتابة تتطلب من الحبرات والمهارات والالمام بكافة شئون الحياة ، بنذر ما تتطلب من البلاغة وحسن البيان وجودة الخط وفن النقش على ألواح الرخام وغيرها ، كما تجلى ذلك في الكتابات الأثرية . فقد وصلتنا من هذه الكتابات كتابة أثرية كانت على قنطرة القسطنطين يرجع تاريخها إلى سنة ٦٩ هـ / أغسطس ٦٨٨ ، جاء فيها : « هذه القنطرة أمر بها عبد العزيز بن مروان الأمير وقام ببنائها سعد أبو عثمان وكتب عبد الرحمن » .

وتكتشف لنا شواهد القبور التي يضمها المتحف الإسلامي عن تطور الخط العربي على الحجر في عصر الولاة والعصور اللاحقة (٩) ، كما تدلنا في الوقت نفسه على أسماء هؤلاء الكتاب والخطاطين المشهورين ، فهناك كتابة أثرية تحمل اسم أحد كتاب الخراج ، إذ تم العثور على شاهد من الرخام مكتوب عليه « يعقوب سلمراك الكاتب » .

ومن شواهد القبور التي تدل على ظهور الكتابة البارزة ما جاء على لوح منها مؤرخ سنة ٢٠٣ هـ ، وكان على الصانع أن يحفر اللوح الحجري كله ما عدا الكلمات المكتوبة فيتركها بارزة ، ومن أقدم تلك الكتابات الكوفية البارزة التي أجادها صناع الكتابة والحفر ، الكتابة التي تعلو جدران البئر الذي يتوسط مقياس النيل بالروضة ، الذي أمر بإنشائه الخليفة العباسي المتوكل سنة ٢٤٥ هـ ، وقد نفذت هذه الكتابة بطريقة الحفر البارز في الحجر ، وتحمل الكتابة بعض آيات من القرآن الكريم ، وتنتهي بنص تاريخي على جانب كبير من الأهمية .

ومن الشواهد الرخامية نعرف اسم أحد الكتاب الذي عاش في عهد المتوكل العباسي بمصر هو مبارك المكي ، وجاء توقيعه على شاهد منها بتاريخ ذي الحجة سنة ٢٤٣ هـ ولا ريب أن الكتابات الأثرية وتلك النقوش والزخارف على جدران المساجد تدل على تقدم صناعة الكتابة ، حيث وردت صيغة كاتب أو مشتقاتها في كثير من هذه الكتابات الأثرية المخطوطة بمتحف

(٩) كان يتحتم على صانع الكتابة التذكارية أن يكون ملماً بصناعة الخط وصناعة الحفر في المواد الصلبة في وقت واحد ، وترجع بداية صناعة هذه الكتابات الأثرية في وادي النيل إلى أعقاب الفتح العربي مباشرة ، وخير شاهد على ذلك نقش أسوان المؤرخ ٣١ هـ / ٦٥ هـ .
ابراهيم جمعة : دراسة في تطور الكتابات الكوفية ، ص ١٣٠ .

الفن الاسلامي ، وربما كان الكاتب خبيراً بصناعة المادة التي كتب عليها النقش مثلاً ، وربما كان هو الذي رسم حروف النقش فقط وقام غيره بحفرها .

ومن خير الشواهد على ما بلغه هؤلاء الصناع وأصحاب حرفة الكتابة في عصر الولاة ما قام به هؤلاء من نقش وزخارف على جدران المساجد بالقرآن الكريم كاملاً ، ومنها تلك الألواح الرخامية البيضاء التي استطاع الكتاب أن يكتبوا عليها القرآن الكريم بالخط الكوفي ، وبها زينت جدران جامع عمرو ابن العاص بالذهب واللازورد ، فيقرأ الانسان جميع القرآن منها وهو قاعد ، . وهكذا لتكون المساجد مساجد ومصاحف في وقت واحد ، ومن المرجح أن تكون هذه الألواح الرخامية قد تمت كتابتها ونقشها من جملة الزيادة وأعمال الإصلاح التي قام بعملها الموالى عبد الله بن طاهر من قبل الخليفة المأمون عام ٢١١ هـ .

وهكذا تنوعت أغراض الكتابة كما تعدد الكتاب فمنهم من كان يعمل كاتباً للرسائل وكانوا من المنزلة لدى الولاة والحكام المسلمين كما يسميهم الجهمشياري كانوا تراجم الملوك ، ومنهم من يعمل في كتابة ديوان الخراج والمال ، ومنهم كذلك من كان يحور عقود الناس ومستنداتهم وما يتصل بشئون المعاملات وغيرها (١٠) .

وكما حث الاسلام على الكتابة وأمر بها ، فإن المصادر الأدبية تشير الى تفضيل العرب لهؤلاء الكتاب على غيرهم من أصحاب المهن وأرباب الصنائع (١١) ، فقد قيل أن الملوك أحوج الى الكتاب من الكتاب الى الملوك ، وذكر أيضاً أن الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة مما شجع على رواج صناعة الكتابة والسعي اليها دون غيرها من الحرف والصناعات الأخرى في عصور مصر الاسلامية .

وبدأت الكتابة مرحلة جديدة بمجيء أحمد بن طولون الى مصر سنة ٢٥٤ هـ ، فقد كان أول من أنشأ ديواناً للرسائل أو المكاتبات على غرار ديوان الانشاء بعاصمة الخلافة العباسية بغداد . كما كان من أهم مظاهر

(١٠) وقد ورد في شأن المعاملات قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه » ، سورة البقرة : الآية ٢٨٢ .

(١١) ذكر الجاحظ أنه كان أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما يكتبان للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم صارا الى الخلافة بعد ذلك .

القلقشندی : ضوء الصبح المسفر ، ص ١١ .

الاستقلال بمصر السيطرة على ديوان الحراج فأصبح خاضعا لابن طولون بعد أن استطاع اقضاء أحمد بن مدير عن ولايته للخراج بمصر (١٢) .

وكان من أهم الكتاب الذين أصبحوا يدينون لمؤسس الدولة الطولونية بالطاعة والولاء ابن عبد كان ، حيث كان أهل بغداد يحسدونه عليه . ويقولون بمصر كاتب محرر يقصدون ابن عبد كان ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثله . . . وكانت تصدر عنه جليل المكاتبات الى ديوان الخلافة وغيرها ، وقد اشتهر بالبلاغة وحسن الكتابة .

ويشير البلوى الى تفضيل ابن طولون للكتاب المصريين على غيرهم من الكتاب ، فهو يذكر أنه حينما اتخذ جعفر بن عبد الغفار كاتباً له ولم يكن من الكفاية مثل ابن عبد كان ، بحيث يستطيع الاضطلاع بأعباء منصبه ، اشار ابن خاقان على الأمير أحمد بن طولون بصرفه عن الكتابة فقال له : « أنا احتمله لأنه مصرى » ، فقال له ابن خاقان : أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصرى على الكاتب البغدادي ، فقال لا والله ، ولكنه أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه .

ومن كتاب خمارويه الذي خلف أبيه في حكم البلاد عام ٢٧٠ هـ ، الكاتب اسحق بن نصر العبادي ، وقد بلغت صناعة الكتابة على يديه ومن سبقه أمثال ابن عبد كان درجة عالية تشهد بتطور الحياة الأدبية في مصر في عهدهم .

وقد نهج محمد بن طنج الاخشيد حينما استقل بالحكم على منوال أحمد ابن طولون في العناية بشئون الدواوين وبالكتاب العاملين بها ، وكان من أشهر هؤلاء ابراهيم النجيمي ، وكان مجيدا لفن الكتابة ، وحفظ لنا ابن سعيد نسخة الكتاب الذي بعث به الاخشيد الى أرمانوس ملك الروم رداً على كتابه ، وكما يذكر ابن سعيد أن الأمير الاخشيد لم يختار من جماعة الكتاب الا النجيمي لعلمه بوجوه الكتابة وذلك للرد على ما جاء في كتاب حاكم بيزنطة في ذلك الحين .

وقد ازدهرت صناعة الكتابة في عهد الاخشيديين حتى أن الكتاب أنفسهم وضعوا الكتب وصنفوا التأليف ، فذكر من هؤلاء أحمد بن محمد النحاس الكاتب ، فقد صنف كتاباً بعنوان « أدب الكتاب وصناعة الكتابة »

(١٢) ذكر الكندي : أنه لما ورد كتاب المعتمد الى أحمد بن طولون يستحثه في حمل الأموال اليه كتب اليه قائلاً : لست أطيق ذلك والحراج بيد غيري ، فأثقف المعتمد نفيسي الخادم الى أحمد بن طولون لتقليده الحراج بمصر وبولايته على الثغور الشامية . الولاة . ص ٢١٧ .

تحدث فيه عن فضيلة الكتابة ، وما يجب على الكتاب أن يتبعوه حتى يجودوا
صنعتهم وكانت وفاته سنة ٣٣٧ هـ .

وكان يحتاج الكاتب في صناعته الى أن يكون ماهرا في أصل
الترسل عارفا بوجوه المعاني ، لابد له أن يقف على وجوه كتب قد كتب
في أمثالها ، وقد أفاض في وصف ذلك وأتى على نسخ كثيرة من السجلات
الصادرة بولاية الثغور والبريد وغيرها الكاتب المشهور قدامة بن جعفر
الذي تولى الكتابة لابن الفرات في ديوان الزمام (١٣) ، وقيل أنه كتب
لبنى بويه لمعز الدولة البويهى . ومما لا شك فيه أن كتابه الخراج وصناعة
الكتابة وما اشتمل عليه من فصول ، إنما يدل على ما بلغت صناعة
الكتابة من تقدم وازدهار ، وتلك الصفات التي كان على الكتاب الاحاطة
بها (١٤) .

ومن الكتاب أيضا الذين ذكرهم ابن سعيده نقلا عن ابن ذولاق في
عهد الاخشيديين كان عبد الوهاب بن سعيده ، وكاتبه الاخشيد ابن قرقماتس ،
وعلى بن محمد بن كلاً الذي أوفده محمد بن طنج الاخشيد الى محمد
ابن رائق وكان بالرملة للموافقة على فقه الصلح بينهما .

كما نذكر من هؤلاء محمد بن عبد الرحمن الروذباري الكاتب قيل
ان الاخشيد قبض عليه وصادر أملاكه ، وكذلك عيسى بن بقطر بن شفا
كاتب الخراج ، وكان أحد الكتاب الأقباط الذين تولوا ديوان الخراج في
عهد الاخشيديين . ومن الكتاب نذكر على بن صالح الروذباري ، وقد كتب
المقرئى أنه كان كاتباً لكافور وأنه حسن له أن يوفر له من الأموال وذلك
بخفض الرواتب ، وأن الله ابتلاه بمرض قضى عليه سنة ٣٤٧ هـ ، وأن
هذه موعظة من الله لمن توسط للناس بالسوء .

ويبدو من الموازنة بين النصوص التاريخية المختلفة أن طائفة الكتاب
في عهد الاخشيديين كانت تنقسم قسمين ، الأول : الكتاب السياسيون ،
وكان القوم يخالطون بينهم وبين الوزراء ، أما القسم الثانى فهم الذين كانوا
يشتغلون بتحرير الرسائل ويؤلفون ديوان الانتهاء .

(١٣) كانت وفاته سنة ٣٢٨ هـ وقبل سنة ٣٣٧ هـ أيام الخليفة المطيع العباسى .
ياقوت معجم الأدباء ، ج ١٧ ، ص ١٢ ، الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٩ - شرح وتعليق
محمد حسين الزبيدي .

(١٤) ألف قدامة ووضع كتباً كثيرة كان في أولها كتاب الخراج وصناعة الكتابة .

ابن النديم : الفهرست ، ص ١٨٨ .

٤ - ازدهار حرفة الوراقة وفن الكتابة فى العصر الفاطمى

أخذت صناعة الورق تتقدم بإطراد منذ أوائل القرن الرابع الهجرى، وكان لمجيء الفاطميين الى مصر وتأسيسهم للقاهرة وحكمهم للبلاد أثر كبير فى ازدهار هذه الصناعة وحرفة الوراقة ، فقد كان تشجيعهم للعلماء والأدباء كبيراً وحرصوا على جمع أكبر قدر من المخطوطات وتكوين المكتبات العامة والخاصة فى قصورهم ، حيث وجد الوراقون فرصتهم ، وقد أشار الكتاب الى اتساع نطاق صناعة الورق بمصر فى العصر الفاطمى فذكر أبو صالح أن بمصر صناعة الورق الأبيض . كما ذكر ابن سعيد الوراقات وقال ان الفسطاط اختصت بالمطابخ التى كان يصنع فيها الورق المنصورى .

ولا شك أن تقدم صناعة الورق وشيوع استخدامه كان له الأثر الملموس فى انتشار محال الوراقة فى الفسطاط وغيرها من المدن المصرية كالاسكندرية وتينيس فى الوجه البحرى .

وقد حظى الوراقون باهتمام وتشجيع كثير من جانب الخلفاء الفاطميين ووزرائهم ، الذين حرصوا على اقتناء المكتبات العظيمة فى قصورهم ، وإخراج الكتب والمخطوطات فى أحسن صورة ، وإنجازها فى أسرع وقت حيث كان بمقدار الناسخ القيام بنسخ مائة صفحة فى اليوم الواحد من أجل الحصول على أعلى المكافآت السخية .

وقد سار الخليفة العزيز على نهج أبيه المعز (١) فى حرصه على جمع

(١) كان الخليفة المعز يهوى الإطلاع يقضى معظم وقته بمكتبة قصره فى المنصورية وكان يقول : « والله ما تلذذت بشيء تلذذى بالعلم والحكمة » القاضى النعمان : المجالس والمسائرات ، ج ٢ ، ورقة ٥٩٩ مخطوط .

النسخ الموجودة من بعض الكتب والمراجع حتى تكون المكتبة بالقصر الفاطمي هي المكان الوحيد الذي يوجد به هذا الكتاب أو ذاك . ومما يدل على درجة اهتمام الخليفة العزيز بالله بهذه المكتبة ما يذكره المقرئ من أنه كان يشرف عليها بنفسه ويقوم بزيارتها فهو يقول : « فيجئ ركباً ثم يترجل ويتخذ مجلساً له فوق دكة منصوبة ويمثل بين يديه أمين الخزانة ، ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين كما يعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته في مجلسه الخاص » . ونقل المقرئ عن ابن أبي طي المؤرخ الفاطمي وصفه لهذه المكتبة بأنها كانت من عجائب الدنيا وأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها ، فقد احتوت على أصناف من الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات والمخطوطات التي كان بعضها مزيناً بالصور والرسومات الدقيقة .

وكان من أشهر المكتبات الخاصة ما كانت ليعقوب بن كلس الوزير الفاطمي وقد عمل على تكوينها في قصره ، والتي سرعان ما أصبحت تنافس مكتبة القصر الفاطمي ، ولا غرو في ذلك إذ رتب لها الكتاب والأطباء والعلماء ، وأفرد مكاناً بها لعدة كتب لنسخ المصاحف وكتب الفقه والأدب ، كانوا إذا فرغوا من نسخها روجعت وضبطت وضمت إلى مكتبته التي زخرت بأصناف الكتب . ذكر ابن خلكان أن الوزير ابن كلس كان يجري بأمر العزيز بالله في كل شهر على أهل العلم وهؤلاء الوراقين والمجلدين العاملين بهذه المكتبة نحو ألف دينار . كما ذكر المقرئ أنه كان يوجد في قصره خزانة للدفاتر . ومن طريف ما ذكره المقرئ أيضاً أنه كان يستخدم الكواغد في الرسائل التي تحملها الحمام إلى القاهرة من بلاد الشام وغيرها .

وفي عهد الحاكم بأمر الله تم افتتاح دار الحكمة بعد أن تم إعدادها وتجهيزها في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ ، وقد اشتملت على مكتبة عامرة بها عدد كبير من النساخ والوراقين حيث كان يؤتى لهم بالكتب لينقلوا صوراً منها ترود بها المكتبة ، وبما عسى ألا يكون موجوداً بها . وكان الغرض من إنشاء دار الحكمة أو دار العلم كما أطلق عليها بث الدعوة الفاطمية بطريقة علمية منظمة ، تمتزج فيها النظريات والآراء الفلسفية بالاصول والمذاهب الفقهية وتكون أبعد أثراً في غزو الأذهان من مجالس القصر التي عرفت في ذلك الوقت بمجالس الحكمة .

كانت حرفة الوراقة وصناعة الكتابة تتطلب كل منهما معرفة بفنون مختلفة من العلوم وسعة الاطلاع على النحو الذي كان عليه ابن النديم صاحب الفهرست ، كما كانت تتطلب جودة الخط والبراعة فيه وكذلك صناعة

الألوان الفضية والذهبية وأنواع المداد والأحبار المختلفة ، والطرق اللازمة لتثبيت الكتابات على أنواع الورق ، وكيفية إزالة الكتابة عن الورق أو محوها (٢) .

ومن المعروف أن الكتابة العربية سواء ما سطر في المخطوطات منها أو تلك الكتابات الأثرية على ألواح الرخام وغيرها ، كانت من أعظم ما خلفه هؤلاء النساخ والخطاطون في مصر وغيرها من الدول الإسلامية ، فقد كانت تلك السطور العربية دليلا على سيادة الاسلام والمسلمين ، ولأنها الخط الذي دون به القرآن الكريم ، وطالما تنافس الخطاطون في تحسين حروفها الجميلة . وقد عمل الخطاطون في العصر الفاطمي على تحسين هذه الكتابات ونسخ الكتب في أحسن صورة يرونها حتى أصبح الكتاب الجميل كنزا لا يقدر بثمن ، بل أصبح كما يقول كريستي تحفة فنية يتسابق الهواة الى حيازتها واقتنائها .

والواقع أن ذلك لم يكن غريبا على المصريين ، فقد أجادوا فن النقش والكتابة والزخارف الخطية منذ أقدم العصور ، كما عبر عبد اللطيف البغدادي عن دهشته حينما شاهد هذه النقوش الأثرية أثناء زيارته لمصر في أواخر القرن السادس الهجري وبعد سقوط الدولة الفاطمية بزمان قليل (٣) .

وقد شجع الفاطميون على ازدهار الوراقة والكتابة في القسطنطينية وغيرها من المدن المصرية منذ بداية عهدهم ، ومن الطريف أن نذكر ظهور اختراع القلم الأبنوس أداة للكتابة في عهد المعز لدين الله ، فقد ورد على لسان القاضي النعمان ابن حيون أحد قضاة المعز أن هذا الخليفة أول من فكر في عمل القلم النباع ، وكان يرمز به الى علم الباطن ، فهو قلم يكتب به بلا استمداد من دواة ، ويكون مداده من داخله ، فاذا قلب في اليد أو مال الى كل ناحية لا يبدو منه شيء من المداد . فكان الكاتب يجعله في كفه أو حيث شاء دون أن يلمح اليد أو الثياب ، ويقول المعز : « فيكون آلة

(٢) يشرح صاحب عبدة الكتاب طرق إزالة الكتابة حيث كان يعدد النساخ الى أخذ كمية من الجورق (الاسفنداج) وكمية مثلها من صمغ عربي وما يعادلها أيضا من الكبريت ويدق الجميع ويسحق المخلوط جيدا يخفف في الظل ، وعند الحاجة اليه يصب عليه قدرا من الماء ، ويؤخذ منه بطرف القلم ويكتب به على المروقد أو تعلق الكتابة فانها تزول .

مجهول المؤلف : ورقة ٣٦ ، مخطوط .

(٣) شاهد عبد اللطيف البغدادي على المسلات الفرعونية بعض الكتابات الأثرية وعلق على إحدى تلك المسلات التي رأها يقوله : والمسلة كلها عليها كتابات بذلك القلم .

عبد اللطيف البغدادي في مصر ، ص ٤١ .

عجيبة لم نعلم أنا سبقنا إليها دليلا على حكمة بالغة لمن تأملها وعرف وجه المعنى منها ، . وهكذا كان الابتكار لهذا النوع من الأقلام المنسوب الى الخليفة المعز دليلا على اهتمام الائمة الفاطميين بأدوات الكتابة والتوصل الى صناعة أقلام الحبر من الأبنوس التي لم يسبقهم إليها أحد ، حيث كان ظهورها احدى حسنات الفاطميين .

كما تشير المصادر الى اهتمام الفاطميين بمثل هذه الأدوات الكتابية والى مكانة الدواة فى دولة الفاطميين ، وهى المكانة التى لم تعرفها الدواة فى أى زمان آخر قبلهم أو بعدهم ، فقد اعتبرت من شاراتهم الرسمية فهى احدى شارات الخليفة الفاطمى نفسه ، مثل تاجه الشريف الذى يضعه على رأسه وقضيب الملك الذى يكون بيده ، فكانت دواة ثمينه ، يقول القلقشندي « وتعتبر أعجوبة من أعاجيب الزمن » وكان يتم صنعها من خالص الذهب كما كانت حليتها من المرجان وتلف عادة فى نسيج شفاف أبيض ، ولها أستاذ محنك يحملها فى موكب الخليفة لتعرض مع غيرها من شارات أمام الناس ، وقد ذكر المقرئى أن احدى النساء تدعى ست غزال كانت هذه صاحبة دواة الخليفة ، لا تعرف شيئا الا صناعة الدوى والديق ومسح الأقلام والدواة ، وكان يرسم خدمتها الأستاذ مأمون الدولة الطويل (٤) .

وكانت الدواة فى الدولة الفاطمية ترمز الى كبار موظفيها ، ولاسيما الذين يشتغلون بصناعة القلم أو الكتابة ، حيث كان لكل منهم دواة ذات قيمة خاصة تلازمه فى عمله الرسمى أو حتى فى تنقلاته مثل الوزير الذى كانت دواته محلاة بالذهب أيضا ولها صاحب يرسم حملها فى مجالسه ومواكبه الرسمية ، أما دواة قاضى القضاة وهو على رأس الجهاز القضائى ، فكانت محلاة بالفضة ولها موظف خاص بها ، يضعها على الكرسي أو القمطر فى مجلس الحكم .

وهكذا كان اهتمام الفاطميين وتشجيعهم من أهم الأسباب التى دعت حيث صناعة الورق ونسخ الكتب وصناعة الأقلام وأنواع المداد والمحابر وغيرها من أعمال الوراقين .

(٤) وكان لهذه السيدة مسجد اشتهر باسمها قامت ببنائه فى القرافة الكبرى عام ٥٣٦هـ ، المخطوط ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ .

(٥) يمكن مقارنة سوق القسطنطينية وانتشار محال الوراق بها بما كان عليه الوراقين فى مدينة بغداد ، فقد ذكر اليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٤هـ أنه كان فى عصره أكثر من مائة وراق فى بغداد .

وكان لهؤلاء الوراقين أماكنهم في الأسواق أسوة بغيرهم من أصحاب الحرف والتجار كما كانت مجالسهم تلتقى الطبقات المثقفة في ذلك العصر ومن هؤلاء الذين أجادوا حرفة الوراقاة علي بن محمد المصري ، ذكر أبو المحاسن أن الوزير ابن الفرات المتوفى سنة ٣٨٤ هـ كانت لديه خزانة كتب خاصة ، ضمت ألف جزء من كتاب التفسير بخط علي بن محمد المصري وحده .

واشتهر بحرفة الوراقاة في عهد العزيز بالله الفاطمي علي بن نصر ابن سليمان الزنبقي ، وكان يتقن الخط والضبط ومقامه بمدينة القسطنطينية ، ذكر ياقوت أنه رأى له كتباً أدبية وغيرها بخط يده ، وكان بمجرد نسخ الكتاب وخروجه من يد مؤلفه يتهاقت الوراقون علي نسخته وسرعان ما ينتقل من مكان إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر آخر ، ويتداول في الأيدي ويجلد ويوضع في القماطر (٦) .

ويذكر السبكي أن حرفة الوراقاة ونسخ كتب العلم هي من أجود الصنائع ، وعلى الوراق أو الناسخ أن يرفق بطالب العلم ، وعليه أن يفضل من يشتري منه الورق لنسخ الكتب العلمية دون غيره ، مما يدل على أن أصحاب هذه الحرفة لم يكونوا مجرد تجار ينشدون من ورائها الربح فحسب ، وإنما كانوا يرغبون من وراء امتهائهم لحرفتهم مساعدة طلاب العلم والأدب بقدر ما تكفل لهم من أسباب المعيشة الكريمة .

ونذكر من هؤلاء الوراقين الأدباء علي بن الحسين بن علي العباس المعروف بابن كوجك ، وأخيه أبي القاسم الحسن بن الحسين العباسي ، وكان صاحب شهرة في الخط المعروف والمرغوب فيه ما يشبه خط ابن جرير الطبري ، وقد غلبت عليه حرفة الوراقاة مثل أخيه وقرض الشعر .

وفي عهد العزيز بالله وابنه الحاكم بأمر الله كان الشاعر ابن أبي الجوع من الوراقين المشهورين بالقسطنطينية ، ذكر ابن خلكان أنه كان مشهوراً بالنسخ الجيد ينسخ كل خمسين ورقة بدينار ، وخطه موجود بأيدي الناس مرغوب فيه . كما اشتهر بحرفة الوراقاة وبخطه الجيد في ذلك الوقت أيضاً محمد بن علي بن محمد أبو سهل ، قام بنسخ العديد من كتب اللغة والنحو وغيرها . وكان علي هؤلاء الوراقين ألا ينسخوا شيئاً من الكتب المضلة مثل أهل البدع والأهواء ، ولا يكتبون الكتب التي لا ينتفع بها أو ينفع الله بها .

(٦) القماطر وجمعها قماطر هي ما يضاف فيها الكتب . المصباح المنير ، محمد كردغلي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٩٥ .

ومن الذين اشتهروا بتجليد الكتب بعد نسخها اسماعيل المجلد ،
فقد ذكر المسبحي في ترجمته أنه كان مشهورا بحرفة النسخ والتجليد ،
وكانت وفاته في عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله .

ومن هؤلاء الوراقين المشهورين في العصر الفاطمي علي بن خلف
الوراق ، فقد ذكر ابن القفطي أنه عهد اليه بمهمة تطوير مكتبة القصر
في عهد المستنصر ، وتجديده ما أتلّف من كتبها وإعادة تجليدها وعمل
فهرست لها .

ومما شجع على ازدهار حرفة الوراقة أيضا العمل على تخصيص مكتبة
في كل جامع كبير كجامع عمرو والجامع الأزهر وجامع الحاكم وغيرها من
الجوامع ، فهي تحتاج الى المزيد من الكتب التي كان النساخ يعملون على
نسخها . كما كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على هذه الجوامع .
وكان أبو الحسين بن علي بن بقاء المصري من هؤلاء العلماء الوراقين ، ذكر
ابن العماد أنه كان من علماء الحديث في عهد المستنصر ، لكن شهرته جاءت
بسبب كثرة اشتغاله بأعمال النسخ للكتب في داره ، وكانت وفاته سنة
٤٥٠ هـ .

ومن هؤلاء المحدثين والمؤرخين في عهد الخليفة المستنصر من اشتغل
بنسخ الكتب والمجلدات والاتجار فيها ، مثل أبي اسحق الحبال ، يذكر
ابن العماد أنه حدث بعد منعه منلقاء دروسه في الجامع ، أن ازداد
نشاطه في مجال الوراقة وصار طلاب العلم يلتمسون الكتب بخط يده
الى حين وفاته عام ٤٨٣ هـ .

والواقع أن حرفة نسخ الكتب وبيعها لم تقتصر على الوراقين في
أسواق الفسطاط في ذلك الوقت ، فقد ذكر ابن أبي أصيبعة وغيره أن
الحسن بن الهيثم كان يشتغل بحرفة النسخ بجوار الجامع الأزهر ، وذلك
بعد أن خرج من عزلته بعد وفاة الحاكم بأمر الله عام ٤١١ هـ ، فكان ينسخ
في كل سنة ثلاثة كتب في علوم الأوائل من الفلك والرياضيات ، وكان
إذا شرع في نسخها جاءه من يعطيه فيها مائة وخمسين دينارا يجعلها
مؤونته طوال العام . وتشير المصادر الى أنه كان صاحب خط جيد في غاية
الصحة مرغوب فيه ، وقد عاش في عاصمة الفاطميين الى حين وفاته في
عهد الخليفة المستنصر وذلك فيما بعد سنة ٤٣٠ هـ .

ويمكن القول بأن حرفة الوراقة لم تكن قاصرة على الفسطاط أو
القاهرة بل كانت منتشرة ورائجة في المدن المصرية الأخرى كالاسكندرية
وتنيس ودمياط وغيرها في العصر الفاطمي ، فمن هؤلاء الوراقين الذين

اشتغلوا بنسخ الكتب والعمل على تجليدها وبيعها بعد ذلك في ثغر الاسكندرية أبو الرضا يزيد بن محمد بن عبد الحميد الطرابلسي المجلد ، وأبو محمد محمد بن عبد الوهاب بن اسماعيل الوراق .

وكذلك اشتهر أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن الحسين بن يحيى الجيزي الكتبي ، وكان من أعرف الناس بالخطوط وأئمان الكتب .

ومن الجدير بالذكر أنه لم يقتصر عمل الوراقين على نسخ الكتب وبيعها ، بل كانوا يصنعون من أدوات الكتابة كالمحابر والأقلام ، فقد كانوا يصنعون الدوى المختلفة من المعادن كالنحاس والحديد تارة ، ومن الزجاج تارة أخرى ، كذلك كان يتم صنعها من الأبنوس المحلي بالذهب (٧) ، وكانت مجالس الكتابة وحوائيت الوراقين تزخر بأنواع الدوى حتى أنه كان يعرف عدد الطلاب بإحصاء محابرههم التي يضعونها أمامهم التي كانت أهم عتاد الطالب . كما ذكر ياقوت أن أحد الكتاب أحصى نحو خمسمائة محبرة بأيدي الكتاب وعلماء الحديث بمدينة تنيس وحدها .

وقد بلغ من شأن النساخ وشيوع ذكرهم أن المؤرخين وأصحاب التراجم كانوا محل اهتمامهم ، يذكر المقرئ أنه في سنة ٥٠٦ هـ في عهد الخليفة الأمر ووزيره الأفضل ، وصل يانيس الناسخ من الشام ، فاستخدم في خزانة الكتب الأفضلية بعشرة دنانير في الشهر وثلاث رزم كسوة له في السنة ، وذلك بالإضافة إلى الهبات والرسوم التي كانت تخلع عليه من الوزير الفاطمي .

وتبدو قيمة الكتب وفضل اقتنائها في ذلك الوقت ، من قول أحد القواد حين يصف الكتاب قائلا : « ولا أعلم جارا أبر ولا خليطا أنصف ولا رقيقا أطوع ، ولا معلما أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ولا أقل حسنا ولا أكثر أعجوبة وتصرفا من الكتاب » . وقد أشار المقرئ إلى سوق الكتبيين التي كانت موجودة في الفسطاط آنذاك (٨) ، ولا شك أنها كانت تضم الكثير من دكاكين الوراقين ، كما كانت ملتقى العلماء والأدباء يترددون عليها لشراء الكتب وما يلزم من الورق وأدوات الكتابة الأخرى فضلا عن تبادلهم للآراء العلمية ونحو ذلك .

(٧) ذكر المقرئ أنه وجدت بخزائن الكتب ، بالقصر الفاطمي صناديق مملوءة أقلاما مبرية من براية ابن مقله وابن البواب ، وكان ابن البواب من النساخين المتفوقين في كتابة الخط الكوفي ، وقد تفوق على ابن مقله الذي نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٤٥ ، المخطوط ، ج ٢ ، ص ٦٢٧ .

(٨) كانت تقع هذه السوق تجاه الجانب الشرقي من جامع عمرو بن العاص في أول زقاق القناديل . المخطوط ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .

ويصف ابن الحاج حركة الصنّاع بمحال الوراقة وهم يصنعون الورق ، ويحذر طلاب العلم وغيرهم ممن يرغبون في شراء ما يلزمهم من الورق إلا في الأوقات المناسبة لذلك فهو يقول : « وليحذر عند شراء الورق من الوراقة أن يكون في وقت يعلم أنه يكشف فيه على عورات من يعمل فيها من الصنّاع ، إذ أن أكثرهم يجعلون في أوساطهم خرقة تصف العورة لصغرهما وانحصارهما على العورة وابتلالها بالماء والفخذ عن آخره مكشوف فان دخل والجاله هذه فهي منغصية » ، وكما يحذر ابن الحاج الوراقين من قيامهم بغش الورق وخلطه بالنوع الخفيف منه الذي لا يصلح للنسخ لأن ذلك تدليس على المشتري حيث لا يتحمل الورق الخفيف الكشط لازالة الكتابة لخفته .

ويظهر أن محال الوراقة لم تعد تكفى حاجة القوم في العصر الفاطمي من الورق ، خاصة الورق الأبيض منه فكانوا يجلبونه من طرابلس بالشام وكان مثل الورق السمرقندي وأفضل منه ، ومن المعروف أن طرابلس وغيرها من بلاد الشام كانت تابعة للخلافة الفاطمية .

ولا شك أن محال الوراقة كان الصنّاع بها يقومون بتجليد الكتب فيها ، وقد تعلم هؤلاء الصنّاع هذه الصناعة من الأقباط المصريين منذ فجر الاسلام ، ونقلوا أساليبها الى سائر أنحاء العالم الاسلامي . ومن الجدير بالذكر أن أقدم جلود الكتب المعروفة في العصور الاسلامية قد تم صنعها في مصر ويمكن تأريخها فيما بين القرنين الثامن والحادي عشر للميلاد .

وكانت عملية التجليد تشمل الجلد والبطانة والحزير ، فكان يختار الجلد الصافي الحسن اللون الجيد الدباغة ، وكما يستخدم الورق في عمل البطانة ولصق الجلد عليه ، وكان المجلد يستخدم في ذلك آلات منها الإبر والسيف والبيكير لمساعدته على التجليد (٩) ، وقد اعتبر عمل المجلد متما معمل النسخ والرسام وغيرهما ، إذ كان يتوقف عليه حفظ أوراق الكتاب ، والعناية بمظهره الخارجى مما بحيث يتناسب ذلك وقيمة الكتاب وما يحتويه من فصول العلم .

ويصف أصحاب الصنعة ما يجب أن يكون عليه المجلد من سرعة الفهم واجادة النظر والتأني وملاحة الاستعمال ، كما يصقون هؤلاء المذهبيين الذين كانوا يعملون على تذهيب المخطوطات ، وكانت تلك المعرفة تلى مهنة الخطاط في الأهمية ، فالمذهب هو الذي يقوم بزخرفة الصحيفة ، وكانوا يبذلون عنايتهم الفائقة في فاتحة الكتاب في المصاحف الشريفة بحيث

(٩) البيكير نوع من الآلات التي كان يستخدمها المجلد في عمل الدوائر المنقوشة التي تقع في وسط الكتاب . زكى محمد حسن ، كنوز اللاطين ، ص ١٠٧ .

تختفى تصورها ومفرداتها في حالة من الذهب واللون . وكانت بعض المخطوطات تزين بالصور والرسوم الدقيقة . وقد اهتم المذهب في مجال الوراقة بتلك الجلود الجميلة التي كانوا يجلدون بها المخطوطات فجات جميلة النقوش بديعة الصناعة ، وكان المجلدون في اليمن يلزقون الدروج ويطنون الدفاتر بالنشا ونحو ذلك (١٠) .

وتشير المصادر الى ما أخرج في سنوات الشدة العظمى وما نهبه الجنود الأتراك من خزائن السكتب بالقصر ، وما حفلت به من الكتب الجميلة المدومة المثل في سائر الأمصار ، وقد أخذ العبيد جلود هذه الكتب الجميلة وعملوا منها أمسية يلبسونها في أرجلهم ، وكان المجلدون والمذهبون قد بذلوا فيها من العناية الفائقة والجهد الشيء الكثير .

ومهما يكن من شيء فقد استمر صناع التجليد والمذهبين في العناية بصنعتهم حتى أواخر العصر الفاطمي ، وقد نسج الصناع في عهد المماليك على منوالهم ، كما أخذ الغربيون عنهم في العصور الوسطى كثيرا من أساليبهم .

وقد ظلت حرفة الوراقة رائجة حتى سقوط الدولة الفاطمية ، يذكر المقرئ أن القاضي الفاضل كان يعتنى بالكتب ويقتنى من كل فن منها ، ويبذل الجهد في الحصول عليها ، وكان له عدة نساخ لا يغترون ومجلدون لا يتوقفون عن نشاطهم في التجليد ، قيل ان خزانة كتبه بلغ عددها مائة وأربعة وعشرون ألف كتاب . وذكر ابن أبي أصيبعة أنه كان من جملة النساخ بخزانة كتبه جمال الدين المعروف بابن الحمال حيث كان خطه منسوبا جيدا .

وهكذا كان تشجيع الفاطميين وكبار دولتهم من القضاة والكتاب والأعيان واهتمامهم بشأن الحصول على الكتب واقتنائها من أهم أسباب رواج حرفة الوراقة وازدهار سوق الكتبيين بالفسطاط وغيرها ، ذكر ابن خلكان أن ابن صورة سمسار الكتب كان يجلس في دهليز داره ، ويجتمع لديه في يومى الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء والفضلاء ويعرض عليهم الكتب ، ولا يزالون مجتمعين عنده الى انقضاء وقت السوق (١١) .

كما كان تقدم فن التجليد الذي أبدى فيه الصناع مهارة كبيرة وروحا فنية عالية في ذلك العصر ، اذ به كانت تصان المصاحف وكتب الأحاديث والعلوم الشرعية .

(١٠) ذكر المقدسي أن أهل اليمن في ذلك العصر كان يعجبهم التجليد الحسن ويقتنون فيه الأجرة الأخيرة . الحسن الخاسم ، ص ٤٠ .

(١١) هو أبو الفتح ناصر بن أبي الحسن علي بن خلف الأنصاري المعروف بلقب صورة .

٥ - الكُتَّاب في العصر الفاطمي

وتنوعت أغراض الكتابة وأخذت في النمو والازدهار بمجيء الفاطميين الى مصر وحكمهم للديار المصرية (١) ، حيث أخذ نفوذ ديوان الانشاء يزداد على التدريج ، وارتفع شأن الكتاب وصاروا يعدون من أعيان الدولة وكبرائها .

وكان اهتمام الفاطميين وعنايتهم منذ بداية حكمهم بكتاب ديوان الانشاء من هؤلاء الحاصلين على قدر كبير من العلوم والمعارف ، حيث كان يتم اختيارهم من بين أفاضل العلماء ونابغيهم . ولا شك أن تلك الصفات التي كان ينبغي على كاتب هذا الديوان أن يتحلى بها ، قد دفعت الكثير من رجال العلم والأدب الى الاقبال على صناعة الكتابة والعمل على إجادتها ، لاسيما وأن منصب الكتابة هذا كان يؤهل صاحبه للوصول الى الوزارة أو الوساطة وغيرها من المناصب الكبرى في الدولة الفاطمية .

وكان يلقب صاحب الديوان أو رئيس ديوان الانشاء بكاتب الدست الشريف وبكاتب السر ، وقد ذكر القلقشندي أن الفاطميين لما ولوا الديار المصرية بذلوا عنايتهم الفائقة لديوان الانشاء وكتابه ، فارتفع بهم قدره وذاع صيته في الآفاق ، كما أوضح القلقشندي كذلك أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها رئيس الديوان ، ومن أهمها أنه يجب عليه أن يكون عالماً بالعربية وتصريف اللغسة فانه أحوج الناس الى هذه العلوم . وكان

(١) جاء الفاطميون الى مصر وهم عرب لهم الذوق العربي والثقافة العربية ، وكان الخلفاء من الأدباء والشعراء أيضاً ، فقد ذكر ابن خلكان أن الخليفة المعز كان أديباً شاعراً دقيق الحس رقيق الشعور ، فلا غرو أن بلغت أساليب الكتابة على أيديهم ما بلغه النثر والشعر من تقدم وازدهار في عصرهم . وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

ديوان الانشاء أهم دواوين الادارة فى عهد الفاطميين ، وقد أطلق عليه ديوان الرسائل ، حيث كان من اختصاص الكتاب العمل على اخراج تلك الرسائل والسجلات من هذا الديوان على شكل رسائل أدبية لخدمة الاعلام الفاطمى والدعاية لمذهبهم الدينى . وقد عبر آدم متر عن تلك الرسائل التى كانت تخرج من ديوان الانشاء فقال : « كانت رسائلهم هى أدق آية من ازدهار الفن الاسلامى » .

وقد حفلت مصر بطائفة من الكتاب فى دواوين الدولة المختلفة ، وكان من جملتها ديوان الجيش وديوان الروانب والاقطاع وديوان التحقيق ، وديوان المجلس وديوان خزائن الكسوة وديوان الأحباس ومنها أيضا ديوان الصميد ، وديوان أسفل الأرض ، وديوان الثغور والعمائر ، وديوان الخراج ، وديوان الجوالى والمواريث الحشرية ، هكذا تعددت الدواوين التى زخرت بالعديد من هؤلاء الكتاب العاملين بها .

وقد حرص الفاطميون على أن يكونوا من ذوى الخبرة والمعرفة فى أعمالهم ، كما اهتموا بتدريب كتاب الدواوين على جميع الأعمال الكتابية . ويذكر المقرئ أن يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله نصب فى داره الدواوين ، فجعل ديوانا للعزيزية فيه عدة كتاب ، وديوانا للجيش فيه عدة كتاب وديوانا للأموال فيه عدة كتاب وجهابذة ، وديوانا للخراج وديوانا للسجلات والانشاء وديوانا للمستغلات ، وأقام على هذه الدواوين زمانا . كما جعل فى داره خزانة للكسوة وخزائن للمال ، وخزائن للدفاتر ، وخزانة للأشربة ، وعمل على كل خزانة ناظرا ، ولا شك أن هذه الدواوين كانت تتطلب من أنواع الكتاب وممن يكونوا على علم ودراية بكافة ما يحتاج اليه فن الكتابة .

وقد أمدنا ابن ممتى ببيان مستفيض عن أنواع الكتاب الذين كانوا يعملون فى ديوان الخراج وغيره من الدواوين الفاطمية (٢) ، وذكر من هؤلاء الكتاب المستوفى (٣) والمعين (٤) ، والعامل والجهيد (٥) والحائز

(٢) ابن ممتى كان جده من كبار الكتاب لدى أمير الجيوش بدر الجمالى فى أواخر عهد الخليفة المستنصر .

(٣) يطالب المستخدمين بما يجب عليهم رفعه من الحسابات فى أوقاتها وينبه متولى ديوان الخراج الى ما يجب استخراجه من المال فى حينه ويقيم الجرايد ويقابل بكل ما يرد عليه من حساب ويستوفيه قوانين الدواوين ، من ٣٠ .

(٤) المعين : هو الكاتب المساعد للمستوفى فى الأعمال المذكورة ، ويوقع بشهادته على الجريدة . نفس المصدر .

(٥) الجعيد هو المخصص لقبض المال واعطاء الايصالات الدالة على ذلك .

والماسح ، والشاهد والنايب والخازن والحاشر ، وكان يخرج كتاب الخراج من الأقباط المصريين وكانت لهم معرفة بعلم الخراج ، فيحررون مساحة ما شمله رى الفيضان من الأراضي ، مما لعله بار أو شرق ، ويكتبون بذلك المكلفات الواضحة بالمساحات والقطائع على جميع الأصناف المزروعة ، ثم يقومون باحضار سجلاتهم الى الدواوين بالقصر الفاطمي ، وهكذا لم تكن أعمال الكتاب هي رسم الحروف أو زخرفة في الرسائل والمكاتبات بقدر الحاجة الى علمهم وخبرتهم بصنوف الحساب والهندسة وأعمال المساحات وغيرها من الشئون المدنية والادارية التي أشرنا اليها من قبل .

ولا شك أن كتاب ديوان الانشاء كانوا من أهم طوائف الكتاب في العصر الفاطمي ، وتشير المصادر الى أنه لم يكن هناك ثمة اختلاف في الوظيفة بين الوزير والكاتب وصاحب الوساطة (٦) . وكان صاحب الانشاء يتقاضى راتبا شهريا قدره مائة وخمسون دينارا ، وكان يتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت امرته ثلاثين دينارا . ويلى صاحب الانشاء في الرتبة صاحب القلم الدقيق الذي كان يوقع على المظالم ويجالس الخليفة في خلوته ، وصاحب التوقيع بالقلم الجليل لبسط ما أشار اليه صاحب القلم الدقيق .

ومن أهم هؤلاء الكتاب الذين تولوا رئاسة ديوان الانشاء وغيره من الدواوين الفاطمية ، وبلغوا المنزلة السامية لدى الخلفاء حتى أن المؤرخين عملوا على الإشارة بأسمائهم ، نذكر منهم يعقوب بن كلس ، وعسلوچ بن الحسن حيث كتب لهما بذلك سجلا في عهد المعز لدين الله وقرىء على منبر جامع أحمد بن طولون . كما كتب يعقوب بن كلس للعزیز بالله الفاطمي ثم أبو عبد الله الموصل من بعده ، وكذلك أبو منصور بن سورين فقد كتب للخليفة العزيز ومن بعده لابنه الخليفة الحاكم بأمر الله ، يذكر ابن سعيد أنه وجد له خطا مكتوبا في بعض الكتب كما كان شاعرا أدبيا .

(٦) يشير القلقشندي الى هؤلاء الوزراء من أرباب الأقاليم ويقول : « اعلم أن أكثر وزراءهم في ابتداء دولتهم (يعني الفاطميين) الى أثناء خلافة المستنصر كانوا من أرباب الأقاليم تارة (وزارة تامة) وتارة وساطة وهي رتبة دون الوزارة » وكما يصف كاتب الدست الشريف وهو صاحب ديوان الانشاء ومنزلته لدى الخليفة الفاطمي قائلا : « ويستشير الخليفة على أكثر أموره ولا يحجب عنه متى قصد المثل بين يديه ، وربما بات عنده اللبالي ، ولا سبيل الى أن يدخل الى ديوانه ولا يجتمع بكتابه أحد الا خواص الخليفة وله صاحب من الأمراء الشيوخ وله مرتبة عظيمة للجلوس عليها بالمخاد والمسند ، ودواته من إخص الدوى وأحسنها » .

صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٨٩ ، ص ٤٩٠ .

Lane-poole : A History of Egypt, p. 155.

وفي عهد الحاكم بأمر الله كان أبو الطاهر محمد البهركي النحوي ممن تولوا ديوان الانشاء ، وكان يبلغ الحاكم بما يشكو الناس منه بشأن ظهور أهل الذمة من النصاري وغلبتهم أو سيطرتهم على شئون الحكم ، وكان أبو المنصور بن حورس النصراني يكتب للخليفة الحاكم من قبله . وتذكر المصادر من أهل الذمة هؤلاء ، كذلك ابن أبي الدم اليهودي أحد كتاب الانشاء ، وحبيش النصراني الكاتب ، فقد ذكر المسيحي أنه حينما أمر الحاكم بلبس العيار والزناز لأهل الذمة ، وكانت حاله قد حسنت وصار لديه من المال الكثير من جراء وظيفته ، فانه فضل اعتزال الوظيفة والسكنى على ساحل القسطنطينية .

ومن كتاب الحاكم بأمر الله نذكر أيضا علي بن ظفر الأزدي ، والكاتب أبا القاسم علي بن أحمد الجرجرائي ، الذي أمر بقطع يده بسبب أنه كلن يكتب عند أخته الشريفة ست الملك ، فانتقل من خدمتها إلى خدمة أحد القواد خوفا على نفسه من خدمتها فقبضت عليه ودست له عند الحاكم ، وقد أنشد ابن ظفر الأزدي الكاتب حين أمر الحاكم بقطع يده بسبب ذلك شعرا .

ويمدنا ابن سعيد وغيره من الكتاب والمؤرخين بطائفة أخرى من هؤلاء الكتاب الذين تفوقوا في الكتابة ونظم الشعر أيضا ، كان منهم أحمد ابن الحسن الكاتب وقد مدح المؤرخ الشهير الفاطمي المسيحي في قصيدة له . وكذلك كان حسن بن عيسى من جملة الكتاب الذين خدموا في عهد الخليفة الحاكم .

وكتب للحاكم بعده القاضي أبو الطاهر الهولي ، ثم كتب لابنه الخليفة الظاهر . ومن أشهر الكتاب كان ولي الدين بن خيران تولى ديوان الانشاء الخليفة المستنصر ، وقد ذكر ياقوت أن ابن خيران تولى هذا الديوان بعد أبيه في عهد الظاهر لأعزاز دين الله ، وكان أبوه فاضلا بليغا أعظم قدرا من ابنه وأكثر علما ، بلغ رزقه في العام نحو ثلاثة آلاف دينار .

ثم تولى الكتابة بعد ابن خيران أبو الفرج الذهلي سنة ٤٣٦ هـ ، كما تذكر المصادر من هؤلاء أبا سعيد العيدي وكان من علماء اللغة والنحو في عصره .

ومن هؤلاء الذين ذاع صيتهم في الكتابة والعربية معا ، أبو الحسن طاهر بن بابشاذ ، وقد عهد إليه المستنصر بتصحيح الرسائل الصادرة من ديوان الانشاء ، فكان لا يخرج كتابا أو رسالة من هذا الديوان الا وتعرض

عليه فراجعها ويصوب ما قد يكون قد وقع فيها من الأخطاء اللغوية أو النحوية .

كانت صناعة الكتابة في العصر الفاطمي من الصنائع التي أقبل عليها الناس ، فقد قيل في ذلك العصر لو أن في الصناعات صناعة مربوبه لكانت الكتابة ربا لكل صناعة . كما قيل أيضا ان الكتابة قطب الأدب وملك الحكوة وبالكتاب قامت السياسة والرياسة . وقد اهتم الفقهاء والمؤرخون وغيرهم بهذه الصناعة وما يجب على كاتب ديوان الرسائل مراعاته فيما يكتب يقول أحد الفقهاء في ذلك : « وعليهم بالرفق بالرعية فيما يكتبون والتخفيف من التشديدات التي يؤمرون بكتابتها ولا يسوغ الأمر بها ، فان كان لا يقدر على التخفيف فلا أقل من ألا يزيد الطين بلة ويشدد » .

ومما نقله المقرئ عن ابن خيران الكاتب في توقيعه عن الخليفة المستنصر وأثر عنه ، كتابته بخط يمينه : « الفقر مر المذاق والحاجة تذلل الأعناق وحراسة النعم بادرار الأرزاق فليجروا على رسومهم في الاطلاق ، فما عندكم ينفذ وما عند الله باق » . وهكذا كانت بلاغة الكتاب ومراعاتهم لمقتضى الأحوال .

والواقع أن المصادر التاريخية لم تحفل بذكر أسماء الكتاب الذين كانوا أشبه بالكتاب العموميين وغيرهم من الخطاطين المشهورين وأصحاب النقوش والكتابات الأثرية البديعة ، وذلك كما زخرت بأسماء أصحاب صناعة الكتابة في الدواوين الحكومية ، ممن بلغوا للمكانة المرموقة في عصر الفاطميين .

وليس هناك شك في أن الخطاطين كان لهم دور هام في تقدم صناعة الكتابة وازدهارها في ذلك العصر ، يشهد بذلك ما رآه ناصر خسرو من الكتابات الذهبية الجميلة على حائط الكعبة ، ومنها باسم الخليفة العزيز بالله ، كما يدل على ذلك ما شاهده من الألواح الأخرى المصنوعة من الفضة ، وعلى كل لوح من هذه الألواح الأربعة كتابة جميلة تحمل اسم السلطان (أى الخليفة) الذي أرسله من سلاطين مصر ، وكان كل من الخلفاء الفاطميين يرسل لوحا في عهده ، وكلها تبرهن على ما بلغه الخطاطون المصريون من المهارة الفائقة وما قاموا به من اعداد مثل هذه اللوحات بأنواع الخطوط الذهبية والفضية بكامل زخرفتها .

ولم تقتصر حرفة الكتابة على كتاب ديوان الانشاء أو غيرهم من كتاب الدواوين وموظفى الادارة الفاطمية ، بل كانت هناك جماعات من الكتاب يجلسون في المساجد ، ويأتيهم من الأميين من يريد كتابة عقد أو خطاب

ونحو ذلك ، وقد ذكر ناصر خسرو أن جامع عمرو بن العاص كان لا يكاد يرسم أو يجدد وحتى يستهلك لكثرة تردد الناس فيه حتى قيل أن عدد الموجودين فيه في أى ساعة من ساعات النهار لم يكن يقل عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحرون الصكوك والعقود وغيرها . وليس هناك شك في أن الجوامع الشهيرة في الاسكندرية وتيس ودمياط وغيرها في شمال البلاد ، كما كانت الجوامع ومساجد الصعيد في أسوان وادفو وقفت واسنا وقوص وقنا وغيرها من المدن بأنحاء الصعيد الأوسط على هذا النحو ، فهي فضلا عن تأدية الشعائر الدينية وعقد الحلقات العلمية بها (٧) ، كانت حافلة بهؤلاء الكتاب الذين احترفوا مهنة الكتابة وصاروا يتكسبون منها رزقهم .

ولا شك أن وقوع الأزمة وانتشار الأوبئة والمجاعات ، مما عرف في التاريخ بسنوات الشدة العظمى في عهد الخليفة المستنصر (٨) ، كان له أثره في نشاط حركة الكتاب وصناعتهم ، فقد أقفرت الدواوين ، وأصبحت الخليفة لا يجد من حوله من الكتاب أو غيرهم من الخدم ورجال حاشيته ، وتوقفت أعمال الكتابة ومحال الوراقة بالقسطنطين وغيرها ، وبات الناس لا يجدون ما يأكلونه حتى قيل أن الناس أكل بعضهم بعضا فضلا عن القبط والكلاب وما أشبه ذلك .

على أية حال لم يمض وقت طويل حتى عاد الاستقرار والرخاء بفضل أمير الجيوش بدر الجمالي الذي عاد إلى مصر من بلاد الشام ، وخلص البلاد من دعة الفتنة وأعمل القتل في قاداتهم ، ونجح في القضاء على الجند الأتراك الثائرين من العرب ومن العبيد السودان في جنوب الصعيد .

(٧) اشتهرت من الأسرات التي انفردت باشتغالها بالعلوم والآداب في صعيد مصر أسرة بني السديد حيث كانت لهم شهرة واسعة ، كما كان بنو النضر من أجل العلماء الذين ذاع صيتهم في العصر الفاطمي فقاموا ببناء جامع الخطبة بمدينة اسنا في عهد الخليفة الظاهر ، وكان من أشهر علمائهم علي بن النضر فقد تبع في علوم كثيرة ، فلا غرو إذا انتشرت الكتابة وكثر عدد الكتاب في هذه المدن أو تلك الجهات . الأذفوى : انطسالح السعيد : ص ٣٧ - ٣٨ .

(٨) تمتعت البلاد بفترة من الرخاء والاستقرار بعد مجيء الفاطميين إلى مصر عام ٣٥٨هـ ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فقد حلت المصائب وعم الوباء والقحط في سنة ٤٤٦هـ حيث انقطع ماء النيل وأهملت الزراعة وعم الوباء وامتد ذلك ثماني سنوات (٤٤٦ - ٤٥٤هـ) ثم عاد القحط والفلاء وما أعقبه من الوباء والموت في سنة ٤٥٩هـ وظل الحال كذلك إلى سنة ٤٦٤هـ ، واقترب ذلك بقيام الفتن والحروب الأهلية بين الجند الأتراك الثائرين بقيادة ناصر الدولة ابن حمدان وبين الجند والسودان التي كانت تشبه من أزرهم أم الخليفة المستنصر .

ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٢٠ : المقرئى : أغانة الأمة ، ص ٢٤ .

وهكذا انتظمت الحياة العامة ، وبدأت الحياة الثقافية ومجال الوزارة وغيرها تستعيد نشاطها من جديد فى أواخر القرن الخامس الهجرى . . . ومن الذين اتصلوا بخدمة أمير الجيوش بدل الجمالى وكتب فى ديوان مصر شرف الدين مماتى أبى المكارم بن سعيد بن أبى المليح (٩) ، وقد ولى استيفاء الديوان ، ولما توفى ولى ابنه المهذب بن أبى المليح زكريا ديوان الجيش بمصر فى أواخر أيام الدولة الفاطمية .

وتولى ديوان الانشاء فى عهد الخليفة الأمر ومن بعده من الخلفاء الفاطميين الكاتب الشهير أبو القاسم على بن منجب الصيرفى ، مؤلف كتاب قانون الرسائل . وقد عنى فيه بكل ما يتصل بصناعة الكتابة ، وما ينبغى على الكتاب مراعاته وتلك الصفات الواجب التحلى بها أثناء تأدية مهمتهم بديوان الرسائل . وقد ذكر ابن ميسر أنه أخذ صناعة الترسيل والكتابة من ثقة الملك أبى العلاء صاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش ، ثم انتقل الى ديوان الانشاء ، وبه الشريف سناء الملك أبو محمد الحسينى ، ثم تفرد بالديوان بعد ذلك فصار فيه بمفرده . وكانت وفاته فى شهر صفر سنة ٥٤٢ هـ فى عهد الخليفة الحافظ .

ومن هؤلاء الكتاب الذين حظوا بالمكانة السامية لدى الخلفاء عبد العزيز بن الحسين بن الحباب السعدى التميمى ، وكان يدعى بالجليل المكين لجلوسه الى الخليفة الفائز (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وقد ذكر أنه تولى ديوان الانشاء للفائز مع الكاتب الشهير القاضى الموفق بن الخلال . وكان ابن الخلال من الذين تولوا ديوان الانشاء بقية أيام الخليفة الحافظ الى آخر أيام الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . ويقول السيوطى : « ثم أشرك العاضد مع ابن الخلال فى ديوان الانشاء القاضى جلال الدين محمود الأنصارى » .

وفى وزارة صلاح الدين الأيووبى فى أواخر أيام الفاطميين ، كتب القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى بين يدى ابن الخلال فى ديوان الانشاء (١٠) . فلما ملك صلاح الدين البلاد كتب له القاضى الفاضل ،

(٩) وهو جد أسعد بن مهذب بن زكريا بن قدامة الشهير بابن مماتى مؤلف كتاب قوانين الدواوين المتوفى سنة ٦٠٦ هـ . مقدمة كتاب القوانين ، ص ٩ ، المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

(١٠) هو عبد الرحيم بن على بن الحسن بن أحمد بن الفرج ، كان أبوه ينتقل قضاء مدينة بيسان فلهذا نسبوا اليها وكانت ولادته بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ هـ وخدم الموفق يوسف بن محمد الخلال صاحب ديوان الانشاء فى أيام الحافظ لدين الله ، وعنه أخذ صناعة الانشاء .

المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٢٠ .

ثم أضيفت إليه الوزارة ، ويذكر الادفوى أن أول من كتب الانشاء للملك
الناصر صلاح الدين كان إبراهيم بن محمد الأسواني الملقب بفخر الدولة ،
وكان ابن أخت الرشيد والمهذب بن الزبير الأديب الكاتب . ويقول الادفوى
أن الفاضل عبد الرحيم اليبساني بعد أن تولى الوزارة كان إذا بلغه أن ولد
فخر الدولة ببابه وأحمد بن عرام واستأذنا عليه يقول (١١) : « يدخل رضى
الدولة لأجل أبيه يعنى فخر الدولة هذا وابن عرام لأبيه » . مما يدل على
منزلة الكتاب لدى الخلفاء الفاطميين ووزرائهم ومن حكم البلاد من بعدهم
من الأيوبيين .

وهكذا لعب الكتاب فى مصر أيام الفاطميين دورا هاما ، واليههم يعزى
فضل ازدهار فن الكتابة فى ديوان الانشاء أو الرسائل وفى غيره من
الدواوين ، كما أصبحت الكتابة قطب الأدب وربما لكل صناعة فى العصور
الإسلامية المختلفة .

(١١) الطالع السعيد ، ص ٦٤ .

الفصل الثالث

صناعة الأواني والأدوات الخزفية والزجاجية منذ فجر الاسلام حتى نهاية العصر الفاطمي

- ١ - صناعة الفخار والخزف منذ فجر الاسلام .
- ٢ - صناعة الزجاج في عصر الولاة والولاة المستقلين .
- ٣ - ازدهار صناعة الزجاج والبلور الصخري في العصر الفاطمي .

١ - صناعة الفخار والخزف منذ فجر الاسلام حتى نهاية العصر الفاطمي

كانت صناعة الفخار من الصناعات المصرية القديمة (١) ، وفي العصر البيزنطي استخدم الصلصال في صناعة الأوعية الفخارية وغيرها على نطاق واسع ، وتخصصت بعض المدن المصرية في انتاج انواع معينة كالجرار الفخارية التي اشتهرت بها مدينة قنا ، وجرار النبيذ التي كانت تصنع منها كميات هائلة ، تستخدم في الأغراض الدينية وغيرها .

كما انتشرت مصانع الفخار في كل من البهنسا والشيخ عبادة والفيوم وطيبة وغيرها من المدن المصرية (٢) ، فكانوا يصنعون الأزيار والقلل وأوعية الخل والعسل والنبيذ والسمن وغير ذلك من الأدوات التي كانت ذات أهمية في حياة الشعب (٣) ، وقد ترك العرب عجلة الصناعة تدور كما كانت في العصر القبطي ، وظلت البلاد تصنع أدوات وأواني الفخار مثل المسارج Lamps ، والأواني الصغيرة ذات الرسوم الدينية التي أجادها الصانع المصري أجادة تامة ، حيث زينت المسارج بنقوش دينية وخاصة تلك التي

(١) عثر بترى على عشرات من الجرار المصنوعة من الفخار عليها كتابات بالمداد ، وهذه الجرار ترجع صناعتها ربما الى منتصف عهد الأسرة السابعة للملك مينا . لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٥٨٦ .

(٢) ذكر Johnson انواعا عديدة من الفخار والخزف التي عثر عليها في كل من البهنسا وطيبة وبأخوم وهيرمونفيس وأرسينوي والأشموين والفيوم وغيرها من المدن المصرية والتي ترجع صناعتها الى ما بين القرن الخامس والسادس الميلاديين .

(٣) تشير المصادر الى أنه تم تاجير عديد ٢٤٠٠ حرة من الجرار الفخارية لمدة عام في أفروديتو (كوم اشقاو) وذلك في سنة ٥٦٥ م .

كانت تصنع بجوار أديرة وكنائس القديس ميناس ، وكانت تعرف بقوارير مينا (٤) .

وكانت صناعة الفخار منتشرة في الوجه القبلي ، وخاصة في الصعيد الأعلى ، ويحدثنا أبو صالح الأرمني عن طين أسوان فينعتة بطين الصناعة ، حيث صنعوا منه الأواني ، وهو نوع من النبيذ يتخذ من الشعير - كما أشرنا من قبل (٥) . وكان بالقرب من مدينة أسوان جبل هناك يعرف بجبل الطفل يعمل منه الفخار . وكان المصريون يصنعون من مادة الطفل الأزيار والقلل المستخدمة في حفظ الماء ، كما كان الفخار المصنوع بالأقصر لا نظير له في ديار مصر ، وقد استخرج من المعدن أو الطين بالقرب من قنا وقوص وأطلق عليه معدن البرام ، صنع منه المصريون بعض الأواني المنزلية المستخدمة في طهو الطعام .

ولا شك أن المادة التي كانت تصنع منها بقية الأواني ومعظم الأوعية لحفظ الخل والعسل والنبيذ كانت هي الطمي المتوفرة في كل مكان بسائر أنحاء البلاد . وقد بلغ من انتشار صناعة الفخار من الطمي أنهم كانوا يصنعون من تلك الأواني والأوعية بمختلف الأشكال والأحجام ، ومجموعات من لعب الأطفال بأشكال العرائس والفرسان والحيوانات كالحصان والجمل وغيرها (٦) .

كما انتشرت في عصر الولاة صناعة الأنابيب الفخارية لاستخدامها في توصيل وتوزيع المياه داخل الدور والمنازل في المدن المصرية .

أما صناعة الفخار المدهون أو الخزف Pottery فقد عرفت لدى المصريين القدماء ، لكنها كما يبدو لم تكن واسعة الانتشار في العصر

(٤) ظل الأقباط في العصر البيزنطي وبعد دخول العرب مصر يعرضون على اقتناء قوارير مينا كي يملئوها بالماء تبركا بالقديس ماري مينا في مريوط ، وكان ضابطا بالجيش الروماني واعتنق المسيحية وقد استشهد بسبب ذلك سنة ٢٩٦ م وما يذكر أنه شاعت بين الناس بعد وفاته في مكان بالصعيد غرب الاسكندرية أن من يشرب من عين الماء القريبة من قبره كان يشفى من مرضه ، حتى أنهم أقاموا مصنعا لعمل الأواني الفخارية الصغيرة خصيصا لذلك ، وقد زينت هذه الأواني بصورة القديس ، وتم اكتشاف العديد من تلك الأواني في أكسرتخوس (البهنسا) وأنطويوبوليس ، الشيخ عبادة يرجع منظمها للقرن السادس الميلادي .

(٥) كما عثر في منطقة كل البندارية في الوجه البحري على مجموعة من المبانى المبنية من الطوب اللبن واستفها مغطاة بالفخار ومجموعة من جدران الفخار ترجع إلى العصر القبطي والإسلامي . جريدة الأهرام : المجلد : ٢٦٠٥٨ - ١٢ ذي الحجة سنة ١٤٠٥ هـ .

(٦) يضم المتحف القبطي مجموعة من لعب أطفال مصنوعة من الفخار ، كما يضم وعاء مصنوع من الفخار عليه كتابة تتضمن دعاء لثلاثة من الرهبان ، وترجع صناعتها إلى القرن السابع وحتى القرن العاشر الميلادي .

البيزنطى ، وتشير المصادر الى أن منطقة مصر الوسطى والفيوم كانت احدى مراكز صناعة الخزف (٧) ، فقد اشتهرت كل من البهنسا والشيخ عبادة بهذه الصناعة حيث وجد عدد من مصانع الخزف بها (٨) . وليس هناك ما يشير الى توقف تلك المصانع فى فجر الاسلام .

كما تشير الحفائر التى أجريت فى منطقة الفيوم أن حركة صناعة الفخار والخزف لم تتوقف فى صدر الاسلام ، فقد عثر على أوان فخارية وخزفية ، مما يدل على استمرار المصانع فى إنتاجها . وقد استطاع صناع الخزف ، كما يذكر كريستى Christie فى مصر بعد الفتح العربى أن يجربوا طرقا فنية وموضوعات زخرفية جديدة ، وكان مما أنتجه المصرى آنذاك لوحات القاشانى التى كانت تكسى بها الجدران ، تلك اللوحات أو البلاطات المصنوعة من الخزف بالألوان والأشكال المختلفة .

وفى عصر الولاة استمر إنتاج أنواع من الأختام التى كانت تصنع فى مصر البيزنطية ، كما استمر إنتاج نوع من الخزف ذى المهاد الأحمر وعليه زخارف نباتية ، وقد كان هذا النوع معروفا فى مصر فى نهاية العصر الرومانى وظل مستعملا فى فجر الاسلام (٩) .

وقد استطاع الصناع فى مراكز صناعة الخزف فى مصر أن يبتكروا أنواعا جديدة من الخزف كالأطباق والصحون العميقة والمسطحة التى كانت تستخدم فى الطعام (١٠) ولا ريب أن المسلمين قد شجعوا هؤلاء الصناع حيث زاد الإقبال والطلب على الألوان الخزفية الذين وجدوا فيها عوضا عن الألوان الذهبية والفضية والتى كره الاسلام استعمالها (١١) .

(٧) الفرق بين الفخار والخزف ، فالأول ما صنع من الطين أو الطين فقط دون تزجيج أما الخزف فهو المصنوع من الطين وقد غطى بطبقة من الزجاج بعد دهانه بماء الزجاج الأبيض ، فالزجيج **glazing** أن يدهى الاناء المصنوع من الطين المحروق بعد دهانه بماء الزجاج الذائب ، عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية ، ص ٥٢ .
(٨) عثر على بقايا عدد من مصانع الخزف ، ويشير أوراق البردى اليونانية الى أنه تم إيجار أحدها مقابل ألفين وأربعمائة دراهمة .

The Oxyhnehus papyri, No, 1655.

(٩) يهدف المتحف البريطانى من هذا النوع بنسخ مربع عليه كتابة نصها « عمل أبو نصر البصرى بمصر » . زكى محمد حسن : أطلس الفنون ، ص ١٠٣ .

(١٠) ومن المرجح أن هذه الأنواع من الأطباق الخزفية وغيرها كانت تصنع فى مدينة القسطنطينية فى عصر الولاة Johnson : Economic Studies, p. 114.

(١١) وردت أحاديث نبوية شريفة منها قول النبى صلى الله عليه وسلم : (لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها فانها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة » ويقول أيضا صلى الله عليه وسلم : « الذى يشرب فى اناء الفضة انما يجرجر فى بطنه من نار جهنم » صحيح البخارى : كتاب الأطعمة ، كتاب الأشربة .

الحرف والصناعات - ١١٣

كما حاول الصانع تقليد الخزف الصيني في مصر ، خاصة في العصر العباسي نتيجة العلاقات التجارية بين مصر والصين ، حيث وجدت الأواني الخزفية الصينية سوقا رائجة لها في البلاد ، وكانت تلك الأواني من الغضائر والطرف البديعة ، مما كان لها في نفوس المسلمين مكانة سامية .

ويشير بتلر الى أن صناعة الخزف الاسلامي في مصر في عصر الولاة لم تكن أقل من مثيلتها في منطقة العراق ، وأن الخزف المصري المحلي والمتطور عن العصور السابقة ، قد استمر انتاجه بنفس الطرق والمهارات السابقة التقليدية والموروثة عن تلك العصور (١٢) . والواقع أنه ليس هناك ما يحول دون قيام المصريين بصناعة مثل هذه الغضائر الصينية ، أو ما تم صنعه على يد الفخاريين في مدينة سامرا نفسها بالعراق ، وأن يحذو المصريون حذوهم في هذا التقليد في العصر العباسي أو في أواخر عصر الولاة وفي بداية عهد الطولونيين .

ولا غرابة في ذلك فقد مهر المصريون في صناعة أنواع الخزف بأساليب متعددة وعرفوا الوقت المناسب لعمل أواني الخزف من السنة ، وكما يذكر المقرئى فانه اختص شهر أمشير من الشهور القبطية بصناعة أواني الماء ، فان ما عمل فيه من هذه الأواني الخزفية يبرد الماء في الصيف أكثر من تبريد ما يعمل في غيره من الشهور . هذا ولم تقتصر مراكز صناعة الخزف على القسطنطينية ، بل كانت أسوان واسنا وأخميم وأسيوط والأشمونين والفيوم وغيرها من المدن المصرية . وقد صنع الخزافون في هذه المراكز الصناعية من الأنواع المختلفة لتلبية احتياجات الناس مثل الفناجين والأقداح والكنوس والصحن والسلاطين والأكواب والقوارير والأباريق والأزيار والمسارج .

كما سادت صناعة الفخار في ذلك العصر (١٣) ، وقد وردت لفظة الجرار وهو صانع الجرار أو القدور من الخزف وذلك في عقد بيع من ادفو على أوراق البردي مؤرخ بآخر صفر سنة ٢٣٣ هـ ، واسم البائع أو الزوج فيه ، يزيد بن قاسم الجرار ، كما ورد في عقد آخر يرجع تاريخه الى شهر ذي القعدة سنة ٢٣٩ هـ واسم البائع فيه يزيد الجرار من جهة

(١٢) يرى بتلر أن صناعة الخزف في مصر ترجع الى العصور القديمة ، وأن الصناعة التي ظهرت في المغرب والاندلس في العصر الاسلامي ترجع في أصلها الى الصناعة المصرية . فتح العرب لمصر ، ص ٩٦ .

(١٣) وفي خطاب بشحن سفينة من جهة ادفو بالصعيد الأعلى تضمن طلب ارسال عدد ١١٧ جرة من الجرار الفخارية ، وكانت الجرة تسع ما بين ١٣٦ الى ١٤٠ رطلا من السسل . جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ٥ ، ص ١٣٥ - ١٣٧ .

ادفوا بالقرب من أسوان ومما يدل على أن منطقة الصعيد الأعلى كانت إحدى المراكز الهامة لصناعة الجرار الفخارية والقصور الخزفية .

وفي عهد الطولونيين تطورت صناعة الخزف في مصر ، وأنتج الصناع نوعاً جديداً من الخزف عرف بالخزف ذي البريق المعدني Lustre-painted pottery ومن المرجح أن المصريين في مصر قد

اكتسبوا فن صناعة هذا النوع الجديد من هؤلاء الصناع الذين قدموا في صحبة ابن طولون إلى مصر (١٤) ، ومن المعروف أن مؤسس الدولة الطولونية كان متأثراً إلى حد بعيد بما كانت تجرى صناعته في سامرا بالعراق ، والتي عاش فيها شطراً كبيراً من حياته ، وكانت سامرا إحدى المراكز الهامة لترويج وصناعة المنتجات والفنانات الصينية .

ويختلف الخزف ذو البريق المعدني عن الخزف العادي الذي كان منتشراً في عصر الولاة في طريقة صناعته ، حيث كان يبدأ الخزاف بتشكيل الاناء من الطين العادي ، ثم يغطي هذا الطين بطبقة رقيقة من البطانة Slip ، ثم يسوى الاناء في الفرن ، ويخرج بعد تسويته لكي يتم دهانه بالزجاج الأبيض المعتم ، ثم يدخل الفرن مرة ثانية لكي يثبت هذا الدهان الزجاجي ثم يخرج الصانع لكي يزخرفه بأن يرسم عليه مزيج مكون من مواد مختلفة قوامها الكبريت وأكسيد الفضة أو أكسيد النحاس الأحمر وبرادة الحديد ، وتذاب هذه المواد في الخل . وكان الخزافون يستخدمون هذه المواد في رسم عناصره الزخرفية المختلفة ، ثم يدخل الخزاف الاناء بعد تجميده للمرة الثالثة لكي يثبت الزخارف عليها ، وينبغي أن يراعى أن يكون الفرن ذا نار هادئة (١٥) ، بحيث تكسبه النار في النهاية بريقاً معدنياً يختلف لونه بين الأحمر النحاسي ، والأصفر الضارب للخضرة ، وكانت تنبعث من هذا البريق أحياناً ألوان قوس قزح الشهيرة .

وتشير المصادر إلى الخزف ذي البريق المعدني الذي صنع بهذه الطريقة في العصر الطولوني في مراكز صناعة الخزف المصرية ، من أنها لم تكن تختلف كثيراً عن الخزف ذي البريق المعدني الذي عثر عليه في سامرا

(١٤) ليس هناك اتفاق بين مؤرخي الحضارة في تعيين الإقليم الذي نشأت فيه صناعة الخزف ذي البريق المعدني ، ففريق يرى أنه نشأ في مصر ، وفريق آخر يجذب فكرة نشأته في بلاد المشرق أو في بلاد فارس على الوجه الخصوص .
كريستي : تراث الإسلام ، ج ٢ ، ص ٤٥ .

(١٥) يشير اخوان الصفا إلى استخدام الحار والأفران ، حيث كان الجرارون والقصوريون والغضارون ، ومن يطبخ الآجر يستخدمونها في صناعة الفخار والخزف والغضار المذهب كما أطلق عليه العرب .

رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

وفى الرى ومدينة الزهراء • يؤيد ذلك ما عثر عليه من آلاف القطع الصغيرة والكبيرة التى كشفت عنها حفائر الفسطاط وقد يكون من بينها قطع مستوردة من العراق وقطع أخرى قد صنعت فى مصر تقليدا للغضار المذهب العراقى Golden Lustre Pottery .

وقد امتاز الغضار المذهب المصرى فى الواقع عن نظيره العراقى ببعض الخصائص الناتجة عن طبيعة التربة المصرية • فالطينة تميل فى لونها الى الاحمرار ، وكذلك من الناحية الزخرفية فمنها العناصر الهندسية والمستمدة من صور الحياة العامة بما يكشف عن قدرة الصناع المصريين ، ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بمجموعة من الأواني المصنوعة من الخزف ذى البريق المعدنى زخارفها مرسومة فوق الطلاء الخارجى بأكاسيد معدنية تعطى بريقا معدنيا خاصا ، وكانت هذه الأنواع من النماذج التى أثبتت مهارة الصناع المصريين وقدرتهم على ابتكار أساليب جديدة تفوقوا بها على نوع الخزف الصينى بعد فترة قصيرة •

ومن أسماء الصناع المصريين التى أمكن قراءتها على قطعة من الغضار المذهب اسم ابن دهان أو ابن خلدان ، وربما كان هو الخزاف الوحيد فى عهد الطولونيين الذى عمل على انتاج هذا النوع من الخزف ذى البريق المعدنى •

وقد أصبحت الفسطاط من أهم مراكز صناعة الخزف فى العصر الطولونى ، كذلك ظلت الفيوم تنتج أنواعا من الخزف المسمى بخزف الفيوم ، واشتهرت أيضا مدينة البهنسا بمصانعها الخزفية ، كما حافظت أسيوط على شهرتها فى هذه الصناعة ، وكان أحد الصناع منها هو المعلم أحمد الأسيوطى ، يشهد بذلك تلك القطعة من الخزف التى يحتفظ بها من القطع العديدة متحف الفن الاسلامى بالقاهرة •

وهكذا ازدهرت صناعة الفخار والخزف بأنواعه المختلفة وشاع استخدام تلك الأواني والقدرور والقصاص المصنوعة منها ، ويشير المقرئى الى تلك الصدقات التى كان يقوم ابن طولون بتوزيعها على الفقراء من عامة الشعب ، حيث كان يذبح فى مطابخه من البقر والكباش وتفرق للناس فى القدرور الفخار والقصاص الخزفية • وكما استمرت صناعة المسارج والقلل والأواني المختلفة من الفخار والخزف ، فانه كشفت حفائر الفسطاط عن مجموعة من التماثيل الصغيرة ولعب الأطفال وبعضها على هيئة كباش أو أسود ولا غرو فقد صنعت منها فى ذلك العهد تماثيل من كل نوع من أنواع المواد ، منها ما يصنع من الفخار أو الخزف ، ومنها ما يصنع من الذهب والفضة أو حتى من الكافور والعنبر •

ويظهر تقدم صناعة أنواع الخزف والغضائر فى عهد الاخشيديين

ويذكر ابن دقماق من بين المواضع زقاق الغضارين بالفسطاط ، ولا شك أنه كان يضم العديد من حوانيت صانعي الأواني الخزفية وبائعيه في ذلك الوقت .

وتشير رواية ابن سعيد كما ينقلها عن ابن زولاق الى استخدام الغضائر والطياير وغيرها من أنواع الخزف ذي البريق المعدني في بلاط الاخشيد ، فقد حدث يوما أن كانت أم الاخشيد تشرف على المائدة ، ولم تعجب بالأواني والطياير المصنوعة من الغضار لقدمها ، فأمرت بشراء مائدة حسنة ومجموعة من الغضائر والطياير الجدد ، والتي فرح الاخشيد بها عند مشاهدته إياها .

يضم 'متحف الفن الاسلامي' العديد من قطع الخزف التي ترجع صناعتها الى عهد الاخشيديين ، منها ذات الزخارف المرسومة على هيئة طيور على حافتي شجرة الحياة ، كما ورد اسم أحد الصناع المهرة ويدعى هارون ابن قاسم الفخار على شاهد جنازى من حجر رملي يرجع الى سنة ٣٢٤ هـ محفوظ بالمتحف ، لعله كان أحد الفخريين أو الغضارين الذين كانوا يعملون بزقاق الغضارين بالعاصمة الفسطاط في ذلك الوقت . وفي الواقع فإن ما تم العثور عليه من منتجات العهد الاخشيدى من الخزف بأنواعه المختلفة لا يكفي للحكم على نشاط الخزافين ، ويمكن القول بأن عهد الطولونيين والاخشيديين لم يطرأ فيه على صناعة الفخار والخزف من جديد سوى ما شاع ذكره وأقبل عليه الناس في مصر وما عرف بالخزف ذي البريق المعدني .

كما عرفت مصر في ذلك العهد صناعة الأواني الفخارية السوداء ، لاستخدامها في نقل الزئبق وفي تحضير الأدوية ، وكذلك قوارير النفط التي شاع استعمالها خاصة في أوقات الحرب . وقد تم العثور على مجموعات كبيرة من الأواني الخزفية المتعددة الأشكال ، والأواني الفخارية المستعملة بين مداميك البناء كما عثر في مدن الفسطاط والاسكندرية والفيوم على بعض الأواني الفخارية السوداء التي أطلق عليها الفقاعات ، يبدو أنها كانت تستخدم في حفظ الفقاع أو في شربه كما هو الحال بالنسبة لتلك الأواني التي كانت تصنع من طين أسوان الذي سبق ذكره .

ويعتبر العصر الفاطمي هو العصر الذهبي لصناعة الخزف وخاصة بهذا النوع المعروف بذي البريق المعدني . فقد عشق الفاطميون الآداب والفنون ، وشجعوا الصناع في كل ميدان لابتكار أدوات الترف والنعيم ، كما بلغ بهم الأمر أن كانوا يستدعون من بغداد وغيرها من الحواضر الاسلامية

الأخرى هؤلاء الحرفيين للنهوض بصناعة الخزف ذي البريق المعدني وغيرها من الصناعات الأخرى .

وتشير المصادر الى ازدهار صناعة الخزف بأنواعه المختلفة في كل من القسطنطينية ثم القاهرة والاسكندرية والفيوم ، وقد كانت من أهم مراكز صناعة الخزف ذي البريق المعدني في مصر الفاطمية ، ومما يدل على ذلك ما أمكن العثور عليه بظاهر القسطنطينية من القطع الخزفية ، وهي تختلف صناعتها عما كانت عليه من قبل العصر الفاطمي من حيث رقة جدارها وتغطيتها بطلاء أبيض يرسم عليه ببريق معدني وضوء باللون الذهبي أو البني (١٦) ، كما عثر على مجموعة من الخزف في مدينة القسطنطينية من نوع الخزف المحزوز تحت الدهان ، وتشبه كثيرا في زخرفته موضوعات الخزف ذي البريق المعدني .

ومن هؤلاء الذين ذاع صيتهم في صناعة الخزف مسلم وسعد فقد كانا من أمهر صناع الخزف ذي البريق المعدني في العصر الفاطمي ، وقد كان مسلم بن الدهان من أعلام الخزافين وكان له صبيان وتلاميذ يتعلمون منه أصول الصنعة ، ومن المرجح أن مصنعه كان بمدينة القسطنطينية ، ويميل أحد الباحثين الى أن هذا الخزاف الشهير مسلم بن الدهان كان يعمل في مصنعه في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، بينما عم نشاط سعد في عهد الخليفة المستنصر (١٧) .

ولعل من أشهر الأطباق التي شاع ذكرها طبق غين مولى الحاكم بأمر الله ، وتنسب صناعة هذا الطبق الى علي البيطار الخزاف ، حيث جاء مطابقا في أسلوبه الزخرفي . كذلك اشتهر من تلاميذ مسلم بن الدهان كل من ابراهيم الخزاف وابنه هيثم بن ابراهيم ، حيث كان يعد ابن الدهان صاحب مدرسة كبيرة من الخزافين المصريين في القرن الخامس الهجري .

وقد وردت من توقيعات هؤلاء الخزافين على قطع الخزف ما نعرف منها أسمائهم نذكر منهم الطيب ، والحسين بن نظيف الأمري ، وجعفر

(١٦) تميزت زخارف الحرف الفاطمي بأنها كانت مزودة بالموضوعات الأدبية ورسوم الطيور أو الحيوانات على أرضية من الزخارف النباتية .

ديماند : الفنون الإسلامية ، ص ٢١٧ .

(١٧) لا ينق كاركل جوهان لام أستاذ الفنون الإسلامية بمعهد الآثار مع على بهجت الذي كان يعمل مديرا لدار الآثار العربية في تحديد الزمن الذي عاش كل من مسلم وسعد فيه ، وفي أن سعد عاش في عصر سابق لعصر زميله مسلم بن الدهان ، الخزف الفاطمي ، بحث نشر مجلة المقطف ، ص ٥٧١ ، ترجمة عبد الرحمن زكي .

المصرى (١٨) . كذلك نعرف بعض الأسماء لصناع الخزف فى العصر الفاطمى الغيبى والمصرى والشامى وغزال الهرمزي وأبى العز ، وكانت شهرتهم فى التصوير على الخزف وغيره من طلاء الجدران فى ذلك العصر .

ولا شك أن أوجه الخلاف بين صناعة مسلم بن الدهان وتلاميذه وبين ما كان ينتجه سعد فى مصنعه ومعه تلاميذه أيضا ، إنما كان يتركز حول زخرفة الأطباق والأواني الخزفية ، حيث جاءت زخارف الخزاف الشهير سعد خالية من زخرفة ظاهر الأطباق ، بما يشبه تلك الزخارف والرسومات المختلفة التى تميزت بها منتجات أبى القاسم مسلم بن الدهان . ومن أهم القطع الجميلة التى كانت من صناعة الفنان سعد تلك السلطانية المحلاة برسم شخص يحمل فى يده مشكاة أو مبخرة والمحفوطة حاليا بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن .

ولا ريب أن تنوع انتاج الخزف والزخارف إنما يدل على ازدهار صناعة الخزف ذى البريق المعدنى وغيره ، كما كان تشجيع الخلفاء الفاطميين ورجال الدولة لأصحاب مصانع الخزف من عوامل تقدم هذه الصناعة وسائر الصناعات والفنون الأخرى . فقد كانت الأطباق الخزفية تستخدم بكثرة على أسطة الفاطميين ، حيث كان يصل عددها نحو خمسمائة على المائدة الواحدة من تلك الصحون المترعة بالألوان الفاتكة من الحلوى وكان يسع الطبق الواحد منها سبع دجاجات بالإضافة الى أنواع أخرى من الأطعمة والحلوى ، وكان من رسوم الدولة الفاطمية توزيع الحلوى فى الجامات المصنوعة من الخزف وأيضا المتارد وغيرها .

ويذكر القلقشندي أن خزانة الشراب فى القصر الفاطمى كانت تحتوى على مجموعة كبيرة من الأواني والأدوات النفيسة ، منها الأواني والزبادى والصحون والبرانى والأزيار وكلها مصنوعة من الخزف ذى البريق المعدنى وغيره من أنواع الفخار الحسن الصنعة .

ومما يدل على ازدهار صناعة الخزف فى عهد الخليفة المستنصر ما أشار اليه ناصر خسرو فى وصفه للخزف المصنوع بالقسطنطين ، حيث قال : « ان المصريين كانوا يصنعون بمصر الفخار من كل نوع وهو لطيف وشفاف بحيث اذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وتصنع

(١٨) يحتفظ متحف الفن الاسلامى بمجموعة من النحف الخزفية منها سلطانية من الخزف ذى البريق المعدنى وجزء من اناء مكتوب عليه من عمل الطبيب ، وسلطانية أخرى من الحسين بن تظيف الأمري .

حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف ، ج ٢ ، ص ٧٥٦ .

منه الكئوس والأقداح والأطباق وغيرها ، وهم يلونوها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف في كل جهة تكون بها ، . وهكذا كان الصناع المصريون يصنعون من أنواع الفناجين والقدر البراني والصحن وغيرها ويقومون بزخرفتها بالأوان تشبه ألوان القماش المسمى بالبوقلمون .
ومما يدل على شيوع استخدام الأواني الخزفية وازدهار صناعتها أيضا في العصر الفاطمي ما ذكره ناصر خسرو عن استخدام التجار والبقالين لهذه الأواني الخزفية فيما يستخدمه التجار من الورق في العصر الحاضر ، فقد كانوا يضعون فيها ما يبيعونه ويأخذها المشتري بالمجان .

كما يشير الشيزري الى استخدام مدقوق الخزف المصنوع بالفسطاط وغيرها من مراكز الصناعة ، في تنظيف مقالى النحاس وغيرها من أواني النحاس المستعملة في اعداد وتجهيز أنواع الحلوى ، وقد شاع استعمال الخزف كذلك في صنع بلاطات ونجوم لكسوة الجدران ، كما صنعت القوارير والمسارج والمباخر ومساند الأقلام فضلا عن التماثيل الصغيرة .
وكان يؤخذ على الخزافين الا يبيعوا قدر الخزف أو الأواني المغشوشة بحيث لا تخفى أعمال الدهان على جدارها العيوب أو الثقوب والكسور التي بها أو أن تعمل من الجبس المعجون بالشحم وبياض البيض أو الخزف الأحمر المسحوق ، حتى يمنعهم العريف أو أمين الصنعة من ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن صناعة الفخار غير المدهون كانت واسعة الانتشار ، وقد شهد العصر الفاطمي تطورا ملحوظا في أشكال الأواني وانتاج القدر ذات الأحجام المتوسطة والجرار الكبيرة ، كما انتشرت صناعة الاختام الفخارية لزخرفة الكعك وغير ذلك من الأغراض .

كما تعددت أشكال المسارج المصنوعة من الفخار ، وتنوعت زخارفها في العصر الفاطمي ، حيث نجح الخزاف أو الفخرائي في عمل جدارين لها الخارجي منهما ذات زخارف هندسية والداخلي منهما فهو لحفظ الزيت .

ولم تكن الفسطاط فحسب من مراكز صناعة القلل ، بل كانت المراكب النيلية ترد محملة بأنواع الفخار من القلل والجرار من جهات اسنا والأقصر وقنا من مدن الصعيد ، حيث كان لكل مركز أو مدينة طراز خاص يناسب ميول الصناع ومهارتهم الفنية .

وكانت الاسكندرية تؤلف مركزا هاما لصناعة التحف الفخارية الصغيرة المتخذة للزينة كأنواع الكئوس ذات الرسوم البارزة وكانت تنطى

باللون الأصفر ، أما الجزء الداخلى فكان لونه يميل الى الاصفرار (١٩) .
وهكذا أثبت الصانع المصرى حرصه على أن يضيف على كل ما أخرجته يده
جمالا زخرفيا يبعث على البهجة والسرور . كما يشهد له بحسن الذوق
والمهارة .

وتشير المصادر الى استمرار تقدم صناعة الفخار غير المدهون وأنواع
الخزف المختلفة حتى أواخر العصر الفاطمى ، فقد ذكر ابن ميسر أن الوزير
الأفضل بعد مقتله عام ٥١٥ هـ ، خلف من أنواع الأباريق والقدرور
والزبادى ، ومن برانى الصينى ما لا يعد ولا يحصى ، كما تدل مجموعة
القدرور والصحنون من الخزف ذى البريق المدنى المحفوظة بمتحف الفن
الاسلامى على ازدهار هذه الصناعة ، وكذلك المجموعة الأخرى التى يحتفظ
بها المتحف القبطى المستقلة على أجزاء من رقاب وبرابغ للقلل والتى تم
زخرفتها بالأشكال النباتية والهندسية وبالكتابات العربية الجميلة (٢٠) .

(١٩) استقرت الحفائر الأثرية فى كوم الدكة بالاسكندرية عام ١٦٤٨ عن كشف قطع
مثلة من الخزف الفاطمى ، والخزف الشائع فى مصر فى عصر المالك .

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٥٢٩ - ٥٣٠ .

(٢٠) ومن الكتابات العربية التى أبدعها الصانع مثل « من خف عف » وترجع صناعتها
الى أواخر العصر الفاطمى .

٢ - صناعة الزجاج فى عصر الولاة والولاة المستقلين

عرف المصريون القدماء صناعة الزجاج (١) ، كما ذاعت شهرة الاسكندرية فى العصر الرومانى والبيزنطى بصادراتها من الورق والزجاج والمنسوجات (٢) ولم يقتصر الحاكم الرومانى على حمل الرمال الجيدة بالسفن البحرية وارسالها الى روما بل حمل معها صناعات الزجاج من اهل الاسكندرية لشهرتهم فى ذلك الوقت المبكر ومهاراتهم الفائقة فى صناعة انواع الأطباق والسلاطين والقوارير وزجاجات العطور ، وفى عمل الاكواب الزجاجية المطلية بالمينا .

وكانت الاسكندرية قبل الفتح العربى تنتج كميات كبيرة من الزجاج تكفى لحاجة الاستهلاك المحلى ، ولسد حاجة الأسواق الخارجية .
وقد عثر فى جهات الفيوم وهيرموبوليس (الأشمونين) وأكسيرانخوس (البهنسا) فى منطقة مصر الوسطى ، وفى أرمنت بالصعيد الأعلى على

(١) بدأ انتاج الزجاج على نطاق واسع فى مصر القديمة فى اوائل الأسرة الثامنة عشر ، وكان من أنواعه الخرز والحائم السفيرة والأوانى من الزجاج الأخضر . وقد عثر على جففات سفيرة لصهر الزجاج بنواحي تل العمارنة بالقرب من الدنيا ، وأشار فلندرز بترى الى أنها كانت تستخدم فى أعمال الزجاج وفى زخرفة الأبناء الزجاجية .

لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٩٧ ، ٣٠٦ - ٣١٤ .

(٢) كان الزجاج من بين السلع التى فرضها أغسطس الامبراطور الرومانى على المصريين بعد احتلال البلاد عام ٣١ ق م ، حيث كانت ترسل عينات ضمن الجزية السنوية . ينظر : فتح العرب لمصر ، ص ٩٥ ،

Johnson : Byzantine Egypt, Economic Studies, p. 100.

بعض قطع الزجاج ، مما يدل على الأرجح أنها كانت تضم مصانع للزجاج منذ العصر البيزنطي (٣) . وليس من شك أن تأثيرات الصناع الفنية - كما تشير النماذج العديدة التي عثر عليها - على زملائهم في العالم الخارجي كانت شاملة ، من حيث طرق الصناعة وأشكال المنتجات الزجاجية منذ القرنين الثالث والرابع الميلاديين .

ومما لا شك فيه أن وفرة المواد الخام اللازمة لصناعة أنواع الزجاج كان إحدى الأسباب الهامة لتقدم هذه الصناعة ، فقد كان النطرون يوجد في وادي النطرون بالقرب من الاسكندرية ، وفي جهات البحيرة في شمال البلاد ، كما توفرت في نواحي الكاب بالوجه القبلي ، أما الرمال الصالحة فقد عرف المصريون أماكنها المنتشرة على شواطئ البحر المتوسط وفي سيناء وغيرها منذ العصور القديمة (٤) . وفي صحراء النطرون كما ذكر استرابو كان صناع الزجاج المصريون لهم أسرار يحفظونها ولاسيما في معامل (ديوسبوليس) وانهم كانوا يقلدون الجواهر في صناعتهم ويعملون مقام المر لحفظ الدهون . ولعل هذه المعامل المشار إليها هي التي انفرد المقریزی يذكرها بعد ذلك من المؤرخين المسلمين .

أما استخراج النطرون من البركة التي عرفت باسمه بعد الفتح العربي وكما أشار القلقشندي فإنه كان مباحا لعامة الشعب من هذه الجهة التي كانت تقع الى الغرب من مديرية البحيرة ، ومن جهة الخطارة من أعمال مديرية الشرقية . ولا شك أن هؤلاء المصريين الذين كانوا يعملون على استخراجها ، كانوا يذهبون به الى معامل الزجاج بوادي النطرون أو بمسابك الفسطاط بعد انشائها في عصر الولاة .

(٣) قامت بعثة الحفائر التابعة لجامعة ميتشجان بالبحث في جهات كارنيس Caranis وفي أرمنت ، وقد عثرت على قطع زجاجية عديدة ترجع صنعها الى القرن الرابع الميلادي ، وكما أجريت حفائر أخرى في هرموبوليس (الاشمونيين) وأرسينوى بالقرب من الفيوم وغيرها من الجهات فضلا عما عثر عليه بحفائر مدينة الاسكندرية ، وما أشارت اليه الوثائق التي عثر عليها في تلك الجهات .

Johnson : Economic Studies, p. 112.

(٤) كانت وفرة المواد الخام مثل رمل الكوارتز و كربونات الكالسيوم والنطرون بالقرب من مراكز صناعة الزجاج ، وكانت توجد كميات وافرة من الرمل الصالح للصناعة على السواحل المصرية . ومن المعروف أن الزجاج الخام يتكون بنسخين مواد الرمل والجير والصودا عند درجة حرارة معينة حتى تتحد سيليكات الصوديوم والكالسيوم ، كما كان الرصاص يحل محل الكالسيوم في صناعة أنواع خاصة من الزجاج ، هولز : قصة الكيمياء ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، لوكاس : المواد والصناعات ، ص ٤١٧ .

ومن الطبيعي أن يصبح المركز الرئيسي لصناعة الزجاج في العاصمة
الفسطاط خاصة بعد أن تم تخطيطها وازدادت أعداد السكان بها وتبحرت
في العمران على حد قول ابن خلدون (٥) . ويبدو من رواية ابن عبد الحكم
التي ذكرها في معرض حديثه عن خطط الفسطاط من أنه كان يوجد مصانع
للزجاج قائمة بالمواضع التي اختطت بها القبائل العربية فهو يقول : « أن
بلى اختطت خلف خارجة بن حذافه ثم مضوا بخطتهم من دار عمرو بن يزيد
الى دار مسلمة ودار واضح ، حتى جاوزوا دار مجاهد بن جبير الى درب
الزجاج » . وهكذا يمكن القول بوجود مواضع لصناعة الزجاج أثناء سكنى
العرب واستقرارهم بها .

أما عن إشارة ابن سعيد بوجود مسابك للزجاج ، بمدينة الفسطاط
فلا غرابة في ذلك (٦) ، حيث أمكن العثور على قطع من الزجاج المزخرف
بالبريق المعدني فقد كشفت حفائر الفسطاط عن كأس جميلة تزينها زخارف
نباتية متنوعة وعلى حافتها من الخارج كتابة بالخط الكوفي نصها « الأمير
عبد الصمد بن علي » وكان واليا على مصر سنة ١٥٥ هـ ، ولعله الأمير
نوسى بن علي كما ذكر الكندي ، فقد تولى الامارة على مصر من قبل الخليفة
العباسي أبو جعفر المنصور في هذا العام المشار اليه .

ويؤيد أيضا مدى تقدم صناعة الزجاج المصري في العصر العباسي
ما يحتفظ به متحف الفن الاسلامي من قطع الزجاج ذي البريق المعدني ،
وعلى قاع اناء صغير مزخرف من تلك القطع كتابة كوفية نصها « مسا عمل
في طراز الفيلة بمصر سنة ١٦٣ هـ » والواقع أن هذه إشارة هامة تدل
على وجود أكثر من مصنع للزجاج في القرن الثاني الهجري بالفسطاط
ونشيرها من المدن المصرية ، وربما كان يقع مصنع الزجاج المعروف بطراز
الفيلة بالقرب من بركة الحبش بجنوب الفسطاط ، وذلك وفقا لما أوضحه

(٥) يذكر ابن خلدون في مقدمه أسباب ازدياد الطلب على الحرفيين والصناع وأرباب
الهنر في سائر الصناعات ، حيث يقبل الناس على البناء والعمارة وما تتطلبه من المواد الخام
والسلع المصنوعة وأعمال النجارة والحداة ومن الأدوات والأواني والألواح الزجاجية وغيرها .
المقدمة ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٦) لم يحدد ابن دقماق شيئا عن تاريخ انشاء أو قيام تلك المسابك بمدينة الفسطاط
وإن نثر على شيء من المصادر التي نقل عنها ابن سعيد روايته ، وحتى ابن سعيد في كتابه
المغرب في. حلى المغرب لم يذكر ذلك صراحة كما نقل عنه صاحب الانتصار ، ومن المرجح أن
العرب بعد استقرارهم بالعاصمة الفسطاط واقبالهم على اقتناء أدوات الترف والكماليات
وجدوا أنفسهم يعملون على قيام مثل هذه المصانع الخاصة بسبك الزجاج ، وصناعة الأواني
الزجاجية وغيرها ، دون التأثير على المصانع القائمة بالاسكندرية أثناء الفتح الاسلامي للبلاد ،
ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ، ص ١١ ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٠٨ .

المقریزی فی بناء جامع البقيلة المطل على بركة الحبش ، وقيل ان السبب فی تسميتها كذلك انما يرجع الى وجود تسع قباب بهذا الموضع ، اذا رآها الانسان من بعيد شبهها بمدرعین على فيلة كالتی كانت تسير فی المواكب أيام الأعياد وعليها السرير وفوقها المدرعون أيام الخلفاء العباسيين .

ومن خير الشواهد على تقدم صناعة الزجاج فی مصر منذ فجر الاسلام ما أنتجته تلك المصانع والمعامل من الصنج والأوزان الزجاجية اذ كان ضرب السكة وتحقيق أوزانها عن طريق الصنج الزجاجية معروفا منذ العصر البيزنطي (٧) ، وكان لابد عند اصلاح الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٥ هـ) ، للسكة من ضرورة التحقق من أوزان الدينار والدرهم الشرعية ، ولم يكن يتحقق ذلك الا عن طريق تلك الصنج المصنوعة من الزجاج (٨) .

ومن أقدم الصنج الزجاجية التي تحمل اسم الولاة ، التي تم العثور عليها اسم الوالي على مصر قره بن شريك (٩٠ - ٩٦ هـ) وليس بين أيدينا من دليل واضح يدلنا على أنها صنعت بمعامل الزجاج بمصر أم أنه تم صنعها بمصانع الاسكندرية . وهناك مجموعة من الصنج هذه تكشف عن أسماء بعض هؤلاء الزجاجيين وأسماء الخلفاء الأمويين والعباسيين (٩) . كذلك تحتفظ المتاحف بمجموعة من صنج أوزان العملات كنصف الدينار وثلاثة وعلى دينار باسم الأمير يزيد بن حاتم (١٠) ، وعبارة صنعة «كميل» وغير ذلك من الأسماء على هذه الأوزان الزجاجية التي تدل على ازدهار صناعتها فی عصر الولاة .

(٧) كان الزجاج مستعملا فی صناعة الأوزان الزجاجية وتلك الصنج ابان العصر الروماني . زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٧٩ .

(٨) كانت تصنع على شكل أفراس زجاجية تتخذ عيارات للوزن ، كما كان يطبع بها على الأواني لبیان أحجامها المختلفة وكثيرا ما كانت تحمل أسماء الولاة أو الحكام المسلمين ، زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٥٨٢ ، عبد الرحمن فهمي ، صنج السكة فی فجر الاسلام ، ص ١٢ .

(٩) وصلت إلينا بعض القطع التي تحمل اسم عبد الملك بن يزيد ، وأخرى تحمل توقيع نصه « صنعة كميل على صنعة زجاجية بدينار باسم الخليفة أبي جعفر المنصور » .

(١٠) الأمير يزيد بن حاتم نولى إمارة مصر من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور سنة ١٤٤هـ وهو أول من قام بضم برقة الى أعمال مصر وأمر عليها عبد السلام بن عبد الله ابن هيرة وذلك فی سنة ١٤٨هـ . الولاة والقضاة ، ص ١١١ - ١١٩ ، رقم السجل : ٦٩٦٦ .

وتشير المصادر الى اقبال المسلمين فى مصر وفى غيرها من البلدان المفتوحة على استعمال الأواني الزجاجية والقوارير لحفظ العطور وغيرها أكثر ممن سبقهم (١١) ، وإلى تفضيل أواني الشرب المصنوعة من الزجاج على غيرها لما لها من مميزات وفوائد جمة، فهي لا تصدأ ولا تئدى ولا يتخللها وسخ كما يقول الغزولى ، وإن اتسخت فالماء وحده لها جلاء ، ومتى غسلت بالماء عادت جديدة ، والشراب فيها أحسن منها فى كل جوهر .

ولا شك أن الاسكندرية ظلت فى عصر الولاة على حالها فى انتاجها للزجاج ، حيث كان الصناع يشكلون الزجاج بنفخه فى قالبين الواحد بعد الآخر (١٢) وكانت القوالب أحيانا عبارة عن قطعتين من الفخار أو المعدن أو من الخشب ، وكانت تصنع من الزجاج الأواني والقارورات والأختام . وتشير رواية الكندى الى أنه حينما توفى عقبة بن أبى سفيان وكان واليا على مصر سنة ٤٤ هـ تم دفنه بمنية الزجاج بالاسكندرية (١٣) ، مما يدل على أن هذا الموضع كان يخص صناعة الزجاج فى العصر الاسلامى المبكر (١٤) ، كما أشار المقرئى الى معمل الزجاج بوادى النطرون بالقرب من الاسكندرية ، وتبدو مهارة المصريين فى استغلال المواد الخام اللازمة لصناعة الزجاج التى كانت متوفرة فى هذه المنطقة .

وكانت مصانع الاسكندرية تنتج أنواعا من الزجاج ، وقد نقل الصناع الذين وفدوا من العراق طريقة صنع الزجاج على أيدي المصريين ، حيث كشفت حفائر مدينة سامرا عن وجود نماذج كثيرة من نوع الزجاج المسمى ألف زهرة والذي استمرت مصانع البلاد فى انتاجه فى فجر الاسلام .

وهكذا أصبحت صناعة الزجاج فى الاسكندرية والفسطاط وغيرها من المدن المصرية تمثل جزءا هاما من الحرف والصناعات التى اشتهرت بها

(١١) ورد فى إحدى البرديات المتضمنة نفقات مختلفة بالمتحف منها قارورة ماء ورد جيد ، جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١٨٠ .

(١٢) اكشف الصناع المصريون منذ العصر البيزنطى طريقة نفخ الزجاج ، ولا يزال الزجاج المصنوع باليد يستغرق زمنا طويلا ، وينطلب مهارة فائقة ، ولذلك فهو نادر الوجود وغالى الثمن . بحث نشر مجلة الشباب وعلوم المستقبل عام ١٩٨٤ .

(١٣) وقد ذكر أن منبة الزجاج كانت من ضواحي الاسكندرية ، وهى تقع على ترعة المحمودية فى المنطقة الواقعة بين فم الترعة وشارع الرصافة بقسم محرم بك بالاسكندرية . الولاة والقضاة ، ص ٣٦ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ج ١ ، ص ٤٢٢ .

(١٤) ظل النطرون مستعملا فى صناعة الزجاج بالاسكندرية منذ العصر الرومانى وحتى عام ١٧٩٩م حين مجيء الحملة الفرنسية على مصر ، لوكاس : المواد والصناعات ص ٤١٧ .

مصر ، فقد تم صنع الاواني الزجاجية بمختلف الاشكال والأحجام ، فضلا عن الأدوات والصنـج الزجاجية وما الى ذلك من القوارير لحفظ العطور(١٥) .

وحيثما استقلت البلاد تحت حكم الطولونيين والاختشيديين شهدت نشاطا ملحوظا في سائر الحرف والصناعات ، فقد تطلبت نشأة القطائع ومظاهر الترف في القصور الطولونية المزيد من انتاج مصانع الزجاج ، وازدياد نشاط العاملين بالمسابك الزجاجية وغيرها من مسابك الفولاذ والنحاس التي اقيمت بالفسطاط .

ومن أشهر الصنـاع الذين سجلوا توقيعهم على احدى النخف الزجاجية في عهد الدولة الطولونية ، كان نصير بن أحمد بن هيثم ، فقد صنع لأحد أمراء هذه الدولة تحفة من الزجاج مكتوب عليها « مما عمل للأمير ربيعة » (١٦) ولعل نصير الزجاج هذا كان ابنه اسحق الذي أشار اليه ابن النديم في أخبار الكيميائيين ، وقد جاء في ترجمته أنه كان يخرط الزجاج ويصنف الكتب في هذه الصناعة ، ومنها كتابه المسمى بالتلاويح وسيول الزجاج ، وكتاب صنـاع الدر الثمين ، وقد توفي سنة ٣٢٦ هـ في بداية عهد الاختشيديين .

فلا غرو ان تقدمت صناعة الزجاج في عهد الطولونيين والاختشيديين، وقد عرف الصنـاع الطرق الكيميائية وراحوا يمارسون عمليا ما لم يختبر قبل ذلك ، كما اخترعوا آلات التقطير ، وباشروا تحليل المواد ، ولم يقتصر نشاطهم على مجال الصناعة ، بل انهم وضعوا الكتب في صناعة أنواع الزجاج .

كما تشير المصادر الى أن أصحاب صنعة الكيمياء لم يقتصر الامر عليهم في الاشتغال بخرط الزجاج (١٧)، بل كان من علماء المسلمين وأرباب

(١٥) يضم متحف الفن الاسلامي (قاعة الطراز الفاطمي) مجموعات من النقشاني والقماقم المصنوعة من الزجاج ذات زخارف مخالفة بارزة منفوحة في قوالب مسنة وترجع مناساتها الى القرن الثاني وحتى القرن الثامن بعد الهجرة ، كما ورد في أوراق البردي ذكر القوارير لحفظ الروائح العطرية ، جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ٦ ، ص ١٨٠ .

(١٦) والأمير ربيعة هو في الغالب ابن أحمد بن طاون الذي قيل انه قام بشودة ضد ابن أخيه هارون بن خماروية في سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م ، ولكن انتهت بالفشل وقتل ربيعة . الكندي : الولاة ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ، مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية ، ص ٢٢٩ .

(١٧) ورد اسم الحسين بن صالح الزجاج في عقد بيع يرجع تاريخه الى سنة ٢٧٤هـ وكان يعمل في صناعة الزجاج بمدينة أشمون إحدى مدن الصعيد الأوسط .

جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ١ ، ص ١٢٣ ، ١٢٥ .

اللغة والنحو من كان يخرط الزجاج مثل أبى اسحاق بن ابراهيم الزجاج النحوى ، وكانت وفاته سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م .

وقد نجح الصناع أو الزجاجون فى ذلك العهد فى عمل نوع من الزجاج السميك لعلهم قصدوا به تقليد البلور الصخرى الذى كانت له فى النفوس مكانة سامية . وأمدتنا حفائر الفسطاط وغيرها من مناطق صناعة الزجاج بكثير من القطع عبارة عن أكواب وأباريق بأشكالها التى تشبه الكمثرى وكذلك عثر على مجموعة منها حليت رسومها بالكتابات الكوفية وبالأختام والنقوش البديعة ، وكما اشتهرت مصانع الزجاج فى كل من الفسطاط والاسكندرية والقيوم بانتاج ما يلزم الاستعمال المنزلى من كافة الاوانى الزجاجية وما يستخدم لحفظ الزيوت والعطور ، كانت من الجودة والكثرة ما عبر عنه ديماندا قائلا : « وبلغت أشكال هذه الاوانى وأحجامها من التنوع والكثرة مبلغا يصعب معه حصر أنواعها » .

وفى عهد الطولونيين والاختشيديين تقدمت صناعة البلور الصخرى ، ويبدو أن شهرة مصر فى هذه الصناعة كانت واسعة قبل الاسلام ، يتضح ذلك من وصف الجاحظ لأنواع البلور المعروف فى عصره حيث كان منه الزجاج البلورى الصافى الأبيض النقى ، ومنه الفرعونى الفائق .

وكان الصناع فى الاسكندرية والفسطاط يحصلون على البلور الصخرى من مناطق الحجاز ، ومنه ما يؤتى من الصين ، كما ظهر منه بالمغرب على مقربة من مراكش ، حيث يأخذون القطعة من حجر البلور ، ثم يهذبونها ويحولونها الى التحفة التى يريدونها ، ثم ينقشون عليها بالزخارف والكتابات العربية بطريق الحفر عليها .

ويمدنا البلوى بوصف لتلك الأباريق المعمولة من البلور الصخرى ، وكانت تقدم بين يدي الأمير أحمد بن طولون فيقول : « وقدم بين يديه صينية فيها ثلاث خرداديات وكوز ماء وقدح لطيف (١٩) ، وجعل بين يدي الجارية صينية فيها خردادى وقدح لطيف وكوز ماء ، وكانت الخرداديات تستخدم فى الشراب » .

وهكذا تشير المصادر الى شيوع استخدام هذا النوع من اوانى وأباريق البلور فضلا عن استخدام الزجاج المطلق بالمينا منذ أوائل القرن الثانى الهجرى فى مصر وغيرها من البلدان الاسلامية . فقد قيل ان الخليفة

(١٨) الخردادى هو ابريق من البلور له عنق ضيق وجسم يزداد اتساعا من أعلى الى أسفل ، والخردادى الحمر وهو مربع ، والغالب أنه الاناء المخصص لشرب الخمر .

العباسى المعتمد لما ورد الخبر بوفاة ابن طولون فى مصر اشتد حزنه عليه ،
فكان اذا قعد للشرب جعلت بين يديه صينية فيها خردادى وقدح وكوز
مصنوعة كلها من البلور .

وكان يصنع فى مصر وفى بعض بلاد العالم الاسلامى نوع من البلور
المزخرف يستخدم فى صناعة المصابيح البلورية المزدانة بالنقوش والآيات
القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ، وكثيرا ما كانت تزدان
الجوامع والقصور بهذا النوع من المصابيح .

٣ - ازدهار صناعة الزجاج والبلور الصخرى فى العصر الفاطمى

ويبدو أن صناعة المصاييح البلورية وغيرها من الأواني والتحف قد عادت الى الاحياء والازدهار من جديد خلال العصر الفاطمى ، يتجلى ذلك فى قيام الصناع المهرة بالفسطاط والاسكندرية بانتاج المصنوعات البلورية المزدانة برسوم الطيور والأشكال النباتية والزخارف البديعة ، ويبدو خير شاهد على تقدم هذه الصناعة وازدهارها ذلك الابريق الصخرى المحفوظ فى كاتدرائية القديس مرقس بالبندقية ويحمل اسم الخليفة العزيز بالله الفاطمى .

ولا شك أن حياة الترف التى عاشها الخلفاء الفاطميون ورجال دولتهم كانت احدى العوامل الهامة فى ازدهار صناعة التحف البلورية ورواجها فى أسواق الفسطاط وقد بلغ الأمر فى عهدهم أنهم خصصوا لهم خزانة خاصة بالقصر الفاطمى تسمى خزانة البلور . وينقل المقرئى عن مؤلف كتاب الذخائر والتحف أنه رأى بطرابلس قطعتين من البلور الصافى حسن الصنعة ، احدهما خردادى والآخر باطيه ، مكتوب على جانب كل واحدة منها اسم العزيز بالله ، تسع الباطيه سبعة أوطال ماء بالمصرى ، والخردادى تسعة ، وكان أحد الناس قد اشتراها من مصر من جملة ما أخرج من خزانة البلور فى سنوات الشدة العظمى .

وكان من أسباب انخفاض ثمنه ، انتاج الأدوات والتحف الكثيرة من البلور ، حتى استطاع الخلفاء والوزراء وعليه القوم فى العصر الفاطمى أن يجمعوا منها المقادير الكبيرة ، كما اتخذ الفاطميون من أواني البلور المرصع بالجواهر . وتشير وثائق الجنييزة الى تنوع صناعة الزجاج والبلور فى ذلك العصر حتى أصبح عمل عصا الكحل لتزيين المرأة ، صناعة قائمة بذاتها فى أسواق الفسطاط .

ويصف ناصر خسرو حركة الصناع وتفوقهم في هذه الصناعة في هذه الأسواق العامرة فيقول : « ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية في الجمال ، وهم يحضرونه من المغرب ، وقيل انه ظهر حديثا عند بحر القلزم بلور الطف وأكثر شفاقية من بلور المغرب » . وهكذا أصبح من الميسور جلب هذا النوع من البلور من القلزم وسواحل البحر الأحمر ، وكان يفوق المستورد من المغرب شفاقية وجمالا .

ومن التحف البلورية التي حملت اسم الخليفة الفاطمي الظاهر تلك الحلقة من البلور على شكل هلال ، وعليها كتابة بالخط الكوفي العبارة الآتية : « لله الدين كله الظاهر لا عزاز دين الله أمير المؤمنين » ، مما يدل على أن صناعة البلور قد بلغت أوج ازدهارها في عصر الفاطميين ، وقد شاعت تحلية قطع البلور بالزخارف النباتية ورسوم الطيور فضلا عن الكتابات الكوفية عليها .

كما تدل أعمال الصناع على مهارتهم الفائقة وشيوع استخدام البلور ، فمن ذلك ما قام به الصناع المصريون من عمل تلك المreme من البلور الخالص بمسجد قبة الصخرة وذلك في سنة ٤١٨ هـ في عهد الخليفة الظاهر . ويذكر الغزولي أن من جملة التحف المصنوعة من البلور ما وجد منه في خزانة السيدة بنت المعز لدين الله حين وفاتها ، كان أبريق من البلور مزخرفا بالياقوت الأحمر وزنه تسعة وعشرون مثقالا .

كما يذكر ابن ميسر أن من جملة ما أخرج من التحف والطرائف من خزائن المستنصر ثلاثون ألف قطعة بلور كبار . مما يدل على مدى شغف الفاطميين واقبالهم على اقتناء التحف المصنوعة من البلور الخالص .

وقد ذكر أن من جملة الصناديق التي نهبت أيام الشدة العظمى من خزائن القصر كان منها صندوق مملوء بأباريق من البلور المنقوش بالزخارف والرسومات الجميلة وبعضها غير منقوش . ويذكر المقرئ أن أحد الذين يوثق بهم نقل أن قدحا من البلور النفيس الذي لا زخارف له بيع أمامه بمائتين وعشرين دينارا ، وأن خرداديا من الباور بيع بثلاثمائة وستين دينارا ، وأن كوز بلور بيع بمائتين وعشرة دنانير ، وأن صحونا مموهة بالمينا كان يباع الواحد منها بمائة دينار أو أكثر .

وكانت الألوان والأباريق المصنوعة من البلور الصخري تختلف في قيمتها وثمان شرائها بحسب كبر الآنية واحكام صنعتها ، فالقطعة التي تحمل رطلا اذا كانت في غاية الصفاء والسلامة من التشعير تساوي عشرة دنانير مصرية في ذلك العصر . وليس هناك شك في أن الاقبال على شراء

أو اقتناء مثل هذه الأواني والأباريق وغيرها لم يسكن قاصرا على بلاط الفاطميين ، بل تعداه إلى سائر المصريين ، لاسيما بعد أن تمتعوا بحياة النعيم والاستقرار في ظل الحكم الفاطمي . فقد أقبل عليه القوم على شراء الأباريق والخرداديات والمصابيح البلورية لأنها كانت أصلب من الزجاج العادي وألطف منظرا ، كما اتخذوا من البلور آنية اعتقدوا أن للشرب فيها فوائد .

ويظهر أن صناعة البلور الصخري كان لها أثرها على صناعة الزجاج على مثال أواني البلور ، واستخدموا في زخرفتها أسلوب القطع على غرار ما كان متبعاً في زخرفة البلور الصخري (١) . ومن الملاحظ أنه كثر استخدام الأواني الزجاجية ذات الزخارف بدلا من الأواني البلورية ، وذلك لرخص ثمنها ومساواتها في القيمة الزخرفية إلا أنها كانت دونها بكثير من حيث القيمة الصناعية .

وتشير المصادر إلى ازدهار صناعة أنواع الزجاج في العصر الفاطمي . فقد اشتهرت مصر بصناعة الزجاج المطلي بالمينا ، وقد عثر على قطع منه عليها زخارف مختلفة ورسوم متنوعة وكتابات وشارات . حيث تمكن الصناع من ابتكار أساليب صناعية جديدة مثل النفخ واستخدام القالب والزخرفة بالإضافة إلى أعمال القطع والطبع والتذهيب والتلوين بالمينا (٢) أو بمادة البريق المعدني .

ومن أهم أنواع الزجاج ذي البريق المعدني الذي أنتجه الصناع أو الزجاجون في القسطنطينية والإسكندرية وغيرها ، ذلك النوع الأحمر وعليه زخارف من رسوم طيور ، يبدو أنها ذات الصلة الوثيقة بتلك الرسوم التي نعرفها على الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني ، وهناك قطعة من هذا عليها توقيع الخزاف الشهير « سعاد » . كما أنتج الزجاجون في القسطنطينية وفي مراكز صناعة الزجاج الأخرى نوعاً من الزجاج الأبيض السميك (٣) .

(١) كان من أبرز النماذج هذه التحف الزجاجية التي صنعت تقليداً للبلور مجموعة من الكؤوس اصطليح الأوربيون على تسميتها باسم كؤوس هديج وتضم المتاحف الأوربية منها حتى الآن ثلاثة عشر كوباً في نورمبرج ومتحف ركس بأستردام وغيرها . ويماثلها : الفنون الإسلامية ، ص ٢٢٧ .

(٢) المينا : مادة كالزجاج نصف شفافة تذاب وتستخدم في زخرفة المعادن كالذهب والفضة والنحاس . زكى محمد حسن : الكنوز الفاطمية ، ص ٢٧ .

(٣) يضم المتحف القبطي بالقاهرة مجموعة من الأواني المختلفة المصنوعة من هذا النوع من الزجاج الأبيض السميك .

كما استمرت في العصر الفاطمي صناعة الصنّج الزجاجية لوزن نقود الذهب والفضة ، ويرجع ذلك الى احتفاظ هذه الأوزان الزجاجية بنظافتها فلا يعلق بها شيء الأمر الذي يجعل الوزن بها دقيقا ، فضلا عن عدم تأكلها . وقد اكتشف في سمناي إحدى قرى جزيرة تنيس في القرن التاسع الهجري مجموعة من الصنّج الزجاجية مكتوب عليها أسماء الخلفاء الفاطميين ابتداء من الخليفة المعز وحتى الخليفة المستنصر (٤) ، كما أمدنا لينبول ببعض نماذج وأشكال تلك الصنّج والكتابات الكوفية المنقوشة عليها أسماء معظم الخلفاء الفاطميين (٥) وكانت هذه الصنّج الزجاجية يتم صنعها بدار العيار ويتم بيعها لأصحاب الحرف والصنائع تحت إشراف المحتسب بعد تصحيح عيارها أو وزنها كسائر الصنّج والموازين والأكيال الأخرى .

وكانت أكبر مراكز صناعة الزجاج مسابك الزجاج بالفسطاط التي أشار إليها ابن دقماق ، وقد ظلت هذه المسابك في عملها وإنتاج أنواع الزجاج رغم ما أصاب المدينة الكبيرة في سنوات الشدة العظمى ، وبعد الحريق الذي أمر به الوزير شاور في خلافة العاضد . وكانت صناعة الزجاج من الصناعات المقلقة للراحة والتي ربما تضر بالصحة ، ولذلك كان يفرد لمسابكها أطراف المدينة ، كما كان يشترط على أصحابها شروط صحية ، مثل سعة الأماكن وتهويتها وارتفاع سقفها ، وكان على وإلى المدينة أن يشرف على توفير ذلك .

ولعل سوق الزجاجين الذي أشار إليه المقرئزي كان يقع بالقرب من منيل الزجاج أو معمل الزجاج الواقع بأرض الحسينية خارج باب الفتوح بالقاهرة ، ولا شك أنه كانت تباع في هذه السوق كافة أنواع الأواني والأدوات المصنوعة من الزجاج (٦) .

ومن أسماء الزجاجين الذين نعتقد أنهم زاولوا عملهم بمسابك الزجاج والمعامل التي أشارت إليها المصادر التاريخية ، كان عباس بن نصير

(٤) تم اكتشاف هذه المجموعة حوال سنة ٨٢٧هـ وكان مكتوب على بعضها اسم الامام المعز ، وعلى بعضها اسم الامام العزيز بالله ، ومنها ما عليه اسم الامام الحاكم بأمر الله ومنها ما يحمل اسم الظاهر لأعزاز دين الله ، والمجموعة الكبرى منها تحمل اسم الخليفة المستنصر . المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٩ ، زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٨٠ .

(٥) أحصى Lane-poole من أسماء الخلفاء الفاطميين التي حملتها تلك القطع من الأوزان الزجاجية مثل الحاكم بأمر الله والخليفة المستنصر ، والأمر بأحكام الله ، وكذلك الظاهر والخليفة العاضد .

(٦) استمرت تفرض عليه رسوم الإنتاج حتى العصر المملوكي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ ، ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص ٧ ، محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، ج ١ ، ص ٤٢٢ .

ابن أبي يوسف جرير بن سعيد البلاوى ، فقد ورد توقيعه على قطعة من الزجاج المشرب بالزرقه من مصر ، ويرجع تاريخها الى حوالى سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م .

كما كان من هؤلاء الزجاجيين المشهورين فى بداية العصر الفاطمى ، أبو جعفر الوزير أبو الفضل ، فهو كما يذكر المسبى كان حاذقا فى صناعة الزجاج ، وكانت وفاته فى عهد الخليفة الظاهر فى سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م .

ومن أسماء محترفى خراطة الزجاج فى ذلك العصر ما تشير اليه شواهد القبور ، منها شاهد يرجع الى سنة ٤٠٢ هـ ويحمل اسم « محمد ابن مرزوق بن رزق الله بن عيسى بن اسحاق بن كامل الزجاج » ، وشاهد آخر يحمل اسم « يوسف بن اسحاق بن كامل » . ومن الشواهد أيضا التى يحتفظ بها متحف الفن الاسلامى شاهد من مصر العليا باسم « معلا ابن أحمد بن رزق » وكانت وفاته فى سنة ٤٢٠ هـ / ابريل ١٠٢٩ م .

ولا شك أن نشاط حركة البناء فى العصر الفاطمى مما تجلى فى القصور والمناظر والمساجد والمشاهد وغيرها ، استلزم الاكثار من مسابك الزجاج لسد حاجة هذه المباني العديدة من المصاييح والقناديل التى كان لها سوق خاص فى الفسطاط (٧) ، يذكر ناصر خسرو بأنه لا يعرف سوق مثله فى أى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف .

وهكذا كانت صناعة القناديل أو المصاييح من الصناعات الرائجة فى العصر الفاطمى ، وقد حرص الفاطميون على تزويد انجوامع والمساجد مثل الأزهر وجامع عمرو بن العاص وجامع الحاكم بالكثير من هذه المصاييح ، وكان من عاداتهم الاكثار من اضاءتها فى ليالى المواسم والأعياد حيث كانت تزيد عن سبعمائة قنديل لجامع عمرو منها مائة قنديل وحده . وكان لأرباب صناعة هذه المصاييح من المهارة والفن الزخرفى لكى يظهروا روائع مبتكراتهم ، وما يستلزم ذلك من قطع الزجاج المناسب لهذا الفن الزخرفى الرائع .

وكانت قصور الخلفاء والأمراء والأعيان تضم الآلاف من القطع الزجاجية التى كانوا يستخدمونها فى الأسمطة والأغراض الأخرى ، فضلا عن تلك المصاييح أو القناديل التى تزين تلك القصور ، وما يذكره المقريزى

(٧) سمي بسوق القناديل لكثرة ما كان يصنع ويبيع من القناديل كما ذكر أنه قد اكتسب اسمه من قيام سكان الحى الواقع به بوضع على باب كل واحد منهم .

أنه وجد للسيدة رشيدة ابنة المعز لدين الله نحو مائة قطرميز مملوءة بالكافور .

وقد حافظت الاسكندرية كاحدى مراكز صناعة الزجاج الهامة فى العصر الفاطمى ، ولم تفقد كل ما كان لها من خطير شأن فى ميدان هذه الصناعة وبعض الصناعات الأخرى . وكشفت الحفائر الأثرية بمنطقة كوم الدكة عن كميات من القطع الزجاجية والبلورية وقطع من الزجاج المزخرف والمموه بالمينا من النوع الشائع فى المشكاوات .

كما كشفت الحفائر عن العديد من التحف الزجاجية فى كل من قوص وأبيدوس وأخميم وأسيوط والبهنسا واهناسيا وهواره وسقاره وأطفيح وغيرها . ولا يعنى اكتشاف بعض قطع الزجاج على هذا النحو فى تلك المدن أو الجهات أنها كانت مراكز لصناعة الزجاج ، مثلما كان الأمر فى مدن الفيوم والأشمونين والشيخ عبادة بمنطقة مصر الوسطى .

ويمكن القول بأن اتساع نطاق التجارة الداخلية يجعل من الميسور معرفة أن الكثير مما عثر عليه من القطع الزجاجية قد تم صنعها بعيدا عن أماكن صناعتها . ومن الجدير بالذكر أن التجار المسافرين الى بلاد النوبة كانوا يحملون معهم الكثير من السلع والأواني الزجاجية والخرز ، كما كانت مصر تصدر من أنواع الزجاج الى البلاد الأوروبية وبلاد المشرق الأقصى . فقد ورد فى أوراق الجنيزة من بين قوائم البضائع التى أرسلت من موانئ البحر الأحمر مجموعات من الأقمشة الحريرية ، وأنواع الزجاج الى بلاد الهند .

ولا غرو أن أصبحت للسلع والأواني الزجاجية سوق رائجة فى العالم الخارجى فى العصر الفاطمى ، وذلك لما بلغته من الشهرة ودقة الصنعة وطرق الزخرفة التى مارسها صناع الزجاج ، فقد دلت حفائر الفسطاط على أن هؤلاء الصناع مارسوا الرسم على القطع الزجاجية بالذهب الخالص ، إذ تم العثور على قطع عديدة لم تستخدم فيها رقائق الذهب ، بل تم رسمها وزخرفتها بماء الذهب (٨) .

وهكذا حافظت مصر على شهرتها فى صناعة أنواع القنينات والقوارير والأطباق والأواني الزجاجية لحفظ المواد الكيماوية ، كما استطاع الزجاجون أن يصنعوا نوع انزجاج المسمى بالفسيفساء الزجاجية والذي بلغت فيه مصر الذروة فى عصر المماليك .

(٨) يحتفظ المتحف البريطانى بجزء من قنينة عليها زخارف عبارة عن راقصات وأشجار

وطيور مرسومة بالذهب ترجع صناعتها الى العصر الفاطمى .

ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٣٥ .

الفصل الرابع

الصناعات المعدنية من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى

- ١ - استخراج المعادن والأحجار الكريمة .
- ٢ - صناعة الأدوات والآلات الحديدية والنحاسية وصناعة التكفيت .
- ٣ - صناعة الحلى والمجوهرات .
- ٤ - صناعة سك النقود ودور ضرب المصرية .
- ٥ - صناعة الأسلحة الخفيفة والثقيلة .

الصناعات المعدنية فى مصر الاسلاميه

عرف المصريون المعادن المختلفه منذ العصور القديمه (١) ، حيث تم اكتشاف معدن الحديد فى الصحراء الشرقيه وفى شبه جزيرة سيناء ، وبالقرب من أسوان وفى واحات الصحراء الغربيه . كما كان الرصاص من أقدم الفلزات التى عرفها المصريون القدماء حيث تم اكتشافه فى منطقه جنوبى القصير على شاطئ البحر الأحمر ، وقد استخدم الأكسيد الأحمر للرصاص (السلاقون) لتلوين أحد الجدران منذ العصر الإيوانى والرومانى . وقد دلت الأبحاث على أن النحاس والذهب والحديد والرصاص والفضه والقصدير كانت من المعادن الهامه التى استخدمها المصريون منذ قرون طويله قبل الفتح الإسلامى لبلاد . ولا شك أن المصريين الأقباط قد عرفوا المعادن وغيرها ، وأنهم صنعوا منها التحف المعدنية المختلفه .

(١) معنى كلمه معدن أنها الماده التى تستخرج من المنجم ، وهناك فروق بين المعادن التى تعنى الفلزات بالمعنى الحديث ، والمعادن الأخرى كالحجار البناء والحجار الكريمه الأخرى .
التيفاشى : نزعة الأفكار ، ص ٤١ - ٤٢ .

١ - استخراج المعادن والحصول على المواد الخام والأحجار الكريمة

دلت الأبحاث أن قدماء المصريين استغلوا مناجم ومعادن تلك البلاد منذ وقت بعيد (١) . وقد وجد الذهب قديما في مصر ، وكانت الطريقة لاستخراجه من خامات بسيطة ، وتتلخص في غسل الرمل والحصى بالماء الحار عند وجود خاماته الطفلية ، فيحمل الماء معه المواد الخفيفة تاركا حبيبات الذهب الثقيلة التي كانت تجمع وتصهر وتتكون منها الكتل الصغيرة .

وكانت خامات الذهب تقع في تلك المنطقة الفسيحة فيما بين وادي النيل والبحر الأحمر في الصحراء الشرقية الممتدة من جنوب طريق قنا - القصير الى حدود السودان . كما وجدت عدة مراكز قديمة لاستخراج الذهب على مسافة كبيرة شمال خط عرض قنا ، وهناك مراكز أخرى تقع في بلاد النوبة .

وكانت بيزنطة تعتمد على مناجم الذهب منذ القرن الخامس الى القرن السابع وعلى ما يرد اليها من ذهب النوبة وشمال السودان عن طريق أسوان (٢) .

(١) تشير بردية تورين وهي أقدم خريطة في العالم الى مناجم العلاقي على انها أقدم مناطق استخراج الذهب في وادي النيل .

سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٦ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) يرى موريس لمبار أن ذهب منساق النوبة والعلاقي لم يعد منتظما في القرن السابع الميلادي حيث كان البلميون (ويعني قبائل البجة) يعيشون على النهب وارتداد الصحراء الشرقية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر وعضبة الحبشة .
الذهب الاسلامي منذ القرن السابع ، ص ٥٤ .

وهناك من يرى أن الفضة والذهب التي استخدمت خاماتها في سك النقود وفي صناعة الحلى إنما تم جلبها من الخارج ، ولم يكن يوجد في مصر خلال العصر البيزنطى سوى أعمال التعدين فى مناجم الحديد والنحاس التى حظيت بشهرة واسعة فى ذلك الحين .

وربما انطبق ذلك على معدن الفضة التى كانت من أندر المعادن وأنفسها عند المصريين القدماء لقلّة توفرها ، على عكس الذهب الذى كان متوفرا فى مصر الفرعونية ، خاصة فى الصحراء الشرقية فيما يلى قفط من وادى الحمامات وعند أم الروس عند ساحل البحر الأحمر وفى مناجم النوبة (٣) . وليس هناك ما يدل على توقف استمرار البحث من أجل الحصول على الذهب من تلك المناطق قبل الفتح العربى للبلاد .

ومن المعروف أن السيطرة على بلاد النوبة بدأت مع الفتح العربى ، فقد وجه عبد الله بن سعد بن أبى سرح حملاته عام ٣١ هـ التى وصلت الى دنقلة ، وانتهى القتال بعقد معاهدة تجارية تفتح بلاد الطرفين أمام رعاياهما . غير أن استغلال ذهب النوبة لم يبدأ الا بعد اخضاع قبائل البجة الضاربة فى الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ، وكانت تعمل على قطع الطريق للحصول على الذهب فى أواخر العصر البيزنطى ، فصالحهم عبد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر فى خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) ومن ثم أمكن استغلال مناجم الذهب هناك .

ولما نزع العرب الى بلاد البجة وخاصة عرب ربيعة عرفوا طريقهم الى هذه المناجم وعملوا على استخراج التبر من المنطقة التى عرفت باسم العلاقى . ويذكر اليعقوبى عدة مواضع لمعدن التبر كانت توجد جنوب أسوان وتنتهى الى وادى العلاقى يقصدها أصحاب المطالب من العرب فيجتمعون فى الوادى الذى صار كالمدينة العظيمة على حد قوله ، وبها الأسواق والتجارات .

وحدث أن ثارت قبائل البجة عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ، وامتنعت عن دفع الجزية وهاجمت الصعيد عند مدينتى اسنا وادفو ونهبوها وطردها أهلها منهما . فكتب بذلك عنبسه بن اسحق العيسى « والى مصر » آنذاك

(٣) كانت مناجم النوبة وحدها تقل على البلاد ما يقدر فى المتوسط بمائتين وسبعة عشر كيلوجراما من الذهب كل عام . أحمد عبد الحميد يوسف : مصر فى القرآن والسنة ، ص ١٧٢ .

الى الخليفة المتوكل ، فارسلت حملة كبيرة عن طريق النيل ، وأخرى عن طريق البحر الأحمر واستطاعت اخماد الثورة واخضاع بلاد البجة .

وقد استطاع العرب بعد توقيع الصلح الذى عقده عبد الله القمى مع البجة وايقاف غارتهم على الصعيد ، أن يواصلوا العمل فى مناجم الذهب ومعادن الزمرد دون خوف من تعرض البجة لهم . واجتذبت حالة الهدوء والأمن جماعات عربية أخرى جاءت تبحث عن الثروة . ولم يقتصر الأمر على ربيعة التى أدت مصاهرتهم بعد ذلك مع أهل البجة واستيلائهم على معدن الذهب بالعلاقي الى اتساع نفوذهم وكثرة أموالهم بل توافدت موجات من بنى سليم وغيرهم التى استقرت فى مراكز عدة نزلوا بها لاستخراج معادن التبر بها (٤) .

أما عن طريقة استخراج الذهب ، فلم تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل نزوح قبائل ربيعة وغيرها من القبائل الى تلك المنطقة ، فكان الناس هناك يتجولون فى الليالى التى يضعف فيها ضوء القمر ويعلمون على المواضع التى يرون فيها شيئا مضيئا بعلامات يعرفونها ، ويبيتون هناك . فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرمل التى علموا عليها ومضوا بها الى آبار هناك ليفسلوها بالماء ويستخرجوا منها التبر ، ثم يقومون بمزجه بالزئبق ويسبكونه بعد ذلك (٥) .

والواقع أن الحصول على الذهب لم يقتصر منذ الفتح العربى على استخراجها من تلك المناطق ، بل تشير المصادر الى الكنوز والدقائق التى كان يحتفظ بها الأقباط المصريين واستيلاء الحكام العرب عليها ، فقد ذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر : ان من كتمنى كنزا عنده فقدوت عليه قتلته .

وتشير الروايات الى كثرة الكنوز التى صادوها عمرو بن العاص من قبط مصر .

(٤) ذكر المقرئى : من البراكى التى نزلت بها قبائل العرب موضع يقال له الشكرى وآخر يقال له الكلبى ، وموضع ثالث أطلق عليه اسم « العجلى » ولعل هذه الأسماء ترجع الى رؤساء القبائل التى نزلت وخالطت قبائل ربيعة الذين هاجروا الى أرض المدين وذرياتهم فى أعداد كبيرة .

البيان والاعراب ، ص ١٦٣ .

(٥) آدم متو : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ ، محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، ص ١٢٨ - ١٣٩ .

وثمة مورد آخر من موارد الثروة استغله الفاتحون في مصر وهو الكنوز المدفونة في المقابر الفرعونية ، اذ يذكر المؤرخون أنه منذ أوائل الحكم العربي وحتى القرن الحادى عشر الميلادى عثر على الكثير من هذه الكنوز ، فمن ذلك أنه أمكن العثور فى عهد عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٥ هـ) على تماثيل من أنواع الصور المختلفة المصنوعة من الذهب ، وعلى أجربة من الأحجار قد أطبقت عليها أغطيتها وتم احكام غلقها بأعمدة من الذهب الخالص (٦) .

وفى عهد الطولونيين والاختشيديين زادت الهجرات العربية الى بلاد البجة ، وكان يهدف أحمد بن طولون من وراء تشجيع الهجرة الى تلك البلاد ابعاد عدد كبير من القبائل العربية التى فرحت الى مصر فى تلك الفترة ، والعمل على تأديب النوبة والبجة وكف هجومهم على بلاد المسلمين . ويروى المسعودى وهو مؤرخ معاصر ما تم من عملية الاندماج بين قبائل ربيعة بالبجة وما أدت اليه المصاهرة والتزاوج بين رؤساء ربيعة من بناء رؤساء البجة ، من اتساع نفوذها وزيادة ثروتها ، كما صارت لهم بلاد البجة مرافق ، واختلطوا لهم بها قرية تعرف بالبمايس خفروا بها آبارا . وهكذا استقرت أعدادا كبيرة من قبائل ربيعة وجهينة ، وزادت أعمال البحث والحصول على المزيد من الذهب .

كما تشير المصادر التاريخية الى أعمال البحث عن الكنوز فى مصر وزيادة الاهتمام بها منذ عهد ابن طولون ٢٥٤ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٨ - ٨٨٣ م حيث أصبحت تتولاها السلطة الحاكمة ، وكون أصحاب المطالب أو الباحثون عن الكنوز نقابة حقيقية من نقابات الحرف ، وصارت خاضعة للضريبة كنسائر الحرف الأخرى .

وهما يذكر أنه تم العثور على كنز قدره بألف ألف دينار (٧) أيام ابن طولون ، وهو ما شاع ذكره بحديث الكنز .

(٦) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٣٦٧ . ويذكر المسعودى أن الأمير عبد العزيز بن مروان بذل آلاف الدنانير لأجرة العمال وزاد فى عددهم وأوسع فى النفقة عليهم من أجل البحث عن الدفائن والكنوز الفرعونية . نفس المصدر ، ص ٣٦٦ .

(٧) يقول موريس لمبار : ان مليون دينار تساوى أربعة آلاف كيلوجرام من الذهب ويردف قائلا فى تعليقه على كنز ابن طولون : « لكننا لا يجب أن نتهم المؤرخ الذى أورد لنا هذه الحادثة بالمبالغة التى عرف بها الشرق ، اذ أنه فى عهدنا هذا قدر وزن الذهب الصافى فى كنوز مقبرة توت عنخ آمون بضعف الغطاء الذهبى فى البنك الأهلى المصرى ، الذهب الإسلامى منذ القرن السابع ، ص ٦٥ - ٦١ .

ويتحدث المسعودى عن استمرار البحث فى عهد الاخشيديين فمن ذلك ما قيل أنه فى باطن الأهرام مطلباً عجيباً ، وصار خبره الى محمد ابن طغج الاخشيد ، فأذن لهم فى حفره وذلك فى سنة ٣٢٨ هـ ، ولكن عمال الحفائر لم يعثروا على الكنوز من الذهب ، وانما بعض الصور من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروز والزبرجد وغير ذلك من الآلات من المرمر والرخام .

ومن المصادر التى حصلت منها الادارة العربية على الذهب تلك الثروات التى تجمعها فى كنوز الكنائس المصرية والسوزية ، وخير دليل على ذلك ما أشار اليه يحيى بن سعيد الانطاكى حينما تم فتح خزائن كنيسة تنيس فى أوائل حكم الاخشيديين ، فقد أخرج سائر آلاتها وجمع صياغاتها ونحاسها وستورها عن آخرها وكانت من الوفرة بمكان حتى أن ذهبها فضتها لكثرتها تم وزنها فى القرسطون (٨) وكما يقول يحيى ابن سعيد : « وعظم تعجب من حفر من المخالفين فى الديانة من كثرة ما شاهدوا ورأوا فيها » ويعنى المسلمين . وهكذا عادت كميات ضخمة من الذهب المدفون داخل الكنائس والتى كانت تجمعت منذ قرون الى الدورة النقدية بعد قيام دور الضرب وغيرها بسكها من جديد .

وفى عهد الفاطميين ، ظلت موارد الذهب فى العلاقى متوفرة ، وقد أشرفت الدولة على هؤلاء المستغلين باستخراج الذهب من بنى الكنز وغيرهم ، يقول موريس لمبار : « فعاد الحال الى ما كان عليه من ازدهار استغلال الذهب فى عهد البطالة » . ولم تتوقف الجهود المبذولة من أجل الحصول على معدن الذهب النفيس الا حينما بدأت موارد هذه المنطقة فى النضوب فى أواخر أيام الفاطميين ، حيث زهد هؤلاء فى الإقامة بصحراء مصر الشرقية ، وبدأوا فى الرحيل عنها نحو بلاد النوبة والسودان فى بداية حكم الأيوبيين للبلاد .

وكان الفاطميون فى بداية القرن الرابع الهجرى وقبل مجيئهم الى مصر ، قد أصبحوا سادة طرق الذهب الوارد من السودان وأعماق أفريقيا ، وصارت لديهم المقادير الهائلة من الذهب ، حيث خصصوا مبالغ ضخمة لدعايتهم فى وادى النيل منها . وقيل انه لما قدم المعز لدين الله الى القاهرة عام ٣٦٢ هـ حمل معه من السبائك الذهبية فى هيئة أحجار الطواحين المستديرة ليسهل حملها على الجمال ، كما ذكر أن القائد جوهر فى غزوته

(٨) القرسطون : لعله نوع من الموازين الكبيرة مثل الميزان القبانى فى عصرنا الحاضر .

من أجل فتح مصر حمل معه ألف حمل من الذهب (٩) . وهكذا كان دخول الفاطميين للبلاد يحملون معهم تلك المقادير الضخمة من الذهب وقيام دولتهم في مصر من أهم العوامل التي أدت الى وفرة الثروة من هذا المعدن النفيس .

ومن وادى العلاقي كلن يحمل التبر خلال العصر الفاطمي بعد سبكه الى ميناء عيذاب على ساحل للبحر الأحمر ، حيث يأتي التجار فيجلبونه وغيره من العاج واللؤلؤ في التراكب الى القلزم ومنها الى القسقاط .

أما عملية صهر المعادن وصيها ، فكانت معروفة لدى المصريين منذ عصورهم القديمة (١٠) . وقد ساعد على ذلك معرفة تحضير الفحم النباتي في الصحراء الشرقية موطن المعادن النفيسة ، وفي شبه جزيرة سيناء المصرية (١١) ، كما تمكن المصريون من صهر خامات الحديد بالقرب من الاسكندرية وخير دليل على ذلك ما وجد من آثار لأعمال الصهر التي قام بها الصناع المصريون في القرن السادس الميلادي وقبل الفتح العربي لمصر .

ومن المحقق أن خبرة المصريين العالية في صهر المعادن ، واجادتهم لتشكيل الذهب والنحاس والرصاص والفضة والبرونز والقصدير (١٢) ،

(٩) ويذكر المقرئزي أنه حينما عبرت عساكر القائد جوهر الى القسقاط ومعهم «مناديق المال على البغال ، قيل ان المال كان في ألف وخمسمائة صندوق ، اتعاط الخنفا ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، تحقيق الشيال .

(١٠) تظهر عملية صهر المعادن في النقوش المصورة على جدران مقبرة رخمارع بطيبة من عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وهي تمثل صنع بابن لمبعد آمون بالكرنك وكان المصريون يصهرون المعادن في قوالب مفتوحة أو يحيلونها بالطرق الى صفائح رقيقة وكانت رفاق النحاس تتخذ في كساء التماثيل المصنوعة من الخشب أو صناعة الأسلاك والسلاسل النحاسية . ولم يجد صانع النحاس صعوبة في صنع الأنابيب النحاسية لكي تستخدم في التخلص من مياه الأمطار التي تتساقط فوق أسطح معابد الملوك في مصر القديمة ، بتري : الحياة الاجتماعية في مصر القديمة ، ص ٢٦٧ ، لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٧٢٢ ، هولز : قصة الكيمياء ، ص ٧ .

(١١) كان صنع الفحم النباتي نتيجة طبيعية لحرق الخشب ، ومن السهل أن تصور أنه بدون فحم الخشب أن يكون هناك تقدم في صناعات التعدين أبعد من هذه الطرق البدائية ، ويذكر لوكاس أنه لا تزال هذه الصناعة وهي تحضير الفحم النباتي باقية في هاتين المنطقتين حتى الآن وإن كانت بشكل محدود للغاية ، وأنه كان لهذه الصناعة ابلغ الأثر في اقتراض أشجار هاتين المنطقتين . المواد والصناعات ص ٧٢٢ - ٧٢٣ .

(١٢) مما يدل على ذلك أن بائع القصدير خلال العصر الروماني والبيزنطي كان عليه أن يدفع ضريبة شهرية قدرها ١٦ دراخمة .

Milne : A History of Egypt under rule, p. 156.

وكذلك وفرة عدد السباكين الذين كانوا يعملون بمدينة الكسبرنخوس (النهنسا) في العصر البيزنطي ، وغيرهم من صناعات أدوات الزيتة والحل في بانويوليس (اجميم) وغيرها .

Johnson : Economic Studies, p.p. 109, 116-119.

الحرف والصناعات - ٢٤٥

كانت خير عون لهم في سبيل صنع وانتاج كافة الأدوات والآلات المعدنية منذ فجر الاسلام ، وفي تقدم وازدهار تلك الصناعات المعدنية حتى عصر الفاطميين .

ومن خير الأمثلة على ذلك ما قام به الصناع المصريون في عهد خمارويه ابن أحمد بن طولون حينما صهروا النحاس وكسوا به أجسام النخل ، وجعلوا بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدير ، فجاءت في أحسن صنعة وما تم استخدامه من معادن النحاس والذهب والفضة في صناعة المرصد الفلكي حين أراد المأمون البطائحي في عهد الأمر بأحكام الله إعادة بنائه (١٣) ، وقد ذكر المقرئ أن المأمون أراد أن يستكمل ما قام به الأفضل من قبل ، وذلك حينما تم اختيار مكان الرصد فوق جبل المقطم ثم عدلوا عنه الى الموضع الواقع بالقرب من مسجد القيلة . وقيل انه احتاج الى اطلاق مائتي قنطار من النحاس النجر ، وثمانين قنطارا من النحاس القضيب الأندلسي ، وأربعين قنطارا من النحاس الأحمر ، ومن الرصاص ألف قنطار ، ومن الحطب ومن الحديد والفولاذ من دار الصناعة لعله يحتاج اليه . وقد حضر الأفضل أعمال صهر تلك المعادن وصبها في الأشكال المطلوبة ، وكان من جملة ما رمى به الى الصناع كيس فيه ألف درهم .

ولا شك أن ما تطلبته أعمال إقامة المرصد الفلكي ، وما أحضر له من جميع صناع النحاس ومن سائر الصناع والمهندسين ، فضلا عن تلك المقادير الكبيرة من المعادن المختلفة ، توضح لنا مدى ما بلغه هؤلاء الصناع من خبرة فائقة بصهر أنواع النحاس والحديد والفولاذ في ذلك العصر (١٤) .

لم تقتصر أعمال التعدين في مصر منذ فجر الاسلام على استخراج

(١٣) ذكر ابن دقماق أن الحاكم يأمر الله أمر ببناء المرصد بالقرب من القصر المعروف بباب اليون وذلك في سنة ٤٠٣ هـ ، ثم أن المأمون البطائحي عمل على نقله الى مكان بالقرب من باب النصر ، وكانت قد فستت واتفقت آلاته وأصبحت الحاجة تدعو الى بنائه من جديد وما يتطلب ذلك من النحاس والذهب والفضة . الانصار : ج ٤ ، ص ٥٨ .

(١٤) يعتبر النحاس من أقدم المعادن التي عرفها الانسان المصري القديم ، وقد أمكن استخلاصه من شوائبه بعد أن أمكن العثور عليه في شبه جزيرة سيناء . وفي القرن الأول الميلادي كان النحاس الأصفر يرسل بالسفن عن طريق البحر الأحمر من مصر الى بلاد النوبة والسودان ، ومن مواضع صهر النحاس القديمة في مصر إحدى نواحي الفيوم ، حيث أطلق عليها في العصر الاسلامي للبكر كوم مدينة النحاس .

لوكاس : المواد والصناعات ، ص ٣٦٠ ، محمد رمزي : القسساموس الجغرافي ،

ج ١ ، ص ٣٦٨ .

الذهب أو النحاس والرصاص وغيرها من أنواع الفلزات بالمعنى الحديث ، واشتغال المصريين بصهرها في المسابك وتشكيلها وفقا لما تطلبته حاجة الصناعات المعدنية ، بل يذكر المؤرخون أنه كان من فضائل مصر وجود الأحجار الكريمة مثل الزمرد والزبرجد والياقوت واللؤلؤ وأنواع أخرى من المعادن ، خاصة في منطقة الصعيد الأعلى .

ويحدد اليعقوبي المواضع التي قام المصريون باستخراج معدن الزمرد منها فيقول : فهو على بعد ثمانى مراحل من قفط ، ويستخرج من جبلين عرف أحدهما بالعروس والآخر بالخصوم . كما يصف المسعودى طريقة استخراج الزمرد ، حيث كان العمال يحفرون عليه في الجبل ، فيجدونه على شغل عروق خضر في تجاويف الأحجار البيضاء (١٥) ، ويتم اخراجه واستخلاصه على هيئة قطع صغيرة كالحصباء منبثة في تراب المعدن ، وكان عمال مناجم الزمرد ينخلون التراب ثم يوجد خلاله فيغسل كما ينسل تراب الفضة (١٦) ، وكان يجمع ما يستخرج من هذا المعدن النفيس ويصدر الى القسطنطينية وقد أصبح من أهم موارد الثروة في صعيد مصر . ويذكر ابن فضل الله العمري أنه كان له مباشرون وأمناء من جهة السلطان يتولون استخراجها وتحصيله ولهم جوامك على ذلك .

ولم يزل استخراج الزمرد حتى أيام الناصر محمد بن قلاوون وكان من أفضل أنواعه ، وقد اشتهرت به مصر الإسلامية ، ومنها كان يحمل الى سائر بلاد الدنيا .

ومن الأحجار الكريمة التي اشتغل المصريون باستخراجها من منطقة صعيد مصر ومناجمها ، نوع الزبرجد ، وهو أقل وجودا وندرة من الزمرد ، ويشير ابن حوقل الى موضع استخراجها فيقول : « انه في برية منقطعة العمارة ليس في الأرض غيره » (١٧) ويتحدث الجاحظ عن أوصافه في

(١٥) ويذكر المسعودى أن الزمرد كمعدن ينقسم الى أربعة أنواع تبعا لأوصافه فمنها النوع الذي يعرف بالمر وهو أعلاها والنوع الثانى البحرى ، والثالث المغربى ، أما النوع الرابع فقد عرف باسم المكى ، ومبلغ الغدسة منه عشرة دنانير ، وكان الزمرد المصرى ينافس الزمرد الهندى ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٤ ، الطبعة الرابعة يونيو ١٩٦٤ .

(١٦) ويذكر النيفاشى مصادر الزمرد على وجه الدقة في مصر ، فيقول : « وهى سلسلة جبال الصحراء الشرقية المحصورة بين البحر الأحمر ونهر النيل في صخور الشيست ، ولا تزال بعض هذه المناجم تنتج حتى الآن » .

أزهار الأفكار ، ص ٢٥٤ .

(١٧) ويحدد النيفاشى مناجم الزبرجد فهو يذكر أنها كانت في جزيرة سان جوتز المصرية بالبحر الأحمر ، وفي منطقة جبل زبارا جنوب القصير في صخور الشيست البركاني ، ويقول : « وهو المكان الوحيد في العالم الذى به بلورات بالحجم الكبير الذى يسمح باستخدامها فى أغراض الحلى وصناعات المجوهرات » . أزهار الأفكار ، ص ٢٥٦ .

Johnson : Economic Studies , pp. 110-111.

صدر الاسلام فهو يقول : « وخير الزبرجد الشديد الخضرة الصافي
الجوهر ، ومعرفة الزبرجد الفائق المعمول المتحد كمعرفة اليواقيت برزاة
وبرودة مذاقه وعمل المبرد فيه على مهل » وكان لا يوجد منه الا في خزنة
بعض الخلفاء العباسيين .

ونقل التيفاشي عن البيروني أن الزمرد والزبرجد اسمان يترادفان
على معنى واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر في الجودة والندرة ، ولكن أهل
الصناعة فانهم يميزون بينهما ، فلا شك أن الزمرد في تركيبه الكيميائي
يختلف عن الزبرجد (١٨) ، ويصف التيفاشي لون معدن الزبرجد فمونه
أخضر مغلوق اللون ومونه أخضر مفتوح اللون ، ومونه معتدل الخضرة ، رقيق
المستشف وكانت الهند والفرنج تعظمه . وقد ظل المصريون يستخرجون
هذا النوع من الزبرجد النادر حتى عام ٦٤٠ هـ أو ما قبل ذلك بقليل ،
كما يقول التيفاشي : « وأما في هذا التاريخ الذي وضعه فيه هذا الكتاب
وهو عام ٦٤٠ هـ فانه لا يوجد في المبدأ أصلا ، وانما الموجود منه يستخرج
بالنبش من الآثار القديمة التي بئر الاسكندرية » وهكذا يمكن القول بأنه
حتى زوال الدولة الفاطمية كانت مصر تعمل على استخراجها وتشتغل
بتجارته ولها الشهرة في مجال تصديره الى الخارج (١٩) .

وكما تشير المصادر الى استخراج الياقوت من مناجم الذهب التي
كانت تقع في المنطقة الممتدة بين نواحي قفط وساحل البحر الأحمر أو
ما أطلق عليها في العصر الحديث بجبل زبارا (٢٠) ، ولم يتحدث عنه
المؤرخون المسلمون كسائر الأحجار الكريمة أو النفيسة مثل الزمرد والزبرجد
أو اللؤلؤ ، وعن اشتغال أهل الصعيد الأعلى باستخراجها من مناجمها ، كما
أشار التيفاشي مثلا الى استخراجها من جزيرة خلف سرنديب .

وعلى كل حال فان استخراج الياقوت والاشتغال به لم يكن عملا
اقتصاديا يذكر كما هو الحال بالنسبة للمعدن المعروف باللؤلؤ ، فقد كان

(١٨) فالزمرد تركيبه الكيميائي من سليكات البريليوم والالومنيوم بصلابة قدرها ٧ ،
وكثافته نوعية ٢٫٧ ومعامل انكساره ١٫٥٧ ، أما الزبرجد فيتكون من سليكات الماغنسيوم
والحديد ودرجة صلادته ٦٫٥ - ٧ ومعامل انكسار الضوء فيه ١٫٦ - ١٫٧ وكثافته النوعية
٣٫٣ وتتميز عنه بلون أخضر صافي . التيفاشي : أذهار الأفكار ، ص ٣٥٥ .

(١٩) يتحدث عنه الجاحظ وشهرة مصر به خلال القرن الثالث الهجري فهو يقول :
« ومن مصر المعدن الزبرجد الفائق » . التبصر بالتجارة ، ص ٣٥ .

(٢٠) كان الياقوت من بين المعادن النفيسة التي أشار إليها Heliodorus ، معرّض
حديثه عن المناجم والمخاض التي كان يعمل بها المصريون خلال القرن الرابع الميلادي .
Johnson : Ibid, p. 110.

من بين موارد الثروة التي عني باستغلالها في منطقة البحر الأحمر (٢١) ، ويشير ابن جبير إلى اهتمام أهل عيذاب في العصر الإسلامي باستخراجه من الجزائر القريبة من ساحل البحر الأحمر ، حيث كان يخرج الغانصون إلى تلك الجزر في زوارق يقيمون فيها أياما ، فيستخرجون اللؤلؤ من قاع البحر وهو جوهر نفيس له قيمة عظيمة ، فكانوا يجمعون منه الشيء الكثير .

ويظهر أن نوع اللؤلؤ المستخرج من البحر الأحمر لم يكن يتنافس اللؤلؤ الصافي العماني في جودته ، أو في ثمنه الذي كان يباع به لدى الجواهريين في القسظاط وغيرها من المدن المصرية (٢٢) . ولكن يبدو أن أهل عيذاب كانوا يستخرجون منه المقادير الكبيرة التي تدر عليهم أموالا طائلة خلال العصر الفاطمي .

ومن المعادن التي اشتهرت بها مصر في العصور الإسلامية الشب والنطرون ، فلم يقتصر الأمر على استخراج المعادن النفيسة أو الأحجار الجريمة ، بل عرف عمال المناجم سبيلهم إلى استخراج معدن الشب من الواحات الخارجة بالقرب من مدينة أسوان (٢٣) ، وكان بتكليف استخراج القنطار منها ما يوازي ثلاثين درهما أو أقل من ذلك . وتهبط به العرب إلى سواحل النيل عند قوص واخميم وأسيوط ، وكذلك من الواحات حيث يتم استخراجه إلى البهنسا ، ثم يحمل من هذه السواحل جميعها في المراكب إلى الاسكندرية .

وكان معدن الشب من بين الموارد التي احتكرت الحكومة الفاطمية عملية استغلالها تماما ، وكان ما يباع منه في المتجر بالاسكندرية نحو خمسة آلاف قنطار ، وسعره من خمسة دنانير إلى خمسة دنانير وربيع لكل

(٢١) ويوضح لنا الجاحظ أنواع اللؤلؤ المعروف في عصره فبقول : « وخير اللؤلؤ الصافي العماني المستوى الجيد ، فهو أنفوس وأرفع من القلزمي (أي المستخرج من البحر الأحمر قرب القلزم) وإذا بلغت الحبة نصف مثقال سميت درة ، والمدرجة المعتدلة في التدور ، إذا بلغ وزنها نصف مثقال ربما بلغت في الثمن ألف مثقال من الذهب . والبيضية (أي ذات الشكل البيضوي) دون ذلك في الثمن . التبصر بالتجارة ، ص ١٨ .

(٢٢) ذكر التنفاسي المتوفى سنة ٦٥١ هـ أن اللؤلؤ القلزمي ولو كانت الدرة منه في نهاية الكبر فانها لا يكون لها طائل في الثمن إذ ليس فيها شيء من أوصاف الدر النقي . أزهار الأفكار ، ص ٤٩ .

(٢٣) من الجدير بالذكر أن الواحات القريبة ظلت كورة جليظة ذات أشجار ومزارع حتى عصر الطولونيين والاشيدين ، ويشير المقدسي إلى ذلك فيقول : « وإلى اليوم يوجد فيها صنوف الثمار والأغنام والنعم قد قوحشت ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٦ .

قنطار ، ولم يكن يباع منه بالقاهرة أكثر من ثمانين قنطارا بسعر القنطار سبعة دنانير ونصف . وهكذا كان يدر على الدولة الفاطمية عائدا كبيرا بفضل سياسة الاحتكار التي اتبعوها .

أما عن معدن النطرون (٢٤) فكان يستغل من منطقتين أحدهما تسمى الطرانة من أعمال البحيرة بالوجه البحرى ، ويذكر صاحب التعريف أنه لا يعلم فى الدنيا بقعة صغيرة يستغل منها أكثر مما يستغل منها ، فانها نحو مائة فدان تغل نحو مائة ألف دينار فى كل سنة .

أما المنطقة الثانية التى يتم استخراج النطرون منها فهى منطقة فاقوس بشرق الدلتا ، ولم يكن من الجودة كالمستخرج من منطقة الطرانة ، وهناك مكان آخر كان يوجد به رواسب للنطرون بالقرب من البهنسا بالوجه القبلى وتبلغ مساحته حوالى المائة فدان . وقد قيل عنه انه بدىء فى استغلاله منذ عهد أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ) وأن الايراد السنوى الناتج منه كان يربو على الخمسين ألف دينار .

وكان استخراج النطرون مباحا للناس منذ الفتح العربى ، وكان أول من حظر عليه هو أحمد بن مدبر ، وجعله فى ديوان السلطان ، وظل كذلك حتى عصر المماليك ، وقد كان الرسم فيه بالديوان أن يحمل منه فى كل سنة عشرة آلاف قنطار ويعطى الضمان منها فى كل سنة قدر ثلاثين قنطار يتسلمونها من الطرانة فتباع فى مصر .

ويذكر ابن مماتى أن استخراج النطرون كان فى طور محدود سنة عشرة آلاف قنطار ، ويعطى الضمان منها فى كل سنة قدر ثلاثين لا يتصرف فيه غير المستخدمين من جهة الديوان ، وكان ينفق على كل قنطار منه درهمان ، مما يدل على ضعف الأجور التى كان يتقاضاها العمال أو الأجراء ممن يعملون فى مناطق استغلال النطرون . وكان ثمن القنطار منه بالفسطاط أو الاسكندرية لضيق الحاجة اليه سبعين درهما .

وكان أكثر المهتمين باستخراجه وحمله الى الجهات التى يباع فيها هم العربان خلال العصر الفاطمى ، يقول ابن مماتى : « والعادة المستقرة أنه متى اتفق من الديوان مع العربان على أجرة حمولة عشرة آلاف قنطار ألزموا بحمل خمسة عشرة ألف قنطار ، حسابا عن كل قنطار

(٢٤) النطرون مادة طبيعية تتكون من كربونات الصوديوم ويكربونات الصوديوم ويوجد النطرون فى مصر فى الوقت الحاضر فى ثلاث مناطق وهى وادى النطرون ومديرية البحيرة وفى الكاب بالوجه القبلى . لو كاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٤١١ .

ونصف ، مما يدل على وفرة انتاجه والزام الذين يتكفلونه بالنقل العمل
على حمل النصف تقريبا بدون اجرة تدفع لهم .

ومن الجدير بالذكر أن معدنى النظرون والشب من المواد الهامة التى
كانت تستخدم فى كثير من الحرف والصناعات ، وعلى الأخص حرفة الصباغة
وصناعة الألوان .

٢ - صناعة الأدوات والآلات الحديدية والنحاسية وفن التكفيت

أشرنا من قبل الى أنواع المعادن التي أمكن للمصريين استخراجها منذ الفتح العربى لمصر ، ويجدر بنا أن نشير الى أنواع المعادن التي كانت مصر تحصل عليها من الخارج والتي تدخل فى صناعة الآلات والأدوات التي قام بصنعها الحدادون والنحاسون أو الصفارون وغيرهم من صناع الأدوات الحديدية والنحاسية فى مصر الاسلامية .

وتكاد تجمع المصادر العربية على أن معادن الفضة والحديد والرصاص والنحاس كانت تستوردها مصر من خارج البلاد (١) ، ولم يكن المستخرج منها فى العصر الاسلامى يكفى حاجة مسابك النحاس وغيرها مما تطلبت هذه الصناعات المعدنية المختلفة . ويبدو أن الصناعة المصرية لم يكن يتعذر عليها الحصول على المواد الخام مثل الحديد والنحاس والزئبق وغيرها فى أعقاب الفتوحات الاسلامية ، لا سيما وأن الجهات التي أشار اليها الجغرافيون والرحالة أصبحت فى حوزة الدولة الاسلامية ، وكانت تنتج من أنواع

(١) على الرغم من وجود خامات الحديد فى بعض المناطق المصرية ، إلا أن هناك من الدلائل ما يشير الى حصول الملك توت عنخ آتون على خنجر من الحديد وكمية أخرى من الحديد قد اهديت له من أحد ملوك غرب آسيا موطن صناعة الحديد اذ ذاك . ويقول : لوكاس « ولابد أن الحديد كان نادر الوجود أيضا فى كل من سوريا وفلسطين حتى نهاية الأسرة الثامنة عشر على الأقل : المواد والصناعات ، ص ٣٨٠ - ٣٨١ . »

المعادن مما يكفي لمصر وغيرها من الولايات الإسلامية في عصر الولاة والعصور
اللاحقة (٢) .

يعزز ذلك مما أوضحه اليعقوبي من أنه كانت توجد بمدينة مجانة
بالقرب من مدينة القيروان معادن الفضة والكحل والحديد والرصاص ، كما
أشار كل من الإدريسي والقزويني إلى مدينة بجاية بالمغرب الواقعة على
ساحل البحر المتوسط وكان بها مناجم للحديد الطيب ، ويصف القزويني
بلاد القيروان بأنها تضم معادن الفضة والحديد والنحاس والرصاص ،
ويتحدث عن جزيرة صقلية وخيراتها التي فتحها المسلمون خلال القرن
الثالث الهجري ما بين عامي ٢١٢ هـ - ٢٩٦ هـ ، ويخص بالذكر معادن
الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وكذا معدن الشب والزئبق ،
وكلها من المواد الداخلة في الصناعات المعدنية .

ويذكر ابن حوقل أنه كانت تجلب من الأندلس من أنواع التجارة
معادن الحديد والرصاص وضروب من القرش كقطع الأرمني ، كما يشير إلى
وجود معدن الحديد بمدينة بونه المغربية بكميات وفيرة ، ولم تقتصر بلاد
المغرب في صدر الإسلام على استخراج مواد الحديد بل كانت هناك المسابك
الخاصة بالحديد والنحاس ، كما هو الحال في مدينة فاس المغربية .

ويوضح كل من ابن زولاق والمقدسي حركة النشاط التجاري بين
مصر والمغرب والأندلس خلال القرن الرابع الهجري وما كانت تستورده
أيضا من بلاد المشرق الإسلامي ، يقول ابن زولاق وتحمل إلى مصر من بلاد
المغرب معادن الحديد والنحاس والفضة والرصاص والقصدير وغير ذلك
من سائر المواد . وكان يحمل من تجارة اليمن وعدن إلى القلزم من أنواع
الصبر والحديد والرصاص والصندل والبلور والغفل . كما كانت تستورد
من بلاد الشام من نوع الرصاص الجيد ، يقول عنه ياقوت : « ليس في
الدنيا معدن الرصاص القلعي إلا في هذه القلعة (٣) » .

وكما كان يستورد من بلاد المشرق الإسلامي مواد الحديد والنحاس
والفضة وخاصة من بلاد فارس والهند ، وكان الحديد أكثر ما يؤخذ

(٢) يرجع تاريخ أقدم دليل لاستيراد النحاس من الخارج - فيما عدا شبه جزيرة سيناء -
إلى الأسرة الثامنة عشرة ، إذ كان النحاس يرسل إلى مصر من جهات سوريا وغرب آسيا .
كما عثر على لوحة يرجع تاريخها إلى حكم أحد ملوك الأسرة الثانية عشر ، ذكر فيها أن
الملك قد كلف موظفا معينا اسمه حورس أن يجزر نحاساً من بلاد النوبة . نفس المرجع ،
ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٣) يشير ياقوت إلى إحدى جبال الشام وكان يسمى القلعة وكان يوجد بها نوع من
الرصاص الجيد . معجم البلدان ، ص ٧٨ ، ١٤٨ .

منها (٤) ، كذلك من اقليم سفالة (موزمبيق) وكانت مناجمه تستغل ويؤخذ منها الى الهند للصناعة ومن أوراق الجنيزة التي ترجع الى العصر الفاطمي يمكن معرفة المواد المختلفة التي كانت تصدر الى مصر كمادة خام الحديد والصلب غير المصنعة الى القسطنطية .

وهكذا توفرت مصادر الحديد والنحاس وغيرهما من الخامات اللازمة للصناعات المعدنية ، ولا شك أن وفرة المعادن والعمل على استخراجها سواء من بلاد المغرب والأندلس ، أو ما تم استخراجها من مصر وبلاد الشام والمشرق الاسلامي ، انما يعنى اهتمام الحكام والخلفاء المسلمين وتكريس الجهود من أجل صناعة الآلات والمعدات التي تطلبها مستلزمات الحضارة وسائر الفنون ، وخاصة مطالب الزراعة والصناعة والعلوم .

وقد احتفظت الاسكندرية بعد الفتح العربي بما اشتهرت به من صناعة التحف المعدنية والأحجار الكريمة ، كما ازدهرت بها صناعة الأطباق والأواني المنزلية التي كانت تصدر منها الى القسطنطينية منذ العصر الروماني والبيزنطي .

ومما لا شك فيه أن الفيوم وعاصمتها (ارسينوى) والبهنسا وافروديتو بوليس (كوم اشقاو) وغيرها من المدن المصرية ظلت تنتج من الأدوات والآلات المعدنية في فجر الاسلام على أيدي الحدادين وغيرهم من الصناع ما كانوا يصنعونه من الأدوات والآلات ومن المسامير الحديدية وغيرها قبل مجيء العرب الفاتحين الى مصر وتأسيسهم لمدينة القسطنطية (٥) .

وقد اهتم الحكام العرب في مصر وغيرها من الأقطار الاسلامية بحرفة الحدادة والحدادين ، فهي إحدى صناعات الأشراف في صدر الاسلام (٦) . ولم يقتصر عمل الحدادين على صناعة أنواع الآلات الحديدية البسيطة ووسائل الزراعة التي كان يحتاج - وما يزال - اليها الفلاح المصري ، بل

(٤) يشير ابن حوقل الى غنى بلاد فارس وما كانت تستخرجه من المعادن خاصة من النخلة والحديد والكبريت والنفط واشباه ذلك . المسالك والممالك ، ص ٢١٥ .

(٥) ويضم المتحف القبطي بالقاهرة مجموعات من المفاتيح المصنوعة من الحديد ، وفيها ما هو مطعم بالبرونز ، ومن الملاحق تجويفها من الصدف وأيديها من الحديد ، وكذلك من المقصات والزمزميات وأدوات الزراعة المصنوعة من الحديد عبارة عن فتوس ورؤوس ومناجل وغير ذلك ، مما يرجع تاريخ صناعتها فيما بين القرن الخامس والقرن الحادي عشر الميلادي ، وهي تنسب الى كل من الفيوم وادفو وغيرها من المدن المصرية .

(٦) ذكر ابن رسته أن العاص بن هشام كان حدادا ، والوليد بن المغيرة كان حدادا أيضا ، الأعلام النفيسة ، ص ٥٣٦ .

صنعوا الأدوات اللازمة للعمارة مثل الأقفال والأبواب الحديدية (٧) ، كما قاموا بصناعة الصنج والأوزان المختلفة من الحديد (٨) وقد وصلتنا مجموعة من الصنج المصرية تشتمل على أسماء بعض الأمراء الذين تولوا حكم البلاد في العصر الأموي والعباسي ، منها صنج ترجع الى العصر الأموي باسم الأمير قرة بن شريك (٩٠ - ٩٦ هـ) وباسم الأمير حفص بن الوليد ١٢٥ هـ والأمير عبد الملك بن مروان (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) .

ومن العصر العباسي وصلت بعض الصنج الحديدية التي تحمل اسم « الأمير صالح بن علي (١٣٦ هـ / ٧٥٣ م) والأمير عبد الملك بن يزيد ، وباسم الأمير محمد بن الأشعث ، وباسم الأمير يزيد بن حاتم ، والأمير محمد بن سعيد وغيرهم » .

وقد نسج الصناع الأقباط على منوال أسلافهم ، حيث سادت التقاليد الفنية القديمة في صناعة الأدوات والأواني المعدنية سواء من الحديد أو النحاس والفضة ، ويضم متحف الفن الاسلامي مجموعة من أطباق النحاس بأشكال مختلفة ترجع الى القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، وبعض الشمعدانات المصنوعة من البرونز التي ترجع صناعتها الى فجر الاسلام .

وتوجد في المتاحف الخارجية مجموعة من الأباريق البرونزية التي صنعت في تلك الفترة ذات مقابض طويلة وصنابير ممتدة مزينة بأشكال آدمية وحيوانية ، كما تضم أيضا مجموعة من التحف المعدنية جاءت على أشكال الحيوانات والطيور محرفة عن الطبيعة ، من هذه المجموعة مباخر وآنية للماء على هيئة بطة أو حمامة أو ديك .

وهكذا ظلت صناعة المعادن وزخرفتها في العصرين الأموي والعباسي حرفة الأقباط في مصر ، حيث استخدموا كثيرا من الأدوات المعدنية في كنائسهم وذلك خلال القرن الأول الهجري . وبدأ المسلمون بعد انتشار الاسلام في البلاد في القرن الثاني الهجري في العمل على تقليد الأقباط

(٧) عرف المصريون صناعة الأبواب الحديدية قبل الفتح العربي ، وقد أشار بتلر الى الباب الحديدي تجاه الخندق والمرسى في الجهة الجنوبية من الحصن المعروف بحصن بابليون . وهناك مجموعة من الأقفال الحديدية التي قام الحداثون بصنعها في كل من البهنسا والقيوم وترجع الى سنة ٦٢١م . فتح العرب لمصر ، ص ٢١٨ .

Johnson : Economic Studies, p. 118.

(٨) وكانت دار العيار بالقسطاط تعمل بها تلك الصنج والأوزان ، المقریزی : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

فى صناعة أشكال كثيرة من الأدوات المعدنية من النحاس والبرونز
كالمسارج وغيرها .

ومن الجدير بالذكر أن معظم الأواني النحاسية وغيرها من الأدوات
المعدنية كان يتم صهرها وإعادة تشكيلها من جديد ، وربما كانت التحفة
المعدنية الوحيدة التى ترجع الى العصر الأموى هى ابريق مروان بن محمد ،
وقد عثر عليه فى ناحية أبى صير الملق فى اقليم القيوم . ومهما كان من أمر
اختلاف الباحثين حول المكان الذى تم فيه صناعة هذا الابريق (٩) ، فإنه
يعد التحفة البرونزية التى تكشف لنا عن الدقة والرشاقة التى بلغتها
صناعة التحف المعدنية فى ذلك العصر . وقد شاعت فى العصر الأموى
صناعة هذا النوع من التحف البرونزية التى نهجت فى أسلوبها الأسلوب
القديم حتى صار من المتعذر معرفة ما صنع منها قبل ظهور الاسلام وبعده ،
حيث حافظ الحكام المسلمون على التقاليد الصناعية النافعة فى البلاد التى
فتحوها فى صدر الاسلام .

وتشير المصادر الى بعض الصناعات المعدنية مثل عمل المسامير
والمثبتات والمراسى والسلاسل ، وما يستلزم دور الصناعة وحاجة بناء
السفن منها . كما تشير المصادر الى خبرة الحدادين والسباكين وغيرهم
من الحرفيين (١٠) ومعرفتهم التامة فى ذلك الوقت بأنواع الحديد وطريقة
صناعة الآلات والمعدات التى تخص كل نوع منها ، وذلك بحسب أسمائها
فيقال حديد معمول ، وحديد مصفى ، وحديد شق الفأس ، وحديد سكين،
وحديد مسله ، وحديد مسمار ، وحديد بنادقي ، وهكذا بحسب استغلال
الحديد ونوعه .

وقد ذكر المؤرخون أنه حينما حضر الى مصر الخليفة العباسى المأمون
عام ٢١٧ هـ ، وزغب فى معرفة باطن الأهرام أرسل فى طلب الحدادين
وأمرهم أن يجمعوا من آلاتهم الحديدية ويحدونها والمناجيق ، وأنه أنفق
فى ذلك مالا عظيما فى سبيل الكشف عما هو مخبوء فى باطن الهرم من
الكنوز والمطالب ، وقد وجدوا منها الكثير .

(٩) من المحتمل أن يكون قد صنع فى مصر التى اشتهرت منذ عصورها القديمة بصناعة
المعادن ، وإن كان عبد الرؤوف على يوسف يذهب ان أن صناعة الابريق تمت فى سوريا ،
لا سيما وأنه يتبع الطراز السامانى فى الصناعة والزخرفة .

(١٠) كانت المدن المصرية تضم من طوائف الحدادين والسباكين منذ العصر البيزنطى
أعدادا كبيرة كما كان فى مدن أكسيرنخوس (البهنسا) وأنطونيوبوليس (الشيخ عبادة)
بإقليم المنيا .

ومن أسماء الحدادين التي وردت على شواهد القبور والتي ترجع الى أواخر عصر الولاة وأوائل حكم الطولونيين ، شاهد باسم سعيد بن عبد الله الحداد مؤرخ في ربيع الأول سنة ٢٧٤ هـ ، وآخر باسم عمره ابنة عبد الله المعروف بجديد الحداد . ومن الصعيد شاهد باسم بهره ابنة اسماعيل ابن عبد الله اسماعيل الحداد . كما تحمل الشواهد الجيرية اسم محمد ابن طالب بن محمد بن الحداد مؤرخ بسنة ٣٣٢ هـ ، وشاهد آخر من عصر الاخشيديين يحمل اسم أحمد بن حماد الحداد ويرجع تاريخ وفاته الى صفر سنة ٣٥٢ هـ .

ومن الأسماء التي اشتهرت بحرفة الحدادة في عصر الاخشيديين أيضا ، كان أبو بكر محمد بن محمد بن جعفر الكتاني المعروف بابن الحداد، وقد أخذ العلم عن القفال المروزي (أى صانع الأقفال الحديدية) وكان من الأئمة الكبار ، وقد توفي ابن الحداد سنة ٣٤٤ هـ بالفسطاط ، وكان أجداده وآباؤه يتوارثون هذه الحرفة فنسب اليها .

وكما يضم المتحف مجموعة من مسارج البرونز المصنوعة على شكل طيور وبعضها ذو مقابض تعلوها صلبان أو رؤوس حيوانات (١١) ، فانه يحتفظ بمجموعة من شواهد القبور كذلك تشتمل على أسماء بعض الصغارين أو صناع الأدوات النحاسية ، منها شاهد رخام مؤرخ في ربيع الآخر سنة ٢٣٦ هـ باسم . علم جارية زكير بن يحيى الصفار ، وشاهد آخر من جهة عين الصيرة يرجع تاريخه الى شهر رجب سنة ٢٤٨ هـ - سبتمبر سنة ٨٦٢ م . باسم كامل بن منير الصفار ، وشاهد رخام من حفائر الفسطاط مؤرخ في شعبان سنة ٢٧٢ هـ باسم رهبج أم ولد يحيى ابن ميمون بن نجيج الصفار ، وشاهد حجر رملي باسم رحمة بنت يحيى ابن كامل بن سعد الصفار ، مما يدل على كثرة صناع الصفر بمدينة الفسطاط في القرن الثالث الهجرى .

وكما قام الصغارون بصنع المكايل من البرونز للسوائل وغيرها (١٢) ، فانهم صنعوا أيضا الأواني الفضية ، وإن كانت مصر لم تحتفظ بشيء من تلك الأباريق الفضية التي زخرفت برسوم حيوانات وطيور كما كان من زخارفها البارز والمحفور .

(١١) يضم المتحف مجموعة من الشوربات (المباخر) المصنوعة من الفضة والبرونز . وهي تنسب الى فجر الاسلام .

(١٢) الصغار هو صانع الأدوات والأواني والقدور من نوع النحاس الأصفر .

وفى عهد الطولونيين والاختشيديين أمدت مظاهر النهضة الصناعية الى المعادن ، حيث راجت صناعة الحلى والأدوات النحاسية ، وقد ظهرت بوضوح فى زخرفة التحف المعدنية عن طريق الحز والحفر والتخريم وتشكيل الأواني المصنوعة من النحاس . ولا غرابة فى ذلك فقد أنشئت مسابك النحاس بالقسطاط (١٣) ، كما وجدت دار النحاس بالقرب من سويقة معتوق بالقسطاط ، وموق النحاس التى كانت تقع بالقرب من جامع عمرو بن العاص ، كما وردت الاشارات منذ الفتح العربى ، فقد اشار ابن عبد الحكم الى دار مجاهد بن جبر التى اختطها فى النحاسين . وهكذا حفلت القسطاط بمظاهر رواج وتقدم صناعة النحاس والأسواق التى تضم مجموعة الحوانيت لبيع الأواني المنزلية وغيرها من المستلزمات المصنوعة من النحاس .

ولا شك أن القسطاط العاصمة المصرية كانت تزخر بالعديد من هؤلاء صناع الحديد ومن غيرهم من أصحاب الحرف ، يؤيد ذلك أنه كان بالعاصمة عدة دروب ورحاب وخوخ تحمل أسماءهم فكان بها زقاق الففاصين وزقاق الرزازين ودرب الحدادين ، كما كانت دار الضرب ودار العيار بالقسطاط تضم العديد ممن يعملون بحرفة الحدادة والنسباكة وغير ذلك من سائر الحرف والصناعات .

وقد ازدهرت الصناعة فى عصر الفاطميين ، وأصبح عمل المصانع ليس مقصورا على امداد الجيش والأسطول الفاطمى بالسلاح والعتاد الحربى والملابس لطوائف الجند ، بل تنوعت المنتجات والمصنوعات لتغطية احتياجات الأسواق الخارجية من المنتجات المصرية ، فضلا عن الحاجة لسد متطلبات القصور الفاطمية ورجال الدولة وعامة الشعب وأصبحت مصر تستورد خام الحديد من دماشيا وصقلية وشمال افريقيا .

كما أتقن الصناع المصريون فن تسقية الفولاذ ، ومما ساعدهم على ذلك انشاء مسابك خاصة بالفولاذ بالقسطاط ، وكان موضعها بأرض الحسينية خارج باب الفتوح بالقاهرة .

ولا شك أنه كان للحكام الفاطميين دور ملحوظ فى توفير خامات الحديد وغيرها من المواد ، فقد عملوا على انشاء المتجر الخاص بهم ، وكان

(١٣) اشار ابن دقماق الى مسابك الفولاذ ومسبك النحاس وغير ذلك مما بلغته مدينة القسطاط من وفرة المسابك والمطابخ ومظاهر الصناعة بها ، لكنه لم يوضح لنا شيئا عن تاريخ معين لقيام أو انشاء مثل هذه المسابك أو المصانع .

يحتوى على الكميات الوفيرة. من أنواع الأخشاب والحديد والطواحين ،
مما تحتاج اليه الصناعات المعدنية وغيرها .
كما كان للحكام الفاطميين أيضا اهتمام كبير بدار العيار وصناعة
الأوزان المختلفة من الأبطال الحديدية وغيرها (١٤) ، وقد أشار المقدسى
الى أن الفاطميين اتخذوا فى شمال افريقيا صنجا من رصاص وجاءوا بهذه
الصنج معهم الى القاهرة ، وانتشرت صناعتها فى عهدهم ، وقد وصل اليها
بعضها من بين مقتنيات المتحف الاسلامى .

وكان لرمى البندق شأن كبير فى العصور الاسلامية بالعراق والشام
ومصر وغيرها ، وقد تطورت صناعة البندق من الطين والحجارة الى صناعتها
من الرصاص فى مصر ، وكما يشير المقرئى فقد أصبح لها خط يسمى
بخط البندقين نسبة الى صناعة البندق .

ويذكر ناصر خسرو أنه كان بمدينة تنيس صناع كثيرون يصنعون
من آلات الحديد مثل المقصات والسكاكين وغيرها ، ويقال : « انه رأى
مقراضا فى مصر من صنع تنيس ثمنه خمسة دنانير مغربية » .

كما صنع الحدادون المفاتيح الحديدية المطعمة بالبرونز ومطارق
الأبواب بأشكال فنية ، وكذلك قدور الرصاص التى كانت تستعمل فى
الحمامات ، والأدوات الدقيقة مثل الابر والمسلات التى كانت تصنع من
حديد الفولاذ . ويشير الشيزرى الى غش الحدادين وما يجب أن يراعيه
كل حداد فى صناعة السكاكين أو المقاريض ، فلا يضرب سكيناً أو مقراضاً
من حديد الأرمهان ويبيعه على أنه فولاذ ، ولا يجب على الحداد أن يخلط
المسامير الرجعية المطرقة بالمسامير الجديدة .

ومن المحدثين والأدباء من اشتهر فى عصر الفاطميين بحرفة الحدادة ،
وكان يتكسب منها قوته ومعاشه ، وكما نسمع عن أحد الأئمة الشافعية
الفقيه القفال المروزي الذى كان يصنع الأقفال الدقيقة ، فقد صنع نفلا
زنته أربع حبات فقط ، فأننا نذكر من هؤلاء الأدباء المشهورين فى مصر
الشاعر السكندري أبا منصور ظافر بن القاسم الحداد ، وكان يزاول
صناعة الحدادة ، وما يذكر أنه استدعى يوما الى قطع خاتم كان قد ضاق
فى أصبع والى الاسكندرية الأمير السعيد بن مظفر ، وقد أنشد بمناسبة
قطعه لخاتم الأمير شعرا .

ومن هؤلاء الفقهاء من أصحاب الصنعة كان أبو بكر الحداد ، اشتهر

(١٤) كان لكل مدينة من المدن المصرية أبطال خاصة تتعامل بها عند الوزن بها ،
كمدن قوص وأسيوط ومنفلوط وغيرها . وكان يتمين على البائعين أن يتخذوا الأبطال والأوزان
من الحديد ، ولا يتخذونها من الحجارة .

فى أواخر العصر الفاطمى بصناعاته للمبارد الحديدية وكانت وفاته سنة ٥٥٢ هـ . وقد نبغ هؤلاء الفقهاء والشعراء فى علومهم كما تفوقوا فى صنعتهم كغيرهم من الصناع فى العصر الفاطمى ، ومما يدل على مهارة هؤلاء الصناع تلك المرايا التى صنعوها من الحديد للصقولي والمجلاة بالذهب والفضة ، المكلفة بالجواهر النفيسة ، وقد وجدت صناديق مملوءة من هذه المرايا المحفوظة داخل أغلفة من الجلد اللين بخزائن القصور الفاطمية .

ومن الملاحظ أن الأدوات التى كانت تستخدم فى الأغراض المنزلية وخاصة المصنوعة من النحاس والبرونز ، كانت أكثر شيوعاً وانتشاراً عن صناعة الأدوات والآلات الحديدية منذ فجر الإسلام .

وتشير حفائر الفسطاط الى تلك الانابيب الصغيرة المصنوعة من النحاس المتخذة فى جدران الدور والهيوت بمدينة الفسطاط ، كما تشهد أعمال الصقارين فى عهد خمارويه من قبل مجيء الفاطميين الى البلاد بمدى تفوق وانتشار صناعة النحاس والبرونز على غيرها من الصناعات المعدنية ، فقد ذكر المقرئى أن الصناع قاموا بكساء أجسام النخل من النحاس المذهب ، وجعلوا ما بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص لجريان الماء فيها وذلك فى البستان الذى أنشأ خمارويه والذي تميز عهده بالحياة الاجتماعية المترفة .

ازدهرت صناعة التحف المعدنية فى العصر الفاطمى ، وقام المصريون بجانب معدن النحاس من أصفهان ، ومن بخارى النحاس الأصفر الذى كان يستعمل فى طلاء أعلى المنائر . وتشير وثائق الجنييزة الى جهود الفاطميين من أجل استحوادهم على تجارة الهند من أيدي منافسيهم العباسيين ، وكان جنوب غرب الهند مشهوراً بمناجم النحاس وبصناعة الأواني والأدوات البرونزية والنحاسية . كما تكشف أوراق الجنييزة (١٥) عن العديد من أسماء التجار اليهود الذين كانوا يتاجرون فى السلع القادمة من وإلى الهند وبلاد الشرق الأقصى خلال العصر الفاطمى ، ومن هؤلاء التجار من كان يملك مصانع لسبك النحاس الأصفر فى بلاد الهند (١٦) .

(١٥) تعنى كلمة الجنييزة ، المخزن المالح بالمعهد اليهودى ، وكان هو المكان الذى تم اكتشافه ، وفيه مجموعة الأوراق المكتوبة بخط العبرى ، ولم تكشف حتى الآن سوى جنييزة الفسطاط (مصر القديمة) .

(١٦) من هؤلاء التجار ورد اسم ابراهيم بن ييجو وكان من المهدية بتونس ويمتلك مصباً للنحاس الأصفر فى الهند ، وتردد ذكر اسمه كثيراً فى أوراق الجنييزة ، وتحكى الأوراق أنه بعد موت ابنه الوحيد هناك عاد الى الفسطاط ليزوج ابنته الوحيدة التى واحدة من أبناء العائلة الموجودين بمصر فى ذلك الوقت .

ويصنف ناصر خسرو تلك الأواني النحاسية الكبيرة المصنوعة من النحاس الذي كان يستورد من دمشق ويقول : « وقد حدث مرة أن وجدت هناك (يعنى فى أسواق القسطنطينية) امرأة تملك خمسة آلاف من هذه الأواني ، وكانت تؤجر الواحدة منها بدرهم واحد فى الشهر ، وتدل رواية ناصر خسرو على أن مصر كانت تستورد أيضا النحاس من دمشق كما تدل على وفرة تلك الأواني الكبيرة المصنوعة من معدن النحاس فى ذلك العصر .

وقد صنع فنانون العصر الفاطمى الأواني النحاسية والبرونزية على أشكال الحيوانات ، وكانت فى الغالب أباريق من النحاس الأصفر ، ويصر ناصر خسرو على أن مصر كانت تستورد أيضا النحاس من دمشق كما المتحف القبطى من هذه التحف المعدنية منها الصواني والأطباق النحاسية عليها رسوم أسماك ونصوص قبطية ، وقد نقش عليها أسماء أصحابها وتاريخ صنعائها (١٧) ، ومن التحف المعدنية التى كانت تحفل بها القصور الفاطمية ما يدل على مهارات الصناع وتفوقهم فى صناعة تماثيل البرونز التى كانت تستعمل أحيانا مباحر أو صناير للأواني ، وأحيانا أخرى للزينة فحسب ، وبعض الأواني تم صنعها وتشكيلها على شكل طائر أو حيوان ، كان من أشهرها عقاب البرونز الموجود الآن فوق إحدى أروقة المقابر بمدينة بيزا فى إيطاليا .

وتشير المصادر الى أن القصر الفاطمى كان حافلا بالتماثيل المصنوعة من البرونز وغيرها والتى كانت تزين قاعاته الفسيحة . ومن أسماء هؤلاء الصناع لتلك التماثيل فى العصر الفاطمى نذكر سعيد بن على الذى جاء اسمه محفورا على أحدها ، كما ورد اسم عبد الله المثال على أحد هذه التماثيل الصغيرة المصنوعة من البرونز (١٨) .

وتدل رواية ابن أبى الصلت على أن صناعة النحاس ظلت رائجة حتى

(١٧) تم العثور عليها فى كنائس القيوم وترجع صنعائها الى القرن الرابع الهجرى ، وكان يستخدم القسس بعضها فى غسل أيديهم أثناء قيامهم بالقداس .
ذكرى محمد حسن : فنون الاسلام ، الكنوز الفاطمية ، ص ١٤٠ .

ومن التحف التى وجدت كذلك قدران من النحاس ومباحر وقياب تتركز على أربعة أعمدة على كل منها صليب مفرع وعلى دائرة القبة والصليبان نصوص قبطية باسم الصناع والتاريخ فى القرن العاشر الميلادى .

نفس المرجع والصفحة .

(١٨) ورد اسم ذلك المثال ضمن توقيع حفر على تمثال لأسد من البرونز ، ترجع صنعته الى سنة ٤٠٠ هـ وهو محفوظ الآن فى متحف كسل .

Wiet : Repertoire, tome 6, No, 2139, p. 74.

والعرف والصناعات — ١٦٩

أواخر أيام الفاطميين (١٩٦) ، وإن النحاس الخام كان يستورد من المغرب
والأندلس (٢٠) .

ومما لا شك فيه أن الاسكندرية كانت إحدى مراكز صناعة النحاس
والصناعات المعدنية الأخرى خلال العصر الفاطمي ، وهناك إشارة قصيدة
إلى فندق الصفار الذي كان يقع على مقربة من الصبابة ذكر ذلك ابن جبير
حين نزوله إلى الاسكندرية ، وتكشف لنا تلك الإشارة عن وجود أحد
صناع النحاس بالاسكندرية ، وأنه كان يملك فندقا أو وكالة بها تجار
النحاس وغيرهم من الوافدين من بلاد المغرب والأندلس وغيرهم .

وكانت صناعة القناديل والثريات في مصر قد عمت شهرتها خلال
العصر الفاطمي ، ويصف ناصر خسرو سوق القناديل بالقسطاط بأنه
لا يعرف سوا مثلها في أي بلد وفيه كل ما في العالم من طرائف ، كما
يشير المقرئ إلى زقاق القناديل وأنه كان من أعمر أخطاط مصر ، حيث
كانت أبواب الدور يعلق على كل باب منها قنديل ، وقيل أنه كان به مائة
قنديل توقد كل ليلة على أبواب الأكابر والأعيان .

ومما يدل على ازدهار هذه الصناعة ما كان الفاطميون يستخدمونه
من القناديل في ليالي المواسم والأعياد ، يذكر ناصر خسرو أنهم كانوا
يوقدون في ليالي المواسم أكثر من سبعمائة قنديل ، كما يذكر أن الخليفة
الحاكم أمر سنة ٣٩١ هـ باهداء جامع عمرو تحفة فضية عظيمة ، اشتملت
على سبعمائة مصباح ، قيل إن وزنها خمسة وعشرون قنطارا من الفضة ،
وبلغ من كبر حجم هذه الثريا الثمينة أن اضطر إلى هدم أحد أبواب المسجد
لكي يتم تركيبها في مكانها داخل المسجد .

(١٩) كان أبو الصلت من علماء الرياضيات ومن مشاهير الأطباء أيضا ولد مناحية
دانية سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، وأقام بالأندلس مدة ثم توجه إلى مصر سنة ٤٨٦ هـ . حيث
بقي بها مدة ثم عاد إلى وطنه الأندلس مدة ثم توجه إلى مصر سنة ٤٨٩ هـ ، حيث بقي بها
مدة ثم عاد إلى وطنه الأندلس وتوفي به سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م .

قندري طوقان : تراث العرب في الرياضيات والفلك ، ص ٢٣٢ .

(٢٠) وقد حدث أثناء تواجده في عهد الوزير الفاطمي الأفضل أن غرقت إحدى السفن
التي كانت تحمل خام النحاس بالمغرب من الاسكندرية ، فعزم أبو الصلت على رفعه من قاع
البحر فاجتمع بالوزير الأفضل وحاكم الاسكندرية حينذاك ، وطلب منهما تهية الظروف
له وتزويده بالآلات اللازمة حتى يتمكن من رفع المركب الغارق ، إلا أن الرواية تكشف لنا
من عدم قدرته وتمكنه من ذلك .

ابن أبي شيبة : عيون الأنباء ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

ولم تقتصر حاجة المساجد على التناديل والثريات ، بل كانت تعمر
أيضاً بالسلاسل النحاسية ، ويذكر المقرئ أن الحاكم بأمر الله لم يهتم
تقدير ما يحتاج إليه جامع باب الفتوح من العصر والتناديل والسلاسل
فبلغت النفقة على ذلك خمسة آلاف دينار .

والواقع أنه مع حياة الرخاء والاستقرار وخاصة في العصر الفاطمي
الأول ، وما تمتع به الأثرياء وعامة الشعب من مظاهر الحرف والتعظيم (٢٢) ،
فإن الحاجة زادت إلى الكثير من الأثاث والأدوات البرونزية والنحاسية ،
وكان لابد للصفاير وغيرهم من صناعات المعادن أن ينتجوا من الجرار
النحاسية والمعادن وأدوات الكتابة الشيء الكثير (٢٣) .

وكما اتقن الصانع أدوات الكتابة وحرصوا على تطويرها وتجميلها
لحفظ الأقلام والحبر مثل المقلات والمجبرات ، فإنهم أبدعوا في صناعة
الشمعدانات الفاطمية فقد زينوها بالزخارف النباتية وبكتابات الخط الكوفي
المزهر .

كما صنع المصريون من آلات الموسيقى وأدوات الطرب كالنقارات
والصفارات والصنوج والأبواق وغيرها . وكانت تصنع من النحاس والذهب
والفضة ، وتستخدم في المواكب الفاطمية والأعياد .

وتوصل الصانع المصريون إلى اختراع الآلات الدقيقة مثل الإبر
المغناطيسية (٢٤) وبندول الساعات (٢٥) ، وآلات الجراحة الطبية الدقيقة
وخاصة تلك التي كانت تستخدم في جراحة العيون (٢٥) .

(٢١) وقد عبر المقدسي عن راحة الرعية وحسن السياسة التي اتبناها الفاطميون ،
فالكل سامع ومطيع ولا يخطب إلا لأمير المؤمنين .

أحسن التقاسيم ، ص ٢١٢ .

(٢٢) المراد ما كان يصنع من النحاس المضروب الأصفر وهي خاصة بصناعة الغزل .
ابن الأخوة : معالم القربة ، ص ٣٢٩ .

(٢٣) كانت مصر شهيرة في صناعة وبناء السفن البحرية والحربية منذ الفتح العربي
وليس من المستغرب أن يكون المصريون من أوائل الشعوب التي اهتمت إلى صنع واستخدام
الإبر المغناطيسية التي تستخدم في تحديد الاتجاهات الأربعة .

حسين مؤنس : عالم الإسلام ، ص ٣٢٥ .

(٢٤) كان أول من توصل إلى اختراع بندول الساعة وصنعه ابن يونس المصري المتوفى
سنة ٣٤٦ هـ وكان أحد علماء الفلك البارزين في عهد الخليفة العزيز وابنه الحاكم .
سينديو : تاريخ العرب العام ، ص ٣٤٧ ، ترجمة عادل زعير .

(٢٥) من الذين نبغوا في جراحة العيون عمار الموصل في عهد الخليفة الحاكم . وما
لا شك فيه أنه استخدم مثل هذه الآلات الدقيقة .

Léclerc : Histoire De la Médecine Arabe, p. 511.

- وتشير المصادر الى صناعة الاواني الفضية والآلات من الفضة المكففة بالذهب ذات النقش العجيب والصنعة الدقيقة ، وذلك في الوقت الذي شاعت فيه صناعة أدوات الفلك الدقيقة مثل الاسطرلابات بأنواعها المختلفة والمرايا وغيرها من الآلات التي أمكن استخدامها في الأغراض العلمية .

ومن الجدير بالذكر أنه كان أول من ألف في صنعة الاسطرلابات الفلكية اليهودية المصري ماشاء الله (٢٦) ، وقد وضع في أيام الخليفة المنصور « كتاب صنعة الاسطرلاب » ، مما يدل على تقدم المصريين منذ عصر الولاة في هذا المجال .

وقد شاع استخدام الاسطرلابات بين المصريين في العصر الفاطمي وذلك لشغفهم بشئون الفلك والتنجيم ، يقول أمية بن الصلت الأندلسي : « المصريون أكثر الناس استعمالا لأحكام النجوم وتصديقا عليها وشغفا بها وسكونا اليها » .

ومما يدل على حرص الفاطميين واهتمامهم بشئون الفلك والتنجيم منذ قدومهم الى مصر ، اهتمام الخلفاء بإنشاء المرصد الفلكي فوق جبل المقطم منذ عهد العزيز بالله ، وكان للرصد آلات تختلف باختلاف الأغراض ، وتحتاج في صناعتها الى خامات النحاس والرصاص وغيرها من المعادن وقد ذكر ابن اياس نقلا عن القضاعي أن الأفضل عندما بنى الرصد الفلكي عند المسجد المطل على بركة الحبش (٢٧) ، كان فوقه كرة من نحاس أصفر قدرها قنطار ، وهي قائمة على عمود رخام من أجل تحرير الساعات وتحديد دخول أوقات الصلاة .

(٢٦) الاسطرلاب معناه باليونانية مقياس النجوم ، واصطر هو النجم ولاب هو المرأة . وكان من أكثر الآلات المستعملة عند الفلكيين والمسلمين ، كما كان من الأدوات الهامة التي ساعدت على تقدم فن الملاحة في العصر الاسلامي ، بحيث أصبح من اليسور على السفن والمراكب السير في البحار ليلا ونهارا في البحار والمحيطات . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٤ - ١٣٥ ، نفيس أحمد : جهود المسلمين في الجغرافيا ، ص ١٧٩ ، تراث الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٢٧) ويذكر ابن ميسر أن المأمون البطائحي حينما أراد أن يتم ما بدأه الأفضل ويستكمل الرصد ، وذلك في حوادث سنة ٥١٧ هـ ، فإنه تقدم شيوخ الصناعة الفلكية أبو عبد الله الحلبي وابن الميثمي وأبو جعفر بن حسداي وابن سد وأحمد بن مفرج الشاعر وابن قرقة ومعهم جماعة من العمال والصناع ، فوجدوا الطائرة الواحدة قد فسدت فجمع السباكون واحضر لهم ما يحتاج اليه من النحاس والذهب والفضة وسبكت الدائرة وأعيدت بحضرة الشيوخ بعد تعب كبير ومصروف كبير ، وهكذا تدل رواية ابن ميسر على خبرة هؤلاء الشيوخ بصناعة الآلات الفلكية وكذلك جماعة السباكين الذين عملوا على تشكيل وسبك ما تحتاج اليه الدائرة الفلكية المطلوبة . أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

ومن أسماء الصنائع الذين ذاع صيتهم في العصر الفاطمي ابن مزخرف النحاس ، ويبدو أنه كان شيخ طائفة النحاسيين (٢٨) . كما ورد اسم الشيخ عبد الجبار بن محمد المعروف بالنحاس وذلك في كتابه جثائزية ترجع الى سنة ٥٥٤ هـ بعبارة القرافة ويظهر من نص الكتابة انه كان يشغل وظيفة شيخ طائفة النحاسيين في أواخر أيام الفاطميين .

صناعة التكفيت في العصر الفاطمي :

وقبل أن نختم الحديث عن صناعات النحاس والبرونز ، تجدر بنا الإشارة الى ما اشتهرت به مصر في ذلك العهد من صناعة التكفيت فقد اجاد الصناع استعمال عدة طرق لتزيين المنتجات المعدنية المختلفة ، كان من أهمها طريقة الحز والترصيع بالمينا (٢٩) ومحاولة تطعيم أواني النحاس والبرونز بالذهب والفضة

وكان من عوامل تقسم وازدهار صناعة التكفيت هذه اقبال المصريين على شراء مثل هذه التحف المعدنية (٣٠) . والعمل على اقتنائها في بيوتهم (٣١) ، حيث بدأ الفن يأخذ الصبغة الشعبية لدى الناس ، وأصبحت بيوت القوم وما فيها من مظاهر فنية تدل على هذه الصبغة الشعبية ولم يعد عمل الصناع وفنهم تابعا عن تلبية رغبة الحكام وميولهم الخاصة نحو اقتناء بعض التحف الفنية داخل قصورهم .

وهكذا عمل الصناع والصفارون في مدينة القسطنطين وغيرها على إنتاج قطع النحاس المكفت كالآباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج والأواني المنزلية والموائد . ولا غرو فقد بلغوا في معرفتهم في ذلك العصر

(٢٨) دفن في سفح المعظم . المسبحي ، أخبار مصر ، ص ٢١٧ .

(٢٩) الحز هو إجراء حوز أو نقوش خفيفة غير غائرة على سطح المعدن . وفقا للرسم معين يعمده الصناع قبل تنفيذه ثم يقوم بنقله على سطح المعدن لحزه بآلة الحز الخاصة ذات النهاية المدببة التي تشبه آلة « الزينة » التي يستعملها الصناع الحاليون . حسن الباشا وآخرون : القاهرة - تاريخها - ، ص ٣٧١ .

(٣٠) تجلت زوح الإبداع على الخصوص في ترصيع المعادن الضالحة لصنع الأسنحة وفي الأواني والآباريق والأدوات المنزلية وما إليها . لوبون : حضارة العرب ، ص ٦١٧ .

(٣١) وقد عثر في اطلال القسطنطين على قرص صغير من الذهب ، ووجه هذا القرص منقش بالمينا ، وهو منقسم الى ثلاثة أقسام ، في الأوسط كتابة كوفية بيضاء مزخرفة باللون الأحمر على أرضية شنجائية ، ونصها « الله خير حافظا » والقسمين الأعلى والأسفل زخرفة حمراء محدودة بالذهبي على أرضية خضراء والراجع أن هذه التحفة ترجع الى القرن الخامس الهجري . زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٥٢١ .

بخرامى المواد الكيمائية واوزانها النوعية ودرجة انصهارها وإعادة تشكيلها
أو صبغها ، مما سبب اعوجاج على فنهم ، وبما تميزت به صناعة التكفيت
وازدهارها فى العصر الفاطمى .

وكان سوق المكففين يشتمل على عدة جوانب ليعمل الكفيت وهو
ما يطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة (٣٢) : ويذكر المقرئى
أنه كان لهذه الصناعة بمصر رواج عظيم وللناس فى النحاس المكفت رغبة
عظيمة ، فلا تكاد تخلو دار فى القاهرة ومصر من عدة قطع من نحاس
مكفت ، لابد أن يكون فى جهاز العروس دكة نحاس مكفت (٣٣) وفوق
الدكة دسب طاسبات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وعدة الدسب سبع
قطع بعضها أصغر من بعض تبلغ كبراجها ما يسع نحو الأودب من القمع ،
وطول الأكفات التى نقشت بظواهرها من الفضة نحو الثلث ذراع فى عرض
أصبغين نحو ذلك .

وقد أوضح المقرئى أنواع الدكك التى كانت بنات الأمراء أو الوزراء
أو أعيان الكتاب وأماثل التجار تطلبها فى جهازها ، منها ما يكفت بالفضة
أو من النحاس الأصفر المكفت ، ومن الدكك ما كان يكفت بالنحاس الأبيض
الى غير ذلك من أنواع التكفيت (٣٤) .

ومما يشهد بتفوق وازدهار صناعة التكفيت للمعادن فى العصر
الفاطمى ، ما حوته القصور الفاطمية من تلك التحف المعدنية المكفتة فقد
أخرج من خزائن القصر الفاطمى خلال سنوات الشدة العظمى أيام الخليفة
المستنصر آلاف الآلات من الفضية المكفتة بالذهب ذات النقش العجيب
والصناعة الدقيقة ، كما يذكر المقرئى أن الجند الأتراك أخرجوا من القصر
نحو أربعمائة قفص مملوءة بالأواني الفضية الثمينة المكفتة بالذهب ، وقد
سبكت كلها ووزعت على الثوار من هؤلاء الجند الأتراك .

(٣٢) ويشير نجيبىاف لوبيون الى صناعة التكفيت بالقباهرة فيقول : « وثارة يمر
الصبايح بمهارة عجيبة ، كما يفعل فى القاهرة بمنقشة الممازى الشكل بسرعة على المعدن
الذى يرغب فى زخرفته ، فيركب خيط الفضة بالمطبق على تلك الأجزاء المسببة ليعلق بها
تمسكه » . حضارة العرب ، ص ٦١٧ .

(٣٣) الدكة عبارة عن شئ يشبه السرير ، يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس
أو من خشب مدهون ، وكانت تبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت نحو مائتى دينار ذهباً
وزيادة . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .

(٣٤) وكانت هناك طرق أخرى للتكفيت منها ما يعنى ادخال خيط من الذهب أو الفضة
فى المعدن المراد تكفيتة ويكون هذا الخيط بإوزن أو عيشوتيا ، وأحياناً يتم تركيب زهرة من
الذهب أو الفضة وذلك فى الأواني المصنوعة من الفولاذ أو النحاس ، وقد يتكرر رسم هذه
الزهرة فى شكل متناسق . ريسلر : الحضارة العربية ، ص ١٢٤ .

٣ - صناعة الحلي والجواهر الكريمة

تشهد المتحف الذهبية التي وصلت إلينا من مصر الفرعونية بحذق الصائغ المصرى ومهارته الفائقة (١) ، فقد نجح هذا الصائغ فى طرق الذهب لى أوراق غاية فى الرقة كان يستعملها فى تزيين الأثاث المصنوع من الخشب أو فى طلاء المتحف النحاسية والفضية .

وفى السنوات الأخيرة جرى بمصر اكتشاف بعض القطع من الحلى الثمينة ترجع الى العصر البيزنطى ، منها عقود رائعة من الذهب تتوسطها أنواط تحمل صور الأباطرة ، ومنها خواتم وأساور وخلائيل ، تدل على مهارة الصياغ وذوقهم الفنى .

وكانت الاسكندرية - بطبيعة الحال - فى مقدمة المراكز الهامة لصناعة أنواع الحلى والجواهر الكريمة (٢) ، كما أنتج الصائغ فى كل من البهنسا والشيخ عبادة ومدينة قفط بصعيد مصر من أنواع الحلى من العقود والخواتم والأقراط الذهبية ما هو محفوظ فى المتحف القبطى وغيره من المتاحف المصرية .

كما يحتفظ المتحف القبطى بمجموعة من أقراط مصنوعة من الذهب الذهب على شكل عناقيد تم اكتشافها فى الواحات البحرية ، وأيضا مجموعة

(١) عرف المصريون صهر المعادن وطرقها حتى كانت تصل سلك بعض المعادن للطروقة الى أقل من ١ : ٥٠ من البوصة ، وكان لحام المعادن بنفس مادتها مستخدما فى صناعة الحلى منذ عهد الأسرة الأولى . بترجم : الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ، ص ٢٦٧ .

(٢) يحتفظ المتحف البريطانى بمجموعة من أدوات الحلى ترجع صناعتها الى القرن الرابع الميلادى تم اكتشافها فى منطقة أبى قير إحدى ضواحي الاسكندرية .

Ibid, pp. 116-117.

Ibid, p. 118.

من الدلايات والخواتم والأساور التي ترجع صناعتها الى تل أتريب بنواحي اخميم من العصر القبطي (٣) .

وعثر بدير القصير ومدينة هابو بالصعيد أيضا على مجموعة من أدوات الزينة مصنوعة من الفضة والبرونز ، وتشمل أساور وخلاخيل وأقراص وخواتم وقنينات للعطور وغير ذلك من أدوات الزينة والحلي (٤) .

وقد استمر الصنّاع الأقباط في عصر الولاة في صناعة الحلي والجواهر الكريمة ، وتزينت المرأة بوضع القرط الدائري الواسع في أذنيها أو أقراطا على شكل عنقود العنب ، وتزين معصمها بأساور سميكة تنتهي برأس حية من كل ناحية ، وبعضها كان مبروما ينتهي برأس حية من طرف وذيلها من الطرف الآخر ، وكان بعض حليها الذهبية مرصعا بالجواهر الكريمة ، كما كانت تصنع عقدا ذهبيا أشبه « باللبة » المعروفة الآن في مصر (٥) .

وكانت تلبس الخلخال الذي يصنع من النحاس أو الفضة ، وقد ترغب المرأة الثرية في صناعته من الذهب . وهكذا كان على الصياغ أن

(٣) اشتهرت كل من كوم اوشيم بنواحي الفيوم وكانت من المدن العامة خلال العصر الروماني والبيزنطي ، ومدينة اخميم (بانوبوليس) بصناعة أنواع الحلي وأدوات الزينة ، وتوجد قائمة بمختلف المواد وأنواع الحلي التي صنعها الصياغ من العصر والتي عرفت بقائمة Reil 57-FF

Johnson : Economic Studies, p. 117.

(٤) وقد ورد في دليل معرض الآثار القبطية عام ١٩٤٤م مجموعة من القلايدات والأساور الذهبية والجمادات التي ترجع صناعتها الى ما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين ، وهي تكشف لنا عن مدى احتفاظ المصريين بمهارتهم الفنية في صناعة الحلي وزخرفتها بأشكال وصور مختلفة .

دليل المعرض - مطبوع عام - ١٩٤٤ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

وكان من أهم استعمال الفضة منذ العصور المبكرة ، صنع الخرز والحلي والأقداح والأواني . على أنها كانت تطرق كالذهب الى صفائح وأوراق رقيقة ، كما تستخدم في تزيين قطع الأثاث الفاخر من الخشب أيضا .

لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٩٥ .

Johnson : Economic Studies, p. 118.

(٥) ولا يعني اقتتار العصر الاسلامي المبكر الى قطع الحلي أن العرب الفاتحين أو المسلمين الذين هاجروا الى مصر ، لم تكن تساوهم تزيين بالحلي الذهبية والفضة ، وربما يردى ذلك الى طريقة دفن الموتى عند المسلمين التي لا تسمح بوضع شيء مع الميت من قطع الحلي ، والتي كان يعاد صنعها وإعادة تشكيلها من جديد . محمد عبد العزيز مرزوق . الفنون الزخرفية الاسلامية في مصر قبل الفاطميين ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

يلبوا احتياجات الناس بحسب درجة ثوائهم ، قال جانب استعمال الفضة والذهب ، استعمل أيضا النحاس في صنع بعض قطع الحلي مما كانت تزين به المرأة في الطبقات الفقيرة ، وصنعت من النحاس الأصفر الخلاخيل والأساور ، كما كانت تصنع منه قطع الحلي الصغيرة التي اقتصر استعمالها على الأطفال كوسيلة من وسائل الزينة .

ومن عوامل تقدم صناعة الحلي وأدوات الزينة وفرة استخراج الذهب من منطقة العلاقي ، ونشاط المصريين في طلب البحث عن الكنوز الذهبية في مقابل الفراعنة كما أشرنا من قبل ، كما أصبحت بغداد مركزا للتبادل في المعادن النفيسة ، وذلك من منطقة الفضة في الشرق الإسلامي ومنطقة الذهب في الغرب . كما بلغت صناعة الحلي وأدوات الزينة في قصور العباسيين ما يؤيد ذلك (٦) ، فقد قدر العرب قيمة الذهب والفضة ، فهو كما قال الجاحظ عن الذهب : « لا يدحضه خبث الكبر ولا يقسده مر الدهور » ويستحسن منه سبيكة وغير سبيكة ، كما أنه من المعروف أن الجواهر الثمينة إنما يرغب في اقتنائها الخلفاء والملوك والأمراء لعظم ثمنها والمباهاة بها عند العامة .

كانت مدينة الاسكندرية من أهم مراكز صناعة الحلي والجواهر في مصر الإسلامية فقد بقيت إلى ما بعد الفتح الإسلامي بزمان طويل تحافظ على صناعة الذهب وتطعيم المعدن ، ولم تلبث أن ازدهرت سائر الصناعات بها طوال العصور الوسطى .

وكما تشير المصادر إلى وجود طائفة صياغ الذهب وصانعي الحلي من الفضة بها منذ فجر الإسلام ، فإنه كان يستخرج بالقرب من شواطئها من أنواع الجواهر الشيء الوفير ، فقد ذكر المسعودي أنه كان حول منارة الاسكندرية في البحر مغاص يخرج منه قطع من الجواهر وتتخذ منه فصوص للخواتم يشبه أنواعا من الجواهر . وكان الجواهريون يركبون فصوص الفيروز وغيرها في أنواع الخواتم حيث يكثر عامة الناس من استعمالها في ذلك الوقت .

ومما لا شك فيه أن وفرة أنواع الأحجار الكريمة من الزمرد والزمردجند واللؤلؤ ، وما كان يستخرج منه من صعيد مصر وشمال البحر الأحمر

(٦) كان من جملة أدوات الزينة في قصر الحديقة المقتدر العباسي شجرة من الذهب والفضة بأغصانها تتمايل بحركات موضوعة والظهور من كل نوع المذهبة والمنقضة تصنع بحركات مريية يتمايل يتمايل أغصانها ، برآدم ممتزج المضيئة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

بالقرب من عذاب (٧) ، كانت من أسباب تقدم صناعة الجواهر والمجوهرات في مصر الإسلامية .

وقد يمكن الحصول على أنواع أخرى من الأحجار الكريمة مثل أنواع المرجان من بلاد المغرب (٨) ، والطلق من جزيرة قبرص (٩) ، والألماس من بلاد الهند (١٠) كما تشير المصادر إلى استخراج الفيروز المصري من مناطق المفارة ومراييت الحادم وأم بجمة وغيرها من سيناء ، وكان يستورد الجزع والعقيق من اليمن ، وبه كان صنّاع الجواهر يحلون أصناف اليواقيت التي أمكن الحصول عليها بالقرب من القسطنطينية بموضع يسمى طرا ، ويذكر التيفاشي أنه رأى من الياقوت الأحمر قصوصا حمرا صفارا كالخرجل وأكبر قليلا (١١) .

ومن أنواع الأحجار الكريمة اللازورد فهو يجري مجرى العقيق ، وهو من أحسن الجواهر ، والفرق بينهما أن الأول كان صنّاع الجواهر يصنعون منه فقط للأمراء والأثرياء من الناس ، أما العقيق (١٢) ، فيكثر وجوده ويعتد

(٧) اشرا من قبل إلى استخراج هذه الأحجار الكريمة ومنها ما كان يدخل إليها بالصايح وبحبال يستدل بها على الرجوع خشية الضلال والهسلاك في تلك المناجم .
رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٠ ، التيفاشي : أجزاز الأدكار ، ص ٤٩ ، المقريزي : الخطط ، ج ١ ص ٢٨ ، عطية القوصي : تاريخ دولة البكتوز الإسلامية ، ص ١١٦ ، فريد شافعي : العمارة العربية في عصر الولاة ، ص ٥٣٥ .

(٨) يذكر ابن حوقل أن المرجان كان يستخرج من جهات مثل مدينة سبتة والجزيرة الخضراء بالمغرب ، وكان له تجار وسباسة يعملون على شرائه ويبيع في جهات أخرى المسالك والممالك ، ص ٥١ .

ويقول المقدسي : « ومن خصائص إقليم المغرب المرجان يخرج من جزيرة في البحر أهم مدينتها مرسى الحرز » . أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٩ .

(٩) الطلق نوع من الحجر الكريم بجزيرة قبرص وهو نوعان ففى وذمبي ، ومن خواصه أنه إذا دخل النار لم يحترق ولم يتكلس كما تتكلس سائر الأحجار ، وهذه الهبة يقول الحكماء أنه إذا حل وطليت به الأجسام لم تحرقها النار . التيفاشي : أجزاز الأدكار ، ص ٢٠٤ .

(١٠) كان الصينيون الوحيد للألماس بلاد الهند وجزيرة سرينديب ، واشتهر الأمر كذلك طوال العصور الوسطى . نفس المصدر ، ص ٢٦٧ .

(١١) كان وزن هذه الجواهر الذي يسمى الجبل مثقالين قوم واشتهر أبو جعفر المنصور بأربعين ألف دينار . الجاهل : التيجر بالتجارة ، ص ١١ .

(١٢) يقول الجاهل : « وخير العقيق اليماني الشديد الحيرة الذي يرى في وجه شبه الحيوط ، وكلما كان أصفر واضوا كان أجود في الثمن » التيجر بالتجارة ، ص ٢٠ .

علمة النيسابى على الترخيم به . ومنها ما يحتاج اليه فى صناعة التزويق
والزخرفة فقط .

ومن الجدير بالذكر ان التيفاشى المتوفى عام ٦٥١ هـ كان خبيراً
بأنواع الأحجار الكريمة ، مجيداً لصناعة الجواهر ، فهو يتحدث عن اللازورد
ويقول : « وقد يصنع اللازورد بالكيفية التى اتى واضعها » مما يدل على
مهارته الفنية ، والقادرة على صناعة نوع من اللازورد كما يوجد فى معدنه
الأصيل .

وكان للجوهريّة أسواق خاصة وأحياناً يعملون بها فى القسطنطينية
والاسكندرية وتونس وغيرها من المدن المصرية . كما كان للصناعة أو صنّاع
الحلى وأدوات الزينة أسواق لهم فى سائر المدن يمارسون بها مهنتهم (١٤) .

وفى العصر الطولونى تمتعت مصر بمكانة مرموقة بين الدولات
الإسلامية التى كانت خاضعة للخلافة العباسية ، وتوضح لنا المصادر اهتمام
الطولونيين بأنواع الحلى وأدوات الترف والزينة ، وإلى ما كانت تضمه
ثروتهم منها . ويعتبر جهاز قطر الندى ابنة خماروية خير شاهد على ذلك ،
فقد تفنن صنّاع الحلى والجواهر فى إبداع الأشكال العجيبة من التحف
الذهبية وغيرها من الطرائف ، يذكر المسعودى ان ابن الجصاص (١٥)
الذى تولى أمر صنع جهازها ، حمل معها جوهراً لم يجتمع مثله عند
خليفة قط .

فمن هذا الجهاز دكة من أربع قطع من الذهب ، عليها قبة من ذهب
مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط فيه حبة من الجواهر لا يعرف لها

(١٣) الجوهرى هو صاحب الجوهر الموزن والميزان ، والجوهر لفظ مهريب ومن
اشتغل بهذا الفن مىاتى الجوهرى جد أسيد بن مهذب الكاتب المصرى مؤلف كتاب قمران
الدواوين . مقدمة الكتاب .

(١٤) ويذكر ابن الأثير أنه كان على الصانع ألا يبيعونها أو يبيها النهمى والفضة والحلى
المصنوعة إلا بغير جنسها ليحل فيها الفاضل ، وإن باعها بغيرها حرم فيها التفاضل .
معالم القرية ، ص ٢٢٨ .

(١٥) هو الحسين بن عبد الله الجوهرى المعروف بابن الجصاص ، وكان تاجراً عراقياً
يتجر فى الجواهر ، ثم رحل إلى القسطنطينية فى عهد الأمير الطولونى خمارويه (٨٨٣ - ٨٩٥ هـ)
ثم أقبل به ونال حظوة عنده ، وجعله وكيله الوحيد لتجهيز البلاط بالأحجار والجواهر
الكريمة . وقد صادر الخليفة المقتدر العباسى ثروة ابن الجصاص ، وأخذ ما عنده من المال
ما قيمته أربعة آلاف دينار . توفى ابن الجصاص سنة ٣١٥ هـ . أبو الطاهر : المجموع
الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٨ ، عبد العزيز البورى : تاريخ العراق الإقتصادى ، ص ١٦٦ .

قيمة ، وصناديق مملوءة بالشمعدانات وأواني الذهب والفضة ، منها مائة هاون من الذهب . وقد بلغت نفقات قطر الندي عند زواجها من المعتضد عام ٢٨١ هـ عشرين ألف دينار في حين كان صداقها مليون درهم . كما يصف المقرئى جهاز قطر الندي فيقول : « أنه لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس الا حمله معها » .

ومما لا شك فيه أن ما حفلت به المصادر التاريخية في هذا الصدد ، إنما يعكس في جلاء ووضوح مدى تقدم الصناع ومهارتهم الفائقة في صناعة أنواع الحلى والجواهر أيام الطولونيين ، وذلك على الرغم مما قيل في ذلك الوقت أن الخليفة العباسى المعتضد إنما أراد بزواجه من ابنة خماروية العمل على استنزاف موارد الدولة الطولونية واقتنارها (١٦) .

وقد انتشرت صناعة الأقراط والخواتم والسوارات والدمالج (١٧) وأنواع القلادات والخلاخيل وغيرها من أنواع الحلى ، وكان على الصائغ إذا أراد صياغة شئ من الحلى لأحد الناس ، ألا يقوم بسبكه فى الكور أو فى الروياص (١٨) الا بحضور صاحبه بعد تحقيق وزنه ، فإذا فرغ من سبكه أعاد الوزن وإن احتاج الى لحام فانه يزن قبل ادخاله فيه ، ولا يركب شيئاً من الفصوص والجواهر على الخواتم والحلى الا بعد وزنها بحضور صاحبها (١٩) .

ومما يدل على ازدهار صناعة الحلى والجواهر فى عهد الاخشيديين تلك المظاهر التى جاءت فى وصف الاحتفال بليلة الفطاس بمصر ، وقد خرج مئات الألوف من الناس من المسلمين والنصارى يشاركونهم الاخشيد ، وعليهم من الملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر ما يفوق الوصف .

وقد اهتم محمد بن طفج الاخشيد بصناعة الجواهر ، يذكر ابن سعيد أن الاخشيد كان مغرماً بجمع المال واقتناء الجواهر ، بلغ ما خلفه من الثروة حين وفاته عام ٣٣٤ هـ ما قيمته مائتا ألف دينار من نوع المجوهرات الثمينة . ويذكر المقرئى تلك الهدية التى تقدم بها القائد جوهر حين

(١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٧٤ ، الكينسى : أسواق بغداد ، ص ٢١٧ .

(١٧) الدمالج جمع دملج وهو ما يلبس لتزيين العضد والقلادة للمنق . الشالى : فقه الله وأسرار العربية ، ص ٢٤٨ .

(١٨) الروياص : هو الاناء الذى تصهر فيه المعادن لتصبح خالصة من الشوائب .

(١٩) التميزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ٧٧ .

قدم المعز وجلس فى قصره ، وكان منها أربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أواني الذهب والفضة ومائة سيف محلى بالذهب والفضة ودرجات من فضة محرقة فيها جوهر وشاشية مرصعة فى غلاف وغيرها من ذخائر مصر ، ولا شك أنها كانت كلها من صناعة المصريين فى أواخر عهد الاخشيديين وبداية العصر الفاطمى .

ولم تقتصر صناعة الحلى والجواهر الثمينة على القسطنطين وحدها بل كانت الاسكندرية وغيرها من مدن الصعيد تضم أسواقا للصاغة والجوهرين ، وقد وصلتنا مجموعة من شواهد القبور تشتمل على أسماء بعض الصاغة من عهد الطولونيين والاكشيديين تعزز ذلك ، فمنها شاهد رخام من الصعيد باسم « يانسية ابنة زكريا بن يحيى الصائغ » ، وشاهد حجر رملى بتاريخ ٢٨ رجب سنة ٢٩٨ هـ باسم فاطمة ابنة أحمد بن جعفر الصائغ ، وآخر من القسطنطين يرجع تاريخه الى جمادى الأولى سنة ٣٦٢ هـ باسم « حسون بن على بن داود بن سليمان الصائغ » ، كذلك من الشواهد التى وردت من الصعيد ومؤرخة فى أول شعبان سنة ٣٧٥ هـ / ١٧ ديسمبر سنة ٩٨٥ م باسم لولو ابنة رزق الله حسين بن داود الصائغ ، ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بهذه المجموعة من شواهد القبور التى تكشف لنا مدى انتشار هذه الصناعة فى ذلك العصر فى سائر المدن المصرية .

كذلك يحتفظ متحف الفن الاسلامى بالقاهرة بمجموعة من شواهد القبور التى تحمل أسماء بعض الجوهرية وهى ترجع الى أواخر عصر الولاة وعصر الطولونيين والاكشيديين . فمن هذه الشواهد ورد اسم زوجة عبد الله بن سعيد المرى الجوهرى مؤرخ بسنة ٢٧٩ هـ / ديسمبر ٨٩٢ م ، وشاهد آخر باسم خفيف مولى محمد بن موسى الجوهرى ، وشاهد رخام بالمتحف نفسه ربما يرجع الى القرن الثالث الهجرى باسم فاطمة ابنة عبيد بنت محمد بن أبى عمران الجوهرى ، وشاهد رخام يرجع تاريخ وفاة صاحبه الى سنة ٣٥٥ هـ وقد حمل اسم عثمان المكنى بأبى عمرو عبد الله ابن الحسين بن عبد الله الجوهرى المعروف بابن الجصاص .

وقد نشطت حوانيت الصاغة بالقسطنطين والاسكندرية وغيرها بمجى الفاطميين وحكمهم للبلاد فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ولا غرو فقد جاءوا يحملون معهم ما يشبه الطواحين من الذهب ، كما كان جل اهتمامهم بشأن الحصول على الذهب من مناجمه بالعلاقي ، فضلا عن البحث عن الكنوز والمطالب ، وجدتهم فى ذلك السبيل ، يذكر ناصر خسرو أنه كان للسلطان خادم اسمه عمدة الدولة ، وهو أمير المطالبين ، وكان عظيم الجاه والمال ومن اختصاصه البحث فى تلال مصر عن الكنوز والدفائن ، كما كان

يأتي لهذا الأمر رجال من المغرب يجمعون بلاد الهند ، وينفقون المال الكثير
في تلال منصر ومطاجرها ، وكثير ما يخطون الدخائن والكنوز .

وفي العصر الفاطمي لم تقتصر صناعة الحلي على أنواع أدوات الزينة
الخاصة بالنساء ، وإنما كانت أدوات كثيرة تصنع من الذهب وتحلى بمختلف
أنواع الجواهر والياقوت والزمرد ، وهي لا شك توضح لنا مدى استخدام
الذهب والفضة ومظاهرها الترف لدى الفاطميين ، وحرصهم على اقتناء
التحف الثمينة من جهة ، كما تكشف لنا من جهة أخرى عن المهارة الفاتحة
التي بلغها صنّاع الحلي والجواهر في عصرهم .

وأول ما يطالعنا من استخدامات الذهب والجواهر في قصور الفاطميين
تلك المسميات التي أطلقوها على مجالس حكمهم ، ومنها قاعة الذهب بالقصر
الشرقي الذي بناه القائد جوهر لمولاه المعز ، وقصر الذهب الذي تم تشييده
في عهد العزيز بالله ، وهي تدل في وضوح على تشجيع صناعة الحلي
والجواهر ، فقد استلهم الصنّاع مقادير هائلة في صناعة التحف
التمينة من الذهب والفضة على أشكال مختلفة وزينوا بها مجالس الحكم .
فقد قيل في كتاب الذخائر والتحف أن وزن ما استعمل من الذهب
الأبريز الخالص في سرير الملك كان مائة وعشرة آلاف مثقال (٢٠) ، كما
نسج لصناع تلك الستائر من خيوط الذهب لتزيين القاعات ، فضلا عن
التمائيل والتحف الذهبية التي وضعوها في صدر هذه القاعات . فمن
أجل النفائس التي كانت تزين القصر الفاطمي تحف على شكل حيوانات
وطيور منها طاووس من ذهب مرصع بالجواهر عيناه من ياقوت أحمر
وريشه من الزجاج المموه بالمينا المجرى بالذهب على ألوان ویش
الطاووس .

كما يذكر المقرئ أن وزن ما حلى به السر الذي أنشاه سعيد
الوزراء أبو محمد اليازوري من الذهب ثلاثون ألف مثقال ، وأنه رصع
بألف وخمسمائة ومئتين قطعة جواهر من سائر ألوانه . وأن ما تم به
تحليته وتزيين الشمسية الكبيرة التي أقامها كان ثلاثون ألف مثقال ذهب
وعشرين ألف درهم مخرقة وثلاثة آلاف وستمئة قطعة جواهر من سائر
الألوان .

وقد أفاض المؤرخون في ذكر التحف الفاطمية النفيسة والآلات
الملوكية المصنوعة من الذهب والفضة التي كانوا يستخدمونها في مواكبهم
العظيمة ، ونخص بالذكر منها تاج الخليفة فكان فيه جوهرة عظيمة تعرف

(٢٠) المثقال يساوي درهم وثلاثة أسباع وزنه من الذهب .

باليثيمة زنتها سبعة دراهم ، ولا يقوم لنفاستها وحولها جواهر أخرى دونها ، وقصيب الملك الذي كان يمسك به الخليفة وهو ملبس بالذهب المرصع بالدر والدواة التي كانت تتخذ من الذهب وحليتها مصنوعة من المرجاف . وكما يذكر القلقشندي من التحف التي كان يستعملها الفاطميون في مواكبهم الرمح والدركة ، فالرمح في غلاف منظوم باللؤلؤ والحافر وهي قطعة من ياقوت أحمر في شكل الهلال ، زنتها أحد عشر مثقالا ، ليس لها نظير كانت تلف حول عمامة الخليفة عند ركوبه في المواكب المختلفة .

وكما استخدم الفاطميون الذهب والفضة كذلك في تحلية السروج والسيوف ، فانه بلغ من ترفهم ومظاهر النعيم أن صنعوا الآلات الموسيقية من الأبواق والنقسارات والطبول وغيرها من الذهب والفضة وكانوا يستعملونها في مواكبهم العظام . وقد أطنب المقرئزي وغيره من المؤرخين في حديثهم عن خزائن الفاطميين ، وما حفلت به خزائن الجواهر والطيب والطرائف ، وما كانوا يحتفظون به من سائر الأواني والتحف الذهبية والأواني الكريمة والحلى .

كان حرص الخلفاء الفاطميين ووزرائهم على اقتناء المجوهرات والتحف المعدنية الثمينة من أهم مظاهر الترف والنعيم منذ بداية عهدهم ، فقد جاء في ترجمة العزيز بالله أنه كان أديبا فاضلا ، يعرف قيمة الجواهر ويحرص على اقتنائه . كما كان حرص وزيره المخلص يعقوب بن كلس على حوزة الجواهر واقتنائها أيام توليه الوزارة ، يذكر ابن منجب الصيرفي أنه : « وجد له من الجواهر ما يبلغ أربعمائة ألف دينار حين وفاته » .

ومما يذكر أن الحاكم بأمر الله في بداية عهده كان يلبس على صدره العسجدة وهي درقة من ذهب مكللة بفاخر الجواهر يضئ لها ما حولها ، إذا وقعت عليها الشمس لا تطيق العيون النظر إليها . كما ذكر أن من جملة ما خلفه وصيه برجوان حين أمر الحاكم بقتله عام ٣٩٠ هـ من الحلى والمصاغ والطيب والصياغات من الذهب والفضة ما لا يحصى كثرة . وقد ذكر المقرئزي أن هدية ست الملك إلى أخيها الحاكم بأمر الله كان من بينها تاج مرصع بنقيس الجواهر وبديمة ، وشاشية مطعمة (٢٤) ، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر ، مما فاق في صنعه ما كان معمولاً في قصر المقتدر الخليفة العباسي (٢٢) .

(٢١) الشاشية : هي من نسيج سميك مطعمة بالذهب ونسيج من القصب المذهب .

(٢٢) كان قصر المقتدر به شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم وكان عليها من الطيور التي تنمى فوق أغصانها ونحفر في حركات بديمة تسر الناظرين . آدم هنز : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

وكذلك خلفت الأمتيرة عبدة بنت المعز لدين الله حين وفاتها سنة ٤٤٢ هـ ثروة طائلة وتحفا لا تحصى ، منها نحو أربعمائة سيف مجلى بالذهب ، ونحو أردب من الزمرد وغير ذلك من الجواهر والأقمشة النفيسة والأباريق والطسوت من البلور الصافى وهكذا توضح لنا الأدلة التاريخية أن الفاطميين بنوا منافسيهم العباسيين فى بلاطهم ، وفى خوزتهم للمجوهرات والكنوز التى حفلت بها خزائن ملكهم .

كما تشير المصادر الى حياة الرخاء والترف التى عاشها المصريون أيام حكم الفاطميين ، ولا سيما قبل وقوع الشدة العظمى فى عهد الخليفة المستنصر ، فقد أقبلوا على شراء واقتناء الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة وقد عبر ناصر خسرو عن أمن المصريين واطمئنانهم وعن تجار الجواهر والصيارفة ورخائهم العظيم ، وقيل انه كان بمصر أحد التجار اليهود وافر الثراء يتجر بالجواهر ، كان يعتمد عليه الخليفة فى شراء ما يريد من الجواهر الكريمة . وقد جاء فى أوراق الجنيزة ما يتضمن أن حرفة الجوهريّة كانت من أعمال اليهود بمدينة الفسطاط ، كما تشير الى رحيل بعض الصاغة المغاربة ونزوحهم الى العاصمة المصرية آنذاك .

وهكذا ازدهرت صناعة الحلى وأدوات الزينة وغيرها من الجواهر بالفسطاط ، وقد عثر فى خفائر الفسطاط على أساور وخواتم وأقراط من الذهب أو الفضة ، وعليها زخارف نباتية دقيقة ، ومن المرجح أنها ترجع الى العصر الفاطمى وأنها صنعت فى دار الجواهر بها (٢٣) .

وكان الصياغ يصنعون قطع الحلى والجواهر من الفضة بمدينة الفسطاط ، حيث تتمتع الفضة بعدة خصائص فنية وجمالية من أهمها لونها الأبيض البراق ، وعدم تأثرها بالهواء أو الماء ، وقابليتها للطرق والسحب والصقل (٢٤) ، ويذكر المقرئى أن الصناع كانوا يتخذون منها الحلى والأواني ، فضلا عن سك بعض النقود منها لزوم نفقات البيوت وفى حياة الناس اليومية .

ولا شك أن صناعة الحلى أو الجواهر لم تكن قاصرة على الفسطاط ، بل ظلت الاسكندرية من مراكز الصناعات الهامة خلال العصر الفاطمى .

(٢٣) ذكر ابن دقماق أن دار الجواهر كانت تقع بجوار خوخة السراج : وهي رحبة واسعة كانت سوقا هاما لصناعة وبيع الجواهر بالفسطاط .

الانتصار ، ج ٤ ، ص ٨٢ .

(٢٤) كان من الممكن عمل رقائق فضية يصل سمكها الى جزء من الألف من السنتيمتر . حسن الباشا وآخرون : القاهرة - تاريخها ، ص ٥٦٦ .

ويذكر التيفاشي أنه كان بها من الجوهريين من أهل الأندلس من يعمل بصناعة الجواهر والأحجار الكريمة ، كما كان من المرجان المغربي ما يحمل الى الاسكندرية فيصنع بها .

وقد برع الجوهريون في كيفية الكتابة على فصوص الخواتم المتخذة من المرجان ، ويوضح لنا هذه الطريقة فيقول : « كان يضع على جميع الفص أو الخاتم شمعا ، ثم يعمد الى موضع النقش منه فيكف فيه برأس ابرة ما أحب حتى ينكشف الشمع عن موضع الكتابة لا غير ، ثم ألقاه في خل خمر حاذق يوما وليلة ، ثم رفعه وأزال عنه الشمع فانه يجد موضع الكتابة محفورا قد تأكل بالخل وبقية الفص أو الخاتم على حاله لم يتغير » .

كذلك اشتهرت المدن المصرية الأخرى كالفيوم والاشمونين والبهنسا وأسيوط واخميم وقوص بالصعيد (٢٥) ، وكذلك تنيس ودمياط وغيرهما من مراكز الصناعة والحضارة بالوجه البحري ، فقد كانت حافلة بأسواقها وفي قيام الصاغة والجوهريين بصناعة أنواع الحلى وأدوات الزينة بها أيام الفاطميين .

ومن أسماء الصاغة أو الصياغ التي وصلتنا من العصر الفاطمي ، ما أوضحتها تلك المجموعة من شواهد القبور ، منها شاهد يحمل اسم هبة ابنة علي بن عبد الله بن شبيب الصائغ عثر عليه بأسوان ويرجع تاريخه الى آخر شهر رجب سنة ٣٦٥ هـ / ٣ ابريل سنة ٩٧٦ م ، مما يدل على قيام هذه الصناعة في مدينة أسوان في أقصى جنوب الصعيد . ومن الأسماء ما ورد على شاهد حجر رملي من الصعيد أيضا بتاريخ ١٥ جمادى الآخرة سنة ٣٨٤ هـ باسم محمد بن علي سراب بن أحمد بن داود بن سليمان الصائغ . وشاهد حجر رملي بتاريخ ٢٣ ذى القعدة سنة ٣٨٩ هـ ، باسم ابراهيم بن حسين بن سليمان بن داود بن سليمان الصائغ .

وفي عهد الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر كان ممن يمارسون صناعة الحلى والجواهر - من واقع ما ورد على شواهد القبور من الأسماء - جعفر بن ابراهيم بن أحمد بن داود بن سليمان الصائغ ، وشاهد آخر باسم الحسن بن محمد بن محان بن ابراهيم بن مسلمة الصائغ وغيرهما .

(٢٥) تشير مثلا كتب الرحالة الى مدينة قوص وأن أهلها أرباب ثروة واسعة ، وأنها مدينة قديمة وكانت عاصمة اقليم الصعيد في العصر الفاطمي ، وجاء في وصفها أنها حافلة الاسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤١٣ ، رحلة ابن جبير ، ص ٣٥ ، ابن دقماق : الانتصار ، ج ٥ ، ص ٢٨ .

وبالمتحف البريطاني شاهد من الصعيد يحمل اسم هرون بن يحيى الصائغ المتوفى سنة ٤٣٢ هـ ، وشاهد ثان من مصر العليا باسم حسين ابن رزق الله بن علي بن حسن بن داود الصائغ ، ومما يلفت النظر أن معظم هذه الشواهد بأسماء أفراد من أسرة واحدة هي أسرة سليمان بن داود الصائغ ، مما يدل على توارث حرفة الصياغة والحرف الأخرى في العصور الإسلامية .

ومن الجدير بالذكر أن صناعة الحلى والجوهر والاتجار بها كانت من الحرف الرائجة ، وكان يعيش أصحابها فى حالة من الأمن والاطمئنان فضلا عن ثرائهم . فقد ذكر ناصر خسرو أن تجار الجوهر كانوا لا يغلزون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر .

ويبدو من الروايات التاريخية ما يدل على خبرة الجوهرين العالية ، وإن كانت لا تعطينا من الأدلة ما يكفى لإثبات انفرادهم فى إعداد أو صناعة هذه الجواهر بالمقادير الهائلة التى كانت تحفل بها خزائن القصر الفاطمى .

ومهما يكن فإن ما يضمه متحف الفن الإسلامى من مجموعة الخواتم الذهبية (٢٦) ، وغيره من المتاحف فى الخارج (٢٧) ، يكشف لنا عما بلغه صناع الحلى والجوهرين من دقة واتقان فى صنعهم زمن الفاطميين .

كما توضح لنا المصادر مدى شغف الفاطميين حتى أواخر أيامهم باقتناء للتحف والأموال والنفائس ، فقد خلف الأفضل بن أمير الجيوش من الثروة والجوهر الشيء الكثير ، كان من بينها ثلاثون راحلة أحقاق ذهب عراقى ، ودواة من ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ، ومائة مسمار من الذهب وزن كل مسمار منها مائة مثقال .

ولما استولى صلاح الدين على خزائن القصور الفاطمية بعد موت العاضد عام ٥٦٧ هـ ، أخذ منها ما يخرج عن الإحصاء والتحف الثمينة العجيبة التى تملأ الدنيا من مثلها ، فمن ذلك الجبل الياقوت الذى بلغ

(٢٦) يضم متحف الفن الإسلامى بالقاهرة مجموعة من خواتم الذهب المزخرفة بزخارف نباتية أو حيوانية وعليها الكتابة الكوفية ، وأيضا من مشايك الصدر المصنوعة من الذهب بأشكال مختلفة بزخارف نباتية أو طيور بالينا وسواران من الذهب عليهما شبكة بكتابة كوفية ، وكذلك يضم المتحف علبة من الفضة لحفظ التسمية مزخرفة بكتابة كوفية ترجع صناعة هذه المجموعة كلها إلى القرنين الخامس والسادس من الهجرة .

(٢٧) ويضم متحف المتروبوليتان ثلاث قطع جميلة هى زوج من الأقراط ودلاية على شكل هلال يمكن إرجاع صناعتها إلى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . ديماند : الفنون الإسلامية ، ص ١٥٣ .

وزنه سبعة عشر درهما ، أو سبعة عشر مثقالا ، والقصاب الزمرد ، فكان
من الذخائر المدومة المثل ما لا يعد .

ويرجح لوبون وغيره من المؤرخين الغربيين أن يكون الأوروبيون قد
اقتبسوا صناعة الحلى المنقوشة من تلك المنتجات فى مصر وغيرها من بلاد
الشام ، والتي دخلت الى الممالك الأوروبية عن طريق التجارة وانتى جلبها
معهم الصليبيون عند عودتهم من الشرق الاسلامى ، وقد عثر على قطع من
الحلى والمجوهرات عليها زخارف ذات مسحة شرقية اسلامية فى بلاد السويد
والنرويج والدانمرك لا شك أنها وصلت الى تلك الجهات النائية عن
طريق التجار المسلمين فى العصور الوسطى .

٤ - صناعة سك النقود ودور الضرب المصرية

كانت دار الضرب بالاسكندرية من أهم دور الضرب في مصر قبل الفتح العربى ، وذلك منذ أعاد الامبراطور جستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥ م) ضرب نقود مصرية في عاصمة البلاد المصرية .

ويبدو أن هذه النقود كانت تقتصر في ضربها على معدن البرونز ، ولم تصدر عن دار الضرب هذه أى عملة فضية أو ذهبية ، منذ العصر الرومانى (١) ، وذلك على الرغم مما تشير اليه أوراق البردى التى ترجع الى القرن السابع الميلادى من أن قاعدة الذهب Gold Standard كانت أساسا للنظام النقدي فى مصر حتى بعد الفتح الاسلامى للبلاد (٢) .

وقد ظلت دار الضرب بالاسكندرية تسك بها النقود بعد الفتح الاسلامى . وفى عهد معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦٠ هـ / ٦٦١ - ٦٨٠ م) بدأ الصناع يضربون سكة ذهبية على الطراز البيزنطى فى هذه الدار كما حدث فى العاصمة الأموية دمشق ، وكان ذلك فى نطاق محدود حيث أن معظم السكة (٣) التى كانت تغذى الأسواق فى مصر وسوريا كانت تأتى من بيزنطة سدادا لأثمان البردى المصدر اليها .

(١) تشير أوراق البردى الى العملات النحاسية والبرونزية والى التعامل بالأنفاس ابان الفتح العربى ، كما تشير المصادر الى أنه منذ عهد أغسطس كانت تسك فئات مختلفة من العملة البرونزية فقط . جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١٥٦ ، ابراهيم صبحى : مصر فى عصر الرومان ، ص ١٤٢ ، بحث نشر مجلد الحضارة المصرية ، ج ٢ .

(٢) نفس المرجع ، ج ، ص ١٥٧ .

يضم المتحف القبطى مجموعة من العملات الذهبية من الطراز البيزنطى والاسلامى يرجع ضربها الى القرن الخامس وحتى العاشر الميلادى .

(٣) لفظ السكة كان اسما للطابع ، وهى الحديدية المستخدمة للختم على الدينار والدرهم بما ينقش عليها من صور وكلمات . ابن الأزرقي : بدائع السلك ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

ومن الملاحظ أن معاوية لم يحدث تغييرات تذكر في سك النقود من حيث العيار وخلافه ، وإنما قام الضرابون بضرب الدنانير وعليها صورته وبيده سيف ، كما تم ضرب دراهم وزن الواحد منها ستة دوانق .

والواقع أن الجزية والخراج والضرائب الأخرى وأجور العمال وسائر المعاملات كانت تدفع بالدراهم والدنانير في العصر الأموي (٤) ، وكانت تعرف الدنانير في أوراق البردي اليونانية باسم Solidi ، كما كانت تؤدي في العصر الروماني والبيزنطي بالدراخمت (٥) ، والتي كانت تسك من مزيج من البرونز والفضة .

وهكذا أصبحت دار الضرب بالإسكندرية تسك بها النقود على أنواعها المختلفة منذ أوائل العصر الأموي ، واستمر بها الضرابون والنقاشون وغيرهما من الصنائع في عصر الولاة ، مع الأخذ في الاعتبار أن دار الضرب لم يكن يسجل اسمها في مصر على السكة قبل سنة ١٩٩ هـ ، وأغلب الظن أن هذه الدنانير التي كانت تحمل اسم مصر كانت تضرب في دور السك القائمة في الإسكندرية والفسطاط على السواء باعتبارها أعظم دور الضرب وقتئذ .

أما دار الضرب التي تم تأسيسها في الفسطاط العاصمة بالقرب من جامع عمرو (٦) ، فأغلب الظن أن الوالي عبد العزيز بن مروان - كان أول من اتخذ ذلك (٧) كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي حينما اتخذ دارا

(٤) يذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن الخطاب ، كتب إلى أمراء الأمصار ألا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي (أي من بلغ سد الرشد) وجزيتهم أربعون درهما وعلى أهل الورق ، وأربعة دنانير على أهل الذهب . فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٥ .

(٥) أوضح Milne أن الصباغين والقصارين وغيرهما ممن كان يعمل في حرفة النسيج كانوا يؤدون ما قيمته ١٩٢ دراهمة للقصار ، وكان الصباغ يدفع ٢٨٨ دراهمة سنويا كضريبة .

A History of Egypt under Roman rule, p. 156.

(٦) وردت أول إشارة عن دار الضرب حينما قام عقبة بن عامر (٤٠ - ٤١ هـ) من قبل معاوية ببناء دار لرملة ابنة الخليفة ، كما يذكر ابن عبد الحكم أنه سميت دار الرمل كما ينتقل من الرمل إلى دار الضرب ، وفي حديثه عن إضافة عبد الله بن ظاهر وتلك الزيادة التي أحدثها عام ٢١٣ هـ بإذا من الخليفة المأمون يشير إلى أنه أذن له في إضافة ما بقي من دار الرمل كلها إلا ما بقي منها من دار الضرب ، مما يدل على انشائها بجوار الجامع العتيق بالفسطاط . فتوح مصر والمغرب ، ص ١٤٤ - ١٧٩ .

(٧) أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز واليه على مصر في عام ٧٦ هـ أن يأمر الصنائع والمشرفين ، دور الضرب بسك العملات بالصيغة الإسلامية . المقرئ : أغانة الأمة ، ص ٥٥ ، عبد الرحمن فهمي : النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص ٤٤ .

للضرب له بالعراق ، وتُقش اسمه على الدراهم ، فعرّقت العملة الحجاجية
وسميت مكروهة لكره أهل العراق لها .

ومن المرجح أنه كان من أسباب انشاء دار للضرب بالفسطاط في
عهد الأمويين والاهتمام بأمرها ، تلك الدوافع الحقيقية التي أعادت حق
ضرب النقود الى الخلافة الاسلامية ، ورغبة عبد الملك بن مروان (٦٥ -
٨٦ هـ) في ضرب العملة ونقشها بالصيغة الاسلامية (٨) ، ونهيه في أن
يضر بها غير المسلمين في بيزنطة وغيرها .

كان الوالى أو الحاكم هو الذى يراقب سك النقود بدار الضرب
ويعمل على معاقبة من يحاول غشها (٩) ، ويوضح المقرئى سبب ضرب
الفلوس أو العملات النحاسية في مصر فهو يرجع الى وجود « محقرات »
في المبيعات تقل عن أن تباع بدرهم أو جزء منه ، فكان الخلفاء بإزاء هذه
المحقرات يضربون اليسير من معدن النحاس قطعاً صغاراً تسمى فلوساً
لشراء ذلك .

وقد أمكن العثور على عملات نحاسية ، فبينما نجد فلوس (القاسم
ابن عبد الله) صاحب خراج مصر (١١٦ - ١٢٤ هـ) لا يذكر عليها اسم

(٨) يورد كل من البيهقي والدميري أن تعريب العملة في عهد عبد الملك بن مروان
كان بسبب تلك القراطيس التي كانت تصنع بمصر والذي كانت تفلز بالرومية وأنه حينما
رفض تلك الصيغة المسيحية على القراطيس . حدث أن مدد امبراطور الروم ان أصر الخليفة
على تغيير الطراز أن يأمر بنقش الدنانير والدراهم وفيها ما يسىء الى نبي الاسلام ، عندئذ
أمر عبد الملك بن مروان بعد استشارة القوم في ذلك بضرب الدنانير والدراهم وعليها صورة
التوحيد وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه العملة ، وأمر أن يكتب في ذلك
الى جميع بلدان الاسلام ، وأن يقدم الناس في التعامل بها . المحاسن والساوئ ، ج ٢ ،
ص ١٢٦ - ١٢٦ . وقد ذكر المقرئى أن السبب في ضرب العملة بالصيغة الاسلامية إنما
حينما أشار الأمير خالد بن يزيد على عبد الملك بوجوب سك العملة بما يوفق والصيغة
الاسلامية وترك دنانير البيزنطيين . والواقع أن الخليفة الأموي حينما قام بمهمة التعريب
لكل الدواوين في مصر وفارس والشام ، والعمل على استقرار الدولة اقتصادياً بعد أن تهدأت
لها أسباب الاستقرار السياسى ، فإنه أصبح من لوازم السيادة الاسلامية تعريب العملة
وسكها داخل دور الضرب في كل من مصر والشام وغيرها ، اذ لا سبيل الى الاستقرار
الاقتصادى ، مادامت مقومات الدولة المالية تدور في فلك الدنانير البيزنطية والدراهم
الساسانية . المقرئى : النقود الاسلامية ، ص ٤ ، عبد الرحمن فهمي : فجر السكة
العربية ، ص ٥٢ .

(٩) اهتم الأمويون بمراقبة نقش الدراهم ، يذكر البلاذري أن مروان بن عبد الحكم
أخذ رجلاً يقطع الدراهم فقطع يده بسبب غشه لها . كما عاقب ابان بن عثمان وكان : أملاً
على المدينة كان يقطع الدراهم بأن ضربه ثلاثين سوطاً وطوف به . فتسوح البسكين ،
ص ٤٥٦ .

مصر ، نجد فلوس عبد الملك بن مروان صاحب الحراج (١٣١ - ١٣٢ هـ)
ووالى مصر يسجل عليها اسم مصر - الفسطاط . وهكذا يمكن القول بأن
دار الضرب بالفسطاط بدأت عملها بسك العملات النحاسية ولم تبدأ فى
ضرب الدنانير الا فى العصر العباسى حينما حصل والى فى مصر على حق
الضرب للدنانير الذهبية (١٠) .

وهناك نوع من الفلوس التى نقشيت ولا تحمل أسماء الولاة أو عمال
الحراج ، ولكنها تشير فقط الى مكان الضرب ، حيث كانت هناك مراكز
أخرى عديدة فى المدن المصرية لسك العملات النحاسية بها ، نذكر منها
مدينة الفرما القديمة Pelusium (١١) وبجهة نبروه (١٢) وبمدينة
الفيوم وأتريب (١٣) ، وأبوان واهناس وغيرها ، وقد كانت بمثابة دور
ضرب مساعدة ، قامت على اصدار بعض المسكوكات الاقليمية الى جانب
دار الضرب الرئيسية فى مصر أو الفسطاط .

ويشير ياقوت الى أنه فى العاصمة كانت تضرب الدنانير كما ذكر عند
حديثه عن حلوان فهو يقول : « وأول من اختطها عبد العزيز بن مروان
وضرب بها الدنانير وبنى بها دورا وقصورا واستوطنها وزرع بها بساتين
وغرس فيها كروما ونخلا » ، كما ذكر المقرئى أن عبد العزيز بن مروان
حينما وفد على أخيه عبد الملك فى سنة ٧٥ هـ ، وبعد أن هدم جامع
الفسطاط كله وزاد فيه من جوانبه كلها فى سنة ٧٧ هـ أمر بضرب الدنانير
المنقوشة .

وقد أشار الكندى الى صاحب السكة ونفذه فى أوائل العصر
العباسى ، لكنه لم يذكر لنا شيئا عن اسمه ، وذلك فى معرض حديثه عن

(١٠) أجرت بعثة كلية الآثار بعض الحفائر بظاهر الفسطاط عام ١٩٧٢ م ، وقد عثرت
على بعض المفاير وكانت تقع على ثلاث طبقات ، ترجع الطبقة الأولى منها الى العصر الأموى ،
وعثر فيها على عملات نحاسية ، سعاد ماهر : حفائر كلية الآثار بظاهر الفسطاط ، ص ١٠٣ -
بحث مجلة كلية الآثار ، العدد الأول .

(١١) ذكر اليعقوبى أنها كانت أول مدن مصر وبها أخلاط من الناس وهى تقع الى
الشرق من جهة بورسعيد . البلدان ، ص ٣٣٠ .

(١٢) نبروه من البلاد القديمة بمركز طلخا بمحافظة الغربية وقد أشار اليها ابن مائى .
فوائى الدواوين ، ص ٢١٥ .

(١٣) كانت كورة عظيمة منذ العصر الرومانى والبيزنطى وهى تقع بالقرب من بنها
ومراعها التلول التى بأحواض أتريب فى الجهة الشمالية من سكن بندر بنها . المقرئى :
المخطوط ، ج ١ ، ص ٣٢٩ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ج ١ ، ص ٩٩ .

حركة العلويين ، حين قسّم أحدهم الى مصر ونزوله على عسامة بن عمرو المعافري ، فهو يتحدث عن صاحب السكة وأنه هو الذي أرشد الوالي على مصر حميد بن قحطبه من قبل الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور عسامة ١٤٣ هـ . ومن المرجح أن صاحب السكة هذا هو الذي كان مشرفاً على دار الضرب بالعاصمة القسطنطينية ، كما كان أحد عيون الخليفة العباسي في مصر على الولاة أنفسهم وتصرفاتهم ازاء الحكم العباسي حينذاك .

وكان علي بن سليمان أول من ضرب الدنانير في القسطنطينية عام ١٦٩ هـ وهناك من الدنانير ما تحمل اسمه وترجع الى سنة ١٧٠ هـ ، ١٧١ هـ ثم تعددت بعد ذلك دنانير الولاة وعمال الخراج في مصر في العصر العباسي وفي سنة ٢١١ هـ ظهرت النقود في القسطنطينية مضروبة باسم عبد الله ابن طاهر قائد جيوش المأمون ، وأضيفت الى كتابات الدنانير بعض الآيات القرآنية مثل « لله الأمر من قبل ومن بعد » كما اكملت بعض العبارات المقتبسة من القرآن الكريم وأضيفت البسملة كاملة الى عبارات الضرب وتاريخ ذلك على الدنانير التي تم سكها بدور الضرب بالقسطنطينية .

كانت دور الضرب المصرية في عصر الولاة تضم العديد من هؤلاء الصناع من النقاشين والسباكين والضرابين ، وجميعهم من خيرة الفنيين المهرة في صهر المعادن وسك النقود ، وقد أوضح ابن بكرة تلك المراحل التي كان يمر بها المعدن في دار الضرب ليصبح عملة صالحة للتداول بعدها . كما أشار الى اعداد سبيكة الدراهم وطريقة تصفيحها ، حيث كانت الدراهم المصرية منذ فجر الاسلام عبارة عن صفائح رقيقة من الفضة (١٤) ، مضروب عليها بقالب الدرهم من وجهين بعد التأكد من نقاء سبيكة الفضة حيث تضرب الدراهم على القطع التي تم تدويرها دون تشقق (١٥) . وكان تقطع سبائك الفضة ، ويضاف اليها جزء من الرصاص ، حيث يقوى صلابة الصفائح الفضية ثم تجلى بعد ذلك عن طريق جمعها في كبشة وتنطفئ وهي ساخنة في ماء الليمون والملح حتى اذا ظهر بياض الفضة جليت بالرمل الناعم ويختتم عليها .

(١٤) كان أول من ضرب الدراهم في الاسلام هو مصعب بن الزبير عام ٧٠ هـ بالمدينة ، ونقش عليها « بركة من جانب رسول الله » . ابن الاخوة : معالم القربة في معالم الحسة ، ص ٤٤٣ .

(١٥) ويضم متحف الفن الاسلامي درهم ضرب بدار الضرب بالقسطنطينية في سنة ٢٤٤ هـ باسم « السرى بن الحكم » وقد سجل عليه اسم الخليفة المأمون وطاهر بن الحسين قائد . وفي أسفل ظهر الدرهم ظهرت كلمة السرى .

عبد الرحمن فهمي : فجر السكة العربية ، ص ١٠٣ .

وكان على المقدم أن يحافظ على عيارى الذهب والفضة بدار
الضرب (١٦) ، وذلك بفضل تحقيق وزن كل هرجة (سبيكة) ترد الى دار
الضرب ، ولا بد للمقدم من معرفة ما فى الأتون (الفرن) من سبائك ويختتم
على الأتون حتى لا يتطرق الى السبائك أبواب الشك والفساد .

أما عمل النقاش فهو حفر الكتابات المزمع ابرازها على السبيكة مقلوبة
على القالب الأم ، من أجل اظهار بروزها على السكة ، وكان من عمل السباك
أن يحضر وزن النحاس قبل طرحه فى البوتقة والفضة فى حال السبك ،
وعليه أن يوزن العيار ونسبة النحاس الى الفضة ، فان درك الحاصل كما
يقول ابن بكرة فى حالة السيطرة عليه والمسلم تحت يده .

ومن أهم الأعمال بدار الضرب تلك التى كان يقوم بها الضراب فعليه
الختم على السكة المصبوبة قبل أن تبرد وتعود الى صلابتها ، واعداد القضبان
المعدنية من السبائك المصهورة لانتاج الدنانير أو الدراهم والفلوس أيضا ،
أو الختم على الأجزاء المستديرة من كل معدن فيها ثم جلاء سكة الذهب
والفضة قبل السماح بتداولها . وهكذا كانت دور الضرب وما تضم من
النقاشين والسباكين والضرابين من أهم المراكز للصناعات المعدنية فى مصر
الاسلامية .

وقد كان أساس المعاملات المالية بين الناس الدينار الذهبى والدرهم
الفضى (١٧) وكانوا يفضلون الذهب والفضة فى جميع الأحوال وذلك
لسرعة سبكها وطرقها وتشكيلها بأى الأشكال مع حسن الرونق . وتشير
المصادر الى أن الناس كانوا يقدمون خامات الذهب والفضة وغيرها لكى
تضرب لهم على هيئة نقود فى دور الضرب ، يتضح ذلك من قول ابن مائى
من أنه كانت تحصل على كل ما يضرب فيها من النقود ضريبة يسمونها ثمن
الحطب وأجرة الضرابين ، ومقدار ذلك درهم عن كل مائة درهم وربما
اختلفت هذه الضريبة باختلاف المدن ، وكانت الدولة تحصل من وراء ذلك
على دخل كبير .

(١٦) يقصد بالعيار تلك النسبة القانونية بين وزن المعدن الصافى الموجود فى قطعة
السكة ووزنها الكلى ، ويحدد هذا العيار بالنسبة للعدد ألف أو العدد ٢٤ - الذى يشل
الوزن الكلى ، فمثلا عيار قطعة فضية السكة ٢١ يعنى أن هذه القطعة تحتوى على ٨٧٥ من
ألف جزء أو ٢١ من ٢٤ جزءا .

(١٧) يذكر ابن خلدون أن عشرة دراهم من الفضة كانت تساوى سبعة مثاقيل من
الذهب وكان وزن المثقال من الذهب يساوى ٧٢ حبة من الشعير . وقد بلغ الوزن الأساسى
للدينار مثقال من الذهب الخالص أى ٤٢٥ جرام ، وكان وزن الدرهم مثقالا أيضا ولكن من
الفضة . المقدمة ، ص ٢٣٠ .

وكان الناس في عصر الولاة يقبلون على ضرب الدنانير الذهبية والدراهم ، ويعملون على اقتنائها أو اكتنازها ، فمن طريف ما ذكره المقرئى ما حكاه عن العجوز القبطية صاحبة قرية طاء النمل ، وما قدمته للخليفة المأمون وأخيه المعتصم ورجال حاشيته من فاخر الطعام ولذيذه (١٨) ، وما وضعت بين يديه - أثناء مروره على تلك القرية - من أكياس الذهب المضروبة ، فاذا هى من ضرب عام واحد كلها حينما تأملها وفكر في ردها اليها .

ومن الدنانير التى عثر عليها ما يحمل اسم الخليفة المأمون ، وقد عثر على واحد منها من ضرب دار الفسطاط فى عام ١٩٩ هـ / ١٨٤ م . مما يدل على أن الدنانير لم تكن تحمل اسم الولاة أو عمال الخراج فقط فى العصر العباسى وإنما كانت تحمل اسم الخلفاء العباسيين على أحد وجهى العملة المضروبة بمصر وغيرها من الأمصار الإسلامية .

وفى عهد الطولونيين انعكس الرواج الاقتصادى الذى أصابته مصر على عملتها القوية آنذاك ، فقد سك أحمد بن طولون دينارا ذهبيا خاصا به ، ومستقلا عن الدينار العباسى فى سنة ٢٦٦ هـ ، وعرف بالدينار الأحمدي .

وقد اختلف المؤرخون فى سر اهتمام ابن طولون من أجل تنقية الذهب ليرفع عيار ديناره الأحمدي (١٩) ، كما اختلف الأمر بالنسبة للدار التى ضرب هذا الدينار الجديد بها ، ولا شك أنه بعد نجاحه فى

(١٨) قدم الخليفة المأمون الى مصر فى سنة ٢١٧ هـ حينما نار الناس أو أقباط مصر على واليهم عيسى بن منصور الرافعى ، وكان قد بلغ خراج مصر فى أيام المأمون أربعة آلاف ألف ومائى ألف وسبعة وخمسين دينار .
المخطوط ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

(١٩) ينقل الفيلسوفى عن ابن الطوير أن سبب خلوص الذهب بالدينار المصرية ما حكى أن أحمد بن طولون كان يسير يوما بجهة عين شمس ، إذ ساخت قدم فرسه فى أرض صلبة فأمر بحفر ذلك المكان ، وعثر على لوح لطيف على صدر أحد الموتى مع بعض النواويس المملوءة بسمائك الذهب ، فأحضر ابن طولون أحد الرهبان من الصعيد لقراءة اللوح فلما وقف على ما فى اللوح قال : « ان هذا اللوح يقول : أنا اكبر الملوك وذهبي أخلص الذهب ، فلما بلغ ذلك ابن طولون شدد فى العيار على دار الضرب ، وكان يحضر ما يعلق من الذهب ويختم بنفسه فبقى الأمر على ما قرره فى ذلك من التشديد فى العيار . أصبح الأعمى ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ . وروى المقرئى أن أحمد بن طولون ركب يوما فى سسنت الأهرام والشمال يحفرون فكشفوا عن حوض مملوء بالدنانير وعليه غطاء مكتوب عليه بما يشسبه ما رواه ابن الطوير فقد جاء على لسان الملك والذى ميز الذهب من غشه ودنسه بمن أراد أن يعلم فضل ملكى على ملكه ، فلينظر الى فضل عيار دينارى على عيار دينار .
المخطوط ، ج ١ ، ص ٧٥ - ٧٦ .

توحيد مصر والشام ، فإنه أقدم على ضرب الدنانير التي تحمل اسمه ، وهو مستعد لخوض غمار الحرب في سبيل اقرار هذا الحق لنفسه ، ومن المعروف أن سك العملة كانت إحدى مظاهر الاستقلال ، وشارات الملك في العالم الاسلامي في ذلك الوقت .

وهكذا كانت الدوافع الحقيقية وراء ضرب الدنانير الاحمدية ذات العيار الجيد ، والتي أقبل المصريون على التعامل بها بدلا من الدنانير العباسية ، حيث حظيت من التقدير لنقاوتها ، كما اتجه الصاغة بوجه خاص الى اقتنائها على اعتبار أنها أفضل ذهب يستخدم في صناعة التذهيب .

أما بالنسبة لانشاء دار ضرب جديدة على يد أحمد بن طولون لضرب هذه الدنانير التي عرفت بالاحمدية ، فربما كان الأمر يقضى بتأسيسها أو قيامها في العاصمة الجديدة القطائع ليتسنى تحرير العيار الجيد على ما ارتآه ابن طولون (٢٠) ، وأما دار الفسطاط فقد أوقف العمل بها على ضرب الدراهم أو العملات النحاسية التي كانت أيسر حالا في سبكها وضربها ، كما كانت عليه الحال في بداية عملها في العصر الاموي على نحو ما أشرنا من قبل (٢١) .

وتنحصر الدنانير الاحمدية فيما بين ٢٦٦ هـ ، ٢٧٠ هـ على التوالي ، وهي دنانير تشير الى دور سك مختلفة بعضها ضرب في مصر (٢٢) ، والآخر ضرب ارافقة ودمشق ، ومن تلك الدنانير التي ذكرها Lane-poole ما ضرب في مصر عام ٢٦٨ هـ / ٨٨١ م .

هذا ولم يقتصر الأمر على سك النقود من الدنانير في عصر الطولونيين والاشيدين ، بل استمرت دور الضرب في اصدار السكة من الدراهم ، وكان يقترب وزنها من الوزن الشرعي للدرهم الاسلامي (٢٣) . كما اهتم

(٢٠) يذكر البلوي أن الأمر الطولوني حصص لكل صنف من جميع الصناعات وأورد له سوقا حسنا عامرا ، ولكنه لم يذكر صراحة أنه تم تأسيس دار لضرب جديدة بالقطائع .
سيرة أحمد بن طولون ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢١) زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ، ج ١ ، ص ١١٧ .

(٢٢) استطاع عبد الرحمن فهمي أن يجرى الكشف عن تقدير عيار السكة الطولونية في حدود بعض القطع التي يملكها متحف الفن الاسلامي وقدرها نحو عشرين قطعة من الدنانير الاحمدية وقد ثبت لديه أن جميعها من عيار $\frac{23}{4}$ قيراط من ٢٤ قيراط ، أو ٩٧٩٢ بحساب العيار الألفي ، وهو أعلى عيار وصلت اليه السكة الاسلامية على أي حال ، ولعل ذلك ما دفع للقرى الى الاشارة الى تفوق العيار الاحمدى الذي لم يكن يصاب بأجود منه . المخطوط ، ج ١ ، ص ٧٦ ، فجر السكة العربية ، ص ١٣٤ .

(٢٣) تراوح وزن الدراهم الطولونية بين ٢٤٥ ، ٣ جرام بينما كان وزن الدرهم الشرعي يقدر بنحو ٢٩٧ جرام .

ابن طولون بضرب الفلوس ، فبينما ضربت الدنانير الاحمدية ابتداء من سنة ٢٦٦ هـ ، نرى الفلوس الطولونية تظهر منذ بداية حكم الطولونيين .

كما يبدو الجديد في سك النقود أنه لم يقتصر على تحرير العيار الجيد بالنسبة للدنانير التي ذاعت شهرتها (٢٤) ، وانما كان في طريقة الصب التي اتبعها السباكون في دور الضرب في عهد الطولونيين والاختشيديين بالاضافة الى طريقة الطرق ، فبعد أن كان ينقى الذهب والفضة بالسبك عدة مرات ، كانت تصب منه قطع ذات وزن معين ، كما كانت تقطع منها قطع وتطرق لتأخذ شكلا دائريا ، ثم تطبع القطع المستديرة بحديدة منقوشة كان يطلق عليها السكة . وكان يعتبر ضرب النقود خارج الدور المخصصة لذلك جريمة يعاقب عليها .

كما يظهر أنه كان يتم وزن النقود المضروبة عند استلامها من دور الضرب ، وكذلك عند التعامل بها كما يتضح لنا من أوراق البردى العربية (٢٥) .

ومن أسماء الضرابين التي حفظتها لنا شواهد القبور من عهد الطولونيين اسم « عمر بن محمد الضراب » حيث ترجع وفاته الى سنة ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م .

كما آمدنا ابن سعيد باسم متولى دار الضرب في عهد الاختشيديين ، فهو ينقل لنا عن ابن زولاق رواية أشار فيها الى جشع الاختشيد وجبه للمال (٢٦) ، وذكر أنه حينما قدم صدقة بن الحسن المشرف على دار الضرب ومعه دنانير وسبيكة ، أحضر معه السباكين ليقوموا عيار الدنانير ، وقد جاء صدقه ومعه خمسون دينارا لتسبك بحضرته فقال له الاختشيد : « كم

(٢٤) ومن الأسرة الطولونية التي ضربت الدنانير باسمها الأمير هارون بن خمارويه ، فقد تم ضرب دنانير حملت اسمه بالفسطاط وذلك عام ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م . الكندى : الولاة والقضاء ، ص ٢٤٢ .

Lane-poole : A History of Egypt, p. 76, Fig. 16.

(٢٥) جاء في خطاب خاص بدفع مال يرجع تاريخه الى القرن الثالث الهجرى من طراز الاشمونين ما يحمل هذا المعنى فقد جاء فيه « صار الى على يد صبح خمسة دنانير ينقصوا ثلثين دينار غير ثلث قيراط » . جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٥ ، ص ١٠٠ .

(٢٦) قيل ان ما خلفه الاختشيد بعد وفاته صبح مطاير ، في كل مطمورة منها نحو مليون دينار ، كما خلف من الجواهر ما قيمته ألف دينار . والمطمورة هي الحفيرة في الأرض. تحبا فيها الأشياء أو الوعاء التي تخزن فيها النقود .

المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٦ .

معك ، فقال : « خمسون دينارا » فقال : « هاتها وأخرج منها عشرة
دينانير ، فقال : « اسبكوا » فسبكت . واعتدل العيار ، فقال : « يكون
العيار على هذا » ورد العيار الى على بن اسحق وسلم اليه السكك وانصرف .
وهكذا أخذ منها الاخشيد أربعين دينارا وسبكت فقط الدينانير العشرة
الباقية ، وانصرف المشرف على دار الضرب بعد ذلك بعد أن اضطر الى
تعويض أصحاب الدينانير التي حصل عليها الاخشيد .

ومهما يكن من أمر حب المال وجشع الاخشيد ، فقد اهتم بأمر دار
الضرب فكان يشرف عليها بنفسه أحيانا ، وعننى بالنظام فيها ، وقد حسن
حال مصر على يديه ، وأمر بضرب الدينار الاخشيدى على عيار كامل وصلحت
النقود فى عهده بعد فسادها .

وكان متولى دار الضرب له الاشراف المباشر على العمال والصناع بها ،
ولم يكن هناك ثمة تعارض مع أشراف القاضى عليها من الوجة الادارية بل
كثيرا ما كان القاضى يكتفى باختيار من يريده من نواب الحكم لمباشرة أعمال
دار الضرب . وكما يذكر الكندى فان الحسين بن زرعة الدمشقى قد تولى
قضاء مصر فى شوال سنة ٣٢٤ هـ والنظر فى المواريث والأحباس ودار
الضرب .

ويظهر أن اسناد الاشراف الرسمى على دار السك أو الضرب الى
القاضى انما كان هدف الحكام والولاء منه هو ضمان شرعية الدينانير
والدراهم التي تصدر عن الدار بأسمائهم سواء من حيث جواز العيار أو
الوزن ، خاصة وأن القاضى كان يجتهد فى خلاص الذهب وتحرير عياره .

ومن أسماء العاملين بدار الضرب فى عهد الاخشيديين كما يذكر
ابن سعيد كان يحيى بن رجاء المعدل ، لعله كان يشغل وظيفة المقدم الموكل
اليه أمر حفظ العيار للذهب والفضة فى سك العملات الصادرة عنها .

ولسنا ندرى من أمر أنواع الدينانير التي أطلق عليها المعسولة أو
المشرقية ، والتي ورد ذكرها فى أوراق البردى وترجع الى القرن الرابع
الهجرى ، ومن المرجح أنها لم تضرب بدار الضرب بالقسطنطينية ، بل حملها
التجار من خارج مصر نتيجة لمعاملاتهم التجارية .

ومن الملاحظ أنه لم تضرب الدينانير باسم مؤسس الدولة الاخشيدية
وإنما باسم الخليفة العباسى ، أما نقش اسمه على الدينانير بمفرده ، فقد
حدث ذلك فى سنة ٣٢٩ هـ ، حينما فكر الاخشيد فى الاستقلال التام عن

الخلافة العباسية ، واتخاذ نقش السكة كاحدى شارات الملك (٢٧) .

كان الغلاء الشديد الذى وقع فى مصر سنة ٣٤٢ هـ واستمر نحو تسع سنين متتابة من الأسباب التى أضعفت الدولة الاخشيدية وعجلت بسقوطها ، كما يبدو أنه كان من أسباب تعطيل دار الضرب بالقسطنطين نتيجة لتلك الظروف السيئة ، خاصة بعد موت كافور واضطراب الأحوال وكثرة الفتن ، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل وية بدينار .

ويؤكد المقرئى على أن دار الضرب بمصر قد تعطلت فى تلك الفترة ، كما يتضح لنا من قوله صراحة : « وأمر جوهر بفتح دار الضرب ، وضرب السكة الحمراء (٢٨) وعليها دعاء الامام معد بتوحيد الاله الصمد فى سطر وفى السطر الآخر المعز لدين الله أمير المؤمنين » .

كما يفيد النص فى أن القائد جوهر قام بضرب الدينار المعزى منه فتحه للبلاد فى سنة ٣٥٨ هـ (٢٩) . ولا شك أن منع جوهر من التعامل بالدينار الأبيض (٣٠) وكان بعشرة دراهم (٣١) ، وكذلك الدينار المنقوش

(٢٧) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٢٩ ، سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٢٠٤ ، أما أن كافور الاخشيدى لم ينقش اسمه على السكة ، فيبدو أن ذلك كان وفقا على نقش الدنانير والدراهم ، فهناك قصة من الفايص المضروبة باسم الاستاذ كافور وقد صنعت من خامه مصبوبة فى العلب مباشرة ، وتلك القطعة من بين مجموعة المسكوكات التى يضمها متحف الفن الاسلامى بالقاهرة . سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٢٠٤ ، عبد الرحمن فهمى : فجر السكة العربية ، ص ٢٣٤ .

(٢٨) ولعله يعنى بالسكة الحمراء الدينار الأحمر أى المصنوع من الذهب الجيد الميار الذى كان يمتاز به العصر الفاطمى . الكرمل : النقود العربية ، ص ٥٩ .

(٢٩) وجاء فى السطر الآخر على وجه الدينار الذى أمر بضربه جوهر « بسم الله ضربه هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة » . المقرئى : اتعاظ المنفا ، ج ١ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٣٠) ورد ذكر الدراهم البيض أنها كانت من ضرب الحجاج بن يوسف فى العراق ، كما ينضح مما أورده المقرئى أن هذا الدينار كان قليل القيمة جدا ، فلهذا كان يشتمل على كمية كبيرة من الفضة مما اتضعت به قيمته ، ومما جعل الناس يسمونه بالأبيض . نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٧٢ ، حاشية تحقيق جمال الدين الشيبان .

(٣١) كان الدينار فى القرن الرابع الهجرى يساوى نحو الأربعة عشر درهما ، والدرهم ستة دوانق ، والدانق اثنى عشر قيراطا . آدم متر : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .

باسم الخليفة العباسي الراضي (٣٢) قد أدى منذ بداية حكم الفاطميين للبلاد الى نشاط دار الضرب المصرية وحاجتها الى سك المزيد من الدنانير والدراهم بما يتفق وسياسة الفاطميين الجديدة .

كما شجع على ذلك ما حمله المعز لدين الله من السبائك الذهبية في هيئة أحجار الطواحين المستديرة ، وذلك حين قدومه الى القاهرة عام ٣٦٢ هـ . وقد قدرت هذه السبائك الذهبية بنحو ثلاثة وعشرين مليون دينار ، أعاد المعز ضربها من جديد في دار الضرب المصرية بالقسطة .

ويذكر المقدسي أن النقود كانت زمن دخول الفاطميين هي المثقال والدرهم والدينار الراضي ، وقد غير الفاطمي (يعنى الخليفة المعز لدين الله) تلك النقود ، وأبطل القطع والمثاقيل والمكايل . كما جاء في عقد الصلح بين جوهر المصريين في الاسكندرية في الثامن من شعبان سنة ٣٥٨ هـ أن وافق الطرفان على تغيير النقود وتجويدها ، ومنع الغش بها وصرفها الى العيار الذي عليه النقود والتي ضربها الفاطميون في عاصمتهم المنصورية بشمال افريقيا (٣٣) .

وهكذا نشطت حركة سك الدنانير والعملات الأخرى ، بعد أن حملت السياسة الفاطمية الناس على التعامل بالدنانير الفاطمية ، والعمل على الاكثار من ضربها حتى تغمر الأسواق . كما عمل الفاطميون على ضرب عملات جديدة من الذهب هي ربع الدينار أو الربع ، وأصدروا منها الكميات الضخمة ، ينقل القلقشندي عن ابن الطوير أن الخليفة الفاطمي كان يعطى في نهاية العام الهجري أمرا بسك كميات من النقود بمناسبة السنة الجديدة تسمى « الفرء » وهي مجموعة من الدنانير ومن الرباعيات والدراهم المستديرة .

وكان يحمل منها الى الوزير ثلثمائة وستون دينارا وثلثمائة وستون

(٣٢) نسبة الى الخليفة العباسي الراضي ، وقد أصدر الخليفة المعز تعاليمه الى عمال الخراج ألا يتسلموا الخراج الا بالدنانير المعزية ، وامتنع كل من يعقوب بن كلس وعسلوج بن احسن أن يأخذا في الخراج الا دينارا معزيا وهكذا اتضع الدينار الراضي وانحط ونقص من صرفه أكثر من ربع الدينار ، وقد كان الناس قبل مجيء الفاطميين يكثررون من التعامل به . المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ٢٠٤ ، المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٧٢ ، ١٩٩ ، النقود الاسلامية ، ص ١٤ .

(٣٣) المنصورة نسبة الى الخليفة المنصور بن القائم بن عبد الله المهدي ، وقد ولد بالمهدي في سنة ٣٠٣ هـ وبويع له في شوال سنة ٣٣٤ هـ . المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ١٣٣ .

رباعيا وثلاثمائة وستون قيراطا كذلك وإلى أرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام من عشرة دنانير وعشر رباعيات وعشرة قراريض إلى دينار ، وكان هؤلاء من رجال الحاشية والبلاط الفاطمي يقبلونها على سبيل التبرك من الخليفة .

وقد جرت العادة أيضا أنه كانت توزع في عيد الفطر بعض المسكوكات الذهبية والفضية التي كانت تضرب خصيصا بهذه المناسبة ، كما كانت دار الضرب تقوم بضرب نوع من المسكوكات التذكارية صغيرة الحجم خفيفة الوزن أطلق عليها اسم خرايب ، لتوزع على أفراد الشعب في بعض المواسم والأعياد ، كما هو الحال في خميس العهد ، يذكر المقرئ أن كان يطلق عليه العامة من الشعب « خميس العدى » وكان يحتفل به قبل عيد الفصح بثلاثة أيام ، وكان يتم ضرب ما قيمته خمسمائة دينار ذهبيا عشرة آلاف خروبة يتم توزيعها على جميع أرباب الرسوم الفاطمية (٣٤) .

وفي عهد الخليفة الحاكم بأمر الله تم ضرب دراهم جديدة من الفضة تم تحديد قيمتها بالنسبة للدينار ، وكان الهدف منها تيسير التعامل في السلع القليلة الثمن ، ولعل الحاكم كان يسعى إلى الإصلاح بعد أن نزعَت الأسعار واضطربت أمور الناس (٣٥) ، فقد ذكر المقرئ أنه في سنة ٣٩٧ هـ تزايد أمر الدراهم القطع فبيعت أربعة وثلاثون درهما بدينار ، ولم تر الحكومة مناصا من التدخل لحماية نقدها ورجمة بالناس ، فرفعت الدراهم ، وأنزلت عشرين صندوقا من بيت المال فيها دراهم جدد ، ففرقت في الصيارف وقرى سجل بمنع المعاملة بالدراهم الأولى ، وترك من في يده منها شيء ثلاثة أيام يورد جميع ما تحصل منها إلى دار الضرب . وهكذا تحولت مصر بشكل واضح إلى نظام المعدنيين bimetallic system ، وقررت الحكومة الفاطمية أن يكون كل ثمانية عشر درهما بدينار .

كانت دار الضرب يتولاها في العصر الفاطمي قاضي القضاة تعظيما لشأنها ، ويقوم لمباشرة ذلك من يختاره من نواب الحكم ، وبقي الأمر حتى

(٣٤) جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١٦٦ .

(٣٥) ولعل الحاكم توقع قلة الانتاج من الذهب إزاء الزيادة في استخدامه والاقبال الهائل على اختزانه ، فهداه التفكير إلى اتخاذ هذه الخطوة حتى لا تقابا البلاد بأزمة في النقد قد يتعسر مواجهتها في المستقبل . وما يعزز ذلك ما أشار إليه حسين مؤنس من فضوب المناجم المعروفة ، وإخفاء الناس ما لديهم من الذهب والفضة حيث بلغت أزمة الذهب والفضة ذروتها في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، ص ٣٠٥ ، عالم الإسلام ، ص ٣٢٨ .

بعد زوال الدولة الفاطمية . وقد أمدها ابن ممتى بعيار الدراهم التي كانت تضرب بها ، حيث كان يتم سبك ٣٠٠ درهم من الفضة مع ٧٠٠ درهم من النحاس الأحمر ويسبك ذلك حتى يصير ماء واحدا ، ثم يصب قضباناً ويقطع من أطرافها خمسة عشر درهماً ثم تسبك ، فإن خلص منها أربعة دراهم ونصف درهم من كل عشرة دراهم ، والا أعيدت الى أن يصح العيار ثم تختتم .

كما أوضح لنا قيمة أجرة الضرابين وغيرهم من الصناع في دار الضرب ، وقد بلغت نحو أربعة وثلاثين ديناراً وربع وذلك حتى عام ٥٨٦ هـ أي الى ما بعد زوال الدولة الفاطمية . ويبدو أن أبا جعفر الوزير أبي الفضل ابن الفرات ظل يعمل بدار الضرب ويسبك الدنانير والدراهم حتى وفاته عام ٤١٤ هـ (٣٦) .

وقد تميزت العملات الصادرة من دار الضرب في العصر الفاطمي بزيادة النقوش والزخارف ، إذ عمل الصناع على نقش كل وجه من وجهيها بثلاثة دوائر داخل بعضها ، وكانت الكتابة على النقود بالخط الكوفي البارز ، كما يتضح ذلك من الدنانير الفاطمية التي تم سكها في دار الضرب بالاسكندرية . وقد حافظ الأيوبيون على طراز الكتابة الكوفية الفاطمية فوق سكتهم التي ضربت بالاسكندرية حتى عهد السلطان الكامل حين بدأت تشيع الكتابات النسخية في دنانير الأيوبيين .

كما يعلل لوبون مسألة عدم تحريم التصوير لدى الخلفاء بما ظهر من صور لهم على النقود التي تم سكها في دار الضرب في ذلك العصر ، فهو يقول : « فانهم لم يترددوا في رسم صورهم على نقودهم » . وهكذا كان الضرابون من أمهر الرسامين والصناع في دار الضرب المصرية وغيرها في العالم الاسلامي .

ولا شك أن نشاط حركة سك النقود ظل مقرونا بسياسة الخلفاء الفاطميين ونقش أسمائهم وصورهم على الدنانير والنقود الأخرى طوال عهدهم . ففي سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٣ م ضرب الخليفة الأمر بمصر نوعاً من المسكوكات الفضية المشهورة بالأمرية ، يتحدث عنها المقرئ فيقول : « ثم اشتهر في كتب الأخبار أن الفضة صارت تضرب نقوداً بمصر وأنها

(٣٦) لم يوضح لنا المسبحي عما إذا كان يضرب الدنانير والدراهم التي اشتهر بها وكان حاذقاً لصنعتة بها في أي دار للضرب ، حيث كانت أعمال سك النقود خارجها يتم جريته يعاقب عليها . أخبار مصر ، ص ٣٦ ، ٢١١ ، حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناعات ، ص ٥٤٤ .

سميت بين الدواهم باسم المسودة ، وبها كانت معاملة أهل مصر والقاهرة
والاسكندرية وتعرف بنقد مصر .

والواقع أننا نشهد نشاطا ملحوظا في عهد الخليفة الأمر منذ توليه
الخلافة ، فلم يقتصر اهتمامه على سك النقود التي حملت اسمه ، بل تم
تأسيس دارين للضرب في عهده ، وأظهر مدى حرصه على عيار الذهب
بهما وبدور الضرب الأخرى ، يشير ابن بكرة الى ذلك قائلا : « وأمن
الكشف في أسرار عمل الذهب بدار الضرب سنة ٥١٤ هـ ووقف على أصل
لا يجوز لغيره أن يتعداه وبالحق في الاستقصاء عنه الى حد لم يصل اليه
سواه ، وصار قدوة يقتدى به من بعده » .

أما عن دار الضرب الجديدة التي أمر ببنائها بالقاهرة على القرب من
الجامع الأزهر ، فقد ذكر ابن ميسر أنه في شوال سنة ٨٨٦ هـ أمر الوزير
المأمون بعمل دار ضرب بالقاهرة ، وأن يكون دينارها أعلى عيارا من جميع
ما يضرب في سائر الأمصار ، وقد أطلق عليها الدار الآمرية ، واستخدم
لها العدول (٣٧) . وقد بقيت الدار القديمة بالفسطاط لصنع بعض
المسكوكات الخاصة حيث كانت تضرب بها العملات التذكارية ومنها
مسكوكات خميس العدس .

كما جاء في كتاب وصف مصر بأنه تم بناء دار للضرب في مدينة
المنصورة بالقرب من النيل على فرع دمياط ، ولا شك ان في ذلك مجافاة
للحقيقة ذلك أن هذه المدينة لم تكن قائمة أصلا زمن الفاطميين ، وقد تولى
بناءها السلطان الملك الكامل الأيوبي في سنة ٦١٦ هـ حين استولى الفرنج
على مدينة دمياط ، وبدأ في تجهيز العدد والقوات لملاقاتهم (٣٨) .

وتشير المصادر الى أن الخليفة الأمر أمر ببناء دار لسك النقود الذهبية

(٣٧) ذكر المقرئى أنها كانت بحي القشاشين بالمكان الذى يشعل اليوم مجموعة
المباني التي يحدها من الشمال شارع الصنادقية ، ومن الغرب شارع الغورية ومن الجنوب
شارع الأزهر ، وكانت هذه أول دار للضرب بالقاهرة المعزية . الخطط ، ج ٢ ،
ص ١٩٤ - ١٩٥ ، ابن بكرة : كشف الأسرار العلمية ، تقديم عبد الرحمن نهدي ،
ص ٣١ .

(٣٨) يشير الباحث الى أن دار الضرب تم انشاؤها في مدينة المنصورة على يد الخليفة
المنصور بالله والد المعز لدين الله عام ٣٨٨ هـ ، ولا ريب أن الخليفة المنصور المولود بمدينة
المهدية بالمغرب ، قد تولى الحكم سنة ٣٣٤ هـ وبنى مدينة المنصورة بالقرب من القيروان في
المغرب وتوفي بها سنة ٣٤١ هـ قبل مجيء الفاطميين بعشرات السنين . المقرئى : الخطط ،
ج ١ ، ص ٤٣٢ ، اتعاط الحنفا ، ج ١ ، ص ١٢٩ - ١٣٣ . تحقيق الشيبان . صمويل
برنارد : وصف مصر ، ج ٦ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ . ترجمة زهير الشايب .

بمدينة قوص وذلك فى سنة ٥٢٤ هـ ، ويبدو أنه تم ذلك حين استجاب بنو الكنز لطلب الخليفة من أجل العمل على استخراج كميات كبيرة من الذهب تكفى لحاجة دور الضرب المتزايدة ، ولكى تكون الدار الجديدة بقوص بالقرب من موطن استخراج الذهب من جهة أخرى .

وهكذا تعددت دور الضرب فى أواخر أيام الفاطميين ، فأصبحت فى كل من الاسكندرية والفسطاط والقاهرة وتونس وقوص من المدن المصرية ، كما كانت فى كل من صور وعسقلان وطبرية ودمشق من بلاد الشام .

ومن الجدير بالذكر أن دور الضرب فى العصر الفاطمى لم يقتصر دورها على سك النقود للدولة وحدها (٣٩) ، بل كان مصرحاً لسائر الأفراد بالالتجاء الى هذه الدور لضرب ما معهم من سبائك ذهبية حيث تسك لهم نقوداً وذلك فى مقابل رسوم مقررة . وقد أمدنا ابن مماتي بما يؤيد هذا الرأى بالنسبة لما كان يتم ضربه من دنائير بدار الضرب بالقاهرة حيث قال : « وأجرة كل ألف دينار تضرب بالقاهرة ثلاثون دينار يخرج من ذلك أجرة الضرايين ثلاثة دنائير ، ورسم المشاركة ربع ومسدس وثمان وحبشة وثلاثي دينار » . والفضة يؤخذ فيها ثلاثمائة درهم تضاف الى سبعمائة من النحاس ، وأجرة ضرب كل ألف درهم كان أربعة عشر درهما ونصف ، يخرج من ذلك المشاركة درهماً وربع .

كما أمدنا لينبول بأسماء الخلفاء الفاطميين التى نقشت أسماؤهم على الدنائير والمسكوكات حتى الخليفة العاضد الفاطمى .

وتشير المصادر التاريخية الى نضوب موارد الذهب فى منطقة العلاقى فى أيام الخليفة العاضد ، والى زهد بنى الكنز فى الإقامة بهذه المنطقة من الصحراء ورحيلهم عنها الى بلاد النوبة والسودان فى بداية عهد الأيوبيين . كما حرمت خزائن الدولة من حوالى عشرين ألف دينار كانت تحصل من مدينة تنيس سنوياً لما كانت تصدره من الثياب والأقمشة ، وذلك نتيجة لنهب الصليبيين لهذه المدينة فى أواخر أيام الفاطميين (٤١) .

(٣٩) ويظهر مدى حرص الوزراء وشغفهم بحوزة الأموال وما كانوا يدخرونه منها ، فمما قيل أن الوزير الأفضل خلف عند مقتله فى رمضان سنة ١٥٠٥ هـ مائة ألف ألف دينار ومن الدراهم مائة وخمسين اردباً . وربما كانت الأرقام تحمل معنى المبالغة اذ ليس من المعقول أو المناسب أن يكون الأمر كذلك . زكى محمد حسن : الكنوز الفاطمية ، ص ١٥٨ .

(٤٠) كان لتنيس فى العصور الوسطى شأن خطير من الناحيتين الحربية والصناعية ، فقد كان الروم يغيرون عليها بأساطيلهم كلما فكروا فى غزو مصر ، ولهذا كانت بها دار صناعة وأسطول مقيم ، وكانت بها حصون وقلاع قوية ، المقريزى : اتعاظ الخنفا ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، حاشية تحقيق جمال الدين الشيبان .

وهكذا يصف المقرئى اختفاء النقد الذهبى فى نهاية العصر الفاطمى
فيقول : « وامت بلوى المصارف بأهل مصر ، لأن الذهب والفضة خرجا
منها وما رجعا وعندما فلم يوجد ، ولهج الناس بما عمهم من ذلك ، وصاروا
إذا قيل دينار أحمر فكأنما جاءت بشارة الجنة له ، ولا شك أن انعدام
الذهب والفضة ، كان السبب الرئيسى فى تعطل دور الضرب المصرية ،
ولم تجد من المعادن النفيسة أو من المقادير ما يسمح لها باستمرار نشاطها
وضربها للدنانير الذهبية والدراهم الفضية . ولم تجد تلك الدور من مناص
فى ضرب تلك الدراهم السود وهى تختلف عن الدراهم الفضية النقرة التى
ضربت فى عهد الحاكم بأمر الله ، حيث كان الصناع يسبكونها من النحاس
مع اليسير من الفضة . ولم تزل دور الضرب تصدرها حتى استولى
الأيوبيون على البلاد ، وتقدم السلطان محمد الكامل فى ذى القعدة من سنة
٦٢٢ هـ ، وأمر بضرب دراهم مستديرة غير الدراهم المصرية التى كان
يطلق عليها المصريون « الورق » .

٥ - صناعة الأسلحة ومعدات السفن العربية في مصر الإسلامية في عصر الولاة

تعد صناعة السيوف والدروع والخوذ وغيرها من السهام والرماح من أنواع الأسلحة الخفيفة من أهم الصناعات المعدنية في مصر في عصر الولاة .

وكما عرف المصريون صهر المعادن وأحالتها إلى صفائح رقيقة من الحديد والنحاس واستخدامها في صناعة الأسلاك والسلاسل منذ العصور المبكرة (١) ، فإنهم تمكنوا من صنع الرماح والسهام المعدنية وغيرها من أدوات القتال والحرب ، وقد ذكر ابن زولاق أن المصريين كانت لهم شهرتهم في عمل المجانيق ورمي الحصون بها قبل الفتح العربي .

ولا شك أن العرب الفاتحين حينما استولوا على البلاد عام ٢١ هـ / ٦٤١ م ، قد غنموا بعض المعدات والآلات الحربية في حصارهم لبعض الحصون والمدن المصرية مثل أنواع المناجيق والذبابات ونحوها من الأسلحة الثقيلة التي سرعان ما تعلموا طرق إصلاحها وإدخال التحسينات في صناعتها (٢) .

وتشير المصادر إلى أن حركة صناعة الأسلحة بالإسكندرية وتجارتها

(١) تمكن المصريون منذ العصور القديمة من صناعة رقائق النحاس التي تستخدم في كساء التماثيل المصنوعة من الخشب أو صناعة الأسلاك والسلاسل النحاسية .
بتري : الحياة الاجتماعية في مصر القديمة ، ص ٢٦٧ .

(٢) ذكر بتلر أن العرب غنموا بعض آلات الحرب في غزوهم الفيوم وعند حصارهم لحصن تراجان في منوف وأشار إلى أنهم كانوا لا خبرة لهم بأمرها ، ولا علم عندهم بطرق إصلاحها

كانت رائجة عند دخول العرب الى البلاد ، وقد اشتملت قوانين جستنيان الصادرة في سنة ٥٣٩هـ بعض الفقرات التي تقضى بوجوب حرص حكام الأقاليم واهتمامهم بصناعة الأسلحة في مصانع الحكومة ، ولا يجرى بيعها الى الأفراد ، وألا تستخدم في الفتن والاضطرابات الداخلية ، وعلى من يخالف ذلك دفع غرامة قدرها عشر صولداً من حكام الأقاليم (٣) . كما ورد أن لامبراطور البيزنطى أبلغ حاكم الاسكندرية وهدده بدفع غرامة قدرها عشرون صولداً اذا لم يمعن في مراقبة تجارة الأسلحة .

وكما ورث العرب الفاتحون النظم البيزنطية وعملوا على الاستفادة منها . فان حاجة الجيش الفاتح من السيوف والدروع والسهام والرمح وغيرها من أنواع السلاح المصنوعة من الحديد والمعادن المختلفة ، قد ازدادت بزيادة أعداد هذا الجيش ورجال الأسطول المصرى بعد ذلك (٤) .

ولا شك أن مصانع الأسلحة التي كانت تملكها الدولة في الاسكندرية والفرما والقيسوم وغيرها من عواصم الأقاليم المصرية قد زادت من حجم انتاجها ، خاصة وأن مصر ظلت قاعدة للفتوحات والتوسع ، تخرج منها الحملات العسكرية متجهة نحو الجنوب ونحو الغرب ، اما لتأمين حدودها مثل تلك الحملات التي سارت لفتح النوبة أو لفتح برقة أو من أجل المشاركة في جيوش الخلافة ، عندما ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح في خلافة عثمان بن عفان ، وخرج منها لغزو افريقيا .

وكما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى (٥) : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسوله بالغيب ان الله قوى عزيز » ، فقد كان اهتمام العرب بأنواع الأسلحة التي يحاربون

(٣) الصولدى أو السوليدس Solidus هو الدينار البيزنطى أو النوزما كما تعرف عليه في مصر وقدره أربعة وعشرين قيراطاً . عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص ١٩ .

(٤) ولا شك ان الفاتحين العرب قد استفادوا من خبرة المصريين ومهارتهم في عمل المناجيق ورمى الحصون والحيل على الجيوش براً وبحراً في أعقاب الفتح وفى تأمين البلاد المفتوحة . ابن زولاق : فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، ورقة ٩ مخطوط .

(٥) سورة الحديد ، الآية ٢٥ .

بها ، وصار ذكر أنواع السيوف والرماح والتروس والدروع تجرى على لسانهم في مجالسهم (٦) .

وجاء في وصف الجيش في العصر العباسي ، أنه لم يكن يختلف على مدى قرن كامل من تأليفه في عدته وعتاده وتدريبه عن الجيش البيزنطي ، فاستعمل نفس الأسلحة وهي القوس والسهم والرمح والقلاع والسيوف والبلطة . أما ملابس الجند فجمعت بين حسن المخبر والمظهر ، فكانت هناك البيضة للرأس والدرع للجسم ، وذلك فضلا عن الأحزمة والمناطق .

وكما أشرنا من قبل ، فإن مصر كانت تحصل على حاجتها من الحديد والصلب والرصاص من نواحي الشام ومما يصل من بلاد الهند الى القلزم حيث كانت الهند مصدرا هاما لحاجيات أسواق المدن الإسلامية من الحديد والصلب ، وكان العصر الذهبي لصناعة الحديد ، كما اشتهرت به منذ القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد ، وظلت كذلك حتى نهاية العصر الفاطمي .

وكان من أهم السلع المجلوبة الى مصر الحديد والصلب اللذان كانا يستعملان في صناعة السيوف ، وقد أفاض كل من ابن سلام المتوفى في بغداد سنة ٢٢٤ هـ في وصف أنواع السيوف التي صنعت بعناية فائقة ودقة عظيمة ، والعالم والفيلسوف اسحق الكندي في رسالته الشهيرة ، وفيما يطرح على الحديد والسيوف فلا تتلم ولا تكل ، فقد أوضح فيها من أنواع الحديد والفولاذ وفي كيفية صناعة السيوف وطلاتها حتى لا تصدأ ، وأصناف الخناجر وطرق سقيها بالسموم (٧) ، وكان أقوى السيوف وأفضلها ما صنع من الفولاذ وكذلك أسنة الرماح .

(٦) سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن معدى كرب عن السلاح فقال ما تقول في الرمح قال أخوك وربما خاتك فانقص ، قال ما تقول في الترس قال هو المجن وعليه تدوير الدوائر قال : فما تقول في النبل ، قال : منايا تخطيء وتصيب ، قال : فما تقول في الدرع قال : مفشلة للراجل مشغلة للفارس وانها لحسن حصين ، قال فما تقول في السيف . قال : هنالك لا أم لك يا أمير المؤمنين فعلا بالدرة ، وروى ابن عبد الله أيضا أن يبعث الى عمر بن الخطاب بسيفه المعروف بالصمصامة فبعث به اليه . الغزولي : مطالع البدور ، ج ٢ ، ص ١٥٩ العقد الفريد ، ج ١ ، ص ١٧٩ .

(٧) ومن أسماء السيف ونعوته النصل والصارم وفرند السيف جوهرة ، وذبابة طرفه وعزارة حده ، كما كان يطلق على السيف المصنوع من الحديد سيف ليث وسيف صلب وهو المصنوع من الفولاذ ، والسيف العربي المصنوع وفق الطراز الفرنجي من الحديد وله حد من الصلب أطلق عليه « سيف مذكر » . رسالة الكندي ، ص ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، نشر مجلة المورد ، ابن منكلى : الأحكام المملوكية والضوابط النموسية ، نشر مجلة المورد ، بغداد ، الثعالبي : فقه اللغة ، ص ٣٨٨ ، ماير : الملابس المملوكية ، ص ٧٨ ، ترجمة صلاح الشيتي .

ولا شك أن السيوفيين بالعاصمة القسطنطينية كانوا يحصلون على حاجتهم في صناعة السيوف من مسابك الفولاذ التي كانت بها ، كما كانوا يصنعون مقابض السيوف - كما يذكر الاصطخري - من جلد التمساح الذي لا يعمل السلاح فيه .

وفي مناطق البجة الواقعة بين قوص وعيذاب في الصحراء الشرقية والتي أطلق عليها المقریزی أرض المعادن ، كانت تصنع الحراب السباعية إبان الفتح العربي وكان مقدار طول الحربة ثلاثة أذرع والعود أربعة وبذلك سميت سباعية ، وعرضها في عرض السيف . لا يخرجونها من أيديهم إلا في بعض الأوقات ، ويقول المقریزی : « وصناع هذه الحراب نساء في موضع لا يختلط بهن رجل إلا المشتري منهن » . وقد شجع أهل البجة ونساؤهم على هذه الصناعة بوجود الحديد والرصاص والجشت وكان معدن الجشت هذا تفضله العرب في تزيين آلات الحرب وجلائها .

وكما تشير المصادر إلى كثرة استخدام السيوف والحراب في الحملات العسكرية لردع أهل البجة خاصة وأن علاقاتهم كانت تتسم بالعداء والتمرد منذ الفتح العربي حتى عصر الخليفة المأمون ، وقد كان استخدام الدروع أمراً شائعاً بين الخيالة والرجالة من الجند المدرعين (٨) وكانت الدروع تصنع من صفائح الحديد المجمع مع بعضها بدقة ومتانة وتلبس فوق ثوب طويل ، وقد سبق ابن سلام كثير من أعلام اللغة ومؤرخي الإسلام في تصنيف الدروع ونعوتها ، مما يدل على كثرة استعمالها منذ العصر الإسلامي المبكر .

ويذكر الثعالبي من أنواع الدروع والبيض (٩) البدن واللامه والسابغة والقونس (١٠) والمغفر (١١) ، والقنبر وهي مسامير الدروع . وكان من أنواع الدروع من الفولاذ كالدروع السلوقية (١٢) ، ومنها ما يصنع من

(٨) من أقدم المعارك التي خاضها الجيش الإسلامي بقيادة عبد الله بن سعد كانت غزوة ذات الصواوي سنة ٣٤ هـ ، ويذكر ابن عبد الحكم أن القتال فيها كان بالسيوف وذلك بعد أن ربط الجند العرب المراكب بعضها ببعض ، وقد كان ذلك من أسباب انتصارهم النهائي في المعركة .

فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ . والمقریزی : الخطط ، ج ١ ، ص ٣١٨ .

(٩) البيضة هي الخوذة التي تصنع من الحديد والفولاذ ، الثعالبي : فقه اللغة ، ص ٣٣٩ .

(١٠) القونس : وهو أعلى الخوذة في مقدمة الرأس .

(١١) المغفر : وهو الزرد ينسج على قدر الرأس .

(١٢) نسبة إلى سلوكة قرية باليمن .

الكتان ويسمونه درع الكتان دلاص نسبة الى المدينة المصرية القديمة ،
وكانت من أعمال البهنسا في العصور الوسطى .

ومن أنواع الأسلحة الأخرى التي كانت تصنع من المعادن ، التروس
والقسي والرماح والسهام ، وكانت التروس تصنع من الفولاذ وهي تحمل
للوقاية من ضربات السيوف ونحوها (١٣) ، ومنها ما كان يصنع من جلود
الحيوان ، ولما كان السيف لا يفارق يمين المحارب ، كذلك الترس لا يفارق
يساره ، أو ظهره عند حمله .

وقد شاع استعماله منذ العصور القديمة ، فقد صنعه المصريون
القدماء ، وكذلك اليونانيون والرومان والفرس ، وكان الترس من أدوات
القتال الشائعة في الجيوش العربية ، ولا شك أن التراسين كانوا من
جملة صناعات السلاح في أسواق القسطنطينية والاسكندرية وغيرها من المدن
والثغور المصرية في عصر الولاة (١٤) .

وكما شاع صنع الدروع واستخدامها لدى الجند المدرعين كما ورد
في أوراق البردي (١٥) كذلك تفنن الجند المسلمون في الرمي بالقسي ،
حتى عملوا من الأقواس آلات مركبة . أما الرماح فكانت تصنع من الصلب
في مصر منذ العصر البيزنطي ، وكذلك من الخشب وبسن فولاذ . وقد
جرت العادة في المواكب الخاصة لدى الولاة والأمراء أن يزين الجند الخاص
بهذه الرماح (١٦) . ومن أنواع الرماح صنعت منها ما عرف بالأسمر
والعراصن والخمان والرائش والمنجل أي الواسع الجرح .

أما السهام فكان يصنع منها أنواع أيضا ، فالغالب في الاستعمال
لدى الرماة سهم الأهداف ، وهو سهم طويل له أربعة أذان ، ومنها المسير
الذي فيه خطوط ، واللجيف الذي سهمه عريض ، ويشتهر ابن منكلى

(١٣) من أسماء التروس الحوب والحجفة والدرفة والمجن لأنه يستجن به . ابن سلام .
كتاب السلاح ، ص ٢٤٠ .

(١٤) يقال في اللغة رجل تارس أي ذو ترس ، ورجل تراس أي صانع تروس .

(١٥) ورد في إحدى البرديات من جهة اهناس يرجع تاريخها الى سنة ٢٢٢ هـ إشارة
واضحة عن الحياطة والجند المدرعين . جروهمان : المحاضرة الثانية عن الأوراق العربية ،
ص ١٢ ، ترجمة توفيق اسكاروس .

(١٦) أشار الرسول (ص) الى فضل الرماح في حديثه الشريف : « ان الله جميل
رزقي تحت ظل رمحي ، وجميل الذلة والصغار على من خالف أخرى ، ومن تشبه يقوم فهو
منهم » .

الى رماة التشاب والسهم الرائشة (١٧) ، يقوم في استخدام هذه السهم : « وأما حذاق الرماة فيختارون تقصير الريش وجعلونه أربعة أصابع أو خمسة أصابع ويجعلون لرمي البعيد ثلاثة أصابع » وقد عرفت صناعة السهم في مصر منذ العصور القديمة ، ولا شك أن الجند الفاتحين في مصر كانوا يستخدمون تلك السهم في قتالهم فضلا عن الأغراض الأخرى (١٨) ، وربما كانت طائفة المطوعة التي كانت ملحقة بالجيش المصري (١٩) هي التي كان أفرادها يصنعون مثل هذه الأدوات القتالية كالسيوف والدروع والرماح والسهم وغيرها من أنواع الأسلحة الخفيفة ، كما كان من بين الواجبات المفروضة على كل كورة واقليم من الأقاليم المصرية ، تزويد الأسطول المصري في عصر الولاة بمعدات السفن الحربية مثل الزرد والحدود والدرق والتروس والرماح والكلاليس والباسيليقيات وهي سلاسل في رؤوسها رمانة مصنوعة من الحديد ونحو ذلك مما تحتاجه السفن الحربية في ذلك الوقت (٢٠) .

وليس من شك في أن دار الصناعة بجزيرة الروضة منذ انشائها في عام ٥٤ هـ ، كان بها فريق من الصناع يعملون في إنتاج بعض معدات

(١٧) كان صناع السهم يلصقون عليها بعضا من ريش الطير فيسمى واحدة بالسهم الرائش أي السهم ذو الريش ، وقالوا الريش من السهم ، وهو ما ألصق عليه ريش ليحمل في الهواء كما يحمل الطير .

ابن منكل : التديرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية ، ص ٢٣٦ . نشر مجلة المورد ، بغداد ، العراق .

(١٨) كانت السهم أكثر شيوعا عند العرب ، فهو عماد العربي في صحرائه الواسعة ، ينثر عليه ثوبه ليستظل به اذا لفحه الهجير ، ويصيد به الوحش اذا جاع ، ويهش به أوراق الشجر على غنمه ويدفع به عن نفسه عدوان المعتدين ، يتخذ الفقير من فروع الشجر والحصى من لادر الخشب وكرائم العيدان كالأبنوس .
عبد الرؤوف عون : تاريخ فن الحرب عند المسلمين حتى نهاية القرن الثاني الهجري ، ص ١٦٢ .

(١٩) يذكر الكندي أن مواخير مصر كان يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة والمأخوذ المكان الذي يكون به القوم وعدوهم وهو من استعمال أهل الشام . الولاة والقضاة ، ص ٤١٨ - ٤١٩ .

(٢٠) وينطبق قول ابن خلدون على المصريين في استخدام الحكام الأمويين والعباسيين لهم في شئون الجهاد وانشاء السفن وامتدادها بالمعدات ، فقد جاء : « انه لما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من التواتية في حاجتهم البحرية » الخ ، المقدمة ، ص ٢٢٢ ، سيده كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٩٢ ، معاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ، ص ٢٠٣ .

السفن الحربية ولا سيما تلك التي كانت تصنع من الحديد أو الفولاذ ، فضلا عما كانت تحتاج اليه تلك السفن في تركيبها من المسامير والسلاسل ونحوها (٢١) .

ولابد من الاشارة هنا الى صناعة المنجنيقات والعرادات وغيرها من أنواع الأسلحة الثقيلة (٢٢) ، وان كانت مادة الخشب تشكل معظم اجزائها وتدخل في غالبية صناعتها ، الا أنها كانت من أنكى الأسلحة وأشدّها فتكا بالعدو ، وكما كانت تحمل في السفن الحربية وتستخدم في ضرب المدن والثغور ، فانها استخدمت في حصار المدن وضرب أسوارها وهدم الحصون المنيعة . ومن أنواع الأسلحة الثقيلة كانت الدبابات وكانوا يصنعونها من كتل خشبية صلبة على هيئة برج له سقف من ذلك الخشب ، وبين كتل البرج مسافات قليلة يستطيع الرجال العمل من خلالها . وقد تعلم المسلمون في القرن الأول الهجري صناعة الدبابات ، ثم أدخلوا عليها كثيرا من التحسينات حتى صارت ضخمة كثيرة العجل .

ومما لا شك فيه أن المصريين قد برعوا في صناعة هذه الأنواع الأسلحة ، كما تفوقوا في صناعة الآلات التي ترمى بالنار المهلكة إبان الفتح العربي (٢٣) . كما شاع ذكر الزرارة أو الزراقين وهم الذين كانوا يستخدمون تلك الاسطوانات النحاسية المستطيلة في قذف هذه النار الاغريقية .

(٢١) يذكر السقلى أن ما يدخل في كل قطعة من القطع البحرية من أنواع المسامير فقط أربعون ربما من المسامير منها ألف وخمسمائة مسمار في الربع ، ومسمار التقريط منه أربعة عشر ألفا ووزنه كل ما به تسع أواق ، ومن التقريط الكبير ألفان اثنان وزن المائة منه أربع وعشرون أوقية . في آداب الحسبة ، ص ٧٢ .

(٢٢) عرف العرب المسلمون أنواعا من المناجيق . وقد ذكر أرنيلما الزردكاش كيفية تركيبها واستخداماتها المتنوعة . كتاب الأنيق في المناجيق ، ص ٢٢ - ٢٣ . أما العرادة فهي نوع صغير من المنجنيق كان يستحق لاقاء الحجار والسهام فهي أشبه شيء بالمدفعية الخفيفة التي توجه قذائفها الى مواقع العدو في الميدان ، عبد الرؤوف عون : تاريخ فن الحرب عند المسلمين ، ص ١٤٤ .

(٢٣) ناقش بتلر مسألة صناعة الآلات التي ترمى بالنار التي عرفت بالنار الاغريقية وأيد رأي جيون بأن مخترع هذه النار الاغريقية انما كان مصريا ، وأن نسبتها الى البيزنطية بعد ذلك ربما يرجع الى كون اختراعها تم بمصر أثناء الحكم البيزنطى لها . كما يشهد بتلر بالصانع القبطى زمن الفتح العربى ويقول : « وفى هذا ما يدل على أن الصانع القبطى فى هذه الصناعة وفى غيرها من الصناعات الكبرى فى وادى النيل كان مستقلا بنفسه بغير ارشاد ولا تسيير من الروم اذا لم نقل انه كان فى الحقيقة الصانع المعلم » . فتح العرب لمصر ، ص ١٠٢ .

ولا شك أن صناعة السفن الحربية في الاسكندرية وجزيرة الروضة في عصر الولاة ، كانت تتطلب من آلات القتال ومن صنع مثل تلك الاسطوانات النحاسية وغيرها من المعدات التي اشتهر بها الصناع المصريون .

وفي عهد الطولونيين لقيت صناعة الأسلحة رواجاً كبيراً ، من أجل تزويد الجند وحرس الأمير ابن طولون بما يلزمه من أنواع الأسلحة والدروع ومعدات القتال والحرب ومن الجدير بالذكر أن مؤسس الدولة الطولونية كان قد اتخذ عدداً وافراً من جند السودان والروم وخصص مدينة العسكر مقاماً لهم ، ولما ضاقت اتخذ مدينة القطائع ، وفيها أقامت القطاعات المختلفة من جند السودان وغيرهم .

وكان لابد استجابة للحركة الاستقلالية وانشاء الجيش الطولوني (٢٤) ، من قيام المصانع الحكومية للأسلحة لكي تمده بما يحتاجه منها بالرغم من وجود صناعة أهلية زاهرة . ويصف اليعقوبي الأمير الطولوني وهو يستعرض جيشه في ليلة عيد الفطر سنة ٢٦٢ هـ والجنود في زيهم الحسن بالسلاح وملونات البنود والأعلام وكثرة الكراع بشكل يثير الإعجاب .

كما تشير المصادر إلى كثرة استخدام أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة . مثل المجانيق والدبابات وغيرها في الحروب التي خاضها ابن طولون ، وقد ذكر المقرئزي أنه سار في جيش عظيم حتى وصل إلى نهاية حدود بلاد الشام وحاصر انطاكية ورمها بالمجانيق حتى دخلها في المحرم سنة ٢٦٥ هـ .

ويبدو نشاط صناعة السلاح ملحوظاً في عهد ابنة خمارويه ، وكان قد اتخذ من قطاع الطرق ضبخامة الأجسام ما عرفوا بالشجاعة والياس ، وأدخلهم في خدمته وأدر عليهم الأرزاق والعطايات ، ومنع الناس من أذاهم ، وكانوا يلبسون الأقبية من الحرير والديباج ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة ، ويتقلدون بالسيوف المحلاة ، وتسير خلفهم طوائف العسكر ، يتلوهم ألف من الجند السودان لهم درق مصنوع من الحديد ، وعليهم الأقبية والعمائم السود ، فيخالهم الناظر بحراً أسود لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم ، ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم البيض التي تلمع من تحت العمائم .

والواقع أنه بعد دخول القائد العباسي محمد بن سليمان مدينة

(٢٤) وقد بلغ عدد الجيش في عهد الطولونيين قرابة سبعين ألف ما بين جنود أتراك وعبيد سودان وجنود مرتزقة . المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

القطائع فى مستهل ربيع الأول سنة ٢٩٢ هـ/ ٩٠٥ م وأمره بإحراق
القطائع . ونهب الفسطاط ، وقتل جند الطولونيين من السودان ، لا نكاد
نعلم شيئا عن مصانع الأسلحة التى أقامها ابن طولون ، اذ أصبح القطر
المصرى وعاصمته الفسطاط قريسة لاستبداد الجند وعدوانهم . وكان قواد
الخلفاء العباسيين يفعلون ما يحلو لهم لمدة ثلاثين عاما بعد سقوط
الطولونيين .

ويبدو أن صناعة الأسلحة أخذت تستعيد نشاطها بعد تولى محمد
ابن طنج الاخشيد شئون البلاد ، فقد كان شديد الإعجاب بابن طولون
حريصا على التشبه به فى بلاطه ومواكبه ، كما عرف عن الأمراء الطولونيين
والاخشيديين من بعدهم أنهم كانوا يفضلون صناعة الأسلحة هذه فى مصر
داخل مصانعهم الحكومية بقدر المستطاع ولم يكونوا يفضلون عملية
الاستيراد لأنواع السلاح على يد اليهود أو غيرهم من الخارج .

ويذكر المقرئى أن مؤسس الدولة الاخشيدية كان يستعرض جيوشه
على طريقة ابن طولون ، وكان عدد الفرسان والرجالة لا يقل عن أربع مائة
ألف يستغرقون اليوم كله فى العرض يتبعهم حرسه الخاص المكون من
ثمانية آلاف من المماليك بملابسهم الزاهية الجميلة وأسلحتهم اللامعة .
ويمدنا ابن سعيد بصورة واضحة لأنواع الأسلحة التى كان يستخدمها
الجيش فى عهد الاخشيديين وذلك من خلال وصفه للعرض العسكرى فهو
يقول : « وجلس الاخشيد فى المنطرة على باب دار الامارة ، ومرت العساكر
فلما انقضى العسكر ركب غلمانه فى أحسن زى بالتخافيف (٢٥)
والجواشن (٢٦) ، والدروع ، فلم يفرغوا الى العشاء ، ثم أصبح فركب
لصلاة العيد » .

ولا شك أن إنشاء دار جديدة للصناعة بساحل الفسطاط والتى
سميت « الصناعة الكبرى » فى عهد الاخشيد (٢٧) ، أحدث نشاطا فى
حركة الصناع والحرفيين كالحدادين والزرايين وغيرهم من صانعى
مستلزمات السفن الحربية وآلات القتال المطلوبة .

ومن الملاحظ أنه فى عهد الطولونيين والاخشيديين لم تقتصر مصانع
الأسلحة على تزويد الجيش والسفن الحربية بحاجتها من المعدات وآلات
الحرب ، بل كان أصحاب الشرطة يحتاجون الى بعض آلات السلاح

(٢٥) التجافيف : كان يلبسها الفارس كالدرع ليقى بها الطعنات .

(٢٦) الجواشن : هى دروع الخيل . ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٢٧) لم يقتض إنشاء هذه الصناعة على دار الصناعة التى كانت قائمة بجزيرة الروضة ،

وبقيت مراكب الاسطول تنشأ فى الجزيرة بعد عام ٣٢٥ هـ وحتى أيام الخليفة الأمر بأحكام الله .

المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ١٨ .

يحملونها تسمى الطبرزين ، وهي نوع من السكاكين الطوال أشبه ما تكون بالسيوف . كما يظهر أن هذه المصانع لم تكن تكفى حاجة البلاد ، فكانوا يعملون على استيراد نوع من السيوف من الخارج لاسيما السيوف الأندلسية (٢٨) .

أما عن صناعة الأسلحة أيام الفاطميين فقد راجت وازدهرت بفضل عناية الحكام من الخلفاء والوزراء الفاطميين ، وأصبحت تمتد الجيش والأسطول بما يلزمها من سلاح وعتاد حربي . كان جيش المعز لدين الله حينما قدم الى القاهرة عظيما حتى قيل انه « لم تطأ أرض مصر بعد جيوش الاسكندر الأكبر من الجيوش أكثر من جيوش المعز » (٢٩) .

وقدر ناصر خسرو عدد الجيش الفاطمي أيام الخليفة المستنصر بحوالي مائتين وخمسة عشر ألفا من البيادة وخمسة وثمانين ألفا من الخيالة أو الفرسان (٣٠) أما حرس القصر فبلغ عددهم نحو عشرة آلاف جلبوا من بلاد افريقيا وآسيا وأوروبا (٣١) .

(٢٨) من أجمل النحف المعدنية الأندلسية السيوف ، فهي من أدوع ما صنعه المسلمون ومن أحسنها ما هو معروض الآن في المكتبة الأهلية بباريس .
ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٧٥ ، عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الإسلامية ، ص ١٧٧ .

(٢٩) يقدر النويري من قدم في خدمة المعز لدين الله بمائة ألف مقاتل كنامي وأربعين ألف من البربر وستين ألف من الزنوج . نهاية الأرب ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٤ ، مخطوط ، وكان الخليفة المعز أول من اتخذ صبيان الحجر وهم فرقة من الحرس الخاص كانت تتكون من الشبان الأقوياء ، بحيث يكونون على أهبة الاستعداد للقتال في أية لحظة ، وقد أطلق على المكان المخصص لهم بالقصر « صبيان الحجر » المقرئى : المخطوط ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(٣٠) ذكر ناصر خسرو أن جيش السلطان كله كان يخرج للعرض والاحتفال بيوم فتح الخليج فرقة فرقة وفوجا وفوجا وكان يتألف من : فرقة الكناميين وهم من القيروان وقيل أنهم عشرون ألف فارس . وفرقة تسمى البطاليين وهم من رجال المغرب دخلوا مصر قبل مجيء السلطان (الخليفة) وقيل أنهم خمسة عشر ألف فارس ، وفرقة تسمى المصامدة وهم سود ، قيل أنهم عشرون رجل . وفرقة تسمى المشارفة وهم ترك وعجم ، وقيل أن عددهم عشرة آلاف رجل ، وفرقة تسمى البدو وهم من أهل الحجاز وكلهم يجيدون حرب الرماح ، قيل أنهم خمسون ألف فارس وفرقة الاسناذين اشتروا للخدمة ، وثم ثلاثون ألف فارس ، وفرقة تسمى السرائين وهم مشاة قيل أن عددهم عشرة آلاف رجل ، وفرقة أخيرة تسمى الزنوج يحاربون بالسيف وحده قيل أنهم ثلاثون ألف رجل . سفرنامه ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٣١) يذكر ابن ميسر أن عبيد السيف أم المستنصر بالله كانت عدتهم نحو خمسين ألف محبذ سوى طوائف المسكر ، وكانوا من العبيد السودان . وقد بلغت عدة الجيوش بمصر في أواخر أيام الفاطميين أربعين ألف فارس وستة وثلاثين ألف رجل . أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، المقرئى : المخطوط ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

O'Leary : A Short History of the Fatimid Khalifate pp. 198-200.

وقد أنشأ الفاطميون مصانع خاصة تمد الجيش بما يتطلبه من أنواع الأسلحة ، يتضح ذلك مما جاء في وصف خزائن السلاح التابعة للقصر الفاطمي ، حيث كانت تصنع بها السيوف ، وكما قيل فإن السيف كان اشرف الأسلحة عند العرب ، وكانت السيوف على أنواع منها الطويل والقصير وغيرها . وكانت تتخذ للسيوف حمائل تكون على الأكتاف أو يتخذ لها معاليق .

وكانت تصنع بخزائن السلاح الأقواس والسهام التي يركب فيها من الأمام قطعة مديدة من الحديد ، وأيضا الخود والدروع ، ودروع أخرى تسمى كراغندات ، ودروع للخيول (جواشن) أو تخافيف ، والعمد الحديد المسماة مستوفيات . وكانت للدروع والتروس خزائن منفصلة عن خزائن السلاح تعرف بخزائن الدرق .

كما خصصت من خزائن السلاح قسم كانت تصنع به الآلات الثمينة التي تستخدم في المواكب الرسمية ، مثل أسلحة حرس الخليفة مثل سيوف مستقيمة (صماصم) وهي مصقولة ومذهبة ، وأعمدة (دبابيس) مغطاة بالجلد (الكيمخت) الأحمر والأساد لها رؤوس مدورة ومضرسة ، وأعمدة جديدة اسمها (لتوت) ذات رؤوس مضرسة أيضا (٣٢) ، وآلات يقال لها مستوفيات ، وهي عبارة عن عمد مصنوعة من الحديد ، طولها ذراعان ، مربعة الأشكال لها مقابض مدورة تمسك باليد منها . كما يصنع بهذه الخزانة كذلك من أنواع الحراب ، التي كان يحملها عبيد السودان يقال لهم أرباب السلاح الصغير . لعلمهم من حرس الخليفة أيضا . وكانت لهذه الحراب مقابض تصنع من الفضة كل واحد منهم يأخذ خربتين مربوطتين بشراية من حرير .

ومن الطريف أن نذكر نوع الأسلحة التي كانت تصنع خصيصا برسم وتشريف الوزير والموظفين وقواد الجيش ، وهي عبارة عن رماح باسم « قضب فضة » مصنوعة بطريقة خاصة ، وكان للوزير الحق في عشرة من هذه القضب ، ولغيره من كبار موظفي القصر وقائد الجيش أربعة فقط ، أما بقية القواد فكانوا يستلمون ثلاثة أو اثنين أو واحدا على قدر طبقاتهم . وينقل المقرئ عن ابن الطوير المؤرخ الفاطمي المعاصر أن الخليفة كان يشرف على خزائن السلاح ويتابع أخبارها ، ويتأمل حواصلها من

(٣٢) وقد أطلق عليها كل من الفلشندي والمقرئ « بخزانة النجمل » وذلك بسبب ما يعمل بها من أنواع السلاح والآلات المغطاة بأنواع الزخرفة من الفضة وغيرها .
ص ٣ ، ص ٤٧٧ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٤ ، ١٩٦ .

الدروع المدفونة بالزرد (٣٣) ، المنشاه بالديباج ، المحكمة الصناعة ، والجواشن المبطنه المذهبة والخوذ المحلاة بالفضة ، وغيرها من أنواع الزرديات والسيوف والرماح والقسي لرماية اليد ، المنسوبة الى صناعتها مثل الخطوط المنسوبة الى اربابها ، وذلك بما يدل على مهارة الصانع وتميزهم فى صناعة كل نوع من أنواع الأسلحة المعروفة فى العصر الفاطمى .

ومن الذين أسننت اليهم مهمة الاشراف على خزائن السلاح أبو سعيد ابن قرقة الحكيم ، فقد تولى الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح فى الدولة الفاطمية كما تظهر أهمية هذه الخزائن من اختيار أستاذ محنك للاشراف عليها ، ومن زيارة الخليفة لها بين وقت وآخر ، وتخصيص أفضل المستخدمين والصناع الذين كانوا يعملون فيها ما يؤمرون من آلات السلاح على اختلاف أنواعها وتباين أصنافها .

وتبدو العناية بأمر الصناع المهرة وصناعة الأسلحة منذ بداية حكم الفاطميين ، فقد أشار المقرئى الى اهتمام الخليفة المعز بأمر هؤلاء الصناع والحصول على الماهرين فى كل صنعة من سائر أفراد الشعب ، والعمل على إلحاقهم بالخدمة فى خزائن القصر (٣٤) ، كما يذكر أيضا أن الخليفة الظاهر اتخذ حجرا بالقصر ، وعلمهم أنواع العلوم وسائر فنون الحرب ، واتخذ خزانة البنود وجعل فيها ثلاثة آلاف صانع ، وكانت فى بداية أمرها يعمل فيها السلاح . وظلت كذلك الى أن احترقت فى سنة ٤٦١ هـ (٣٥) .

كما عملت الدولة الفاطمية - كما أشرنا من قبل - على توفير ما يلزم من الحديد والآلات اللازمة لصناعة أنواع الأسلحة ، يتجلى ذلك فى حديث ابن الطوير عن المناخ السعيد ، وما يرد اليه من الأخشاب والحديد وغير

(٣٤) ويبدو أن حاجة المعز لدين الله بعد قدومه الى القاهرة الى هؤلاء المهرة من الصناع وإرساله الى ولاية أعماله فى الأقاليم المختلفة فى طلبهم ، إنما كان من أجل الخدمة فى خزائن السلاح أو المصانع الحكومية التى بدأ فى نشأتها فى أعقاب الفتح مباشرة . ذكر ابن أبى طى أن المعز جعل كل ماهر فى صنعة صائما للخاص ، وأفرد لهم مكانا يرسمهم . الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(٣٥) ونقل المقرئى عن صاحب كتاب « الدخائر والتحف » أنه احترق بخزانة البنود عشرات الألوف من قربات النفط ومن زراقات النفط أمثالها ، ومن الدرق (الدروع) والسيوف والرماح والأخشاب ما لا يحصى . مع ما فيها من قصب الفضة وثيابها المذهبة وغيرها . ويقول : « وحدثني من رآنى به أيضا أنه احترق فيها من السيوف عشرات الألوف وما لا يحصى كثرة » . نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

ذلك ، كما يتضح لنا من سياق الحديث أن الفاطميين قد استعانوا ببعض الصانع من الفرنج لصناعة آلات الأساطيل ومعدات السفن الحربية .

وكان الاهتمام بالأساطيل وعمارة المراكب متواصلة بالصناعة لا تنقطع ، وقد خصص الفاطميون لهذه العمارة ديوانا خاصا يقال له « ديوان العماثر » وكان موضعه بدار صناعة السفن بالفسطاط . ويذكر القلقشندي أن أساطيلهم كانت مرابطة بكافة البلاد الساحلية كالاسكندرية ودمياط وتينيس وعيذاب من الديار المصرية . وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام .

ويذكر ناصر خسرو أن تينيس كان يربط حولها ألف سفينة ، منها ما يتبع الدولة وما هو للتجار ، ويقول أيضا : « ويقوم بتينيس جيش كامل السلاح وذلك للدفاع عنها من خطر الفرنج أو الروم والاعارة عليها . » كما يذكر القلقشندي أنه كان للفاطميين أسطول بعيداب يتلقى به الكارم ، وكان والى قوض هو المشرف والمتولى لأمر هذا الأسطول ، ويحمل اليه من خزائن السلاح ما يكفيه .

وكانت السفن الحربية تحتاج من المعدات وأنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة المعروفة في العصور الوسطى ، ومن أهمها المناجيق (٣٦) . ويذكر القضاعي المؤرخ الفاطمي أنها كانت تصنع ثم تنصب على جبل يشكر من أجل اختبارها وتجربتها قبل إرسالها إلى الثغور المصرية .

ومن الأسلحة الثقيلة التي صنعت في أيام الفاطميين كذلك الدبابات ، وكانت تصنع من الخشب المشبك وجلود البقر والابل واللبود والجلود المنقوعة في الخل لتقيها النار وغيرها . كما استطاع المصريون صنع المدافع ، وكانت تسمى المكاخل قبل اختراع البارود ، وكانت تستخدم في هدم الحصون والقلاع الحصينة حيث تطلق المدافع هذه مقذوفات من الحجر ، غير أنه بعد اختراع البارود استعملت قذائف من البارود في طلائق المدافع .

ومن الجدير بالذكر أن صناعة السلاح في العصر الفاطمي لم تكن قاصرة على خزائن السلاح بالقصر أو دور الصناعة بجزيرة الروضة والمقس وغيرها ، بل وجدت أسواق للسيوفيين والأسلحة الأخرى (٣٧) .

(٣٦) من أهم الكتب التي تناولت كيفية تركيب المناجيق واستخداماتها كان كتاب « الأتيق في المناجيق » لما يحتويه من دقة الرسوم لأجزاء المنجنيق وكيفية صنعه واستعماله لمؤلفه أرثية الزردكاش ، تحقيق نبيل عبد العزيز .

(٣٧) يحدد المقرئزي موضوع سوق السيوفيين في أيام الفاطميين ، فهو يقع في مقابلة سوق الصيارف عن جهة وسوق الزجاجين من جهة أخرى .

الخط : ج ٢ ، ص ٩٢ .

وليس من شك في أن هذه الأسواق كانت تصنع بها أنواع الأسلحة الخفيفة على اختلافها وتباع لعامة الشعب . يذكر المقریزی أنه حينما وقع الغلاء وارتفع السعر وكثر الازدحام على الخبز في عام ٤٠٣ هـ ، أمر الحاكم بتوزيع المال على الفقراء . وكثر ابتياع الناس للسيوف والسكاكين والسلاح ، وحمله من لم يحمله قط من العوام والصناع . وكثر الكلام فيه . وفي عهد الخليفة الظاهر حينما وقع الغلاء أيضا في عام ٤١٥ هـ وتجمع العبيد ومن انضم اليهم من النهاية من عامة الشعب ، فقبض على طائفة منهم فضربت رقابهم ورميت جثثهم على باب زويلة وعلى باب الفتوح وفي سوق السلاح كما أوضح المسبحي المؤرخ الفاطمي - وعند شرطة القاهرة .

ويظهر مدى انتشار صناعة الأسلحة الأهلية وبيعها لعامة المصريين (٣٨) ، مما أوضحه المقریزی في حوادث سنة ٤١٥ هـ أيضا ، حينما كثر النهب من جانب الجند العبيد السودان ، وأخذوا ما وجدوه في الساحل من القمح والشعير وغير ذلك مما في الحيوانات ، يقول المقریزی : « ودخلوا الى منازل أهل السلاح فنهبوا ما وجدوا » وخرج اليهم عامة المصريين بالسلاح فقاتلوه ورمتهم النساء من أعلى الدور بالحجارة والطوب والجرار حتى هزموهم ، وهكذا كانت بيوت صناع الأسلحة من السيوف والرماح وغيرها عرضة لنهب الجند ومواجهة عامة الشعب لهم باستخدامهم للسلاح وقتالهم به .

وقد شجع على هذه الصناعة وجود مسابك الحديد والفولاذ بالقسطنطينية في أيام الفاطميين ، كما ذكر ابن دقماق من بين الدروب بالمدينة درب الحدادين (٣٩) وقد كان لهم شأن كبير في المجال الحربي وصناعة الأسلحة ، وربما كانوا من صناع الجواشن وأسنة الرماح وغيرها من أدوات الحرب .

كما عملت الدولة الفاطمية على استيراد الحديد والأخشاب وغيرها من مواد الحرب ، الأمر الذي يساعد على قوتها ، وقد حاولت الشعوب الأوروبية أن تدفع حكوماتها الى منع تصدير مثل هذه المواد من الحديد

(٣٨) ويحدد المقریزی سوق السيوفيين في زمته حيث قال : « هذا السوق فيما بين المدرسة الظاهرية بدرس ومن باب قصر بشتاك استجد فيها بين الدولة الفاطمية في خط بين القصرين ، وقد جعل لبيع القسي والنشاب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح - الخطط » ج ٢ ، ص ٤٦٤ .

(٣٩) هو الدرب المسلوكة من الحدادين الى مربعة سوق وردان بالقسطنطينية .

والرصاص والمعادن التى ترد الى الديار المصرية ، تجلى ذلك فيما نصت عليه المراسيم الصادرة من حاكم البندقية وقناصل جنوه من أجل تحريم الاتجار مع مصر .

وتشير وثائق الجنييزة الى محاولات الفاطميين وبذل جهودهم فى أن يستحوذوا على تجارة الهند من ايدى منافسيهم الخلفاء العباسيين ، وكان من أهم السلع المجلوبة من تجارة الهند الحديد والصلب اللازمان فى صناعة السيوف وغيرها من أنواع الأسلحة (٤٠) .

وتشير المصادر الى رواج صناعة الأسلحة الخفيفة لدى الأهالى والحرفيين والصناع بالقسطنطينية وغيرها من المدن المصرية ولا سيما فى الثغور كما هو فى دميياط وتينيس والفرمان فى الوجه البحرى . اذ ليس من المقبول أن يقف أهالى تلك المدن والثغور مكتوفى الأيدى فى مواجهة غارات الروم المتكررة عليها ومحاولة نزول الفرنج ونهب أهلها خاصة فى أواخر أيام الفاطميين (٤١) ، وكان لابد للأهالى - لاسيما وأنهم كانوا من العرب كما هو الحال فى مدينة الفرما (٤٢) - من شراء الأسلحة والعمل على اقتنائها للمشاركة الفعلية فى الدفاع عن أنفسهم ضد هؤلاء المعتدين من خارج البلاد .

لما صناعة الأسلحة الثقيلة ، فقد ظلت طوال العصر الفاطمى ، كما ظل استخدام المناجيق وغيرها من هذه الأسلحة التى كانت قاصرة - بطبيعتها الحال - على مصانع الحكومة ، يذكر المقرئى أنه فى سنة ٤٩١ هـ أمر الوزير الأفضل بنصيب المناجيق على بيت المقدس ، عندما خرج من القاهرة ونزل عليها ، فكانت نيفا وأربعين منجنيقا ، وأقام عليها يحاصرها حتى هدم جانبها من السور ، ولم يبق الا أخذها .

(٤٠) عملت الدولة على إنشاء المتجر الفاطمى ، وكان المتجر يشتري لحسابه جميع الخشب والحديد والرصاص والمعادن التى ترد الى الديار المصرية ، وكانت تقوم بدورها ببيعها للمتجر مقابل كسب يسير ، ولا شك أن صناعات الأسلحة من عامة الخشب والحديد من السيوف والخناجر وغيرها فى القسطنطينية وغيرها كانوا يحصلون على حاجتهم من الخامات المعدنية اللازمة لصناعاتهم . كما كانت الدولة تشتري من نفس التجار الذى باعتهم اياها بأسما عالية تصل أحيانا الى أضعاف الثمن . عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص ٨٨ .

(٤١) ذكر المقرئى أنه فى شهر رجب سنة ٥٤٥ هـ نزل الفرنج على الفرما فى جمع كبير وأحرقوها ونهبوا أهلها . الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

(٤٢) كان بالفرما والبقارة عرب من جذام يقال لهم القاطع . نفس المصدر والصفحة .

كما استمر الجيش الفاطمي في تزويده بفرق النفاطين ، الذين كانوا يقومون بإعداد القوارير المملوءة بالنفط (٤٣) ، ورميها على قوات الأعداء لتحول دون تقدمها . وكان بالفسطاط مصانع لصنع قوارير النفط هذه وهي تشبه قنابل يدوية صغيرة ، وقد استخدمت أعداد كبيرة منها في حريق الفسطاط في عهد وزارة شاور سنة ٥٦٤ هـ . يذكر المقرئزي أن شاور بعث الى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ، ودخان الحريق الى السماء ، فكان منظرا مهولا ، فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما .

وهكذا كانت مصانع الحكومة الفاطمية تعمل على تلبية احتياجات الجيش والأسطول الفاطمي من المعدات والآلات الحربية ، كما كانت خزائن السلاح وصناعة العماير تحفل بالآلاف من الصنائع الماهرة لصناعة أنواع الأسلحة المختلفة الخفيفة منها والثقيلة مثل المناجيق وغيرها ، والتي كان يجري تجهيزها ونصبها لاختبارها وتجريبها قبل إرسالها الى الثغور المصرية بمصر والاسكندرية ودمياط والعمل على استخدامها في الحملات البرية والبحرية .

كما يمكن القول بأن أسواق السيوفين بالفسطاط ظلت رائجة ، كما راجت غيرها من أسواق السلاح في المدن والثغور المصرية التي ضمت العديد من المحال والدروب كدرب الحدادين وغيرهم من صنّاع الأسلحة الأهلية كالسيوف والجواشن وأسيّة الرماح وبيعها لعامة المصريين .

وليس هناك شك في أن صناعة السلاح كغيرها من الصناعات المعدنية كانت من الأهمية بمكان منذ الفتح العربي ، شأنها في ذلك شأن صناعة سك النقود في دور الضرب المصرية ، وصناعة الحلّ والجواهر وغيرها من الأدوات والمعدات والتحف المعدنية المختلفة ، وما تطلّبت احتياجات الدولة والمجتمع معاً حتى زوال حكم الفاطميين .

(٤٣) يذكر القلقشندي أن مواضع النفط بساحل البحر الأحمر من التلزم ، وكان يتم استخراجها حيث تأتي به العرب ، ويحتمل الى خزائن السلاح الفاطمية ، كما كان يحصل عليه أيام الفاطميين من جزيرة عنقلية .

تصانيف الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ ، القزويني : آثار البلاد ، ص ٢١٦ .

الفصل الخامس

الحرف والصناعات الخشبية

- ١ - بناء السفن الحربية والتجارية في عصر الولاة .
- ٢ - مظاهر النهضة في دور الصناعة في عهد الطولونيين والاشيدين .
- ٣ - ازدهار صناعة السفن وتجهيزها في دور الصناعة الفاطمية .
- ٤ - حرفة النجارة وصناعة الاثاث في عصر الولاة .
- ٥ - الحفر على الخشب ومظاهر التأثير الحضارى في عهد الطولونيين والاشيدين .
- ٦ - فن النحت والتطعيم بالعاج في العصر الفاطمى .

الصناعات الخشبية

نمت صناعة الأخشاب من الصناعات الهامة منذ بداية الفتح الاسلامي ، وكان المصريون من الشعوب التي تمتعت بشهرة واسعة في العصور القديمة سواء في صناعة المراكب وبناء السفن البحرية والحربية (١)، أم في صناعة الأثاث والأدوات الخشبية المنزلية .

وقد احتفظت الدولة البيزنطية بدور لصناعة السفن في الاسكندرية وعكا ، وحيث تم بناء كثير من السفن الحربية والتجارية التي كانت تقوم بنقل الجنود والامدادات في وقت الحرب . كما بلغ من ضخامة السفن البحرية التي تم بناؤها بالاسكندرية زمن الفتح العربي أن احداها كانت تسع عشرين ألف مد (أي نحو ٤٠٠٠ أردب من الحنطة) .

كما عرف المصريون من أنواع الأخشاب المحلية خشب الجميز والأتل والصفصاف وخشب السنط والسدر والصنوبر ، وذلك من واقع ما ورد في النصوص المصرية القديمة (٢) كذلك اشتهر الصناع الأقباط بحرفة

(١) اشار هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد الى صناعة السفن المصرية فقال : « وتصنع سفنهم التي تحمل البضائع من شجر اللبخ ، فبعد أن تقطع أخشابها الى ألواح طول الواحد منها نحو ذراعين ، ثم يقطعون هذه الألواح حول أوتاد متلاصقة ، ويستخدمون الفواصل بالبردي ، ويضعون دفة واحدة تدفع في قاع السفينة ، كما يتخذون الساري من اللبخ والشراع من البردي .

(٢) أمدا الفريد لوكاس بجداول أوضح فيها أنواع الأخشاب التي استعملها القدماء المصريون في التجارة وصناعة السفن ، وكان من أهم تلك الأنواع السنط واللوز وخروب - الجميز - الأتل (طرفا) والصفصاف واللبخ والنبق ، كما أوضح لنا أن خشب السنط كان يستخدم في التصليف ولعمل جوانب السفن والى شهرة سنط طيبة والمناطق المجاورة لها . المواد والصناعات ، ص ٧٠٦ ، ٧٠٨ .

النجارة ، فصنعوا السقوف والشبابيك والأبواب والمقاصير وغيرها . وعرفوا بل أجادوا زخرفة الأخشاب التي قامت على أعمال التلوين Painting وعلى الحفر العميق deep cut وأيضا عن طريق التطعيم بالعاج والأبنوس (٣) .

ولما كانت مصر فقيرة فى الأخشاب الكبيرة التى تعد المصدر الطبيعى للأخشاب الجيدة ، فقد كانت تستورد من بلاد الشام خشب الأرز وغيره من أخشاب الزينة كخشب الك والساج والأبنوس من البلدان المنتجة لهذه الأنواع من الأخشاب .

(٣) يضم المتحف القبطى مجموعة من اللوحات المرسومة ترجع صناعتها إلى القرون
ومجموعة من أدوات الزينة عبارة عن أمشاط عليها زخارف نباتية وهندسية من القرن
السادس والسابع الميلادى .

١ - بناء السفن الحربية والتجارية في عصر الولاة :

كانت صناعة بناء السفن في عصر الاسكندرية من أهم وأكبر الصناعات عند الفتح العربي لمصر ، ولا غرو فقد كانت الاسكندرية من أكبر أسواق العالم ، وأكثر ثغوره ازدهاما وحركة ، وكانت بها تجارة عظيمة في القمح والكتان والورق والزجاج وغير ذلك من محاصيل البلاد .

وكانت السفن تحمل اليها مقادير عظيمة من الذهب والعاج من بلاد التوبة واثيوبيا ، ومن أنواع البهار والحرير والفضة والجواهر وغيرها ، تأتي من بحار الهند والصين الى البحر الأحمر ، ومن القلزم تحمل في ثرعة منفيس ، ثم تنحدر في نهر النيل نحو الاسكندرية ، حيث كانت ترسل الى أطراف البحر المتوسط .

وكما تبدو أهمية صناعة السفن التجارية ، وتلبية مطالب الحركة التجارية الواسعة ابان الفتح الاسلامي ، فان الأمر لم يكن أقل أهمية بالنسبة لانشاء العديد من سفن الأسطول المصري ، لاسيما بعد أن قرر الحكام العرب في عهد معاوية بن أبي سفيان نزولهم بالبصرة وغزو بلاد الروم (١) .

ولا ريب أن السفن الحربية التي بلغت مائتي مركب أو يزيد ، كانت من صناعة الاسكندرية (٢) . وقد غزا بها عبد الله بن سعيد عام ٣٤ هـ .

(١) كان العرب يهيئون ركوب البحر في أول إبرهم ، وقيل إن أول من ركب البحر للهرون في الإسلام العلاء بن الحضرمي في خلافة عمر بن الخطاب ، ادّعى أهل البحرين أن غزو بلاد فارس عن طريق البحر يغير إذن الخليفة ، ففرقت سفن المسلمين ونصب عمر على العلاء وعزله عن الامارة . المقرئ : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣ .

(٢) تمت صناعة السفن المزينة هذه على أيدي الصناع المصريين من التجارين والفلطين والنواقيع ، وكما ذكر ابن الخلدون فان العرب اعتمدوا في بداية أمرهم على إنشاء الأمم التي حكمت لسلطانهم لهم ، كانت لهم دراية بالبحر وثقافته ، وحيث تقرب كل في صنعة يبيع صناعته لديهم ، واستخدموا من النواقيع في خاصتهم البحرية ، المقدمة ، ص ٢٢٢ .

حيث هزم الروم ، وذلك فى الموقعة التى عرفت بذات الصوارى (٣) ، وكانت بالقرب من غرب الاسكندرية .

اهتم الولاة فى مصر بصناعة السفن الحربية ، لاسيما بعد تولية معاوية عام ٤١ هـ شتون الخلافة ، فقد أمر ببناء عدد من السفن الحربية فى الاسكندرية وسواها من الموانى التى أصبحت تقع تحت سيطرة الدولة الاموية .

وفى أعقاب غزو الروم لثغر البرلس والحسارة الفادحة التى حلت بالمسلمين فى قتالهم ، عمل العرب الفاتحون على انشاء دار صناعة بجزيرة الروضة بالقرب من ساحل القسطنطين وذلك فى عام ٥٤ هـ . وقد شجع على بناء الصناعة فى ذلك الموضع وجود نحو خمسمائة من الفعلة والصناع به آنذاك (٤) . وكانت أول دار للصناعة يتم انشاؤها وسميت جزيرة الروضة حينئذ جزيرة الصناعة (٥) .

ولم تمض بضعة سنين ، حتى أمر معاوية بن أبى سفيان بجمع الصناع والنجارين من مصر وبلاد الشام ، وذلك للاشتراك فى بناء دار جديدة للصناعة بعكا ، وقد ذكر البلاذرى أنه فى سنة ٤٩ هـ حدث أن هاجم الروم السواحل الاسلامية ، وكانت الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بانشاء دار للصناعة بها . كذلك تشير المصادر الى ارتفاع الحكام بخبرة الملاحين والصناع من المصريين فى صناعة السفن فى جهات أخرى ، فقد ذكر البكرى أنه لما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة (٦٥ - ٨٦ هـ) بعث الى حسان ابن النعمان عامله على إفريقيا يأمره باتخاذ دار صناعة بـتونس . وقد كتب عبد الملك بن مروان الى أخيه عبد العزيز والى مصر أن يوجه الى معسكر تونس ألف قبضى بأهله وولده لانشاء دار صناعة بها . ومن الملاحظ أن مهمة البربر كانت قاصرة على حمل ما تحتاجه دار الصناعة من الأخشاب اللازمة لصناعة وبناء السفن .

(٣) سميت بذات الصوارى لكثرة صوارى المراكب بها . وقيل أن مراكب الروم ملقت فى هذه الغزوة ألف مركب أو سبعمائة أما المسلمون فقد لقوهم فى مائتى مركب . الكندى : الولاة ، ص ١٣ ، القرىزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٥ .

(٤) كان قبل بناء دار الصناعة بها خمسمائة فاعل تكون مقيمة على الدوام لأعمال مقاومة الحريق أو سقوط المنازل وانهارها . القرىزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ١٧ .

(٥) انفرد مكان صناعة السفن بهذه التسمية دون غيره من مراكز الصناعات الأخرى حيث أطلق العرب لفظ الصناعة على اسم المكان المهد لانشاء المراكب الحربية والتى كان يتم صنعها وتجهيزها لغزو العدو ، بعد شحنها بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة ، وهى ما كان يطلق عليه اسم الاسطول . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣ .

ويبدو أنه تكرر سفر الصناع المصريين الى تونس في عهد عبد الله ابن الحبحاب سنة ١١٤ هـ / ٧٣٣ م ، حيث زاد بها دارا لصناعة السفن وجامع تونس الكبير وهكذا شاركت مصر في قبحر الاسلام بالصناع المهرة في بناء السفن في الثغور الاسلامية مثل عكا وتونس ، مما جعلها محل تقدير الخلافة الاموية في دمشق .

وقد اظهرت أوراق البردي التي تم العثور عليها (٦) ، أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادي النيل في جزيرة الروضة (٧) ، وفي القلزم وفي الاسكندرية .

كما امدنا ابن عبد الحكم بمعلومات هامة عن الموضع الذي اقيمت به صناعة الجزيرة (٨) ، وعن قيام الولاة بجمع الأخشاب اللازمة لبناء السفن من أهل الذمة وذلك بعد دفع اثمانها لهم (٩) . ويبدو أن أول من ولي على دار الصناعة بجزيرة الروضة كان فهد بن كثير كما يذكر ابن عبد الحكم وانه قصر مشهور بـخطة المعافر بالقسطاط (١٠) .

وليس من شك في أن صناعة السفن بالجزيرة لم تقتصر على الحربية منها ، بل كانت السفن التجارية أهم ما يعمل بها ، خاصة بعد إعادة حفر

(٦) تم اكتشاف أوراق البردي هذه عام ١٩٠١ في كوم اشقاو - مركز طما - محافظة سوهاج وهي ترجع الى عصر الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) ، ومما يذكره ابن عبد الحكم أن الخليفة الوليد كانت له بعض الحوانيت المجاورة بجزيرة الصناعة او ما أطلق عليها جزيرة الروضة فيما بعد . فتوح مصر والمغرب ، ص ٨٦ .

(٨) يذكر ابن عبد الحكم أنه لما رأت الحامية الرومانية بقيادة المقوقس (قيرس) حبر العرب وشدة بأسهم في القتال ، استقر رأي المجتَمعين على أن يذهب قيرس وأصحابه تحت ستار الليل الى جزيرة الروضة ، وفتح الباب الحديدى المفضى الى النيل حيث استقل الخارجون السفن من هناك ، ونزلوا في الموضع الذي انشئت فيه دار الصناعة فيما بعد بجزيرة الروضة . فتوح مصر والمغرب ، ص ٩٦ حاشية .

(٩) كتب حيان بن سريج عامل الحراج على مصر في عهد عمر بن عبد العزيز يطلب من الخليفة المشورة والرأى في الحصول على خشب لصناعة الجزيرة وكان عند بعض أهل الذمة ، وأنه كره أن يأخذ منهم حتى يعلمه ، فكتب اليه عمر ، حذها منهم بقيمة عدل أى بالثمن المناسب ، المصدر السابق ، ص ١٣١ .

(١٠) يقول ابن عبد الحكم عنه : وكان والى برقة أيام أسامة بن زيد الأولى ، وكان قد ولي جزيرة الصناعة ، مما يدل على اهتمام الولاة وعمال الحراج في العصر الأموى بتلك الدار وما يجرى بشأنها . المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

القناة النيلية التي كانت تصل البحر الأحمر بالنيل شمال القسطنطينية ،
والتي أطلق عليها خليج أمير المؤمنين (١١) .
وكانت القلزم مثل الاسكندرية مركزا تجاريا وقاعدة بحرية (١٢) ،
بفضلها اختفظ الأمويون بقطع بحرية في البحر الأحمر ، وأرسلت منها
حملة لقتال عبد الله بن الزبير في الحجاز عام ٧٢ هـ / ٦٩٣ م . ويظهر
من أوراق البردي ، ذلك الخطاب الذي أرسله قره بن شريك الى نائبه
بالقلزم طالبا منه اصلاح السفن التي في ميناء القلزم وارسال البحارة
سريعا قبل جفاف مياه خليج أمير المؤمنين . وفي خطاب آخر يكشف لنا
عن اسم محمد بن أبي حبيب الذي كان مشرفا على دار الصناعة بالقلزم
وقد ورد الخطاب مؤرخا في عام ٩١ هـ / ٧٠٩ هـ وهو موجه من الوالي
المصري قره بن شريك (٩٠ - ٩٦ هـ) الى الحاكم على أفروديتسو (كوم
اشقاو) وفيه يطلب ارسال نجار مع أدواته الى المشرف المذكور للعمل لمدة
أربعة أشهر ، وقد حدد له أجرته في الخطاب وقدرها ٢ ١/٢ صولدي شهريا
تدفع له من بيت المال . وكانت القلزم من أهم الموانئ التجارية على البحر
الأحمر في ذلك العصر (١٣) .

كما تشهد أوراق البردي بأن الوالي كان يتفق مقدما على أجور العمال
هؤلاء والملاحين الذين يعملون في الأسطول المصري ، وكان يفرض على الكور
قدرا من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيفها ، وكذلك
يفرض عليها تموين الملاحين الذين يشتغلون في اعداد الأسطول .

ومن الجدير بالذكر أن الملاحة في البحر الأحمر كانت تتطلب صناعة
نوع خاص من السفن (١٤) ، تستطيع الإبحار فيه بسبب صعوبته وكثرة

(١١) يقول ابن عبد الحكم : « ثم احفر الخليج الذي في ناحية القسطنطينية الذي
يقال له خليج أمير المؤمنين ، مسافة من النيل الى القلزم ، فلم يأت الحول حتى جرت فيه
السفن » ، فنوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٠ .

(١٢) القلزم : بالضم ثم السكون هي فرسة مصر والشام ، ومنها تحمل حمولات مصر
والشام الى الحجاز واليمن . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ١٤٦ .

(١٣) وقد وصف اليعقوبي مدينة القلزم بأنها « كبيرة يقيم بها المشتغلون بتصدير
المواد الغذائية الى الحجاز واليمن ، وبها مرسى المراكب وأهلها أخلاط من الناس وتجار أهل
يسار » . البلدان ، ص ٣٤٠ ، ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٣٨ ، سرور : تاريخ
الحضارة الإسلامية الى الشرق ، ص ١٥٠ .

(١٤) يعلل المسعودي عدم استعمال المسامير في بناء هذا النوع من السفن الخلاب
لسبب الخوف من تأكلها ، وزعم آخرون أن السبب في ذلك إنما يرجع الى خوف الملاحين من
جذب جمال الغناتيس الموجودة في البحر الأحمر لهذه المسامير الداخلة في بناء السفن
وتشبيثها ، ونقل ياقوت عن المهلبى المؤرخ الفاطمي قوله : « ويصل بجبل القلزم جبل
يوجد فيه الغناتيس ، وهو حجر يجذب الحديد » . مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٦٣ ،
معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ١٤٥ .

الشعاب المرجانية والجبال الناشئة فيه ، ولم تذكر المصادر لنا شيئا عن السفن الحربية التي كان يتم صنعها بالقلزم ، أكانت مثل انجلاب ، وهي تلك السفن أو المراكب الخاصة بالبحر الأحمر والتي كانت تصنع في عيذاب على ساحل البحر الأحمر ، ولا يستعمل النجارون فيها المسامير المعدنية البتة .

وقد أمدنا ابن جبير بمعلومات هامة عن كيفية صنع هذه الجلاب ، وأوضح أن مراكب البحر الأحمر لا يستعمل فيها مسمار البتة ، وإنما هي مخططة بأمراس من القنبار ، وهي قشر النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط ، ويقتلون منه أمراسا يخطون بها المراكب ويخللون بها بدسر من عيدان النخل . وقد كانت مراكب البحر الأحمر والمحيط في العصور القديمة تخاط بجبال الليف ، وكانت هذه الطريقة القديمة هي الطريقة الوحيدة عند جميع الأمم .

ونحن نشك في أن مثل هذه الجلاب ، لم تكن من المتانة أو القوة بحيث يمكن تجهيزها للغزو أو القتال عليها (١٥) ، لاسيما وأنه قد ذكر أن سفن البحر الأحمر والمحيط الهندي كانت تحتاج إلى أنواع من الخشب ممتازة بمتانته وصلابته حتى يستطيع مقاومة وتحمل التأثيرات الجوية والبحرية القاسية وحيث كانت تصنع ألواح الهياكل من خشب الساج أو خشب جوز الهند .

ومهما يكن من شيء ، وما قام به الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور من ردم خليج أمير المؤمنين (١٦) ، وانتقال مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد ، واعتماد العباسيين على الأسطول البحري في الموانئ السورية وفي ثغر طرسوس لتعزيز حملاتهم البحرية المستمرة ضد بيزنطة . فإن صناعة السفن الحربية ظلت زاهرة في مصر في العهد العباسي أيضا ، يذكر المقرئزي أنه بعد نزول الروم دمياط في سنة ٢٣٨ هـ في خلافة المتوكل ، وفي ولاية عنبسه بن أسحق على مصر ، وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر

(١٥) ويعزز ذلك ما ذكره ابن الأثير من أنه من عادة المصريين إذا أرادوا الغزو في البحر الأحمر يفصلون أجزاء السفن في دور الصناعة في مصر ، ويحملونها على الجمال إلى الطور ، فإذا وصلوا إلى ساحل بحر القلزم وصنعوها وسعروها وأكملوا انشائها وثالغها ورفعوها في البحر وركبوها . الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ١١٠ ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حل حاضرة القاهرة ، ص ١٨٥ .

(١٦) لم تزل تجرى فيه السفن من القسطنطينية إلى مدينة القلزم ، وذلك منذ أن أمر عمر بن الخطاب وإلى على مصر عمر بحفره ، وجعل فيه السفن ، حتى عام ١٥٠ هـ حينما أمر أبو جعفر المنصور بطمه . ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢١٨ - ٢٢٧ . المقرئزي : المعط ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

الأسطول ، وأنشئت الشوانى (١٧) برسم الأسطول (١٨) ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كمسا هي لغزاة البر وانتدب الأمراء له والرماة فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد والعارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل في زجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب .

ويبدو من قول المقرئ أن الخلافة العباسية لم تكن تهتم بما يجرى في دور الصناعة بكل من جزيرة الصناعة ودار الاسكندرية أو القلزم بعد سقوط الدولة الأموية حيث قال : « وأول ما أنشئ الأسطول بمصر في خلافة أمير المؤمنين المتوكل » وهكذا وقع الاهتمام بصناعة السفن الحربية ، حين أصبحت دمياط وتينيس وغيرها من الثغور المصرية عرضة لغزو الروم ونزول أعداء المسلمين عليها .

كان الحرفيون من النجارين والحدادين وغيرهم من الصناع منتشرين في سائر القرى المصرية ، وكان على حكام الكور توزيع خامات الحديد وما يلزم من النحاس والتصدير والرصاص على هؤلاء الصناع دون تحيز في القرى التابعة لهم لتصنيعها بالمواصفات المطلوبة ، مع حثهم على سرعة التشغيل ، وتكشف أوراق البردى عما كان يتم صنعه على أيدي الصناع من عمل المسامير والمثبتات والمراسي والسلاسل وما تحتاج إليه دور الصناعة في عصر الولاة .

وكانت دور الصناعة تزود أحيانا باحتياجاتها من الأخشاب المحلية ، فكان الوالى يكتب الى الباجارك وهو حاكم الكورة أو الاقليم محددا المقدار المطلوب من الخشب وأنواعه من الجهات التابعة له ، كى يرسل مع مندوبين امناء ويتم تسليمه الى متولى الصناعة واستلام المخالصة الدالة على ذلك . وقد كتب قره بن شريك الى عبد الله بن أبى المسلم متولى دار الصناعة آنذاك خطابا يرجع تاريخه الى عام ٩٢ هـ / ٧١٠ م من أجل توريد جذوع أشجار نخل من تحديد الأثمان المطلوبة ، ويدل تحديد أثمان الأخشاب في هذا الخطاب على أن الأشجار كانت بطبيعة الحال - ملكية خاصة للأهالى ، تُحصل عليها الدولة بالشراء .

كما تشير أوراق البردى الى نقل مجموعة من الكتل الخشبية من مدينة

(١٧) الشوانى : جمع شونة وهي السفينة الحربية الكبيرة ، وهي من أهم القطع البحرية التى يتكون منها الأسطول .

(١٨) الأسطول : أطلق العرب على مجموع السفن الحربية لفظ أسطول وهو لفظ يونانى . ثم عرب . سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ، ص ٢٧١ .

القيوم الى أحد تجار الخشب بالقسطاط (١٩) ، وقد ورد في خطاب مرسل من أحد المستخدمين الى موظف بشأن ارسال سفينتين محملتين بخشب السنط ويرجع تاريخه الى القرنين الثاني والثالث من الهجرة . وقد كانت السفن من أهل وسائل النقل - ان لم تكن الوحيدة - خاصة في النواحي التجارية .

ومن السفن التجارية التي كان المصريون يصنعونها في ذلك الوقت المراكب السفرية لنقل المتاجر الى خارج البلاد ، والسفن الشراعية الكبيرة المسكونة التي تستعمل في نقل السلع التجارية بين مصر والشام وهي سفن بسارية واحدة لها قلع مربع ، ونصف سارية ذات قلع مخروطية (٢٠) . كما قام النجارون والصناع ببناء وتشبيد نوع من السفن أطلق عليه المعديات (٢١) والحملات (٢٢) والطيارات (٢٣) ومراكب المعاش . ومن أنواع القوارب والزوارق أمكن للنجارين صناعة الكثير منها . مثل الشخورة والزلاج والسنبوك وغيرها .

(١٩) ورد ذلك في إحدى البرديات العربية المخطوطة بالملكية الأممية بباريس ويرجع تاريخها الى الرابع والعشرين من ديسمبر سنة ٨٦٥ م . جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ٥ ، ص ٦٥ .

(٢٠) كانت تستعمل عادة في نقل المتاجر بين مصر والشام وهي بالانجليزية Schooner وبالفرنسية Schooner or Schöner وقد كانت الشفور الاسرية المملوكة على البحر المتوسط الى عهد قريب . تشاهد هذا النوع من السفن . درويش النخيل : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢١) وهي المراكب التي استخدمت لتعدي الناس عبر النيل . وكان لها مواضع خاصة لمخطوط رسوم التعدي . ولا شك أنها كانت تستخدم كثيرا بين ساحل القسطاط وجزيرة الروضة من جهة وبين جزيرة الصناعة والحيرة من جهة أخرى . المقرئ : المخطوط ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ .

(٢٢) ويذكر ابن ماضي أنها كانت مخصصة لحمل الغلال وهي من نوع المراكب الدبوانية . قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

(٢٣) وهي نوع من السفن النهرية القديمة التي تتميز بخفتها وسرعة جريانها فوق صفحة النهر الخالد ، وكانها لسرعتها تثير على وجه الماء . درويش النخيل : السفن الاسلامية ، ص ٩٢ - ٩٣ .

أما عن أنواع السفن الحربية التي تم بناؤها بدور الصناعة في
الاسكندرية وجزيرة الروضة والقلزم بمصر في عصر الولاة ، فيمكن القول
بأنها كانت متنوعة ، نذكر منها الطرادات (٢٤) ، والعلايات (٢٥)
والاعواديات (٢٦) والقوابيس (٢٧) وقوارب الخدمة (٢٨) وغيرها .

(٢٤) نقل بتلر عن سيروس أن السفن التي كانت تصنع بالاسكندرية ايان الفتح
العربي كانت على نوعين احدهما ما يمكن ان نسميه البوارج والآخر الطرادات وكانت البارجه
تحمل ألف رجل ، في حين أن السفن الحربية الصغرى كانت تحمل كل منها مائة رجل ،
وكانت تجعل للسير السريع الالتفاف حول السفن الكبرى . فتح العرب لمصر ، ص ١٠١ .
(٢٥) هي نوع من السفن التي كانت تصنع خصيصا للحرب ، فهي من سفن
الاسطول ومفردتها (العلاي) .

سعاد ماهر : البحرية في عصر الإسلام ، ص ٢٥٨ .

(٢٦) ومفردتها (الاعوادى) وهي من نوع من السفن الصغيرة التابعة للأسطول المصري .
وقد أخطأ سوريال في قراءته عند نشره لكتابه قوانين الدواوين لابن ممانى فربما
« الأنزاي » درويش النخيل : السفن الإسلامية على حروف المعجم ، ص ٥ - ٦ .

(٢٧) اسم نوع خاص من سفن الحرب ، وقد جاء ذكره كثيرا في أوراق البردي التي
تم اكتشافها في كوم اشقار من أعمال محافظة سوهاج . جرومسان : أوراق البردي
السريية ، ج ٥ ، ص ٦٩ .

(٢٨) هي تلك السفن الصغيرة التي تكون مع أصحاب السفن البحرية تستخف غوائجهم
فهي من توابيع الأسطول . وهي كانت معروفة في مصر منذ أقدم المصور ، وقد وردت في
كتاب عمرو بن العاص الذي وصف فيه مصر . جاء في قوانين ابن ممانى : أن أعمال
الديوان كانت لهم مراكب خاصة تعرف باسم قوارب الخدمة ينتقلون بها من اقليم الى آخر
لجمع الخراج للديوان .

الهريزي : المخطوط ، ج ٢ ، ص ٦١٤ .

٢ - مظاهر النهضة في صناعة السفن الحربية والتجارية في عهد الطولونيين والأخشديين

بادر أحمد بن طولون الى دعم قوته البحرية في أعقاب توليه شئون الحكم في مصر عام ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، محاولا الاستقلال عن الخلافة العباسية في بغداد ، والدفاع عن ولايته ضد محاولات الخلافة لاسترداد نفوذها المطلق عليها (١) . ومن ثم اتجه الى الاهتمام بشئون الأسطول المصرى . وقد تجلى اهتمامه هذا وعنايته بالناحية البحرية حينما أمر ببناء الحصن على الجزيرة ، وأبقى على دار الصناعة فيها ، وحشد الصناع والبحارة كما ذكر البلوى لبناء مائة مركب حربية كبيرة ، بالإضافة الى العلابيات والحمامات والعشاريات والصنادل وقوارب الخدمة التى شرع فى تجهيزها مباشرة .

وكانت مشروعات الموفق طلحه وارساله فرق الجيش العراقى بقيادة موسى بن بغا التى تحركت صوب الشام لملاقاة ابن طولون من أجل القضاء عليه ، من أهم الأسباب التى جعلته يعجل بتجهيز الأسطول ، ويبحث فى سبيل ذلك كما يذكر الكندى حين قال : « واجتهد أحمد بن طولون فى بنیان المراكب الحربية واطافتها بالجزيرة وأظهر الامتناع من موسى بن بغا بكل ما قدر عليه » .

وقد كان العمال والصناع فى دار الصناعة بالجزيرة من الأقباط أو المصريين المسلمين الذين استعان بهم فى بناء السفن الحربية ومن العلابيات

(١) بوبع الخليفة المعتمد بعد وفاة المهدي فى شعبان سنة ٢٥٦ هـ ، فأقر أحمد ابن طولون على ولايته ، وبدأ فى بناء الميدان وحملة القصور الطولونية بالمطامع . الكندي ، الولاة ، ص ٢١٥ .

والحمائم (٢) والعشاريات (٣) والسناديل (٤) وقوارب الخدمة كما ذكر المقرئى ، حتى يسد ابن طولون وجه البحر المتوسط ، وأن يصد ما يجىء اليه من السفن الحربية القادمة من طرسوس وغيرها .

وقد بلغ من اهتمام ابن طولون بشأن الأسطول الذى أشاد بذكره الشعراء وبحركة الصناع وهم يعملون فى تجهيزه (٥) ، أن أسند مهمة الاشراف الى أبى كامل شجاع بن أسلم الحاجب (٦) وكان أحد علماء الهندسة البارزين فى عصره كما كان فنيا فى مهنته . ونعتقد أن مهمة مدير دار الصناعة ومتولى شئونها فى ذلك العصر كانت أقرب ما تكون ، كما وردت فى سجل توليته أمر الثغور ، وقد جاء فيه : « أن يتفقد أمر المراكب المنشأة حتى يحكمها ويجود آلاتها ، ويتخير الصناع لها ويشرف على ما كان منها فى الموانى ، ويرفعها من البحر الى الشاطئ فى المشاتى وهيج الرياح المانعة من الركوب فيها » .

(٢) نوع من السفن الشراعية ذات المجاديف ، وقد ذكر الكندى هذا النوع من السفن فى حوادث سنة ٢٩٢هـ ، الولاة والقضاة ، ص ٢٦٣ .

(٣) العشاريات هى نوع من السفن الكبيرة التى كانت تستخدم فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، كما كانت هذه السفن يكثر استعمالها فى النيل . والاسم معرب ويجر بعشرين مجدافا ، وتنقل البضائع والرجال من ساحل الى آخر كما يستخدم فى الأسطول الحربى لنقل المقاتلة والعتاد ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة فى حلى مصر القاهرة ، ص ٧٤ ، سعاد هاجر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٣٥٦ .

(٤) السنادل أو الصنادل وهى جمع صندل وهى القوارب المستخدمة للشحن أو من القطع الحربية الصغيرة الملحقة بالأسطول . درويش النخيل : السفن الاسلامية ، ص ٨٧ .

(٥) أورد الكندى قصيدة للشاعر محمد بن داود لأحمد بن طولون يصف فيها الأسطول المصرى وحركة الصناع أثناء بنائهم وتجهيزهم لقطع الأسطول :

لما ثوى ابن بغيا بالرقتين مالا سافية زرقا الى الكمين والقصب
بنى الجزيرة حسنا يستجن به بالعسف والضرب والصناع فى تمب
له مراكب فوق النيل راكمة فما سوى القار للنظار والخشب

الولاة والقضاة ، ص ٢١٨ ، المقرئى : المخطط ، ج ٢ ، ص ٦١٤ .

(٦) ويبدو أن أحمد بن طولون كان قد سجنه قبل أن يطلق سراحه ويعينه مديرا لدار الصناعة بالجزيرة . يقول البلوى : « حدث أبو كامل شجاع بن أسلم الحاجب قاز : لما أطلقنى أحمد بن طولون الزمنى دار الصناعة » ، وربما كان سبب سجنه هذا أنه كان قريبا لأحمد بن القاسم بن أسلم أحد أعوان العباس بن أحمد بن طولون فى ثورته عليه . سيرة أحمد بن طولون ، ص ٢٠٨ .

ويظهر الدور الهام لمتولى الثغر أو دار الصناعة فى إشرافه الدقيق وواجباته نحو العمال والصناع والتفطين والنواتية ، فلم يقتصر عمله على اختيار هؤلاء وغيرهم من ذوى الصناعات والمهن فى المراكب ممن يتميزون بالفطنة ، والذكاء والحدق والمهارة الفائقة ، بل كان عليه الإشراف على صناعة المراكب ذاتها ، فعليه أن ينظر فى صناعة المراكب - كما يقول قدامه بن جعفر - « نظرا يستكشف به آلاتها من الخشب والحديد والمشاقة والزفت وغيره ، حتى يحكمها ويجيد بناء المراكب وتأليفها وقلقبتها وتركيبها ، ويستجيد التقايف ويجيرها ، وينتقى الصوارى والقلوع ، وينتخبها ويميز النواتية ، ويعتمد من له الحدق والدرية منهم والحنكة والتجربة من جميعهم حتى لا يدخل فيهم من لا يصلح دخوله ، ولا يخلط بهم من يكون غيره أحق بالعمل منه » .

ومهما قيل ان البحرية أو الأسطول المصرى بعد اتمام تجهيزه فى عهد ابن طولون ، لم يلعب دورا ، ولم يزد نشاطا ، لما كانت عليه السيادة فى البحر المتوسط للأغالية (٧) فانه عندما توفى مؤسس الدولة الطولونية عام ٢٧٠ هـ ترك لابنه خماروية أسطولا بلغ مجموع سفنه الكبيرة والصغيرة وكذلك التجارية منها نحو ألف قطعة ، كان منها كما ذكر البلوى نحو مائتى مركب أو قطعة حربية تامة التجهيز بالعدد والسلاح .

ويشير الكندى الى استمرار خماروية فى العناية بالأسطول فى مواجهة أعداء الخلافة ، فكانت القطع البحرية ترابط بسواحل الشام تعزيزا لجيوشه البرية ، الى أن تم الصلح باعتراف الخلافة بولاية خماروية وولده على مصر والشام ثلاثين عاما وذلك فى سنة ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م .

وتبدو أهمية صناعة السفن الحربية والتجارية فى عهد الطولونيين والاختشيديين فى استخدام هذه القطع البحرية فى حصار الثغور وغزو البلاد ، فتشير المصادر التاريخية الى أن محمد بن طغج الاختشيد أقبل على مصر ومعه أسطول بقيادة صاعد بن كلمم ، ودخل هذا الأسطول ثغر دمياط ، وسارت سفنه فى النيل فى شعبان سنة ٣٢٣ هـ بعد أن هزمت

(٧) أقام القائد العباسى موسى بن بغا بالركة نحو عشرة أشهر مترقبا السير الى مصر لكنه ما لبث أن توفى سنة ٢٦٤ هـ ، لكنه من المعروف أن حمله أحمد بن طولون على الشام أتاحت له استخدام أسطوله ، بل أنشأ قاعدة بحرية له فى عكا ، وحسن هذا البناء على يد مهندس من بيت المقدس ، وهو جد المقدسى الجغرافى المعروف ، الكندى : الولاة والفضة ، ص ٢٢٦ - ٢٢٢ .

السفن المصرية ، ووصلت قطع الأسطول الى جزيرة الروضة وتم الاستيلاء على ما فيها من السفن (٨) .

ويذكر ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق أن حصار القائد المغربي حبش ابن أحمد الجزيرة الروضة واحراق ما بها من السفن كان سببا في نقل دار الصناعة بالجزيرة الى موقع آخر لا يفصله عن القسطاط ماء فكان أن حول محمد بن طغج الاخشيد بعد أن تولى شئون الحكم في مصر ، موقع الصناعة الى بستان سمى المختار بساحل القسطاط وأسس له دارا جديدة للصناعة عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٧ م .

ولكن من الواضح أن انشاء هذه الصناعة الكبرى لم يقض تماما على الصناعة في جزيرة الروضة ، إذ استمرت مراكب الأسطول تنشأ في الجزيرة حتى أواخر العصر الفاطمي ، يقول المقرئى : « وكانت مراكب الأسطول مع ذلك تنشأ في الجزيرة وفي دار صناعتها الى أيام الخليفة الأمر بأحكام الله تعالى » وهكذا أصبحت في عهد الاخشيديين تصنع السفن الحربية والتجارية في دار صناعة مصر تارة وفي دار صناعة الجزيرة تارة أخرى .

وقد خلف الاخشيد حين وفاته نحو مائة مركب حربية سوى العشاريات التي بلغت كل مركب منها في القيمة نحو ثلاثة آلاف دينار . والظاهر أن المصريين كانوا يعرفون في العصر الاخشيدى التقليد المتبع في عصرنا الحاضر بشأن الاحتفال بانزال السفن الى البحر حين يتم بناؤها . فقد كتب يحيى بن سعيد الانطاكي أن كافورا « ركب الى دار الصناعة ووقف ليطرح مركبا حربيا كان بهما الى البحر » . وكان على الشط مركب آخر راس فاجتمع الناس فيه وجلسوا على حافته وتزاحموا عليه لينظروا نزول المركب الآخر الى البحر ، فانفلت ذلك المركب الذي كانوا مجتمعين فيه بهم ، ومال عليهم فقتلهم بأجمعهم وغرقت عدة من المراكب اللاصقة له في البحر مملوءة أناسا وهلك جميع من كان فيها ومات من الناس زهاء خمسمائة رجل » .

وتبدو مظاهر تقدم وازدهار صناعة المراكب النيلية في ذلك العهد مما جاء في وصف المسعودى لاحتفال المصريين بليلة عيد الغطاس ، فكان الناس يخرجون مئات الآلاف من المسلمين والنصارى منهم في الزوارق والمراكب ، ومنهم في الدور الدانية من النيل .

(٨) ويذكر ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق أن القائد المغربي حبش بن أحمد في حملته الى مصر سنة ٣٢٣ هـ / ٩٢٥ أسر القائد الأخشيدى صاعد بن كلمم وقتله وذلك في مضيق خليج القيوم ، كما قام برجاله أثناء انسحابه باحراق دار الصناعة بجزيرة الروضة ، يقول ابن سعيد : « وركب الاخشيد فوقف حذاءهم عند دار بنت الفتح وهو لا يقدر عليهم ثم انحدروا الى الاسكندرية » . المغرب ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

ويتجلى نشاط المصريين فى صناعة المراكب النيلية والبحرية فى تلك الحركة الدائبة وضخامة الأعداد من السفن والمراكب التى كانت تغدو وتروح على صفحة النيل الخالد ، وكما ذكر ابن الكندى فى وصف المدن المصرية حيث قال : « وكلها تأتى منها السفن وتحمل الطعام والمتاع والآلات الى القسطنطين وتحمل السفينة الواحدة ما يحملة خمسمائة بعير » .

وليس هناك ما يفوق وصف المقدسى لتلك الأعداد الهائلة من السفن والمراكب كأنها الجبال وهى على ساحل القسطنطين حينما قال : « وكنت يوما أمشى على الساحل وأعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة فقال لى رجل منهم (أى المصريين) من أين أنت قلت من بيت المقدس ، قال : بلد كبير أعلمك يا سيدى أعزك الله أن على هذا الساحل ، وما قد أقلع منه الى البلدان والقري من المراكب ما لو ذهبت الى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال كان ما هنا مدينة » .

ولا غرو فقد كانت السفن ترد الى القسطنطين فى أعداد كبيرة ، وكان ساحلها كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من سائر أنحاء البلاد والأقطار يقول ابن سعيد : « ان ما يرد على القسطنطين من متاجر البحر الاسكندراني (البحر المتوسط) والبحر الحجازى (البحر الأحمر) فوق ما يوصف وأن بها مجمع ذلك . وكانت هناك مراس مخصصة لرسو كل نوع من أنواع السفن بها . منها المراكب المشحونة بالغلال ترسو فى ماردة خاصة من الساحل . وفى ناحية أخرى منه كانت ترسو المراكب المشحونة بالأخشاب المخصصة لبناء السفن وصناعة المراكب ، أو لأشغال التجارة وصناعة الأثاث » .

ومن مراكز صناعة السفن والمراكب النيلية دار الصناعة بتنيس ، وكانت تقع مما يلى الغرب ودار الامارة بالمدينة وبينهما بنيت الحمامات وعرصتان (٩) عظيمتان يرد اليهما ما تحمله المراكب من سائر البلاد القريبة والبعيدة . وقد اشتهرت تنيس فى ذلك العصر بنشاطها الصناعى والتجارى كما اشتهرت بحيرتها (بحيرة المنزلة حاليا) فى شمال الدلتا (١٠) ، يصف

(٩) العرصة : الفضاء الواسع الذى ليس فيه بناء وهو ما يشبه الميناء . المصباح

المنير .

(١٠) يصف القلقشندى بحيرة تنيس وصلتها بدمياط كما ينقل عن صاحب الررض المطار ليقول : « وطمى عليها البحر قبل الفتح الاسلامى بمائة سنة ففرقها ويتصل بهذه البحيرة من جهة الغرب بحيرة دمياط ، وهما فى الحقيقة كالبحيرة الواحدة » صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ .

ابن حوقل نشاط حركة الملاحة بها فيقول : « وفيها مدن مثل الجزائر تطوف البحيرة بها ، ولا طريق الا بالسفن والبلاد المعروفة بها تنيس ودمياط وديبق وشطا وتونه ، وهذه البحيرة قليلة العمق يسار في أكثرها بالمداري ، وتلتقي السفينتان تحك احدهما الأخرى هذه مصعدة ، وهذه نازلة بريح واحدة مملوء شراعها بالريح ومتساوية في سرعة السير » .

ولا شك أن ذلك يدل على مهارة الملاحين وحذق البحارة والنواتية ، حتى أنهم كانوا يقلعون بريح واحدة يريدون القلوع بها ، حتى يذهبوا - كما يقول ياقوت - في جهتين مختلفتين ، فيلقى المركب مختلف السير في مثل لحظ الطرف بريح واحدة .

وقد أمدنا بن بسام بأسماء أنواع السفن والمراكب التي كانت تصنع بتنيس ، وحتى ذلك النوع المسمى بالعصافير والتي كانت تعد خاصة لصيد الطيور في البحيرة ، حيث بلغت مائة وثلاثة عشر مركبا . وذكر من أنواع السفن التجارية والكمائن والعشاريات الصادرة من تواصل السير الى سواحل الشام في كل سنة نحو خمسمائة قارب ومركب . فلا غرابة في نشاط حركة الصناع والتجارين وغيرهم من الحرفيين بصناعة ثغر تنيس ، وقد كان يقطنها كما سبق القول - من أرباب الحرف والصناعات وأهل العلم حتى ذاع صيتها ، وغدت بها ادارة امارة مصر الاسلامية .

ويمكن القول بأن دمياط ورشيد كانتا من المراكز الهامة لصناعة السفن أيضا في العصر الاسلامي ، فقد كان ميناء دمياط همزة الوصل بين نهر النيل والبحر المتوسط ، كما كانت من مراكز التجارة والصناعة الهامة ، وقد حازت من الشهرة ما حظيت به تنيس في صناعة وتجارة المنسوجات والتي طبقت شهرتها الآفاق . أما رشيد فقد كانت من الثغور المصرية القديمة ، ويقال انها كانت تقع الى الشمال من موقعها الحالي الذي نقلت اليه في سنة ٢٥٦ هـ في عهد أحمد بن طولون (١١) . ويصف ابن حوقل مدينة رشيد في عصر الاخشيديين فيقول (١٢) : « انها مدينة

(١١) وذكر ابن ماتي أنها كانت من الثغور المحروسة والموانئ الهامة ، قرانين الدواوين ، ص ٢٢٥ ، سعاد ماهر . محافظات الجمهورية ، ص ١٣٦ .

(١٢) ذكر المقرئ أن أشجار السنط كانت تنمو في البهنسا والأشمونين والاسيوطية وفي اخميم وقوص بالصعيد الأعلى ، حيث كانت الدولة تقيم حراسة على مناطق هذه الأشجار لحمايتها حتى يعمل منها مراكب الأسطول ، الخطط ، ج ٩ ، ص ٢٠٥ ، سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ، ص ١٤٠ ، الطبعة الثالثة .

على النيل قريبة من مصبه فى البحر المالح من فوهة تعرف بالاشتوم وهى المدخل من البحر ، وبها أسواق صالحة وحمامات ونخيل كثير وارتفاع واسع ، ولا شك أن موقعها الهام على النيل وبالقرب من البحر المتوسط يجعل أهلها يعملون فى بناء السفن التجارية والمراكب ، والتي كان خير وسيلة لأعمال النقل والتجارة فى العصور الوسطى .

ولم تكن مدن الصعيد الواقعة على النيل من أسوان وقوص واخميم واسيوط والبهنسا وحتى بلوغ القسقاط ، بأقل حركة أو نشاط فى صناعة المراكب النيلية ، لاسيما وأنها كانت ترفع منها أخشاب السنت احدى المصادر الهامة للخشب الصالح لبناء السفن (١٣) . كذلك شجر اللبخ الذى كان ينمو بأنصتا Antince (١٤) ، وكان من أعلى أصناف الخشب الذى تصنع منه المراكب ، فقد ذكر المقرئى نقلا عن أبى حنيفة الدينورى أن شجر اللبخ كان لا ينبت الا بجهة أنصنا وهو عود تنشر عنه الواح السفن ، وربما أرفع ناشرها ، ويباع اللوح منها بخمسين دينارا أو نحوها ، وإذا شد لوح منها بلوح ، وطرحا فى الماء ستة أيام التاما وصارا لوحا واحدا ، مما يدل على جودته وشهرته فى ذلك الوقت .

وكانت السفن والمراكب التى يمتلكها الأهالى وخاصة القوارب والمراكب النيلية ، فقد ورد فى خطاب خاص بدفع أموال أن أحد التجار عمل على تأجير قارب من صاحبه يدعى صدقه الاسناوى (من مدينة اسنا) ويرجع تاريخ ذلك الخطاب الى القرن الثالث أو الرابع الهجريين . كما تشير وثائق الجنيزة الى امتلاك العديد من الأثرياء والتجار والسفن التجارية .

وقد ورد فى المصادر أيضا أنه كان لليهود نشاط واسع فى التجارة وملكية السفن التجارية فى البحرين المتوسط والأحمر حتى منتصف القرن الرابع الهجرى .

(١٣) أغلب الظن أنها كانت تقع على مسافة من دير القلمون الذى ذكره المقرئى وكان من جملة الأديرة الواقعة بالقرب من الفيوم . الخطط ، ج ٣ ، ص ٥٥٨ .

(١٤) كان شجر اللبخ ينمو بوفرة فى إقليم طيبة فى العصور القديمة ، وكان دائم الخضرة ، وقيل ان زراعته نقلت من أرض فارس الى الشام والى مصر ، وقد نقل عبد اللطيف البغدادى من رواية أبى حنيفة الدينورى فى وصفه ، ثم علق على روايته فقال : « وأكثر ما حكاه الدينورى لا أعرف صحته » .

٣ - ازدهار صناعة السفن وتجهيزها في دور الصناعة الفاطمية

كانت صناعة بناء السفن كصناعة البناء ، من حيث أنها تضم طوائف كثيرة من أهل الحرف والصناعات ، فهي تشمل ، النجارين والنجارين والمقلفطين والحدادين وغيرهم من النفاطين والنواتية والقذافين وخاصة في تجارة السفن البحرية والحربية منها . وقد عني الخليفة المعز لدين الله منذ قدومه الى مصر سنة ٣٦٢ هـ عناية كبيرة بانشاء الاساطيل واعداد القوات البحرية ، ويذكر المقرئى نقلا عن ابن أبى طى أن المعز أنشأ دار الصناعة بالمقس (١) ، وبني فيها ستمائة مركب ، ولكن المسيحي ينسب فضل انشاء دار الصناعة هذه الى الخليفة العزيز بالله . أما الرقم الذي ذكره ابن أبى طى فعليه مسحة من المبالغة الشديدة ، كما أننا نرجع رواية المسيحي المؤرخ المعاصر ، فهي أقرب الى الصدق والدقة . ومما يجعلنا نميل الى الأخذ برواية المسيحي هذه أن المعز لم يلبث أن توفي عام ٣٦٥ هـ وأخذت الحالة السياسية بين مصر والدولة البيزنطية فى التوتر ، مما أدى الى استعداد العزيز بالله للخروج بنفسه الى الشام ، وتكليف وزيره عيسى ابن نسطورس بسرعة العمل على تجهيز الأسطول الذى جاء فى وصفه على حد قول المسيحي أنه لم ير مثله رشاقة وحسنا ، كما أكد أنه لم ير مثل قطع الأسطول الفاطمى فى البحر على لى سيناء .

(١) المقس : ضيعة تعرف باسم أم دلين وتقع على ساحل النيل ، وقد خصصها المعز لدين الله لتكون مرفأ صناعيا ، وقد عرفت فى أول الامر باسم المكس نسبة للدراهم التى كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق . كما أنشأ الحاكم بأمر الله جامع المقس . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ .

وقد ذكر المسيحي في حوادث سنة ٣٨٦ هـ أنه شب حريق أحرقت فيه خمس عشاريات وأتى على العدد والسلاح ، ولم يبق سوى ستة مراكب ، واتهم العامة الروم المعتمرين بالقرب من دار الصناعة بتدبير الحريق وهاجموهم ونهبوا دورهم وقتلوا منهم نحو مائة رجل .

ويصور المسيحي مبلغ اهتمام الوزير عيسى بن نسطورس بإنشاء أسطول جديد يقوم مقام الأسطول الذي كان معدا لوقف تقدم البيزنطيين بالشام واحترق ، فيقول : « وأمر عيسى بن نسطورس أن يمد للوقت عشرين مركبا ، وطرح الخشب ، وطلب الصناع ، وبات في الصناعة وجد الصناع في العمل » وقد أصدرت الحكومة الفاطمية الأوامر بقطع الأخشاب من مختلف جهات القطر .

ومن الجدير بالذكر أن خشب بناء السفن ، كان يجلب في ذلك الوقت من بلاد الشام ، ومن مناطق الغابات في كثير من جهات صعيد مصر ، كما كان يستورد الخشب الذي يتميز بصلابته من أوروبا عن طريق البنادقة . وكثيرا ما تدخل الأباطرة البيزنطيون لمنع المدن الإيطالية من تزويد مصر بما تحتاجه من الخشب .

وقد تعرضت جمهورية البندقية إلى تهديدات الإمبراطور البيزنطي بالانتقام منها إذا لم تمتنع عن مد مصر وغيرها من البلاد الإسلامية بالخشب اللازم لبناء السفن فأصدرت حكومة البندقية أمرا بمنع تصدير هذا النوع من الخشب وسمحت بإمدادها بالخشب الذي لا يصلح لإنشاء السفن (٢) ، وشرطت أن يكون من اللبخ والسنديان على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف قدم ، كما أذنت أيضا أن يباع للمسلمين الأدوات المصنوعة من الخشب .

كانت أهم مراكز إنشاء السفن بمصر والاسكندرية ودمياط ، ولكل واحد منها مستخدمون يستدعون ما يحتاج إليه . ومن الذين أسندت لهم مهمة الإشراف على دار الصناعة بمصر كان الشريف أبو طالب العمى (٣) .

(٢) لم تحرص حكومة البندقية على التقيد بهذه السياسة التي تؤدي إلى التضحية بمصالحها في سبيل إرضاء أباطرة الدولة البيزنطية ، فعملت على تنمية العلاقات التجارية مع المسلمين ، ومن ثم أرسلت بعثات إلى بلاد الدولة الإسلامية سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ ، حصلت على امتيازات لسفنها ، وكانت سفن البندقية التي تصل إلى مصر تنقل منتجات أسيا إلى أسواق أوروبا .

Heyd : Histoire du commerce de levant au moyen age, tome, I, p. 114.

(٣) ذكر المسيحي أن الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله احتاج مرة إلى عشرة آلاف دينار فطلبها من متولى دار الصناعة الذي أجابه إلى دفع خمسة آلاف دينار منها . أخبار مصر ، ص ٢٠٧ .

ويبدو أن صناعة مصر التي أنشأها الاخشيدي بساحل الفسطاط قد أهملت منذ انشاء دار الصناعة بالمقس في بداية العصر الفاطمي ، واستمرت كذلك فراكب الأسطول تنشأ في صناعة الجزيرة وبالمقس الى أن ولي الوزير المأمون بن البطائح الذي أنكر ذلك ، وأمر أن يكون انشاء الشواني (٤) والمراكب النيلية الديوانية بصناعة مصر القديمة هذه ، وأضاف إليها دار الزبيب كما أنشأ بها منظره لجلوس الخليفة في الاحتفالات الخاصة بعرض القطع البحرية .

وأضاف المقرئ أن الوزير المأمون أقر انشاء الحزيبات والشلنديات بصناعة الجزيرة (٥) ، كما كان فيها محل ديوان الجهاد ، مما يدل على أن كل من الدور الثلاثة بالجزيرة أو بساحل الفسطاط والمقس كانت تعمل في بناء السفن بأنواعها المختلفة الحربية والتجارية والنيلية أيضا .

وكان ديوان الجهاد أو ديوان العمائر يشرف على أعمال بناء السفن و تجهيزها ودفع رواتب الصناع والبحارة من العاملين في دور الصناعة ورجال الأسطول . كما كان يستولى من أخشاب الخراج على حاجة الأسطول والسفن التجارية ، ويبيع الباقي لتجار الأخشاب وغيرهم من التجارين وصناع أدوات الأثاث . كذلك كانت الحكومة الفاطمية تعمل على صناعة السفن التجارية وتبيعها للتجار وغيرهم من المصريين .

وهكذا كانت الحكومة تعمل على احتكار الأخشاب التي كانت تحصل عليها من أشجار السنط التي لا تحصى كثرة في البهنساوية والأشمونين والاسيوطية والابخيمية والقوصية ، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد مائة دينار . ولا يقطع من أشجارها الا ما تدعو الحاجة اليه ، كما عملت على احتكار صناعة السفن التجارية .

وقد عملت الدولة على توفير المواد اللازمة لبناء السفن الحربية والتجارية من الأخشاب والحديد وآلات الأساطيل من العنتب والكتان

(٤) وردت في قوانين الدواوين باسم الشيني ، وهي أقدم أنواع السفن ، وكانت أهم القطع التي يتألف منها الأسطول الروماني ، ووردت في التاج للزبيدي الشونة المركب الذي تجهز في البحر والجمع الشواني . وكانت من أكبر السفن وأكثرها استعمالا لحمل البضائع للجهاد ، وكانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم . وكان متوسط ما يحمله من البضائع الواحد ١٥٠ رجلا ويجدف بمائة مجداف . ابن مماتي : ص ٣٤٠ .

(٥) الشلنديات جمع شلندي وهي مركب حربي كبير مسطح كان مخصصا لنقل البضائع والأسلحة ويذكر ابن مماتي : « هو مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره » قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

والمنجنقات ، والتي كان معظمها يتم استيراده من خارج البلاد ، وكذلك العديد من الصناعات الأوروبية وغيرهم من أهل كل صناعة من الصنائع .

وقد أمدنا ابن ممتى بأسماء وأنواع السفن التي كانت تنشأ بدور الصناعة برسم الأسطول ، وما كان يقرره ديوان العماير ، حيث قال : « وأسماء مراكبه (يعنى الأسطول) طريدة وحماله وشينى ومسطح ، حراقة ، مركوشى ، شلندى ، أعزازى (أعوادى) ، ويشير الى خصائص وفوائد كل منها فهي أكثر من أن تحصر (٦) ، فأما الطريدة فإنها برسم حمل الخيل ، وأكثر ما يحصل فيها أربعون فرسا ، وأما الحماله فيحمل فيها الغلة ، وأما الشلندى فإنه مركز مسقف تقاتل الغزاة على ظهره (٧) ، وجدافون يجذفون تحتهم ، كما يذكر المسطح (٨) والشينى ويسمى الغراب أيضا والحراقة (٩) ، والأعزازى أو الأعوادى من توابعه تحمل فيها الأزواد والمركوش مركب لطيف لنقل الماء ويكون وسعه دون مائة أردب ، وقد ذكر

(٦) من بين هذه السفن ما كان يخص الأسطول ، وما يخص خدمة الخليفة الفاطمى فى ركوبه وتنزهاته النيلية ، فقد ذكر ناصر خسرو أنه كان للسلطان (يعنى الخليفة) (المنصور) احدى وعشرون سفينة ، وأنه قد عمل لها حوض خاص قرب القصر الفاطمى .
سفرنامه ، ص ٥٥ .

(٧) ويصف المقرئى حركة الملاحة فى النيل والسفن الحربية فيقول : « ولا ننس الجوارى والمنشآت فى البحر كالأعلام التى تسبق عند طياتها الرياح مفرقات السهام وأعجابها بفربانها البحرية وحراقاتها الحربية وشوانيتها وهول مبانيها وجلال شكلها وجمال معانيها تبدو موشاة بالفضار الأحمر منقشة باللون الأفخر فهي كالأرقم المنير معبرة ببأس الحديد والأحجار محمولة على سطح الماء التيار منصورة عند القتال مصونة بالمن والنبال » الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

(٨) المسطح جمعها مسطحات وهو نوع من المراكب الكبيرة الحجم يشبه البطة تانوا يجرونها فى البحار وقت الحرب خلف المراكب الأخرى من مراكب الأسطول خشية أن تفرق بالقاتلين عليها ، وهى من أكبر السفن فى الأسطول الإسلامى .

سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ، ص ٣٦٨ .

(٩) وتجمع الحراقة على حراقات وحرايق ، وهى نوع كان ينشأ من السفن الحربية التى ترمى بالنيران ، استعملها المسلمون فى العصور الوسطى وذكر المقرئى أن الحراقات هذه كانت تستعمل أيضا فى البحر الأحمر ، حين قال فى حوادث سنة ٥١٢هـ أن الأفضل كتب الى والى قوص بأن يسير بنفسه أو من يقوم مقامه الى عيذاب ، وأن يتشون ما يدخل عيذاب من الشوانى والحرايق ، فمهما كان يحتاج الى اصلاح ومرمه ينبجز الأمر فيه ، وتقدم الى المستخدمين بصناعة مصر بتقديم خمسة حرايق وتكملها الى الحجاز . وكان قد ورد من التجار من عيذاب أنه خرج عليهم مراكب شنها قاسم بن أبى هاشم صاحب مكة . اتعاظ الخفا ج ٣ ، ص ٥٨ ، تحقيق المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ابن ممتى أن هذه الأنواع من السفن الحربية جميعها كانت تصنع فى دور الصناعة بكل من مصر والاسكندرية ودمياط .

ومن أنواع المراكب التى شاع استخدامها فى العصر الفاطمى وكانت دور الصناعة تقوم ببنائها ، الدكاسات وهى نوع من المراكب كانت مخصصة لكبار رجال الدولة نقل المقرضى عن ابن الطوير حديثا عن صاحب الطراز وحقوقه وواجباته جاء فيه « وله ثلاث مراكب من الدكاسات » ولها رؤساء ونواتية لا يبرحون ونفقاتهم جارية من مال الديوان . ونذكر أيضا العشاريات والديماسات التى ذاعت شهرتها وكان الخلفاء الفاطميون يستخدمونها أثناء تنزههم على صفحة النيل ، ويصف عبد اللطيف البغدادي النوع المسمى بالعشارى وصفا مسهبا جاء فيه « أما سفنهم فكثيرة الأصناف والأشكال وأغرب ما رأيت فيها مركب يسمونه العشارى ، شكله شكل شباره داخله ، إلا أنه أوسع منها بكثير وأطول وأحسن هنداما وشكلا ، قد سطح بالواح من خشب تخينة محكمة وأخرج منها أفاريز كالرواشن (١٠) نحو ذراعين وبنى فوق هذا المسطح بيت من خشب وعقد عليه قبة ، وفتح له طاقات وروازن (١١) بأبواب فى البحر من سائر جهاته (١٢) ، ثم تعمل فى هذا البيت خزانة مفردة ومرحاض . ثم يزورق بأصناف الأصباغ ويذهب ويدهن بأحسن دهان » . ولا شك أن هذا الوصف يدل على مبلغ مهارة الصناع الذين كانوا يقومون بهذه الصناعة المحكمة البديعة .

أما الديماس فكان منها ما يعمل خاصا برسم الخليفة فى عهد الدولة الفاطمية يخرج بها أيام الاحتفالات بيوم فتح الخليج وغيره ، وكان من الدواميس ما هو برسم ولاية الأعمال وللمشارفين بالأقاليم المصرية المختلفة (١٣) . كما كانت تصنع فى دار الصناعة بمصر والجزيرة من

(١٠) الرواشن : مفردا روشن وهى كلمة فارسية ومعناها ما تلتأ أو برز عن الحائط .
سعد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ، ص ٢٥٦ .

(١١) الروازن : مفردا روزنة وهى الكسوة مربعة .

(١٢) ذكر ابن المأمون ما كان يعمل يوم الاحتفال بفتح الخليج ، أنه تم ترتيب موكب الخليفة الفاطمى حيث قدم العشارى بالخليفة الأمر بأحكام الله والوزير المأمون الى الصناعة بمصر ورميت العشاريات بين أيديهما ، ثم عدنا فى أحدهما الى المقياس وصلينا هناك .
المقرضى : المخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(١٣) وذكر المقرضى أن الدواميس كانت برسم ولاية الأعمال المميزة ، فهى تجر لهم ، وتقيم مع أحدهم مدة مقامه ، فإذا صرف عاد فيه ، وخرج المتولى الجديد فى العشارى المرسى بالصناعة . المخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .

نوع المراكب الشباييك والشخاتير (١٤) والزوارق ، والسميرات (١٥) ، والقراير ، والتي كانت تستخدم فى الاحتفالات والأعياد الفاطمية ، كما تستخدم فى نقل الجنود والمؤن وغير ذلك من الأغراض الحربية .

وكانت هناك رسوم وتقاليد عند تجهيز الأسطول وإقلاعه للغزو ، فكانوا اذا تم الاستعداد ، ركب الخليفة والوزير الى منظره المقس ، فاذا ما وصلت السفن الحربية من دار الصناعة (الترسانة) قامت بعض المناورات ، ويتقدم المقدم بعدها والرئيس الى حضرة الخليفة حيث يوصيهما ، ويدعو لهما بالنصر والسلام ، ويعطى المقدم مائة دينار والرئيس عشرين دينار . وبعد انتهاء الاحتفالات تنحدر السفن فى فرع النيل الشرقى نحو دمياط ومنها تخرج الى البحر المتوسط .

ولم يزل الأسطول يعد فى جزيرة الروضة تارة وبالمقس تارة أخرى ويصير الاحتفال بتجهيزه واعداده للغزو وفقا للتقاليد الجارية حتى أواخر أيام الفاطميين ، حين أمر الوزير شاور بإحراق قطع الأسطول بعد أن استولى الصليبيون على بلبيس ، واستعدوا للزحف على العاصمة المصرية ، فأمر بإحراق القسطنطين ومراكب الأسطول .

ولم يقتصر الأمر على الأسطول الحربى ، بل نشطت صناعة المراكب لأغراض النقل والتجارة نتيجة للتوسع التجارى الذى شاهده البلاد فى عصر الفاطميين ، فكانت السفن تقلع الى موانئ شمال افريقيا وجنوب أوروبا وجزيرة صقلية والشام وتعود محملة بالسلع اللازمة كما كانت السفن تملأ سطح النيل محملة بالغلال الى القسطنطين والمتاجر من أسوان وقوص بعد وصول قوافل عيذاب اليها . وقد دهش ناصر خسرو من آلاف السفن التى رآها فى كل من تنيس وساحل مصر .

ومن الجدير بالذكر أن صناعة السفن وخاصة منها الزوارق والمراكب النيلية لم تقتصر على دور الصناعة الحكومية ، بل كانت هناك مراكز عديدة بطبيعة الحال لعمل المراكب وغيرها من القوارب والزوارق بمعرفة الأهالى لاسيما فى المدن والثغور المصرية . نذكر منها مدينة الصالحية ، حيث

(١٤) وهى من المراكب النيلية ، والشخاتير واحدها شختور ، وهى برسم تعدية الناس من الشط الى الآخر فى ابان زيادة النيل من مصر الى الجيزة . درويش النخيل : السفر الاسلامى على حروف المعجم ، ص ٧٤ .

(١٥) كانت احدى القطع النهرية المعروفة فى العصر الفاطمى ، وكانت تنقل بها الجنود والمؤن وتقام لحراسة أخواه الأنهار ، كما تستعمل لنقل التجارة . عطيه مشرفة : بنم الحكم بصر ، ص ١٨٤ .

كانت تصنع بها سفن كبيرة حمولة كل منها مائتا خروار . ومن الثغور الهامة والمراكز التي أشار إليها ابن مياتي مدينة رشيد (١٦) ، ولا شك أن صناعة المراكب بها خلال العصر الفاطمي كانت رائجة .

وكما ذكر ابن بسام أنه كان يوجد بثمر تنيس دارا صناعة وامارة ، لا شك أنها كانت محل العناية والرعاية من جانب الحكومة الفاطمية (١٧) ، فان أهلها الذين اشتهروا بالعديد من الحرف والصناعات ، كانوا يعملون في صناعة القوارب والمراكب لحسابهم ، ولا سيما تلك الأنواع المختلفة التي ذكرها ابن بسام المخصصة لصيد الطيور والأسماك ، فضلا عن الأغراض التجارية الأخرى .

ومن مراكز التجارة الداخلية مدينة دمياط التي تميزت عن غيرها من المدن بازدهار التجارة والصناعة فيها ، وليس من شك في أن صناعة السفن التجارية وغيرها من المراكب النيلية قد ازدهرت بها ، ولم تقتصر على دار الصناعة الحكومية ، وانما كان أهلها يشتغلون بهذه الصناعة الهامة ، لاسيما وأنها أصبحت الميناء المصرى الوحيد في الجزء الشرقى من البحر المتوسط .

كذلك كانت مدينة قوص من مراكز التجارة الداخلية ، فقد ضمت الأسواق الكبيرة لوقوعها عند نهاية طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل ، ولابد أن أهلها كانت لهم علاقة كبيرة بملكية السفن والاهتمام بصناعتها ، لاسيما وأن منطقة قوص كانت ضمن مناطق الخراج وخشب السنت التي ذكرها المقرئى من جهات صعيد مصر . وقد أقام حجاج مصر والمغرب أكثر من مائتى سنة لا يذهبون الى مكة لأداء فريضة الحج الا من صحراء عيذاب ، فكانوا يركبون السفن من ساحل مدينة مصر حتى مدينة قوص ، ثم يركبون الابل من قوص أو من أسوان ثم يعبرون هذه الصحراء الى عيذاب .

(١٦) ويذكر ابن مياتي أنها أصبحت من الموانى الهامة والثغور المحروسة في العصر الأيوبي . قوانين الدواوين ، ص ٢٢٥ .

(١٧) كان لتنيس في العصور الوسطى شأن خطير من الناحيتين الحربية والصناعية . فقد كان الروم يغيرون عليها بأساطيلهم كلما فكروا في غزو مصر ، ولهذا كان بها دار صناعة واسطول مقيم ، وكان بها حصون وقلاع قوية ، وقد ذكر ابن بسام أن الفاطميين جعلوا فوق كل مسجد من مساجدها (وكان بها ١٦٠ مسجدا) منارة يرصدون منها سفن العدو ، اذا قدم للغزو ومداهمة الاسطول الفاطمي . نفس المصدر ، ص ١٨٤ . انقريزى : اتعاظ الخنفا ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، حاشية .

وكان من أهم الموانئ التجارية على البحر الأحمر فى العصر الفاطمى القلزم وعيذاب ، وكان للفاطميين أسطول فى عيذاب ليحمى المراكب المصرية من مراكب القرصنة ببحر القلزم (١٨) ، وتشير المصادر التاريخية الى أن أهل البجة ظلوا يصنعون الجلاب فى العصر الفاطمى بعيذاب ، التى أخذت تجذب المتاجر والحجاج بكثرة فى القرن الخامس الهجرى . وقد أثنى ابن جبير فى بيان عظمة هذا الثغر اذ قال : « وعيذاب من أحفل ممراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها رائداً الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة » .

كانت الجلاب التى يصنعها أهل البجة وسفن البحر الأحمر تختلف عن سفن البحر المتوسط (١٩) ، ليس فقط فى نوع الأخشاب وكيفية تثبيت الألواح ، بل تعداه الى عملية الجلطة ، فبينما كانت سفن البحر المتوسط تقلط بالقار ، نجد أن سفن البحر الأحمر كانت تقلط كما كما يذكر ابن جبير بالدر (٢٠) من عيدان النخل ، ثم تسقى بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أضمنها ، ومقصد صنع الجلاب من دهان الجلبة أن يلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة فى قاع البحر الأحمر .

وكانت هياكل السفن الحربية والتجارية فى البحر المتوسط تصنع من خشب الصنوبر أو خشب البلوط ثم تغطى عادة بطبقة من خشب الزان فضلاً عن استخدام المسامير الحديدية فى بنائها وتجهيزها فى دور الصناعة سواء بجزيرة الروضة أو فى المقس وفى غيرها بالاسكندرية ورشيد ودمياط من الثغور المصرية .

ومن الأخشاب الهامة كذلك فى بناء السفن المصرية كان خشب

(١٨) يقول القلقشندى : وكان لهم أيضاً أسطول بعيذاب يتلقى بالكازم. فيما بين عيذاب وسواكن ، وما حولها خوفاً على مراكب الكازم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب فيحرقونهم الأسطول منهم » . صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٥٢٤ .

(١٩) ذكر ابن بطوطة أن أهل البجاه كانوا يصنعون الحبال التى يخيطنون بها المراكب أو الجلاب عوضاً من مسامير الحديد ، من شجر جوز الهند ومن اليافه التى تشبه الشعر . مهذب رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٨٧ ، ص ٢٠٦ .

وقد علل المسعودى أسباب اتخاذ ليف التارجيل أو ليف شجر جوز الهند بأن مياه البحر الأحمر كانت تعمل على ضعف المسامير ورقتها حيث تذيب الحديد فاتخذ أهل الحياطة أو صناع المراكب الحياطة بالليف بدلا منها « مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٦٣ » .

(٢٠) الدر : هى المسامير التى تشد بها الألواح . وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » . سورة القمر : الآية ١٣ .

السفن كما تميزت مصر فانها كانت تنبت نوعا من الكتان تصلح اليافه
صلاحية تامة لعمل الحبال وأدوات السفن الأخرى (٢١) :

أما الشراع فكان المصريون يعملونه من التيل المكون من خلط من
الياف البردى والياف الكتان التي تكثر زراعته في مصر ، وكانت شرع
السفن التي تسير في البحر الأحمر والمحيط الهندي تنسج من أوراق جوز
الهند أو سعف النخيل أو تصنع من نسيج الأشرعة القطنى .
وأشار التيفاشى الى كيفية طلاء السفن وزخرفتها واهتمام الصناع
الذين كانوا يقومون بأعمال القلفطة وتجهيزات السفن ، وقد ذكر
أنهم كانوا يستخدمون حجر الطلق فى طلائها حتى لا تفعل فيها النار شيئا
من التأثير أو الاحراق .

وكان هذا النوع من الأحجار تحصل عليه مصر من جزيرة قبرص
وجاهات أخرى . كما استخدم فى طلاء جدران البيوت كذلك لجودته وثبات
الوانه (٢٢) .

وقد لعبت الزخارف دورا هاما فى صناعة السفن لما كانت لها من
قيمة كبيرة فى نفوس الحكام من الخلفاء والوزراء ورجال الدولة فى العصر
الفاطمى ، كما فى نفوس البحارة (٢٣) . وكانت أكثر السفن زخرفة هى
سفن الخلفاء والملوك والأمراء وكبار القواد والتجار كما أوضح الرحالة
عبد اللطيف البغدادى والمقرئى وغيرهما فى وصفهما لهذه السفن التى
كانت تصنع خصيصا لهم (٢٤) .

ولا غرو فقد كان هؤلاء الأمراء وكبار رجال الدولة يمتلكون هذه
السفن التجارية وغيرها ، كما ورد فى سجلات الجنيزة أن السفن كانت

(٢١) ذكر ابن الفقيه أنه كان من عجائب مصر نوع الكتان اسمه (الدقس) ، كانت
تصنع منه حبال السفن ، وكانت تسمى القرقس ، مختصر كتاب البلدان ، ج ٥ ، ص ٦٦ .
(٢٢) ويصف التيفاشى طريقة عمل الطلاء من حجر الطلق فيقول : « خذ رطلا من الطلق
المحلول بالماء المذكورة مثله شب ومثله صمغ ، زمن المقره وطين ثم اطل به السفن فانه
جيد مجرب » . ازهار الأفكار ، ص ٢٠٦ .

(٢٣) كانت السفن المزينة تحتوى على زخارف تعبّر روائع فنية أهاجت قريحة
الشعراء فافاضوا فى وصفها .

(٢٤) يصف المقرئى زخارف الجوارى المنشآت فى البحر والأعلام ويعنى السفن المصرية
فيقول : « وجلال شكلها وجمال مبانيها تبدو موشاة بالنضار الأحمر تنقشه باللون الأصفر
فهى كالأرقم المنمر ، أو كمتلوزة النمر ، أو الطاووس الذكر ، أو النابوس البنى الأصفر »
المخطوط ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

ملكاً للأفراد ، فهناك سفن كان يملكها الخليفة الفاطمي في البحر الأحمر
وأخرى كانت ملكيتها لكبار رجال الدولة ، وقد تسمت باسم الوظائف
التي كان يتقلدها بعضهم مثل مركب القائد ، ومركب الحاجب أو الوزير
وغيرهما من أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف .

ومن الأسماء الشهيرة التي كان لها شأن خطير في العصر الفاطمي
« ناصر الدين بن حمدان » (٤٥٤ - ٤٦٦ هـ) (٢٥) وكانت له سفن
كثيرة وله مصالح تجارية كبرى ، وكذلك أخوه فخر العرب ، ولما كان
بعض القضاة يمتلكون سفناً خاصة بهم ، ويذكر المقرئ أن أحد الكتاب
البارزين المسمى بالراغب في عهد الخليفة الأمر بأحكام الله (٢٦) ، أنشأ
له جلبة بعيداب يقال لها اللامعية لحمل الحجاج إلى جده على ساحل البحر
الأحمر ، وهكذا شجع الوزراء والقواد والكتاب الفاطميين على تطوير صناعة
السفن ، بفضل حرصهم أو رغبتهم في امتلاكها ، والعمل على استغلالها في
تحقيق أطماعهم الاقتصادية ، كما عمل التجار وغيرهم من المصريين على حوزة
السفن ، حتى أنه أصبح لكل تاجر سفنه التجارية المستقلة (٢٧) .

(٢٥) كان يتولى قيادة الجند الأتراك في أوائل عهد المستنصر ناصر الدولة المسحج
ابن حمدان التتلي . وقد بلغ شأنه في الثورة على الخليفة أن بعث إلى ألب أرسلان سلطان
السلجقة بالعراق رسولا من قبله يسأله أن يرسل إليه عسكريا ليقيم الدعوة العباسية على
أن تؤول إليه السيادة على مصر . كما كان له في أحداث سنوات الشدة العظمى أخبار
ومواقف هامة . ابن ميمر : تاريخ مصر ص ١٩ - ٢٠ .

(٢٦) قدم هذا الراغب من جهة أشمون إلى القاهرة وأكمل بخدمته الديوان ، فلما
قتل الوزير المأمون استغل أمره حتى هم الهلاء وشكوا منه الرؤساء والقضاة والكتاب .
المقرئ : انماط الخط ، ج ٢ ، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٢٧) تشير وثائق الجنيزة كما يذكر جواتي إلى أن ملكية السفن كانت عموماً للأفراد ،
ويقول : ولقد علمنا أن من بين كل خمسين سفينة كانت هناك واحدة من الذين ذكروا في
سجلات الجنيزة يمتلكها شركاء . - دراسات في التاريخ الإسلامي ، ص ١٨١ .

٤ - حرفة النجارة وصناعة الأثاث في عصر الولاة :

اشتهرت مصر منذ العصر البيزنطي بحرفة النجارة (١) ، وما تطلبته صناعة البناء والعمارة وقطع الأثاث ومستلزمات الحياة من آلات ومعدات أخرى . ويذكر ابن هشام أن العرب في مكة قبل الاسلام قد استعانوا في بناء سقف الكعبة الشريفة بأحد النجارين من المصريين الأقباط . كما عثر على عدد من عقود بين اثنين من النجارين في مدينة أنطونيوبوليس (الشيخ عبادة) لافتتاح ورشة . ونصت العقود على أن الربح والخسارة مناصفة ، ويرجع ذلك الى العصر البيزنطي وقبل الفتح العربى للبلاد .

وعلى الرغم من خلو البلاد من الأشجار الكبيرة التى تعد المصدر الطبيعى للأخشاب الجيدة التى تصلح لعمل قطع الأثاث من المقاعد والأسرة وغيرها ، إلا أن الصناع المصريين قبل الفتح العربى ، تمكنوا من الحصول على خشب الأرز من بنوريا ولبنان ، وأخشاب الزينة من بلاد الشرق الأقصى ، كخشب الساج من الهند والأبنوس من السودان ، وكذلك خشب

(١) مهر المصريون فى صناعة الخشب منذ العصور القديمة ، وغير شاهد على ذلك منال شيخ البلد المصنوع من الخشب والموجود حالياً بالمتحف المصرى . وقد عثر على آلات النجارة ، القواديم والبطل والإزميل والمنشير وآلات النجارة مثل تلك التى عثر عليها العلاء الاثرى أمرى قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة (١٩٣٩م) وهى عبارة عن سبعة مناشير نجاسية فى مقبرة ترجع الى الأسرة الأولى وهى أقدم وأكبر مناشير معروفة حتى الآن

محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ، من ١٣ ، نشر مجلة جمعية الآثار القبطية عام ١٩٣٧ .

البلوط والزبان (٢) ، وكما عبر الفريد لوكاس عن مهارة النجارين وصناعة الأثاث وخبرتهم بفن النجارة حيث قال : « فإذا لم تكن هناك معرفة سابقة بفن النجارة فمن الصعب أن نفهم لماذا كان هناك أى طلب على هذه الأنواع من الأخشاب والعمل على استيرادها من الخارج » .

ولا غرو أن رأينا فن المحقر فى الخشب وزخرفة قطع الأثاث وفن التطعيم بالعاج والأبنوس (٣) . تزدهر فى مصر بعد أن صارت فى أيدي العرب المسلمين الذين كانوا من الحكمة حينما تركوا هذه الصناعة فى أيدي الصنائع والتجارين الأقباط وقد وصلت إلينا قطع كثيرة من الخشب ذى الزخارف مستعملة فى الأبنية وفى قطع الأثاث . وفيها ظهرت الأساليب القبطية مع تطورها التدريجى لتتخذ لنفسها مسحة إسلامية .

وفى الواقع فإن المسلمين لم يستعملوا الخشب بكثرة فى فجر الإسلام سواء فى منازلهم ، أم فى مساجدهم وعمائرهم ، إذ لم يكونوا فى حاجة الى نوع من الأثاث الفاخر ، أو غير ذلك من أثاث الكنائس ، فلم يستعملوا الخشب إلا فى السقوف والأبواب والدكك والمناير ، والتى لم تتطلب إلا أعمال النجارة البسيطة (٤) .

وكان أقدم منبر خشبي هو الذى صيغته المعلم بقطر النجار فى مصر لجامع عمرو بن العاص ، ويرجع تاريخه الى حوالى سنة ٣٠ هـ / ٦٥٠ م (٥) .

(٢) كان خشب البلوط يوجد كثيرا فى أوروبا وفى آسيا الصغرى . وينمو على حبال لبنان . وهذا الخشب صلد جامد مرص . وقد ترجم بريستد النصوص المصرية القديمة وأسماء الأخشاب التى استخدمها المصريون القدماء وبقيت مجموعة مكونة من اثنى عشر نوعا من الخشب لم يتم ترجمتها من مجموع أسماء الأخشاب وعددها نحو أربعة وعشرين نوعا . كما أوضح الفريد لوكاس فى جداوله التى أعدها أنواع الأخشاب المستخدمة فى المبانى الخشبية منذ العصور القديمة . المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٦٩٤ - ٦٩٦ .

(٣) قامت زخرفة الأثاث قبل الفتح العربى على التلوين ... Painting وعلى الحفر العميق ، Deep Cut وعلى التطعيم بالعاج والأبنوس ، محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الإسلامية فى مصر قبل الفاطميين ، ص ٨٨ .

(٤) زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(٥) قيل إن ملك النوبة هو الذى أهدى المنبر الى عبد الله بن سعد ، وبعد معيجه نجاره ، كما قيل أن الذى صنع المنبر الخشبي لمسجد الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة نان قبطيا يسمى بأخوم أو بأقول ، وأنه صنعه من درجتين ثم مقعد يجلس عليه الرسول . وكما ذكر ابن رسته فإن ارتفاع منبر رسول الله كان ثلاثة أذرع ونصف من الخشب وأنه تم صيغته فى عهد الدولة الأموية . الأعلام النفيسة ، ص ٧٦ ، المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ١١٢ ، حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناع ، ص ٥٤٤ ، حسنى مؤنس : المساجد ، ص ٨٣ .

لكنه مما يذكر أنه لم يعرف أقدم من منبر قره بن شريك بعد منبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى أى بلد من البلاد التى تم فتحها على يد المسلمين . ويؤيد الكندى هذه الرواية واستمر منبر قره بجامع عمرو حتى أزيل على يد الوزير يعقوب بن كلس فى أيام العزيز بالله الفاطمى ، وجعل مكانه منبرا منهيبا ، واستمر بالجامع حتى نقل الى الاسكندرية .

ولا شك أن انتشار المنابر فى قرى مصر فى عصر الولاة كان له اثر كبير فى رواج صناعة الأخشاب وحرفة التجارة ، وقد ذكر الكندى أن الوالى عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير أمر باتخاذ المنابر فى جميع الأقاليم ، ولم تأت سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م الا وكانت جميع الأقاليم بها منابر ، وفى ذلك يقول الكندى : « وأن عبد الملك أمر باتخاذ الناس المنابر فى الكور ولم تكن قبله » ، وقد ظلت المنابر الخشبية فى المساجد جزءا من أثاث المسجد المنقول ، ولم تدخل فى بنيته الا فى بعض المساجد فى العصور المتأخرة .

والواقع أن أعمال التجارة فى المساجد لم تقتصر فى عصر الولاة على صناعة المنابر ، فإن الصناع كانت لهم مهارتهم فى عمل القلع والأفاريز الخشبية مثل تلك التى وجدت فى جامع عمرو فوق تيجان الأعمدة ، وترجع الى أيام عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل الخليفة العباسى المأمون ، وكان قد أمر بتوسيع الجامع والعمل على زخرفته .

ولا شك أن الولاة قد لعبوا دورا هاما فى نشاط حركة العمارة وأعمال التجارة فى القسطنطينية العاصمة المصرية ، وفى حلوان حيث أمر الوالى عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٥ هـ) بإقامة القناطر وبناء القصور والبساتين بها ، فقد تطلبت تلك الدور الفخمة والقيساريات والقناطر وعمل الأسواق فى حلوان بعد أن اتخذها مقرا لامارته (٦) وبالإضافة الى تلك الدار الضخمة التى سميت بالدار المذهبة وكانت تطل على النيل عمل الكثير من أهل أرباب الحرف والصنائع ، ولا سيما النجارين وأمثالهم من الصناع .

ولم تكن حرفة التجارة فى عصر الولاة قاصرة على هؤلاء النجارين أو الخراطين بل شملت كذلك الحفارين على الخشب والدهانين والمطعمين والمرصعين وصانعى الزرنشان ، ولا ريب أن فروع التجارة انما ترقى وتزدهر حينما يكثر العمران وتعظم الحضارة كما يقول ابن خلدون ، حيث

(٦) وذكر الكندى أنه لما ولع الطاعون بمصر فى سنة ٧٠ هـ ، خرج عبد العزيز بن مروان يرتاد مكانا يصلح للإقامة بعيدا عن الوباء ، فنزل حلوان وأعجبته ، فأتخذها مسكنها ، وجعل بها الحرم والأعوان والبرطة ، وبني فيها الدور والمساجد وعمرها أحسن عمارة وأحكمها . الولاة ، ص ٤٩ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .

يتألق الناس فيما يتخذونه من كل صنف ابتداء من أسقف البيوت والمنازل والأبواب وغيرها من المقاعد وقطع الأثاث المزخرفة .

وقد أدرك النجار المصري طبيعة الجو في بلاده ، فهو يدرك أن الأخشاب تنكمش صيفا لجفاف الطقس وحرارته ، وتمدد في رطوبة الجو شتاء ، ولذلك كان تفضيله للحشوات الصغيرة في أشغال النجارة ، وكما قيل قديما ان حرفة النجارة من الصناعات القديمة التي تحتاج الى أصل كبير من الهندسة ، كذلك زاول أهل هذه الحرفة عملهم وفقا للأصول الفنية والهندسية التي توارثوها عن أجدادهم المصريين وغيرهم من اليونانيين من أصحاب الحضارات القديمة (٧) .

وكان من أسباب انتشار حرفة النجارة في المدن والقرى المصرية نمو أشجار الأخشاب المحلية العديدة مثل شجر السنط (٨) والجميز (٩) والصفصاف (١٠) أو اللبخ (١١) والنبق أو السدر (١٢) وشجر النخيل ، ونخيل الدوم ، وكان يصنع منها الأبواب والأثاث وآلات الزراعة وأدواتها كأسلحة المحاريت والفئوس والسواقي وأسقف البيوت والمساجد وغيرها من أعمال النجارة البسيطة .

وتمدنا أوراق البردي بأسماء أنواع من الأخشاب المنتجة محليا في

(٧) أشار ابن القفطى الى أن أئمة الهندسة من اليونانيين القدماء كانوا من أئمة النجارة مثل اقليدس ، اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٤٥ .

(٨) كانت شجرة السنط تنمو في جميع أنحاء البلاد وما زالت - وقد أشار المقرئى الى مناطق الغابات في نواحي البهنسا وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية والأخميمية والقوصية وأشجارها التي لا تحصن من السنط ، وكان يستخرج من هذه النواحي مال يقال له رسم الخراج . المخطوط ، ج ١ ص ٢٠٥ ، لفريد لو كاس : المواد والصناعات ، ص ٧٠٦ - (٩) تمتاز شجرة الجميز بصلابتها وخشبها يتحمل الرطوبة والبقاء تحت الماء ويستعمل في صنع بعض أجزاء السواقي خنزيرة الآبار ، وقد وصف عبد اللطيف البغدادي شجرة الجميز وقال عنها أنها معروفة حق المعرفة في مصر ، كما ذكر أن خشبها تعبر به المساكن ويتخذ منه الأبواب والآلات ، وله بقاء على الدهر وصبر على الماء والشمس ، وقلما يتآكل مع أن خشبها خفيف . عبد اللطيف البغدادي في مصر ، ص ٢١ .

(١٠) أدخلت زراعتها الى مصر منذ فجر التاريخ ، وهي تزرع على شواطئ النيل والترح ويمتاز خشبها بلونه الأبيض الناعم ، ويستعمل في صناعة آلات الزراعة والآثار . ولیم نظیر : الزراعة في مصر الإسلامية ، ص ٨٣ .

(١١) ذكر عبد اللطيف البغدادي أن زراعة شجر اللبخ نقلت من فارس الى الشام والى مصر ، وخشبها في غاية الجودة ، وقيل ان ثمن اللوح منه خمسون دينارا . عبد اللطيف البغدادي في مصر ، ص ٢١ ، نشر سلامة موسى .

(١٢) ظهرت أشجار النبق الحمضية في مصر منذ العصور القديمة ، ويمتاز خشبها بجودته ولونه الأصفر وكثيرا ما يستعمل في أعمال النجارة وآلات الزراعة . بقرى : الحياة الاجتماعية في مصر القديمة ، ص ٢٥٠ ، ترجمة حسن محمد جوهر وآخر .

مصر في عصر الولاة مثل خشب السنبط واللبخ والجميز ، وتكشف لنا عن نشاط تجارة هذه الأخشاب بين سائر المدن وأنحاء البلاد المصرية . فقد ورد في إحدى أوراق البردي ما يتضمن ارسال ١٠٢ كتلة من الخشب من مدينة الفيوم الى على بن حطام تاجر الخشب بالقسطاط . وذلك مما ورد في المنشور الصادر بطلب حصر شجر السنبط وتسجيله .

وقد أدت التجارة في القرى وفي المدن المصرية دورها فقد استخدمت في صنع مصاريع الأبواب والشبابيك ، والأشرطة الكتابية وكذلك الأثاث المنزلي ، وكان معظمها ثابتا في الدور والقصور فيما عدا الدكاك والمقاعد وكراسي العشاء وما إليها في القرون الأولى من الهجرة (١٣) . وتظهر لنا تلك المجموعة التي يحتفظ بها متحف الفن الاسلامي بالقاهرة والتي ترجع الى القرن الثاني الهجري مدى تقدم صناعة الأثاث على أيدي المصريين (١٤) . كما عثر في عين الصيرة على تحف خشبية منقوشة مزينة بطريقة التطعيم بقطع من العظم والعاج .

وفي حفائر القسطاط تم اكتشاف لوح من الخشب يجمع بين الزخرفة والكتابة الكوفية ، ويضم متحف المتروبوليتان مثالا رائعا من تلك الحشوات الخشبية المغطاة بزخارف من العظم بطريقة الترصيع ، وكلها ترجع في صناعتها الى عصر الولاة . والواقع ان صناعة العاج والترصيع به كانت معروفة لدى اجدادنا القراعنة (١٥) ، لتوفر العاج وسن الفيل في جنوب السودان .

وبعد الفتح العربي ظل الصناعات من الأقباط أو ممن اعتنقوا الاسلام يحترفون صناعة العاج (١٦) ، وبدأوا يعملون على تقليل الزخرفة بالصور

(١٣) كانت كراسي العشاء تصنع من الخشب الزكي الرائحة والصناديق المتنوعة التي أعدت لحفظ المصاحف وغير ذلك من الأغراض . محند توفيق جاد وآخر : تاريخ الزخرفة ، من ١٠٦ ، وجب عزت : تاريخ الآثار من أقدم الصور ، ص ١٢٨ .

(١٤) تضم هذه المجموعة من الألواح الخشبية التي تكتسوها طبقة رقيقة من الفسيفساء الذهبية وهي تتألف من قطع صغيرة من الأبنوس وسن الفيل وهي تؤلف زخارف هندسية ، ومجموعة أخرى عليها زخارف تحف بها أسطر من الكتابة الكوفية عبارة عن آية الكرسي . ارقام السجل : ٢٤٦٢ ، ٩٥١٨ .

(١٥) يوجد تطعيم من الخشب والعاج على صندوق خشبي صغير من الأسرة الأولى عثر عليه في مقبرة حماكا بسقارة ، كما وجد تطعيم من الأبنوس على كرسى نقل لحنج حورس من الأسرة الرابعة . وقد اكتشف باللاهوت قرب الفيوم على صناديق الخلق وعليها تطعيم من الأبنوس والعاج وترجع صناعتها الى عصر الأسرة الثانية عشر ، لو كانت من المولدين والصناعات من ٧٢٠ .

(١٦) وقد أشاد بتلر بهذه الصناعة ، ان الفتح العربي قال : "ولكن صناعة تحت العاج بلغت وقتئذ قصارى الكمال ، لرى معها دقة الصناعة وابداع الفن" ، كما اشار الى تلك الآلة المصنوعة من العاج والمستخدم في صقل أوراق البردي ومن اللوح في فتح القرون لمصر ، ص ٩٥ .

الآدمية وصور الحيوانات والطيور ، وأقبل الصنّاع على استخدام الزخارف الهندسية والنباتية . وظهرت مهارة الصنّاع المسلمين في تلك التحف الخشبية التي رصعوها بقطع صغيرة من العاج .

وتشير المصادر التاريخية الى أن مصر كانت تستقبل التجار الذين يحملون التمر والعاج وغير ذلك من المراكب الواردة الى ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر (١٧) وقد ظلت الاسكندرية على شهرتها في صناعة العاج وتطعيم وترصيع القطع الخشبية به (١٨) ، وكذلك مدينة اسيوط وغيرها من المدن المصرية التي كانت من مراكز صناعة التحف العاجية في العصر الاسلامي الأول (١٩) . كما تؤيد الحفائر الأثرية في القسطنطين وغيرها من المناطق ذلك ، خاصة بعد أن جادت تلك الحفائر ببعض من التحف المصنوعة من العاج أو العظم أو من الخشب المطعم والمرصع بهاتين المادتين ، وترجع بعض هذه التحف في صناعتها الى صدر الاسلام ، كما يظهر من زخارفها أنها استمرار للزخارف القبطية (٢٠) .

كما تشير المصادر التاريخية الى نزوح العديد من النجارين والخرافين والدهانين المصريين الى العواصم العربية والمشاركة في تعميرها ، ولا سيما في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) التي اتسمت سياسته بتشجيع العمارة والفنون ، وولعه الشديد بعمارة المساجد والمدن (٢١) . وتكشف لنا أوراق البردي أن الأمويين كانوا يستعينون بالعديد من هؤلاء الفعلة والبنائين والتجارين .

(١٧) كان تجار العرب يشتررون العاج من بلاد الزنج بإفريقية الشرقية ويحملون منه الى البلاد ، والى الصين في أقصى الشرق ، ويذكر المسعودي أنه لولا تصدير العاج الى عمساك والهند والصين لكان كثيرا في بلاد الاسلام . اليعقوبي : البلدان ، ص ٣٣٥ ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٧ ، آدم منر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ . (١٨) تشهد بذلك الأدوات المصنوعة من العاج التي كان لها يسوق الاسكندرية أهمية تجارية ، فكثيرا من الأعمال الفنية المصنوعة من العاج تعبر عن الخبرة الفاتكة ، لا سيما تلك اللوحات المصنوعة من العاج والعظام التي جرى العثور عليها في مقابر الاسكندرية . السيد الباز العريني : مصر البيزنطية ، ص ٢٨٩ .

(١٩) لا تزال للصنّاع الأقباط في صناعة العاج وزخرفته مهارة فائقة ، ولا سيما في اسيوط وبعض بلدان الوجه القبلي : زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ، ص ٢١ .

(٢٠) يضم متحف الفن الاسلامي مجموعة من قطع الخشب ذي الزخارف المحفورة والمزخرفة بطريقة الفسيفساء ، وجميعها من صناعة المصريين في القرنين الثامن والتاسع بعد الميلاد . زكي محمد حسن : أطلال الفنون ، ص ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ .

(٢١) أشار البلاذري الى قيام الصنّاع الموقدين من مصر بعمارة الحرم النبوي سنة ٨٧ هـ وقد علق الأثرى حبيب الزيات على هذا الخبر بأنه قرأ في قراطيس البردية المخطوطة بالمتحف البريطاني أن القبط كانوا يستعينوا بهم وكانوا من البنائين والتجارين . حسن عبد الوهاب : توقيعات الصنّاع ، ص ٥٤٢ .

وقد أوضح اليعقوبي أن الخلفاء العباسيين كانوا يرسلون فى طلب أصحاب المهن والصناعات للمشاركة فى بناء وتعمير بغداد ، ثم سامرا فى عهد الخليفة المعتصم بعد ذلك ، ومما لا شك فيه أن مجموعة النجارين والخراطين وغيرهم من الصناع كانوا فى طليعة هؤلاء الذين رحلوا الى العراق للمشاركة فى تعمير تلك الحواضر الاسلامية .

وفى عصر الولاة لم تقتصر حرفة النجارة على عمارة المساجد أو المنازل والقصور ، بل كانت هناك صناعات خشبية للزينة والآلات الموسيقية ، ويضم المتحف القبطى مجموعة منها عليها زخارف هندسية ونباتية تشهد بمقدرة الصانع المصرى وتفوقه (٢٢) ، كما تبرهن على صحة ابتكار النجار المسلم فى مصر وتجميعه لهذه الوصلات الخشبية أو الحشوات بعضها الى بعض وتعشيقها فى بعضها البعض ، تلك الطريقة التى سرعان ما ذاعت فى بلاد العالم الاسلامى بعد ذلك .

كذلك تفوق الرهبان فى صنع المعابر الخشبية وفى عمل الأحجية حيث كانوا من النجارين المهرة فى ذلك العصر (٢٣) . ولا يبعد أن يكون العرب فى مصر ، قد اتخذوا لأنفسهم شكل الكثير من قطع الأثاث القبطية كالدواليب والموائد ، ولعلهم أخذوا عنهم أيضا الكرسي الذى يحمل عليه المصحف ، والذى يعرفه القبط باسم منجليه ، أى محل الانجيل .

وقد وصلت الينا أسماء كثير من النجارين على ورق البردى وشواهد القبور من الحجر الرملى ، من جهات متفرقة من البلاد ، فمن مدينة ادفو بصعيد مصر وصلنا عقد بيع على ورق البردى يرجع تاريخه الى شهر ذى القعدة سنة ٢٣٩ هـ ، أشير فيه الى منزل قيس بن هارون النجار . ومن شواهد القبور ، شاهد من أسوان مؤرخ فى رجب سنة ٢٢٧ هـ باسم « بلال بن نادى النجار - وشاهد آخر من أسوان أيضا باسم خلف بن بشير النجار ويرجع تاريخ وفاته الى سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م » .

(٢٢) وهى عبارة عن أنشطة عليها زخارف هندسية ونباتية ومكاجل ، ومجموعة من الأدوات الخشبية الموسيقية التى عثر عليها فى دهشور وسفارة وترجع صناعتها الى القرن السابع الميلادى ، كما ورد فى دليل معرض الآثار القبطية عام ١٩٤٤ مجموعات من التصميمات الزخرفية وحشوات من الخشب وأفساط تزدان بزخارف مخرمة وحيوانات وايضا النعال من الخشب (القياقيب) المصنوعة بالمعدن . كتاب دليل المعرض ، ص ١٤ - ١٧ .

(٢٣) كانت تستخدم تلك المعابر الخشبية لحماية الأديرة ، وقد وجد فى الدير الأحمر بسوهاج والدير المحرق بأسيوط ، كذلك الأحجية فى الكنائس التى لم تكن موجودة قبل العصر الإسلامى .

زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ، ص ١٤ ، حجاجى ابراهيم محمد : مقدمة فى العمارة القبطية الدفاعية ، ص ١٨٧ .

٥ - الحفر على الخشب ومظاهر التأثير الحضارى فى عصر الطولونيين والاشيدين •

وقد نشطت حركة العمارة وازداد الطلب على الحرفيين من الخراطين والنجارين والحفارين وغيرهم حينما شرع ابن طولون فى بناء عاصمته الجديدة القطائع ، وما حوته من القصور والأسواق والحمامات ، وما أفرد لكل صناعة وأصحاب حرفة بها .

وظهر التأثير الحضارى فيما قام به هؤلاء الحرفيون والصناع فى استخدامهم الأخشاب فى مبانيهم وقصورهم ومساجدهم ، وفى عمل السقوف والأبواب والمنابر والدكك وأشرطة الكتابة التاريخية الكوفية أو الزخرفية ، ويتجلى ذلك التأثير فى طابع العصر الطولونى فى جامع ابن طولون ، والأخشاب ذات الكتابات تحت السقف بأعلى الجدران ، وما حفرته أيدى الصناع من كتابة عليها (٢٤) ، وقد نقشت هذه الحروف بأوزة فى الألواح الخشبية ، وليست قطعاً منفصلة ومسمرة فى الخشب ، كما ظن بعض علماء الآثار .

كما يتضح أسلوب سامرا الذى جاء به أحمد بن طولون من العراق بجلاء فى الزخارف النباتية التى اكتسبت طابعاً تجريدياً ، كما هو الحال فى مجموعة الألواح الخشبية التى تكسو باطن أعتاب جامع ابن طولون وقد عثر على قطع متشابهة تماماً لها فى مدينة سامرا بالعراق وكأنهما من صناعة فنان واحد وتتميز هذه الزخارف بأنها محفورة حفرًا مائلاً أو مشطوفاً ، وذلك ما تميز به أسلوب سامرا .

كذلك قام النجارون بخرط وحفر تلك القطع الخشبية التى كانت تزين البيوت والدور فى القسطنطينية بوحدها المعمارية ، وقد زخرفوها على شكل أشرطة وإزارات وحشوات ، وكان بعضها مزخرفاً بالحفر أو بالألوان

(٢٤) اشتملت الكتابات على آيات قرآنية حروفها من الكوفى البسيط المعاصر للبناء .
زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ، ج ١ ، ص ٦٦ .

الذهبية أو بهما معا (٢٥) . وكانت النوافذ والشبابيك في الوحدات السكنية المختلفة تزود غالبا بالمشربيات الدقيقة الصناعة والغالية الثمن ، وذلك في بيوت الأمراء والأثرياء وذوى المقدرة المالية في ذلك الحين .

وهكذا بلغ أصحاب حرفة النجارة مهارة فائقة في فن الحفر على الخشب في عهد الطولونيين ، ولا سيما نوع الحفر المائل الذي كان يتألف من عناصر نباتية محورة من مراوح نخيلية ، وكان القصر الطولوني حافلا بهذه الأخشاب المزخرفة القيمة ، نذكر منها أحد الأبواب المطلة على الميدان الكبير ، وقد صنعه التجارون من خشب الساج ، وكان من أحب أصناف التحف الخشبية عند الثراء تلك المصنوعة من خشب الساج الهندي .

ويعد عهد الطولونيين في الحقيقة مرحلة انتقال من الطراز القبطي في صناعة الخشب الى الطراز الاسلامي البحت ، حيث تأثر الطولونيون كثيرا بالفن العراقي بسامرا ، كما تأثروا في العمارة والفنون الأخرى . وليس من شك في أن أعمال النجارة ، وما شهدته تلك الفترة من تطور في فن الحفر على الخشب ، كان لها أثرها على صناعة الأخشاب الفاطمية بعد ذلك .

هذا ولم يقف الصناع عند حد عمل الألواح والازارات الخشبية المتنوعة في المساجد والقصور ، بل انهم تميزوا عن غيرهم في صناعة التماثيل الخشبية وزخرفتها ، وتشير المصادر الى أنه حينما شيد خماروية بن أحمد بن طولون قصره الذي عرف بقصر الذهب ، زين جدرانه بتماثيل من الخشب . وقد وصف أبو المحاسن هذه التماثيل فقال : « وجعل في حيطانه على مقدار قامة ونصف صورة بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظايا والمغنيات اللائي تغنيه في أحسن تصوير وأبهر تزويق » . وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة ، وفي آذانها الأقراط الثقال الوزن المحكمة الصنع ، وقد لونت أجسام هذه التماثيل بما يشبه الثياب » (٢٦) .

وليس من شك في أن هذا الوصف إنما يدل على تفوق اصحاب

(٢٥) يضم متحف الفن الاسلامي بالقاهرة قطعا من الخشب لا حصر لها ، وقد تم زخرفتها بزخارف نباتية من طراز سامرا . فريد شافعي : الممسارة العربية في عصر الإسلامية ، ص ٤٥٥ .

(٢٦) كانت مشكلة صناعة التماثيل ذات الأبعاد الثلاثة كما أطلق عليها علماء الفنون الجميلة من المشاكل التي ناقشها الفقهاء في الاسلام ، وقد تبين أن أجدادنا في العصور الوسطى إنما صنعوا التماثيل هذه للزينة فقط ، حيث عملوا على تزيين القصور بها من الداخل والخارج . محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية قبل الفاطميين ، ص ٢٠٩ .

حرفة النجارة ، ودقة صناعتهم ، وتنوع التقاسيم والزخرف (٢٧) ، ومن هؤلاء النجارين الذين فاقوا زملائهم فى بقية الأقطار الإسلامية فى ذلك الوقت والذين عثرت على توقيعات لهم ، محمد بن عينو أحد نجارى الجوامع الطولونى ، ومن المرجح أن يكون هو الحفار الذى قام بحفر الكتابات الكوفية الأثرية على الأشرطة الكتابية التى تدور على أعلى الجدران (٢٨) .

ومن هؤلاء النجارين الذين وصلت إلينا بعض أسمائهم على شواهد القبور ، شاهد يحمل اسم سعيد بن عيسى بن هرون النجار ، وكانت وفاته سنة ٢٩٣ هـ .

ومما يدل على رواج صناعة الأخشاب ، وكثرة الحرفيين فى هذا المجال ، ما أوضحه المقرئ من أنه كان للأخشاب سوق هام فى القسطنطينية منذ العصر الطولونى ، وكانت المراكب النيلية كما أشرنا من قبل تحمل تلك الأخشاب المحلية الى ساحل القسطنطينية ، حيث يتم بيعها للتجار ويتم تشغيلها فى الصناعات الخشبية المختلفة أو تستخدم لبناء سفن الأسطول .

كما كان المصريون فى ذلك الوقت يجلبون خشب الأرز والصنوبر من جهات آسيا الصغرى وبلاد الشام ، والأبنوس من السودان، والتك (٢٩) من بلاد الهند وخشب الساج (٣٠) ، فضلا عن جنوب أوروبا حيث كان يتم استيراد بعض أنواع الأخشاب التى تصلح لصناعة الأثاث المنزلى والتحف الخشبية .

وتشير أوراق البردى الى رواج تجارة الأخشاب فى عهد الطولونيين والأخشيديين حيث كانت المراكب النيلية تقوم بحمل الأخشاب لحساب التجار من بلد الى آخر ، فقد ورد فى خطاب يرجع تاريخه الى أوائل عهد

(٢٧) تنوع النجارون فى عهد الطولونيين والأخشيديين ، وقد تم العثور على أسماء كثير منهم ما بين نجار وأويمجى وصدفجى ، حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناع ، ص ٥٤٥ ، نشر المجمع العلمى الفرنسى .

(٢٨) ومما يذكر أنه كان للمسجد ازاز خشبى يدور على أعلى الجدران يضم كتابات قرآنية بالخط الكوفى الجميل ، وأن هيئة الآثار بصدد إعادة ما عثر عليه من أجزاء هذه الأزار الى موضعه تقريبا .

حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناع ، ص ٥٤٦ .

(٢٩) التك نوع من الخشب يمتاز بالصلابة والقوة ويستخدم فى صناعة الأدوات والتحف الخشبية الدقيقة .

(٣٠) ويصف لنا المقرئى البرج الخشبى الذى أمر بصله خمارويه من خشب الساج قانيلا : وبنى فيه (يعنى القصر) برجاً من الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص وزوقه بأصناف الأصباغ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٥٩٥ .

الاخشيديين مرسل من قوص الى البلينا في صعيد مصر ، ما يتضمن وصول بقية الخشب بالأقصر الى الجيزة والفسطاط وتذكرة بحساب قيمة الأخشاب ومستحقات أخرى .

ويبدو من القطع الخشبية التي صنعت في عهد الاخشيديين أن صناعة الحفر على الخشب كانت تطورا للأساليب المعروفة في عهد الطولونيين ، أي للطراز العباسي عامة ، وحيث استطاع النجارون والحفارون في الفسطاط وغيرها من المدن المصرية في أوائل القرن العاشر الميلادي أن يجعلوا الحفر على الخشب أكثر عمقا والزخرفة أكثر تجسيما (٣١) .

كما اعتنى أصحاب الحرفة بصناعة التماثيل الخشبية في العهد الاخشيدى ، واستخدام أنواع منها في مجال اللهو والتسلية ، فقد جاء في وصف استقبال الاخشيد للوزير الفضل بن جعفر أنه خلج عليه عند باب المدينة خلعا سلطانية ، وزينت لهما المدينة (يعنى الفسطاط) ونصب لهما على جوصق ابن الخلاطى فرس من خشب ينحدر ويصعد وابن الخلاطى راكب عليه ، مما يدل على تطور صناعة الأشكال المجسمة من الخشب .

أما أخشاب الأدوات المنزلية ، فقد قام الصناع بزخرفتها بالصور الهندسية والحيوانية كالأسد والغزال (٣٢) ، وكانت الألواح الخشبية الصغيرة وطريقة الحفر عليها بالخط الكوفى ، من أهم سمات أو مظاهر النجارة في ذلك العصر . وكانت هذه الألواح تستخدم في تسجيل ملكية الأفراد عليها من دور ومعاصر وطواحين وحوائيت ونحو ذلك ، وهذه اللوحات كانت تثبت على الأبنية اشهارا للملكيتها ، وقد عثر على أمثلة كثيرة منها في حفائر الفسطاط .

كما استخدموا العاج في زخرفة الأخشاب ، اذ كانت تطعم بعض التحف بفصوص من العاج ، وكان لمصر شأن عظيم في التجارة في العهد الاخشيدى ، كما كان لكل من الفرس (٣٣) واليهود نشاط ملحوظ في هذا الميدان ، ولا شك أنهم عملوا على جلب سن الفيل أو العاج وغيره من

(٣١) يضم متحف المتروبوليتان بالولايات المتحدة ، قطعتان موشحان هذا الأسلوب المصري الذى اتبعه النجارون والحفارون على الخشب في العصر الاخشيدى .
ديماند : الفنون الإسلامية ، ص ١١٧ .

(٣٢) كما يضم المتحف القبطى مجموعة من هذه الأدوات المنزلية ونحو ترجع الى ما بين القرن التاسع والحادى عشر الميلادى .

(٣٣) ذكر الكندى أن الفرس كانوا يتمتعون بالفسطاط بمركز مرموق في ذلك الوقت فقد جعل القاضى منهم ثلاثين رجلا ضمن الشهود في مجلس القضاء .

أنواع السلع الثمينة من بلاد الزنج حيث يكثر وجود الفيلة (٣٤) واستعمال
العاج وما يتخذ منه من التحف والأدوات مثل الشطرنج والنرد وغير
ذلك (٣٥) .

(٣٤) ذكر المسعودي أن رجال الزنج أو الهنود كانوا يخرجون إلى الفيلة التي كانت
في نهاية الكثرة بأعظم ما يكون من الخراب فيقتلون بها لأخذ أنيابها ، فمن أرضهم تخرج
أنياب الفيلة في كل ناب منها خمسون ومائة من بل أكثر من ذلك . مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٦ ، ٧ .

(٣٥) كان من الفيل يجهز الأكثر منه ويصل إلى بلاد الهند والصين ويقول المسعودي :
« وذلك أنها تحمل من بلاد الزنج إلى عمان ، ومن عمان إلى حيث ذكرنا . ولولا ذلك لكان
العاج بأرض الإسلام كثيراً » .

نفس المصدر . ص ٧ .

٦ - فن النحت والتطعيم بالعاج فى العصر الفاطمى :

اهتم الفاطميون منذ استقلالهم بالديار المصرية وجعلها مقرا لخلافتهم بالحرف والصناعات المختلفة ، فقد كان هدفهم منافسة الخلافة العباسية وبزها فى ميادين العظمة والقوة والبذخ . وكان من الطبيعى قيامهم باستغلال موارد الثروة ، فضلا عن رغبتهم فى استغلال مهارة الصناع الأقباط فى الانتاج الصناعى . ومنها مهارتهم فى صناعة الأخشاب المنقوشة وشهرتهم السائدة فيها .

ولا شك ان سياسة التسامح الدينى التى بدأ الخلفاء الفاطميون فى تطبيقها منذ توليهم السلطة ، كان لها أثر كبير على هؤلاء ، حيث آمنوا على انفسهم واموالهم ، وأخذوا يتفرغون لأعمالهم وميנם ، كما عمل الفاطميون على تشجيع الصناع الأجانب واجتذابهم للعمل فى قصورهم ، فكان من هؤلاء الخراطون والتجارون والدهانون والفعلة ، كما ذكر المقرئى نقلا عن ابن الطوير فى حديثه عن المناخ السعيد .

وقد شهد العصر الفاطمى نشاطا ملحوظا وتطورا كبيرا فى صناعة النقش على الخشب ، وكانت أول تجديد لعمارة جامع عمرو بن العاص قامت به الدولة الفاطمية على يد التجار المغزوف بالمقدسى الأطروشى وذلك فى سنة ٣٧٨ هـ ، حيث أمره الخليفة العزيز ووزيره يعقوب بن كلس بعمل السقائف الخشبية المحيطة بالقبعة ، وعمل منبر جديد مذهب ، ويذكر المقرئى انه تم نقش خمسة ألواح خشبية وذهبت ، ونصبت على أبوابه الخمسة الشرقية ، وكان الحاكم بأمر الله ووزيره برجوان قد أمر بعملها فى سنة ٣٨٧ هـ .

ويتجلى مدى التقدم فى صناعة الحفر على الخشب والكتابات عليه فى عصر الفاطميين ، من تلك الدعائم التى قام النجارون بعملها تحت قبة مسجد الحاكم ، وقد زخرفت بزخارف من فروع نباتية وأوراق شجر محفورة عليها. حفر عميقا ، ويعد الباب الخشبي الذى أمر الحاكم بصنعه عام ٤٠٠ هـ نموذجا فريدا للحفر على الخشب ، حيث قام النجارون بتزيين الباب بالحشوات المستطيلة ، المحفور عليها بتفريعات نباتية ذات عروق ملوية .

ولا شك أن أسلوب الزخارف وعمق الحفر على الخشب من أهم ما يميز صناعة الأخشاب فى العصور الوسطى ، ومن أهم التحف الخشبية التى ترجع الى بداية العصر الفاطمي حجاب الهيكل فى كنيسة السبت برباره ، والسياج الخشبي فى كنيسة أبى سيفين بمصر القديمة ، وهى تجمع فى رسومها بين أسلوب الفن البيزنطى والفروع النباتية والرسوم الهندسية المتشابكة والمتفرعة ؛

ومن أنواع الزخرفة التى امتاز بها ذلك العصر مناظر الطرب والموسيقى ، أو الصيد والقتال ، وقد بذل الصانع المصرى جهده فى محاكاة الطبيعة بدقة وأمانة لم يبلغها تصوير الانسان والحيوانات الا فى أيام الفاطميين .

كما تتجلى ذقة الصانع المصرى ومهارته الفنية فى صناعة المنابر الخشبية ، ومن أقدم المنابر الفاطمية منبر مصلى الصالحية ، والمنابر التى زجدت فى أسنوط ، وبمدينة قوص ومدينة البهنسا وغيرها فى دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء .

ومن التحف الخشبية التى صنعت فى عهد الخليفة المستنصر منبر حرم الخليل فى فلسطين ، وقد نقش على بابه وعلى جانبيه كتابة تاريخية من اثني عشر سطرا بخط كوفي موزق وبارز ودقيق باسم الخليفة المستنصر ووزيره بدر الجمالى ، وترجع الى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٢ - ١٩٠٢ م . ومن الواضح أن عمارة المساجد والقصور وتزيينها بالمصنوعات الخشبية كانت من أبرز أعمال النجارين فى ذلك العصر ، يتضح ذلك فيما خلفوه من المحاريب والمقصورات والتوابيت الخشبية وغيرها مما صنع من خشب الساج وغيره من الأخشاب الثمينة (٣٦) . وقد ترك كثير منهم الأسماء التى تشهد بقدرة أصحابها وتفوقهم فى مجال حرفتهم ، ومن ذلك الأسماء التى وردت على شواهد القبور النجار محمد بن رمضان وترجع وفاة

(٣٦) كان خشب الساج من أهم صادرات الهند الى مصر فى ذلك العصر ، المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٩ ، جواتياين : دراسات فى التاريخ الإسلامى ، ص ٢٦٨ .

ابنته مكيه الى عام ٤١١ هـ ، وقد عثر على هذا الشاهد بأسوان . وشاهد آخر باسم « علي بن محمد بن هرون النجار » وكانت وفاته في سنة ٤٢٦ هـ . وكذلك ورد اسم « محمد بن ابراهيم بن علي بن محمد بن رمضان النجار » على أحد شواهد القبور . ويحتفظ متحف الفن الاسلامي بمجموعة أخرى من الشواهد التي تدل على انتشار حرفة النجارة ورواجها وتوارث الأبناء لحرف آبائهم وأجدادهم في المصور الوسطى .

وكما تنوعت الأخشاب المحلية والمستوردة المستخدمة في صناعة الأثاث من الدكك والأسرة والمقاعد وغيرها خلال العصر الفاطمي (٣٧) ، تفرعت من حرفة النجارة خمس صناعات خشبية مختلفة ، أشارت كتب الحسبة الى محترفيها وما يجب عليهم في سبيل عملهم في ورشهم وحوالياتهم .

وكان النشارون والنجارون والخراطون وغيرهم يستخدمون أنواع الأخشاب المستوردة في عمل السقوف والأبواب والمنابر والمحاريث غير الثابتة وربط القوائم والأعمدة بعضها ، وصناعة القباب أو تدعيمها . أما الأخشاب المحلية المنتشرة في كافة أرجاء البلاد وما كانوا يحصلون عليها من الغابات المحروسة في مناطق كثيرة من البهنسا وأسيوط وإخميم وقوص وغيرها في الوجه القبلي ، فقد كان أصحاب حرفة النجارة يستعملون هذه الأنواع من الأخشاب في أثاث البيوت وعمل السواقي وغيرها من الآلات رافعة الماء ، وكذلك الطواحين والمحاريث والنوارج والمعاصر والأنوال والمغازل وكثير من الآلات التي كانوا يستخدمونها في الصناعة في العصر الفاطمي .

وقد بلغت مهارة الصناع والدهانين المصريين ، أنهم استخدموا بعض الدهانات والمواد الكيميائية في طلاء الأخشاب لمنع احتراقها ، مما لم يتوصل اليه الغرب الأوربي إلا في القرن العشرين (٣٨) .

كما انتشرت بمصر في ذلك العصر كسوة الأبواب التي كانت تصنع من الخشب المحلى بالنقوش ، بالنحاس المفرغ بأشكال هندسية وزخرفية خاصة منذ أواخر الدولة الفاطمية وحتى القرن الثامن عشر الميلادي .

(٣٧) ذكر ابن صاتي من أنواع الأخشاب ألواح الصنوبر ، والواح بوارقيه والواح لالبي ، والواح أساقيل وقنابية ومشاكية ، وأفلاق صنوبر ، وأصايب شوح ، ومربعات قرو وعيدان سندیان وشوح فول ، وشوح طويل وغير ذلك . قوانين الدواوين ، ص ٣٦٥ .

(٣٨) ومن المرجح أنهم استخدموا جبر الطلق بعد صحنه وإضافة بعض المواد الكيميائية اليه حيث كان من خواصه إذا دخل النار لا يحترق ولا يتكلس . وكما قال الحكماء قديما : « انه (أي جبر الطلق) إذا حل وطلبت به الأجسام لم تحرقها النار » التيفاشي : أثمار الإنكار في جواهر الأحبار ، ص ٩٠٥ ، سبيح عاشور : المهلية الإسلامية ، ص ١٤٠ .

بينما استعملت الكسوة بالفضة في أبواب الحرمين الشريفين وفي العتبات الشريفة في بغداد .

وكان لجامع الصالح طلائع بن رزيك باب خشبي مكون من مصراعين، صفح وجههما بالنحاس المزخرف ، أما ظهر المصراعين فمن الخشب المحفور بزخارف فاطمية . ويحتفظ متحف الفن الاسلامي بهذين المصراعين وهو أقدم الأبواب الفاطمية المصفحة بالنحاس في القاهرة المعزية .

ومما يدل على تجارة الأخشاب وازدياد الطلب عليها من النجارين والخراطين وغيرهم ، وجود سوق للخشابين بالقسطاط ، كانت ترد اليه الاحمال كالجبال من الأخشاب بالمراكب الكبيرة ، كذلك يذكر المقرئى سوق الصناديق وفيه كانت تباع الصناديق والخزائن والأسرة وسوق الأمشاطين ، ذكر ناصر خسرو أنه شاهد هذه الأمشاط حيث كانت تباع في سوق القناديل ، كما أشار ابن الأخوة الى صناعة الأمشاط (٣٩) من البقس الرومي فانه أنفع ما يعمل لهذا ، والا يكون أخضر فانه اذا جف يتعوج وينكسر .

ولم يقتصر النجارون والخراطون وصانعو الصناديق وكان لكل منهم سوق سمي باسمهم في القسطاط ، على صناعة الضباب الخشبية وأقفال الابواب والمزاليج أو المفاتيح المصنوعة من الخشب وعليها زخارف هندسية ، بل انهم صنعوا من أنواع الأخشاب أدوات التسلية ولعب الأطفال على شكل حصان وفارس وطائر بعضها بعجلات صغيرة ، ويحتفظ المتحف القبطي من هذه الأدوات الخشبية بالشيء الكثير .

وبلغ من دقة الصناعات ومهارتهم أنهم صنعوا بعض الأواني والطيافير من خشب الخلنج (٤١) ، وكان يستورد من جرجان على بحر الخزر ، وقد تم استعمالها في القصور الفاطمية . كما كانت ترد أخشاب الأبنوس من النوبة والسودان ، حيث صنعت منه الموائد الصغار والكبار ، وكذلك الدكك والمحاريب والأسرة . ومن الصندل والبقم وغير ذلك صنعت أنواع الأثاث التي حفلت به قصور الفاطميين والدور المصرية .

وقد راجت صناعة العاج رواجاً كبيراً في العصر الفاطمي ، يذكر ناصر خسرو أنه شاهد في أسواق القسطاط قطعاً من سن الفيل ، مما ورد الى البلاد من زنجبار وكان وزن كثير منها يزيد على مائتي من (٤٢) . وقد

(٣٩) يضم متحف الفن الاسلامي (قاعة ٨ أخشاب) مجموعة من أمشاط عليها زخارف نباتية ورنوك وكتابات ترجع صناعتها الى العصر الفاطمي ونصوص أخرى .
(٤١) الخلنج كلمة فارسية تطلق على نوع من الشجر يؤخذ منه خشب ثمين تصنع منه الأواني ، ذكر محمد حسن : الكنوز الفاطمية ، ص ١٢٦ .
(٤٢) المن : وزن قدره رطلان ، المواردى : مقاييس العلوم ، ص ٢٧ .

انتجت مصر فى ذلك العصر حشوات عاجية مزخرفة بعناصر نباتية وحيوانية
وآدمية متشابهة زخارفها مع زخارف الألواح الخشبية التى وجدت
بمارستان قلاوون .

ويظهر اهتمام الفاطميين باستخدام العظم والعاج فى تطعيم قطع
الأثاث والألواح الخشبية (٤٣) ، كما يظهر من زخارفها ولع الفنان الفاطمى
باستخدام الوحدات الساسانية ، ولا تمثل المتحف الفاطمية الموزعة حاليا
على المتاحف العالمية والكنائس الا التزوير اليسير مما كانت تحتويه القصور
الفاطمية من كنوز ونقائس .

ويذكر المقرئى أنه مما أخرج من خزائن القصور أيام الشدة العظمى
من قطع الشطرنج والنرد المعمول من سائر أنواع الجواهر ومن الأبنوس
والعاج الشيء الكثير . كما وجد من الدكك والمحاريب والأسرة العود
والصندل والعاج والأبنوس والبقم جيد الصنعة .

ويصف المقرئى شيوع استخدام العاج على يد الصناع فى تطعيم
قطع الأثاث وغيرها من أعمال الحفر على الخشب ، وكثرة استعمال المصريين
فى جهاز العروس ، وكان من بين قطع هذا الجهاز الدكة أو ما يشبه
السريـر ، حيث يتم عملها من الخشب المطعم بالعاج والأبنوس . أو من
الأخشاب المدهونة . كذلك كانوا يصنعون من العلب الصغيرة لصيانة
الحلى والجواهر للعروس .

وبلغ من دقة الصناعة واستخدام العاج أنه وجد بين ذخائر الأفضل
التى خلفها دكة من العاج والأبنوس المحلاة بالفضة عليها قطعة من العنبر
مثمـنة الشكل ، فى أعلاها تمثال طائر من الذهب أرجله من المرجان ومنقاره
من الزمرد وعيناه من الياقوت . كما تدل على براعة الفنان المسلم ما عثر
عليه من اللوحات العاجية كانت أجزاء من صناديق مطعمة بالعاج محفوظة
الآن بكل من متحف فلورنسا بإيطاليا ومتحف اللوفر فى فرنسا (٤) .

(٤٣) وقد عثر على صندوق فى إحدى القرى القريبة من بلنسية بالأندلس مصنوع من
العاج لأمير المؤمنين المعز لدين الله ، يبدو أنه صنع له فى المغرب قبل قدومه الى مصر ،
كما ينضح رآ من النص العربى المنقوش عليه بالخط الكونى جاء فيه : « بسم الله الرحمن
الرحيم نصر من الله ومنح قريب لعبد الله ووليه معز أبى تميم الامام المعز لدين الله أمير
المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطيبين وذريته الطاهرين ، ما أمر بعمله بالتصورية
المرضية صنعة .. الحراسانى » ، محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الإسلامية
فى المغرب والأندلس ، ص ١٨٢ .

(٤) يضم متحف Barjello بفلورنسا منها عدد ست لوحات ، أما متحف اللوفر
بباريس فيضم اثنين منها ، ديـماند : الفنون الإسلامية ، ص ١٣٢ .

وهكذا بلغ أصحاب حرفة النجارة من الدقة والاتقان في حفر الخشب المطعم بالعاج ، وفي صناعة الأخشاب المدهونة من أنواع الدكك ، والمحاريب والأسرة وغيرها من قطع الأثاث ، ما بلغه هؤلاء الصناع من بنائي السفن البحرية والحربية من الجودة والشهرة في دور الصناعة المختلفة سواء بجزيرة الروضة وساحل مصر والمقس أو بشجر الاسكندرية ودمياط وغيرهما من الثغور المصرية في عصر الولاة وحتى زوال الدولة الفاطمية .

الفصل السادس

الصناعات المعمارية في مصر الإسلامية

- ١ - صناعة البناء في عهد الولاة .
- ٢ - العمارة ومظاهر التأثير الحضارى في عهد الطولونيين والاختشيديين .
- ٣ - تقدم فن العمار في العصر الفاطمى .

١ - صناعة البناء فى عصر الولاة

والمناخ والعوامل الجغرافية الأخرى ، ففى الصعيد حيث يندر المطر كانت كانت صناعة البناء فى مصر البيزنطية تحكمها ظروف البيئة البيوت تبنى باللبن (١) ، ولكن ذلك لم يمنع من بناء الدور والمساكن من الطوب المحروق أو الأحمر فى بعض الجهات مثل الفيوم والأشمونين والشيخ عبادة وكوم اشقاو وغيرها من المدن . كما تدل أوراق البردى التى تم العثور عليها فى هذه الجهات على قيام مصانع للطوب وإقامة قمارن تمهيدا لحرقها .

أما فى الوجه البحرى فقد كانت البيوت تبنى من الطوب الأحمر أو الحجر الجيرى فضلا عن إقامة بعضها من الطوب اللبن . وكانت توجد هناك محاجر بالقرب من الاسكندرية فى شمال البلاد ، كما وجدت فى نواحي الفيوم وبالقرب من البهنسا والأقصر وأسوان ، حيث تقطع الأحجار وتحمل عبر النيل بالمراكب الى حيث يتم استخدامها فى أعمال البناء ، وليس هناك شك فى أن تلال المقطم كانت من المناطق الشهيرة التى يقطع من محاجرها الحجر الجيرى ناصع البياض .

ومن الطريف أن نذكر أنه وجدت منذ العصر البيزنطى نقابة تضم عمال البناء من البنائين والدهانين وغيرهم من أصحاب الحرف المتصلة بالعمارة ، وكانت مهمة النقيب كما يقول بل : هى الدفاع عن هؤلاء الحرفيين الفقراء وحمايتهم من بطش أصحاب النفوذ والأثرياء ، كما كانت

(١) ظهرت صناعة اللبن فى مصر منذ فجر التاريخ ، وتوجد فى أبيدوس قلعة مشيدة من الطوب اللبن بلغ ارتفاعها نحو ٣٥ قدما يرجع بناؤها الى عهد الأسرة الثانية وهى لا تزال قائمة لم تتأثر بالعوامل الجوية الا قليلا . بتوى : الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ، ص ٣١٧ .

النقابة مسئولة فيما يبدو عن عمل أعضائها ، وقد كانت صناعة الطوب من الصناعات ذات الأهمية في مدينة أكسيرنخوس (البهنسا) لكثرة الانشاءات والعمارة . كما وجد العديد من الدهانين والمبيضين أو النقاشين في هذه المدينة وفي هرموبوليس (الأشمونين) وفي أفرديتوبوليس (كوم اشقاو) . وأرسينوى عاصمة الفيوم .

وتشير المصادر الى استخدام الكلس أو الجص وأحجار الجرانيت والرخام وغيرها من الأحجار التي مهر المصريون في استغلالها ونحتها ، كما تدل على ذلك تلك الآثار الباقية من الأديرة التي عثر عليها في باويط (٢) ، واسنا وطيبة وسقارة وأسوان وكذلك الدير الأبيض والدير الأحمر اللذين لا يزالان قائمين بالقرب من سوهاج . وكذلك تيجان من الأعمدة المحفوظة بالمتحف القبطي .

ولا غرو أن بلغت صناعة البناء في مصر قبل الفتح العربي ما بلغته من تقدم ، حيث تشير المصادر التاريخية الى نبوغ العديد من علماء الهندسة والرياضيات بمدرسة الاسكندرية القديمة نذكر منهم ابن العالم الرياضي الذي صنف في الهندسة ، وقام بحل شكوك كتاب اقليدس . وعالم الهندسة الشهير هيرون الاسكندري (٣) ، ولا شك أن مؤلفاته في مجالات الهندسة والآلات كان لها أثر كبير في تقدم فن العمارة بالاسكندرية وغيرها من المدن المصرية قبل الاسلام .

ولا شك أن العرب بعد الفتح - وكان أكثرهم قوما رحلا متنقلين أو من أهل الوبر كما يقولون - لم يلبثوا أن استخدموا المصريين في كل ما يحتاجونه من الأبنية وما يناسب تقشفهم وبعدهم عن الترف في بداية الأمر تجلّى ذلك في اختطاط مدينة القسطنطينية وبناء جامع عمرو بن العاص ودار عمرو بن العاص ، وكانت في غاية البساطة في تخطيطها وبنائها .

وقد أشار ابن عبد الحكم عند حديثه عن خطط القبائل في القسطنطينية الى الدور العديدة التي أنشأت فعددها وذكر أسماءها ، الا أن وصفه لها لا يتعدى الوصف العام . ويمكن القول بأنها كانت بسيطة كما كانت ذات مساحة كبيرة اذ يذكر ان عبد الله بن عمرو بن العاص اختط هذه الدار الكبيرة التي عند المسجد وبنى فيها قصرا على تربيعة الكعبة الأولى . فهذا

(٢) غطت جدران هذا الدير منذ العصر البيزنطي بكساوى مصنوعة من الرخام وحجر السماق (الصوان) السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٢١٥ .

(٣) عاش هيرون عالم الهندسة والرياضيات في أواخر القرن الثالث الميلادى وكان من مشاهير علماء مدرسة الاسكندرية .

يدل على مدى اتساعها بحيث كان يسمح ببناء قصر بداخلها كما يدل على بساطة تخطيطها على نسق الكعبة في بداية أمر بنائها .

كما يدل تعدد أبواب بعض الدور التي تطل على شوارع مختلفة على اتساع الرقعة التي بنيت عليها مثال دار العمدة التي ذكرها ابن عبد الحكم وذكر ان بابها في زقاق القناديل وبابها الآخر مما يلي دار البركة من هناك راجعا الى سوق بربر الى قصر ابن جبير .

كانت معظم الدور في بادئ الامر في الفسطاط ذات طابق واحد اذ لم يكن هناك داع للارتفاع بالمسكن رأسيا لتوفر المساحة الأفقية وتعكس عدم موافقة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على بناء غرفة أرادها خارجة ابن حذافة فوق داره ذلك الامر ، حيث يذكر ابن عبد الحكم ان خارجة كان أول من بنى غرفه بمصر فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب الى عمرو بن العاص يقول له : « انه بلغني ان خارجة بن حذافة بنى غرفة ولقد أراد خارجة ان يطلع على عورات جيرانه فاذا أتاك كتابي هذا فاهدمها » .

وتشير الحفائر الى أن معظم هذه الدور والبيوت في الفسطاط كانت مبنية باللبن حيث أن سمك جدارها كان ذراعين بذراع البناء وهذا لا يتأتى الا باستعمال اللبن . وقد أدى شيوع استخدامه أو استعماله كمادة لبناء الدور في تلك الفترة المبكرة الى سرعة تدهم تلك الدور واختفائها . كما أن المساكن التي أنشئت بالعسكر بعد ذلك اندثرت هي الأخرى حتى ان السرى بن الحكم عام ٢٠٠ هـ ٢٠٥ هـ أذن للناس بالبناء في العسكر مرة ثانية فامتدت عمارتها حتى اتصلت بالفسطاط .

كما تدل المصادر التاريخية على أن المباني بالفسطاط لم تقتصر على بنائها من اللبن ، اذ تشير الى استخدام الحجارة والأعمدة الرخامية التي كانت تؤخذ من مبان قديمة مثل دار عبد الرحمن الفهرى التي جعلها « تدور بعمد رخام وجعل قاعاتها مستديرة ولم يجعل فوقها بناء » .

والواقع أن العمارة الاسلامية لم تلبث أن تقدمت في جميع أنحاء البلاد المفتوحة دون استثناء ومن بينها مصر ، فسرعان ما نمت مدينة الفسطاط ودب فيها العمران وبنيت فيها الحمامات والأسواق كما تم تشييد الدور العالية ، فقد أشار ابن عبد الحكم الى قيام عبد الله بن سعد والى مصر في خلافة عثمان ببناء قصر كبير له عرف باسم قصر الجن . وخلال الفترة القصيرة التي أقامها في مصر مروان بن الحكم أمر ببناء الدار البيضاء ليسكنها وقال : « انه لا ينبغي لخليفة أن يكون ببلد ليس له فيها دار » .

وقد شهدت مصر نهضة عمرانية بعد أن تولى عبد العزيز بن مروان ولاية مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) ، فقد أمر ببناء الدار المذهبة سنة ٦٧ هـ في غربى المسجد الجامع وكانت تدعى المدينة ، مما يدل على كثرة مبانيها وضخامتها ، فقد ذكر أنه كانت تضم خمسة مساجد وحمامان وعدة أفران يخبز فيها عجين أهلها .

كما قام عبد العزيز بن مروان ببناء المساجد والحمامات والأسواق بحلول بعد أن اتخذها عاصمة له وعمرها أحسن عمارة وغرس فيها الأشجار والنخيل ، حتى قيل أنه أنفق في بنائها مليون دينار (٤) .

وقد ذكر ابن عبد الحكم أنه فى عهد الوالى عبد العزيز تم انشاء الاسواق وبنى القيساريات مثل قيسارية العسل وقيسارية الحبال وقيسارية الكباش ، والقيسارية التى كان يباع فيها البز وكانت تعرف بقيسارية عبد العزيز . وبلغ من شغف الوالى أو الأمير بالمنشآت والحمامات أنه بنى لابنه زيانا حماما وأقام على بابه تمثالا عجيبا من الزجاج على صورة امرأة وأطلق عليه اسم أبى مرة فى مدينة القسطاط .

ومما يذكر أنه أمر ببناء مقياس للنيل ، فى حلوان حيث كانت مقرا له وكان هذا المقياس صغير الذراع . كما تشير المصادر الى أنه أمر ببناء قنطرة بطرف القسطاط على خليج أمير المؤمنين فكتب عليها اسمه ، كما ورد اسم المهندس سعد أبو عثمان منقوشا عليها ، مما يدل على قيام المهندسين فى فجر الاسلام بالاشراف على تنفيذ مثل هذه المشروعات العمرانية . ومن أعماله أيضا ما تم تشييده من القناطر على أعمدة من أجل توصيل المياه العذبة الى حلوان وهو ما عرف بالسقايات .

ولا شك أن بناء المساجد واقبال المسلمين على اقامتها فى القسطاط وفى غيرها من المدن والقرى المصرية كان من خير البواعث على نشاط حركة البناء والعمران ، ومما يشهد بذلك ما حظي به جامع عمرو من اهتمام الولاة فقد تعهدوه بالزيادة والتحسين وزخرفة جدرانه وسقوفه (٥) ، فمنذ

(٤) ذكر الكندى أن عبد العزيز بن مروان اتخذ من حلوان دارا لاقامته فى سنة ٧٣ هـ بعد أن انتشر وباء الطاعون بالعاصمة القسطاط ، حيث نقل معه بيت الماء وأقام بها حتى سنة ٨٦ هـ وهى السنة التى توفى فيها ، الولاة ، ص ٤٩ .

(٥) كان جامع عمرو فى بادىء الأمر طوله خمسون ذراعا وعرضه ثلاثون ذراعا . وكان هناك بابان فى شرقى المسجد يقابلان دار عمرو بن العاص ، وجعل له بابان فى شماله وبابان فى غربيه وكان سقفه واطنا جدا ولا صحن له وكان بينه وبين دار عمرو سبع أذرع .
المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

ولاية مسلمة بن مخلد الأنصارى على مصر من قبل معاوية ، وكان المسجد قد ضاق بأهله وشكوا ذلك الى مسلمة ، فكتب فيه الى معاوية ، فأمره بالزيادة فيه سنة ٥٣ هـ من شرقيه ومن شماليه وجعل له رحبة في شماليه وطلاه بالجص وقام مسلمة بزخرفة جدرانه وسقوفه ولم يكن قبل ذلك فيه طلاء أو زخرف .

كذلك أمر مسلمة ببناء منار المسجد فجعل له أربعة صوامع أو مآذن في أركانه الأربعة ، وهو أول من جعلها فيه (٦) . ولم يلبث حين تولى عبد العزيز بن مروان شتون الحكم في مصر أن هدم الجامع وزاد فيه من جوانبه كلها وذلك سنة ٧٧ هـ . وتكرر ذلك الأمر في ولاية قره بن شريك حين أمره الوليد بن عبد الملك بالزيادة فيه بعد هدمه وبنائه من جديد ، وقد ابتداء قره في بنائه في شهر شعبان سنة ٩٢ هـ ، وجعل على بنائه يحيى بن حنظلة مولى بنى عامر ونصب المنبر الجديد في سنة ٩٤ هـ بعد أن نزع المنبر القديم ، كما تشير المصادر الى أنه لم يكن لجامع عمرو في بادىء الأمر محراب مجوف (٧) ، وقيل أن أول من جعل له المحراب الوالى قره بن شريك وذلك بعد أن أعاد بناءه كما أشرنا من قبل .

وليس من شك أن العرب في بادىء أمرهم لم يشغلوا أنفسهم بالبناء ، وإنما كان البناءون والدهانون والمزخرفون من الأقباط المصريين . وقد عمد العرب على نقل كثير من الأعمدة والتيجان من المعابد والكنائس القديمة حيث تم استخدامها في مساجدهم وبيوتهم ، كما يتضح ذلك من وجود تلك الأعمدة في جامع عمرو وفي معظم المساجد . والواقع أن ذلك لم يكن غريبا في ذلك الوقت ، فقد كان الأقباط يحصلون على حاجتهم من هذه الأعمدة والتيجان من المعابد القديمة ويستخدمونها في بناء كنائسهم وأديرتهم (٨) .

(٦) كان أول من أمر ببناء المآذن أو الصوامع في الاسلام معاوية بن أبى سفيان وقد أمر معاوية مسلمة بن مخلد عاملة على مصر أن يبنئها لجامع عمرو . وقيل انها بنيت على غرار الأبراج الأربعة التي كانت يصور المعبد الوثنى القديم بدمشق ومكانه الآن يفحوم الجامع الاموى . المقرئى : المخطوط ، ج ٣ ، ص ١١١ ، زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٣٢ .

(٧) قيل ان فكرة المحراب مأخوذة عن الحنية التي توجد في صدر الكنيسة الى الشرق وان مآذن الجوامع الاسلامية مأخوذة من أبراج الكنائس . زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ، ص ٩ .

(٨) ويجب ألا يتطرق الى الأذهان بأن الكنائس خربت عمدا لتسد حاجة البناء في المساجد ، انما كان من السهل أن يأخذ العرب بقايا ما خربه الفرس أثناء غزوهم لمصر قبيل الفتح العربى عام ٦١٨ م . مبدلة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

ومما يدل على مهارة المصريين وشهرتهم فى صناعة البناء فى العصر الأموى ، أن الأمر لم يقتصر على استخدامهم فى بناء الدور والمشروعات العمرانية فى القسطنطينية وغيرها من المدن المصرية ، بل كثيرا ما أمكن استغلالهم فى المباني واقامة المنشآت خارج البلاد ، يتضح ذلك فيما أشارت إليه أوراق البردى ، فى كتاب قره بن شريك (٩٠ - ٩٦ هـ) الى صاحب كورة أشقوه نراه يحدد أجر أحد العمال بجامع دمشق لمدة ستة أشهر . وفى كتاب آخر يطلب الوالى على مصر عدة عمال من أماكن مختلفة للعمل فى تشييد قصر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، وورد فى كتاب ثالث أنه يطلب أحد العمال ويحدد أجره للعمل لمدة ستة أشهر فى جامع بيت المقدس . وقد ورد فى كتاب آخر من قره ما يشمل المصروفات التى تم انفاقها على أربعين من الصناع المهرة الذين استخدموا فى بناء جامع دمشق ، وفى جامع بيت المقدس وفى قصر أمير المؤمنين . كما حفلت أوراق البردى بكتب أخرى تختص بالصرف على العمال الذين كانوا يعملون فى بيت المقدس أو فى دمشق وفى قصر أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك .

ويذكر البلاذرى أن الخليفة الوليد كتب الى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه ، وبعث اليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر ، فبناء عمر بن عبد العزيز وزاد فيه وكان ذلك فى سنة ٨٧ هـ ويقال فى سنة ٨٨ هـ . وهذا يدلنا على مدى تقدير العرب لمهارة المصريين فى فن البناء والعمارة ، وكيف كانوا يستخدمونهم فى مصر وفى غيرها من البلاد الإسلامية .

وتشير المصادر الى استمرار أصحاب الحرف والصناعات من البنائين والنقاشين المصريين فى تشغيلهم خارج البلاد خاصة فى العراق مقرر الخلافة العباسية ، وقد بالغ المؤرخون فزعموا أن الخليفة المنصور كتب الى البلدان المفتوحة ومنها مصر فى حمل من فيها ممن يفهم شيئا فى صناعة البناء فحضر مائة ألف من أرباب المهن والصناعات ، ولا شك أن عددا كبيرا من هؤلاء الصناع المصريين قد شارك فى بناء وتعمير مدينة السلام .

كما يمدنا المقدسى بمعلومات توضح لنا أن الخليفة المهدي طلب من واليه على مصر أن يحمل من الصناع والفسيفساء فى البحر الى جده لاعادة بناء المسجد الحرام وقد تم تزوين حيطان الكعبة بها من ظاهرها . ويبدو أن المقدسى اطلع على أسماء هؤلاء الصناع المصريين وغيرهم من بلاد الشام الذين قاموا بهذا العمل فهو يقول : « وحمل اليها صناع الشام ومصر ألا ترى أسماءهم عليه » .

ولا غرو فقد مهر المصريون في صناعة الفسيفساء البديعة وعرفوا كيف يزينون بها الدور والمباني وحتى الأرضيات في قصورهم ، في الاسكندرية وغيرها من المدن المصرية منذ العصر البطلمي . ولعل تلك الفسيفساء التي صنعت من الزجاج المذهب كانت بأيدٍ مصرية ، والتي عمل منها برسم الجامع الأموي الشيء الكثير في العصر الأموي (٩) .

وليس من المستبعد مشاركة العمال والصناع المصريين في بناء المساجد والأسواق وغيرها من الدور والمنشآت في مدن الحجاز مثل بدر والبحار وجدة على ساحل البحر الأحمر ، فكما كانت تحمل المؤن والطعام من الفسطاط إليها ، كان أصحاب الحرف يتوجهون إلى تلك الجهات للعمل ، تماما كما يفعل المصريون في وقتنا الحاضر (١٠) .

وقد شهد العصر العباسي نهضة كبيرة في تشييد الدور والقصور والمساجد ، فكانت تبني بالطوب المحروق ، كما شاع استخدام الأحجار في البناء ، وكان المصريون في عصر الولاة يقطعونها من تلال المقطم الشهيرة ، وقد ظلوا يستخدمونها حتى أيام الفاطميين ، ويصف ابن حوقل هذه المحاجر بالمقطم فيقول : « وفي المقطم مقاطع حجارة بيض خشنة تنشر كما ينشر الخشب » ، وقد عرف المصريون كيف يستخدمون مثل هذه الأحجار في تزيين المباني والعمائر بالفسطاط وغيرها .

وكان حجر السماق الأحمر والأخضر يؤتى به محمولا على صفحة النيل من محاجر أسوان وغيرها بالقرب من الأقصر إلى الفسطاط حيث يتم استخدامه (١١) ، وكما قام النحاتون بصنع الشواهد التي شاع استخدامها في فجر الإسلام ، وكانت خير شاهد على تقدمهم في صناعة النحت وطرق الانتفاع بها . كما يشير بتلر إلى ذلك النوع من المرمر الثمين المستخدم

(٩) ذكر ابن فضل الله العمري أنه حصل منها عدة صناديق غير تلك التي أصابها التلف والحريق الذي شب سنة ٧٤٠هـ ويصف الممول من الفسيفساء فيقول : « إن الممول القديم من الفسيفساء ، لا يوجد مثله في صفاء اللون وبهجة المنظر » مسالك الأبحار ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

(١٠) ويشير ديماند إلى رحيل كثير من البنائين والصناع المصريين للعمل في عمارة كل من بيت المقدس ودمشق وبلاد الحجاز حيث اتبع العباسيون نقل المواد الخام اللازمة للبناء والصناع كما كان يفعل الأمويون وذلك من مختلف الأقاليم ، الفنون الإسلامية ، ص ٢٤ .

(١١) مازال البناءون حتى وقتنا الحاضر يطلقون عليه الحجر الفرعوني ، لا ينحته ويقوم ببنائه إلا المهرة من الصناع وأصحاب الخبرة في أعمال البناء .

فى تزىين العمائر بالعاصمة القسطاؓ والاسكندرية وغيرها من المدن
المصرية (١٢) .

وىصف ابن اياس ما اشتهرت به مصر فى عصرها الاسلامى ،
وما كانت تستخدمه من أنواع الرخام والأحجار التى أمكن استغلالها من
محاجر الصعيد وجهة السويس أو القلزم فىقول : « وبها مقطع الرخام
المرمر وله منافع عديدة ، ومقطع الرخام الأبيض الصعيدى ، والأسود
السويسى ، والرخام السماقى والفستقى لا يوجد الا بها ، وبها حجر
الصوان المانع الذى تعمل منه الأعمدة والأعتاب » كما يشير المؤرخ الشهير
ابن اياس الى توفر حجر الكدان الذى كان المصريون يبلطون به دورهم
وقصورهم ويعقدون به الدرج من السلام العالية .

وتشهد تلك التحسينات والزيادات التى أدخلت على جامع عمرو
بن العاص فى العصر العباسى بما بلغته العمارة الاسلامية ، واستخدم
البنائين واستغلالهم لهذه المواد من أنواع الأحجار والرخام ، وفى ولاية
صالح بن على على مصر عام ١٢٣ هـ عمل على زيادة مؤخرة الجامع ، فكانت
أربعة أساطين أو أعمدة من الرخام . وفى عهد الخليفة هرون الرشيد زاد
موسى بن عيسى الرحبة أو الفناء للجامع وذلك فى سنة ١٧٥ هـ .

وقد بلغت العسكر من المبانى والمنشآت حتى صارت مدينة ذات
محال وأسواق ودور عظيمة ، ويقول المقرئى : « ونشطت العمارة فى
العسكر الى أبعد حد ، ولا شك أنه تم استخدام الحجارة والأعمدة الرخامية
التي كانت تؤخذ من المبانى القديمة . ومن الدور التى شيدت من الحجارة
وغيرها من مواد البناء على جبل المقطم تلك الدار التى شيدها حاتم
ابن هرثمة أحد ولاة مصر فى العصر العباسى سنة ١٩٥ هـ وقد عرفت
بقبة الهواء ، واستمرت قائمة حتى عصر الطولونيين .

كما كان بناء الحمامات يستلزم أنواعا من الحجارة والرخام التى كانت
تجلب من المحاجر العديدة التى أشار إليها ابن اياس وغيره من الرحالة
والمؤرخين ، ومن الجدير بالذكر أن بعض الدور التى تم تخطيطها بالقسطاؓ
كان بها حمامها الخاص مثل الدار التى اختطها أبو ذر الغفارى « دار العمدة

(١٢) كانت مصر منذ أيام الفراعنة مشهورة بما فيها من أنواع المرمر البديع وكانت
حلبة الكنائس والقصور فى سائر أنحاء العالم من هذا الحجر الثمين وكانت له سوق رائجة
فى العاصمة الاسكندرية وبقيت هناك حتى أيام الفتح العربى ، بتلر : فتح العرب لمصر ،
ص ٩٢ .

ذات الحمام ، ودار السلسلة التي أقطعها عبد العزيز الفهرى مولى ابن
رمانة وبناها له يزيد بن رمانة وجعل بها حماما .

ومن خير الشواهد على استخدام الرخام فى صناعة البناء ما كان فى
مقياس النيل ، فالمقياس عبارة عن عمود من الرخام الأبيض المثلث ، كان
يقام فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه اليه ، وهذا العمود مفصل
على اثنين وعشرين ذراعا كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسما متساوية
تعرف بالأصابع . وكان الخلفاء يهتمون بمقياس النيل لارتباطه بالفيضان
وتقدير الخراج ، يذكر الكندى أن الخليفة المأمون أثناء اقامته بمصر
ركب اليه ونظر فى موضع المقياس ، وأمر باقامة جسر آخر فعمل له هذا
الجسر القائم بالفسطاط وترك القديم .

وقد اهتم المؤرخون والرحالة بشأن مقياس النيل ، ويبدو أنه حدث
تضارب فى ذكر أسماء الخلفاء العباسيين الذين أولوا هذا المقياس عنايتهم،
يشير ابن دقماق الى ذلك فيقول : « ويزعم أكثر الناس أنه عمارة المأمون
وليس الأمر كذلك ، فان المأمون مات فى سنة ٢١٨ هـ ، وهذا المقياس
عمر فى سنة ٢٤٥ هـ ، أى فى خلافة المتوكل العباسى .

وقد ذكر الكندى أنه ورد كتاب الخليفة المتوكل بابتناء المقياس
الهاشمى للنيل ، وب عزل من كان يشرف عليه من أهل الذمة ، فجعل عليه
أبو الرداد المعلم ، وقد أجرى عليه كاتب الخراج سليمان بن وهب سبعة
دنائر وذلك فى سنة ٢٤٦ هـ (١٣) . كما ذكر ابن خلكان أن الذى أشرف
على تنفيذه وبنائه أحمد بن محمد المحاسب بأمر المتوكل ، ولعل المهندس
الذى قام بتصميمه المعماري كما أشار ابن الزيات هو أحمد بن محمد الذى
نعتة بمهندس المقياس .

ويدل وصف الادريسي لمقياس النيل على ما بلغه فن العمارة فى ذلك
الوقت وما استخدم فى تنفيذه وتشيينه من الرخام وغيره من مواد البناء
والزخرفة حيث قال : « وهى دار كبيرة يحيط بها من داخلها من جهة أقبية
دايرة على عمد ، وفى وسط الدار فسقية كبيرة عميقة ينزل اليها بدرج
رخام على الدائر ، وفى وسط الفسقية عمود رخام قايم ، وفيه رسوم أعداد
أذرع وأصابع بينهما ، وعلى رأس العمود بنيان متقن من الحجر وهو ملون
مرسوم بالذهب اللازورد وأنواع الأصباغ المحكمة ، ولا شك أن وصف

(١٣) كان جدهم عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن الرداد من البصرة ، ثم رحل
الى مصر وحدث بها ويكنى بأبى الرداد ولقبه المقرئ المعلم . الولاة والقضاة ، ص ٢٠٣ .
المخطوط ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

الادريسي المتوفى ٥٤٩ هـ / ١٢٥١ م هو ما كان عليه في أواخر عصر الولاة ، حيث بقي دون تغيير يذكر ، اذ لم يذكر لنا المقریزی شيئاً من التفاصيل عما كان عليه أمر اصلاح المقياس في عهد أحمد بن طولون (١٤) ، وذلك على غرار أوصاف تلك التعديلات أو التحسينات التي كانت تتم بالنسبة لجامع عمرو بن العاص .

ولا شك أن تشجيع الخلفاء والولاة واهتمامهم الملحوظ بإقامة وتشييد المنشآت الدينية والهندسية كالقناطر ومقاييس النيل وغيرها كان له الأثر الملموس في نشاط حركة البناء والتبخر في العمران كما يذكر ابن خلدون ، وقد اهتم الولاة في مصر بإقامة الجواسق وبناء المصانع التي جاء ذكرها في القرآن الكريم (١٥) ، وهي أشبه بالأحواض التي تبني في الأرض لتخزين المياه وحفظها ولجمع مياه المطر . وذكر أنه حينما شكت قبيلة المعافر الى يزيد بن حاتم أمير مصر من قبل المنصور لتعذر وصول الماء اليهم ، أمر لهم ببناء فسقية وأجرى إليها الماء ، وأنفق في ذلك أموالاً طائلة .

وفي عهد الخليفة المأمون قام عبد العزيز الجروي الثائر ببناء المصانع في وسط مدينة تنيس (١٦) ، ذكر ابن بسام أنه كان بتنيس مصنعان عظيمان ينسبان الى عمر بن حفص أحد من تولى أمرها ، ومصنع مسفوف وسط المدينة بناء عبد العزيز الجروي ، وكان يسع ثلاثة آلاف وستمائة جرة من الماء . وليس من المستبعد أن يكون عمال دمياط وأنقرما وغيرهما من المدن الساحلية قد قاموا ببناء مثل هذه المصانع لحفظ الماء المنذب لحاجة السكان اليه طوال أيام السنة كما حدث في تنيس .

(١٤) ذكر المقریزی أن أحمد بن طولون ركب في سنة ٢٥٩ هـ ومعه أبو أيوب صاحب خروجه وبكار بن قيبه فنظر الى المقياس وأمر بإصلاحه ، وقدر له ألف دينار في مسيل تعبته . الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(١٥) يقول الله تعالى في كتابه الكريم : « وتخذون مصانع لعلكم تغلدون » سورة الشعراء : الآية ١٢٩ . والمصانع المنصود بها حياض الماء . حسنين محمد مخلوف : كلمات القرآن تفسير وبيان ، ص ٢٢٩ .

(١٦) انتهز عبد العزيز الجروي فرصة خلع الأمين في جمادى الآخرة سنة ١٩٦ هـ وثار في فرمه بجبهة فاقوس وبلييس وبعث بعمال له لجباية الخراج من مصر السفلى ، وظل على ثورته يجازب الولاة بالوجه البحري حتى قتل أثناء حصاره الاسكندرية للمرة الرابعة وذلك في آخر شهر صفر سنة ٢٠٥ هـ .

ومما يدل على نشاط حركة البناء في عصر الولاة ما تم تشييده من الجواسق والحصون والرباطات في الثغور المصرية وعلى الحدود المتاخمة للبلاد من جهة الجنوب . فقد ذكر ياقوت أن سور تنيس ابتدئ في بنيانه في شهر ربيع الأول سنة ٢٣٠ هـ وكان والى مصر يومئذ عيسى بن منصور الخراساني المعروف بالرافعي . ويبدو أن تشييد هذا السور استغرق وقتا طويلا حيث تم الفراغ من بنائه سنة ٢٣٩ هـ في ولاية عنبسة بن اسحق في عهد الخليفة المتوكل .

وكانت دمياط قد تعرضت لغزو الروم عام ٢٣٨ هـ ، وأصدر الخليفة المتوكل أوامره ببناء حصن لها ، فابتدئ في بنائه في رمضان عام ٢٣٩ هـ . كما عمل المتوكل على اقامة حصن آخر لمدينة الفرما على ساحل البحر المتوسط ، وتولى الاشراف على بنائه الوالى عتبة بن اسحاق في نفس العام أيضا ، وأنفق في سبيل ذلك أموالا طائلة . وهكذا نشطت حركة البناء في تشييد الأسوار والحصون وفي اقامة الرباطات مثل هذه الرباطات التي اقيمت من جهة الأحباش والبجة . وما يقرب منهم ، وكذلك رباط أسوان على حدود النوبة والواحات على حدود البربر والسودان .

وخلاصة القول أن تشجيع الخلفاء والأمراء على اقامة مثل هذه الحصون وغيرها من المنشآت الدينية والهندسية كان له أثره الملدوس في ازدياد نشاط الحرفيين والبنائين وغيرهم من صناع العمارة في عصر الولاة .

٢ - العمارة ومظاهر التأثير الحضارى فى عهد الطولونيين والاختشيديين

لم يكن مؤسس الدولة الطولونية أحمد بن طولون ليقتنع بدار الامارة فى العسكر ، بعد أن ضاقت بحاشيته وجنده الكثيرين ، وبدأ فى تأسيس حاضرة له وفى ذلك يقول الكندى : « وأبتدا أحمد بن طولون فى بنيان الميدان فى شعبان سنة ست وخمسين وأمر بحرث قبور اليهود والنصارى وببنى موضعهما » .

ولا شك أن تفكير الأمير الطولونى فى ترك الامارة بمدينة العسكر او فى القسطنطينية إنما يمثل اتجاهه الجديد فى الاستقلال بمصر ، ورغبته فى منافسة بلاط العباسيين من حيث العظمة والأبهة . وقد قسم ابن طولون مدينته الجديدة بين جنده ورجال حاشيته ومن احتاجوا اليهم من صناع وتجار ، فصارت لكل طائفة قطيعة ، وكانت كل قطيعة تعرف باسمها كما يذكر البلوى ، فكان هناك قطيعة الروم وقطيعة السودان ، وقطيعة البزازين ، وقطيعة الجزارين ، وأصبح يطلق على مدينة ابن طولون اسم القطائع (١) . ويبدو أن تخطيط القطائع هذه كان يشبه الى حد كبير تخطيط سامرا حيث كان يطلق اسم القطائع على مدينة سامرا التى بناها المعتصم الخليفة العباسى اللهم الا القصور الملكية (٢) .

وكان لقصر أحمد بن طولون عدة أبواب كبيرة ، وكان لكل باب منها

(١) وذكر ياقوت فى تعريب القطائع أنها جمع قطيعة وهو ما أقطعه الخلفاء لقوم فعازوه ، وتعرف بقطائع الموالي . معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ١٢٠ .

(٢) ويمدنا اليعقوبى بأسماء القطائع التى أقطعها المعتصم العباسى الى قواد جندسه من خراسان وما أقطعه الأتراك وأصحابه الموضع المعروف بالكرخ وضم اليه عددا من قواد الأتراك ، وقطائع الجند والشماعية وأخلط الناس وغيرهم البلدان ، ص ٢٥٨ - ٢٦٤ ، المعري : الخط ، ج ١ ، ص ٥٨٩ .

اسم يدل أحيانا على الجهة التي يؤدي إليها ، أو نوع الخدم وذلك كما كان متبعاً في قصور سامرا . وكان أهم أبواب القصر باب الميدان ، ومنه كان يمر الجند ، وباب الخاصة للمقربين من الأمير ، وباب الصوالة وكان يؤدي إلى الميدان الكبير المخصص للعب الصوالة . وباب الحرم وباب الصلاة وكان يوصل إلى جامع ابن طولون ، وباب الجبل وتشرف عليه تلال المقطم ، وباب الساج نسبة إلى الخشب الذي اتخذ منه ، وأبواب أخرى مثل باب السباع نسبة إلى سبعين كبيرين عملاً من الجص كانا على جانبيه .

وهكذا يمكن القول بأن تخطيط القطائع كان على طراز سامرا في العراق ، وكان القصر الطولوني من الضخامة والاتساع وتعدد الأبواب بما يشهد على ما احتاج إليه الأمر من مئات الصنائع والبنائين والحرفيين ، ومن الجدير بالذكر أن القطائع لم تبق مدة طويلة كمقر للأمير ورجال حاشيته فحسب ، بل ما لبثت أن اتسع نطاقها وزادت عمارتها .

فقد ذكر مؤرخو مصر الإسلامية أنها أصبحت مدينة كبيرة زاهرة وأنشئت فيها المساجد الجميلة والحمامات والأفران والطواحين والشوارع والمحال الصناعية فضلا عن المنازل وغير ذلك مما تحتاج إليه المدن الكبرى وامتدت عمارتها حتى اتصلت بمدينة الفسطاط . والواقع أن هذه النهضة العمرانية كانت من أهم الأسباب لتقدم وتطوير انصناعات المعمارية في العصر الطولوني ، فقد كان الإقبال على طلب ما تصنعه أيدي هؤلاء الحرفيين من جانب الدولة وسائر أفراد الشعب خير حافز لهم على تطوير صناعاتهم وإقبالهم على المزيد من التعلم واكتساب الخبرات . ويعمل ابن خلدون وتلميذه ابن الأزرقي ذلك بقولهما : « أما إذا كسدت أسواقهم (يعني قلة الطلب والحاجة) فإن الحرفيين يقعدون عن التعلم ويصيبهم التراخي والاهمال ، » .

ومما يدل على نشاط حركة المعمارين وشدة الحاجة إلى هؤلاء المهندسين والبنائين وغيرهم من الحرفيين - في عهد ابن طولون - ما أوضحه المؤرخون في هذا المجال ، فقد بدأ أحمد بن طولون في بناء الجامع الشهير باسمه والبيمارستان وذلك في نفس العام الذي أمر فيه ببناء حصن الجزيرة ليكون معقلاً لئلا يهرب منه . وكما يذكر أبو المحاسن أن جملة ما أنفق على هذا الحصن بلغ ثمانون ألف دينار ، وقيل مائة ألف دينار .

وكان ابن طولون يشرف بنفسه على الصنائع من البنائين وغيرهم في تنفيذ تلك المنشآت الضخمة وتشبيد الحصون ، وكما يذكر البلوي فإنه كان يباكر الصنائع في السحر حين يخرجون من منازلهم في كل يوم إلى مواقع العمل ، وكان يجزل لهم العطاء .

وبلغ من اهتمام ابن طولون بأمر انشاء الجامع ، وقد أراد أن يكون من الاتساع والضخامة ما يتضاءل الى جانبه جامع عمرو وجامع العسكر ويكون عنوانا لعظمة الأمير ولرخاء البلاد في عصره ويعمل الكندي أسباب التفكير في انشاء جامع ابن طولون بقوله : « وشكا أهل مصر الى أحمد ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده وسودانه ، فأمر بإبتناء المسجد الجامع بجبل يشكر (٣) وابتدىء في بنائه سنة أربع وستين وفرغ منه في سنة ست وستين ومائتين » وان كان جامع السيرة الطولونية كما نقل عنه المقريزى وقد ذكر أن بنىء الجامع بدأ في سنة ٢٦٣ هـ بعد بنىء القطائع (٤) .

ومهما كان وجه الخلاف في السنة التي بدأ تشييد الجامع فيها ، فإن الذى يهمنا مدى ما بلغه فن المعمار من تقدم في أساليب البناء حيث تبرهن الروايات التاريخية على قيام المهندسين في ذلك العصر بعمل الرسومات الهندسية والنماذج المجسمة للمنشآت المعمارية تماما كما يحدث في عصرنا الحديث ، فحينما شرع ابن طولون في بناء مسجده بالقطائع عام ٢٦٣ هـ / ٨٧٦ م كتب اليه مهندسو يقول : « أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد الا عمد القبلة ، وأنا أصوره حتى تراه عيانا » فأمر بأن تحضر له الجاود فأحضرت ورسم المسجد له فأعجبه واستحسنه » .

وكما أثر عن ابن طولون بشأن تصميم الجامع وتنفيذه أنه قال : « أريد أن أبني بناء ان احترقت مصر بقي ، وان غرقت بقي ، فليل له يبني بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى النار الى السقف ولا يجعل فيه أساطين من رخام لانه لا صبر لها على النار » . وهكذا كانت المباني في عصر الطولونيين لا يبدأ العمل في انشائها الا بعد عمل الرسومات والمقاييسات كما يقال في عصرنا الحاضر .

(٣) ويذكر جامع السيرة الطولونية أن جبل يشكر الذى كان يشرف على النيل وعلى بركة الفيل وبركة قارون كانت أحجاره ينشر منها ويسطح ويعمل منها الجير ويبنى بها الى أن فرغ من جميع بنيانه وبياضه .

البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، ص ١٨٢ ، المقريزى : المخطط ، ج ١ ، ص ٢٣٢ .

(٤) ويؤيد جامع السيرة الطولونية المقريزى في التاريخ الذى بدأ فيه بناء الجامع وهو سنة ٢٦٣ هـ ما هو مسجل بالمخط الكوفي في لوحة لتأسيس المثبتة فوق إحدى دنانير رواق القبلة للجامع . سيرة أحمد بن طولون ، ص ١٨٢ ، المخطط ، ج ٣ ، ص ١٤٢ ، محمودة عكرشي : الجامع الطولوني ، ص ٢٣ - ٢٤ .

وقد تم تشييد جامع ابن طولون بمعرفة أحد المهندسين (٥) وتان البناء من الآجر الأحمر الداكن ، كما أقيمت أقواس الأروقة محمولة على دعائم ضخمة من الآجر أيضا تكسوها طبقة سميكة من الجص . وتبدو مظاهر التأثير الحضارى فى بناء الجامع ، كما ذكر ابن دقماق أنه كان على غرار بناء جامع سامرا وكذلك المنارة أو المئذنة التى تم تشييدها على قاعدة مربعة تقوم عليها طبقة أسطوانية ، وعليها طبقة أخرى مثمثة ، وأما السلالم فكانت من الخارج على شكل مدرج حلزونى حول المئذنة (٦) وهكذا فإنه لم يقتصر الأمر فى ظهور طراز سامرا فى الزخارف الجصية فى الجامع ، بل غدت العقود المدببة تسود كل البناء ، وتعلو الدعائم والنوافذ والمحراب ، فضلا عن الشكل الهندسى الذى شيدت عليه المنارة والزخارف النباتية التى امتدت على أفاريز الدعائم والعقود والزخارف الخطية المحفورة على الخشب (٧) .

وقد ذكر المقرئى أن أحمد بن طولون كان يشرف على بناء الجامع بنفسه وأنه رأى الصناع يبنون فى الجامع الى حين وقت العشاء فهو يصف ذلك قائلا : « كان فى شهر رمضان فقال : متى يشتري هؤلاء الضعفاء انطارا لعيالهم وأولادهم ؟ أصرقوهم العصر . فصاروا سنة الى اليوم بمصر » .

كما نقل المقرئى عن المسيحي وصفه للفوارة التى قام الصناع بعملها فى وسط صحن الجامع ، وكانت عبارة عن قبة مشبكة من جميع

(٥) يصف البلوى ذلك المهندس بأنه كان رجلا نصرانيا حسن الهندسة حاذق فيها وأنه هو الذى تولى بناء العين والسقاية أو القناطر وغيرها من المنشآت المعمارية فى عهد ابن طولون وكان اسمه سعيد بن كاتب القرعاني وأكبر الظن أن هذا المهندس كان مسيحيا من العراق لأنه لو كان من مصر لما أغفل المقرئى أن ينص على أنه قبطى ، ولو كان ييزطى الأصل لقال أنه رومى وقد نفى المهندس فريد شافعى بشدة أن يكون من أقباط مصر ، وقام بتنفيذ آراء الآخرين تبعا للأسس العلمية والهندسية البحتة والواقع أن بناء الجامع وزخارفه الجصية تدل على أن المهندس الطولونى أتى من سامرا وأنه كان خبيرا بمسا ازدهر فيها من العمارة والفنون ، سيرة أحمد بن طولون ، ص ١٨١ ، المخطط ، ج ٣ ، ص ١٤٢ ، أحمد تيمور : أعلام المهندسين ، ص ٢٤ ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٤٧/ ، محمود عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولونى ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٦) ذكر أبو المحاسن أن ابن طولون كان يستشير الصناع فى الشكل الذى تقوم عليه . وأنه أمسك درجا من الكاغد ورسم لهم الشكل الذى ارتآه ، وأمرهم بتنفيذه . النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٨ .

(٧) منز : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٧٦ ، عمل : الحضارة العربية ، ص ١٤٩ ، ترجمة المدري .

جوانبها وهي مذهبة على عشرة عمد رخام ، وستة عشر عمود رخام في جوانبها ، مفروشة كلها بالرخام ، وتحت القبة قصعة رخام سعتها أربع أذرع في وسطها فوارة تفور بالماء ، وفي وسطها قبة مزوقة يؤذن فيها ، وفي أخرى على سلمها ، وفي السطح علامات الزوال ، وقد عملت بدرابزين ساج ، وقد ظلت هذه الفوارة وما اشتملت عليه من علامات الميقات وغيرها الى أن احترقت جميعها في سنة ٣٧٦ هـ في عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمي .

ولا شك أن بناء المسجد على هذه الصورة من الأساطين الواسعة والسقوف العالية والزخرفة الجصية ، كان أكبر وأبهى من جامع عمرو بن العاص ، وقد عبر المقدسي عن إعجابه حين مشاهدته له بعد أكثر من قرن من الزمان على اتمام بنائه حيث قال : « والجامع الفوقاني من بناء ابن طولون أكبر وأبهى من السفلاني (٨) ، على أساطين واسعة مصهجة ومسقوفة عالية في وسطه قبة على عمل قبة زمزم فيها سقاية مشرف على فم الخليج وغيره » .

وكان جده عبد الله محمد المقدسي مؤلف كتاب أحسن التقاسيم أبو بكر البنا أحد المهندسين الذين اشتهروا بصناعة البناء والعمارة في العصر الطولوني ، ذكر المقدسي أن أحمد بن طولون حينما زار عكا بالشام وأراد أن ينشئ لها ميناء كالتى رآها في مدينة صور ، جمع الصناع وشاورهم في ذلك ، ف قيل له انه من الصعوبة الاهتداء الى أحد البنائين في الماء في هذا الزمان ، ثم ذكر له كما يقول المقدسي : « جدنا أبو بكر البنا فكتب اليه ، فلما حضر أعلمه بأن الأمر هين وليس من العسير انجازه » .

وقد وصف المقدسي تلك الطريقة التى اتبعها جده في بناء الموانىء ، فكان كلما بنى خمس دوامس أى مدا ميك ، ربطها بأعمدة غلاظ ليشتمد البناء ، وجعلت على فلق الجميز الغليظة (٩) كلما ثقلت نزلت حتى اذا علم أنها استقرت على الرمل فى القاع تركها حولا كاملا حتى اذا أخذت قرارها ، عاد فبنى من حيث ترك ، وهكذا حتى تم له بناء الميناء على النحو المطلوب ، ثم جعل على الباب قنطرة المراكب فى كل ليلة تدخل الميناء مثل صور ، وقيل ان الأمير ابن طولون دفع اليه بألف دينار مكافأة له سوى الخلع الثمين .

(٨) . ويعنى بالسفلاني الجامع العتيق بالفسطاط وكان يقال له تاج الجوامع ، وجامع عمرو بن العاص ، وهو أول مسجد أقيم فى الديار المصرية ، المقربى : المخطط ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .

(٩) فلق الجميز الغليظة هى ما تسميه اليوم بكتل الخشب الضخمة .

ومن الجدير بالذكر أن نشاط المهندسين لم يكن مقصورا على الاقليم الذى يقومون فيه . بل انهم كثيرا ما كانوا يوجهون للعمل فى الخارج ، وعلى ذلك فمن المرجح أن يكون أبو بكر البناء من الذين شاركوا فى عمارة الثغور المصرية والقناطر التى تم تشييدها فى الجهة الجنوبية الشرقية من القطائع ، وقد ذكر اليلوى أن جملة ما أنفق ابن طولون على الثغور وحسن يافا كان مائتى ألف دينار .

ولا غرو فقد اهتم ابن طولون بهؤلاء المهندسين والصناع وتشير المصادر الى أنه حين قدومه الى مصر استقدم معه طائفة من الصناع والبنائين وغيرهم من الفنانين الذين كان لهم الفضل فى اقامة الدور وبناء القصور والعمائر فى بغداد وسامرا عاصمة الخليفة المعتصم العباسى .

وقد بنيت قناطر ابن طولون بأجر يماثل فى الشكل والحجم أجر الجامع الطولونى ويقال أن الذى تولى لابن طولون بناء هذه العيون هو المهندس النصرانى الذى شيد له بعد ذلك المسجد الجامع .

ولم يقتصر اهتمام ابن طولون على انشاء مثل هذه القناطر التى لا تزال بعض عقودها قائمة وكان الماء يسير فى عيونها حتى القطائع ، وانما تذكر المصادر أنه قام ببناء المصانع لحفظ المياه فى الفسطاط ، وفى تنيس وغيرها من المدن المصرية . وكانت هذه المصانع شائعة فى المدن منذ العصور القديمة (١٠) . فقد ذكر ابن بسام أن أحمد بن طولون أقام ثلاثة مصانع فى تنيس أحدهما بالقرب من السوق والأخرى فى زيادة الجامع ، ويحدد ياقوت وقت دخول الأمير الطولونى المدينة حيث ذكر أنه دخل تنيس فى سنة ٢٦٩ هـ فبنى عدة صهاريج وحوانيت فى السوق كانت تعرف بصهاريج الأمير .

والواقع أن أحمد بن طولون قام بعدة اصلاحات أخرى هامة فى مجال المشروعات العمرانية والهندسية كمقياس النيل بالروضة حيث تم تعميره ، كما قام باصلاح منارة الاسكندرية (١١) ، ولا شك أن هذه الأعمال المعمارية تطلبت الكثير من جهود الصناع والمهندسين ، فقد استغرقت

(١٠) ذكر الرحالة الأندلسى ابن جبير أنه كان باخيم آثار ومصانع بنيان القبط وأثيرها التى أدهشته بنقوشها وما كان عليها من الكتابات والتصاوير على جدرانها . رحلة ابن جبير ، ص ٤٠ .

(١١) ذكر المقرئى أنه أصحح أجزاء من المنارة وجعل فى أعلاها قبة من الخشب يصعد إليها من داخلها ، كما كان قد تهم أحد أركانها الغربية فقام ابنه خمارويه ببنائها . نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

السنوات الطوال والأموال الطائلة ، حتى أنه لم يستطع إرسال الأموال السنوية إلى الخلافة كالمعتاد ، حيث بلغت جملة ما أنفقه على الجامع والبيمارستان والقناطر وحصن الجزيرة ومرمات الثغور نحو ستمائة وعشرون ألف دينار .

وتشير المصادر التاريخية إلى أن حركة العمارة وإقامة الدور والمنشآت لم تتأثر بوفاة مؤسس الدولة الطولونية في عام ٢٧٠ هـ ، فقد استمرت حركة البناء في عهد ابنه خماروية وزاد نشاطها ، يصف ابن دقماق هذه الحركة قائلا : « ولم يفتر من البناء ولا الزيادة أيام حياته ، ثم لم يزل ابنه أبو الجيش خماروية يعمر بعده ويزيد فيه ، وعمل فيه التاج وبركة الزئبق والقبعة المذهبة ويقصد بذلك زيادته في عمارة القصر الطولوني والميدان عما كان عليه .

ولا شك أن وصف ابن دقماق والمقريزي وغيرهما من المؤرخين لقصر خماروية إنما يدل على ما بلغه الدهانون والرسامون من رقى الفن وكمال الصنعة وخاصة فن التصوير ولا غرابة في ذلك فقد تم طلاء جدران القصر كلها بالذهب المزوج باللأزورد ، وأصبح بعد الزيادات التي أدخلت عليه من أعجب مباني الدنيا ، وقد أطلق عليه بيت الذهب .

أما بركة الزئبق التي شاع ذكرها في الآفاق في ذلك العصر ، فقد بلغ طولها خمسون ذراعا وعرضها خمسون ، وكان في أركانها أساطين من الفضة الخالصة فيها زنابير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة . وقيل في وصفها (١٢) : وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية ، فكان يرى لها في الليالي القمرية منظر عجيب إذا تألق نور الزئبق ، ولا ريب أن تصميم هذه البركة وتنفيذها على هذه الصورة إنما يعكس قدرة المهندسين وابداعهم بقدر ما يدل على حياة الترف والنعيم التي عاشها أبو الجيش خماروية بن أحمد بن طولون .

وذكر المقريزي أنه لما فرغ خماروية من جهاز ابنته قطر الندى ، أمر فبنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد فكانوا

(١٢) قيل في أسباب إنشاء بركة الزئبق بين يدي القصر الطولوني أن خماروية كان يعتريه الأرق وكثرة السهر ، فأمر بعمل بركة وتملا زئبقا ، وجعل عليها من الأدم ما يحشى بالرياح ، وحتى ينتفخ ويحكم حينئذ شلعه وينزل الأمير الطولوني فينام عليه ، فلا يزال الفراش يرتج ويتحرك الزئبق حتى ينام مغليا على الأرق الذي كان مصابا به . ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٢٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

يسرون بها سير الطفل في المهد ، فاذا دخلت المنزل وجدت لها قصرا قد فرش فيه جميع ما يحتاج اليه ، وعلقت فيه الستور ، وفيه من أنواع الأثاث والتجهيزات ما يصلح ليلها في حال الإقامة . مما يدل على نشاط حركة البناء وازدهار العمران في عصر الطولونيين .

وليس من شك في أن الطولونيين استخدموا بعض الفنيين ومهرة الصناع من العراق للاستعانة بهم ربما للتخطيط في بناء قصورهم والمنشآت الدينية والقناطر وغيرها وفقا للأساليب الفنية أو الهندسية الشائعة في بغداد أو سامرا ، لكن التنفيذ كان يقع دائما على كاهل الصناع البنائين والحرفيين المصريين . وقد أثبتت حفائر القسطنطينية أن الدور (١٣) كانت تبنى أسسها بالدبش وبالمونة والطين أو الطين المخلوط بالجير (١٤) وأحيانا كان البناءون يقومون برص الآجر على هيئة مداميك تختلف درجة انتظامها ، حيث تسقى بمونة الجير والرمل وقد يضاف اليه القصرمل أو الحمرة .

أما الجدران فكانت من الآجر الأحمر الداكن شديد الصلابة ، وتدهرت عادة البنائين أنهم كانوا يصنعون الآجر مداميك أفقية متبادلة مدامك بالطول وآخر بالعرض ، أشبه ما هو عليه نظام البناء في وقتنا الحاضر . وكانت تستخدم مونة الطين والجير وذلك في البيوت قليلة الشأن ، أما الدور الهامة أو القصور فكانت تبنى من المونة المكونة من الجير والرمل أو الحمرة وهي الآجر المسحوق . وفي بعض الأحيان كانت هناك مون تخلط فيها الجص بالجير على نسب مختلفة ، ومن الجص الخالص والجير الخالص حسب ظروف البناء (١٥) .

(١٣) وسميت الدار دارا لتدويرها بالطوب الأحمر أو الحجر النحت وغيره وهذه «سفة» دور المدن وهي تختلف في بنائها عن القرى فربما تبنى من الوحل أو الطين ، وقبل انحصار التسمية للدور لأن الشخص يدور ويرجع اليها . الشرييني : هز القحوف ، ص ١٩٠ .

(١٤) ترجع الحفريات التي أجراها علي بهجت والبير جبرائيل في سنة ١٩١٢م بالقسطنطينية ، إلى تلك الفترة التي حكم فيها مصر أحمد بن طولون في منطقة القطائع . ومن المثير بالذكر أن القطائع خربت أيام الشدة العظمى في عهد الخليفة المستنصر ، وملك جميع من كان فيها من السكان ، وكانت يزيد على مائة ألف دار . نزعة للناظرين . المخطط ، ج ١ ، ص ٦٠٦ .

(١٥) أجرى عباس حلمي دراسة مستفيضة على بيوت القسطنطينية وانتهى إلى نسبة جميع تلك الدور التي كشفت عنها الحفائر التي أجراها علي بهجت وزميله البير جبرائيل إلى العصر الفاطمي .

وفى داخل الدور فانهم كانوا يبيضون الجدران بالجير الخالص ،
والجير المخلوط بالرمل أو بالجبص ، وقد يضيفون اليه التبن ، وأما الطين
المخلوط بالتبن فما كان يستعمل الا فى بيوت الفقراء .

وكان الصناع يعملون على رباط الجدران التى تشيد بالآجر بأخشاب
توضع وضعا أفقيا ، ثم تربط بمسامير من حديد تدق فى خواير قائمة أو
منحرفة تدخل فى جنب الجدار ، وقد عثر على أمثلة عديدة من هذه الأربطة
أحكم صنعها .

ويصف الأصخرى الجغرافى مبانى الفسطاط فيقول : « ومعظم
مبانيهم بالطوب طبقات ، وأكثر السفلى بها غير مسكون ، وربما بلغت
طبقات الدار الواحدة ثمانى طبقات ، ولا شك أن فى هذا مبالغة إذ لم
تكن لتصل فى علوها نحو ذلك . وذكر المقرئى أن بيوت الفسطاط كانت
مبنية باليوص والطين ، ولعله كان يقصد باليوص الخشب ، ولكنه لم يكن
أكثر دقة فى تعميم البناء بالطين أو باللبن ، فان البيوت الطولونية قد
شيدت جدرانها بالآجر على نحو ما كشفت عنه الحفائر بالفسطاط .

وكانت الزخارف الجصية للجدران أهم ما تميزت به العمارة
الطولونية وكشفت الحفائر عن قيام الصناع والنقاشين بعمل تلك الزخارف
من الجص الخالص ، وزخارف أخرى كان يتحد فيها الجص بالآجر . وتشبه
الزخارف الجصية التى عثر على نماذج عديدة منها فى دور الفسطاط أو
القطائع تلك الزخارف التى كانت سائدة بسامرا فى العراق ، مما يدل
على أن طريقة الصناعة ومظاهر الزخرفة هذه قامت على أصول واحدة فى
العهد الطولونى (١٦) .

وقد تبين من حفريات الفسطاط أن صناعة الجص فى مصر كانت
منتشرة فى عهد الطولونيين ، وأن الزخارف الجصية كانت بسيطة (١٧) ،

(١٦) وقد تم العثور فى سنة ١٩٣٢م بالتلال المجاورة لأبى السعود على أطلال منزل
طولونى واحتفظ تحت الفن الإسلامى بالزخارف الجصية التى عثر عليها فى أطلال هذا
البيت ، كذلك كشفت حفائر دار الآثار العربية (متحف الفن الإسلامى الآن) عن جدران
جزء من دار كبيرة بالآجر وعليها زخارف من الجص على النحو المتبع فى سامرا وفى الجامع
الطولونى . زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(١٧) وهناك فرق فى الصناعة بين الزخرفة بالجص والزخرفة بالآجر والجص ، ومن
الشواهد القديمة المؤرخة فى سنة ٣٠٧هـ ، وشاهد آخر يرجع الى سنة ٣١٣هـ وهما يكشفان
تماما مدى اختلاف طريقة الرسوم والزخارف على كل منهما على بهجت : حفريات الفسطاط ،
ص ١٢٩ .

فلم يستخدم فى الزخرفة غير لونين ، لون الطوب الأحمر الداكن والأبيض الجصى ، ولا شك أنهم كانوا يقصدون بذلك الاقتصاد فى النفقة وسهولة العمل لدى المخرفين للدور والقصور .

ومما يدل على تقدم صناعة الجص فى العصر الطولونى تلك المجموعة من الشبايك الجصية المفرغة بأنواع الزخارف النباتية ، ويحتفظ المتحف القبطى بنموذج من الجص للزخرفة النباتية من الطراز الطولونى (١٨) ، وعدة لوحات معمولة من الجص عليها رسوم تمثل القديس بطرس وهو يمسك بمفتاح ، ومنظر يمثل السيدة العذراء وهى جالسة تحمل الطفل يسوع المسيح (١٩) . كما يحتفظ متحف الفن الإسلامى بألواح ونماذج أخرى مصنوعة من الجص عليها زخارف نباتية من أوراق وثمار ، وما عرف بعد ذلك بزخارف الأرابيسك أو التوريق (٢٠) .

وقد شاعت صناعة التماثيل الجصية فى عهد خماروية وكذلك الشبايك الجصية فى العمارة الطولونية . كما تقدمت صناعة شواهد القبور ونحتها من حجر الرخام وغيره من الأحجار ، وكانت فى بداية أمرهما بسيطة حيث يتم نقشها من الأحجار . ويرجع الى هذه الصناعة وما أمدتنا به من الشواهد الفضل فى معرفة أسماء الكثير من الصناع والحرفيين من البنائين والطحانيين والزياتين وغيرهم من أرباب الحرف المختلفة .

ومن أسماء البنائين التى وردت إلينا عن طريق تلك الشواهد من عصر الطولونيين كان يحيى بن هرون البناء ، ويرجع تاريخ وفاة ابنته حبة صاحبة الشاهد الى شهر ذى الحجة سنة ٣١٥ هـ . وذكر ابن دقماق من أسماء المهندسين فى عهد خماروية المهندس أحمد بن محمد العجيفى (٢١) ، وقد أسندت إليه مهمة إعادة ما تهدم من جامع عمرو حينما وقع حريق به ، وكان للكتابات الأثرية الفضل فى معرفة اسم الأمير وتاريخ الإصلاح للجامع ، حيث كتب اسم خماروية فى دائرة الرواق الذى عليه

(١٨) رقم السجل : ١٣٨٧٠ .

(١٩) رقم السجل : ١١٤٤٩ ، ١١٤٦٢ .

(٢٠) رقم السجل : ١٣٨٦٨ .

(٢١) لم يكن لقب مهندس يعنى نفس المعنى المعروف فى الوقت الحاضر ، وإنما كان معناه أحيانا أقرب الى الصانع الفنى . فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٣٠٩ .

اللوح الأخضر (٢٢) ، حدث ذلك فى صفر سنة ٢٧٥ هـ ، يقول ابن دقماق عنها « وهى موجودة الآن وكانت عمارته فى السنة المذكورة » وهذا كان لصناعة شواهد القبور ونقشها ، كما كان للكتابات الأثرية على الجص وغيره من المواد أثر كبير فى ازدهار العمارة وفى معرفة أسماء صانعيها .

ومن أهم مظاهر تقدم البناء ما تشير اليه المصادر والكتابات الأثرية التى وصفت إلينا من عهد خمارويه ، فقد ذكر المقرئى أنه قام ببناء دار الحرم وكانت تخص حرمه وبلغت تكاليف ثمن الأرض وأجرة الصناع والبنائين سبعمائة ألف دينار .

كما تصف الكتابات الأثرية ما كانت عليه المباني فى عهد الطولونيين وما بذله القوم فى زخرفتها ، وكانت تتكون من الدهاليز والقاعات السفلى ، والرواشن المطلّة على الجهات الأربعة (٢٣) ، وغير ذلك بما جاء فى الوقفيات التى صاغها أصحابها ، وقد ورد فى إحدى هذه الكتابات ما نصه : « ان هذه الدار .. أحمد بن الحسن الأزرق بناها من فضل الله وعطائه سنة ٢٨٩ هـ » .

وتشير المصادر التاريخية الى شغف خمارويه وولعه بالبناء وزخرفته بالصور الجميلة ، ذكر أبو صالح الأرمنى أنه ابتنى غرفة بدير القصير ، كانت تطل على أربع جهات ، وكان الدير مزخرف وحوائطه بالصور الجميلة الصنعة ، ومنها صورة السيدة العذراء حاملة للسيد المسيح والملائكة عن يمينها ويسارها ، ويقول أيضا : « وكان خمارويه يقف عند هذه الصور ويتبصر فى حسن صنعته ويتعجب كثيرا من ذلك » .

وقد اشتهر من المهندسين أو الفنيين فى عهد الاخشيديين المهندس صالح بن نافع ، وذكر ابن سعيد أن محمد بن طغج الاخشيد طلب اليه أن يخطط له بستانه والقصر الذى شيده بالروضة بعد أن خلع عليه بامارة البلاد من قبل الخلافة العباسية ، وكان التخطيط يشمل تصميم القصر والبستان ودار الحرس ودار الغلمان وخزائن الطعام والملابس والفرش وما الى ذلك . وعندما عرض هذا التصميم أو الرسم فى رقعة كبيرة من الورق على الاخشيد استحسنته ، وسأل عن تكاليفه فقبل له ثلاثون ألف

(٢٢) نصب هذا اللوح الأخضر فى الموضع المشار اليه الأمير عبد الله بن طاهر وبنى مصر من قبل المأمون ، ولما احترق الجامع احرق ذلك اللوح ، فجعل أحمد بن محمد السجلمى مكان ذلك . المقرئى : المخطوط ، ج ٣ ، ص ١١٤ .

(٢٣) الروشن : جناح السطح أو للنظرة التى تشرق على خارج البيت : الشابسنى : الديارات ، ص ٢٨ ، حاشية .

دينار ، فطلب من المهندس صالح تخفيض قيمتها ، ثم أذن له بعد ذلك بالتنفيذ . وهكذا تدل رواية ابن زولاق المؤرخ المعاصر للاخشيديين على قيام المهندسين بعمل الرسومات الهندسية والمقاييس اللازمة بالتكاليف والنفقات قبل البدء في تنفيذ المشروعات بما يشبه تقريبا أعمال المكاتب الهندسية في وقتنا الحاضر .

ومما يعزز ذلك أن دور المهندس في ذلك الوقت لم يكن قاصرا على تصميم أو رسم وتنفيذ ما يستجد من المباني والمنشآت الحكومية وغيرها ، بل انه كان يقوم بمعاينة القديم منها وتقدير مدى صلاحية المبنى للسكنى من عدمه ، ولعل ما قام به المهندس على بن البواش خير دليل على ذلك ، فقد عهد اليه الاخشيدي سنة ٣٢٦ هـ / ٩٣٧ م بمعاينة وفحص كنيسة أبي شنودة في مدينة القسطنطينية ، ووضع تقرير عنها بذلك ، وبعد أن تمت المعاينة أشار في تقريره الى أنها تبقى خمسة عشر عاما ، ثم يسقط موضع منها ، وتسقط بعد ذلك جميعها عند تمام الأربعين سنة وكان من أمرها ما قرره المهندس المذكور .

ومن أسماء المهندسين الذين أسندت لهم مهمة الاشراف على تنفيذ المشروعات العمرانية ، ومنها بناء القصر الذي عرف بالمختار كل من المهندس زقاق والمهندس ابن أبي الرداد ، ويبدو انهما كانا في غاية الدقة باحكام صناعة البناء ، حتى قيل أن الاخشيدي كان يفاخر أهل العراق بما تم انجازه على أيديهما في بناء القصر أو البستان .

ويبدو أن الاخشيدي كان شديد العناية بتجميل حاضرتة ، كما كان يفعل ابن طولون ، فقد أشارت المصادر الى أنه أمر بإنشاء بستان آخر في شمال القسطنطينية والذي عرف بعد ذلك بالبستان الكافوري . وقام الصناع والحدادون بصناعة الأبواب الحديدية له ، وكان ينزل به ويقوم بإتمامها كاملة .

كما اهتم الاخشيدي بعمارة المساجد واطلاق النفقات لها ، يذكر ابن سعيد انه كان اذا دخل شهر رمضان أطلق النفقات للمسجد الجامع ، وأمر بعمارة المساجد بالجص والبياض والخلوق والمصاييح والأئمة . مما يدل على شيوع استخدام الجص في أعمال الزخرفة والبياض في عهد الاخشيديين . ومن العماثر الاخشيديية التي تنسب الى الاخشيدي البيمارستان وكان يعرف باسم البيمارستان الأسفل تمييزا له عن البيمارستان الطولوني .

ومن المنشآت الرئيسية التي شيدت في العصر الاخشيدي . السبع

سقايات ، أنشأها أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر الفرات المعروف بابن حنزابه لينقل بها الماء لسكان القسطنطين حين أصبحوا يحتاجون في موسم الجفاف الى جلب الماء ، وقد تم حفر بئر لينقل منها الماء الى السبع سقايات وحبسها لجميع المسلمين (٢٤) . وقد حفظ لنا المقرئ نص الكتابة التاريخية التي تفيد وقفية هذا العمل الانشائي الخيري ، كما تدل على دقة المؤرخ فيما يسجله عن الآثار (٢٥) .

ونذكر من هؤلاء الصناع والمعماريين الذين جادت المصادر التاريخية بذكر نقر قليل منهم ، أبا بكر محمد بن الحسن النقاش ، فقد ذكر ابن خلكان أنه كان يعاني صناعة النقش فضلا عن اشتغاله بعلوم القرآن والتفسير ، وكانت وفاته في سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م . وكانت حرفة النقش شائعة ، فكانت الدور والقصور للأمراء والأعيان ومن دونهم من طبقات الناس تنقش على جدرانها وسقوفها وأبوابها وشبابيكها من أنواع التصاوير والزخارف الجميلة ، حيث كانت أبنيتهم ومصانعهم كما يقولون كالأقمشة المنسوجة بخيوط الذهب ، تفنن حائتها في رقصها ونقشها .

كما برع الصناع في صناعة الجص وعمل الزخارف الجصية ، وقد شاع استخدامها في عصر الاخشيديين ، فأصبح الصانع يجمع بين حرفة البناء والجصاصة ، كما كان الجصاص يختص بقطع الأحجار وعمل الجص منها . وقد جرت العادة أن تكون أفاتين الجصاصين خارج المدن . ومن هؤلاء الذين اشتهروا بصناعة الجص في العصر الاخشيدى ، عثمان المكنى بأبى عمرو بن عبد الله بن الحسين بن عبد الله الجوهري المعروف بابن الجصاص . وقد توفي سنة ٣٥٥ هـ / ابريل ٩٦٦ م (٢٦) .

(٢٤) أطلق المقرئ على هذه البئر اسم بئر الوطاويط ، ولم تكن تعرف عند انشائها بهذا الاسم ، وقد ذكر أن السقايات التي بناها ابن حنزابه خربت بمرور الزمن وبني فوق البئر وتولد فيها كثير من الوطاويط ، فعرفت بذلك . الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٣٣ .

(٢٥) يرجع تاريخ هذه الوقفة سنة ٣٥٥ هـ ، وتعد من الوثائق الهامة عظيمة الشأن . نفس المصدر ، والصفحة .

Wiet : (Der Islam), vol 5, p. 172.

(٢٦) ورد اسمه في كتابة أثرية حفائرية على شاهد من الرخام من مصر محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة .

Wiet : Repertoire, tome 5, No, 1619, p. 9.

ويظهر من اسمه المكتوب على شاهد القبر أنه حفيد ابن الجصاص التاجر الجوهري الذى صاحب خمارويه وابنته قطر الندى الى بغداد ، وقد توفي ابن الجصاص سنة ٣١٥ هـ كما صيقت الإشارة اليه في ترجمته . أبو الحباس : النجوم الزاهرة . ج ٣ ، ص ٢١٨ .

ولم تكن صناعة الجص والشبائيك الجصية وغيرها من المهن المتصلة بصناعة البناء قاصرة على القسطنطينية وحدها ، بل كانت الاسكندرية وتنبس وغيرهما من المدن المصرية سواء فى شمال البلاد أو فى جنوبها ، ومما يدل على ذلك ما كان يوجد فى هذه المدن من مطاحن الجبس ومواقيد الجير ، فقد أشار ابن بسام الى كثرة المصانع بمدينة تنيس والحمامات الموجودة بها ، وما كان فيها من مطاحن جبس والمواضع التى يحرق بها الجير . كما وصف أهل تنيس بأنهم كانوا من الصنائع المهرة فى فن النقش والتصوير والتلوين بالأصباغ ، كما كان منهم الرسامون والنحاتون وغيرهم من أصحاب الحرف والصناعات .

٣ - مظاهر تقدم فن العمارة في العصر الفاطمي

كان للفاطميين نشاط معماري ملحوظ في عاصمتهم المهدية بالمغرب (١) ، حيث شيدوا بها جامعا وقصورا ثم أحاطوها بسور شاهق من الحجر الأبيض المدعم والمزود بأبراج وبوابات عظيمة (٢) . وتدل آثار هذه العمائر على أن الصناع والبنائين الذين أمكن استخدامهم لدى الفاطميين قبل غزوهم لمصر في أنهم كانوا متأثرين بما حولهم من الطراز المغربي والأموي على السواء .

وقد بقيت مدينة المهدية حاضرة للدولة الفاطمية حتى خرج أبو يزيد ابن كيداد على الخليفة الفاطمي القائم ، وولى ابنه المنصور الخلافة سنة ٣٢٤ هـ ، وانتصر على أبي يزيد بالقرب من مدينة القيروان ، فاتخذ مدينة صبرة القريبة منها حاضرة لدولته سنة ٣٣٧ هـ فسميت المنصورية نسبة إليه .

وحين قدم جوهر الصقلي على رأس جيش المعز الى مصر ، كان أول تفكير له بعد استيلائه على القسطنطينية عاصمة الإخشيديين في شعبان سنة

(١) المهدية نسبة الى أبي محمد عبيد الله العلوي الملقب بالمهدي ، وقد ابتداء في بنائها في ذي القعدة سنة ٣٠٣ هـ ، . كان يأمر الصناع بما يعملون من المباني والمنشآت فيها ، وقيل انه لما فرغ من بناء المصانع والقصور والدور قال : « اليوم أمنت على الفاطميات » يعني بناته قد كانت مثار إعجاب الناس بحصونها المنيعة . المقامي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٦ ، المغربى : تماظ الحنفا ، ج ١ ، ص ١٠١ .

(٢) فقد ذكر البكري أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، وأنه يدخل إليها من الجانب الغربي . وقد شيدت مبانيها بالصخر ، واتخذ المهدي لهذه المدينة بابين من الحديد لا حشب فيهما ، زنة كل باب منهما ألف قنطار وطوله ثلاثون شبرا ، وأقيم بها ثلاثة مسووف حمر دجا عدا ما كان يجري فيها من القنوات . المغرب فى ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، ص ٢٦ .

٣٥٨ هـ (٣) ، هو تخطيط حاضرة جديدة تقي بأغراض الدولة الفاطمية .
وقد وقع اختياره في بناء القاهرة على الجهة الشمالية من مدينة انقطاع
الطولونية ، وكان تصميمها على شكل مربع تقريبا (٤) .

وتدل رواية المقرئى التى نقلها عن ابن زولاق المؤرخ المعاصر لقيام
دولة الفاطميين على أن القائد جوهر سارع فى بناء القصر الذى عرف
فـ . بعد بالنصر الكبير الشرقى ، حتى قيل انه لم يلبث أن اختط موضعه ،
وحفر أساسه ، ولم يمض على نزوله بعسكره فى هذا الموضع سبعة أيام .

ومهما قيل فى الروايات التى تناقلها المؤرخون المسلمون والاستعانة
بـ المنجمين فى اختيار الطالع لوضع أساس القاهرة أو سورها (٥) ، فإنها
لا تعدو تلك الروايات الأخرى التى تكررت من قبل عند الحديث عن بناء

(٢) يكاد يشبه موقف جوهر فى عدوله عن اتخاذ انقطاع حاضرة لمصر ، موقف
أبى جعفر المنصور حينما فكر فى بناء بغداد ، فقد كانت أمامه حواضر اسلامية عدة يستلج
أن يتخذ احداها حاضرة لخلافته مثل المدينة أو الكوفة ودمشق وذلك لأسباب رآها عديدة .
ويبدو أن جوهر لم يكن يفعل شيئا بدون مشورة مولا المعز ، فقد ألح ابن زولاق الى أن
جـ . قـ . قاد العسكر بأسره الى المناخ الذى رسم له المعز النزول به ، كذلك نقل المقرئى عن
ابن زولاق أن القائد الفاطمى انما عمر القصر بترتيب القاه اليه المعز .
انقطاع الحنفا ، ج ١ ، ص ١٥٨ - ١٦٠ .

(٤) تكن يبدو أن جوهر لم يتخذ رأى مولا المعز فى بناء سور القاهرة ، فقد نقل
المقرئى عن ابن الطوير المؤرخ الفاطمى أن المعز حينما جاء الى القاهرة عام ٣٦٢ هـ لم يجهز
مكانها ، وكان يرغب فى اقامتها عند المقس بالقرب من شاطئ النيل ، أو فوق سطح الجرف
المعروف بالرصد حتى تكون قلعة لمصر على حد قوله .

نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٦١ .

(٥) وقد اختلف المؤرخون فى تسمية هذه المدينة بهذا الاسم فقال ابن دقماق :
« انها سميت كذلك لأن أساسها شق على طلوع كوكب رجده أحد الحكماء السبعة الذين
كانوا بديار مصر ، وهو كوكب يقال له « القاهر » .

ويقول المقرئى : « ان القائد جوهر لما أراد بنائها ، أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد
عمارة بلد ظاهرة مضر ، لتقيم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث
لا يخرج البلد عن نسلهم أبدا فاختاروا طالعا لوضع الأساس ، وطالعا لوضع السور ،
وجعلوا بأثر السور قوائم خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمال : اذا
تحركت الاجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة فوقوا ينتظرون الوقت الصالح
لذلك ، فاتفق أن غرابا وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الاجراس ، فتحركت الحبال
كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها ، فالتقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة ، وبنوا
فصاح المنجمون « القاهر الطالع » فمضى ذلك وقتهم ما قصدوه ويقال ان المريج كان فى
الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة . الانتصار ، ج ٥ ،
ص ٣٥ - ٣٦ ، انقطاع الحنفا ، ج ١ ، ص ١٥٩ .

مدينة بغداد عاصمة العباسيين أو في بناء الاسكندرية قبل ظهور الاسلام
بقرون طويلة .

ولا شك أن عمارة القصر الكبير الشرقي الذي أشرف على بنائه جوهر
قد احتاجت لمئات العمال والصناع المهرة، حيث أقيم على مساحة واسعة بلغت
نحو سبعين فدانا ، ليكون سكنا مناسباً للخليفة وأتباعه ومقرا لدواوين
الحكم .

أما سور القاهرة الذي بناء جوهر فكان من اللبن ، وبلغ عرض جداره
عدة أذرع ويسع أن يمر به فارسان . وكما عمل المهندسون على جعل
القاهرة حارات للواصلين بصحبة الخليفة المعز حينما قدم الى عاصمة ملكه
عام ٣٦٢ هـ .

ولما تم تخطيط القاهرة أقام جوهر أول مسجد بها عرف بجامع
القاهرة أو الجامع الأزهر (٦) ، وكان بداية بنائه في جمادى الأولى سنة
٣٥٩ هـ ، وفرغ البناء منه في رمضان سنة ٣٦١ هـ .

وفي عهد العزيز بالله أخذت حركة البناء تزدد نشاطا وازدهارا ،
فقد تم انشاء القصر الغربي وما أطلق عليه قصر الذهب ، كما بديء في
بنيان جامع الحاكم وذلك في عام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م وأتمه من بعده ابنه
الحاكم . وفي عهده أيضا بديء في انشاء جامع القرافة عام ٣٦٦ هـ وكانت
تتفق عليه السيدة تغريد أم الخليفة العزيز ، وقد تم بناؤه على غرار الجامع
الأزهر بالقاهرة وكان من أهم مساجد العصر الفاطمي فهو ثاني الجوامع
بعد الأزهر .

ويصف القضاعي جامع القرافة وطريقة بنائه وما بلغه من عظم التطور
الهندسي والمعماري فيقول : « أما ايوان القبلة فله عدة أبواب عدتها أربعة
عشر بابا يتقدم كل منها سقيفة مقبية تقوم على عمودين من الرخام وهو
مكندج ومزوق باللازورد والزنجفر والزنجار وأنواع الأصباغ ، » .

أما سقوف الجامع فقد قام الدهانون بزخرفتها بألوان عديدة ، كذلك
زخرفت حناياه وعقوده بالدهانات وأنواع الأصباغ وقد أشرف على بنائه

(٦) تم بناء جدران الجامع من الآجر وأيضا تبابه ودعاماته ، وقد جلبت الأعمدة جميعها
وتيجانها من آثار قديمة سابقة ، حيث اقتصر عمل الصناع والبنائين على تنسيق هذه الأعمدة
القصيرة فوق الأسس التي أعدت لحمل العقود ورفعها الى أقصى علو تستطيع أن تحتمله .
المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ ، أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ،
ج ١ ، ص ٥١ .

عبد العزيز الفارسي المحتسب ، كما يرجع الفضل في زخرفته الى الصانع البصريين وبنى المعلم المزوقين الذين اشتهروا بصناعة النقش والتصوير في العصر الفاطمي .

وقيل انه كان قبالة الباب السابع من أبواب الجامع قنطرة على شكل قوس مزوقة تنتهي عند حافتها شاذوران من الرخام (٧) مدرجة بدرج ، وكانت هذه من أفخر الصنائع عند المصورين ، وهي من صناعة بنى المعلم المشهورين ، وكان الصانع يأتون اليها . ليعملوا مثلها فما يقدررون .

وقد شجع الفاطميون المهندسين والصناع من أهل الذمة المصريين ، كما عملوا على استدعاء مهندسين وصناع من الخارج كهؤلاء البصريين وغيرهم ، حتى أصبحت القاهرة في عهد الخليفة العزيز مقرا للمهندسين .

ولا شك أن هؤلاء الصناع والمهندسين كان لهم دور هام في تطوير أساليب العمارة في العصر الفاطمي ، فمن ذلك ما أحدثه المهندسون في بناء الجامع الأزهر من الأقواس المدببة التي تركز على قواعد مرتفعة ، وكان جامع الحاكم الذي بدأ البناء فيه في عهد العزيز وأتمه الحاكم بأمر الله من بعده . ومن الجدير بالذكر أنه كان أول جامع في القاهرة تم بناؤه من الحجارة (٨) .

ومن المساجد الهامة التي أقيمت في عهد الحاكم وكان لها أثر كبير في ازدهار العمارة ، مسجد الحاكم ومسجد المقس (٩) ، ومسجد راشده (١٠) ، وكان يشترك في بنائها جملة من الصناع من البنائين والنجارين والحجارين والمرخين والفعلة ، كما يوضح تطور أشكال الزخارف

(٧) الشاذوران : هي الفسقية .

وقد جاء ذكرهما في إحدى الكتابات الأثرية ، يبدو أنها وقفية لأحد دور مصر أو القسطنطينية .

Wiet ; Repertoire, tome 3, No. 235, p. 79.

(٨) يرى Wiet أن استعمال الأحجار في بناء الجوامع إنما هو من مستحدثات الفاطميين ومميزات العمارة في عصرهم .

(٩) تم تشييد جامع المقس على شاطئ النيل بالقرب من المقس ، وقد أوقف عليه الحاكم بعض الأوقاف للصرف على ما يحتاجه من العمارة ومن ثمن الحصر الميدانية وخلافه .

(١٠) بنى جامع راشدة بظاهر مصر عام ٣٩٣هـ وكان متولى بنائه المحافظ أبو محمد عبد الفتى بن سعيد وقد قام بتصحيح محرابه أبو الحسن علي بن يونس عالم الرياضيات والفلك المشهور في العصر الفاطمي ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

الجديدة ، ولا سيما الزخارف الجصية والحجرية التي قام المزهرفون بعملها في مسجد الحاكم .

كذلك نلاحظ جمال الصنعة والزخارف هذه في المساجد الأخرى التي شيدت في عهد المستنصر وحتى أواخر أيام الفاطميين ، مثل مسجد الجيوشي الذي أقيم على تلال المقطم في شهر المحرم سنة ٤٧٨ هـ (١١) .
وجامع الأقمر الذي كمل البناء فيه أمام قصر الخلافة في عهد الخليفة الأمر ووزيره المأمون (١٢) . ومن الجدير بالذكر أن هذا المسجد لم يكن جامعاً ، فقد سجل المقرئ أنه : « لم تكن فيه خطبة لكنه يعرف بالجامع الأقمر » .

أما جامع الصالح طلائع فقد بناه الوزير الفاطمي خارج باب زويلة ، ومما يذكر أن الصالح طلائع ، لما خيف على مشهد الإمام الحسين رضي الله عنه ، إذ كان بعسقلان من هجوم الفرنج وعزم على نقله ، وقد بنى هذا الجامع ليدفنه به ، فلما فرغ منه لم يمكنه الخليفة الفائز من ذلك وقال : « لا يكون إلا داخل القصور الزاهرة ، وبنى المشهد الموجود الآن ودفن به » .

ومما يذكر أن الوزير الفاطمي الصالح طلائع في عهد الفائز والعاقد ، أنشأ مسجد آخر بخط جامع القرافة عرف بجامع الأولياء ، وقد بنيت أعلاه عدة مناظر وكانت عمارته متقنة .

وقد ذاعت شهرة جامع الصالح طلائع في أواخر أيام الفاطميين وذلك على الرغم من عدم إقامة الخطبة به إلا بعد قرن من الزمان ، وذلك في أيام المعز أيك التركماني أول سلاطين المماليك . ولا شك أن هذه الشهرة التي اكتسبها لما اشتمل عليه من المباني الملحقه به فضلاً عن الزخارف الجصية ، وتلك النقوش الكتابية التي تتضمن اسم الخليفة الفائز بنصر الله واسم وزيره الصالح طلائع بن وزيك (١٣) .

(١١) قصد المماريون أن يكون ذلك الجامع مشهداً ، فهو أول مسجد معروف في القاهرة كان يضم ضريحاً ، كما قام البناؤون بنشيطته من الحجرة والأجر خاصة العقود والسقف والحجبة والمنقوشة . وقام المزهرفون بدهان محرابه وزخرفته بالزخارف المنقوشة على الجص .
ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٥٩ ، تراث الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٤٤ - ١٤٤ .

(١٢) كمل البناء فيه سنة ٥١٩ هـ ، وقد سجلت الكتابات الكوفية المنقوشة على واجهته اسم الإمام الأمر بأحكام الله والسيد الأجل المأمون أمير الجيوش وكافل قضاء المسلمين .
المقرئ : الخطط ، ج ٣ ، ص ١٨٦ ، تراث الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

(١٣) يحفظ الفن الإسلامي بواحد من النوافذ أو الشبايك الجصية المنقولة من جامع الصالح طلائع وتبدو فيه الكتابات الكوفية والزخرفة بالفروع النباتية .

وقد ذكر المقرئى أنه بنى فيه صهرىج عظمى تملؤه ساقية أقيمت على الخلىج الذى يطلق علفه خلىج أمفر المؤمنف؁ كذلك الحققت به المجرارى • ومجموعة من الأبنفة شفدت أسفله وكانت تستخدم مخازن وحوائف ترصد إفرادافها لإصلاح المسجف والانفاق علفه؁ وقفل انه كان مسجفا • معلقا • وذلك لعلو مباففه عن مجموعة الحوائف الفى كانت تمتف فف مؤخرة المسجف ووجهفه الشرقة •

وكان فقف باب المسجف الرئفسى بوافهفه الغربفة وأمام هفا الباب رواق قائم على أربعة أعمدة من الرخام؁ وفحمل عقوفا حافافها محلاة بالزخارف • ولهفا الجامع صحن كبرى حوله أربعة إفوافف وعقوفا محمولة على عمد من الرخام محلاة بكتافاف كوففة على شكل أزهار وفروع نباتفة جمفلة • مما فدل على ما بذله الصناع والمرخمون وففرهم من البصاصفف فى بناء وتعمفر هفا الجامع فى أواخر أيام الفاطمفف •

ولا شك أن عمارة المسافف والعنافة بها لم تكن قاصرة على الخلفاء والوزراء الفاطمفف؁ بل أن هناك العففد من المسافف الفى أقامها التجار وأصحاب الحرف فضلا عن الموسرفف وففرهم من عامة الشعب • ونذكر منها على سبفل المفال المسجف الذى بناه ابن النجار الزفاف وعرف بمسجف غربف الخندق؁ ومسجف الفرافى؁ ومسجف ابن الرفاف؁ ومسجف الفاخورى وكان يعرف بمسجف البطحاء؁ وما أقامه أفا الطباخفف بالقرب من الرصد •

ومهما قفل عن مبالغة المقرئى وما كانت القرافة الكبرى بظاهر الفسطاط أو القاهرة فضمه من آلاف المسافف (١٤)؁ فانه لا شك فعطفنا دلفلا قوفا على النهضة المعمارية الكبرى الفى تجلقت فى تعمفر المسافف والأضرحة أو المشاهف فى هفه المنطقة الفى أفاض المؤرخون فى ذكر أسما؁ من عمروها وفى سرد مناقبهم وآثارهم الخالفة • كما تجلقت فى زخرفة هفه المسافف من الخارج؁ وففما قام به البناءون من ففف الكواف فى الحوائط لتخفف مسطحاتها؁ واحاطفها بالزخارف الجصفة الهندسفة وعناصر الزفنة حول الوافهاف والنوافذ بها •

ومن الجففر بالذكر أن تعمفر المسافف لم فكن قاصرا على الفسطاط. أو القاهرة زمن الفاطمفف؁ وإنما كانت عمارة المسافف فى سبائر المسفن المصرفة بطول البسلاف وعرضها ففى القرى • فشر المقدسى إلى هفه الحقفقة ففقول : « ولا مففنة فى مففاس علمنا هفا إلا بمنبر » •

(١٤) قفل انه كان بالقرافة الكبرى اثنا عشر ألف مسجف • نفس المصدر؁ ص ٤٦٠ •

كما يصف ابن جبير ما كانت تحفل به الاسكندرية من المساجد والجوامع ويقول عنها : « أنها أكثر بلاد الله مساجد حتى أن منهم من يقول أن مساجدها اثنا عشر ألفا » . مما يدل على كثرة المنشآت الدينية بها ، ولا شك أن الكثير من هذه المساجد تم بناؤها أيام الفاطميين .

ولم تكن منطقة الصعيد الأعلى أو صعيد مصر عموما بأقل من جهة الاسكندرية وتونس ودمياط وغيرهم في شمال البلاد ، فقد تم بناء العديد من المساجد في كل من أسوان وقفت وقوص واسنا وغيرها من المدن المصرية ، ولا شك أنها بقدر ما أسهمت هذه الجوامع في نشاط الحركة العلمية في العصر الفاطمي ، فإنها شغلت الكثير من أصحاب الحرف والصناعات من البنائين والنقاشين والمرحمين وغيرهم من الدهانين في تعميرها .

ومن أسماء البنائين الذين وردت توقيعاتهم على المنارات أو المآذن ، حاتم البناء ووالده ، كما أوضحت الكتابة الأثرية التي عثر عليها فوق منارة بلال ، وهي تؤلف شريطا دائريا بأعلى هذه المنارة لأحدى المساجد التي أقيمت في مدينة أسوان عام ٤٧٥ هـ .

كما تشير هذه الكتابات الأثرية المحفورة في لوحات الرخام أو شواهد القبور الى أن الصناع المصريين وهؤلاء المزخرفين لم يكن دورهم قاصرا على بناء المساجد المصرية داخل البلاد وإنما كانت الدولة الفاطمية ترسل بهم الى بلاد الشام وغيرها للمشاركة في تعمير المساجد خاصة تلك المساجد والجوامع ذات الشهرة مثل مسجد قبة الصخرة بالقدس ، ومن المعروف أن هذه البلاد كانت تابعة للخلافة الفاطمية (١٥) .

عمارة القاهرة وصناعة الآجر والرخام :

أما عن عمارة القاهرة وتشبيد الدور والقصور بها فقد أخذت تزداد إذ أصبحت مقر سكنى الخليفة ورجال القصر ودواوين الدولة وخزائنها العديدة مثل خزائن السلاح والخيم والفرش والأمتعة ، وخزانة البنود التي كانت تضم ثلاثة آلاف صانع من أمهر الصناع في سائر الصناعات التي يحتاج اليها البلاط الفاطمي .

(١٥) من هذه الكتابات الأثرية ، كتابة جاء نصها : « بسملة أمر بعمارة هذه القبة الامام أبو الحسن علي الظاهر لاعزاز دين الله الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وابنائهم الأكرمين ، وجرى ذلك على يد عبده الأمر ثقة سيد الدولة علي ابن أحمد أتابه الله في سنة ثلث عشرة وأربعمائة » .

Wiel : Repertoire : tome 6, No. 2328, p. 76.

وقد اهتم الخلفاء الفاطميون بالزيادة فى تلك القصور والمناظر التى تم تشييدها منذ مجيئهم الى القاهرة (١٦) ، نقل المقرئى عن ابن سعيد قوله : « وقد عاينت فيها ايوانا يقولون انه بنى على قدر ايوان كسرى الذى بالمداين وكان يجلس فيه خلفاؤهم ، ولهم على الخليج الذى بين القسطنطين والقاهرة مبان عظيمة جليلة الآثار » كما أوضح ابن سعيد اهتمام الفاطميين بزخرفة القصور ودهانها حيث قال : « وأبصرت فى قصورهم حيطانا عليها طاقات عديدة من الكلس والجبس ذكر لى أنهم كانوا يجددون تبييضها فى كل سنة » .

وكان التخطيط يسبق البناء أيام الفاطميين ، حيث كان يحضر المهندسون المقوضون بالعمل فيعمدون الى ذلك القضاء أو العرصة كما يذكر عبد اللطيف البغدادي فيقسمها المهندس فى ذهنه ويرتبها بحيث يمكن الاستفادة بالأجزاء أو المساحات الأخرى ، فيتم تعميمها أو إقامة المباني عليها ، ثم يعهد الى جزء آخر ، ولا تزال أعمال التخطيط الهندسى كذلك حتى يكتمل العمران بكمال الأجزاء من غير خلل ولا استدراك .

كما أوضح الرحالة البغدادي طريقة حفر الأساس لمبانيهم بدرجات أعمق حتى تظهر الندادة وثرير الماء ، وكان كلما تقع الماء نزحوه من الطين والرمل ويضعون فيها من كتل خشب الجميز أو نحوه ، ويستمررون فى الحفر تحت كتل الخشب ، فكلما تخلخل ما تحته وثقل بما عليه من أحمال البناء نزل ويتكرر ذلك . (١٧) ، وهى تشبه طريقة حفر الآبار التى تبني حديثا حيث يتم تعميقها حتى يصل الغواصون والبناءون الى المياه الجوفية .

وقد بلغ من أحكام صناعة البناء وقدرة المعمارين أنهم بنوا السرايى والممرات التى تصل بين القصر الشرقى والقصر الغربى تحت الأرض فى الميدان ، أو ما عرف بميدان بين القصرين ، حيث كان بإمكان الخليفة أن يسير

(١٦) أحصى المقرئى من القصور التى قام الفاطميون ببنائها والمناظر بخلاف القصر الكبير الشرقى الذى بناه القائد جوهر الصقلى لمولاه المعز لدين الله فكان منها قصر الذهب وقصر الشجرة ، وقصر الشوك ، وقصر الزمرد وقصر النسيم ، وقصر الحريم ، وقصر البحر ، وهو يصعب بقوله : « وهذه كلها قاعات ومناظر داخل سور القصور الزاهرة » . المخطوط ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

(١٧) وقد شاع تعميق الأساسات للقصور والمباني فى ذلك العصر ، فمما يذكر أن معز الدولة بن بويه أمر بأن تحفر الأساسات للقصور التى رغب فى تشييدها فى بغداد الى عمق ست وثلاثين ذراعا ، وقيل ان تكاليف عمل هذه الأساسات العميقة بلغ نحو ثلاثة عشر مليون درهم . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ .

بها راكبا بغلته (١٨) . كما تدل رواية ناصر خسرو على شيوع استخدام الآجر والجص والأحجار في تشييد تلك المباني والقصور فهو يقول عنها : « وكانت بيوتهم من النظافة والبهاء بحيث تقول انها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة ، وهي بعيدة عن بعثتها ، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر » .

وكان الفاطميون يعملون على تنافس المصورين أو المزوقين في زخرفة جدران المباني والقصور والجوامع ، فقد ذكر القضاعي أنه كثيرا ما كان الوزير اليازوري يعمل على اجراء المنافسة بين هؤلاء المصورين المشهورين ، ويغري بعضهم على بعض ، فمن ذلك ما جرى بين القصير وابن عزيز في مجلسه وذلك لشدة غرامه ، وما كان يهواه من النظر الى الكتب المصورة أو الصور التي كان يقوم المزخرفون برسمها على الجدران .

ونقل المقرئى عن القضاعي وصفه لأحد هذه المجالس في عهد الخليفة المستنصر ، حيث قال : « وقد حضر بمجلسه المصوران القصير وابن عزيز ، فقال ابن عزيز أنا أصور صورة اذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط فقال القصير : لكن أنا أصور صورة اذا رآها الناظر ظن أنها داخله في الحائط ، فقالوا : هذا أعجب فأمرهما أن يصنعا ما وعدا به فصوروا صورة رانصتين في تجويف سنييتين مدهورتين متقابلتين هذه ترى ، كأنها داخله في الحائط ، وتلك ترى كأنها داخله في تجويف الحنية ، وصور ابن عزيز راقصة بثياب حمراء في صورة صفراء كأنها بارزة من الحنية ، فاستحسن الوزير اليازوري ذلك ، وخلع عليهما ، ووهبهما كثيرا من الذهب » .

كما ذكر أنه كان بدار النعمان بالقرافة من عمل الكتامي صورة يوسف عليه السلام في الجب وهو عريان والجب كله أسود ، اذا نظره الانسان ظن أن جسمه باد من دهان لون الجب ، وذلك مما يدل على ما يأنه هؤلاء النقاشون والمصورون من تقدم في فن الزخرفة والتصوير أيام الفاطميين .

ومن الذين اشتهروا في أعمال الدهان والزخرفة في ذلك الوقت عبد الله بن الحسن المزوق ، وقد ورد اسمه على لوحة تذكارية لعمارة أجريت بالمسجد الأقصى سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م ، كما ذاع صيت بني المعلم في تزويق وزخرفة القصور والجوامع بالقرافة وغيرها . وقد ذكر المقرئى أن القصير المصور كان يغالى في أجرته نظير أعماله في الزخرفة والتصوير ،

(١٨) يصف ناصر خسرو ذلك السرادب وسقفه المحكم وجدران القصر التي بنيت من الحجر المنحوت بدقة فيقول : « كأنها قدت من صخر واحد » سفرنامه ، ص ٤٩ .

مما استدعى اليازورى وزير المستنصر أن يعمل على احضار بعض المصورين مثل ابن عزيز وغيره من العراق لمحاربة القصير فى مغالاته فى تقدير الأجر واحتكاره لفن التصوير حينذاك .

وكان ممن اشتهر من الدهانين أو الرسامين أيضا كل من المزخرف الكتامى والنازوك ، حيث كانت لهم أعمالهم الفنية فى ذلك العصر ، ومن أهم الصور التى رسمها المزخرفون ما عثر عليه من بقايا أو أجزاء من الحمام الفاطمى ، وقد رسم باللون المائية على الجص حمامتين متقابلتين بينهما زخرفة نباتية مورقة ، ورسم طائر يحمل فرعاً نباتياً فى منقاره (١٩) .

وتشير المصادر الى تلك الزيادات التى أحدثها أمير الجيوش فى بناء سور القاهرة فيما بين باب زويلة وباب الفتوح ، حيث تم بناء باب زويلة ، ونقل باب النصر الذى بناه جوهر الى المكان الذى به الآن وقد ذكر المقرئى أن بدر الجمالى استدعى لبناء تلك الأبواب ، بعض المهندسين الأجانب ، فقدم ثلاثة اخوة من مدينة الرها ، حيث قام كل واحد منهم ببناء أحد الأبواب الثلاثة .

كما ذكر ابن ميسر أنه تم تشييد باب زويلة عام ٤٨٥ هـ ولم تعمل له باشورة ، كما هى عادة أبواب الحصون لكونه عمل فى بابه زلاقة كبيرة قام الحجارون بعملها من حجارة الصوان ، بحيث اذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على هذه الحجارة الصوان .

ويؤكد فان برشم أن الأبواب الثلاثة الجديدة ، انما تعكس ذلك الطراز الذى أدخل على عمارة القاهرة الحربية لأول مرة ، بمعرفة هؤلاء المهندسين الأجانب (٢٠) ويستدل على ذلك بما عثر عليه من أطلال وبقايا آثار تلك العمارة الحربية فى مدينة القسطنطينية ونيقية والمدن البيزنطية الأخرى .

وكان أهم ما زين به المعماريون باب النصر - أحد تلك الأبواب الثلاثة - تلك الفتحات المربعة على خلاف ما كان متبعاً فى بناء الأروقة

(١٩) ثم اكتشاف أجزاء من هذا الحمام الفاطمى أثناء تلك الحفائر التى أجراها أعضاء متحف الفن الاسلامى عام ١٩٣٢م . رقم السجل : ١٢٨٨٢ .

(٢٠) قيل ان الذى وضع تصميم الأسوار والأبواب للقاهرة هو أحد المهندسين الأقباط ، فقد ذكر أبو صالح الأرمنى انه كان يوجد بالقرب من كنيسة يوحنا المعمدان قبر يوحنا الراهب الذى هندس سور القاهرة وأبوابها فى الخلافة المستنصرية ووزارة أمير الجيوش بدر الجمالى ، كما ذكر انه كان يوجد لوح من الرخام على هذا القبر يحمل اسمه . تاريخ أبي صالح الأرمنى ، ص ٦٥ .

بالمساجد الفاطمية ، والدرجات الحلزونية والأفاريز الرائعة ، والدروع
المبنية ، وتلك الكتابات الكوفية المنقوشة الجميلة (٢١) .

ولا شك أن هذه الأبواب الثلاثة التي تم بناؤها حول القاهرة كانت
أحدى مظاهر تقدم فن المعمار فى العصر الفاطمى ، ومما يذكر أن بدر
الجمالى حينما ولى الوزارة فى أيام المستنصر عمل على زيادة المباني وعمارة
القاهرة ، وأباح للناس من الطوائف المختلفة ، أن تعمر ما شاء لها مما خلا
من الفسطاط فأخذ الناس ما كان من أنقاض الدور وغيرها وعمرها بها
المنازل فى القاهرة .

وقد شجع على ذلك انتشار حرفة الطوابين وصناعة الطوب الأحمر
أو الآجر ، وكان هؤلاء الطوابون يعملون على إقامة أقمنة الطوب وحرقتها ،
ويشير الى ذلك المقرئى عند حديثه عن بركة الرطلى (٢٢) ، التى عرفت
ببركة الطوابين لكثرة ما كان يعمل فيها من الطوب ، كما يذكر المقرئى
أنه لما كثرت المباني والعمائر فى حارة البيازرة ، أمر الوزير المأمون بعمل
الأقمنة لحريق الطوب على شاطئ الخليج ، وكانت غالبية الدور والقصور
الفاطمية وغيرها من المنشآت العمرانية تبنى من الآجر أو القرميد (٢٣) ،
ومن الحجارة فى العصر الفاطمى .

ويصف عبد اللطيف البغدادى المباني والمنشآت التى أقيمت أيام
الفاطميين وما كان يستخدم فيها من الآجر والأحجار فيقول : « وأما أبنيتهم
ففيها هندسة بارعة وترتيب فى الغاية ، ويجعلون منازلهم تلقاء الشمال
والرياح الطيبة وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ، ويبنّون

(٢١) تعبر هذه الكتابات الأثرية المنقوشة على باب النصر عن عقيدة الفاطميين ومذهبهم
وقد أورد المقرئى نص الكتابات جاء فى أعلاها « لا اله الا الله محمد رسول الله ، وعلى
ولى الله ، صلوات الله عليهما » . الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

Lane-poole : A History of Egypt, pp. 153, 155.

(٢٢) كانت من جملة أرض الطبالة التى منحها المستنصر لأحدى النساء وكانت تصير
أيام المراكب وحولها طائفتها تضرب بالطبول وتنشد الأشعار ، وكانت هذه الأرض تقع على
جانب الخليج الغربى بجوار المقس ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٥١٤ ، ٥٨١ .

(٢٣) القرميد بالكسر يطلق على الآجر وعلى ما يطل به كالجص والزعفران . المصباح
المنير .

(٢٤) ذكر المقرئى أنه كان يطلق لكل مشهد من مشاهد القرافة خمسون درهما فى
الشهر برسم الماء ، حيث لا تخلو المصانع ولا الأحواض من الماء أبدا ولا يعترض أحد من
الانتفاع به . الخطط ، ج ٣ ، ص ١٩٥ .

بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر فى شكل طوبهم على نصف طوب العراق ، ويحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب اندار والقناة قائمة ، .

ومما لا شك فيه أن الاقبال على شراء الطوب واستخدامه فى المباني التى أقيمت فى القاهرة وفى القسطنطينية وغيرها من المدن المصرية ، قد ازداد بكثرة العمران فى هذه المدن ، وكما يذكر ابن خلدون فإن الحاجة تزداد الى كثرة المواد والآلات حينما يعظم عمران المدن ويكثر ساكنيها ، فاذا تراجع العمران ، وقل عدد السكان فانه تقل الصنائع لأجل ذلك ، .

ولا شك أن بناء الكثير من المصانع التى ألحقت بخدمة القصور الفاطمية وغيرها من المناظر والجوامع والمساجد ، خاصة ما تم بناؤه منها بالقرافة والصهاريج العظيمة لحفظ الماء بها (٢٤) ، انما كانت من الآجر والرخام ، وكما تشير المصادر الى بناء العديد من هذه المصانع بمدينة تنيس (٢٥) .

كما يصف ابن جبير مباني الاسكندرية وما بلغت من الدقة والتخطيط وما أثار إعجابه من هذه المصانع فهو يقول : « ومن العجب أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها ، فهو أعتق وأمتن لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض » .

ومن المنشآت الهامة التى شاع استخدام بنائها من الآجر والرخام وغيره من الجص تلك الحمامات (٢٦) ، ويعطينا عبد اللطيف البغدادى صورة معبرة عن تلك الطريقة التى كان البناءون يشيدون بها الحمامات زمن الفاطميين ، وأعمال الزخرفة لجدرانها وسقوفها فضلا عن الأرضيات الرخامية المجزعة ، وتلك الجوامع ذات الألوان المختلفة بأصباغها الصافية ، بحيث اذا دخلها الانسان لم يؤثر الخروج منها على حد قوله .

ولا شك أن وفرة أحجار الرخام وغيرها فى أنحاء متفرقة من البلاد ، وخاصة تلك التى كان يتم قطعها من محاجر أسوان وتحمل عبر النيل كما

(٢٥) يصف ناصر خسرو تلك المصانع واحكام بنائها وتشبيدها تحت الأرض فيقول : « وهى قوية البنيان وتسمى المصانع فحين يزيد ماء النيل ويطرد الماء المالح من هناك تملأ هذه المصانع بماء النيل الذى يجرى اليها » سفرنامه ، ص ٣٩ .

(٢٦) ذكر المسبجى أن العزيز بالله السامى كان أول من أنشأ الحمامات بالقاهرة ، وكان العديد من أصحاب الحرف يعملون بها ، مثل الحامى والقيم والزبال والوقاد والسقاء وغيرهم . المخطوط ، ج ٢ ، ص ٤٣١ ، آدم منز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ٣ ، ص ١٨٦ .

أشرنا من قبل حيث يتم استخدامها ، كانت إحدى الأسباب الهامة في بناء تلك الحمامات وكثرتها على هذا النحو في مصر الفاطمية (٢٧) .

ومما يدل على شهرة مصر بصناعة الرخام وشغف الفاطميين باستعماله في قصورهم وحماماتهم ، أنهم كانوا ينحتون منه الشيء الكثير ويعملون على اختزانه ، فقد ذكر المقرئى أنه لما أراد أحد المماليك بناء خانقاه عشر على مغارة كبيرة تحت الأرض وعندما فتحوها لم يجدوا بها سوى رخام كثير ، كان من جملة الذخائر والتحف الفاطمية .

وقيل أن القاضي مكن الدولة الحسن بن حديد بالاسكندرية كان له بستان يتنزه فيه ، به جرن من رخام قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من سعته ، وكان يباهى به أهل عصره ، فوشى به للبدوية محبوبة الخليفة الأمر بأحكام الله ، فطلبت من الخليفة ، فأنفذ في الحال بإحضاره ، وصار إلى البناء المعروف بالهودج (٢٨) بعد أن تم خلعه من مكانه وإحضاره من الاسكندرية .

وبلغ من شهرة الصناعات والفنانين من أهل الاسكندرية في العصر الفاطمي أن أحد أثرياء مدينة أمالقي ويدعى موريس *Murris* قد استعان الصناعات من المرخمين والرسامين منهم لتزيين بعض قصوره بالفسيفساء وغيرها من أنواع الرخام .

ولا غرو فقد كان المصريون يفضلون في ذلك الوقت تغطية الجدران وتزيينها بالرخام ولم يقبلوا على استعمال القاشاني ، وقد خلف لنا الصناعات من اللوحات الرخامية (٢٩) والمحاريب والأرضيات الرخامية بعضها مؤلف من قطعة من الرخام الملون والمطعم بالصدف (٣٠) .

(٢٧) آمدنا ابن دقماق بأسماء العديد من الحمامات القديمة العامة منها والخاصة بمدينة الفسطاط ، كما ذكر المقرئى منها حمام الكويك وحمام القاضي ، وحمام درى ، وحمام الذهب ، وحمام الخشبية وغيرها من التي أنشأها الفاطميون من وزراء الدولة ورجالها البارزين . الانصار ، ج ٤ ، ص ١٠٤ - ١٠٧ . الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٣١ - ٤٣٨ ، آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

(٢٨) نقل المقرئى عن ابن سعيد أن هذا المكان عرف بذلك حينما قام الأمر بأحكام الله ببنائه في جزيرة الفسطاط وعمره خصيصا لمحبوبيه البدوية التي أكثر الناس في حديثها في ذلك الزمان . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦١٦ .

(٢٩) ذكر ابن ميسر أنه لما تولى الوزير المأمون أمر بتجديد عمارة المساجد السبعة التي بالقراة ، وأن يجعل على كل مشهد لوحا من الرخام عليه اسمه وتاريخ التجديد عند الفراغ من تجديد عمارته . أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

(٣٠) يضم متحف الفن الإسلامى لوحات من الرخام مزخرفة بالنحت البارز أسسها من ط : الوزارة الفاطمية . أرقام السجل : ٦٩٥٠ ، ٢٩٥١ ، ٢٩٥٤ .

ولا ريب أن شيوع استخدام الرخام إنما يدل على شهرة مصر
بمبانيها المحكمة التي أثارت إعجاب الرحالة المسلمون في العصور
الوسطى ، وعلى ما بلغه المهندسون والصناع من مكانة بنامية في نفوس
أقرانهم من خارج البلاد ، حتى أن بعض المهندسين الأجانب كانوا يعملون
على الترحال والتزود بالخبرات منهم من بلاد العالم الاسلامي . فقد ورد
في ترجمة أحمد بن عبد الله المعروف بابن الباجي أنه رحل الى مصر عام
٣٨١ هـ ، واجتمع بالمهندس أبي بكر بن اسماعيل البناء ، وسمع منه
وأجاز له ، ثم واصل رحلته الى الحج . وكان أبو بكر بن اسماعيل من
أشهر المماريين في أوائل العصر الفاطمي (٣١) .

ولا غرو فقد أظهرت مصر نشاطا فائقا في حركة المعمار بعد مجيء
الفاطميين واتخاذهم القاهرة مقرا لخلافتهم . والعمل على منافسة العباسيين
في بغداد . كما تجلى في عمارة القصور والمساجد ، وما استحدثت من
الزيادات في الايوانات أو الاروقة التي تحيط بها الأقواس والاطارات
المرفوعة من الأعمدة الرخامية بالأشكال الهندسية البديعة .

ومن جملة المهندسين الذين بلغوا المكانة المرموقة في صناعة البناء
وفى اقامة المراصد الفلكية ، ابن أبي يعيش الطرابلسي المهندس ، والشيخ
أبو جعفر بن حسنداي والخطيب أبو الحسن علي بن سليمان بن أيوب
والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتي الاسكندراني المهندس ، وأبو محمد
عبد الكريم الصقلي المهندس . فقد ذكر ابن دقماق أن هؤلاء المهندسين
كانوا يعملون تحت إمرة الوزير الأفضل ومعهم جماعة من الصناع في
اقامة المرصد الفلكي في عهد الخليفة الأمر بأحكام الله .

ويبدو أن بناء المرصد بالقرب من بركة الحبش لم يكتمل أيام الوزير
الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش ، وكما ذكر المقرئ فان جملة الصناع
والمهندسين قد أمكنهم عمل الحلقة المطلوبة فقط في الموضع المهندم بالطوب
الأخمر تحت المسجد الجيوشي ، وبلغ قطرهما أقل من سبعة أذرع ودورها
نحو أحد وعشرين ذراعا . يقول المقرئ : « فلما كملت قتل الأفضل ،
ولم ينفق من مال السلطان في الأجرة والمؤن وما لا بد منه سوى نحو مائة
ونستين دينار » .

وحين تولى الوزارة المأمون بن البطائح خلفا للأفضل في سنة

(٣١) كانت وفاته سنة ٤٠٠ هـ في عهد الخليفة الحاكم . أحمد تيمور : أعلام المهندسين ،

٥١٥ (٣٢) رغب في استكمال الرصد المأموني كما اشتهر بذلك ، فأخرج الأمر بنقل الرصد الى باب النصر بالقاهرة ، فنقل على الطريقة الأولى بالعتالية والأسطولية وطوائف الرجال ، ويقول المقریزی : « وكان يدفع لهم في كل يوم برسم الغداء جملة دراهم » .

وقد أفاض المقریزی في ذكر المواد المستخدمة في بناء المرصد الفلكي من نحاس ورصاص وخشب ومواد للبناء كالطوب الأحمر وأعمدة الرخام وما يستلزمه مثل هذا العمل الهندسي والفلكي معا ، كما ذكر أسماء العديد من هؤلاء الصناع وجملة المهندسين الذين شاركوا في بناء وتجهيز هذا المرصد حتى أصبح صالحا للعمل وزيادة على ما كان عليه في عهد الحاكم بأمر الله . ولا شك أن رواية المقریزی تدل على مبلغ علم المهندسين وتقدمهم في علوم الهندسة والفلك .

ومن الذين اشتهروا في أواخر العصر الفاطمي من هؤلاء المهندسين أبو علي المهندس المصري ، وقد ذكر ابن القفطي أنه كان موجودا بمصر في سنة ٥٣٠ هـ ولا شك أنه كان يجمع بين تفوقه في علم الهندسة وما يقوم به من عمل الرسومات الهندسية ، والإشراف على تنفيذها ، فضلا عن تخريج المهندسين على يديه ، لاسيما وقد بلغ في ابتكاراته المعمارية في مجال العمارة والتخطيط ما لم يسبقه إليه غيره من هؤلاء المعماريين والمهندسين في عصره .

كما ذاع صيت عالم آخر هو أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير النساني ، وكان ممن اشتهر بتفوقه في ميدان الهندسة والرياضيات (٣٣) ، ولا شك أن نبوغ هؤلاء وتقدمهم في علوم الهندسة حتى أواخر أيام الفاطميين ، كان له عظيم الأثر في تشييد المباني والقصور البديعة وغيرها من المنشآت الدينية والمناظر والحمامات خلال العصر الفاطمي .

وليس أدل على مظاهر العظمة وأبهة الحياة الاجتماعية لدى الخلفاء وما بلغه الصناع والمهندسون من تقدم في فن المعمار في العصر الفاطمي ، من هذا الوصف الذي كتبه غليوم رئيس أساقفة صور عن زيارة رسول أمريك ملك بيت المقدس للقصر الفاطمي سنة ٥٦٢ هـ ليعقدا مع الخليفة العاضد تحالفا ، ومما جاء فيه : « وسار السفراء يقودهم الوزير شاور

(٣٢) ألح المقریزی الى أنه في بداية حياته حصل بأحد البنائين أو المعلمين ليعلمه صناعة البناء في القسطنطينية ، انظر الحنفا ، ج ٣ ، ص ١١١ .

(٣٣) توفي أواخر أيام الفاطميين في مصر وذلك في سنة ٥٦٣ هـ . ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٤ ، ص ٥٦ ، الأدقوي : الطالب السعيد ، ص ٩٨ ، ص ١٠٢ .

بنفسه الى قصر له رونق وبهجة ، وفيه زخارف أنيقة ، وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثير ، فوجدوا في هذا القصر حراسا عديدين ، وسار الحراس في طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة ، وقادوا السفراء في ممرات طويلة ٠٠ ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف ، تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان ٠٠٠ وفي هذا المكان حل محل الحراس المرافقين للسفراء بعض العظماء من الأمراء المقربين الى الخليفة فساروا بصحبة المبعوثين من قبيل الملك أمليرك في أفنية جديدة أشد جمالا وإبداعا ٠ وبعد أن عبر السفيران أبوابا عديدة وصلا الى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة ، وقد فاق هذا القصر كل ما راوه قبل ذلك ، وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين متقلدين أسلحتهم وأدخل المبعوثان في قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحريير المختلف الألوان ٠٠ ولم يكن في هذه القاعة أحد ٠٠ لكن شاوور خر راکما فور وصوله ٠٠٠ ، ثم ارتفعت الحبال فجأة ، وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق ٠ وظهر السلطان العاضد لأعين السفراء ٠٠ وكان على وجهه نقابا يخفيه تماما وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة ٠٠٠ ، ٠

ولا شك أن ما جاء في هذا الوصف الرائع للقصر الفاطمي (٣٤) إنما يعكس مدى قدرة البنائين والمعماريين المصريين وأحكامهم لصناعة البناء وما بلغه صناع الجص والرخام وغيرهم من النقاشين والمصورين في زخرفة القصور وسائر المنشآت حتى غدت تلك المنشآت المعمارية إحدى آيات الفن والجمال وخير شاهد على ما خلفته العمارة الإسلامية في عصورها الزاهرة ٠

(٣٤) أشرف على بناء هذا القصر الحسن بن عبد العزيز الفارسي المحتسب ، كما تم بناء حمام في غربيه وبئر وبستان عرف بالتاج ٠ وقد جددته الأمر بأحكام الله ، ويصفه في سنة ٥٢٠هـ ، وعمل شرقي بابه مصطبة للصوفية ٠ الخطط ، ج ٣ ، ص ٤٦٧ ٠

الفصل السابع

صناعة المواد الغذائية

- ١ - حرفة الحبوبيين وطحن الغلال •
- ٢ - صناعة الخبز والحلوى •
- ٣ - صناعة استخراج الزيوت •
- ٤ - صناعة الصابون والطيب •
- ٥ - صناعة واستخدام الشمع •
- ٦ - حرفة النحالة •
- ٧ - صناعة التفريخ •
- ٨ - صناعة السكر والعسل •

شغلت الحرف والصناعات المتصلة بكل ما كان يؤكل أو يشرب عددا كبيرا من هؤلاء الحرفيين والصناع في مصر الاسلامية ، ولا غرابة في ذلك فالماكول والمشروب من الضرورات التي يحتاج اليها الانسان دائما في غذائه أو شرابه ، أو حتى وإن بلغت حد الكماليات كالمسكرات وغيرها .

١ - حرفة الحبوبين وطحن الغلال

كان القمح من أهم محاصيل الحبوب التي تنتجها مصر منذ العصور القديمة ، وليس أدل على ذلك مما فرض على المصريين من ضريبة القمح خلال العصر الروماني والبيزنطي ، حيث بلغت الكميات المرسلة منه الى القسطنطينية والتي كانت تحملها السفن من ميناء الاسكندرية نحو تسعة ملايين أردب قبل الفتح العربي من الديار المصرية .

ولم يختلف العرب عن غيرهم من الفاتحين الذين تتابعوا على البلاد المصرية ، فقد جاءوا لفتحها وهم يعلمون بثروتها وخيراتها ، وهكذا كانت مصر تقدم للفاتحين المال والطعام فلا عجب اذا قال عمرو بن العاص : « ولاية مصر جامعة ، تعدل الخلافة » .

وكان القمح أهم ما ترسله مصر الى الخلافة بعد الفتح ، فبعد أن كانت ترسل القمح سنويا الى روما ثم بيزنطة (١) ، أصبحت بعد الفتح العربي ترسل القمح الى الحجاز . وقد استمرت عادة ارسال القمح الى

(١) وفي المرسوم الذي أصدره جستنيان والذي يحدد أنواع الضرائب كانت ضريبة القمح مقدارها ٨ مليون أردب .

الحجاز حتى بعد أن انتقل مركز الخلافة من الحجاز الى الشام ثم الى العراق . يذكر المقرئ أن من فضائل مصر أنها تميز الحرمين الشريفين وتوسع على أهلها .

وكان من أسباب حفر خليج أمير المؤمنين ربط الفسطاط بالقلزم على ساحل البحر الأحمر ، وانطلاق السفن منها تحمل الغلال والطعام الى أهل الحجاز ، وذلك منذ بداية الفتح ، يقول ابن عبد الحكم : « فلما قدمت السفن الى الحجاز خرج عمر حاجا أو معتمرا ، فقال : سيروا ننظر الى السفن التي سيرها الله إلينا من أرض فرعون حتى أتتنا » .

كان القمح يزرع في سائر أنحاء البلاد ويزرع في الصعيد على أثر الشعير ويذكر ابن الكندي أن مصر كانت تشتهر بالقمح اليوسفي الذي لا نظير له في خارج مصر . وقد عرف المصريون طريقة استخلاص الحبوب، فكانوا يستعملون النورج منذ العصرين اليوناني والروماني لدرس القمح والشعير والفول والعدس والحمص والحلبة ، فتفصل الحبوب من سنابلها ، وظل النورج وصناعته من الخشب مستعملا حتى وقتنا الحاضر في سائر أنحاء البلاد . وبعد أن يدرس بالنورج يذرى بالمذراة لفصله عن عيدانه وعن سنابله وعن القشور التي تكسو حباته ، وذلك تمهيدا لتنقيته وطحنه وتحويله الى دقيق .

وتشير أوراق البردي الى حركة التجار التي كانت نشيطة للغاية في مصر في عصر الولاة ، حيث كان تجار الحبوب أو ما يطلق عليهم الحبوبيين يعملون على شراء القمح وأنواع الغلال الأخرى ونقلها الى العاصمة الفسطاط ، ففي إحدى أوراق البردي التي ترجع الى القرن الثاني الهجري يتضح أن شخصا يدعى إبراهيم النوتي صاحب إحدى المراكب النيلية دفع له أحد الأشخاص مبلغا قدره سبعة عشر دينارا ، لحمل مائة وخمسين أردبا من القمح ونقلها الى الفسطاط ، وتشير بردية أخرى الى شهرة مدينة الأشمونين ونواحيها بانتاج القمح ، وطلب التوجه الى المدينة لحمل القمح ونقله الى العاصمة ، كما تكشف لنا بردية ثالثة تشمل خطابا موجهًا بشأن التموين وحمل الحبوب من مدينة ادفو بصعيد مصر الأعلى بالمراكب . وهناك بردية ورد فيها مقدار الغلال والحسابات الخاصة بذلك بلغت نحو ثلاثمائة وثلاثين أردبا من القمح .

وهكذا يظهر لنا أن الحبوبيين وتجار الغلال كانوا منتشرين في سائر

الأنحاء من أجل شراء القمح وحمله بواسطة المراكب على صفحة النهر الخالد
الى القسطاط (٢) .

أما عملية الطحن للقمح وتحويله الى دقيق ، فقد كانت تقوم بها فى ذلك الوقت مجموعة من المطاحن العامة فى القسطاط وفى غيرها من المدن المصرية ، ومجموعات من المطاحن الخاصة التى كان يمتلكها الموسرون من الناس فى بيوتهم لطحن غلالهم ، وكانت عبارة عن طواحين صغيرة يديرها عبيدهم وجواريهم .

وكان أهل القرى عادة يشتركون فيما بينهم فى تكاليف إقامة طاحون خاص للقرية كلها فى دار واحد منهم أو فى وسط القرية ، فيصبح كل منهم الحق فى الانتفاع بهذا الطاحون لطحن غلاله ، وكانت هذه الطواحين تدار بالثيران ، فان كان عند الرجل منهم طحين يأخذ ثوره ، ويعلق ويطحن عليه . أما المطاحن العامة فهى تلك التى كان يمتلكها طحانون ليطحنوا بها القمح وغيره من الحنطة فيمن يرغب من الناس بالأجر ، وغالبا ما توجد مثل هذا النوع من المطاحن فى المدن وبخاصة مدن الدلتا (٣) .

ويذكر ابن عبد الحكم فى وقت مبكر أن مسلمة بن مخلد كان يشرف على الطواحين بالقسطاط ، ومن المعروف أنه تولى شئون البلاد كأمير عليها فى عهد معاوية بن أبى سفيان وذلك فى سنة ٤٤ هـ .

وكان المصريون يقطعون حجارة الطواحين من جبل رخام بالقرب من أسوان (٤) ، ومن جهة جبل المقطم ، وقد اشتهرت مصر بهذه المحاجر ، وكان المصريون يستغلونها قبل الفتح العربى بزمان طويل ، فكان هناك

(٢) تشير احدى البرديات الى المبالغ التى تسلمها عدد من القماحين ، وكان الدينار نسا ل ١٥ - ٢٠ وية من القمح اليوسفى .

أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١٤٣ - ١٤٥ .

- يمدنا السيوطى بأنواع المكاييل السائدة فى مصر ، ويذكر أن الكيل مختلف فى مصر وكان الأردب عبارة عن ست وبيات ، والوية أربعة أقداح ، والقده مائتان واثنتان وثلاثون درهما .

حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

(٣) يذكر الشريينى أن أهل بلاد الساحل وهى المدن التى تقع على شاطئ البحر المتوسط يطحنون بالأجرة ، وطواحينهم كلها كانت تدار بالحيل مثل سائر المدن الأخرى .
من التحوف ، ص ١٩٣ .

(٤) المقريزى : المجلد ، ج ١ ، ص ٢٧١ ويبدو أن المقصود به حجر الجرانيت ،

صناع لأحجار الطواحين فى كل من أرسينوى (الفيوم) والبهنسا
وأفرديتوبوليس (كوم اشقاو) .

ويشير ابن اياس الى فضائل مصر ويقول : « وبها حجر الصوان
المانع الذى يعمل منه الأعمدة وحجر الطواحين والمعاصر ، ولا يوجد هذا فى
بلد غير مصر » .

وقد أقيمت من المطاحن العامة بمدينة القسوطا يتناسب مع نمو
المدينة واتساعها ، وتطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى حاضرة مصر
الاسلامية ، ويذكر المقرئى أنه كان بها خط الطواحين ويقع فى جنوب
القسوطا ، وهو على هيئة صفيين كاملين من طواحين متلاصقة بجوار بعضها
البعض حتى أن المار بين هذين الصفيين كان لا يسمع حديث رفيقه اذا حدثه ،
وذلك لشدة دوى الطواحين أثناء دورانها . وكان من جملتها طاحون واحد
يشتمل على سبعة أحجار . وبطبيعة الحال لم يكن خط الطواحين ليقام بين
يوم وليلة ، ولكن الأرجح أنه تم ذلك حتى العصر الفاطمى .

ولم يقتصر وجود المطاحن والمعاصر على القسوطا أو غيرها من المدن
والكور المصرية ، بل كانت تستخدم أيضا لطحن القمح وعصر الزيوت
والنبذ فى الأديرة التى كانت فى وادى النطرون ، وفى مناطق البحر
الأحمر (٥) ، وفى دير طور سينا ، ودير أسيوط ، حيث كان يوجد فيها
عدة طواحين وأفران لصناعة الخبز بها .

وقد نشطت حركة طحن الغلال أيام الطولونيين خاصة بعد أن تم
تشبيد القطائع ، وإقامة المساجد والطواحين والأفران والأسواق بها ، وذلك
تلبية لاحتياجات الجند والعساكر ، فقد بلغ عدد الجيش الطولونى سبعون
ألف آنذاك .

وتشير المصادر الى أن القمح فى عصر ابن طولون كان يشتري عشرة
أرانب بدينار ، وفى عصر خمارويه ثلاثة أرانب بدينار ، وكان هذا السعر
الآخر يعتبر من أرخص الأسعار فى العصور الوسطى ، ولا غرابة فى ذلك
فقد توفر وجود القمح ، ويحدثنا المقرئى أنه استغل فى الزراعة نحو
مليون فدان فى العصر الطولونى . وقد خلا من الأزمات الاقتصادية وامتاز

(٥) وجدت مطاحن وعسارات فى الأديرة ، بقى منها الطاحونة الموجودة فى دير أنبا بولا
بالبحر الأحمر ، كما توجد طاحونة أمام منخل كنيسة السيدة مريم المسذراء فى دير
السريان .

بالرخاء وزيادة الانتاج . ومما لا شك فيه أن كثرة توافر الحبوب والغلل ورخص أسعارها يزيد من نشاط حركة الطواحين في كل وقت وحين .

وقد ورد في سيرة الماذرائيين ، أنه لما قدم مؤنس الخادم من بغداد الى مصر ، بعد أن خلع عليه الخليفة المقتدر في شهر ربيع الأول من سنة ٣٠٢ هـ ، استدعى أبو علي الحسين بن أحمد الماذرائي المعروف بأبي زنبور الدقاق ، وكان له بمشتول مقدار ستون ألف أردب من القمح ، فكان يقوم له ما بما يحتاج اليه من دقيق نحو شهر تقريبا .

وكان للماذرائي هذا من سعة الحال حتى أنه يملك له في كل قرية واحدة كمشتول هذه المقادير من القمح (٦) ، يذكر ابن زولاق أنه منح الطحان الذي كان يعمل في طحن هذه الغلال أربعمائة دينار كانت باقية لديه .

وتمدنا المصادر التاريخية والأثرية بأسماء عدد من الطحانين أو الدقاقين كما كان يطلق عليهم في ذلك الوقت ، فالدقاق هو الذي كان يقوم بطحن الغلال . وفي بردية ترجع الى عهد ابن طولون ، ورد في عقد زواج مؤرخ في شوال سنة ٢٦٤ هـ اسم سري بن عبد الله الطحان وقد شهد على ما جاء في ذلك العقد . كما وردت أسماء مجموعة من الدقاقين أو الطحانين على عدد من شواهد القبور باسم ابراهيم بن يحيى الطحان ، وشاهد آخر باسم أحمد بن يحيى الطحان المتوفى سنة ٢٩١ هـ . كما ورد اسم كل من موسى بن كامل الطحان ، ومحمد بن عيسى بن سليمان الطحان، ويظهر أن أفراد أسرة يحيى بن الطحان ، قد توارثت تلك الحرفة في عهد الطولونيين والاشيدين ، فقد ورد شاهد آخر بتاريخ ٣٥٦ هـ / ١١ يونية ٩٦٧ م باسم أحمد بن عبد الله بن يحيى الطحان ، كما أن من أفرادها

(٦) وردت في قوانين الدواوين ، والتحفة السنوية اسم مشتول الطواحين وهي جهة من أعمال الشرقية ، وواضح من الاسم أنها كانت تضم عددا كبيرا من الطواحين التي كانت ضمن اقطاع أبي علي الحسين بن أحمد الماذرائي . وبلغت مساحتها في العصر المملوكي نحو ١١١٤ فدان .

ابن ممتي : ص ١٧٦ ، ابن الجيعان ، ص ٤٠ .

من جمع بين احترافه لطحن الغلال ، والاشتغال بالعلم ، فقد ذاعت شهرة
أبى بكر الطحان في ذلك الوقت حتى أنه أصبح من كبار العلماء والحفاظ
والمحدثين المشهورين في عصره .

وفي عهد الاخشيديين نشطت حركة تجار الغلال ، وكانت هناك
سماسرة في الاشمونين وغيرها من المدن المصرية يعملون على شراء وارسال
الحبوب الى القسطنطينية في المراكب النيلية ، وتشير احدى أوراق البردي
التي ترجع الى اوائل القرن الرابع الهجري الى قوائم بحساب تاجر غلال
من الاشمونين يبدو أنه كان من هؤلاء السماسرة .

وكان من مظاهر البذخ والثروة في ذلك العهد توزيع مقادير وفيرة
من جرايات الدقيق على رجال الحاشية وأهل الستر ، يدلنا على ذلك
ما ذكره المقرئى أنه حينما حج الماذرائى الكاتب لدى الاخشيديين في
احدى السنين أمر بطحن مقادير كبيرة من القمح وتوزيعها على رجال البلاط
الاششيدي .

كما اشتهرت بلبيس بكثرة القرى والمزارع وطواحين الغلال في عصر
الاششيديين وأوائل العصر الفاطمى ، وكانت تميز أهل الحجاز بالدقيق
والكعك ، وقد أحصى المقدسى ما حمل منها في أسبوع واحد فبلغ ثلاثة
آلاف جمل من الحبوب والدقيق ، مما يدل على كثرة المطاحن الموجودة بها
آنذاك ، ومن الجدير بالذكر أن بلبيس وفاقوس بالقرب منهما كانت في
ذلك الوقت في ضمان الحسين بن طاهر ، يذكر ابن سعيد أنه أرسل الى
أخيه الحسين بن طاهر أحد كتاب الاخشيد يسأله الاعفاء من هذا الضمان
وكتب الحسين الى أخيه الحسن : « قد أعفأك من ضمان فاقوس وبلبيس
وضمنهما من يقدر عليهما » .

وكانت تنيس من المدن الهامة في العصر الاسلامى ، ومما يذكر أنها
كانت تحتاج من الأقوات والطعام في كل سنة من الحنطة والشعير والقطنى
مائتا ألف أردب ، وكان بها من الطواحين مائة وستون ، فيها ما يشتمل
على مدار ، ومنها على مدارين ، ومنها ما يشتمل على خمسة أحجار كما أنه
كان يوجد من المطاحن العامة في القسطنطينية .

وفي أواخر عهد الاخشيديين وقعت الأزمات والأوبئة ، نتيجة الغلاء
في الأسعار وعدم وجود القمح ، فمن ذلك ما وقع سنة ٣٤٣ هـ . فقد عظم
الغلاء حتى بيع القمح كل وبيتين ونصف بدينار (٧) ، ثم طلب فلم يوجد ،
واستمر ذلك الغلاء تسع سنوات متتالية مرة أخرى حين بدأ في سنة

(٧) الأردب ست وبيات - حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

٣٥٢ هـ ، ولا شك أن ذلك كان يعمل على تعطيل حركة الطواحين وأرزاق هؤلاء الطحانين .

ومن الجدير بالذكر أن نقصان مياه النيل كان له أثر كبير في وقوع مثل هذا الغلاء وأمثاله على امتداد العصور الوسطى ، وكان يعقّب الغلاء انتقاص الأعمال وكثرة الفتن ونهب الضياع والغلال وأسواق البلاد ، وهكذا كان يتعذر وجود الأقوات حتى يبلغ بيع القمح كل وية بدينار .

ولما قدم جوهر الى مصر ، كان مما نظر فيه أمر الأسعار ، وضرب جماعة من الطحانين وطيف بهم ، وعمل على إنهاء أزمة الغلال ، فجعل الحبوبيين والسماسرة بمكان واحد ، وأقرهم بعلم بيع الغلال الا في موضع بعينه حدده لهم بالفسطاط ، ولم يجعل لهذا السوق غير طريق واحدة تسلكه الناس للشراء ، فكان لا يخرج قدح قمح الا ويقف عليه سليمان ابن عزة المحتسب .

على أن هذه الوسائل لم تؤد الى انفراج الأزمة نهائيا (٨) ، واستمر الغلاء الى سنة ٣٦٠ هـ ، حتى كثر الموت وعجز الناس عن تكفين الأموات ودفنهم ، ولم تهدأ حدة الغلاء الا بحلول عام ٣٦١ هـ حينما أوفى النيل ، وأخصبت الأرض وانحل السعر وحصل الرخاء .

وقد عمل الفاطميون بعد ذلك على انشاء الاهراء السلطانية (٩) ، فكانت تزود بالغلال من أنحاء البلاد ، وخاصة من جهة منفلوط بالقرب من أسيوط ، أما الأعمال في الوجه البحري فكان يحمل ما فيها من الغلال الى الاسكندرية . وكان ما ينفق من هذه الاهراء أو المخازن في الطواحين يرسم خاص الخليفة (١٠) . وما كان يصرف منها جرايات وما يعمل برسم الكعك

(٨) وكان من حسن الحظ أن المعز لدين الله لما علم بفتح البلاد ، بعث الى قائده جوهر في مصر بعدد من السفن المحملة بالحبوب ، مما خفف على أهل مصر كربهم ودحا من الزمن . حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٥٧٩ ، كذلك أنشأ جوهر في الوقت نفسه مخزنا عاما للحبوب عهد برقايته الى المحتسب ، وكانت مهمته منع احتكار الحبوب والانتفاع بتقدير أثمانها .

(٩) يذكر انقريزى أن موضع خزن الغلال في القاهرة كان وراء القصر الفسطاطي فيما يلي دار الوزارة والحجر التي أنشأها المعز لدين الله ، وكان يسمى بالمناخ المسعد ، الخطيب ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(١٠) كان للفاطميين عدة مخازن لحزن الحبوب في عدة أماكن بالقاهرة والفسطاط والمقسم ، ومنها كانت توزع الغلال والحبوب على أرباب الرواب والمساجد والجرايات والطواحين السلطانية وغيرها . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٩ .

لتزويد رجال الأسطول الفاطمي ، وما يستدعي بدار الضيافة الملحقه
بالمصور الفاطمية .

ومن الجدير بالذكر أن الأهرام السلطانية أو مخازن الغلال كانت بها
مجموعة من الطواحين لطحن الغلال برسم جرايات القصور الفاطمية ،
ولهؤلاء الحرفيين الفرنج ، وكانت أعدادهم كبيرة ، ومنهم التجارين
والجزارين والدهانين والخبازين والخباطين ، والطحانين والعجائين في تلك
الطواحين والقرانين في أفران الجرايات .

وذكر ابن الطوير أن الوزير المأمون بن البطائحى فى عهد الخليفة
الأمير أنشأ طواحين جديدة خاصة لأصحاب الرتب من القواد والأمراء
والمشارفين العدول وغيرهم من رجال البلاط الفاطمي .

ويصف لنا القلقشندى تركيب وإدارة الطواحين قائلا : وأما الطواحين
فإنها كانت معلقة وطواحينها فوق كما فى السواقى وطواحين مدارها أسفل ،
حتى لا يقارب الدقيق زبل الدواب ، .

ومن الواضح أن مصر لم تعرف سوى الدواب كوسيلة لإدارة
الطواحين ، فلم تكن تدار بالهواء كما هو فى المدن الإسلامية الأخرى (١١) ،
وذلك على الرغم من وجود نهر النيل ، وذلك بخلاف ما يذكر آدم متر فى
القرن الرابع الهجرى فهو يقول : « انه لم يكن الناس يستعملون الدواب
فى إدارة الطواحين الا فى الجهات التى ليس فيها أنهار ، وقد شاع فى
الانحاء الأخرى استخدام الأرجاء الهوائية التى تسير بالهواء ، وكان لها
ثمانية أجنحة وتكون من عمودين ينفذ بينهما الهواء كالسهم ، والأجنحة
تقوم عمودية على قائم عمودى أيضا طرف الأسفل يحرك حجرا ، فيدور
هذا الحجر على حجر آخر ، وكان من الممكن تنظيم سرعتها ، بواسطة
مناقبى تعلق وتفتح حسب الحاجة .

وقد استمرت المطاحن فى مصر فى العصر الفاطمي وحتى نهاية عصر

(١١) كانت مطاحن الموصل بالعراق تسمى الواحدة منها عربة ، وهى مصنوعة من
الحديد والحديد لا يمازجه شيء من الحجر أو الخصى ، وهى تقوم فى وسط الماء بسلسلة
من عربة فيها حجران يطحن كل حجر منها خمسين وفرا كل يوم : ابن حوقل :
المسالك والممالك ، ص ١٤٧ ، آدم متر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ،
ج ٢ ، ص ٣٠٦ .

الأيوبيين ، تعمل بالدواب من الثيران والخيول ونحوها (١٢) وكان عند وصول القمح الى الطاحون يقوم صاحب الطاحون بوزنه للتأكد من صحة وزن القمح ، ثم يقوم هو ومن معه من عمال بغربلة القمح من التراب وتنقيته من الطين وتنظيفه من الغبار قبل طحنه بالماء .

اما الطاحون فهو عبارة عن رحاء يتكون من قرصين وهما حجران يعتلى أحدهم الآخر في وضع أفقى - العلوى منهما أصغر من السفلى ويتحرك فى حركة دائرية بينما السفلى منهما ثابت لا يتحرك ، ويستمد القرص العلوى حركته من حركة ترس سفلى صغير يضع أسفل الرحاء وهذا الترس يستمد حركته من حركة ترس خشبى كبير يديره حصان فى مدار دائرى أعلى من هذا الترس الكبير (١٣) .

وكان يراعى عند تثبيت الحجرين فوق بعضهما أن يكونا فى وضع أفقى مائل قليلا وذلك لكى ينحدر الدقيق المطحون فى اتجاه هذا الميل ، ويخرج من فتحة موجودة بالترس السفلى ، فيسقط فى قفة تكون معدة أسفل هذه الفتحة لتلقى هذا الدقيق كما كان يراعى نقر الحجرين بآلة حادة قبل استخدامها للطحن لاجداث خشونة بسطحيهما تساعد على زيادة سحقهما للقمح المحصور بينهما ، وينبغى على الطحانين عدم قيامهم بالطحن مباشرة بعد نقر الحجر ، لأن ذرات الحجر وغيرها التى تكون لا تزال عالقة بالحجر وقتئذ تختلط بالدقيق المطحون مما يسبب الضرر للناس ، وهكذا يجب تنظيف الأحجار من هذه الذرات والتراب قبل ادارة الطاحون .

وكانت المطاحن العامة تضم عددا من الصبيان والطحانين وكانت مهمة هؤلاء الصبيان استلام القمح من البيوت التى تريد طحنه . فكانوا يأخذونه منهم بالوزن ، ثم بعد طحنه يعيدونه اليهم فى بيوتهم ، مطحونا دقيقا ، وكان على الصبى منهم أن يكون أميناً عفيفاً عن المفاسد لأنه يدخل بيوت الناس ويخاطب أولادهم وجواريتهم ، وكان عليه عند تسليمه الدقيق أن يضع الدقيق على الباب ، ويعلم من فى البيت بذلك ويتوارى قليلا حتى يعلم أنهم أخذوه فيذهب لسبيله ، وكذلك يفعل حين يأخذ القمح .

(١٢) ظلت المطاحن تدار كذلك حتى عام ٧٨٤هـ حينما توصل الأمير جركس الخليلى الى طريقة جديدة لادارة الطواحين بقوة اندفاع الماء ، فقد أقام طاحونا فى مركب وأوقفها عند مقياس النيل ، وقد استمد ذلك الطاحون قوته المحركة من قوة اندفاع مياه النيل ، فكانت تطحن الدقيق من غير تعب ولا كلفة .
المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٥٨ .

(١٣) وقد استعمل المصريون فى مطاحنهم فى العصر الفاطمى نوعا من الأحجار الناعمة غير الثقيل لطحن الغلال ، والتى ظلت سائدة فى بلادنا حتى اليوم .
وليم نظير : الزراعة فى مصر الاسلامية ، ص ١٢٤ .

كانت الحكومة الفاطمية تراقب نشاط الحبوبيين والدقائين وخاصة عند قصور النيل ، وفي عهد الحاكم وقع الغلاء بسبب ذلك ، واشتد خوف الناس ، وتعطلت الطواحين العامة والخاصة . وأمدنا المقرئى ببيان مواضع جمع وبيع الغلال فى العصر الفاطمى ، ومنها ميدان القمح وكان بالقرب من المقس على ساحل النيل وبعضهم كان يسميه ميدان الغلة (١٤) . وكما كان يوجد سوق القماحين بالقرب من الجامع الأحمر .

ويذكر المسبحى أنه فى عهد الخليفة الظاهر شبت النار فى الطواحين، فاحترقت منها أربعة طواحين . واحترق جميع ما فى الطواحين من دقيق و قمح ، و علف وآلة الطواحين ، وقع ذلك سنة ٤١٥ هـ .

وفى نفس العام توفى أبو محمد بن يحيى الدقاق ، وصلى عليه قاضى القضاة ، وكان كما يبدو شيخ الطحانين فى وقته ، كما كان من شيوخ الحديث ومؤرخى أخبار مصر . ومن هؤلاء الذين ترجم لهم المسبحى من الطحانين ابن حديد القلزمى الطحان ، وكانت وفاته فى ذلك العام أيضا - وكان رجلا من أهل السير والقرآن يتبع المذهب الشيعى ويتضح لنا من ترجمته أنه كان أيضا من شيوخ الدقائين ، كما كان ابن سعدان القماح شيخا من وجوه السماسرة فى القمح بالساحل (١٥) .

وفى عهد الخليفة المستنصر ، حينما غاض ماء النيل ولم يوف بالزيادة سنة ٤٤٤ هـ وأصبحت مخازن الغلال لا يوجد بها شىء ، واشتدت المجاعة بالفسطاط ، أمر الوزير اليازورى بإنشاء متجر للغلال تشرف عليه الدولة ، فكان يشتري كل سنة من القمح والغلال بمائة ألف درهم .

وفى عام ٤٤٦ هـ بسبب وقوع الغلاء ، استعان الخليفة المستنصر بصاحب القسطنطينية ليحمل اليه الغلال فأطلق له ٤٠٠ ألف أدرى ولكنه مات قبل ورودها ، وخلفته الامبراطورة تيودورا التى اشترطت على مصر اشتراكها فى معاهدة دفاعية هجومية مع بيزنطة ، فأبى الوزير بأن يرتبط بعهد كهذا يعرض البلاد للأخطار الخارجية .

(١٤) كان المقس ساحل القاهرة ، حيث تقف المراكب الى منية السرج ، وكانت فى أيام النيل تغطى الساحل كله . ومن الجدير بالذكر أن الساحل المصرى كان يتغير بتغير السلطة الحاكمة فى مصر ، فمنذ الفتح العربى الى عهد الأخشيديين . كان الساحل بجزيرة الروضة يقع فى جنوبها الشرقى وأصبح فى عصر الأخشيديين فى الجانب الشرقى ، شرقى فم الخليج ، ثم صار أيام الفاطميين بالقرب من المقس .

المقرئى : المخطوط ج ٢ ، ص ٣٤١ .

(١٥) وفى سنة ٤١٥ هـ دفن فى سفح المقطم ، أخبار مصر ، ص ٢١٦ .

وفي سنوات الشدة العظمى ، حينما بدأت المجاعة بانخفاض النيل سنة ٤٥٧ هـ واستمرت سبع سنين ، قلت الأقوات بالقاهرة ومصر وتعطلت حركة الطواحين ، وبلغ ثمن الرغيف من الخبز أربعة عشر درهما وأردب القمح ثمانين دينارا . وقد عانى الأغنياء وكبار رجال الدولة من هذه المجاعة مثل ما عانى منها الفقراء تماما . واضطر بعض أصحاب النفوذ والأعيان الى مغادرة مصر والرحيل الى بلاد الشام والعراق .

وفي هذه الأثناء استدعى المستنصر الوالى وتوعده ان لم يظهر الخبز فى الأسواق بضرب عنقه ، فعمل الوالى على جمع تجار الغلة والطحانيين والخبازين وعقد لهم مجلسا وهددهم بالقتل اذا لم يعملوا على انتهاء احتكار الغلال والعمل على بيعها فى الأسواق ، ويظهر من حديث المقرئى أنهم عملوا بالنصح وأخرجوا الغلال ، ودارت عجلة الطواحين وعمرت الأسواق بالخبز من جديد . وهكذا كانت الدولة الفاطمية تعمل على توفير المؤن والغلال فى سنوات الشدة كى تدور عجلة الطواحين فلا تتوقف ولا يحتكر السماسرة والحبوبيون أقوات الشعب وقت الأزمات الطاحنة .

وتتابع وقوع الغلاء حتى أواخر أيام الفاطميين فقد وقع أيام الأمر بأحكام الله ووزيره الأفضل ، الذى كان مصيره القتل على باب دكان أحد الدقاقين ، وكان أربعة نفر قد وثبوا عليه من هذا الدكان بالملاحين وأجهزوا بسكاكينهم عليه فقتلوه وذلك فى سنة ٥١٥ هـ .

وكانت سياسة الوزير المأمون البطائحي بعد أن تولى الوزارة بعد مقتل الأفضل أن يسعر للتجار أو السماسرة ثمن بيع القمح ، وأمر ببيع جزء من غلات الديوان للطحانيين بالسعر الذى حدده للسوق ، كما أمر وكيله أبا البركات محمد بن عثمان أن يجدد جامع القرافة بالمقطم وأن يقيم بجانبه طاحونا للسبيل ويشترى له الدواب والآلات اللازمة ، ويتخير من الصالحين الساكنين بالقرافة من يجعله أمينا عليه ويطلق له ما يكفيه من علف الدواب وغير ذلك مما يحتاج اليه ذلك الطاحون (١٦) .

وفي عهد الخليفة الحافظ لدين الله ، وقع القحط الذريع ، الا أنه لم يستمر ، ثم وقع فى أيام الفائز . ووزارة الصالح طلائع بن رزيك

(١٦) وكانت العادة جارية بالحق الطواحين بالمزارات والمساجد الكبرى كمسجد القرافة بالنظم كما جاء فى وصف قبر الخليل عليه السلام ببيت المقدس . اذ ذكر ناصر خسرو أنه كان يعطى الضيوف المسافرين والزائرين الخبز والزيتون عنده ، ويقول : وهناك طواحين كثيرة تديرها البغال والثيران لطحن الدقيق ، وبالمصيفة خادمت يخبزن طول اليوم ، سفرنامه ، ص ٣٤ ، سعاد ماهر : حقائق كلية الآثار بظاهر مدينة القسطنطينية ، ص ١٩٠ .

(٤٤٩ - ٥٥٥ هـ) (١٧) ، وكان بالأهراء من الغلات ما لا يحصى فأخرج جملة كثيرة من الغلال وفرقها على الطحانين ، وأرخص سعرها ومنع من احتكارها ، وأمر الناس ببيع الموجود منها .

وهكذا ارتبط نشاط السماسرة وتجار الحبوب ، والطحانين في مصر ارتباطا وثيقا بما كان يقع من الأزمات أو المجاعات بسبب نقصان النيل والفتن والثورات ، وبما تقوم به السلطة الحاكمة تجاه احتكار الحبوبيين للقمح والغلات الأخرى ، والعمل على توفير الأقوات وتوزيع الغلال على المطاحن العامة بالأسعار المحددة أثناء وقوع مثل هذه الموجات المتلاحقة من الغلاء حتى نهاية العصر الفاطمي .

(١٧) بلغ سعر الأردب فيه خمسة دنانير لقصور ماء النيل ، المقرري : أغانة الأمة ، ص ٢٧ .

٢ - صناعة الخبز والحلوى

يتصل بحرفة طحن الغلال وما يتعلق بها بشكل مباشر القيام بعمل أنواع الخبز لسائر أفراد الشعب وما يتم انفاقه فى دار الامارة أو داخل القصور التى تضم الحاكم ورجال حاشيته وبلاطه .

وكانت طائفة الخبازين من أصحاب الحرف اليدوية كالطباخين والحدادين والتجارين وغيرهم ، وكانت حرفتهم من أهم الحرف التى يحتاج اليها الجميع ، لاسيما فى المدن المصرية المختلفة .

وتشير المصادر الى أن صناعة الخبز كانت موجودة فى مصر قبل الفتح العربى ، ويتضح ذلك من قائمة أحد الخبازين بمدينة البهنسا وكانت من المدن الهامة فى الصعيد الأوسط ، فقد أوضحت لنا نوع الانتاج من الخبز المعمول والفطائر والمقادير بشكل يكفى حاجة السكان بالمدينة . كما بينت تلك الأنواع العديدة من الحلوى التى أجاد الصنّاع عملها . وكان اقبال سكان المدينة والمدن الأخرى المصرية عليها اقبالا شديدا .

كانت الأفران تفرق على أطراف المدن ، فكانت كل خطة كما فى الفسطاط فى عصر الولاة ، يخصص لها من هذه الأفران ، وهى بطبيعة الحال تزداد أعدادها بتوسع المدن وتبهرها فى العمران . وكان على الفرانين أن يرفعوا سقائف أفرانهم ، ويجعل فى سقوفها منافس واسعة للدخان .

ولا شك أن الأفران كانت تستخدم دقيق الحنطة أو القمح لصناعة الخبز فى العصر الاسلامى ، ويظهر من قول المقرئى أن الناس وسكان المدن على وجه الخصوص كانوا يفضلون أكل الخبز بعد أن يتم خبزه بالأفران مباشرة مما يتطلب معه دوام الحركة ونشاط الخبازين فى كل

وقت آناء الليل وأطراف النهار ، وذلك لأن الخبز المعمول من الحنطة بمصر كان متى لبث يوما واحدا بليلة يتعذر أكله .

كما يذكر المقرئى أنه كان فى دار عبد العزيز بن مروان الوالى المصرى (٦٥ - ٨٥ هـ) حمامان وعدة أفران يخبز بها عجين أهلها .

ولم يقتصر وجود الأفران لعمل الخبز على الفسطاط أو حلوان التى أنشأ بها عبد العزيز بن مروان الأسواق والأفران والحمامات ، وإنما كانت منتشرة فى سائر المدن المصرية على كثرتها فى عصر الولاة من الاسكندرية وحتى أسوان جنوبا . يتضح لنا ذلك فى مجموعة أسماء الخبازين التى ذكرت على شواهد القبور ، ومنها شاهد رخام يرجع الى سنة ٢٤٢ هـ باسم أحمد بن حنيد الخباز ، وشاهد رخام من مدينة الفسطاط أيضا مؤرخ بتاريخ ١٩ المحرم سنة ٢٤٤ هـ باسم الحسين بن اسحق الصدفى الخباز . كما ورد اسم أحمد بن نادى الخباز على شاهد من الحجر الرملى من جبانة أسوان بتاريخ ١٣ رمضان سنة ٢٢٤ هـ / ٢٣ ديسمبر سنة ٨٢٨ م ، وشاهد آخر باسم زكريا بن يحيى الخباز ، وشاهد ثالث باسم أحمد بن محمد بن على بن الخباز الحلبي الغريب ، كذلك يحتفظ متحف الفن الاسلامى بمجموعة من الشواهد وردت من منطقة الفيوم والأشمونين بالصعيد .

وفى عهد الطولونيين بنيت القطائع ، فكانت للنوبة قطيعة ، وللروم قطيعة ، وللفرانين ولغيرهم من كل صنف من الغلمان ، وبنى القواد مواضع متعددة ، واختط الناس وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط ، كما بنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات والأفران ، ولا شك أن التوسع فى العمران وزيادة عدد السكان يحتاج الى العديد من اقامة الأفران ، وازدياد عمل الفرانين والخبازين فى القطائع وغيرها من المدن المصرية .

وقد وردت خلال العصر الطولونى الاخشيدي مجموعة من أسماء من هؤلاء الخبازين ، منها شاهد من الفسطاط باسم عبد الله بن محمد بن اسماعيل الخباز فى ١٢ رمضان سنة ٢٦٢ هـ . وشاهد رملى من الفسطاط أيضا باسم ريحان فتى أبى نصر فتح الخباز ، وشاهد من الفيوم باسم محمد وأسماء ابنى محسن بن أبى الخباز ، وشاهد حجر رملى من الصعيد بتاريخ ١٣ المحرم سنة ٢٨٦ هـ / ٢٩ يناير ٨٩٩ م باسم أحمد بن يعقوب الخباز .

ومن أسماء الخبازين التى وردت من جبانة أسوان فتح بن نصر الخباز ، وشاهد رخام بتاريخ سنة ٥٣٨ هـ باسم الشيخ أبى عبيد الله محمد بن المأمون الخباز بن أحمد بن عبد الله بن عبد اللطيف . كما ورد

فى طراز من أوراق البردى المصرية اسم نجاح التجريد الخباز من مدينة
الأشمونين يرجع الى القرن الرابع الهجرى . مما يدل على انتشار حرفة
القرانين والخبازين فى سائر المدن المصرية .

كان الخبازون فى الفسطاط وغيرها من المدن المصرية تقيد أسماؤهم
وتعرف أماكن حوانيتهم ، فان الحاجة كانت تدعو أعوان المحتسب الى
معرفتهم للإشراف عليهم ، ومراعاة ما يتعين عليهم القيام به من نظافة
أوعية الماء وغسل المعاجن ونظافتها وما يغطى به الخبز وما يحصل عليه ،
كما كان يتعين على الخباز أن يحترز على الخبز خشية أن يحترق أو أن
يخرجه من الأفران قبل نضجه وغير ذلك مما يترتب عليه ضرر الناس أو
مرضهم .

وكان أجود أنواع الخبز فى عهد الطولونيين والاختشيديين ما يسمى
بالخبز الحوارى ، وكان يصنع من الدقيق الحوارى أى الدقيق المحكم النخل
الشديد البياض ، كذلك كان يصنع فى العصر الفاطمى .

ومن أنواع الخبز الجيد أيضا خبز كان يسمى بخبز العلامة (١) .
أما أردأ أنواع الخبز المعمول من دقيق الحنطة فكان يسمى الخشكار (٢) ،
وهو خبز كان يصنع من الدقيق غير المنخول والذي لم تغسل حنطته قبل
طحنها (٣) . ولتحسين وجه الخبز فانه يرش على وجه قرص العجين قبل
خبزها الكمون الأبيض والأسود والشونيز (٤) ، والقرطم المصطفى ، وعرق
الكافور والسمسسم واليانسون ونحو ذلك من أنواع الأباريز (٥) .

وفى مدينة تنيس كانوا يحرصون على عمل أنواع من الخبز الجريش
المجفف فى الشمس ويدخرونه للشتاء وقصر النهار ، وكان عدد سكان
المدينة يصل الى خمسين ألفا ، غالبيتهم من الحاكة والنساجين الذين يعيشون
على هذا النوع من الخبز .

أما الخبز الشائع استعماله فكان ما يسمى بالخبز السميد ، وكان

(١) كان من أجود أنواع الدقيق فقد كانت توضع عليه علامة عند طحنه ونخله ،
ويقال أعلم القصار الثوب فهو يعلم ، والثوب معلم . مختار الصحاح .

(٢) الخشكار : الدقيق الذى لم تنزع نخالته .

(٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٢٣ .

(٤) الشونيز : نبات زهره أصفر ارتفاعه نحو شبرين وحبوه المعروفة بحبة البركة .

(٥) الأباريز : جمع الجمع ييزر وأيزار وهى التوابل .

يعمل بالمخابز والمطابخ الخلافية ، يذكر ابن الطوير أنه كان إذا أوفى النيل وطالع ابن الرداد ذلك فانه يؤمر بأن يحمل الى المقياس من المطابخ عشرة قناطير من الخبز السميذ وغير ذلك من أنواع اللحوم والماكولات يرسم قراء الحضرة والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ومن يجرى مجراهم فيستعملون ذلك .

وفي سنة ٣٩٨ هـ ضرب جماعة من الخبازين ، وشهر بهم في العاصمة ، وذلك لتعذر وجود الخبز ، واشتداد الأمر ، وعدم مراعاتهم للشروط التي يجب أن تكون صناعة الخبز مستوفية لها .

وفي عهد الخليفة الظاهر ، وفي سنة ٤١٥ هـ على وجه التحديد ضرب عدد من الخبازين على خلطهم الطفل المسحوق بالأخباز ، وقد تزايد أمر الغلاء ، وطلب المحتسب الى القصر وطولب بعمارة البلد بالأخباز والقمح الى حين ادراك الغلة ، فأطلق القمح من المخازن للطحانين ، وأمر ببيع الخبز رطلين ونصفا بدرهم ، وقرىء سجل بأسعار بيع الخبز على أساس الخبز السميذ رطلان بدرهم وربع ، والخبز الحواري رطلان بدرهم .

ولم يقتصر عمل المخابز والأفران في العصر الفاطمي على أنواع الخبز لبيعه في حوانيت الخبازين في الأسواق ، بل كانت تخبز لمن يرغب من الناس ، وما كان يعرف بخبز البيت أو الخبز البيوتي ، وكان يتعين على المخابز أن تستخدم بعض النساء أو الغلمان لاحضار العجين من بيوت أصحابه وإرجاعه لهم مخبوزا لما تفرضه طبيعة عملهم من غشيانهم البيوت والاختلاط بالنساء . وقد ذكر ابن الحاج أنه في حالة مخالفة القواعد التي ينبغي على الخبازين اتباعها في عمل الخبز ، فيجب أن يرد الى الفرن لانه لا يعطى الأجرة للصانع الا أن يحكم صنعته .

ومن الواضح أن الخبازين كانوا يقومون بخبز الدقيق لأصحابه في مقابل أجر معين لهم ، وكان على صاحب الخبز اذا وقع له في خبزه شيء من الضرر - وكان ذلك نادرا - أن يسامح الصانع أو الخباز في ذلك فلا يغرمه له ، الا اذا بلغ الخبز درجة من السوء بشكل يصعب تناوله ، فله اتساع في هذه الحالة في تغريمه أو تركه ان شاء .

وقد شاعت صناعة الكعك في العصر الفاطمي ، وكانت نوعا من الخبز الجاف ، يصنع من جريش الحنطة ، ويجفف وكان يسمى كعكا ، وكما يقول المقرئى : « وكان أكثر أكلهم على طوال العام من هذا الخبز » .

وكان يصنع من ذلك الكعك زاد رجال الاسطول ، كما كان هذا

النوع من الخبز شائع الاستعمال على موائد الفاطميين ، حيث يخبز منه فى الأفران التابعة للقصر ، ويخرج منه فى ليالى الوقود برسم الجوامع على شكل أسمطة من الكعك والخشكنانج (٦) والحلوى وما الى ذلك .

ومما لا شك فيه أن سخاء الفاطميين فى الأعياد والمواسم كان يفوق الوصف ، وأن ذلك كان يتطلب من الفرنين والخبازين وصناع الحلوى التابعين للقصور الفاطمية النشاط المستمر فى عملهم ، يصف لنا المقرئى كثرة ما كان يعمل فى القصور برسم الاحتفال بيوم فتح الخليج من أنواع الخبز وأصناف المأكولات والحلوى .

كما يصف تلك الظروف والأحوال السيئة وتعطل حركة الخبازين فى أوقات الشدة والمجاعات ، فضلا عن احتكارهم ونزائدهم فى الأسعار ، فقد ذكر النويزى أن رغيف الخبز بيع بأربعة عشر دينارا أو درهما وبيع أردب القمح بمائتى دينار أيام الشدة العظمى فى عهد الخليفة المستنصر ، وقال ابن الزيات أن ثمن الأردب بلغ احدى وسبعين دينارا .

ولا شك أن الأمور كانت لا تلبث أن تعود الى طبيعتها ، لاسيما بعد ارتفاع النيل وانحلال الأسعار ، حتى يستأنف أصحاب الأفران فى عمل الأخباز المطلوبة . كما كان الأهالى يعملون على ارسال الدقيق الى المخازن لعمل أصناف ما يرغبون فيه من أنواع الخبز ، وبطبيعة الحال كان يتعذر عليهم فعل ذلك فى أوقات الشدة ووقوع الغلاء .

أما الخبازون والفرانون فى أفران الجرايات من هؤلاء الفرنج الذين كانوا يعملون برسم القصور الفاطمية ، فانهم كانوا يستأنفون نشاطهم فى تجهيز أنواع الخبز وأصناف المأكولات والحلوى ، بعد انكشاف الغمة وزوال الشدة . وقد استمر الحال على ذلك حتى أواخر أيام الفاطميين ، وقد ذكر المقرئى ما كان يعمل يوم فتح الخليج ، فكان من بين ما أخرج فى عهد الأمر ووزيره المأمون سنة ٥١٨ هـ ، وما يخص فقط المبيت فى المقياس بجميع الشهود والمتصدرين من الخبز عشرة قناطير وعشرة خراف وعشر جامات حلوى وعشر شمعات .

وخلاصة القول أن الفرنين والخبازين وغيرهم من الدقائين أو الطحانين كانوا من أصحاب الحرف الهامة فى مصر والقاهرة والمدن المصرية

(٦) الخشكنانج : لفظ فارسى وهو يطلق على الحلوى التى تصنع من دقيق السميد الذى يعجن ويبسط ويضاف اليه السكر واللوز المقشر والكافور وقليل من ماء الورد .
الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٤١ حاشية .

الأخرى ، ولا غرو فقد كانت الحاجة ماسة الى اعمال أيديهم فى كل وقت
سواء فى طحن الحبوب والفلال أم فى عمل أصناف المأكولات من الخبز
والحلوى تلبية لاحتياجات سكان هذه المدن ، فضلا عن مطالب القصور
الطولونية والاختشيدية وسائر المناسبات والاحتفالات التى كانت تجرى فى
قصور الفاطميين وخارجها .

٣ - صناعة استخراج الزيوت

تشير المصادر الى أن استخراج الزيت في مصر منذ العصر البطلمي كان قاصرا على هؤلاء الملزمين الذين اشتروا من الحكومة حق الترخيص بمزاولة تلك الصناعة (١) . وكان على الحكومة في العصرين البطلمي والروماني أن توفر لهم من المواد الخام والأيدى العاملة ، كما فرضت أقصى العقوبات على كل من يحاول استخراج الزيت خفية بعيدا عن أنظارها والا قدم للمحاكمة . كما تشير الأدلة التاريخية الى أن صناعة الزيت لم تعد الحكومة تحتكرها احتكارا كاملا في العصر الروماني على نحو ما كانت تفعل في عصر البطالمة (٢) .

والواقع أن زراعة المحاصيل الزيتية في مصر مثل السمس والزيتون والكتان والقرطم ظلت كما هي منذ العصور القديمة وان طرأ عليها بعض

(١) نشر عالم البرديات بلى أوراق البردي اليونانية ، وأوضح أن الزيت كان هو الاختكار الوحيد لدى الحكومة وقد تضمنت أنه أوراق البردي معلومات واثية . الهلينيية في مصر ، ص ٧١ .

(٢) أمين الحولى وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية ، ج ٢ ، ص ١٥٩ ، ويذكر . أن الوثائق البردية التي نشرها جرنفل باسم « قوانين الدخل لبطليموس فيلادلفوس » قد اشملت على معلومات وفيرة عن هذا الاختكار . مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، ص ٦٦ نقله الى العربية د. عبد اللطيف أحمد على .

وكان الزيت يستخرج من مصانع خاضعة للرقابة الحكومية ، يعمل بها عمال لا يسمح لهم بمغادرة أماكن إقامتهم طوال موسم العمل برغم أنهم كانوا أحرار لا عبيد ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

التقدم فى العصرين الرومانى والبيزنطى (٣) ، الا أنها استمرت دون تغيير يذكر حتى القرن التاسع عشر .

كان المصريون يستخرجون زيت الزيتون من مناطق زراعته بنواحي الفيوم والاسكندرية قبل الفتح العربى ، ويذكر استرابو فى القرن الاول بعد الميلاد أن اقليم الفيوم (ارسينوى) كان هو الاقليم الوحيد المنزرع بأشجار الزيتون الكبيرة الكاملة النمو ، وأنه اذا ما جمع المحصول بعناية يمكن الحصول منه على كميات وافرة فى ذلك الوقت . وقد استمر استخراج زيت الزيتون من تلك الجهات فى العصر الاسلامى ، وقد رآه المقدسى فى نواحي الاسكندرية .

وكان الكتان من المحاصيل الزيتية أيضا (٤) ، فهو يغل من البذور من ثلاثة أرادب الى ستة أرادب ، ومن أشهر مراكز زراعته مصر الوسطى والفيوم ومناطق الدلتا . ويشير المقدسى الى المحلة الكبرى أنها كانت مركزا هاما لزراعة وعصر الزيت ، وبلغ من شهرتها أن شبهها بمدينة واسط ببلاد العراق .

كما كان السمسم من أهم المحاصيل التى تزرع فى مصر وينتج منها الزيت ، وكان القدان ينتج من أردب واحد الى ستة أرادب ، وأشارت اوراق البردى الى عصير السمسم واستخراج الزيت منه فى عصر الولاة ، كما ذكرت أسماء أصحاب معاصر للزيت ، منها عقد بيع معصرة زيت عشر عليه بجهة أدفو سنة ٢٢٨ هـ ، وكان اسم صاحبها يدعى النضر الزيات . كما ورد اسم اصطفن صاحب معصرة للزيت فى ذلك العصر أيضا . ومن شواهد القبور التى عثر عليها أمكن معرفة اسم يحيى بن يونس الزيات ، وقد ورد اسمه على شاهد وخام يحمل اسم ابنته عمره ويرجع تاريخ وفاتها الى سنة ١٨٧ هـ .

ومن الجدير بالذكر أنه فى أعقاب الفتح ، كما يذكر ابن عبد الحكم كان من أرزاق المسلمين على أهل الذمة من الحنطة والزيت مديان من حنطة

(٣) مما يدل على استخراج الزيت بشكل منظم فى ذلك العصر ما فرضته الحكومة الرومانية على تجار الزيت من ضرائب ، ففى ارسينوى احدى جهات الفيوم كان التجار يدفعون ثمانى درخمت شهرىا .

(٤) ترجع أقدم اشارة الى استخراج زيت بذر الكتان الى العصر البطلمى ، حيث استعمله المصريون فى طهو الطعام وكوقود لاضاءة المصابيح .
الفريد لوكاس : المواد والصناعات ، ص ٥٤٦ .

(١) كانت ادفو كورة قائمة بذاتها فى القرن الثالث الهجرى بالصعيد .

وثلاثة أقساط من الزيت (٥) ، تقدم لهم في كل شهر ، وليس لدينا من الأدلة ما يمكن التوفيق بين رواية كل من البلاذري ، وما ذكره ابن عبد الحكم فيما فرض من الجزية ونوعها ومقدارها على وجه التحديد ، فالبلاذري يوضح لنا أن المصريين صولحوا على أربعة دنانير بدلا من الحنطة والزيت والعسل النحل ، ويتفق قدامه بن جعفر مع ابن عبد الحكم في رأيه وخاصة فيما تقرر من أرزاق المسلمين أو الجند ، فهو يقول : وعلى أهل مصر أردب وشيء من العسل وضيافة المسلمين ثلاثة أيام ، ويستطرد بعد ذلك قائلا : « وانما كان ذلك في أول الأمر ثم رفع وأراه صارفي الخراج الواجب على من يجب عليه منهم » وعلى ذلك فانه يمكن القول بأن المقادير التي قررها الحكام العرب من الحنطة والزيت ، انما كانت من أقسام الخراج العينية ، وليست من أموال الجزية التي فرضت على أهل الذمة (٦) .

ومهما يكن فان ما قرره الولاة أو الحكام من مقادير الزيت كجزء من أموال الخراج تؤدي عينا ، انما يدل على انتشار زراعة النباتات الزيتية ، وانتشار معاصر استخراج الزيوت في جهات ونواحي مصرية عديدة ، وكان الصنّاع يستخرجون في العصر الاسلامي أنواعا عديدة من الزيت بعضها يستخدم في الطعام ، والبعض الآخر في الاضاءة (٧) ، فكانوا يستخرجون زيت المصابيح من بذور الفجل (٨) واللنت (٩) ويسمونه الزيت الحار .

(٥) المدي مكيال لأهل الشام يسع ١٥ مكوكا ، والمكوك قدره صاع ونصف والقسط نصف صاع .

(٦) يذكر قدامة في هذا الصدد نوع الجزية والخراج المفروض ويوضح ذلك قائلا : « والزم كل ذي أرض مع الدينارين ثلاثة أردب حنطة وقسطي زيت وقسطي عسل وقسطي خل رزقا للمسلمين ، يجمع في دار الرزق ويقسم بينهم » نفس المصدر ، ص ٣٣٧ .

(٧) أخذت الحاجة الى زيوت الاضاءة في المساجد والجامع تزداد في عصر الولاة وخاصة في عهد الخليفة المأمون حينما أصدر السجلات الى الولاة لحثهم على زيادة قناديل المساجد والجامع في سائر الامصار . قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٢٨ .

(٨) كان يزرع الفجل في جميع شهور السنة ، ويغل ما قيمته من أربعة دنانير الى ستة ويبلغ خراج الفدان منه دينارا واحدا . ولعل متز قد خلط بين الفجل والبنجر او اللنت لتشابههما في الشكل وذلك حينما ذكر انهم يستخرجون زيت المصابيح من بذور البنجر واللنت .

ابن ماتي : قوانين الدواوين ، ص ٢٦٩ ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٩) يزرع اللنت في شهور ابيب ومسرى وتوت وبابه من الشهور القبطية ، ويجمع بعد اربعين يوما من زراعته ، ويغل ما تتراوح قيمته من أربعة دنانير الى ست دنانير . ابن ماتي : قوانين الدواوين ، ص ٢٦٩ .

وكانت أهم معاصر الزيت في صندفا بكورة البهنسا بمنطقة الصعيد الوسطى (١٠) ، وفي الفيوم والقباطية .

وكان الصناع يستخرجون الزيت كذلك من الخس والقرطم والحنظل، حيث كان يزرع الخس في الوجه القبلي بصفة خاصة ، ويستخرج منه الزيت بعد عصره لاستخدامه في الطعام . أما القرطم فكان يستخرج منه زيت رقيق جيد ، إلا أن زراعته في مصر كانت قليلة نسبيا ، ولم يذكر شيئا عنه أو الحنظل ابن ممتي ، ويبدو أن انتاج الزيوت منهما كان قاصرا في استخدامه على النواحي الطبية بصفة خاصة ، وذلك على الرغم من أن بلييني يشير الى القرطم على أنه كان يستخدم بكثرة في أنواع الطعام في مصر البيزنطية .

كما أن المصادر لا تشير الى استخراج الزيوت من نبات الخروع في العصر الاسلامي (١٢) ، والتي لم تكن تقل صلاحية عن زيت الزيتون في استخدامه للاضاءة ، وكان أهم أنواع الزيوت ما اتخذ من الزيتون وكان ثمنه رخيصا ، لكن استخراج زيت السمسم في مصر كان يتم على نطاق أكبر من استخراج زيت الزيتون ، حيث أن زراعة السمسم كانت منتشرة في جميع أنحاء البلاد .

ومن الواضح أن معاصر الزيوت في مصر قد زادت من انتاجها في عهد الطولونيين والاختشيديين ، لاسيما بعد أن بذل ابن طولون اهتماما كبيرا بعمارة الأرض وزيادة المساحات المزروعة بالمحاصيل الزيتية وغيرها ، ولتلبية احتياجات الجيش الطولوني من مواد الطعام . ولا شك أن الزيت كان غذاء الطبقات الفقيرة من الفلاحين وأصحاب المعاش من الأجراء والمهنيين وغيرهم .

ويحتفظ المتحف الاسلامي بمجموعة شواهد قبور تحمل أسماء بعض أصحاب المعاصر التي ترجع الى ذلك العهد (١٢) ، كما أشارت أوراق

(١٠) صندفا : إحدى الجبلات التي تقع بمركز بني مزار محافظة المنيا .

(١١) يذكر هيردوت أن المصريين كانوا يبذرون الخروع على شاطئ النيل وسمات البحيرات ، وكان يحمل ثمارا كثيرة يستخرج منها الزيوت . وكانت بدمرد تروى ثم تهر أو تحمص ثم تغلى وذلك لاستخراج الزيت منها وكان لهذا الزيت رائحة حادة .

هيردوت يتحدث عن مصر ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ترجمة محمد صقر خفاجة ، لوكاس : المواد والصناعات ، ص ٥٤٥ .

(١٢) من بين الأسماء التي وردت اسم يحيى بن يونس الزياد وابنه هرون المتوفى سنة ٢١٢ هـ ، مما يفيد توارث هذه الحرفة عن الآباء .

Wiet : Stèles Funeraires, tome 4, p. 88., p. 175.

البردى الى بعض هؤلاء الزيياتين أو المعصراتين كما كان يطلق عليهم فى
العصور الوسطى . ويمدنا أبو صالح الأرمنى بمعلومات عن وجود معاصر
للزيت الحار فى بعض الأديرة المصرية فى ذلك الوقت مثل دير أسيوط ،
كذلك كان يوجد بدير طور سيناء عدة مطابخ وأفران ومعصرة زيتون ومعمل
للخمر من البلح والعنب .

أما عن كيفية استخراج الزيت من السمسم أو ما كان يسمى
بالشيرج ، فكان ينقل مسحوق السمسم بعد البذور ليوضع فى معاجن
خاصة على هيئة أحواض حرارتها مرتفعة بدرجة تساعد على تسهيل خروج
الزيت من هذا المسحوق ، وفى كل حوض يقف رجل عارى القدمين مهمته
استخراج الشيرج وذلك بالضغط عليه بأقدامه (١٣) ، والزيت الذى
كان ينزل من عجينة السمسم كان يعبا فى أوان مسامية فيرشح من مسامها
تاركا الشوائب العالقة به بداخل الأناء .

وكانت طريقة استخراج زيت بذر الكتان تتم على مرحلتين الأولى
يسحق بذر الكتان فيها ويحول الى عجينة بواسطة طاحونة حجرية تشبه
تلك التى تستخدم لعصر العنب ، وفى المرحلة الثانية كانت توضع هذه
العجينة داخل حصائر أو قفف وتوضع تحت معصرة كابسة (١٤) ، حتى
تتم عملية العصر ويسيل الزيت أو ينحدر الى أوان تكون معدة لهذا الغرض
من أسفل مكان العصر .

ويصف لنا الدمشقى الظروف التى يحفظ فيها الزيت الخام بعد
عصره واستخلاصه من مسحوق السمسم أو الكتان فيقول : انه متى كان
المكان دفئا ساخنا كانت الخوابى فيه مسخنة فيرق الزيت وينصقل
ويكتسب لمعانا وحسنا . وهذه صفات الزيت الجيد الصنع ، وينبغى على
الصناع أن يعملوا على وضع تلك الخوابى على أرضية محكمة التبايط
وحيطانه موزرة بالجبس والجير حتى اذا أهرق على الأرض من الزيت
شئ ، سهل عليهم جمعه ولا يتلف منه الا اليسير .

(١٣) كان يشترط على الرجال الذين يقومون بهذه المهمة أن يغسل الواحد منهم أرجله
ويحكها بالحكة قبل نزوله داخل المعجن ، وأن يكون ثيابه ضيقة الأكمام لاحتمال أن يهرق
فيقطر من عرقه شئ ، وأن يكون ملثما لاحتمال أن يتكلم فيبع من بساتنه شئ فى عجينة
الشيرج . ابن الأخوة : معالم القرية ، ص ٣٣٢ .

(١٤) كانت هذه المعصرة مكونة من ذراع خشبى ثقيل يكون من ألواح خشبية نوق
بعضها البعض ، وتقويها كتل خشبية أخرى لتزيد من ثقل الذراع وصلابته .

ومن أهم مراكز استخراج الزيت فى العصر الفاطمى المعصرة حيث كانت تضم معاصر كبيرة ، وذكر ابن حوقل أن سخا كان يستخرج بها زيت القجل ، ويذكر ابن بسام أنه كان يوجد بمدينة تنيس مائة معصرة أعداد رجالها مختلفة وأقلهم اثنان وأكثرهم عشرون . كما يذكر ابن دقماق من الجهات شبرا الخيمة بالقرب من القاهرة ، وكانت تضم معاصر للزيت النار والشيرج وغير ذلك . وقد اشتهرت منية الأمرا وهى منية الشيرج فى العصر الفاطمى ، وكان بها معاصر لاستخراج زيت السمسم ، كما كانت بلدة كبيرة بها من الأسواق والحمامات والبساتين . وكانت مدينة الفسطاط بها درب معروف بدرب المعاصر ، وقد عرف بذلك كما يقول ابن دقماق : « لأن به مقابلة الداخل فيه معصرة زيت لم يكن بمصر مثالا لجودة عمارتها وكثرة أعوادها وعدة أحجارها وسكن به أكبر أعيان المصريين » .

وقد امتازت الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى بكثرة الأعياد والمواسم وليالى الوقود وليلة الغطاس ، والسهر فى البيوت وفى خارجها الى ساعات متأخرة من الليل ، مما تطلب العمل على وفرة انتاج الزيت لخدمة فى الإنشاء . وذلك بالإضافة الى ما كانت تحتاج اليه القناديل التى كانت تكتل بها المساجد والجوامع فى الفسطاط والقاهرة وفى غيرها من المدن والقرى فى طول البلاد وعرضها . وكما يذكر ناصر خسرو فان لكل مسجد فى جميع المدن والقرى نفقات يقدمها وكيل السلطان من زيت السيرج والحصير ، وسجاجيد الصلاة ونحو ذلك ، وقد أحصى المقرئى عدد المساجد التى كانت بالفسطاط ، فبلغت ثمانمائة وثلاثين مسجدا ، وكانت تحتاج الى نفقات شهرية تقدر بنحو ٩٢٢٠ درهما .

ومما لا شك فيه أن سياسة الحاكم بأمر الله كان لها أثر ملموس فى زيادة الطلب على الزيوت الخاصة بالإنشاء ، ففي ذى الحجة من عام ٣٩٠ هـ أمر الناس بتعليق القناديل على سائر الحوانيت وأبواب الدور كلها ، وفى جميع المحال والسكك الشارعة وغير الشارعة ، وفى المحرم من سنة ٣٩١ هـ يذكر المقرئى أن الحاكم واصل الركوب فى الليل فى كل ليلة ، وكان يطوف بسائر أنحاء المدينة فلا يترك موضعا أو زقاقا بها ، وأمر الناس بالوقيد فتزايدوا فيه بالشوارع والأزقة ، وهكذا كانت سياسة الحاكم فى فترة من فترات حكمه أن يعمل أصحاب الحرف وغيرهم من أهل الأسواق فى الليل بدلا من النهار ، حيث بالغ الناس فى الوقود والزينة وأنفقوا الأموال الكثيرة فى المآكل والمشرب ، من خير الأدلة على زيادة الاستهلاك المحلى للزيوت وغيرها من المواد الغذائية .

وهكذا لم يقتصر استهلاك زيت المصابيح على متطلبات الدولة ونفقاتها ، بل كان المصريون يشترون من زيوت الاضاءة ما يكفى حاجاتهم فى الحوانيت والبيوت ، حيث كان يباع فى الأسواق من الشيرج والقطن برسم تعمير القناديل الشيء الكثير .

وكان ترتيب الفطرة فى القصر الفاطمى فى عيد شوال تشتمل على ثلاثين قنطارا من الزيت الطيب للوقود ، وقد بلغت فى عهد الأفضل بن بدر الجمالى جملة ما تحتاج اليه الفطرة من الأصناف مائتى قنطار من الشيرج (١٥) ، زهر بلا شك مقدار كبير اذا ما قورن بما كان عليه فى أوائل أيام الفاطميين .

وفى عهد الوزير المأمون بن فاتك البطائحي الذى تولى الوزارة فى ذى القعدة سنة ٥١٥ هـ ، يبدو ان انتاج معاصر الزيوت أصبح قاصرا على كفاية الاستهلاك المحلى . فقد ذكر المقرئى فى حوادث السنة التالية من حكمه أنه فيها غلا الزيت الطيب والشيرج ، فكتب المستخدمون فى الخزائن ومشارفة الجوامع بأن يكون المطلق برسم الوقود فى المشاهد عوضا عن الزيت الطيب الزيت الحار . فخرج الجواب كما يقول المقرئى : « بالتحذير من ذلك وبألا يطلق الا الزيت الطيب ، ولا يلتفت الى غلو السعر فى الخدم التى هى من حق الله تعالى فلا يجب الرخصة فيه ولا ينقص من المطلق شيء . » ولا شك أن فى حرص الفاطميين على اطلاق النفقات برسم الوقود وغيرها فى أغراض اضاءة الجوامع ، وفى حاجة ترتيب الفطرة وغيرها من المناسبات التى أحدثوها فى عهدهم ، ما يوضح لنا أن المعاصر المصرية كانت تنتج من الزيوت ما تكفى لحاجة الاستهلاك المحلى .

(١٥) كانت الفطرة قبل أن ينتقل الأفضل الى مصر تعمل بالايوان وتفرق منه ، وعندما تحول الى القسطنطينة نقل الدواوين من القصر اليها واستجد لها مكانا قبالة دار الممالك بديوان المكاتب والانشاء . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .

٤ - صناعة الصابون والطيب والعطور

أ - صناعة الصابون :

اعتمد الانسان على الدهون والعطور فى النظافة والتزين كوسيلة لجذب الأنظار منذ العصور القديمة ، ذلك أنه لم يكن اكتشاف الصابون قد عرف بعد حتى العصر البطلمى ، ففى عهد كليوباتره كانت الأجسام الجميلة تدهن بالدهون .

ويمكن القول بأن المصريين كانوا أسبق الأمم الى اكتشاف المواد التى يصنع منها الصابون (١) ، ولا غرابة فى ذلك فقد عرفوا منذ التاريخ القديم مسائل التبخير والتقطير والعقاقير وصباغة الملابس ، كما ذاع صيت مدرسة الاسكندرية القديمة وتفوق علمائها فى مجال الطب والكيمياء والهندسة والرياضيات وغيرها من العلوم التطبيقية .

ولا شك أن وفرة الأعشاب والنباتات الطبية ، والزيتون المستخرج من أشجار الزيتون بمنطقتى الفيوم والاسكندرية كانت من العوامل المشجعة على انتاج الصابون فى مصر قبل الاسلام .

ويجب أن نقدر أهمية صناعة الصابون على ضوء الأهمية التى كانت للحمامات فى الحياة الاجتماعية ، ولا ريب أن عدد الحمامات التى بلغ عددها

(١) كان اكتشاف الصابون وليد الصدفة وحدها ، فربما حدث مرة أن دهن شخص جسده بالدهون جيداً ، ولكنه قام بذر الرماد على جسده فى ساعة من ساعات الندم ، ثم ذمب ليبرد جسده بالماء ، وكم كانت دهشة الماضرين عندما راوه بذلك جسده ليزيل الرماد والدهن ، فاذا برغوى الصابون تظهر على جسده ، وعندما نزل الى النيل ليستحم خرج من الماء كأنظف رجل عرف حتى ذلك التاريخ وهكذا تصور هولاء عالم الكيمياء هذه الصدفة وحدها التى كانت السبيل الى اكتشاف مادة الصابون .

نفس المرجع السابق والصفحة .

نحو أربعة آلاف حمام بمدينة الاسكندرية وحدها . كما ذكر ابن عبد الحكم حين اتمام الفتح العربى للمدينة ، يدلنا على مدى حاجة أهالى الاسكندرية وتلك المقادير الهائلة من مواد النظافة والصابون (٢) .

ويمدنا ابن عبد الحكم وابن دقماق وغيرهما بأسماء الحمامات التى أنشأها العرب بالفسطاط بعد أن تم تخطيطها وأخذت تنمو وتتوسع فى العمران . يذكر ابن عبد الحكم منها حمام بسر التى كانت تقع مما يلي أصحاب الزيت (٣) .

وكما ذاع صيت الحمام الذى كان يعرف بحمام أبى مره وقد بنى فى عهد الوالى عبد العزيز بن مروان ، وحمام السوق الكبير وهى من خطة خولان وتم تشييده فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وحمام بن نصر السراج وغيرها من الحمامات .

وقد صنع العرب الصابون بمزج الصودا مع شحم الأغنام أو الزيت ، وأنشأوا صناعة من أفخر الصناعات فى بغداد ، وقدر لها أن تنتشر بسرعة فى كل من مصر وسوريا وبلاد المغرب والأندلس .

ومن الملاحظ أن المصريين لم يكتفوا بصناعة الصابون من زيت الزيتون ، بل كان الصناع يعملون الصابون أيضا من زيت الفجل والسنلجم ، وهكذا يمكن القول بأن مراكز صناعة الزيوت فى مصر فى عصر الولاة التى أشرنا إليها من قبل ، كانت أيضا من المراكز الهامة لصناعة الصابون (٤) .

وهناك إشارة واضحة الى بيع الصابون لسائر أفراد الشعب المصرى، وردت فى احدى أوراق البردى ، وقد تضمنت حساب خاص لأحد الأشخاص ويكشف عن شراء صابون بنصف درهم .

(٢) يصف ابن دقماق حمامات الروم بأنها كانت واسعة مكونة من ثلاث طبقات يدخل من الأولى الى الثانية ثم الى الثالثة .

الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٠٥ .

(٣) كان أول حمام بنى بالفسطاط هو الحمام الذى أقامه عمرو بن العاص فى أعقاب الفتح العربى بحمام القار . ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٠٥ .

(٤) من بين المراكز الهامة لاستخراج الزيوت التى وردت فى المصادر وسبقت الإشارة إليها . جهة الاسكندرية وقنيس والمحلة الكبرى ، وسخا وادفو وغيرها .

وقد أوضح التيفاشى أن زيت الزيتون كان يعمل منه الصابون . أزهار الأفكار . ص ١٧٧ .

وليس بين أيدينا من الأدلة ما يكشف لنا عن حجم الاحتياجات التي كان يستهلكها أهالي القسطنطينية أو غيرها من المدن المصرية في ذلك العصر ، وذلك بالمقارنة لما أوضحه الخطيب البغدادي ، فقد ذكر أن أهالي بغداد كانوا يحتاجون الى مليون ونصف مليون رطل من الصابون ليلة عيد الفطر ، لأن الفرد الواحد يحتاج في تلك الليلة - في رأيه - الى رطل واحد من الصابون .

ومهما يكن من أمر فإن تقدير ذلك بالنسبة لأهالي القسطنطينية لابد أن ينظر اليه في ضوء انتشار صناعة الصابون ووفرة الانتاج منه ، وما كانت تستلزمه الأعداد الكبيرة من الحمامات المنتشرة في الاسكندرية وفي العاصمة القسطنطينية وغيرهما من المدن المصرية آنذاك .

كان الصابون يصنع بهيئة قطع جامدة ، وتستعمل النورة أحيانا في تحضيره ، ويصف لنا الهمشقي طريقة صنعه وتخزينه فيقول : « كان يخزن على هيئة زيوت مجمدة بعد طبخه وتصفيته ، فإن كان جيدا انتقلت خزنه واحرازه ، وإن كان في أوعية كسر أو شق وحول الى وعاء صحيح ، ثم يتخير له من المخازن ما كان باردا هوائيا فيودع فيه » .

وكان من أنواع الصابون الرطب الأحمر والأصفر والأخضر وبه شبهت الصابونية التي كانت من أنواع الحلوى .

وليس هناك شك في تقدم صناعة الصابون في عهد الطولونيين والافشسيديين ، ويستدل على ذلك من تلك الاحتياجات المتزايدة لتفي بالحمامات التي أنشأها الطولونيين في القطن ، ومتطلبات الحياة الاجتماعية المترفة التي عاشها أبو الجيش خمارويه ورجال حاشيته ، فضلا عن كفاية حاجة الشعب المصري من انتاج الصابون .

وقد هذا مؤسس الدولة الافشسيدية حذو ابن طولون ، وكان له عدد كبير من المماليك والغلمان والأتباع ، كما كان قصر الافشسيد غنيا بالجوارى .

وفي عهده نسمع عن شيخ يعرف بمسعود الصابوني (٥) ، لعله كان أحد شيوخ طائفة الصابونية أو صانعي الصابون في ذلك الوقت ، ومن

(٥) ذكر المقرئى أنه شكاً يوماً الى محمد بن طفح الافشسيد أثناء تنزهه فى به نائه

ويبدو أن الأمير لم تعجبه مزيقته فى عرض شكواه فأمر بضربه بالسيال . الحطاط ،

ج ٢ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

المعروف أن أبناء الطائفة أو الحرفة كانوا يتوارثون عن آبائهم حرفتهم في العصور الوسطى (٦) .

أما في العصر الفاطمي فقد ازدهرت صناعة الصابون ، كما ازدهرت سائر الصناعات الأخرى ، وقد أشار ابن سعيد إلى مطابخ السكر والصابون التي كانت موجودة بالفسطاط كما خصها بالذكر دون المطابخ والمسابك الأخرى كمسابك الزجاج ومسابك الفولاذ والنحاس ، والتي أشار إليها ابن دقماق حين نقل عنه ، وكانت مطابخ الصابون بالفسطاط تعتمد على ما يرد إليها من زيت الزيتون من منطقة الفيوم .

وأشار ابن دقماق إلى قيسارية الصبانة التي كانت موجودة بالفسطاط، وكانت تضم العديد من الحوانيت لبيع الصابون في ذلك العصر .

كما تجدر الإشارة هنا إلى قيام الفاطميين بإنشاء العديد من الحمامات التي كانت من مستلزمات الحياة الاجتماعية في ذلك العصر ، وقد وصفها عبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر بعد الفاطميين بقليل فقال : « أنها كانت متقنة الوضع يسع الحوض الواحد ما بين راويتين أو أكثر ، وفي داخل الحمام مقاصير بأبواب ، وفي المسلح أيضا مناصير لأرباب التخصيص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا شك أن ما تطلبت تلك الحمامات من أنواع الصابون والطيب كان يقتضى وفرة في الانتاج وزيادة في الطلب على الصابون .

وقد ظلت الاسكندرية إحدى المراكز الهامة لصناعة الصابون في العصر الفاطمي نظرا لاستمرار زراعة أشجار الزيتون في نواحيها الغربية . وقد أشار ابن جبير إلى موضع الصبانة وقال انه نزل بعد بلوغه الاسكندرية بفندق الصفار على مقربة من الصبانة ، ولا شك أن هذا الموضع كما هو واضح من اسمه كان يضم مطابخ الصابون بالاسكندرية خلال العصر الفاطمي .

ومما يدل على انتشار صناعة الصابون ورواج بيعه في ذلك العصر ، ما يشير إليه المقرئى ، ففي عهد الحاكم بأمر الله كان من بين المكوس التي أمر بالغائها سنة ٤٠٤ هـ مكس دار الصابون ، وقد بلغت ستة عشر ألف دينار . كما شجع على وفرة انتاجه وجودته توفر أصحاب الصنعة من الصناع الفنيين

(٦) ولعل جزيرة الصابونى التي كانت من بين تلك الجزر الواقعة في النيل أمام

ساحل مصر قد أطلق اسمها كذلك على أحد هؤلاء أصحاب المطابخ للصابون بالفسطاط . وقد ذكر المقرئى أن هذه الجزيرة أوقفها نجم الدين أيوب وقطعة من بركة الجيش ، وجعل نصف إيرادها للشيخ الصابونى وأولاده . الخطط ، ج ١ ، ص ٦٢٣ .

أو الكيميائيين المصريين (٧) ، الذين توفرت لهم معرفة خصائص المواد والتي يمكن بموجبها اتحاد البوتاسيوم - بالمعنى الحديث - الموجود في رماد الحشيب مع الدهون والزيوت ، التي توفرت في معظم أنحاء البلاد في العصر الفاطمي .

وهكذا يمكن القول بأن صناعة الصابون كانت ملازمة لصناعة استخراج الزيوت كما هو الحال في وقتنا الحاضر . وكما هي العادة في توارث الحرف والصناعات في تلك العصور ، فإن الصناع المصريين قد لعبوا دورا هاما في انتاج ما يكفي حاجة البلاد من تلك المادة ، ولم نسمع عن مصر الاسلامية أنها كانت تستورد من الشرق أو الغرب الصابون بأنواعه المختلفة حتى سقوط الدولة الفاطمية .

ب - صناعة الطيب والعطور »

نبغ المصريون منذ العصور المبكرة في صناعة أنواع من الدهون والعطور ، وقد احتفظت الاسكندرية منذ القرن الرابع الميلادي بشهرة واسعة في صناعة الأدوية والعطور . وأظهر الصناع المصريون تفوقهم في تعبئة وتسويق هذه السلع حيث ارتفعت أسعارها ، وجنى الاسكندرانيون منها الأرباح الوفيرة . وتشير المصادر الى أن الأدوية والعطور المصرية كانت تصدر الى بلاد الدنيا في العصر البيزنطي (٨) .

وقد شجع على ذلك نمو بعض النباتات الطبية والزهور العطرية في أنحاء متفرقة من البلاد ، فكانت تنمو شجرة البلاتوس في جهات عديدة من الوجه القبلي وفي الواحات الخارجة وفي الدلتا المصرية قبل الفتح الاسلامي . وكان يستخرج من ثمار هذه الشجرة زيت الاهليلج (٩) الذي شاع ذكره

(٧) أشار ابن النديم الى كثرة الكذب المؤلفة في صنعة الكيخياء ، وأنها أكثر وأعظم من أن تحصى ، مما يدل على اشتغال كثير من أصحاب الصنعة في مجالات مختلفة لصناعة الزجاج وسبك النقود وصناعة الصابون طالما توفر مثل هؤلاء العلماء الذين كانوا يجمعون بين العلم والعمل في تلك العصور . ابن النديم : الفهرست : ص ٥٢١ .

(٨) وقد ورد في إحدى أوراق البردي ذكر مائة واثنين وتسعين نوعا من النباتات والأعشاب ، ومن المواد الخام الأخرى الحيوانية والمعدنية التي أمكن استخدامها في صناعة الدهن والعطور .

(٩) ثمرة الاهليلج زيتونية أي مؤلفة من شحم ونواة ، وقد أدخله العرب في أدويتهم المسجلة ووصل الى أوروبا عن طريق عدن والاسكندرية .

في المصادر العربية . وكان من أفضل الأصناف في صناعة العطور
المتأثرة (١٠) .

وتكشف لنا أوراق البردي في عصر الولاة عن زراعة الياسمين الأبيض
المعروف ، وإن كان يصنع منه في مدينة دمياط زيت الياسمين وهو نوع من
الروائح العطرية الذي كانت النساء تستعمله وتفضلنه على غيره من العطور
كما تكشف إحدى أوراق البردي عن أعداد الروائح العطرية من زيت الورد
بالفيوم ، فقد تضمنت القائمة التي وردت بها ذكر قارورة ماء ورد جيد وزوج
طومار وزيت الماء المعدى والشيرج الطرى ، وكلها مواد تشير إلى شهرة
الفيوم في ذلك العصر الإسلامي المبكر وأعداد الصناعات بها لأنواع مختلفة
من الدهون والعطور .

وقد أفاض السيوطي في ذكر الرياحين والأزهار التي كانت تنمو في
سائر البلاد ، وما ورد فيها من الفوائد والأحاديث على لسان العرب ، وذكر
منها أنواع الورد الأحمر والأبيض والأصفر ، وما كان بثغر الاسكندرية من
نوع الورد الأصفر . ونقل عن ابن وحشية عالم النبات أن البنفسج نوعان
جبلي وبستاني ، والجبلي رقيق الورق أزرق اللون والبستاني عريض الورق
حائل اللون ، وهو على لون الشمع ولا يوجد إلا بمصر .

وهكذا كان توفر أنواع البنفسج والورد والنيلوفر المنثور وأزهار
البرتقال والمسك والزهور من أهم العوامل التي شجعت على انتشار هذه
الصناعة انتشاراً واسعاً في مصر ، كما انتشرت في بيئة شيراز من فارس .
وبلغ من انتشارها أن فرضت الحكومة عليها الضرائب ، خاصة بالأمكن
التي كان يصنع فيها ماء الورد .

وقد تقدمت صناعة الأدوية والعطور في عصر الطولونيين والاختشيديين،
وتطلب أعداد هذه الروائح العطرية أدوات أشبه بما تستعمل في الكيمياء ،
وتشير أوراق البردي العربية إلى ازدهار هذه الصناعة ، يتضح ذلك مما تضمنه
أحد الخطابات المرسلة إلى أحد تجار العطور وفيه طلب قائمة بأنواع من
العقاقير والعطور (١١) .

(١٠) ويذكر بليبي أن زيت البلاطوس أو الأهليلج كان أحد المكونات الهامة
لصناعات الدهان المقدس في العصر الروماني والبيزنطي .
لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٤٤ .

(١١) لم يكشف الخطاب أو الطراز عن اسم المكان الذي كشف فيه ، ومن المرجح
أن يكون من البهنسا أو الأشمونين بالصعيد الأوسط ، جروهمان : أوراق البردي العربية ،
ج ٥ ، ص ٧٣ .

كما أفاضت المصادر التاريخية في وصف البستان الذي أنشاه أبو الجيش خمارويه ، وما جلب له من الأشجار المثمرة ، وما زرع من أنواع الرياحين والورود والأزهار ولا شك أن الصناع كانوا يستغلون هذه الرياحين والنباتات في استخلاص وتقطير العطور منها .

وحين تولى محمد بن طنج الاخشيد حكم البلاد في سنة ٢٢٥ هـ أقام بستانه المعروف بالمختار بجزيرة الروضة وكان لا يقل روعة عن بستان خمارويه ، ثم أنشأ شمال القسطنطينية بستانا آخر عرف بعد ذلك باسم البستان الكافوري ، وقد ضم أنواع الأشجار والرياحين والزهور . وليس هناك شك في أن هذه البساتين لم تكن من أجل الزينة أو التنزه فقط ، بل كانت من المصادر الرئيسية في الحصول على أنواع الورود والنيلوفر والزعفران وغيرها لانتاج الروائح العطرية .

وتشير المصادر التاريخية الى تقدم صناعة العطور في عصر الاخشيديين ، وشيوع استعمالها خاصة لدى الأعيان ووجوه القوم ، روى ابن زولاق أن الحسين بن أبي زرعة قاضي مصر كان يبالغ في التطيب ، ويذكر أن طنج والد الاخشيد كان له في دمشق قبة مشبكة يتطيب فيها فاذا تطيب لم يخف على أكثر أهل دمشق بخوره . وكان الاخشيد يحب العنبر ويجمع منه مقادير كبيرة ، وقد قيل أن ما خلفه من العنبر حين وفاته بلغ ثمانمائة رطل غير أصناف الدهون والروائح العطرية الأخرى . وكان طبيبه الخاص أبو الفرج البالسي من علماء النبات ، متميزا في صناعة الأدوية المفردة وأفعالها وفي تركيب الأعشاب العطرية الأخرى .

وفي العصر الفاطمي راجت صناعة العطور في مصر ، كما راجت في غيرها من البلدان الإسلامية لاقبال المسلمين على استخدام العطور بأنواعها المختلفة في حياتهم الخاصة وفي تجهيز الموتى .

وقد عمل الفاطميون على إنشاء حمله من المناظر التي كان من أهمها منظرة الجامع الأزهر واللؤلؤة على الخليج والسكره والمقس والروضة واليهودج (١٢) وكانت جميعها في ضواحي القاهرة ، كما أقاموا قصرا

(١٢) أقام الخلفاء الفاطميون كثيرا من البساتين ذات الأشجار المثمرة والنباتات العطرية وأقيم داخل كل بستان مكان مرتفع للاستراحة سمي « المنظرة » وكان الخليفة يركب اليه للتنزه والرياضة .

ومن أشهر المناظر هذه كانت منظرة السكره وتقع في بر الخليج الغربي ، وكان يتوجه اليها الخليفة يوم الاحتفال بفتح الخليج ولها بستان عظيم بناها العزيز بالله ، وكانت السكره من جنات الدنيا الوارفة .

المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٨٣ ، ص ٢٥٩ .

أحاطوه بحديقة من الورد بالقرب من قليوب ، ولا تزال هذه الجهة مشهورة بزراعة الورد البلدى الذى يستعمل فى التقطير (١٣) ومما لا شك فيه أن هذه المناظر كانت خير مصدر للنباتات العطرية ، حيث كانت حافلة بزراعة الرياحين والزهور وأنواع الورد التى يمكن صناعة العطور منها .

ومن أنواع الأشجار والنباتات العطرية التى تم غرسها فى العصر الفاطمى كانت أشجار الاهليلج ، ويذكر المقرئى أنه كان يزرع بعض هذه الأشجار فى منطقة عرفت بصحراء الاهليلج الهندى فعرفت بذلك ، وكما أشرنا من قبل عن ثمار هذه الشجرة حيث كان زيتها من أفضل المواد العطرية .

أما الدهون المستخرجة من شجر البلسان التى انفردت بها مصر دون سائر البقاع ، فقد كانت موضع تقدير واعجاب الخلفاء فى العصور الإسلامية ، وقد زعم ناصر خسرو أن الفاطميين كانوا هم أول من استحدث غرسها فى مصر بحديقة عين شمس بالقرب من القاهرة . وتشير المصادر التاريخية الى شهرة مصر بزراعة البلسان ، واستخراج الدهون وتراكيب الماجين والأدوية منذ العصر البيزنطى وفى فجر الاسلام (١٤) .

وقد تحدث عن البلسان ووجوده فى مصر قبل مجيء الفاطميين كل من الجاحظ وابن الكندى وغيرهما من أمثال الاصطخرى الذى قال عنه : « وحوالى القسطنطينية يزرع ينبت مثل القضببان يسمى البلسان ، يتخذ منه دهن البلسان ، لا يعرف بمكان فى الدلتا الا هناك » .

ويصف لنا الرحالة عبد اللطيف البغدادى طريقة استخراج دهن البلسان (١٥) ، فكان اذا شرخ شجره يسيل منه هذا الدهن ، فيجمع فى قناني زجاج ولا يزال كذلك حتى ينتهى جناه وينقطع لثاه ، وكلما كثر الندى فى الجو كان لثاه أكثر وأغزر . وكان يرفع مقدار الدهن الخالص منه

(١٣) ذكر المقرئى قصر الورد بالمقانية وقال عنه : كان من أيام منتزهات الخلفاء يرم قصر الورد بناحية المقانية . وكان من أحسن المنتزهات المصرية وكان به عدة دوريات يزرع فيها الورد . المخطوط ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

(١٤) يصف الجاحظ أنه كان يشرط فى أيام الربيع شجر البلسان ، فيخرج منه الدهن فيؤخذ منه وهو مفقود فى الأرض كلها ما خلا مصر . التبصر بالتجارة ، ص ٣٢ ، كما يذكر ابن الكندى من فضائل مصر وخيراتها زيت القبل ودهن البلسان والأفيون فضائل مصر ، ص ٦٩ .

(١٥) ذكر البغدادى أن تعداد ما أخرج منه فى سنة ٥٩٦ هـ وكانت عام جدى نيف وعشرون رطلا ، الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة فى أرض مصر ، ص ٢٢ ، نشر ، سلامة موسى .

بعد ترويجه الى خزانة القصر الفاطمي . وكانت الحكومة الفاطمية تحتكر انتاجه لندوته حيث كان يتخذ منه بعض الادوية لعلاج بعض الامراض وفي تركيب بعض الدهون الخاصة ، وظل الامر كذلك أيام الأيوبيين ، كما هذا سلاطين المماليك حذوهم من بعدهم (١٦) .

ومما يدل على اهتمام الفاطميين باقتناء الطيب والعطور على اختلاف أنواعها ، ما أوضحه المقرئى عند حديثه عن خزائن الطيب والطرائف التي كانت من جملة الخزائن الفاطمية الشهيرة في أيامهم ، فقد ذكر أن السيدة رشيدة ابنة المعز لدين الله خلفت عند وفاتها سنة ٤٤٢ هـ من بين ما خلفته مائة قطرميز كافورا .

وقد بذل أمير الجيوش بدر الجمالي في عهد الخليفة المستنصر الكثير من الاموال لانشاء الحديقة التي عرفت باسم حديقة الجيوشية نسبة اليه ، وعمل على احاطتها بسور يشبه سور القاهرة ، وقد بلغ انتاج وبيع الزهور والفواكه من هذه الحديقة ما يقدر سنويا بثلاثين ألف دينار وهكذا استمر الحكام الفاطميون من الخلفاء والوزراء يغرسون الحدائق والبساتين ، ويطعمون بها المناظر حتى أواخر عهدهم ، ويعملون على توفير النباتات وسائر الرياحين وأنواع الياسمين والزعفران فضلا عما كان ينمو في سائر أنحاء البلاد . مما أدى الى تقدم وازدهار صناعة العطور في مصر على مر العصور .

ولم يقتصر الأمر على النباتات العطرية التي عمل الفاطميون على غرسها في المناظر العديدة والبساتين التي أقاموها في نواحي القاهرة والفسطاط وجزيرة الروضة وبالقرب من قلوب وغيرها من الضواحي ، بل كانت هناك أنواع مختلفة من هذه النباتات ترد الى مصر من جزر الهند الشرقية وبلاد الملايو ، فهناك العود وخير أنواعه ما جاء من بلاد الهند . أما المسك فأعظم مواطنه بلاد التبت وهو يفوق غيره من المسوك جودة وثمنا . وقد اشتملت ثروة الوزير المأمون البطائحي على مائدة من العمود القماري ، كما وجد هذا النوع في خزائن القصر عند نهبه أيام الشدة العظمى .

كما عمل المصريون على استيراد الكافور ، وهو صمغ شجرة خشبية أبيض يميل الى السواد ، ويعطينا الدمشقي وصفا دقيقا للجيد منه فيقول : « وأجوده ما حلا ذوقه وخف وعذب ريحه ، فلم تظهر فيه نقطيه ، وكان يوضع في اناء زجاج أو صيني داخله أملس » . ويخلط معه الشمشم .

(١٦) ذكر السيوطي أن البلسان كان يزرع بمصر في عصره ودهنه يستعمل أكثر في

الملاج . حسن المعاصرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

Wiet : Les Mosques du Caire, tome, I, p. 96.

ويغطي بأوراق قصدير ويحكم سده ، ويوقى من الحر ووهج النار ومباشرة
الأجسام الحارة .

ويذكر المقرئى أنه أخرج من خزائن الطيب فى سنوات الشدة العظمى
من تماثيل العنبر اثنان وعشرون ألف قطعة ، أقل تماثيل منها وزنه اثنا
عشر مئاة ، ومن جملة ما نهب من تلك الخزائن أيضا من تماثيل الخليفة
ما لا يوجد نظيره ، منها ثمانمائة بطيخة كافور (١٧) .

ولا شك أن روح الترف فى العصر الفاطمى وانتشار الثراء بين الناس
فضلا عن هؤلاء الحكام الفاطميين ووزرائهم ، قد شجع على اقتناء المقادير
الكبيرة من العطور ، فقد وجد فى خزائن الوزير الأفضل خزانة للطيب مملوءة
بأسفاط العود وغيره أما أواني المسك والعنبر فكانت من الكثرة بحيث يصعب
عدّها . كما ذكر ابن اياس أن الوزير المأمون البطائحي خلف مائة جرة مملوءة
من الكافور القنصورى النادر الوجود .

(١٧) من الطريف ما ذكره ابن ميسر عن دار الوزير الأفضل ، فقد أوضح أنه كان
بها تماثيل من العنبر بنحجه الطيبي لتقاس عليه ثيابه عند عملها ، وكذلك كان يدخل
مجلسه تماثيل لجوار مقابلات منهن أربع بيض مصنوعة من الكافور ، وأربع سود مصنوعة
من العنبر كلهن مرتديات أفخر الثياب . أخبار مصر ، ص ٥٨ .

٥ - صناعة واستخدام الشمع

ارتبطت صناعة الشمع بتربية النحل في مصر منذ قرون طويلة قبل الفتح العربى (١) ، فالشمع هو جدران بيوت النحل التى يبيض فيه وتفرخ فيها ويكون خزانة للعسل ، ومما يدل على كثرة استخدام المصريين للشمع ما نردد على لسان العرب عند فتحهم للبلاد من ذكرهم للمكان الشهير بقصر الشمع (٢) ، فقد ذكر المؤرخون أنه يوقد عليه الشمع فى رأس كل شهر عملاً باتباع نظام الفلك الذى كان سائداً فى العصر الرومانى والبيزنطى . وهكذا فلا غرو ان اشتهرت مصر ابان الفتح العربى وفى عصر الولاة بانتاج الشمع الوفير من خلايا النحل ، وفضله العرب على غيره من الشمع . وكان صالح بن على والى مصر فى سنة ١٢٣ هـ أول من اتخذ الشموع

(١) تشير أوراق البردى اليونانية الى أن عملية تربية النحل قد نظمت تنظيمًا جديدًا فى فيلادلفيا Philadelphia بنواحى القيوم خلال العصر البطلمى .

محمد عواد حسين : نصوص مختارة من مصر فى العصر البطلمى ، ص ٢٢ مترجمة .
(٢) أطلق على قصر الشمع الذى بناه الفرس اثناء احتلالهم للبلاد الحصن أيضا ويقال له بابلون ، وهو الحصن الذى بالقسطنطينية ، فلمسا انهزم الفرس أمام الرومان بقيادة مرقل سنة ٦٢٩م ، عمل البيزنطيون على اتمام بناء ذلك الحصن . وقد أشار ياقوت الى ذلك المكان عند ذكره قبة الدخان ، ولعل منشأ ذلك أن الصروح العالية كانت تتخذ فى وقت الحروب مراقب . تبعت منها الاشارات ، فتشبيهاً من ذلك اسم قصر الشمع . ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٩٠-٩١ ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٥١ ، بنار : فتح العرب لمصر ، ص ٢١٦ ترجمة فريد أبو عديت .

الكثيرة الطول ، شأن الخلفاء الأمويين في صندر الاسلام حيث كانوا يستصبحون بالزيت في القناديل ويمشي بين أيديهم بالشمع الطوال (٣) .

وكان للمصريين مهارة كبيرة في عمل الشمع (٤) ، فهم يصنعون منه أنواعا مختلفة . وقد شاع استخدامه في ذلك العصر ، وكثر الحديث عنه في مجالس الخلفاء الأمويين والعباسيين ، حتى قيل ان بوران بنت سهل لما زفت على الخليفة المأمون أوقد على المأمون في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون منا ، وبلغ ثمن الشمع المستخدم في أيام الخليفة العباسي المتوكل في كل سنة . ألف ومائتي ألف درهم .

وفي عهد الطولونيين ، لما زفت قطر الندى بنت الأمير أبي الجيش خمارويه على الخليفة المعتضد بالله ، قال المعتضد أكرموها بشمع العنبر ، ومما يدل على كثرة انتاج الشمع في مصر في ذلك العهد أن المصريين كانوا يستهلكون منه كميات كبيرة ، كما كان من التقاليد وقتئذ أنه اذا ركب صاحب شرطة القسطنطين أن توقد بين يديه الشموع والمشاعل فيطوف الشوارع وينادي في الناس ألا يختلط المسلمون بالنصارى أثناء الاحتفال بليلة الغطاس ، وألا يكذبوا عليهم عيدهم .

ويذكر ابن زولاق أن الأمير محمد بن طغج الاخشيدي كان أول من اتخذ المواكب بالليل ، حيث كان يركب الى الجامع العتيق فيحضر الحتم والدعاء وتحمل في موكبه الشموع على البغال . ويصف لنا المسعودي ليلة الغطاس واحتفال المصريين بها فيقول : « ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طغج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يظيف بها . وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب القسطنطين ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشموع » .

وقد كثرت صناعة الشمع واستخداماته في العصر الفاطمي وكانت من أهم مراكز صناعته الاسكندرية ودمياط وتونس فضلا عن القسطنطين (٥) .

(٣) ذكر المقرئ أن أول من اتخذ الشمع القلاط التي فيها الأماناء (جمع من وقوده حوالى رطلين) الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك . وكان طول الواحد من الشمع ثلاثة أشبار . نفس المصدر ، ص ٧٨ .

(٤) كان المصريون يستخلصون الشمع من خلايا النحل ، فالحمل تعمل الشمع أولا ثم تلقى فيه البز ، فالشمع لها بمثابة العش للطير .

(٥) كان الشمع من السلع التي اشتهرت بها مصر ، ومنها يحمل الى سائر الدنيا وذكره ابن الكندي من الأشياء التي كانت من فضائل مصر في القرن الرابع الهجري فضائل مصر ، ص ٦٩ .

وكانوا يصنعون الشموع على اختلاف أحجامها ما بين صغير يحمله الطفل، وكبير تزن الواحدة بضعة أرطال . وكان صناع الشمع في أحيان كثيرة يلجأون الى غشه بالزيت الغليظ أو خلطه وقت سبكه بدقيق الباقلاء والحمص المسلوق ونحو ذلك .

وكان على عرفاء الأسواق أن يطوفوا بالحيوانات التي تصنع الشموع ومراقبة هؤلاء الصناع ومنعهم من أساليب الغش ، التي يمكن معرفتها اذا وضع الشمع في الماء ، فان طفا فهو خالص من الغش بالمواد الأخرى ، وان رسب فهو مغشوش .

وقد خصص الفاطميون للشمع وصناعة الشموع خزائن عرفت بخزائن دار أفتكين (٦) وكانت تحتوى على أصناف عديدة من الشمع المحمول من الاسكندرية وغيرها ، مما يدل على أن الاسكندرية كانت من أهم مراكز عمل الشمع في العصر الفاطمي ، حيث كان لرطوبة الجو أثر كبير في تماسك المواد المصنوع منها الشمع ، كما هو الحال في دمياط وتنيس وغيرها من المدن الساحلية التي كانت قائمة بهذه الصناعة من قبل .

وقد نقل المقرئى عن ابن الطوير أنه كان اذا مضى النصف من شهر جمادى الآخرة فان الأوامر تصدر بأن يسبك في خزائن دار أفتكين هذه ستون شمعة وزن كل شمعة منها سدس قنطار بالمصرى وذلك استعدادا للاحتفال بإيالى الوقود ، وكانت من أبهج الليالى وأحسنها يحشر الناس لمشاهدتها من كل صوب وتصل الى الناس فيها أنواع من البر وتعظم فيها ميزة أهل الجوامع والمشاهد .

وذكر المسبحى في حوادث سنة ٣٨٠ هـ أن الناس خرجوا الى جامع القاهرة وزيد في الوقيد على حافات الجوامع ، وحول صحنه التنائير والقناديل والشمع ، وأطلقت الهدايا من الأطعمة والحلوى والبخور في مجامر الذهب والفضة وطيف بها ، وخضر القاضي محمد بن النعمان في ليلة النصف بالمقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد وجلس بين يديه القراء والمنشدون والعامّة وأقام الى نصف الليل ثم انصرف الى داره . وهكذا كان الاحتفال بليلة من ليالى الوقود الأربع التي استحدثها الفاطميون ، وكان ينفق فيها من مقادير الشمع الشئ الكثير .

(٦) وهو الأمير نصر الدين أفتكين ، أحد ممالك أمير الجيوش بدر الجمالى ، الذى رافق نزار بن المستنصر بإسكندرية . قال ابن الطوير : وكانت لهم دار كبرى يسكنها نصر الدولة أفتكين ، فعرفت باسمه فى أواخر أيام الفاطميين . للمقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

ومما يذكر أن الحاكم بأمر الله قد أمر بإبطال تلك الليالي والاحتفال بها ، الى أن جاء الخليفة الظاهر ، فأمر بالعودة وأن توضع الشموع الطوال على حافات الجوامع كما كانت عليه أيام العزيز بالله .

وكان هناك سوق للشماعين أيام الفاطميين ، تباع فيها الشموع الموكبية والقانوسية والطوافات ، وكانت تفتح الحوانيت بها حتى منتصف الليل ، ويقول المقرئى : « وقد أدركت سوق الشماعين من الجانبين معمر الحوانيت بالشموع ، وكان يباع فى هذا السوق كل ليلة من الشمع بمال جزيل . وكان به فى شهر رمضان موسم عظيم ، لكثرة ما يشتري ويكترى من الشموع الموكبية التى تزن الواحدة منهن عشرة أرطال فما دونها ، ومن المزهرات العجيبة بالأصباغ الحسنة ، » .

وكانت أسعار الشمع هى دينار ونصف لكل عشرة أرطال ، كما بلغ سعر قنطار الشمع عشرين دينارا . وكان الناس فى العصور الوسطى يتنافسون فى اقتناء الشموع كبيرة الحجم حتى أن المقرئى يقول انه : « شاهد شمعة عملت فبلغت مصروفاتها نحو ألف وخمسمائة درهم فضة » . هذا ولم يقتصر استخدام الشمع فى العصر الفاطمى على أغراض الاضاءة والزينة ، بل كان يستخدم أيضا فى الاختام ونحو ذلك ، ويذكر المقرئى : « أنه لما ماتت عبدة ورشيدة ابنتا المعز لدين الله ، ختم على مقاصير كل منهما ، وعلى صناديقهما ، فقدر ما استخدم من الشمع بأربعين رطلا مصريا ، (٧) » .

وقد استمر استخدام الشمع وشيوع ذكره بين الناس خاصة فى مواكب الفاطميين واحتفالاتهم حتى أصبح حديث الشعراء ونظمهم فمن ذلك ما نظمه أحد الشعراء الى الوزير الأفضل عندما أسرج الشموع على حافتي النيل (٨) . كما نظم ابن الخلال الشاعر متولى ديوان الانشاء فى أواخر أيامهم فى وصف الشموع ومحاسنها .

ويبدو أن الرسوم التى كانت مفروضة على صناعة الشمع كانت

(٧) ومى تقدر بنحو أربعة عشر كيلوجراما من الشمع . زكى محمد حسن : الكنوز الفاطمية ، ص ١٣٩ .

(٨) يقول الشاعر :

أبدعت للناس منظرا عجيبا	لا زالت تجبى السرور والطربا
ألفت بين ضدين مقتدرا	فمن رأى الماء خالط اللهبـا
كانما الليل والشموع به	أفق سماء تالقت شهبـا

تحصل عيناً ، فقد ضم سجل المسامخة الذى صدر فى عام ٥١٥ هـ من
البواقي ، ما قيمته أربعمائة وأربعون رطلاً من خلايا الشمع .

وهكذا تعاظم انتاج الشمع بشيوع استخدامه خلال العصر الفاطمى
مما أدى الى ازدهار صناعته ورواج تجارته فى القسطنطين وغيرها من المدن
المصرية :

٦ - حرفة النجالة

قام المصريون باستخراج عسل النحل من خلاياه منذ العصور الفرعونية (١) ، وكان عسل نحل مصر له شهرة على كثير من أعسال الأقطار الأخرى ، وقد أعجب الرسول صلى الله عليه وسلم بعسل النحل المصرى وبارك فيه ، حينما أهدى اليه المقوقس حاكم مصر قدحا من زجاج وعسلا من جهة بنها العسل .

وبعد الفتح قبل الأقباط المصريون دفع الجزية نقدا ومقدارها أربعة دنانير عن كل رجل بدلا من الحنطة والزيت والعسل والخل ، والتي كانوا يقدموها عينا للبيزنطيين ، مما يدل على أن العسل كان انتاجه متوفرا فى مصر خلال العصر البيزنطى .

وقد زاول الحرفيون حرفة النجالة فى عصر الولاة والعصور الاسلامية اللاحقة ، واشتهرت بنها من بين النواحي والجهات حتى أن العرب أطلقوا عليها بنها العسل . ومما لا شك فيه أن المسلمين العرب كانوا يقدرون قيمة عسل النحل وما فيه من الشفاء ، كما ورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » وهو العسل .

وقد أمدنا المقرئى بمعلومات هامة عن حرفة النجالة فى العصور الوسطى ، حيث لا تقف خبرة العامل أو النجال فيها عند جمع العسل من الخلايا بل تمتد خبرته الى معرفة خصائص وطبيعة حياة النحل ونظام

(١) تعد مصر الوطن الأصلى للنحل منذ عصر ما قبل الأسرات ، ومنها انتشر الى باقى

أنحاء العالم القديم .

معيشته ، لأن وجود العسل فى الخلايا يرتبط ارتباطا وثيقا بهذه النواحي .

فمن أنواع خلايا النحل الخلية الطبيعية ، فقد يتخذها النحل فى الجبال ، وفى الحيطان أو فى العراء فى موضع منعزل ، وفى هذه الحالة يقوم النحل ببناء خليته طبقات على هيئة صفوف بعضها فوق بعض . أما الخلية الأهلية فهى التى يصنعها النحال من جذع شجرة تعرف بالنحايث (٢) أو قد يصنعها من الطين والاختاء (٣) ، وكانت تعرف بالخلايا أو الكواثر . وفى معظم القرى المصرية خاصة فى الوجه البحرى كان النحالون يتخذون القواديس كخلايا يأوى إليها النحل ويضع فيها شهمه .

وجرت العادة أن يقوم النحل بجمع رحيق العسل ابتداء من شهر برمودة أى شهر ابريل ، وأجود مراعيه القرط والجلبان ، ثم يقوم بصب هذا الرحيق فى ثقوب الأقراص ، فإذا امتلأت غطاها بغطاء رقيق من الشمع فيصبح الشمع محيطا بالعسل من جميع جوانبه ويحفظه من الفساد .

وكان عسل النحل يشار أى يجنى مرتين فى العام ، مرة فى الربيع وأخرى فى الخريف ، غير أن أجوده ما كان يشار فى الربيع ، والعامه من الناس كانت تسمى شيار العسل جزاز الشهم ، كما كان يعرف بالعاسل أو العسال .

ومن طرق استخلاص العسل من الشمع ، أنه كان يضغط على الأقراص بالأيدي لعصرها ، وذلك اذا كانت الكمية المراد عصرها قليلة أما اذا كانت كبيرة ففي هذه الحالة تعصر بالضغط عليها بالأرجل .

أما طريقة استخلاص العسل بالنار ففيها كانت الأقراص تلقى فى قدور وتطبخ بالنار ، فيذوب الشمع مختلطا بالعسل ، ثم يترك الخليط حتى يبرد فيتجمد معتليا سطح العسل فينزع وحده ويبقى العسل خالصا صافيا ، ثم ينقى العسل بعدها مما علق به فيصبح على درجة كبيرة من النقاء والصفاء .

وهناك طريقة ثالثة لاستخلاص الأنواع الممتازة من العسل بدون نار ، فكان النحالون يلقون بأقراص العسل فى أحواض تسمى الواحدة منها مجيرة ، فإذا ألقى فيها الشهم تكسر وبرز منها العسل ويسيل منسابا الى

(٢) النحايث : سميت كذلك لأنها كانت تنحب بالفتوس من نوع الأشجار .

(٣) الاختاء : هو ما يرميه البقر من دى بطنه .

أحواض أخرى يجمع فيها صافيا ، فإن بقي في الشمع من العسل شيء
اعتصر بالأيدي وكان يعرف هذا النوع المستخلص بهذه الطريقة
بالذوب (٤) . ويقول المقریزی : « وأجود العسل عند العلماء ما طاب ريحه
وعذب طعمه وصدقت حلاوته » .

وكان عسل النحل يبقى مدة كبيرة لا يتغير ولا يفسد إذا ما تمت
المحافظة عليه ، أما عسل القصب والزيت بأجمعها إذا لم يحسن صنعها
فإنها تفسد وتحض بعد مدة وجيزة . وقد كتب ابن إياس أن الخلفاء
الأمويين والعباسيين كانوا يشترطون على عمالهم في مصر في ضيافة المسلمين
وأن يقدموا لهم عسل النحل خاصة عسل بنها . وكان العسل يحتاج إليه
في أمور كثيرة بالإضافة إلى الأطعمة والأدوية التي يدخل في تركيبها .
فانه كان في ذلك الوقت يستخدم في حفظ الفواكه اليابسة في الأسفار ،
لأنها إذا جعلت في عسل النحل حفظت من التلف وبقيت على حلاوتها .

وفي عصر الولاة كان يحمل عسل النحل المصري إلى العراق وغيرها
من البلدان ، وكان هذا العسل مما يفتخر به على أعسال الدنيا . وقد
أمدتنا شواهد القبور التي عثر عليها بمجموعة من أسماء النحالين أو
العساليين نذكر منهم شاهدا يرجع إلى ما بين سنتي ٢٢١ هـ ، ٢٢٩ هـ
باسم مسرور بن سعيد العسال مولى بنى صاعد . وشاهدا آخر بتاريخ
شوال سنة ٢٢٦ هـ باسم ملصل بنت هرون العسال وشاهدا ثالثا يرجع
تاريخه إلى ذي القعدة سنة ٢٤٨ هـ ويحمل اسم مي بنت يونس العسال ،
كما يذكر ابن عبد الحكم قيسارية العسل بالفسطاط بالقرب من جامع
عمرو بن العاص فحين هدم قره بن شريك الجامع كان الناس يصلون فيها
الصلوات حتى فرغ من بنائه (٥) .

ونعتقد أن حرفة النحالة في مصر قد بلغت أوج نشاطها في ذلك
العصر وفي عصر الطولونيين والاختشيديين ، نظرا لأن الأعسال أو السكر
المستخرج من عصير القصب لم تكن مطابخها قد انتشرت في أنحاء البلاد
وشاع أمرها كما حدث في العصر الفاطمي .

ومن الشواهد التي ترجع إلى عصر الطولونيين والاختشيديين ، شاهد

(٤) الذوب : العسل أو ما في آيات النحل أو ما خلص من شمع (القاموس) .

(٥) ونعتقد أن هذه القيسارية كانت تضم مجموعة من الحوائث لبيع عسل النحل ،
وليس عسل القصب ، حيث كانت أول إشارة وردت بزراعة القصب كما يذكر الكندي أنه
لما قدم ابن شريك في سنة ٩٣ هـ اختار موطئا بظاهر الفسطاط عند بركة الحبش وغرسه
قصباً .

يُحْمَلُ اسْمُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ اسْنَحَقِ الْعَسَالِ ٦ وشاهد يزوج الى التتبع
الثاني من القرن الثالث الهجري ويحمل اسم سليم بن يونس بن عبد الله
ابن حكيم العسال . وشاهد ثالث يحمل اسم ابن رزق العسال هو
ابن محمد العطار ويرجع تاريخه الى ربيع الاول سنة ثلاث وتسعين
ومائتين .

وقد تأثرت حرفة النحال في العصر الفاطمي نتيجة انتشار زراعة
وصب السكر ، وكثرة وجود المعاصر والمطابخ في القسطنطين وغيرها من
المدن المصرية خاصة في مناطق الصعيد . لكن أصحاب هذه الحرفة ظلوا
يمارسون حرفتهم التي كانت تدر عليهم دخلا كبيرا ، وخير شاهد على ذلك
ما ذكره المقرئ في حوادث سنة ٥١٥ هـ حينما صدرت السجلات من
الديوان الفاطمي بالاعفاء من بواقي الخراج وغيرها من الرسوم وكان من
بين هذه الرسوم مقدار ٥٤١ قنطار وسدس من عسل النحل ، مما يشير
الى أنها كانت تجبي عينا حتى أواخر أيام الفاطميين .

وهكذا استمر إنتاج عسل النحل ، وشارك النحالون أو العسالون
في سائر أنحاء القرى المصرية غيرهم من الحرفيين والصناع في توفير المواد
الغذائية وفي صناعة أنواع الحلوى (٦) وتركيب الأدوية وغيرها مما تدخل
فيه أعسال النحل التي اشتهرت بها مصر في العصور الوسطى .

(٦) ذكر الثييزي في الحسبة على الحلوانيين أنهم كثيرا ما كانوا يمزجون العسل
النحل برب الكرم أو عصير العنب ، وكانت علامة غشه أنه إذا حمل على النار ظهرت رائحة
الرب . يعنى عصارة الثمرة بعد طبخها حتى تصبح غليظة . نهاية الرتبة ، ص ٤٠ .

٧ - حضانة الفرايج في مصر الاسلامية

انتشرت الحرف والصناعات الشعبية في سائر القرى والمدن المصرية منذ العصور المبكرة ، واستمرت كذلك بعد الفتح العربى للبلاد ، ومن هذه الحرف صناعة الشباك من الكتان ، والغرابيل والمكائن والاطباق التى كانت تصنع من سعف النخيل أو الحلفاء ، ولا زالت هذه الصناعات الصغيرة رائجة في بلادنا حتى اليوم . أما الأقفاص والأسرة والكراسى فكانوا يصنعونها من الجريد ، كما استخدموا جذوع النخل وجريده بدلا من العروق الخشبية في المباني ولقائمة الجسور والكبارى في القرى وما إليها .

وكانت صناعة حضانة الفرايج احدى هذه الصناعات الشعبية الهامة التى مارسها المصريون منذ العصور القديمة ، فقد ذكر بترى أن التفريخ الصناعى للبيض من مبتدعات المصريين ، وكان غير معروف فى الأقطار الأخرى .

وهكذا انفرد المصريون فى قيامهم بعملية التفريخ بطريقة الترقيد الصناعى التى برعوا فيها منذ فجر الاسلام ، ويظهر أن هذه الطريقة لم تنتقل من مصر الى غيرها من بلاد العالم الخارجى ، حتى العصر الأيوبى ، يؤيد ذلك ما أوضحه البغدادى فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى بأنها احدى الصناعات التى اقتصت بها مصر وحدها .

ولا غرو فقد مهر المصريون فى صناعة البناء وصناعة الفخار وهما من الصناعات اللازمة لعملية التفريخ الصناعى ، حيث كان العمال يعدون للبفراخ حظائر مصنوعة من الفخار ذات أبواب لوقايتها من الثعالب ليلا وغير ذلك . وكانت طريقة بناء الحظائر أو ما أطلق عليها المقريزى المعامل ، نتم بصناعة معينة ، وتوقد بالتناير التى يعمل بها البيض بشكل يحاكى

الطبيعة في حضانة الدجاجة لبيضها ، ويخرج من تلك المعامل الفراريج .
ويذكر المقرئ أن معظم انتاج المصريين من الدجاج كان يتم بهذه الطريقة
ولا يتم عمل هذا بغير مصر .

ويمدنا عبد اللطيف البغدادي بتفاصيل دقيقة عن هذه الحرفة التي
كانت شائعة في أنحاء البلاد ، وكان المصريون يتكسبون منها ويتجرون
فيها فمن ذلك أنهم كانوا يقومون ببناء المعمل على مساحة كبيرة يتخذ منها
من البيوت المعمولة من الفخار ما بين عشرة أبيت الى عشرين بيتا ، وكان
كل بيت يتسع لآلف بيضة ويسمى بيت الترقيد (١) . وما زالت
هذه الطريقة التي انفرد الرحالة البغدادي بذكرها تتبع في أطراف القرى
المصرية حيث تقام مثل هذه المعامل حتى وقتنا الحاضر .

وكان أفضل الاوقات لعملية الترقيد الصناعي شهور أمشير وبرمها
وبرموده من السنة القبطية ، فهي أنسب الظروف التي كان يكثر فيها
البيض أيضا ، ويظهر أن الفيوم كانت من المناطق المشهورة بهذه الحرفة
في مصر الاسلامية ، ويشير النابلسي الى تربية الفروج بها ويقول : « والمربي
بها من الفروج ثمانمائة وخمسون فروجا وللمقطعين ستمائة فروج وللدويان
المعمور ، وكان ذلك في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ هـ -
١٢٣٩ م) ، ولا شك أن هذا يدل على استمرار مزاولة المصريين لهذه
الحرفة حتى العصر المملوكي .

كما اشتهرت منطقة دندرة بالصعيد الأعلى بهذه الحرفة ، نظرا لتوفر
نوع من الدجاج كان أكبر حجما من الدجاج المعتاد . وكان الدجاج يسمن
باستخدام الشعير المطحون المعجون أو الأرز والنخالة من الدقيق .

ويعتبر الدجاج من أشهر الطيور المنزلية ، ومن أكثرها نفعا في
غذاء الانسان ، كما كانت تصنع من ريشه المراوح وتحشى به الوسائد .

(١) كانت هذه البيوت ننخذ شكلا مربعا طوله ثمانية أشبار وعرضه ستة في ارتفاع
اربعة ، ويجعل له باب في عرضه سعته شبران ، وعقد في مثله ، وتجعل فوق الباب طائفة
مسنديرة قطرها شبر ثم تستف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب الخ . وكان العمال الذين
يقومون بالاشراف على عملية الترقيد لهم خبرة واسعة في وضع الزبل في هذه البيوت ، وفي
تقليب البيض وفي كيفية الدخول والخروج من المعامل . وفي مزاولة الرماد وتجديد الزبل
والايقاد حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة أيام . يعقب ذلك أن العامل كان يدخل بالسراج
ويفرز البيض ويقوم بأعمال التهوية حتى اليوم الرابع عشر ، ويستمر في أعمال التهوية
وتهينة الطقس المناسب حتى التفريخ في اليوم العشرين من ترقيد البيض في البيوت .
عبد اللطيف البغدادي في مصر ، ص ٣٠ - ٣١ .

وقد شجع الفاطميون على قيام هذه الصناعة الشعبية ، والعمل على تزويد القصور والمطابخ بأنواع الدجاج والقراريج بكميات كبيرة ، خاصة وأنها كانت تقدم في الأعياد والمناسبات العديدة ، فمما يذكر في عمل سباط عيد الفطر أنه كان يعمر هذا السباط على طوله بواحد وعشرين طبقا ، وفي كل منها بالاضافة الى لحوم الضأن لحم الدجاج والقراريج وفراخ الحمام ، ويقول المقرئى : « ثم يسد خلل تلك الأطباق بالصحون الخزفية التى فى كل واحد منها سبع دجاجات وهى مترعة بالألوان الفاتحة من من الحلواء » .

ومما يدل على شيوع المعامل أو التنانير كما أطلق عليها المقرئى وانتشارها فى سائر القرى المصرية ، أن الفاطميين فرضوا عليها من الرسوم والضرائب كسائر الحرف والصناعات الأخرى ، يتضح لنا ذلك من بيان قائمة المكوس التى ألغاه صلاح الدين الأيوبي حين توليه السلطة فى البلاد عام ٥٦٧ هـ / ١١٧٧ م .

ويبدو أن المعامل الخاصة بالترقيد الصناعى هذه كانت خاضعة لمدة ضمان (جمع ضامن) فى سائر النواحي ، هذا ولم نسمع عن سوء معاملة مقرئى طرح القراريج خلال حكم الفاطميين . وكان الفقراء من الناس والأرامل يعانون من العنف والظلم شيئا كثيرا فى عصر المماليك . وقد كان الناس فى جميع الأقاليم لا يمكن لأحد منهم أن يشتري فروجا فما فوق الا من الضامن ، ومن عثر عليه أنه اشترى أو باع فروجا بعيدا عن الضامن جاءه الموت من كل مكان على حد قول المقرئى .

٨ - صناعة السكر والعسل

لم يعرف المصريون زراعة قصب السكر قبل الفتح العربى ، اذ ادخلت زراعته فى عصر الخليفة عمر بن الخطاب ، وسرعان ما تقدمت زراعته فى مصر . وتشير أوراق البردى التى ترجع الى القرن الثانى الهجرى الى زراعة قصب السكر . وقد نسب الى الامام الشافعى الذى عاش بمصر فى أواخر القرن الثانى الهجرى أنه قال : « لولا قصب السكر ما أقمت بمصر » .

ويبدو أن الولاة فى مصر بدأوا يعملون على زراعة القصب فقد ذكر الكندى أنه لما قلم قره بن شريك فى سنة ٩٣ هـ من قبل الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك الى مصر ، اختار موطعا بظاهر القسوطا عند بركة الحبش وغرسه قسبا (١) . كما يظهر أن الطولونيين فى أواخر القرن الثالث الهجرى كان لهم فضل كبير فى نشر زراعة قصب السكر ، والاهتمام بإنشاء مصانع صغيرة لاستخراج السكر منه . وتشير أوراق البردى الى أنه أصبح من بين المحاصيل الزراعية ، ولا غرو فقد اهتم الطولونيون بعمارة الأرض وزراعتها فى أنحاء البلاد .

كما تشير أوراق البردى التى ترجع الى القرن الثالث الهجرى وأوائل القرن الرابع الى شهرة مدن الصعيد بتجارة السكر والعسل ، ولا غرابة فى ذلك فقد كانت تضم الأعداد الكبيرة من المعاصر والمطابخ ، ولدينا طراز من القرن الثالث من ادفو بالصعيد الأعلى يأمر فيه صاحب الخطاب بالتوجه الى ابراهيم النوتى القوصى صاحب احدى المراكب من أجل حمل مائة وسبع

(١) كان يطلق على ذلك الموضع اصطبل قره ، واصطبل القاسى ويعنون القصب وقد كان المكان يسمى بركة الحبش وتم زراعته بالقصب فى سنة ٩٤ هـ . الولاة والقضاة ، ص ٦٥ ، سعاد ماهر : حفائر كلية الآثار بظاهر القسوطا ، ص ٩٥ - بحث نشر مجلة كلية الآثار - جامعة القاهرة ، العدد الأول .

عشرة جرة من العسل . وفى مدينة الأشمونين عثر على اوراق البردى
وهي تشمل حساب أسبوعى بانتاج الأباليج وهي أقماع السكر ، ويرجع
تاريخها الى عهد الطولونيين ، وفى بردية أخرى أوردت مقادير القصب التى
وصلت الى أحمد بن ذبال صاحب معصرة ، وهي مكونة من مئات الحزم من
القصب واثمانها .

وتعدنا أيضا احدى البرديات التى ترجع الى القرن الثالث وأوائل
القرن الرابع الهجرى بقيمة الأموال التى دفعها أحد الأشخاص وهي ثلاثة
دنانير ونصف وقيراطان من ثمن العسل المحمول الذى باعه أحد التجار
فى ذلك الوقت .

وهكذا تشير أوراق البردى الى انتشار زراعة قصب السكر وتصنيع
السكر والعسل منه فى عهد الطولونيين والاختشيديين ، ومن الملاحظ أن
مراكز صناعة السكر والعسل فى مصر ، كانت تقع فى نفس مناطق زراعته ،
كما هو الحال فى صناعة استخراج الزيوت التى أشرنا اليها . ولقد جادت
زراعته بأرض الصعيد خاصة حيث أمكن زراعة الآلاف من الأفدنة (٢) .

وتعدنا المصادر التاريخية والجغرافية بأسماء العديد من الجهات
التي انتشرت زراعة القصب بها فى القرن الثالث الهجرى ، فابن حوقل
يصف الصافية وهي من أعمال الغربية بأنها ضيعة كبيرة كثيرة قصب
السكر وبها معصرة للسكر ومصنع ويذكر ابن حوقل أيضا بالقرب منها
ناحية ديمحول (٣) وهي ضيعة كبيرة كثيرة قصب السكر والمعاصر ويصنع
السكر بها والقند (٤) . وهكذا يوضح لنا الرحالة ابن حوقل فى القرن
الرابع الهجرى ما اشتهرت به بعض الجهات فى الوجه البحرى من زراعة
لقصب السكر ووفرة المعاصر بها والمطابخ الخاصة بصناعة السكر
والعسل (٥) .

(٢) كان يزرع القصب فى نصف برمهات بعد تجهيز الأرض وكان يقطع القصب
ويدفن فى الأرض زوجا زوجا ، ومازالت هذه الطريقة متبعة حتى الآن . ابن مباتى :
قوانين الدواوين ، ص ٢٦٦ .

(٣) وردت باسم د ديمجهون وهي تقع بالقرب من منديون من أعمال البحيرة .
ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص ٧٨ .

(٤) القند لفظ فارسي معرب وهو عسل قصب السكر ، الملاحظ : التبصر بالتجارة ،
ص ٤١ ، المسالك والممالك ، ص ٣ .

(٥) وقد طاف ابن حوقل فى العالم الاسلامى من شرقه الى غربه وكتب عن مصر حين
زارها بعد سقوط الدولة الاخشيدية بتسع سنوات ، ولا شك أن وصفه لتلك الجهات الوافدة
فى الدنيا وشهورتها بزراعة قصب السكر ووجود المعاصر بها ، يخالف ما ذكره آدم متز
حين قال : « ولم يتكلم أحد من الجغرافيين فى القرن الرابع الهجرى عن زراعته فى مصر »
ويعنى زراعة قصب السكر .

ومن مراكز هذه الصناعة في الوجه البحري أو الدلتا كذلك جهة
ترنوط (٦) يذكر ياقوت أن أكثر فواكه الاسكندرية كانت تحمل منها
وبها معاصر للسكر وكانت منية العلوق من تلك الجهات التي بها معاصر
للقصب (٧) .

وذكر ابن بسام أن مدينة تنيس كان بها مائة معصرة ، لكنه لم يوضح
لنا نوعية تلك المعاصر ، وكانت قاصرة على صناعة استخراج الزيوت أم
أنها كانت تضم معاصر لقصب السكر كذلك ومن المرجح أنها كانت للأنين
معا ، خاصة وأن تنيس كانت ترد إليها المراكب محملة بكافة المحاصيل
والخيرات من مصر والاسكندرية ومن أقاصي الصعيد .

كما اشتهرت مناطق كثيرة من الصعيد بزراعة قصب السكر وبوجود
المعاصر والمطابخ للسكر بها ، نذكر منها مدينة الفيوم حيث كان بها معاصر
للقصب ومسابك للسكر ، كما كانت توجد معاصر للقصب بجهة سنورس
بالقرب منها . ويذكر المقرئ أن مدينة ملوى كانت أرضها معروفة بزراعة
قصب السكر وأنها تضم عدة أحجار لاعتصار القصب بها . كما ذكر ياقوت
من البلاد التي عرفت بصناعة السكر والعسل سمسطا التي كانت تقع
بالقرب من البهنسا والأشمونين . أما أسيوط فيتحدث المقرئ عن
شهرتها بصناعة السكر فيقول : « وبها سائر أنواع السكر ومنها يحمل
إلى سائر الدنيا » ، ويبدو أن القزويني قد نقل عن ياقوت وصفه لمدينة
أسيوط حيث جاء النص مطابقا لما أوضحه تقريبا (٨) .

وفي منطقة الصعيد الأعلى يذكر الادفوى مدينة البلينا بأنها أول
الاقليم للصعيد الأعلى من جهة الشمال ، وبها عدة مسابك للسكر ، قيل
أنه لما توجه الخطيب إلى قوص إليها ، أخرج له الأهالي نحو ستين منسفا
من الحلوى ، ومثلها من الشواء .

(٦) ذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص لما توجه نحو الاسكندرية لم يلق أي مقاومة
من أحد حتى ترنوط ، فلقى بها طائفة من الروم فقاتلوه قتالا شديدا فهزمهم الله . فنوح
مصر والمغرب ، ص ١٠٧ ، وترنوط قرية على النيل بمركز كوم حمادة من أعمال البحيرة .

(٧) يرجح محمد رمزي أنها هي التي تعرف اليوم باسم ميت الحولى عبد الله بمركز
فاربكور من أعمال الدقهلية . القاموس الجغرافي ، ج ١ ، ص ٤٣٤ .

(٨) يصف ياقوت شهرة أسيوط بأنواع السكر وما كان يصدر منها إلى سائر الأنحاء .
فيقول : « وبها سائر أنواع السكر لا يخلو منه بلد إسلامي ولا جاهلي » ، معجم البلدان ،
ج ١ ، ص ٢٥١ .

واشتهرت في صعيد مصر أيضا كل من سمهود وقفت ، فقد كانت سمهود تشتهر بالمعاصر الكثيرة لقصب السكر ، وكان بها سبعة عشر حجرا ، ويقال أن الفأر لا يأكل قصبها وذلك مشهور بين أهلها . كما اشتغل أهالي قفت بزراعة القصب ، وكان بالمدينة أربعون مسبكا للسكر وست معاصر للقصب .

ومن الجدير بالذكر أن معاصر قصب السكر وتلك المطابخ أو المسابك لم تكن ملكا للدولة ، وإنما كانت لأصحابها من السماسرة والتجار الذين يديرونها لحسابهم ، وكانت الدولة تفرض عليهم من الرسوم والضرائب ما تفرضه على سائر الصناعات الأخرى .

وقد أمذنا النويري بوصف مفصل لخطوات صناعة السكر والعس ، حيث كان القصب يحمل الى المعاصر اذا حل شهر هاتور بعد كسره (٩) . وكانت عملية العصر تتم بعد تنظيم عيادانه بواسطة سكاكين كبار ، يقطعون بها الأجزاء العليا منه ، كما ينظفون أسفل العود مما به من عروق وطنين ، وكان الصناع يجرون هذه العملية على منصات تعرف بالوترات (١٠) .

وباتمام عملية تنظيف العيدان ، كان القصب ينقل الى قسم آخر يسمى بيت النوب ، فيقوم عمال آخرون وبأيديهم سكاكين كالسابق وصفها وأمامهم الوترات ، يجمع الواحد منهم عدة عيدان ويضعها على الوترية ويقطعها قطعاً صفاراً فتسقط في بيت النوب حيث تعبأ في أفراد (أوعية من الخوص) تسمى العيارات متساوية السعة ، وتنقل حيث تعصر .

وكانت عملية العصر تتم بواسطة معصرتين الأولى من حجر يدور بالأبقار ، فيوضع ذلك القصب المقطع تحت حجرها فيعصر وتنساب العصارة التي تسيل منه خلال ثقوب موجودة في القاعدة التي تحت حجر المعصرة الى حوض حيث تتجمع فيه . وتجمع بعد ذلك قطع القصب المعصورة وتنقل لتوضع تحت المعصرة الثانية وتعرف بدولاب التخت فتقوم هذه المعصرة بعصر ما بقي من سائلها في أعواد القصب .

وكانت العصارة التي تحصلت من المعصرتين تجمع في مكان واحد لتتم تصفيتها على مرحلتين ثم يوقد تحت الخابية بالنار الى أن يغلي العصير

(٩) يذكر المقرئى أنه كان يحصل على القدان ما بين أربعين ابلوجة الى ثمانين ابلوجة وكانت الأبلوجة تقدر بنحو تسعة قناطير تقريبا . المخطوط ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

(١٠) الوترات كانت على هيئة منصات يتم تنظيف القصب على حرقها المسلوى ،

غليانا كثيرا ، فعندئذ تطفأ النيران ويترك العصير بداخل الخابية الى أن يسكن غليانه ثم يعبا في اوان كبار تسمى الواحدة منها قرعة تنفذ في كل منها خشبة طويلة تبرز من جانبيها كالساعدين يمسك بهما القرعة .

وبعد عملية غلي ثانية يتحول العصير الى ما يسمى بالمحلب ثم ينقل من قسم الى آخر من أقسام المطبخ يعرف ببيت الصب به مصاطب مبنية مستطيلة تشبه المزود ، مرصوفة فوقها أباليج أى أقماع من الفخار ضيقة الأسافل متسعة الاعالى بأسفل كل أبلوحة منها ثلاثة ثقوب مسدودة بقش القصب وتحت كل أبلوحة قادوس .

وبعد أن تملأ الأباليج بالمحلب بمغارف تعرف بالكرانيب ، تقطر من مسامها العصاراة الرقيقة التي تفصل من ذلك المحلب وهي انتى تعرف بالعسل المقطر ، ويتجمع في القواديس بأسفلها وتنقل الأباليج بعد ذلك ويكون ما بها من عصير قد بدأ في الجفاف متحولا الى قند ، وهو عصاراة قصب السكر اذا جمد ثم يتخذ منه السكر .

وصناعة السكر كانت تبدأ من حيث انتهاء عملية عصر القصب وتحويله الى قند ، ولذلك فمصانع السكر كانت في أحيان كثيرة تقام مكمله لمصانع عسل القصب يضمها بناء واحد وأحيانا أخرى كانت تستقل بذاتها . وفي هذه الحالة ترسل أباليج القند الى مصانع السكر لتكريرها واستخراج السكر منها .

ويشير ابن دقماق الى دار القند بمدينة الفسطاط ، حيث كان يتجمع فيها القند القادم لها من شتى أنحاء البلاد والمعاصر ، وذلك بسبب كثرة مطابخ أو مسابك السكر بها ، كما كان يوجد في العصر الفاطمي مطابخ السكر السلطانية وكانت سبعة مطابخ بجوار بعضها على صف واحد ، كما ذكر ابن دقماق أسماء العديد من أصحاب المطابخ الخاصة في العصرين الأيوبي والمملوكي . وهكذا كانت شهرة مدينة الفسطاط في العصور الوسطى . فقد ذكر ابن سعيد أنه كان يوجد بالفسطاط مطابخ للسكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى ، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند ، وقد بلغت الرسوم المفروضة على دار القند ٣١٠٨ دینارات ، ٣٢ دینارا على مربعة العسل و١٣٥ دینارا على مطابخ السكر الموجودة بالفسطاط .

كان أجود أنواع العسل المعمول من قصب السكر هو العسل المقطر . وهو ما يحصل عليه مما يقطر من أباليج القند كما أشرنا من قبل ، وبعض الأقسام كان لا يجمد عصيرها في الأباليج ليظل سائلا فيتخذ منه عسلا يعرف بالمرسل ، وهناك نوع من العصير المتخذ من أطراف الأقسام كان

يصنع منه عسل الحر . أما العصير المتخذ من القطع التي كانت تفصل من القصب عند تنظيفه بدار القصب ، فكان يصنع منها عسل كان يعرف بعسل الخابية وهو أردأ أنواع العسل .

وكانت هذه المعاصر التي تنتج العسل مزودة بعدة دواليب وآلات بسيطة تدار بواسطة الأبقار ، وقد شاع استخدام الدواليب أو العجلات في أعمال الري والزراعة كما هو الحال في المعاصر وغيرها . وقد توسع المصريون في زراعة قصب السكر في العصر الفاطمي ، وليس أدل على ذلك من قول ناصر خسرو الذي زار مصر في سنة ٤٤٠ هـ ، وتنتج مصر عسلا وسكرا كثيرا ، .

وقد أنتجت مصر خلال العصر الفاطمي أنواعا عدة من السكر ، أقلها جودة السكر الأحمر وهو عبارة عن القند المتجمد في الأباليج ، ثم يكرر بإعادة طبخه على النار عدة مرات في المطابخ ، وبعد كل مرة يوضع في أقماع يجمد فيها بينما تسيل الشوائب العالقة به من الثقوب التي بأسفل هذه الأقماع ، فيحصل في كل مرة على سكر أنقى درجة من سابقه وهكذا تعددت أنواع السكر تبعا لدرجة التكرير في كل مرة ، فكان منها المكرر ، والتبع والوسط والنبات . وكان يصدر منه إلى سائر بلاد العالم وكانت له شهرة تفوق سكر الأهواز في المشرق الاسلامي .

ومن أجود أنواع السكر المكرر الذي عرف في ذلك الوقت ، نوع كان شديدا البياض صلبا اسمه الطبرزد (١١) ، وطريقة صناعته أن يطبخ السكر المكرر ، ويضاف إليه مقدار عشرة أكواب لبن حليب ومن الماء ، ما يغمره ، ثم يغلى ويترك يوما وليلة . ثم يغلى مرة ثانية حتى يغلظ قوامه ثم يترك ليحفظ بينما يصفى من عسله الذي يرشح منه .

ولا شك في أن بداية النشاط الكبير في صناعة السكر والعسل . إنما يرجع إلى تلك المظاهرة الاجتماعية والتقاليد التي أدخلها الفاطميون في هذه البلاد . فمن ذلك ما قام به الخليفة العزيز بالله من إنشاء دور الفطرة (١٢) .

(١١) كلمة فارسية معربة معناها سكر أو نبات غليظ صلب ، وتبر معناها بالفارسية الدس ، زد معناها الضرب ، فكأنما قصدوا أن هذا السكر قد نحت بالفأس وذلك لصدة صلابته ، شعبان ربيع : جلال الدين السيوطي والمغرب عن اللغة الفارسية في كتابه الزهر ، ص ٧٥ .

(١٢) ذكر ابن الطوير المؤرخ الفاطمي أن دار الفطرة خارج القصر بناها العزيز بالله . وقرر فيها ما يعمل مما يحمل إليه الناس في العيد وتقع قبالة باب الديلم من القصر الذي يدخل منه إلى المشهد الحسيني . المخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

وكانت خاصة بعمل أنواع الحلوى والأسمطة لتوزيعها في المواسم والأعياد على جميع الناس من الخاصة والعامة .

وكان يحمل اليها من أنواع الدقيق والسكر والفستق والزبيب الشيء الكثير ، يذكر القلقشندي أنه كان يحمل اليها أربعمئة قنطار من السكر من بين هذه المواد الغذائية . وذكر المسيحي أنه في آخر رمضان سنة ٣٨٠ هـ حمل يانس الصقلي صاحب الشرطة السفلى ، وعلى بن سعد المحتسب السباط وقصور السكر والتماثيل وأطبأخا فيها تماثيل حلوى . وقد عمل بدار الفطرة قصران من حلوى في كل واحد سبعة عشر قنطارا وحملتا في شوارع القاهرة في مركب الخليفة في الاحتفال بعيد الفطر ، وقام الصناع بعملهما في أحسن الأشكال فزينوهما بأوراق الذهب وفيهما الشخصوس البارزة كأنها مسبوكة في قوالب لوجا لوحا ، وهكذا كانت تستخدم نماذج الحلوى في أغراض الزينة وغيرها .

وكان يعمل بدار الفطرة هذه مائة صانع من الحلوانيين ومائة فراش برسم تفرقة الحلوى على أصحاب الرسوم خارجا عما هو مرتب فيها ، وذكر أنه بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف كان يعمل بها عشرون قنطارا من السكر الفائق والحلوى من طرائف الأصناف .

وكان من رسوم الدولة الفاطمية في أعياد الميلاد توزيع الجامات المملوءة من أصناف الحلوى المعمولة من السكر وغيرها من أنواع المأكول والمشرب ، وكان يشمل ذلك أرباب الدولة من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم من رجال الحاشية والبلاط الفاطمي . وذكر الرحالة ناصر خسرو أنه كانت تنصب الأسمطة في شهر رمضان وفي الأعياد والمواسم المختلفة ، ويدعى اليها عدد كبير من الناس وتقدم لهم أنواع الحلوى وقيل ان ما ينفق على مائدة الخليفة خمسون ألف من (١٣) .

وقد شاهد ناصر خسرو شجرة أعدت للزينة ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر ، ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضا .

وبالإضافة الى ما كانت تحتاجه الأسمطة التي يقيمها الفاطميون في قصورهم من قناطر السكر وقصور الحلوى وما عبر عنه المقرئ من أصناف الحلوى المتعددة التي توضع كأنها الجبال ، فقد أنشأ الفاطميون خزانة الطعام وكانت من الخزائن الشهيرة ، وكان يحمل اليها من جميع

(١٣) ابن : وزن قدره برطلان ، الخوازمي : مفاتيح العلوم ، ص ١١ .

الأصناف والمأكولات وغيرها من السكر والعسل والقند المقادير الهائلة .
كذلك خصص البلاط الفاطمي خزانة للشراب وكانت تحتاج من أنواع
السكر والمواد الأخرى ما يحتاج لمؤلف مستقل أو وضع كتاب مفرد .

وفوق ذلك كان فى ركوب يوم فتح الخليج تنصب موائد وتوضع
عليها تماثيل مختلفة فى أعداد وافرة على شكل الحيوانات كالغزلان والسباع
والقيلة والزرافات ، وكلها مصنوعة من أنواع السكر والحلوى .

وقد استمرت دار الفطرة وخزائن الطعام والشراب حتى أواخر أيام
الفاطميين ، وظلت احتياجاتها من أنواع السكر قائمة ، ففي عهد الخليفة
الأمير وفى سنة ٥١٦ هـ تم عمل أربعين صينية خشكانج وحلوى وكعك
وذلك بمناسبة الاحتفال بالمولد الأمري حيث صدر الأمر بعمل خمسمائة
رطل حلوى وتفرق على المتصدرين والقراء والفقراء ، وفى عام ٥١٧ هـ وزع
على المساكن بالجامعين الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر وبالقرافة خمسة
قناطير حلوى وألف رطل دقيق . كما حمل من دار الفطرة الى الأعيان
والمستخدمين مقادير كبيرة من الحلوى . وكان مصروف الفطرة السنوى
نحو سبعمائة قنطار من السكر وخمسة قناطير من العسل .

ومن المحقق أن تقدم صناعة السكر والعسل فى العصر الفاطمي لم
يكن بسبب احتياجات الدولة وتوفير أنواع السكر التى تتطلبها لاقامة
الأسمطة وما يفرق على الخاصة والعامة ، وإنما لتلبية حاجات الشعب الذى
أخذت العادات والتقاليد الفاطمية تسرى فى صفوفه والمشاركة فى الاحتفالات
بهذه الأعياد والمواسم .

وكان سوق الحلوانيين فى القسطة من أبهج الأسواق لما يشاهد
فى حوانيتها من الأواني وآلات النحاس الثقيلة الوزن وفيها من أنواع
الحلوى المصنوعة من السكر والعسل عدة ألوان وأشكال . وكان مما يصنع
من الحلوى فى هذا السوق تماثيل الأطفال بأشكال مختلفة فى الأعياد
والمواسم ، كما كان يبدو فى شهر رجب من أحسن الأشياء منظرا فانه
كان يصنع فيه أمثال خيول وسباع وقطط وغيرها تسمى العلاليق ، ترفع
على الحوانيت ، فمنها ما يزيد عن عشرة أرتال الى ربع رطل تشتري
للأطفال ، فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده ، وتمتلىء
أسواق القسطة والقاهرة وأريافهما من هذا الصنف .

كما استخدم الناس فى حياتهم اليومية ما يكفيهم من أنواع السكر ،
فكان منه النوع الأبيض والسكر الأحمر ، وكانوا يحفظونه بعيدا عن النداءة

والرطوبة ، حيث يحفظ صلابته وصفاء لونه وكانوا لا يحبون الردى منه .
وهو ما مال لونه الى السواد وطعمه الى الملوحة .

وكان هناك من يبيع السكر الأحمر فى أسواق القسطنطينية وغيرها على أنه من السكر الأبيض ، فانه اذا كان ظاهر أسفل القمع أحمر يأخذ بعضهم شيئا من السكر الأبيض فيحك ظاهر السكر الأحمر بصنعة لهم فيرجع كأنه أبيض ، فيظن المشتري أن باطنه مثل ظاهره .

كما يتضح لنا فى الحسبة على الحلوانيين الذين كانوا يصنعون الحلوى بأنواع كثيرة وأجناس مختلفة أنهم كانوا يغشون بعضها مثل من يمزج عسل القصب بالدبس (١٤) ، ومنهم من يغش الزلاية المسبكة بالقند المحلول عوضا عن العسل . وقد يغشون الخبائض (١٥) الناعمة والرطوبة والصابونية بالنشا الخارج عن الحد فيعتبر عليهم المحتسب جميع ذلك .

وهكذا كانت المعاصر والمطابخ لقصب السكر تنتج الكميات الكبيرة من أنواع العسل والسكر لمتطلبات القصور الفاطمية ولسد احتياجات طبقات الشعب المصرى ، وما كان يصدر الى خارج البلاد منها .

.....

ولا شك أن المصريين كانوا يعملون على انتاج بعض المواد الغذائية والمشروبات الأخرى مثل سائل الخل الذى يستخدم فى الطعام وفى أغراض أخرى . وتشير أوراق البردى الى ان صناعته كانت رائجة فى البلاد . كما ذكر عبد اللطيف البغدادى أن الخل كان يستخرج من ثمار متعددة غير العنب مثل الجميز والبلح .

كما عرف المصريون شراب الكشكاب الذى شاع عمله فى بعض المدن فى شمال البلاد مثل مدينة تنيس (١٦) . وقد شاع عمل شراب النيده

(١٤) الدبس عسل التمر أو عسارته من غير طبخ . الشيزدى : نهاية الرتبة ، ص ٤٠ .

(١٥) الجبائض جمع خبيصة وهى الحلوى التى تصنع من دقيق الحنطة مع دهن اللوز .

(١٦) الكشكاب نوع من الشراب المتخذ من اللبن الزبادى المضروب بالماء وهو صنف منعش غير مسكر يشبه ما يسمى فى تركيا إيران ، وكان يشرب فى فارس أيضا . ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٣٨ .

أو المزر أيضا المتخذ من عصير القمح . حيث كانت العامة تشربه في سائر القرى والمدن ، حتى أنه كانت ترتفع أسعار القمح بسبب ذلك .

ويذكر ابن سعيد أنه كانت لا تصنع النيدة ، وهي حلوة القمح إلا بمصر واثقاهرة . كما يشير ابن الاخوة الى الشروط الواجب اتباعها في انتاج هذا النوع من الشراب ، حيث كان على صناع النيدة ألا يستعملوا الا الدقيق العلامة الطيب ، وان يكثر من نساوتها حتى تكثر حلاوتها .

وقد استمر عمل النيدة أو شراب المزر وغيره من أنواع المشروبات غير المسكرة حتى نهاية العصر الفاطمي ، حيث يصف لنا عبد اللطيف البغدادي طريقة عمله ، فهو يشير الى أن المصريين كانوا يتخذون القمح بعد نقعه في الماء حتى يخرج منه النشا ، ثم يصفى ويطحخ حتى يغلظ ثم يذر عليه الدقيق بعد ذلك ، ويعقد ويرفع ليباع بسعر الخبز في الأسواق .

أما عن الفقاع والنبيد أو الخمور ، فقد اقتصر انتاجها على أهل الذمة من الاقباط المصريين ، حيث يذكر المقرئ أن شهر مسرى كان موعدا لجمع العنب واعتصاره فهو يقول : « وفيه يعصر قبط مصر الخمر ويعمل الخل من العنب » ولاشك أن الولاة في أعقاب الفتح العربي قد وقفوا موقفا متشددا من انتاج أو عمل هذه المشروبات المحرمة ، كما تشير المصادر التاريخية الى أن محمد بن طفج مؤسس الدولة الاخشيدية كان يتعقب المواخير التي كانت ملاذ اللهو أو الشراب ويعاقب أصحابها .

ومما يذكر أنه في عهد الفاطميين كان بعض المصريين من أهل الذمة يصنعون من العسل نوعا من الشراب المسكر ، ويتضح لنا من رواية أبي المحاسن أن الحاكم بأمر الله وقف من ذلك موقفا حاسما إذ أمر بإلقاء خمسة آلاف جرة من العسل في النيل خوفا من أن تستخدم في عمل النبيذ . كما يذكر النويري أنه في سنة ٤٠٢ هـ أمر الحاكم بأمر الله بمنع وتحريم كل ما يعمل منه النبيذ كالزبيب والعسل وخلافه .

ومهما قيل عن تعاطي هذه المشروبات في عهدي الظاهر أو المستنصر ، فإنه لا يعنى ذلك الترخيص من جانب الدولة بصناعتها . فقد تضمنت سائر المنشورات أو المراسيم الصادرة بأنه من تعرض لبيع شيء من أنواع النبيذ والمسكرات أو شرائها سرا أو جهرا ، فقد عرض نفسه لاثلافها وبرئت الذمة من هلاكها . ولم نسمع عن جباة الأموال في مضر الفاطمية أنهم عملوا على تحصيل أو جباية الرسوم والمكوس من منتجي هذه المشروبات

كما هو الحال فى الرسوم التى كانت مقررة على بيع أنواع المزرة أو الشراب المرخص بعمله وبشربه لدى المصريين (١٧) .

وخلاصة القول أن الحكام الفاطميين لم يسمحوا بإنتاج هذه الأنواع من المشروبات أو الترخيص بذلك ، كما كان شأن الولاة فى صدر الاسلام أو من حكم بعدهم من الأمراء الطولونيين والاختشيديين .

وهكذا لم تشغل صناعة النبيذ التى لم يسمح بقيامها أو انتشارها ما شغلتها سائر الحرف والصناعات للمواد الغذائية مثل صناعة العسل والسكر واستخراج الزيوت وغيرها فى مصر الاسلامية منذ الفتح العربى وحتى سقوط الدولة الفاطمية .

(١٧) من مراجعة فائمة المكوس التى الغاما صلاح الدين الأيوبي لم نستدل إلا على مبلغ وقدره أربعة وثلاثون ديناراً كانت من يوافق الرسوم المفروضة على معامل المزرة ، بينما بلغت المكوس المنبقة على دكان الرهن ومصرف الشيرج والحل بالقاهرة خمسمائة دينار . انقريزى : الخطط ، ج ١ فى ١٩٤ - ١٩٥ ، ط ٠ دار التحرير .

الفصل الثامن

حرفة الدباغة وصناعة الجلود

- ١ - حرفة الدباغة .
- ٢ - صناعة الجلود والأنماط .
- ٣ - صناعة الحصر في مصر الإسلامية .

١ - حرفة الدباغة

ورث الدباغون الأقباط في مصر حرفتهم عن المصريين القدماء (١) ، وكان من أهم أنواع الجلود التي استخدموها في الدباغة جلود الماعز والعجول التي بلغت درجة من التقدم والرقى قبل الفتح العربى لمصر .

وتحفل أوراق البردى العربية بالعديد من الاشارات والرسائل المتعلقة بتربية العجول وأنواع الماشية والأغنام منذ فجر الاسلام ، وكان العرب فيما يبدو يعملون على تأجير العديد من الرعاة المصريين المنتشرين حول القرى المصرية لرعى أغنامهم ومواشيهم والعمل على حراستها والاهتمام بها . كما تشير أوراق البردى أيضا الى ما كان يجرى بين تجار الماشية والأغنام بالفسطاط وبين الأشمونين وغيرها من المدن والجهات المصرية بشأن الحسابات وأثمان العجول والأغنام المرسلة الى العاصمة الفسطاط من أجل بيعها والانتفاع بلحومها وجلودها .

ويصف ابن الكندى لنا فضائل مصر ما كانت تختص به من أنواع البقر الحبشية وغيرها من الحيول وسائر أنواع الماعز والأغنام ولا شك أنها كانت من خير المصادر للحصول على الجلود للعمل على دباغتها واستغلالها فى الأغراض المتعددة كصناعة النعال وفى عمل الروايا والسروج ، وتلك الأرضيات التي كانت شائعة منذ فجر الاسلام للكتابة عليها .

(١) تعنى الدباغة معالجة الجلود باصلاحها وتليينها وإزالة ما يفسدها من العفونة والرطوبة باستخدام مواد قابضة كالقرط من شجر السنط والشب والحوص والسماق والملح وقشور البلوط وغيرها ، وقد عثر على صورة تظهر المصريين وهم يعملون فى دباغة الجلد ، وقد أمسك أحدهم بالجلد لينينه فى وعاء . وذلك على إحدى جدران مقابر الأسرة الثامنة عشرة .

وقد شاعت حرفة دباغة الجلود فى كثير من المدن المصرية وفى جهات متفرقة من البلاد ، ومن أوراق البردى يمكن الاستدلال على أسماء بعض الدباغين فى مدينة ادفو بالصعيد الأعلى ، فمن هؤلاء كان يزيد الدباغ ، حيث ورد اسمه فى عقد زواج مؤرخ فى صفر سنة ٢٣٣ هـ ، كما ورد ذكر صاحب منزل يدعى سواد بن بقونس الدباغ فى عقد بيع مؤرخ فى ذى القعدة سنة ٢٣٩ هـ ، وهو على جلد أحمر .

كما اشتهرت من الصعيد مدينة اخميم (٢) ، حيث كان أهلها يعملون فى حرف كثيرة ومنها عمل القرش القطوع والجلود ، كما يبدو أن الرهبان كانوا يعملون بدير الأنبا شنودة بالقرب من اخميم الى جهة الغرب منها بصناعة الجلود .

ويستدل من أوراق البردى على نشاط أصحاب حرفة الدباغة بمدينة الفسطاط ، حيث كانت الأبقار والأغنام وغيرها ترد اليها ولا تلبث بعد ذبحها على أيدي العديد من الجزارين ، أن يسعى الدباغون للحصول على جلودها . ومن أسماء الدباغين التى احتفظت بها شواهد القبور ، اسم على بن سالم بن أحمد الدباغ (٣) . ومن المعروف أن أعمال الدباغة من الحرف والصناعات المقلقة حيث كان يفرد لها من أطراف المدينة مثل مسابك الزجاج ومطابخ الصابون وغيرها .

وقد اشتهرت الاسكندرية حيث كانت احدى المراكز الهامة لأعمال الدباغة وصناعة الجلود فى عصر الولاة وحتى العصر الفاطمى ، ومن هؤلاء الذين مارسوا حرفة الدباغة ، وكان من المحدثين منصور بن سندی الدباغ ، وقد اشتهر بحرفة دباغ الجلود فى ذلك العصر .

وقد عرف الدباغون منذ فجر الاسلام طريقة صبغ الجلود بالألوان التى يرغبون فيها ، فمنها كان اللون الزيتى ، والبنفسجى والأصفر والأسود ، حيث كان هؤلاء يقومون بغسل الجلود بالماء وعصرها جيداً ثم شدها بعد اضافة شئ من الزاج فى الماء أو البقم ، أو بماء الاهليلج الأصفر وغير ذلك من المواد ، بحسب لون الجلد المراد عمله ، فكانت تظلى بها الجلود ثم تغسل بعد ذلك لتصبح صالحة للاستعمال .

(٢) كشفت الحفائر التى أجريت فى بانوبليس (اخميم) عن وجود نماذج وأنواع من الأحذية أو النعال ترجع صناعتها الى العصر البيزنطى وكانت تستخدم محلياً .
Johnson : Byzantine Egypt, pp. 119-120.

(٣) ورد اسم أحد الجزارين على شاهد من الحجر الرملى باسم ميمون بن أحمد الجزار .
Wiel : Stèles Funeraires, tome, 5, No. 182 .

وتشير كتب الحسبة الى الطرق السليمة التي كان على الدباغين اتباعها فى مزاولة حرفتهم ، وعدم استخدامهم لتلك المواد التي من شأنها الاضرار بالدباغة الصحيحة للجلود مثل دقيق الحنطة أو النخالة واستعمال القرظ اليماني فى دباغة جلود الماعز ، فلا يصح بيع الجلد الا أن يكون يابساً مطوياً فى غير تكسير ، كما لا يصح غش الجلود فلا يباع جلد المعز على أنه جلد الضأن .

٢ - صناعة الجلود والانماط

ويبدو أن المصريين فى أوائل القرن الرابع الهجرى عملوا على اكتساب او معرفة صناعة بعض أنواع الجلود من الزنوج ، كما عملوا على أن يستوردوا من الحبشة الرقيق من جلود الجاموس . وكان التجار الذين يعملون فى عيذاب يجلبون الى مصر الأدم والدرق ، وكذلك جلود النمر وغير ذلك من الخامات اللازمة للصناعات الجلدية المختلفة .

وكان أهم ما يصنع من الجلود فى مصر الفسطاط النعال أو الأحذية، كما يشير ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين الى ذلك ، فهو يذكر أنه كان بالقرب من مسجد الزنج دار ملاصقة لها تعمل على بابها النعال السندية ، كما يذكر لنا شيئا عن حرفة الحدائين أو صناع الأحذية فيقول : « وبالفسطاط غير دار يقال لها دار السلسلة ، منها دار السهمى التى فى الحدائين » .

وتشير أوراق البردى الى صناعة واصلاح النعال الخفتان بمدينة الفسطاط وغيرها من مراكز الصناعة ، فقد ورد فى احدى الأوراق ما يفيد قيمة نعل فى حزام بما يساوى درهم ، وفى بردية أخرى أشارت الى ثمن خفتان بمبلغ وقدره ديناران ونصف ، وفى اشارة أخرى ثمن زوجى خفاف بلغ ديناراً وقيراطاً ونصف القيراط (١) ، وهكذا كانت الأثمان تختلف بحسب صفة تلك الأخفاف (٢) .

(١) ورد ذلك فى قائمة بشتات مختلفة وأشياء أخرى مثل الأخفاف وهى ترجع الى القرن الثالث الهجرى .

جروهمان : أوراق البردى العربية ج ٦ ، ص ٩٠ ، ص ٩٩ .

(٢) وتشير احدى البرديات المحفوظة بمكتبة جامعة هايدلبرج الى ثمن أربعة أزواج خفاف ، وهى الأحذية القصيرة الحفية ، وثمنها بلغ أربعة دنائير . جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١١٣ .

ومن أسماء هؤلاء المشتغلين بصناعة النعال أو الأحذية بالفسطاط .
والتي وردت وفقا لمجموعة من الكتابات الأثرية والشواهد ، منها شاهد
من الفسطاط يرجع تاريخ وفاة صاحبه الى ذى القعدة سنة ٢٣٢ هـ باسم
« هرون بن محمد بن هرون بن نافع الحذاء » ، وكتابة على جزء من شاهد
رخام ورد من الصعيد يرجع تاريخه الى سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م يقرأ عليه
لفظ « الحذاء » (٣) . كما يحتفظ متحف الفن الاسلامى بلوح من الخشب
عليه كتابة محفورة ترجع الى حوالى سنة ٣٠٠ هـ باسم « معاذ ويكنا
أبا طالب عتيق بن عبد الله الحذاء » .

ولا غرو ان راجت صناعة الصنادل أو النعال والأخفاف بمدينة
الفسطاط (٤) ، فقد أقبل الناس عليها وازداد بها العمران لاسيما بعد أن
تم بناء القطائع التي كانت أعمر من أى مدينة كبيرة من مدن الشام كما يقول
البلوى ، واتصلت مبانيها بعاصمة مصر الاسلامية .

كما راجت صناعة الروايا من جلود الماعز وغيرها من الأغنام ، وكانت
حرفة السقائين من الحرف الشائعة فى الفسطاط وفى غيرها من المدن
المصرية منذ الفتح العربى ، وكان هؤلاء الحمالون أو السقاءون يحملون الماء
فى هذه الروايا أو القرب من النيل الى المنازل ، ويصعدون الدور كل طبقة
بنصف دانق ، ومما يذكر أن دار عبد العزيز بن مروان الوالى على مصر
كان يحمل اليها نحو أربعائة رواية ماء فى كل يوم ، وظلت حرفة
السقائين شائعة فى مصر حتى العصر الفاطمى .

ويشير المقرئى الى اهتمام الفاطميين بهؤلاء السقائين ، فقد ورد
ذكرهم فى وقفية الحاكم بأمر الله التي أوقفها على الجامع الأزهر ، كما
يذكر ناصر خسرو أن ماء المدينة يعنى الفسطاط كان ينقله السقاءون من

Wiet : Stetes Funeraires, tome 6, No. 1337.

(٣)

هذا النعل حذورا ، وحذا وقدرها والحذاء بفتح الذال النعل ، والحذاء بالشد مع الفتح هو صانع
النعال ، وهو يختلف عن صانع الزرايين التي كان يستخدمها أهل الريف ، والزرايون
على وزن مسمون وهو المركوب الذى يمشى به الفلاح .

الشربيني : من التحوف ، ص ٢٣٧ .

(٤) وقد عرفت مصر صناعة الصنادل من الجلود منذ العصور القديمة ، فهناك رسوم
على إحدى جدران المقابر الفرعونية وقد جلس صانع النعال على مقعده بجواره أدواته كالمخز
والمثقاب ، وقرن حيوان وعدقة وسكين وآلة ذات ست أسنان ، ويمسك الصانع بقطعة الجلد
التي أعدها على شكل نعل ، ويرى وهو يقوم بثقبها بالمخز وادخال السيور فيها وبمسحها
بأسنانه وهكذا .

النيل ، فمنهم من يحمل الروايا على كتفه ، ومنهم من يحملها على الإبل (٥) وقد لعب السقاةون في العصر الفاطمي دورا هاما في اخماد الحرائق . اذ كانت تؤخذ عليهم التعهدات باستعدادهم للحضور كلما دعت الحاجة اليهم ليلا ونهارا . ولا شك أن تلك الروايا كانت تتطلب مقادير كبيرة من الجلود بعد قيام الدباغين باصلاحها ، وبلغ الأمر في العصر الفاطمي أنه كان يعرف عليهم رجلا أمينا يمنعهم أن يستعملوا شيئا من الآلات الحافظة للمياه الا من الجلود المدبوغة ، وألا تعمل من جلود النعال أو ما يشبه الدرن ونحو ذلك لعدم صلاحيتها كجلود الروايا المستعملة .

ولم تقتصر الحاجة الى الجلود في عمل الروايا على مصر أو القاهرة في العصر الفاطمي ، اذ كان السقاةون ينقلون المياه من نهر النيل والقنوات والآبار والخزانات الى أماكن استعمالها من بيوت ومساجد وحمامات بل كانت المدن المصرية الأخرى تزود بمياه الشرب من النيل . وقد ورد اسم أحد السقائين في عقد بيع على إحدى أوراق البردى مؤرخ في رمضان سنة ٤٤١ هـ في عهد الخليفة المستنصر ، وكان اسم الشاري المكنى بأبي العلاء القزاز بن مينا السقا الساكن مدينة الأشمونين .

كما يظهر أن جلود الماعز والأغنام كانت قاصرة على صنع تلك الروايا ، ولم تعد جلود الأبقار وغيرها من الماشية التي أشار اليها ابن مياتي (٦) مثل أنواع الجاموس وأبقار الحيس كافية لسد الاحتياجات المتنوعة لصناعة الكثير من الأدوات والسلع الجلدية ، فكانوا يستوردون في العصر الفاطمي جلود البقر من الحبشة بما يشبه جلد النمر ويعملون منه النعال الجيدة .

ويشير المقرئى الى كل من سوق الأساكفة وسوق الأخفافين ، وأغلب الظن أن الخفاف كانت خاصة للنساء في ذلك العصر ، وكانت هذه من الأسواق الرائجة بظاهر القسطة ، وربما كان عمل هؤلاء الأخفافين يتأثر في بعض الأحيان بمثل تلك المراسيم أو القرارات التي كان يصدرها الحاكم بأمر الله . فقد ذكر المقرئى أن الحاكم منع النساء من المشى في الطرقات ، ومنع الأساكفة من عمل خفافهن ، وتعطلت حوانيتهن بسبب ذلك . ولا شك

(٥) قبل أنه كان يخدم سكان مصر والقاهرة نحو اثنين وخمسين ألف جمل كان يحمل عليها السقاةون الروايا المصنوعة من الجلد . وسفرنامه ، ص ٤٩ ، ص ٦١ .

(٦) وكان من أنواع الماشية الأخرى الأغنام والبياعر و لشعاري التي كانت تفرص عليها شرائب تتراوح بين ثلاثة وأربعة دنانير الى دينار واحد للكيش أو النعجة ، ومن الشعاري الماعز كل مائة رأس عشرين دينارا . فوائن الدواوين ، ص ٣٥٠ - ٣٥٢ .

أن مثل هذه القرارات سرعان ما كان يزول أثرها بقرارات أخرى حتى وفاة الحاكم بأمر الله في عام ٤١١ هـ .

وقد اشتهرت القسطنطينية بصناعة الكثير من الأدوات مثل عمل الحقائق والسيور والقسي ، وبعمل الانطاع أيضا من الجنود التي كانت تصدر منها الى بلاد الشام . ومن الذين كانوا يعملون بصناعة الأنماط كما ذكر أبو الحسن القفطي في ترجمته صالح بن عادي العذري الأنماطي ، وقد كان نزيل قفط بصعيد مصر ، واشتهر بهذه الحرفة فضلا عن كثرة مطالعته لكتب النحو وغيرها من علوم العربية في عصره . وكانت حرفة الأنماطيين من الحرف الشائعة في ذلك العصر حيث كانت كل ربة بيت تحتفظ في بيتها على الأقل بجلد حيوان مزخرف بزخارف جميلة يفرش على المائدة لتناول الطعام عليها ، وكان اعداد مثل هذه الجلود لهذه الغاية يشكل إحدى الصناعات الجلدية في أسواق القسطنطينية وغيرها .

ولا ريب أنه منذ بداية الفتح الاسلامي ، كانوا يستخدمون بعض انواع الجلود كالماعز بعد تجهيزها في كتابة العقود وغيرها من أغراض الكتابة ، حيث كان الجلد أو الأديم أو الرق من المواد التي سطرت عليها الكتابة المصرية في العصور القديمة (٧) . وبمراجعة النصوص التي وردت على أوراق البردي العربية ، كان منها نصان كتبوا على جلد ، فقد أورد جروهمان عقد بيع مؤرخ سنة ٢٣٩ هـ على جلد أحمر يرجع الى مدينة ادفو بالصعيد ، وهو عبارة عن عقد بيع لمعصرة زيت لأحد الأشخاص ورد على قطعتين من الجلد عليهما بالمدينة المذكورة في أقصى الصعيد . وحينما كثرت صناعة الورق في أوائل القرن الرابع الهجري ، وتقدمت صناعة الكتابة ، أخذت الجلود تستخدم فقط في أعمال تجليد الكتب والمخطوطات .

ومما لا شك فيه أن رواج صناعة الورق ونشاط الحركة العلمية في مصر في العصر الفاطمي ، كان له أثره الملحوظ في تقدم فن التجليد الذي أبدع فيه الصناع ، حيث استخدموا جلود العجول وغيرها في تجليد المخطوطات ، والمصاحف بصفة خاصة . وقد فاقت زخرفة الجلود في ذلك العصر تلك الزخارف الهندسية التي كانت من قبل (٨) ، فقد تم حفظ المخطوطات في جلود جميلة النقوش بديعة الصناعة نسج المماليك على منوالها في صناعة التجليد .

(٧) ويذكر ديمانند أن أقدم جلود الكتب المعروفة في العصر الاسلامي صنعت في مصر . الفنون الاسلامية ، ص ٨٦ .

(٨) ذكر ديمانند أن تلك الزخارف الهندسية في جلود بعض الكتب التفطيسه يرجع تاريخها الى ما بين القرنين الثامن والتاسع الميلاديين . الفنون الاسلامية ، ص ٨٦ .

كما اشتهرت مصر بصناعة كثير من الأدوات المستخدمة فى صناعة العربات الحربية والدروع ، وفى أغراض أخرى عديدة منذ التاريخ القديم (٩) ، ويظهر أن حرفة عمل السروج كانت مشهورة إبان الفتح العربى ، فابن عبدالحكم حينما يتكلم عن تخطيط القسطنطين يشير الى موضع السراجين وأصحاب حرفة السراجة ، فيقول : واختط ابن عبده داره التى فى السراجين ، وفى موضع آخر يقول أيضا : ودار سهل التى فيها السراجين وحمام سهل كان ذلك لعبد الله بن عمرو بن العاص ، .

وتعزز أوراق البردى ما أوضحه ابن عبد الحكم ، فهى تشير الى رواج صناعة السروج والأدوات الجلدية الأخرى اللازمة لوسائل الانتقال من الخيل والحمر والبغال وغيرها ، ففى إحدى الأوراق ورد ما يوضح لنا طلب استعجال إرسال السروج بعد أن طال انتظار صاحبها ، مما يدل على ازدهار السروجيين فى أسواق القسطنطين وعدم قدرتهم على ملاحقة الطلبات المتزايدة عليها من عامة الشعب .

وقد اشتهرت مصر بتربية الخيول العربية والبغال السندية وبعمل أجلال الخيل ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بالعديد من شواهد القبور التى تحمل أسماء بعض السروجيين فى عصر الولاة وفى عهد الطولونيين والاختشيديين .

كما تشير المصادر الى رواج صناعة السروج فى العصر الفاطمى ، وكانت خزائن القصور الفاطمية مليئة بأنواع السروج المصنوعة من الجلد مع أنواع النسيج الفاخر ونقل المقرئى عن صاحب كتاب الذخائر والتحف ما أخرج أيام المستنصر من هذه السروج بلغ عددها خمسة آلاف سرج ، كما ذكر المقرئى أيضا أنه تم صنع نوع جديد منها فى عهد الأمر بإحكام الله ، وكانت خزانة الدرق يصنع بها من الخوذ الجلدية وغيرها من الأدوات الخاصة بآلات الحرب .

وكانت سوق اللجيين من جملة الأسواق التى ازدهرت فى العصر الفاطمى حيث كانت تضم العديد من محال الطلائين وصناع الكفت برسم اللجم والركب وغيرهم من أصحاب حرفة السراجة ، مما يدل على تقدم صناعة الجلود وغيرها فى مصر آنذاك .

(٩) كان قدماء المصريين يصنعون من الجلود فضلا عن النعال الخفيفة واغطية المقاعد تلك الجلود التى التى تشبه الشباك ، وكان بعضها ذا أشكال منتظمة جميلة ، وكانت تستخدم فى تغطية المقاعد والأرائك ، كما كانوا يستخدمون الجلود المخترمة فوق الملابس التيلية لوقايتها ، يرى : الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ، ص ٢٥٧ .

٣ - صناعة الحصر في مصر الاسلامية

كانت صناعة الحصر - وما زالت - من أهم الحرف والصناعات الصغيرة . وقد عرفت مصر صناعة الحصر والسلال منذ العصور القديمة (١) ، وكان المصريون يستخدمون في طريقة لحمة الحصر أنواع لينة من القش ، كما كانوا يستخدمون سيقان الحلفاء الصلبة ، غير أنه يوجد حتى الوقت الحاضر نوع من الحصر يصنع من السمار ، وهذا النوع يزيد في ثمنه عن النوع العادي المصنوع من الحلفاء المنتشرة في سائر أنحاء البلاد (٢) .

وقد لقيت هذه الصناعة رواجا كبيرا في فجر الاسلام لاستعمالها في المنازل لتغطية الأرضيات وبعض الأرائك والمقاعد ونحو ذلك ، وتشير أوراق البردي الى صناعة أنواع الحصر ذات الألوان المختلفة من السمار في في قرى الوجه البحري ، كما اشتهرت منوف والفيوم بصناعة الحصر السمارية . ففي إحدى أوراق البردي التي ترجع الى القرن الثالث الهجري ما يتضمن من بين قائمة الثياب والأدوات المختلفة التي كان أحد التجار يبيعها اثمان حصر تستخدم للصلاة منها ما يبيع بمبلغ ثمانية عشر قيراطا ولاحد الأشخاص الآخرين بتسعة عشر قيراطا ودانق .

وتشير المصادر الى كميات كبيرة من الحصر كان يتم صنعها في الفيوم ، وأن مصانع منوف والفيوم ظلت تمارس هذه الصناعة حتى مطلع القرن

(١) عرف المصري القديم صناعة الحصر منذ فجر التاريخ ، وقد وجدت مصورة طريقة عملها على جدران مقابر بنى حسن ، ويرجع تاريخها الى الأسرة الثانية عشرة الفرعونية .
الفريد لو كاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٣٦ .

(٢) كان نبات الحلفاء لا يزال ينمو حول الجسور والترع والقنوات في جميع أنحاء البلاد ، وأشار اليه المقرئى عند ذكر المكوس والضرائب حيث كانت توجد الحلفاء الواردة من الوجه القبلي ، والواردة على الحصر رمعدية المقياس بسواحل القسطنطينة . المخطوط ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

التاسع عشر . كما يذكر المقرئى أن الحصر كانت تصنع من سيقان نبات
البردى الذى كان ينمو فى وادى النطرون . وقد ظلت الحصر تصنع فى
دمياط كذلك من سيقان البردى حتى سنة ١٧٩٩ م . ويبدو أن هذه
الصناعة كانت مرتفعة التكاليف فى العصور الوسطى .

كانت صناعة الحصر من الحرف الشعبية السائدة ، وفى عهد
الطولونيين والاختشيديين تقدمت الصناعة هذه ، وأصبح المصريون يقلدون
فيها الحصر الشهيرة التى كانت تصنع فى عبادان وكانت عبادان هى أشهر
مراكز صناعة الحصر فى بلاد العالم الإسلامى . ويشير المقدسى الرحالة
والجغرافى إلى شهرة مصر فى ذلك العهد وتفوق صناعاتها فى العديد من
الحرف والصناعات ومنها حرفة عمل الحصر العبادانى الفاخر .

ومن الواضح أن القسطنطينية كانت من أهم مراكز عمل الحصر والفرش
والمطارج وغيرها من الستور التى شاع استخدامها لدى الخاصة والعامة
من الشعب المصرى وكانت أسواقها بالقسطنطينية عامرة ، كما يذكر ابن زولاق
هذا النوع من الحصر العبادانى ، الذى حظى بشهرة فائقة فى مصر
الإسلامية ، وربما حتى وقتنا الحاضر .

ومما لا شك فيه أن منطقة الصعيد الأعلى كانت من الجهات التى
انتشرت فيها صناعة الحصر والسلال والأطباق والمراوح وغيرها من
الخصوس ، وتكشف أوراق البردى عن أهمية ادفو وأنشطة أهلها فى مجالات
اقتصادية متعددة ، ومن المرجح أنها كانت إحدى المراكز الهامة لصناعة
هذه الأدوات المنزلية ، كما ورد ذكر أرمنت وشهرتها منذ العصر البيزنطى
بالعديد من الحرف والصناعات ، وقد أوضح ادفوى أن ابن المنير وإلى
الحكم بأرمنت وادفو كان يصنع المراوح حتى عرف حينذاك بالمراوحى .
ومهما قيل عن تقدم صناعة البسط والتمارق وسجاجيد الصلاة ،
وتلك الأنماط التى كانت تفرش على الأرضيات (٣) وشهرة كل من
أسيوط وأخميم ، أو البهنسا والأشمونين فى منطقة مصر الوسطى فى ذلك
العصر ، فإنه لم تكن بدرجة الاستعمال والانتشار التى حظى بها الحصر ،
أو شيوع الاستخدام لدى عامة الشعب .

ولا شك أن التوسع فى بناء وإقامة المساجد والجوامع فى القرى
والمدن المصرية على السواء ، كان يتطلب المزيد من صناعة الحصر العبادانى
وغيرها من الحلفاء ، وقد ظهر أثر ذلك جليا فى العصر الفاطمى حينما

(٣) يشير ابن دقماق إلى قيسارية الأنماط القديمة بالقسطنطينية فيقول : وبسكنها إسحاب

الأنماط فى سنة ٣٤٧هـ . الانتصار ، ج ٤ ، ص ٢٨ .

تطلبت عمارة المساجد زيادة الاهتمام بها وفرشها بالحصير . ذكر المسبحي أنه جرت الأمور في الشهور المباركة التي يحتفل بها أن تعمر المساجد والجوامع بالحصر والقناديل والزيت وكثرة الاضاءة . كما ورد في وقفية الحاكم بأمر الله التي أوقفها على جامع الأزهر وغيره من الجوامع الفاطمية ودار الحكمة ، ما يتضمن نفقات عمل الحصير اللازم لها وأجرة الصنّاع ونحو ذلك بمبلغ خمسة دنانير .

وقد ذكر ناصر خسرو أن جامع عمرو بن العاص في عهد الخليفة المستنصر كان يفرش بعشر طبقات من الحصير الملون ، بعضها فوق بعض ، ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل . هذا ولم تقتصر مراكز صناعة الحصير في القسطنطينية وغيرها على تزويد المساجد والجوامع بمصر بحاجتها من أنواع الحصر ، إنما كانت تمتد مشهد الخليل بالقدس وغيره من المشاهد والمساجد بالشام بحصر الصلاة ، ويبدو أن الحصر المصرية كانت من الجودة والشهرة حتى قيل أن الواحدة منها بلغ ثمنها ثلاثون ديناراً ، يقول ناصر خسرو في وصف حصر صلاة رآها أثناء زيارته لقبر الخليل عليه السلام ، وكان قد أرسلها أمير الجيوش بدر الجمالي أنه لم ير مثلاً في مكان قط .

كما يظهر أن استعمال الحصير له يكن قاصراً على المساجد (٤) . أو لدى عامة الشعب ، بل كانت قصور الخلافة يوجد بها أنواع الحصير ، وخاصة من الملون ما يشبه البسط التي كانت تعلق فوق الجدران وسميت بالحائطية نسبة إلى ذلك . ومن الطريف أن نذكر أنه في سنوات الشدة العظمى ، حينما اشتدت المجاعة ولم يجد الناس ما يقتاتون به ، فإن الخليفة المستنصر كان يجلس على حصر في قاعة القصر بعد أن نهبت خزائنه ، ولا يحسد على حاله (٥) . ويذكر المقرئ أنهُ أخرج من الحصر والأنخاب الساماني المطرزة بالذهب والفضة وغير المطرزة من المخرمة والطيور والفيلة المصورة بسائر أنواع الصور الشيء الكثير ، وهكذا كانت القصور الفاطمية حافلة بأنواع الحصر الساماني وما يفوق العبداني وغيرها مما كان

(٤) كانت المصاطب والدهاليز التي يشقها الخليفة وبرفته الوزير القاطمي تفرش بالحصر العبداني وذلك في طريقه للمشاركة في الاحتفالات بوفاء النيل .

المقرئ : المخطوط ، ج ٢ ، ص ٢٥٠ .

(٥) لم يبق سوى ثلاثة من العبيد يحرسونه . وكانت ابنة عالم اللغة والنحو ابن بابشاد ترسل إليه بالقليل من الخبز .

Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 150.

الصناع يعملونه في خزانة الفرش التي كان يحضر اليها الخليفة ويطوف بها ويستخبر عن أحوالها ، ويأمر بادامة الاستعمال .

ومما يدل على رواج صناعة الحصر في عصر الفاطميين وكثرة المناسج في القسطنطينية ما ذكره عبد اللطيف البغدادي من أنه كان بمصر تسعمائة منسج بها ، لم يبق منها الا خمسة عشر منسجا ، وذلك بسبب وقوع المجاعة سنة ٥٩٨ هـ .

ويمكن معرفة أثر تلك المجاعات والأوبئة في العصور الوسطى على أصحاب الحرف والصناعات من أمثال الحزازين والعطارين والأساكفة والحياطين والحصرين مما علق عليه البغدادي وما سببته تلك المجاعة حين قال : فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقي من الحصرين أو أقل من ذلك .

ومهما يكن من أمر ، فان المصادر التاريخية تجمع على رواج صناعة الحصر في العصر الفاطمي ، وقد بلغ من أمر الحصرين وانتشار مناسجهم أو مصانعهم أنه كان يعرف عليهم رجلا ثقة خبيرا بصناعتهم كسائر الصناعات الأخرى ، حيث يؤخذ عليهم عدم صناعة الحصر الا من أنواع السمار الجيد وغيرها من المواد المناسبة لصباغتها .

الفصل التاسع

الطوائف الحرفية ودورها في الحياة العامة

- ١ - نظم وتقاليد طوائف الحرفيين •
- ٢ - حياة الحرفيين الاقتصادية •
- ٣ - طرق الاشراف والرقابة على أرباب الحرف والمهن المختلفة •
- ٤ - مكانة اصحاب الحرف الاجتماعية •

١ - نظم وتقاليـد الطوائف الحرفية فى مصر الاسلامية :

تشير المصادر الى انتظام سائر الحرف والصناعات فى شكل نقابات منذ العصر الرومانى والبيزنطى ، وقد استخدم ذلك النظام فى جمع الضرائب العديدة وتقرير الالتزامات الأخرى على المصريين . وكانت عضوية النقابة تنتقل بالوراثة من الأب الى الابن ، كما كان يتولى رئيس النقابة Epistate تادية ما على أفراد نقابته من ضرائب .

ويرجع الاهتمام بتلك النقابات من جانب الدولة الحاكمة سواء كانت الرومانية أم البيزنطية قبل الفتح العربى للبلاد ، الى ارتباطها بضريبة القمح *Annona* لضمان وصولها فى مواعيدها الى العاصمة البيزنطية . وقد تطلب النقل للقمح بالنيل نظاما محكما قويا ، يقضى بجمع السفن فى أماكن معينة وانتظام أصحابها فى نقابة ليتضامنوا فى تحمل المسئولية ، وذلك كبقية المشتغلين فى جمع هذه الضريبة وانخراطهم فى نقابات أخرى .

وهكذا كان كل الذين يزاولون حرفة أو صناعة يؤلفون نقابة سواء من الرجال أو من النساء . وكان لابد للحرفى أو الصانع من الحصول على شهادة من النقابة المختصة بحرفته ليصرح له بمزاولتها ، وقد دعمت الدولة الوضع القانونى لهذه النقابات ، لتتمكن من احكام سيطرتها على أعضائها وضمانا للوفاء بالتزامهم نحوها (١) . واستمرت النقابات تؤدى دورها فى جمع الضرائب بمصر حتى الفتح العربى ودخول الحكام العرب الذين أبقوا

(١) ومن الوثائق التى تشير الى دور النقابات فى الاحتجاج على الضرائب وأعمال القسوة فى جمعها ، وثيقة ترجع الى القرن السادس الميلادى ، فى أفروديتو (كوم اشقاو) تعاوت النقابات مع موظفى الكنائس فى الاحتجاج على معاملة باجرك مدينة اثينوبولس . لما اشتهر به من الشدة فى جمع الضرائب .

على هذا النظام معمولاً به كسائر النظم والتقاليد الموروثة عن العهد البيزنطى .

وفى بردية من أكسيرنخوس (البهنسا) نرى تعظيم الصناع فى شكل نقابة تخضع للدولة ، وقد فرضت على أعضائها ضريبة الرأس ، وكان يدفعها الأسطى ، وأحياناً أخرى المسئول عن العامل ، وكانت النقابة مسئولة فيما يبدو عن عمل أعضائها ، وفى بردية أخرى من القرن السابع الميلادى يشكو مراقب عمال أن اثنين من عمال الطوب تركا عملهما الذى تعاقداه عليه قبل أن يتماه ، وطالب المراقب باحضارهما ، وأخذ الضمان الكافى باتمامهم للعمل .

وكان من أهم النقابات فى ذلك الوقت نقابة النساجين التى لعبت دوراً هاماً فى الاحتجاج على قسوة الضرائب المفروضة ، وتلك الاضطرابات التى وقعت قبيل الفتح العربى ، وكان هؤلاء النساجون مرتبطين بنقابات تعتمد الحكومة عليها من أجل تزويد الجيش ورجال الأمن وغيرهم من موظفى الدولة بكميات كبيرة من الثياب والأقمشة .

ويبدو أن ازدياد احساس المصريين الأقباط بذاتيتهم بعد كل ما تعرضوا له من ألوان الشدة والقسوة والظلم والاستبداد ، قد شجع هؤلاء على تزايد انخراطهم فى تنظيمات وهيئات اجتماعية كالنقابات ، لكن الادارة البيزنطية سرعان ما كانت تعمل على بسط نفوذها واحكام سيطرتها عليها من أجل خدمة مصالحها ، لا خدمة أفراد النقابة المتضمنين اليها .

وهكذا ورث العرب نظام النقابات من بين تلك النظم والتقاليد البيزنطية التى أبقوا عليها ولم يحاولوا القضاء عليها ، ولم يطرأ أى تغيير يذكر سوى شيوع استخدام الطوائف والأصناف واختفاء لفظ النقابات فى عصر الولاة والعصور اللاحقة (٢) .

(٢) كان ذكر النقابات شائعاً فى مصر ابان الفتح العربى ، فورد مثلاً فى برديات أكسيرنخوس (البهنسا) ذكر نقابة الصياغ ، وقائمة بأنواع الخلى مرفوعة الى مسئول السوق .

The 'Oxyrhnus papyri, part, 41, No. 1655, pp. 151-155.

بينما أصبح أهل الحرف فى المدن الإسلامية يشار اليهم بالأصناف وأصحاب المهن وأهل الصنائع وبالطوائف ، حيث قويت الرابطة بينهم وصار كل يشعر بالارتباط الوثيق بزملائه من أهل حرفته . وصار من أقوالهم المأثورة فى مصر وفى غيرها من الأمصار الإسلامية « الصنعة نسب » .

اليقوبى : البلدان ، ص ٢٢٨ . ص ٢٤٦ ، عبد العزيز الدوى : تشوّه الأسماء فى الحرف فى الاسلام ، ص ١٤١ .

ويعزى المؤرخون المسلمون نشأة الطوائف الى اتساع المدينة الاسلامية وازدهارها وكثرة سكانها ومراققتها ، وتوافر الأعداد الكبيرة من هؤلاء الحرفيين والصناع للنهوض بمتطلبات ذلك المجتمع ، وقد ربط ابن خلدون بين قيام المدن واستبحار العمران بها وبين الطلب المتزايد على أرباب الحرف وتقدم وازدهار الصنائع والفنون المختلفة .

واذا كان قول ابن خلدون ينطبق على مدينة القسطنطينية التي اختطها عمرو بن العاص عام ٢١ هـ ، والتي سرعان ما تزايد عدد سكانها وتبحرت في العمران . فان الأمر لا ينطبق بحال على المدن المصرية الأخرى كالاسكندرية التي كانت لن أهم مراكز الحرف والصناعات في زمن الفتح ، واستمرت كذلك في صدر الاسلام ، وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وغيرها من المدن التي كانت تضم طوائف الصناع والنقابات التي أشرنا إليها ، وظلت كذلك بعد الفتح العربي في منتصف القرن السابع الميلادي (٣) .

والواقع أنه لا مجال للتوقف طويلا حول نشأة الطوائف المختلفة في مصر ، أو لهذا الجدل الذي ثار بين الباحثين الغربيين ، فقد أكدت المصادر والأدلة على استمرار أرباب الحرف والصناعات في القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، في مزاولة مهنتهم المختلفة ، وكانوا من المصريين الوطنيين سواء في ذلك من اعتنق منهم الاسلام ومن ثبت على المسيحية .

ومن الطبيعي أنه كان يحدث عندما يتجمع أصحاب الحرف في موضع واحد ، أن يصبح لكل حرفة سوق أو مجموعة من الحوانيت ضمن اطار السوق الكبير ، وقد ساعد نظام التخصص في انتاج السلع المختلفة في عصر الولاة على زيادة تماسك وتكتل الصناع ، كما كان تطور الحياة

(٣) اختلف الباحثون في نشأة الطوائف أو الأصناف الاسلامية وتطورها في العالم الاسلامي ، فبينما يرى روبرت لوييز أن هذه الطوائف كانت قريبة الشبه بطوائف الحرف التي كانت سائدة في العصر البيزنطي ، يذهب برنارد لويس في بحثه عن النقابات الاسلامية الى القول بأنه لا توجد أدنى صلة او اشارة الى وجود نقابات اسلامية قبل القرن العاشر الميلادي ، وفي أنها كانت من نوع يختلف تماما عن النقابات التي كانت موجودة في مصر ابان الفتح الاسلامي للبلاد . ويؤيد جواتياين زميله الباحث اليهودي فيما ذهب اليه ، فهو لم يعثر على كلمة نقابة ولم يرد ذكرها في أوراق الجنيزة التي عثر عليها بالقسطنطينية القديمة وفام بفحصها وعلق على ذلك قائلا : « لأنه لم يكن هنالك مثل هذا النظام » .

الاقتصادية من العوامل الهامة فى تقوية الروابط فيما بينهم (٤) خاصة اذا تذكرنا ان غالبية الصناع ومعظم الحرفيين كانوا من أهل الذمة .

وفى عصر الولاة برز دور العريف فى المدن والقرى المصرية على السواء ، وقد كان بمثابة شيخ الطائفة والمشف على مصالحها ، فهو ينظر فى أمورهم ، ويمنع من يدخل منهم من غير أهل الحرفة ، كما كان عليه ألا يقطع أمرا من الأمور المتعلقة بهم الا بموافقة العرفاء الآخرين ، ويذكر ابن عبد الحكم أن عمرو استعان بالعرفاء فى تقشير الجزية والخراج وجبايتها ، كما استعان بهم فى اصلاح الطرق وإقامة الجسور والأسواق .

ويمدنا ابن عبد الحكم كذلك بأسماء بعض العرفاء من العرب وذلك

عند حديثه عن خطط القبائل العربية بالقساط ، فقد ذكر منهم عمران ابن ربيعة وكان عريفا على الصدف ، حيث أقام عليهم عريفا عددا من السنين ثم عرف ابنه من بعده . وكان الملامس بن جذيمة عريف حضرموت ، يشرف على مصالحهم ويرعى حقوقهم . وما يذكر أنه وقع بين مسلمة بن مخلد والى مصر من قبل معاوية وبين الملامس خلاف ، فاستأذن الملامس معاوية فى التوجه الى فلسطين بعشيرته ، فأذن له ، فكره الالى مسلمة منه ذلك ، وعمل على منعه من الخروج .

والواقع أنه ليس لدينا من المعلومات ما يكشف النقاب عن دور العرفاء والطوائف المختلفة فى مواجهة الدولة أو مشاركتهم فى تلك الثورات الشعبية التى نشبت فى الفترة من سنة ١٠٧ هـ حتى مقدم الخليفة العباسى المأمون عام ٢١٧ هـ من أجل اخماد تلك الثورات . فقد ثار الأقباط سنة ١٠٧ هـ فى الوجه البحرى فبعث اليهم الالى المصرى الحر بن يوسف جيشا لمحاربتهم ، فقتل منهم نفر كثير . كما تتابعت ثورات القبط من أجل كثرة الأعباء والضرائب ، فثار أقباط الصعيد ، وحاربوا عمال الحكومة فى سنة ١٢١ هـ ، فبعث اليهم حنظلة بن صفوان والى مصر (١١٩ - ١٢٤ هـ) جيشا لمحاربتهم فانتصر عليهم وقتل عدد كبير منهم . ولا نطن أن أصحاب الحرف وغيرهم من العامة كانوا يعيدين عن تلك المنازعات والانتفاضات الشعبية فى وجه الولاة .

(٤) فى عصر الولاة برزت بعض الطوائف مثل صناع التسيج فى دور الطراز العامة والخاصة فى المدن الصناعية المصرية ، كما شجع احتكار الدولة لاناك ورق البردى ، وفى بناء السفن بالشغور المصرية ، وعماس سك النقود فى الاسكندرية والقساط وقد شجع ذلك على وضوح دور الحرفيين والطوائف التى كانوا يشمون اليها . ووبرت لوبرت : محمد وشرلمان ، اعادة نظر . ص ١١٣ .

ويبدو أنه كان لطوائف الحرفيين في الاسكندرية دور ملموس في مواجهة هؤلاء الأندلسيين الذين نزلوا المدينة على اثر وقعة الربيض بقرطبة في رمضان سنة ١٩٨ هـ . يتضح لنا ذلك فيما ذكره المقرئى من أن قصابا اعتدى على أحد الأندلسيين ، فكان ذلك سببا في ثورتهم ، وكان أن امتنع أهل السوق عن بيع ما كان يلزمهم ، وقد ظهر من تماسك أصحاب الحرف مع العامة بالثغر ، وعملوا على اخراجهم من الاسكندرية بعد أن قتلوا منهم عددا وانهزم الباقون الى مراكبهم .

أما عن ظهور طائفة الصوفية بقيادة أبى عبد الرحمن الصوفى ، فيبدو أنه لم تكن هناك صلة بينها وبين طوائف الحرفيين في مدينة الاسكندرية ، ونعرف ذلك من وقوف هذه الطائفة بجانب الأندلسيين في مواجهة الطوائف الحرفية ومحاولة التغلب عليها . هذا وليس لدينا من الأدلة التاريخية ما يشير الى وجود علاقة بين طائفة الصوفية التى ظهرت فى نهاية القرن الثانى الهجرى وحركة الفتوة أو ما أطلق عليها بفتوة العارفين أو الصوفية التى ظهرت فى بغداد وكان شعارها المرقعة (٥) . ولعل السبب يرجع الى أن الطوائف الحرفية المصرية لم تكن تشجع على ذلك ، لاسيما وأن أرباب الحرف كانوا فى أكثرهم من أهل الذمة حتى سقوط الدولة الفاطمية .

أما القول بأن الطوائف الحرفية كان لابد من انتساب كل طائفة منها الى احدى الطرق الصوفية ، فليس من الميسور اثبات ذلك فى ذلك العصر ، وربما حدث مثل ذلك فى العصرين الأيوبى والمملوكى أو فى أواخر العصور الوسطى (٦) .

وهناك من يربط بين نشاط طوائف الحرفيين فى ذلك الوقت ونشاط العامة من أهل المدن الاسلامية كالقسطنطينية وبغداد وغيرها ، وأن بوادر الحيوية والتنظيم المستقل تقع فى تلك الفترة التى بدأت فيها حركة العامة فى بغداد منذ القرن الثالث الهجرى .

وعلى كل حال فليس لدينا من المصادر ما يبيط اللثام عن دور التنظيمات الحرفية فى عصر الطولونيين . وان كانت الأمور قد ظلت كما

(٥) توسعت حركة الفتوة فى بغداد ، وكثرت فئاتها وأحزابها ، وأعمسارت المصادر الى تلك الفتنة التى نشبت فى العاصمة بسبب استفزاز العامة للفرد وذلك فى حوادث سنة ٤٦١م . الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٢٠ ، عبد العزيز الدوى : نشوء الأصناف والحرف فى الاسلام ، ص ١٦٢ .

(٦) يذكر حسين مؤنس أنه كان لابد من الانتساب الى احدى الطرق الصوفية حيث تكون الطائفة الحرفية اما شاذلية أو تيجانية أو رفاعية أو غيرها من الطرق الصوفية . عالم الاسلام ، ص ٢٤٢ .

هى فى فجر الاسلام ، فكان لكل طائفة من الصنائع ما يشعبه القسابة أو الطائفة يرأسها شيخ من شيوخ الصنعة أو الحرفة ، خاصة بعد أن تم تعمير القطائع وتزايدت بها حركة العمارة حتى اتصلت بالفسطاط ، وصار الكل بلدا واحدا ولكل حرفة سوق أو قطيعة خاصة بها .

ويصف لنا البلوى نشاط حركة البناء والعمران وطوائف الحرفيين بالقطائع فيقول : « وبنيت بها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران ، وسميت أسواقها فليل سوق العيارين ، وسوق الطباقين ، وكان يجمع الصياوف والخبازين والحلوانيين وغير هؤلاء من الحرفيين ، وكان لكل منهم سوق حسن عامر حين أصبحت القطائع مدينة كبيرة . ويبدو أن سياسة التسامح الدينى التى اتبعها أحمد بن طولون وأبنائه من بعده مع أهل الذمة ، كان لها أثرها الواضح فى نشاط الحركة الصناعية ، ولم نسمع عن مضايقات تعرضوا لها أو منازعات وقعت فيما بين طوائف الحرفيين منهم . ويشير البلوى الى السياسة الحكيمة التى اتبعها ابن طولون مع الأقباط المصريين وكيف كان يحسن اليهم (٧) .

وبعد سقوط الدولة الطولونية بقليل ، شارك الحرفيون بالفسطاط وهم يشكلون الجزء الأكبر من سكانها فى الدفاع عن العاصمة ضد الغزو الفاطمى ، ففي سنة ٣٠٢ هـ خرج حباصة بن يوسف على رأس جيش من قبل الفاطميين بالمغرب يريد غزو البلاد ، ويصف المقرئى نشاط أهل الفسطاط فيقول : ونودى بالنفير فى الفسطاط ، فلم يتخلف أحد من الخاصة والعامة عن الخروج الى الجيزة لمواجهة جيوش الغزو الا من عجز عن الحركة لمرض أو عذر .

وتظهر مشاركة الحرفيين وأهل السوق فى عصر الاخشيديين ، فمن ذلك أنه لما عاد الاخشيد الى مصر بعد خروجه لمواجهة ابن رائق القائد العباسى ، قام أصحاب الحرف والتجار بتزيين الشوارع والأسواق والمشاركة فى الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة عودته . وكذلك الأمر حينما ورد كتاب الخليفة العباسى المتقى فى سنة ٣٢٩ هـ باقرار الاخشيد فى امارته على البلاد قام أهل السوق بتزيين حوانيتهم بما يتناسب وصناعة كل منهم .

(٧) فمن ذلك ما ذكره البلوى من أنه حينما سمع ابن طولون بأن أحد قواده قد اغتصب مبلغا من المال من أحد الرهبان ، عمل على رده والاحسان اليه وتفريم القائد عقابا له على سوء فعله . سيرة أحمد بن طولون ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

ويتجلى في ذلك العصر الشعور بالكيان الاجتماعى لدى طوائف الحرفيين والتماسك الحرفى ، ومن أمثلة ذلك ما تشير اليه أوراق البردى والمصادر التاريخية الأخرى ، وتتردد أسماء الأعلام من هؤلاء الحرفيين والصناع من أمثال الزيآث (٨) والزجاج والطحآن والورآق والضراب ، وغيرهم ، حيث أصبحت النسبة للحرفة أو الصناعة فى القرنين الثالث والرابع شائعة ومنتشرة فى الأوساط العامة فى مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامى .

— تقاليد الطوائف الحرفية فى مسائل التدريب والترقى :

انخرط أصحاب حرفة النسيج وما يتصل بها من أعمال الصناعة والتطريز والزخرفة فى نقابات منذ العصر البيزنطى (٩) ، كما انضم غيرهم من الأحرار من صانعى الأدوات الجلدية وعمال البناء والسباكين ونحو ذلك فى نقابات أخرى . وتشير أوراق البردى الى قيام تلك النقابات بمساعدة هؤلاء الحرفيين وتدريبهم على يد أسطوات لهم فى المهنة أو الصناعة ، وقد وجدت عقود تدريب ترجع الى ذلك العصر ، وتتضمن مدة التدريب والأجر . وكان ولى أمر الحرفى أو سيده أحيانا يتكفل بأمر أطعمته وكسائه خلال فترة التدريب ، وفى أحيان أخرى كان المدرب نفسه يتكفل بهذا الأمر .

وفى بردية عثر عليها بجهة أكسيرنخوس (البهنسا) أوضحت أن إحدى السيدات أرسلت جاريتها الصغيرة لتتعلم حرفة النسيج لمدة أربع سنوات ، وفى حالة مرضها كما تذكر البردية ، عليها أن تبقى أياما مساوية لما تغيبته . وهكذا لم يقتصر الأمر على تدريب الصبيان على مزاولة المهن واكتساب الخبرات ، وإنما تعداه الى الفتيات وذلك قبيل الفتح العربى للبلاد .

كما تشير المصادر الى أن الآباء كانوا يحاولون معرفة ميول الأبناء قبل تسليمهم الى مدربيهم لكي يمارسوا أية حرفة أو صناعة من الصنائع ،

(٨) وردت كلمة الزيآث فى أكثر من موضع على شواهد القبور .

Wiet : Steles Funeraires, tome 4, p. 88.

(٩) من الحالات التى وردت فى قانون الدولة الاقتصادى وذكرها Johnson

تلك الحالة التى أوضحها أحد العقود ويرجع الى سنة ٦١٥م ويتضمن أحد الصباغين من الذين قبلوا العمل والتدريب لمدة عامين فى مدينة يانوبوليس فى مقابل أجر اجمالى من القمح . وكان يقطن بالقرب من أيديوس بصعيد مصر . Economic Studies, p. 123.

وقد جرت العادة بأن يتخذ الأبناء حرفة آبائهم (١٠) ، غير أنه لم يكن هناك ثمة ما يقتضى اتباع هذه القاعدة على الدوام ، فالأبناء عليهم أن يتخذوا من الحرف ما يشاءون عن طريق التلمذة الصناعية (١١) .

ومن الملاحظ أن نمو المدن الصناعية مثل الإسكندرية قبل الفتح العربى وازدهارها بالعديد من الحرف والصناعات ، وقد ساعد على اجتذاب أعداد كبيرة من سكان القرى المصرية وانضمامهم الى طوائف الحرفيين واكتسابهم المهارات الفنية عن طريق تدريبهم ومزاولتهم للمهن المختلفة . وتشير بعض سجلات الضرائب الى أن بعض أهالى فيلادلفيا من نواحي الفيوم ، نزحوا الى الإسكندرية وعملوا فى الصناعات والمهن التى تدربوا عليها .

ومن الملاحظ أن تقاليد الطوائف الحرفية فى مصر بالنسبة للتدريب وغير ذلك من النظم قد استمرت على حالها بعد الفتح العربى . وكان لابد للصبى قبل أن يصبح صانعاً ماهراً أن يسلك عدة خطوات ، ثم يحصل بعدها على شهادة من شيخ الطائفة بأنه حذق الصنعة ، فينادى الشيخ به معلماً (١٢) ، ويصبح عضواً فى طائفة من الطوائف . ومما يؤيد ذلك ما ورد فى كتابة أثرية ترجع الى عصر الولاة فى مصر باسم « سلامة الأسطة المؤرخة فى شهر المحرم سنة ٢٠٧ هـ / مايو - يونية ٨٢٣ م » .

(١٠) جاء فى رسائل اخوان الصفا فى القرن الرابع الهجرى أن اليونانيين كانوا يجاولون معرفة ميول الأبناء نحو المهن التى يرغبون فى اختيارها منذ الصغر . رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

(١١) كلمة تلميذ معربة عن السريانية ، وهى تطلق على المتعلم على يد أستاذ ، وربما أطلقت على الموظف الذى لا يزال تحت التدريب أيضاً ، كما شاع استخدام الكلمة على الصانع الذى ينتسب لأستاذ فى صناعته ، وذلك كما ورد فى بعض الكتابات على التحف الفنية العربية .

حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ، ج ١ ، ص ٣٣٨ .

(١٢) استخدم لفظ معلم كلقب للمصانع الماهر الذى يتمتع بشيء من الاشراف على غيره من الصناع ، وكان له فضل تعليم غيره من أبناء حرفته ، وقد وردت بهذه الدلالة على كثير من التحف والآثار العربية ملحقه بأسماء صناعاتها من بنائين وتجارين وصناعات الأدوات المعدنية .

ومن الجدير بالذكر أن كلمة أسطى ما هي الا لفظة الأستاذ (١٣) ، وقد شاع استخدامها في ذلك العصر والعصور اللاحقة ، وأطلقت بصفة خاصة على المهرة من الصناع مثل البنائين والدهانين والرسامين ونحوهم . ومما ساعد على تعلم المهن اكتسابها عن طريق التجارب والخبرة ، ولم تكن سرار الصناعات تدون ، بل كانت تنقل شفاهيا وعمليا من أرباب الصناعة وشيوخها وأساتذتها الى أبنائهم داخل الحوانيت والمصانع .

وكما ذكر ابن خلدون فإنه لابد للصانع من معلم ، وعلى قدر جودة التعليم وملكة المتعلم تكون المهارة وحصول الملكة ، وكان من تقاليد الطائفة الحرفية أن يحتفظ أفرادها بالأسرار الفنية الدقيقة للصناعة التي اكتسبوها بطول المران والممارسة والخبرة ، كما كان من تقاليد الطوائف ألا يدخلها أى فرد جديد ، اذ من شأنه أن ينافس أصحابها الأصليين ، فانهم كانوا لا يعرّون أحدا على طرق صناعتهم ، الا أن يكون قد أتى ليحل محل أحدهم وفى هذه الحالة يقبل بشروط خاصة .

وتجدر الإشارة هنا الى أنه كان من النادر قيام بعض شيوخ الحرف او المعلمين فى عصر الولاة بوضع مؤلفات ، يمكن الاستفادة منها فى أعمال التدريب ، وان كنا نلمح شيئا منها يخص صناعة الكيمياء (١٤) ، أو فى صناعة الزجاج والكبريت والعقاقير الطبية وغيرها (١٥) .

ومن الواضح أن الكتب التي تم تصنيفها فى عهدى الطولونيين والاختشيديين ، كانت من وضع العلماء المختصين فى مجال العلوم

(١٣) شاع استخدام لفظ « الأستاذ » فى الدول الإسلامية بدلالات وظيفية مختلفة ، فمثلا جرت العادة فى بعض العصور أن تطلق على كل من أتقن حرفه وبلغ درجة رفيعة فيها سواء أكان من رجال الدين أو العلم أو رجال الدولة أو ذوى الحرف والصناعات المختلفة ، ومن أشهر الألقاب التى سادت فى العصر الفاطمى لقب « أستاذ معنك » ويعنى أنه من ذوى المناصب الهامة فى البلاط . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ، ج ٢ ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(١٤) شارك الأمير العربى خالد بن يزيد بن معاوية فى ترجمة مجموعة من المؤلفات القديمة فى مجال صناعة الكيمياء مع علماء الإسكندرية ونقلها الى اللسان العربى . ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ١ ، ص ١٠٣ . ومن أهم المؤلفات التى صنفها ذوالنون المصرى كتاب الركن الأكبر وكتاب الثقة فى الصناعة وغيرهما فى مجال صناعة الكيمياء ، وقد تولى العالم والصنوفى المصرى عام ٢٤٦هـ . ابن النديم : الفهرست ، ص ٥١٧ ، ابن مساعد الأندلسى : طبقات الأمم ، ص ٩٥ .

(١٥) ومن أقدم المؤلفات التى ورد ذكرها فى المصادر كتاب الأخطار والثرائب والصناعات وكتاب آخر بعنوان : غش الصناعات وهما من مؤلفات الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ . ابن النديم : الفهرست ، ص ٥١١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

العقلية (١٦) ، وليس بين أيدينا من الأدلة التاريخية ما يشير الى أن شيئاً منها كان من تأليف شيوخ الطوائف أو المعلمين من أصحاب الصنائع في ذلك الوقت . كذلك فإنه ليس هناك ما يدل على أن هؤلاء المعلمين كانوا يستعينون في تدريب صبيانهم وتلقينهم أسرار الصنعة ، بمؤلفات أو تصانيف يقرأونها عليهم خلال فترات التدريب .

ويبدو أن الأمر قد اختلف في العصر الفاطمي ، فقد شهدت البلاد تطوراً كبيراً في مجال الفنون والصناعات المختلفة ، ونشاطاً ملحوظاً في الحركة العلمية وازدهار العلوم والآداب ، إذ نرى العديد من المؤلفات التي وضعت في مجال صناعة الزجاج وسك النقود والصناعات المعدنية الدقيقة (١٧) ، وفي صناعة التشييد والبناء (١٨) ، وكان أكثر المؤلفات في صنعة الكيمياء وتطبيقاتها العملية ، وكانت أكثر من أن تحصى كما ذكر ابن النديم . ولا شك أنه أمكن الاستفادة منها في مجال التدريب والتعليم ، وهذا يدل على أن الصانع في ذلك العصر أصبح رجلاً متعلماً يمارس صنعته على أصول مقررة مسطورة في كتب وضعها رجال الصنعة الممارسين لها . ومن العلماء البارزين في نفس الوقت ، فهم يستخدمون المصطلح الدارج بينهم والعبارات التي لا يفهمها إلا الصناع أنفسهم .

ومما لا شك فيه أن نظام الطوائف الحرفية ، واتباع تقاليدها ، كان من العوامل الهامة للمحافظة على مستوى الحرف واثقان الصنعة ، فقد كانت تلك الطوائف من داخلها بمثابة مدارس فنية تشرف على أعداد الصبية

(١٦) اشتهر من هؤلاء العلماء في صنعة الكيمياء أحمد بن محمد بن سليمان ، وكان يعد من تلاميذ جابر بن حيان ، وله مؤلفات كثيرة وصلت الى بغداد مثل كتاب الافصاح والايضاح وكتاب المعجونات ، وكتاب التخمير ، وقيل ان كتاب الافصاح والايضاح لابن عياض المصري . ومن هؤلاء الذين ذاع صيتهم في علم الصنعة عثمان بن سويد الاخمصي ، وقد أسندت اليه رئاسة الصنعة في الكيمياء قبيل الغزو الفاطمي لمصر ، وله مؤلفات عديدة منها كتاب الكبريت الأحمر والابانة ، وكتاب التصحيحات ، وكتاب التصعيد والتقطير .

ابن النديم : الفهرست ، ص ٥١٩ ، ص ٥٢٠ .

(١٧) توصل ابن يونس المصري الفلكي في عهد الحاكم بأمر الله لأول مرة الى اختراع الرقاص بندوق الساعة التي عرفت بالساعة الدقاقة ، وبذلك ظهرت أول أنواع المزاول أو الساعات في العصر الفاطمي . سيديو : تاريخ العرب العام ، ص ٣٤٧ . كما ذكر القفطي أن ابن السنبدى عالم الفلك الذي كان يقيم بالقاهرة في العصر الفاطمي الأول ، كان خبيراً بصناعة الآلات الفلكية . أخبار العلماء ، ص ٢٨٦ .

(١٨) وقد أشاد Cajori بالمؤلفات التي وضعها الحسن بن الهيثم في مسائل الهندسة والرياضيات والتي حملت جملة من الاصطلاحات الهندسية .

A History of Mathematics, p. 109.

ليكونوا بدورهم صناعا ، وقد لاحظ فيت على الكتابات التي نقشت على مباني العصر الفاطمي أنه بجانب الكلمات العربية بناء ومهندس ، ورد اسم الذي أشرف على البناء مسبقا بكلمة معلم . واستخدم أبو صالح الأرمني العبارة نفسها في قوله : « لا يزال قبر المعلم سرور الجلال قائما في هذه الكنيسة حتى اليوم » . وهكذا يمكن القول بأن كلمة معلم المنقوشة على المباني الفاطمية كان يقصد بها الصانع المستقل الذي حذق أسرار المهنة واستطاع أن يشرف على تلقينها للصبيان الراغبين في التدريب وفي مزاولة هذه الحرفة أو تلك في المستقبل .

ومن مظاهر حرص الفاطميين على تدريب الصبيان وغيرهم من النساء ، ما ذكره المقرئ أن النساء والصبيان من الأسرى لديهم ، كانوا عند دخولهم إلى القصر يستخدمون ويعلمون الصنائع المختلفة . كما أوضح أيضا أن الخليفة الظاهر اتخذ حجرا لماليكه وعلمهم أنواع العلوم وسائر فنون الحرب . ولا شك أن اهتمام الفاطميين بمسائل التدريب والتعليم كان له أثره في تشجيع الطوائف الحرفية على مساهمة حكاهم والعمل على تلبية احتياجاتهم من الخبرات والكفاءات المطلوبة .

وكما نلاحظ العلماء وغيرهم من الأطباء وذوي المناصب في الدولة الفاطمية يحرصون على تعليم صبيانهم ، يذكر المسيحي أنه كان لأبي الفرج الطبيب صبي قد برع في التعليم ، وأن عمره لم يكن قد بلغ الرابعة عشرة من عمره حين وفاته سنة ٤١٥ هـ .

وتدل أوراق الجنيزة على مدى حرص الآباء وشغفهم بتعليم أبنائهم صنعتهم في ذلك الوقت ، كما تشير إلى انضمام أعضاء جدد إلى الطوائف الحرفية خلال العصر الفاطمي (١٩) .

ومن تقاليد الطوائف الحرفية في ذلك العصر اختيار شيخ الطائفة (٢٠) ، وقد جرت العادة ألا يصل إلى هذه الرئاسة إلا برضاء كبار

(١٩) وجاء في إحدى الأوراق أن ابنة أرسلت لأمها بالسفطا تستفسر عن أخيهما الأصغر وتقول في خطابها : كيف تدعى الولد يفادو العاصمة قبل أن يتعلم صنعة ، وفي وثيقة طلاق يتعهد الزوج بإطعام وكساء ابنة وبتعليمه صنعة يتكسب منها ورجع تلك الوثيقة إلى سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م .

جوايتاين : دراسات في التاريخ الإسلامي ، ص ١٧٦ ، ترجمة : عطية القوصي .

(٢٠) شاع لقب شيخ في العصر الفاطمي ، ذكر المسيحي في حوادث سنة ٤١٥هـ وفاة ابن سعدان اللماح ، وكان شيخا من وجوه السامرة بساحل الصعيد بمصر . أخبار مصر ، ص ٢١٦ .

أصحاب الحرفة ورغبتهم في شغله لهذا المنصب . وكان يعتبر مسئولاً أمام الجهات الحكومية عن أى اضطراب يصدر عن أعضاء طائفته ، كما كان للمشايخ حق تقدير المستوى الذى يجب أن يكون عليه الصبيان الذين هم تحت التمرين ، وكذلك المستوى الفنى الذى يحتاج اليه الصبى ليرقى . فيصبح صانعاً ، وأيضاً ترقية الصانع الى مرتبة المعلم .

وكان الشيخ يبقى فى منصبه مدى الحياة ، غير أنه اذا حدثت منه تصرفات ، لا يرضى عنها كبار أهل الصنعة ، فعندئذ كان عليه أن يتخلى عن رئاسة الطائفة ليحل محله من يحظى برضاء أفراد الطائفة ومعلميها . ولشيخ الطائفة مساعد كان يعرف بالنقيب ومهمته كانت تنفيذ أوامر الشيخ وتنظيم الحفلات والاجتماعات التى تلزم للطائفة .

وكان يربط أعضاء الطائفة بعضهم ببعض تقاليد وقواعد وسلوك يلتزمون بالسير عليها ، فالمعلم له من الحقوق على الصانع والصبيان ما لا يمكن تجاسدها وذلك من احترامه وحسن خدمته والأمانة فى معاملته ، ولهم كذلك عليه حقوق فيما يتصل بالأجور وساعات العمل ونحو ذلك ، وكما كان التدرج موجوداً بين أفراد الطائفة ، وكان هناك رئيس ومروؤوس ، فلا بد أنه كانت لهم تقاليد تحكمهم وتنظم العلاقات فيما بينهم .

وعلى الرغم من عدم وجود وصف كامل يرجع الى العصر الفاطمى أو العصور التى سبقتة ، مما يلقي الضوء على هذه التفاصيل ، إلا أنه يمكن معرفة شئ منها وخاصة فيما يتعلق بتقاليد ترقية الصبى الى مرتبة الصانع فى الطائفة الحرفية ، فإن الصبى كان اذا تم تدريبه فان معلمه كان عليه أن يخبر شيخ الطائفة بذلك ، فيكلف الشيخ النقيب بدعوة أرباب الحرفة للمشاركة فى حفل ترقيته . والواقع أنه ليس لدينا وصف شامل لمثل هذه الحفلات ، إلا أن مصادر العصر العثمانى تشير الى ذلك فى وضوح ، ففى هذا الاحتفال المذكور كان المعلم يستنصب صبيه الى مكان الاجتماع ، حيث يكون شيخ الطائفة والنقباء وكبار رجال الحرفة وتبدأ المراسم بأن يتقدم الصبى وبجانبه معلمه الى الشيخ ويجيبه ، ثم يقرأ الفاتحة . فيتلو الشيخ وجميع الحاضرين الفاتحة أيضاً . - وبعد ذلك يسأل الشيخ المعلم والصبى سؤالاً تقليدياً فى مثل هذه المناسبات مستفهماً عن سبب مجيئهما ، فيجيب المعلم بأن الصبى الذى جاء بصحبته قد أتم الصنعة بما فيه الكفاية ، ويريد أن يفتتح لنفسه دكاناً يمارس فيه المهنة التى تعلمها . فعندئذ يقوم الشيخ باختباره فان اطمأن الى إجادته الصنعة ، فانه يقترب من الشاب ويشد حول وسطه بحزام أو يشال مع عقده عدة عقد أقلها ثلاث وغايتها سبع فى العادة بعدد المعلمين الموجودين فى المجلس ، ويبدأ هؤلاء فى حل

هذه العقد ، وينتهى الاحتفال بتعريف المحتفل به بواجباته الجديدة ، ويؤخذ عليه العهد والميثاق بأن يتبعها ولا يخرج عليها وأن يكون مخلصا لها ، ثم يأخذ مكانه بين زملائه على بساط التكريم لتناول غذاء كان يعرف بالتمليح أو الوليمة .

— الطوائف الحرفية في مصر الفاطمية :

من الطريف أن تذكر المصادر لفظ النقابة صراحة بالنسبة للطوائف الدينية والعسكرية ، ولا تشير الى مثل ذلك بالنسبة لطوائف الصنائع وأرباب الحرف في العصر الفاطمي ، فقد ذكر القلقشندي شيئا عن نقابة الطالبين (٢١) . كما نجد المقرئى يتكلم عن جريدة قواد الأسطول الفاطمي فيقول : ان أفراد الأسطول كانوا معروفين عند عشرين عريفا يقال لهم النقباء فاذا تهيأ الانفاق أدخل الغزاة مائة مائة ، فيقفون في أخريات من هو واقف في الخدمة من جانب واحد نقابة نقابة . . وكانت تصرف لكل واحد خمسة دنائير يسلمها لهم النقيب . . وهكذا كان يعرف العريف بالنقيب في ذلك العصر .

كما نجد المقرئى يشير الى عرفاء الأسواق وأهميتهم فيقول : « كان في كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم » ، ولا شك أن ذلك يدل صراحة على وجود طوائف الصنائع على اختلاف أعمالهم في العصر الفاطمي .

وكانت القسطنطينية والقاهرة عامرة أهلة بالأسواق ، وقد أطلقت أو سميت هذه الأسواق بأسماء طوائف الحرفيين ، فكان منها سوق القشاشين ، والغرابيين ، والزياتين ، وزقاق العسل ، ودرب الديباج ، كما يذكر ابن دقماق منها أيضا سويقة دار النحاس ، وقيسارية الحلج ، وقيسارية الصبانة ، وكان بوسطها مساطب برسم الخياطين . وهكذا كان لكل طائفة حى خاص بها تنظم فيه حوائيت حرفهم وصنعتهم وأماكن سكنهم وإقامتهم .

(٢١) يقول القلقشندي : « وهى بمثابة نقابة الاشراف الآن ، ولا يكون الا من شيوخ هذه الطائفة وأجلهم قدرا (يعنى النقيب) وله النظر فى أمورهم ، ومنع من يدخل فيهم من الادعياء وإذا ارتاب بأحد أخذوا بأثبات نسبته ، وعليه أن يعود مرضاهم ، ويمشى في جنبائهم ويسعى فى حوائجهم ، ويأخذ على يد المعتدى منهم ، ويمنع من الاعتداء ، ولا يقطع أمرا من الأمور المتعلقة بهم الا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك » . صبيح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .

كان العريف أو النقيب هو الواسطة بين أرباب الحرفة والحكومة الفاطمية ، فهو الذى ينقل اليهم أوامر الحكومة وتعليماتها ، والحقيقة أن وظيفة العريف ومراقبته لأهل طائفته واشرافه على أحوالهم ، كان لها أثرها الواضح في تلك التنظيمات أو الطوائف الحرفية ، فقد بلغت كما يقول برنارد لويس الى حد التأثير وقتل أية محاولة للعمل المستقل من جانب أفراد الطائفة وأصحاب الحرف المختلفة في العصر الفاطمي .

لكن الأمر قد يختلف بالنسبة للحركة الاسماعيلية وأثرها في تنظيمات الحرفيين وطوائفهم في ذلك العصر ، فلا يبدو واضحا (٢٢) ، كذلك الأمر بالنسبة للدعوة السرية التي قامت بها جماعة اخوان الصفا ، والتي اهتمت بالحديث عن أرباب الحرف والصنائع وما يعانونه كما ورد في رسائلها في بداية العصر الفاطمي . ويظهر أن الدعوة للمذهب الفاطمي حاولت الاستفادة من جماهير الفلاحين والصناع في حركتها ، ولكن أثرها في تنظيمات الطوائف الحرفية غير واضح في مصر وغيرها من بلاد العالم الاسلامي .

واذا كانت الدعوة الاسماعيلية قد عملت على استغلال الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة للطبقات الدنيا من المجتمع الاسلامي ، ونادت بالعمل على تحسين أوضاع الحرفيين والصناع والفلاحين ، الا أن الفاطميين في السلطة غيرهم في الدعوة ، ولا نحس بثورة اجتماعية خاصة بهؤلاء الحرفيين في مصر في عهدهم .

ولا شك أن سياسة التسامح الديني التي اتخذوها شعارا لهم كان لها أثرها الواضح في عدم وجود مضايقات أو وقوع مصادمات مع أهل الذمة من أصحاب الحرف والصناعات (٢٣) . وكان من الطبيعي أن نجد

(٢٢) يرى برنارد لويس أن الحركة الاسماعيلية كان لها أثرها الواضح في طوائف الحرفيين في مصر وغيرها ، لكننا لا نملك من الأدلة التاريخية ما يثبت وجهة نظره . النقابات الاسلامية ، ص ٣٧٥ .

(٢٣) وقد بلغ من تسامح العزيز بالله أن قلد الأمور وجمع المال لكل من عيسى ابن نسطورس ومنشأ اليهودي ، واستخدم النصارى في الدواوين وصرف الكتاب المسلمين . ويقول ابن الجوزي ، فكتب رجل من المسلمين رقعة ودفعها الى امرأة وبذل لها مالا على أن تقف للعزيز في طريقه وفيها : « بالذي أعز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بمنشأ وأذل بك المسلمين الا نظرت في أمرى » فقبض العزيز عليها وأخذ من ابن نسطورس نحو ثلاثمائة ألف دينار . مرآة الزمان ، ج ١١ ، ورقة ١٥٣ منقوط مصور ،

Lane-poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 120.

الطوائف الحرفية مفتوحة أمام المسيحيين واليهود كسائر الحرفيين من المسلمين على حد سواء .

وليس لدينا من المعلومات الكافية للدلالة على تأثير حركة العيارين والفتيان التي نشأت في العراق في طوائف الحرفيين والصناع بمصر الفاطمية ، وذلك على الرغم من كونها حركة شعبية ضمت بين صفوفها الكثير من أهل الصنائع في بغداد (٢٤) . وكان من المنتظر أن تتبادل التأثير مع تنظيمات الأصناف المصرية في وقت ظهورها خاصة وأنه وردت إشارة صريحة بعد ذلك تعود الى النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، فقد ذكر ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٧٣ هـ صلة بعض الفتيان بالفاطميين ودعوتهم لهم ، وكان على رأسهم ببغداد ابن الرسولي الخباز الذي صنف في معنى الفتوة وقضاائها وقانونها (٢٥) .

والواقع أن طوائف الحرفيين في العصر الفاطمي لم يكن لها نشاط ملحوظ من الناحية السياسية ، أو أنها غدت على جانب كبير من النفوذ لدى السلطة الحاكمة ، وذلك بالمقارنة لما أصبحت عليه النقابات الأوروبية ، فقد نجحت تلك النقابات في السيطرة على الأداة الحكومية بعد سلسلة من المصادمات والثورات ، والتي امتاز بها تاريخ المدن الأوروبية في العصر الوسيط .

كما أنه من الملاحظ أن طوائف الصناع في مصر في ذلك الوقت كانت خالية من مظاهر التفرقة الاجتماعية بين أعضائها ، على النقيض مما اتسمت به تلك النقابات الأوروبية ، وكانت المساواة بين أفرادها من أهم ما يميزها على غيرها في القرنين العاشر والحادي عشر بعد الميلاد .

أما من الناحية الاقتصادية فتشير أوراق الجنيزة الى قيام أصحاب النفوذ في العصر الفاطمي من رؤساء اليهود وغيرهم بالعمل على حماية

(٢٤) ظهرت حركة العيارين والفتيان لأول مرة في حصار بغداد الأول مسنة ١٩٦ .. ١٩٧ هـ كقوة تدافع عن المدينة ، ثم صاروا بعد ذلك يمثلون حركة اجتماعية ثورية ناجمة عن ظروف العامة في العاصمة العباسية . وكانت حركتهم موجهة ضد الحكام والشرطة والأعيان ، وقد انقسمت بعد ذلك الى تيارين : أحدهما يمثل فتوة العيارين والسطار ، والآخر سمي فتوة العارفين أو الصوفية . الطبري : تاريخ الطبري ، حوادث سنة ١٩٧ هـ ، عبد العزيز الدوري : نشوء الأصناف والحرف في الاسلام ، ص ١٦٠ - ١٦٤ .

(٢٥) وقد شكك البعض وضعهم الى السلطة في بغداد وقالوا : ان هؤلاء القوم يدهون لصاحب مصر ويجعلون الفتوة شعارا وعنوانا لجمع الكلمة على هذا الباطل مما أدى الى خربهم . ابن الجوزي : ج ١ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

الصناعات المحلية من المنافسة الخارجية ؛ هذا فى الوقت الذى لم يتضح فيه أى دور ملموس لتلك الطوائف أو النقابات فى ذلك الأمر .

كذلك تشير المصادر الى أن أصحاب الحرف من الغرباء الوافدين على مصر ، كانوا يلاقون مصاعب جمة فى الحصول على عمل لهم ، كما وجدت عدة شكاوى لمجموعة من الحرفيين بسبب قرارات السلطة الحاكمة بحرمانهم من مزاوله مهنتهم أو من أجل صعوبة الحصول على تراخيص خاصة لممارسة أعمالهم الصناعية .

وهكذا يبدو أن طوائف الحرفيين لم يكن لها دور واضح الا فى مسألة جمع الضرائب ، حيث منحت السلطة الواسعة للنقباء والمشايخ فى توزيع وفرض الضرائب على الصناع والحرفيين والعمل على جمعها منهم ، تماما كما كانت عليه الحال فى العصور السابقة . كما كان لهؤلاء حق التدخل فى فض المنازعات والمشاكل المتصلة بالعمل .

— مظاهر تماسك الحرفيين فى العصر الفاطمى :

أما من الناحية الاجتماعية فتبدو مشاركة طوائف الحرفيين أكثر وضوحا فى الاحتفالات والأعياد وسائر المناسبات الفاطمية ، حيث كان أصحاب الحرف يقومون بتزيين أسواقهم وحوانيتهم بعلامات الزينة وصناعة اللعب والتماثيل وأدوات التسلية ويعلقونها على أبواب الحوانيت وفى الشوارع الرئيسية بالعاصمة ، يذكر المقرئى أنه فى سنة ٣٦٤ هـ فى موسم عيد النيروز طاف أهل الأسواق ، وعملوا القيلة وخرجوا الى القاهرة بلعبهم ، وأظهروا السماجات فى الأسواق .

وقد حدث فى عهد المعز لدين الله أيضا أن كان الاحتفال بذكرى عباشوراء حين انصرف عدد كبير من أصحاب المذهب الشيعى ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالاتهم ، وكانوا فى حالة من الحزن والبكاء ، فكسروا أواني السقائين فى الأسواق ، وشققوا الروايا — فخرج ابن عمار ومنع الفريقين وزجج الجميع ، فاستحسن ذلك منه الخليفة المعز ، يقول ابن زولاى : « ولولا ذلك لعظمت الفتنة ، لأن الناس قد غلقوا الدكاكين وأبواب الدور وعطلوا الأسواق » .

وذكر المسبحى أنه فى عهد العزيز بالله وقعت نار فى الأسطول ، فأبت على جميع ما فيه ، وحمل البجاعة السلاح ، ومعهم جموع من العامة . فقتلوا من الروم أعدادا كبيرة ، ونهبوا إمتعتهم لاتهامهم بحرق سفن الأسطول ، ويظهر أن أهل السوق وطوائف الصناع نالوا من متاعهم الشيء

الكثير قدرت في حينه بنحو تسعين ألف دينار ، قطاف أصحاب الشرطة
في الأسواق يسجل فيه الأمر برد ما نهب من دار ماتك وغيرها من دور
الروم (٢٦) .

وهكذا كان أرباب الحرف والصنائع يشاركون في الحياة العامة في
ذلك العصر وقد ذكر المقرئى أنه فى سنة ٣٩٥ هـ خرج أهل الأسواق
على طبقاتهم ، كل يلتمس كتب أمان يكون لهم ، فكتب فوق المائة سجل
بأمان لهم . وكان قد شاع بين طائفة من الكتاب وغيرهم من أصحاب الحرف
فى العاصمة أن الحاكم بأمر الله قد جمع من الأحطاب وخشب السنط
الشيء الكثير ، فخامر قلوب الناس من ذلك فزع شديد وخافوا على أنفسهم
من بطش الحاكم وجبروته وأن يأمر بإحراقهم .

وكانت طوائف الصناع والحرفيين تسكن فى حارات كبيرة فى
الفسطاط وفى القاهرة ، يقول المقرئى : « كانت كل حارة من هذه بلدة
كبيرة بالبزازين والعطارين والجزارين وغيرهم » ، ولا شك أن الاسكندرية
وتنيس ودمياط وغيرها من المدن فى الوجه البحرى وفى صعيد مصر كانت
مكتظة بأسواقها وبأهل الحرف الذين كانوا يشاركون العامة فى كل
شئونهم .

ويصف المقرئى ما قام به الحاكم بأمر الله حين أحس بما صارت
إليه طائفة الكتاب وغيرهم من أهل الذمة ، حين اتسعت أحوالهم وكثرت
أموالهم ، فهو يذكر أنه قبض على عيسى بن نسطورس ، وكان قد بلغ منزلة
الوزراء ، وضرب عنقه ، كما تشدد على المسيحيين وألزمهم بلبس الغيار
وشد الزنار فى أوساطهم .

ولم تذكر المصادر شيئاً عن موقف طوائف الحرفيين تجاه سياسة
الحاكم المتشدد نحو أهل الذمة ، وليس هناك ما يفيد عن أحوال أهل
تنيس حينما أمر الحاكم بهدم كنائسهم فى سنة ٤٠٣ هـ (٢٧) ، ومن
المعروف أن تنيس كانت من أهم المدن الصناعية ، كما كان غالبية ساكنيها
من الأقباط ، وكما أن المسيحي لم يوضح لنا شيئاً عن رد فعل أهل
تنيس حين توجه الجند السودان فى عهد الخليفة الظاهر إلى المدينة ،

(٢٦) كانت دار ماتك بجوار دار الصناعة بالمقس وكان يقيم بها نفر من الروم .

(٢٧) يذكر ابن بسام التنيس أنه كان يوجد بمدينة تنيس اثنان وسبعون كنيسة
قام بهدمها الحاكم وجعل عوضها مساجد . أنيس المجلس فى أخبار تنيس ، ص ١٨٤ تحقيق
جمال الدين الشيال .

وعاثوا فيها وأفسدوا ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم ، وذلك بعد أن تمكن الشريف ابن حمزة عامل تنيس من الهرب الى دمياط .

ويظهر أن موقف أهل السوق كان سلبيا ، فالمسيحي يمدنا بصورة واضحة حين كانوا يتعرضون لأعمال الشغب والنهب من جانب العبيد السودان ، فهو يذكر أنه حينما خاف أصحاب الحرف على أموالهم أثناء الاحتفالات بيوم عيد النحر سنة ٤١٥ هـ ، فانهم نقلوها من القياسر والحوانيت بمصر الى منازلهم وأدخلوا دكاكينهم من الأمتعة .

كذلك فإن المسيحي لم يوضح لنا شيئا عن موقف هؤلاء البنائين والفعلة الذين قاموا ببناء السور الدائر على مقياس النيل ، ولم يقدم لهم أبو طالب العجمي من أجورهم شيئا . فقد ذكر المؤرخ المسيحي أنه حينما تم فعل ذلك وأتموا البناء في سنة ٥١٥ هـ ، حدث أن اعتدى أبو طالب العجمي مدير دار الصناعة بالضرب على ابن أبي الرداد المشرف على المقياس ، وذلك بسبب مطالبته بدفع الأجور المستحقة لهم . هذا ولم نسمع عن مقاومتهم شيئا ، وإن كانت الشائعة التي تردت في المدينة حينذاك عن مقتل كل من الوزير الجرجرائي ومتولى دار الصناعة تعنى أن الرأي العام بات في سخط عليهم .

لكنه يبدو أن هذا الموقف لم يكن ثابتا من جانب أهل السوق ، خاصة عند الظروف الصعبة التي كانوا يتعرضون لها كما كان يحدث في أوقات الشدة ووقوع الأزمات . فحين وقع الغلاء في عام ٤١٥ هـ وتجمع العبيد السودان ، ومن انضم اليهم من الرعاع والنهاية ، وقصدوا الساحل وكان بها دكاكين الحبوبيين فنهبوها ، حدث أن وقع صدام بينهم وبين العامة من المصريين بالسلاح وحاربوهم وخرج اليهم العتالون والنقاطون فهزموهم .

ولم تلبث الأمور أن عادت الى الهدوء بعد أن خفت حدة الغلاء ، وكان خروج الظاهر لاعزاز دين الله وحرمة الى سجن يوسف بالجيزة ، أقام أهل الأسواق نحو الأسبوعين يطوفون بالشوارع بالخيال والألعاب بالتمثيل التي صنعوها خصيصا لذلك ، وتعطل أصحاب الحرف عن أشغالهم ومعاشتهم ، واجتمع خلق كثير للفرجة والنظر اليهم ، وكما يذكر المقرئزي: « وأطلق لهم ثمانية آلاف درهم كانوا في اثني عشر سوقا » .

وكان لكل حرفة مشايخها وأعلامها وطبولها التي تشارك في مثل هذه الاحتفالات والمناسبات العديدة التي استحدثها الفاطميون منذ بداية عهدهم ، وقد ظلت هذه العادة جارية من جانب طوائف الحرفيين . يذكر ناصر خسرو أنه حينما ولد للخليفة ولد وذلك في سنة ٤٣٩ هـ عمل أهل

السوق وأرباب الحرف على تزيين المدينتين : القاهرة والفسطاط وكافة الأسواق ، يقول ناصر خسرو : « ولو وصفتها لما اعتقد بعض الناس صحة ما أقول ولما صدقوني فقد كانت دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجوهر والنقد والأمتعة المختلفة ، والملابس المذهبة والمقصبة بحيث لا يوجد فيها متسع لمن يريد أن يجلس » .

كما ذكر المقريزي أنه في عام ٥١٧ هـ ركب الخليفة الأمر في موسم أول العام ورتب الموكب ومصفات العساكر عن يمينه وشماله وجميع تجار البلدين القاهرة والفسطاط ، من الجوهرين والصيارف والصاغة والبزازين ونحوهم قد زينوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظر الخليفة .

وهكذا كانوا يشتركون في الاحتفالات العامة بعرض صناعاتهم وما ينتجونه من السلع والأدوات المختلفة في مواكب الخلفاء الفاطميين .

كما يظهر تماسك الحرفيين وميولهم نحو الفاطميين حتى بعد زوال حكمهم عن البلاد ، يتجلى ذلك من الرواية التي أوردها أبو شامة في حوادث سنة ٥٦٩ هـ ، فقد ذكر أن أحد دعاة الفاطميين ويسمى قديد القفاص أخذ يدعو لهم بالاسكندرية ، حتى بلغت أخبار دعوته بلاد الشام ، ويقول أبو شامة : « وطبقت عقول أهل مصر فتنته وأن أرباب المعاش كانوا يحملون إليه جزءا من كسبهم ، وكذلك النساء كن يبعثن إليه شظرا وأفيا من أموالهن » . لكنه لم يلبث أن تم القبض عليه وتلاشت أخباره أيام الأيوبيين .

— المنازعات بين أرباب الحرف في العصر الفاطمي :

يؤكد المقدسي على وجود ظاهرة التكتل القومى والمذهبى فى القرن الرابع الهجرى ، ويشير الى ما وقع من صدام ونزاع بين أهل البجة والقبائل العربية فى صعيد مصر الذين كانوا يعملون فى استخراج الذهب فى منطقة العلاقى وغيرها . كد ايوضح المقدسي ما كان واقعا بين طائفة البزازين والاعراب باليمامة فى ذلك الوقت قائلا : « وقد بلغ من أمرهم أن اقتسموا الجامع ويقولون للغريب : « كن من أين شئت والا فاخرج » .

ويظهر فى بيئة الاسكندرية التى كانت حافلة بالأنشطة الصناعية والتجارية فى العصر الفاطمى ، أنه لم يكن يخلو الأمر من وقوع بعض الخلافات مع بعض الطوائف ، خاصة بين هؤلاء الصبيان أو صغار الصناع وبين أصحاب المصانع ، فقد كشفت أوراق الجنيزة عن بعض الخطابات التى أرسلها بعض الصباغين والاساكفة وغيرهم من الحرفيين الى نظرائهم

فى العاصنة ، يشكون فيها من سوء أحوالهم ومن التوترات والمنازعات
الواقعة بينهم ، وتحدث الصغار والصبيان لأصحاب هذه المصانع من ذوى
المكانة الاجتماعية العالية .

ويبدو أن الحكومة الفاطمية لم تحاول الحد من ظاهرة التمايز
الطبقي ، ومن سوء الأحوال المادية التى كان يعاني منها هؤلاء الأجراء وضغار
الحرفيين والصناع فى القرنين : الحادى عشر والثانى عشر .
وعلى أية حال فأننا لا نلمس تلك المنازعات أو الصراعات بين الطوائف
المختلفة ، كما كانت المنازعات بين أهل أسواق بغداد فى أوائل القرن
الرابع الهجرى (٢٨) . ولكنه يمكن القول بأن العصر الفاطمى شهد بعض
التكتلات الطائفية التى يغلب عليها الطابع الدينى ، فمثلا كان لطائفة اليهود
فى الاسكندرية وفى القسطنطينية روابط مشتركة ، وتعاطف فيما بينهم ،
وربما كان ذلك أمرا طبيعيا من أجل أن يتمكنوا من أداء فرائضهم الدينية
وتوجههم الى المناطق المقدسة والالتزام بأحكامهم الدينية ، وهكذا كانت
تلك الروابط ليس الغرض منها العدوان أو مواجهة الطوائف الحرفية
القائمة .

والواقع أننا لا نكاد نلمس شيئا عن التنابذ الشديد أو المنازعات
بين طوائف أهل الحرف فى مصر العاصمة ، بل على النقيض من ذلك هناك
ما يكشف لنا عن روح التعاون والعلاقات الطيبة بين أهل المهن والحرف ،
وقد أوضحت خطابات الجنيزة بعض مظاهر المشاركة فى أعمال التجارة
والصناعة بين المسلمين وأهل الذمة من المسيحيين واليهود فى العصر
الفاطمى .

وهكذا غلبت روح التعاون بين الطوائف المختلفة ، كما كان تماسك
الحرفيين وميولهم نحو الفاطميين أكثر وضوحا ، ولم نسمع عن وقوع
منازعات أو مصادمات فيما بينهم كالتى وقعت فى بغداد بسبب الانقسامات
العنصرية والتكتلات القومية أو الدوافع الاقتصادية . وذلك على الرغم من
نشاط حركة الحرفيين وهجرة الكثير من الصباغين والصاغة والخياطين
والنساخين الذين جاءوا من بلاد الروم وبيزنطة ، ومن بلاد الشام الى مصر
من هؤلاء صانعى الزجاج وغزالي الحرير ونحوهم من الحرفيين أيام حكم
الفاطميين .

(٢٨) شهد المجتمع البغدادي تكتلات اجتماعية قائمة على أساس قومي منذ العقد الأخير
من القرن الثمانى الهجرى ، كما تمثل أيضا فى انقسام عنصري ومنافسات بين العرب
والأعاجم ، وكانت المنازعات بين أهل أسواق بغداد من ورائها دوافع متباينة قومية وطائفية
واقتصادية وغيرها . للقدس : أحسن التقاسيم ، ص ١٢٦ ، الكبيسى : أسواق بغداد ،
ص ٣٧٩ - ٣٧٧ .

٢ - حياة الحرفيين الاقتصادية

— دخل الحرفيين والصناع في مصر الإسلامية :

من المعروف أن أجور الحرفيين كانت تختلف من مهنة الى أخرى ومن مكان لآخر ، وكان بعض هذه الأجور أحيانا يدفع نقدا ، والبعض الآخر يدفعه أصحاب العمل عينا لهؤلاء الحرفيين وذلك منذ العصر البيزنطي . فقد ورد في إحدى أوراق البردى اليونانية أن عمال صناعة الطوب في أكسيرنخوس (البهنسا) استلموا أجرهم وقدره اثنتا عشرة كيلة قمحا .

كما ورد في عقد يرجع تاريخه الى سنة ٦١٥ م قيمة أجر أحد الصباغين لمدة عامين ، وكان عينا ومقداره تسع عشرة كيلة من القمح ، ووافق ذلك الصباغ على العمل بأحد مصانع اخميم نظير ذلك الأجر . وفي موضع آخر نرى ذكر عقد بين رجل وولديه من الصباغين مع رجل آخر صاحب مصنع من مدينة الأشمونين ، ولقد اتفقوا على احضار أدواتهم وآلاتهم والاقامة في مصنعه على أن يدفع لهم أجرا أسبوعيا ومقدما مقداره خمسة صولدت الا ثلاثين قيراطا ، وأن عليهم اذا فشلوا في انجاز المطلوب إعادة المقدم مع فوائده وهكذا كانت أجور الحرفيين وظروف عملهم في مصر قبل الفتح الاسلامي .

وقد انقسم أصحاب الصناعة الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم الى نوعين فهناك من كان يشتغل بأجرته مثل هؤلاء الصناع الذين يعملون في مصانع غيرهم لقاء أجور محدودة يحصلون عليها ، وينطبق ذلك على العاملين في دار الطراز وفي دار الضرب ودار الصناعة التي كانت تابعة للدولة بعد فتح العرب للديار المصرية ، وكذلك الذين كانوا يعملون في داخل الحوانيت أو المصانع الأهلية التي تدار لحساب التجار أو أصحاب رؤوس الأموال في ذلك الوقت . ولا شك أن هؤلاء الصناع كانوا يتقاضون أجورا زهيدة ، لكنهم كانوا مدفوعين الى العمل نظير تلك الأجور بسبب نقص رأس المال

فى أيديهم أو بسبب طبيعة حرفهم كالبنائين والنجارين والحدادين وغيرهم من العاملين فى مجال الصناعة والبناء .

أما النوع الثانى من أرباب الحرف والصناعات المستقلون الذين يمارسون عملهم داخل حوانيتهم لحسابهم الخاص ، وكانوا فى الغالب من ذوى الحرف التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم . وكانوا أحسن حالا من الصنف الأول المأجور بطبيعة الحال ، فهم يمتلكون وسائل الإنتاج والأدوات البسيطة اللازمة للصناعة ، ورأس المال ، وكانت لهم حرية التصرف فى عملهم كما يشاءون بعيدا عن السيطرة والتسلط والاستغلال .

وكان بمقدور الصناع الأحرار أن ينعموا بثمار أتعابهم ويزيدوا من دخلهم وفقا لحماسهم للعمل ولمهارتهم وجودة انتاجهم . فقد بلغ الدخل الشهري لأحد هؤلاء الصناع المستقلين ما يزيد عن دينارين فى المتوسط ، وندرك قيمة هذا المبلغ اذا علمنا أنه كان يكفى لحاجة أسرة بكامل أفرادها من الطبقة الفقيرة شهرا من ذلك الزمان .

والواقع أنه ليس لدينا الا أمثلة قليلة عن الأجور فى فجر الاسلام ، وفى القرن الأول الهجرى نجد أجرة النجار دينارا ونصف دينار شهريا ، وأجرة الصانع العادى ثلثى دينار شهريا ، وأجرة بناء السفن دينارين شهريا .

وكان يتفق مقلما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى فى عصر الولاة ، وقد يحدث أن الوالى هو الذى يحدد أجور هؤلاء العمال ، ولا يترك ذلك لصاحب الكورة ، كما أظهرت أوراق البردى ذلك حين طلب الوالى قره بن شريك من صاحب كوم اشقاو أن يرسل اليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى اعداد الأسطول المصرى الحربى .

وفى القرن الثانى الهجرى نرى دخل أصحاب حرفة النسيج لا يكاد يكفى حاجة المرء من الضروريات (١) ، وقد عبر ابن الزيات عن حالة بعض النساء اللائى كن يقمن بغزل الكتان ، وكيف أن مثل هذا العمل لا يكاد يكفى قوتهن ، روى ابن الزيات أن امرأة وبناتها الأربع كن يعملن بغزل الكتان وبيعه فى سوق القسباط فكانت الأم تذهب كل يوم جمعة لتبيع الغزل بنحو عشرين درهما ، فتشتري بنصف القيمة من الكتان والنصف

(١) توجد إشارة طريفة عن حالة الصناع ودخلهم فيما يذكر عن أحد الصناع فى خلافة الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) أنه كان يرى أن ثلاثمائة درهم فى الشهر قد تكفيه وزوجته . عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٢٦٠ .

الباقي كانت تشتري ما يقتاتون به ، وواضح من الرواية أن خميسا من الأفراد يعملن بالغزل على مدار الأسبوع في مقابل عشرة دراهم .

وقد بلغت أجرة العامل في حرفة النسيج في مدينة تنيس حوالي عام ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م نصف درهم في اليوم ، وكان ذلك لا يكفي ثمن الخبز الذي يأكله . ونقل آدم متز لنا صورة مما ورد في تقرير البطريك ديونيسيوس (٢) أثناء زيارته لمصر ، ومروره بهذه المدينة وتعرفه على أحوال أهلها ، وقد جاء في هذا التقرير : « ومع أن مدينة تنيس عامرة بالسكان كثيرة الكنائس فاني لم أر من البؤس في بلد أكثر من بؤس أهلها ، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابوني : ان مدينتنا مجاعة بالماء فلا نستطيع زرعاً ولا تربية ماشية ، والماء الذي نشربه يجلب إلينا من بعيد ، ونشتري الجرة منه بأربعة دراهم ، ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه ونعطى على ذلك نصف درهم في اليوم من تجار الأقمشة ، ، وهكذا عبر عمال النسيج في شكواهم من جراء تلك الأجور الزهيدة التي لا تكفي القوت أو تقيم الأود .

وتمدنا أوراق البردي ببعض المعلومات عن أجور العاملين في مجال صناعة البناء من البنائين وغيرهم من الحرفيين ، وقد بلغت أجرة البناء حوالي درهم ونصف درهم في اليوم مع طعام الغذاء وتقدر بنصف درهم . وأجرة العامل في البناء مع غذائه كانت حوالي ثلاثة أرباع درهم في اليوم ، ورد ذلك ضمن كشوف نفقات إعادة بناء بيت في القرن الثالث الهجري .

ويلاحظ من سياق النص أن البناء وحده هو الذي كان يتناول اجرا ومعه الغذاء ، أما الرقاصون فيعطى لهم الأكل فقط الذي قد يشاركون فيه الصبي (٣) . ويظهر أن أجر البناء أو الصانع كان أعلى بكثير من أجر

(٢) هو بطريك أنطاكية ، وقد صاحبه الخليفة المأمون معه إلى مصر أثناء قدومه إليها في الحرم سنة ٢١٧ هـ من أجل اخماد ثورة اليشموريين . واليشمور كورة بمصر بها قرى وريف وغياص وكانت مشهورة بتربية الأغنام في ذلك الوقت .

الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٩٢ ، القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد . ص ١٥٥ .

(٣) الرقاص هو الذي يساعد البناء في عمله ، وهي كلمة تبدو عامية كان يستعملها الشعب في ذلك الوقت ، أما عبارة « نصف رقاص التي وردت في أوراق البردي فربما كانت تعنى الصبي أو الولد وكان يطلب لخدمة خاصة .

العامل اليومي العادي الذي كان يدفع في ذلك الوقت فقد تراوح ما بين قيراط حتى وصل الى سدس دائق (٤) .

كان الأجراء من أرباب الحرف يؤلفون الطبقة الدنيا في مصر وفي غيرها من البلدان (٥) ، وليس أدنى منهم الا أهل الخصاصة والمسكنة على حد قول المقرئ في تصنيفه لفئات المجتمع المصري . وخير تعبير أو وصف لحالتهم المعيشية ما عبر عنه اللمشقي حيث قال : « وأما الصنائع العملية وهي المهن فقد قيل قديما الصناعة في الكف أمان من الفقر وأمان من الغنى ، وذلك أن الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن اقامة ما لا بد منه ، ولا يكاد كسبه يتسع لاقتناء ضيعة أو عقد نعمة ، وأيضا فإنه مع ذلك اذا ميز الناس دخله فهو في أدون طبقاتهم » .

ويبدو أن أحوال الوراقين لم تكن أسعد حظا من هؤلاء الأجراء في الغالب ، ويظهر أنهم كانوا لا يحصلون من الأجر ما يكفي لسد رمقتهم في ذلك الوقت ، يتضح لنا ذلك من وصف أحد الوراقين لحاله جاء فيه : سألت وراقا عن حالته فقال عيش أضيق من محبرة وأدق من مسطرة ، وجاهي أوهي من الزجاج ، وحظي أشد سوادا من العفص اذا خلط بالزجاج ، وطعامي أمر من الصبر » . ويمكن القول بأن هذه الحال كان يعيشها الوراقون الذين يعملون في أسواق الفسطاط وغيرها .

والظاهر أن أحوال الأجراء والصناع قد تحسنت أيام الفاطميين حيث تمتعت البلاد بالامن والاستقرار ، فكان العمال والصناع في عهدهم يمنحون أجورا مرضية ، ويقبلون على عملهم في غبطة وسرور .

ويمكن معرفة بعض التفاصيل الهامة عن الأجور التي دفعت لأصحاب الحرف من البنائين والنجارين وغيرهم في العصر الفاطمي (٦) ، فمن خلال

(٤) الدائق من الفارسية (دانه) أي حبه واستعمله العرب في الجاهلية للدلالة على وزن معين وفي النقد أيضا ، ثم استعمل في العصر الاسلامي كوزن ثقله عشر حبات من الشعير ، وهو أيضا سدس الدرهم . الشيزري : نهاية الرتبة - حاشية ، ص ١٦ .

(٥) قسم علماء المسلمون مسألة الأجور الى قسمين الأول منها هو الأجر العام مثل أجر النجار والحداد والنقاش ومن اليهم فهو يستحق أجره نظير عمله . أما القسم الثاني فهو الأجير الخاص الذي يحدد أجره ليس بحجم العمل الذي يؤديه ، وإنما طبقا للزمن الذي يقضيه في العمل سواء أكان سهرا أو أسبوعا أو أقل من ذلك أو أكثر فهو يتقاضى أجره على الزمن الذي يقضيه في العمل وكما ورد لفظ الأجير من الاجارة وهو جزاء عمل الإنسان لصاحبه . زيدان عبد الباقي : العمل والعمال والمهن في الاسلام ، ص ١٠٣ .

(٦) ورد لفظ أجير في عقد بيع مؤرخ في رجب سنة ٤٠٦ هـ ، وكان اسم الشاري هو

« متوسى بن ثيدر الأخير وزوجنه سرفه » .

جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ٩ ، ص ١٦٦ .

ما ورد في أوراق الجنيزة نعرف أجور طائفة من الصناع منذ عهد الخليفة المستنصر وحتى عام ٥٩٦ هـ وهي الفترة من سنة ١٠٤٠ الى سنة ١١٩٩ م ، فنجد في رواية أن عامل البناء يتسلم خمسة دراهم ووجبة غذائية قيمتها نحو درهم وربع ، وكان نفس الأجر يحصل عليه صانع الزجاج ، كما ورد في عقد يرجع تاريخه الى سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م . وبلغ أجر صانع الأطواق درهمين في اليوم ونحو ذلك .

وقد احتفظت وثائق الجنيزة أيضا بقطع من مسودة وقطع من عقد نهائي من العقود التي كتبت بمدينة القسطنطينية في عهد المستنصر وعلى وجه التحديد في عام ٤٤٩ هـ ، وفي هذا العقد استأجر صانعا زجاج شريكان في دكان صانع زجاج ثالث ، وصف بأنه عامل يعمل في قرن الصهر بمصنع للزجاج لمدة عام واحد ، على أن يتسلم خمسة دراهم ويأكل وجبة غذائية تساوي درهما على كل يوم يعمله .

كما يظهر أن الحكومة الفاطمية كانت تعطي أجورا سخية ، ويتضح لنا ذلك من قيمة الأموال الباهظة التي كانوا ينفقونها على مظاهر الترف والنعيم ، فمن ذلك أنه تم اتفاق مبلغ مائة ألف وعشرون ألف درهم في بناء العشاري الفضي الخاص بأم المستنصر ، كما بلغت أجرة الصناع في طلائه وزخرفته نحو ألفين وأربعمائة دينار .

ويمكن القول بأن أجور الصناع في العصر الفاطمي كانت عالية ، إذا ما قورنت بما كانت عليه الأجور من قبل ، أو إذا قيست بما كانت عليه أجور العمال في بغداد ، إذ كان المرء لا يستطيع أن يحصل على الضروري من الحاجيات . وربما كانت مشاركة أصحاب رؤوس الأموال أو التجار مع الصناع في إقامة المصانع الأهلية من الأسباب التي أدت الى زيادة دخلهم أو ارتفاع أجورهم .

وقد أشارت وثائق الجنيزة الى أنواع الصناعات التي تمت فيها المشاركة بين أصحاب رؤوس الأموال وهؤلاء الصناع في العصر الفاطمي ، فمن هذه الصناعات التي ورد ذكرها كانت صناعة الزجاج والصناعات المعدنية ومنها صناعة الحلّ وسك النقود ، كذلك في صناعة الحرير والحياكة والصباغة ، وفي الصناعات المعدنية مثل صناعة الخبز والسكر والصيدلة ، وكانت تتراوح مدة عقود المشاركة ما بين ستة أشهر وحتى مدى الحياة ، وربما تقاسم المشتركون في تأسيس المصانع أو الشركات في رأس المال وفي العمل وأدواته بالتساوي ، وبذلك كانوا يتقاسمون الكسب أو الخسارة بحسب اتفاقهم . ومن الطريف أنهم كانوا يستخرجون من صندوق الشركة أو المصنع مبالغ محددة للمصرف منها على غذائهم أو عشايتهم .

وقد شجع على قيام العديد من هذه الشركات أو المصانع الخاصة في العصر الفاطمي تلك الشروط النسخية التي كان يطرحها التاجر أو صاحب رأس المال على صاحب الحرفة أو الصانع ، فقد جاءت خالية من تلك الاجراءات والشروط الصارمة ، مما ساعد على توفر الظروف المناسبة ووجود المنافسة الفردية في ذلك الوقت .

ولا شك أن أفراد الصنعة الواحدة كانوا يتفاهمون على الأسعار التي يبيعون بها سلعهم ومنتجاتهم ، وذلك حماية لأنفسهم من المنافسة ، كما كانت الحكومة الفاطمية لا تتدخل في الأسعار الا فيما يخص أسعار المواد الغذائية من حنطة ودقيق وخلافه ، فكانت تعمل على تحديد أسعارها عند وقوع الغلاء أو المجاعات فقط .

وكان الصانع أو صاحب الحرفة يقدر أتعابه بنفسه حسب مهارته أو قدرته ، يذكر ابن الزيات أن ابن الكيزاني الشاعر كان يملك معملا للقرابة والنسيج بالقسطنطين ، ومعه بعض العمال الذين يشتغلون معه ، وأن قيمة ما كان يدره عليه دولا ب عمله في كل يوم ثلاثة دراهم ونصف ، فكان ينفق على نفسه نصف درهم ، ويعطى أصحابه العمال الباقي وقدره ثلاثة دراهم . هذا في الوقت الذي كان العاملون في حرفة النسيج يتقاضون أجورا لمصنوعاتهم تصل الى مئات الدنانير في الثوب الواحد . كما بلغ وزن الدرهم الواحد من الخيط في أسواق القسطنطين ثلاثة دنانير مغربية .

ومن المعروف أن صاحب الحرفة الماهر هو دائما الذي يحدد أجره بنفسه ، أما الذي يتحكم فيه الناس أو أصحاب رؤوس الأموال من السماسرة والتجار ، فهو العامل غير المتقن لصنعتة ، وكانت الوسيلة الوحيدة لحماية الصانع في كل مكان هي رفع مستواهم الفنى والحرفى ، وهذا وحده يكفي لرفع أجورهم وتحسين مستوى معيشتهم .

كما تجدر الإشارة الى أن التاجر في ذلك العصر كان يربح من السلعة المصنوعة أضعاف ما كان يربحه الصانع نفسه ، لأن الصانع كان يعمل بيده ، وكان تحويله للمادة الخام التي تصل اليه تحويلا بسيطا ، لا يمكنه من أن يبالغ في تقدير الثمن الذي يبيع به ، في حين أن التاجر كان يعتمد على حاجة الناس واقبالهم على السلع وصعوبة الحصول عليها في أحيان كثيرة بسبب سوء الأحوال واضطراب الظروف السياسية ، فكان يستطيع أن يفرض السعر الذي يريده .

ويمكن القول بأنه لم يكن هناك فصل دقيق بين الصناعة والتجارة

فى تلك العصور حيث تشير أوراق الجنيزة الى بعض عقود الشركات التى عقدت على أنها تمت لتصنيع وبيع السلع فهى تجمع بين الاثنين فى آن واحد . كذلك أشارت الى قيام بعض الحرفيين والصناع فى القسطنطينية ببيع البضائع التى كانوا يصنعونها بأنفسهم .

ومهما يكن فإن الصناع كان بإمكانه تحسين دخله متى أتقن صناعته ، ولا يدع غيره من التجار أو السماسرة من أن يتحكم فى أجره ، كما كانت حرفته تدر عليه أرباحا طائلة فى حالة تعافده مع شريك له من هؤلاء السماسرة فى ذلك العصر .

أما عن دور الطوائف الحرفية فى محاولة رعاية مصالح أعضائها ورفع أجورهم ، أو تحديد أسعار السلع بما يتفق وتكاليف الإنتاج وكذلك فى الحفاظ على العمال والصناع وتحرير طرد المعلمين أو الأسطوانات لهم دون مبرر ، كما كانت تفعل النقابات الأوروبية فى العصور الوسطى ، فإننا لا نكاد نسمع شيئا من ذلك ، وربما يعزى ذلك الى قلة أو ندرة المعلومات من جهة ، وإلى احتكار الدولة الفاطمية للعديد من مظاهر النشاط الاقتصادى وبسط نفوذها عن طريق المحتسب وأعوانه على أصحاب الحرف والصناعات من جهة أخرى .

(ب) الضرائب والالتزامات الأخرى :

يشكل الدخل الشهري أو السنوى لصاحب الحرفة أو الصناع معالم الصورة بالنسبة لحياته الاقتصادية ، ولا يتسنى معرفة الدخل الحقيقى إلا اذا علمنا ما كان يؤديه الصناع من أنواع الضرائب الشهرية والسنوية ، فهو مكلف بدفع نوع من الضرائب فى مسبيل حصوله على حق الترخيص بمزاولة المهنة التى يرغب فيها ، وبدفع رسوم على إنتاجه من السلع المصنوعة ، وأيضا ما كان يدفعه من المكوس أو ضريبة الأسواق .

ويمكن للمرء أن يحدد معالم النشاط الاقتصادى فى مصر قبل الفتح العربى وفقا لتلك السياسة التى عملت الحكومة البيزنطية على تطبيقها . وكانت تركز أساسا على ربط وتحصيل أنواع الضرائب سواء من المزارعين أو أصحاب الحرف الأخرى ، ويرسم لنا Bell صورة واضحة لهذه المعالم ، ولما كان عليه المجتمع المصرى ، فقد كان يتألف من طوائف أحدها فوق الأخرى ، وكان على الملاح المكلف بنقل القمح والضرائب الأخرى . أن يخلف أباه فى حرفة وأن يرث ابن الكارى مهنة أبيه . وهكذا فقد كان عامة الشعب من المزارعين وأصحاب الحرف الأخرى مقيدين

برباط المهنة التي فرضت عليهم منذ نشأتهم وذلك ضمانا لتحصيل الضرائب العينية والنقدية وارسالها الى العاصمة البيزنطية .

وكانت الطريقة المتبعة في جباية الضرائب هي الالتزام فيما عدا ما كان يدفع من هذه الضرائب عينا ، فكان حق جباية الضرائب يعرض في المزاد كل عام ويرسو على من يتقدم على العطاء ، كما كانت الحكومة تفرض على ملتزم الضرائب رقابة صارمة في كل مرحلة من مراحل جبايتها .

وقد أمدنا Milne ببيان أنواع وقيمة الضرائب التي كان يدفعها أصحاب الحرف شهريا أو سنويا (٧) ، وظلت كذلك الى نهاية العصر البيزنطى .

وعلى الرغم مما قيل بانه فى عهد أنستاسيوس ألغيت بعض الضرائب التي كان يدفعها الحرفيون ، الا أن المصادر تؤكد على أن تلك الضرائب ظلت تحصل في مدينة بانوبوليس (اخميم) ، فقد كانت تزيد عن تلك الضرائب التي دفعها ملاك الأراضي في ذلك الوقت ، وهناك اشارة الى أن الامبراطور قسطنطين منح بعض طوائف الحرفيين حق الاعفاء من الليتورجيا او الالتزامات المفروضة عليهم ، الا أن مثل تلك الواجبات ظلت كما هي تؤدي في صعيد مصر مثل مدينة بانوبوليس ، وخاصة التي كانت مفروضة من أجل تزويد الجيش بما يحتاج اليه من الملابس والأدوات الأخرى .

وقد ورث الحكام العرب ذلك النظام المالى عن الادارة البيزنطية وحافظوا على تطبيقه بعد الفتح ، ولم تكن الجزية التي فرضت على الأقباط المصرية الا بمشابهة ضريبة الرأس التي كانت تحصل منهم منذ العصر الرومانى .

(٧) من أنواع الضرائب التي كانت تدفع شهريا ضريبة تاجر الزيت وكان يدفع ٨ دراخمت ، متاجر العطور ٦ دراخمت ، الخباز ٨ دراخمت ، وبائع النبيذ ١٦ دراخمة ، قصار الأقمشة ١٦ دراخمة ، والصياغ ٢٤ دراخمة ، وأما ما كان يدفع من الضرائب سنويا : صانع الطوب ١٠٠ دراخمة ، ١٩٢ دراخمة لقصار الأقمشة ، ٢٨٨ دراخمة للصياغ ، وبائع القصدير ١٦ دراخمة ، وفى أكسيرنخوس (البهنسا) كان يدفع النسيج فى السنة ٣٦ دراخمة .

ولم تخل أى حرفة من دفع ضريبة عليها فى ذلك العصر ، وصياد الطيور فى البر كان عليه أن يدفع ٤٠ دراخمة فى السنة ، أو ٣٢ دراخمة فى مقابل حق الترخيص لمدة خمسة أشهر فقط . أما صياد الأسماك فكان عليه أن يدفع مائة دراخمة سنويا .

ويذكر ابن عبد الحكم أن هذه الجزية كانت تقدر بمعرفة عرفاء القرى ، ويتضح من النص أنها كانت تفرض فقط على المنتج ، أو ما كان في سن العمل أو الانتاج بالمعنى الحديث فلم تكن تفرض على الشيخ الفاني ولا على الصغير ولا على النساء .

وكان العرفاء يقدرونها على أساس الدخل السنوي لكل شخص ، ويذكر البلاذري أنه وضع على كل حالم دينارين جزية الا أن يكون فقيرا . ويجمع الفقهاء على أن الجزية كانت تقدر وفقا لثروة الشخص ، فتؤخذ من الموسر ثمانية وأربعون درهما ، ومن الوسط أربعة وعشرون ، ومن دون المتوسط اثنا عشر درهما . وقد حفظت لنا أوراق البردي كشوفا من عصر الولاة دونت فيها أسماء أشخاص مختلفين ، وذكرت مقدار الجزية الواجبة على كل منهم . وقد اختلفت باختلاف كل شخص وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية فشخص يدفع دينارا وآخر دينارا ونصف ، وثالث ثلثي دينار ورابع دينار وثلث وهكذا .

ويمكن معرفة المستحق من الجزية على هؤلاء الحرفيين والصناع في مصر الاسلامية بقدر احتمالهم كما يذكر ابن عبد الحكم ، وذلك من واقع دخلهم السنوي وتلك الأجور التي كانوا يتقاضونها ، فقد بلغت أجره التجار دينارا ونصفا شهريا ، وأجره الصانع العادي ثلثي دينار في الشهر ، وكانت أجره بناء السفن دينارين شهريا . وبمراجعة حساب الحاكة ، يمكن القول بأن دخله السنوي كان يزيد على مائتي درهم وذلك من واقع أوراق البردي ، وعليه فانه لا يعد فقيرا ويتحمل دفع الجزية .

وكان الفقهاء يرون أن العامل أو الحرفي وغيرهما ممن لا يبلغ دخله في العام مائتي درهم فما دونه يستحق الصدقة . وتكشف لنا أوراق البردي كذلك عن أجره البناء في اليوم ومقدارها ثلاثة دراهم ، وبحساب مجمل أجره على مدار السنة فانه يستحق عليه أن يدفع الجزية .

وهكذا يمكن القول بأن أرباب الحرف والصناعات كانوا في معظمهم يدفعون الجزية ، حتى وإن كانت أجورهم تمثل الحد الأدنى للطبقة العاملة في ذلك العصر .

أما الضرائب التي حافظ العرب على تحصيلها من الحرفيين فهي تختلف عن الجزية بطبيعة الحال وقد كانت تعادل ضريبة الخراج

التي كانت تؤخذ من المزارعين (٨) . وتمدنا أوراق البردي بكشوف خاصة بدافعي الضرائب وهي ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، وتلقى الضوء على نظام الادارة المالية تماما في ذلك الوقت . وفي بردية ترجع الى منتصف القرن الثالث الهجري ورد اسم استحق الأزرق الحائك ، وكانت قيمة الضريبة لمزاولته حرفته ثلاثة دنائير ، واسم هيو الصباغ . كما وردت أسماء أخرى لمجموعة من النجارين والصياغين وقيمة الضرائب المستحقة على كل منهم . وقد تضمنت أوراق البردي أيضا بعض الكشف الخاصة بدافعي الضرائب وقيمة ما يدفعه الأفراد دون معرفة نوعية تلك الضرائب .

ومن أنواع الضرائب الأخرى التي جباها العرب في بداية حكمهم للبلاد كانت المكوس (٩) ، وقد فرضت على أصحاب الحرف عند قيامهم بتصريف منتجاتهم في الأسواق . وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص دعا خالد بن ثابت الفهري لجباية المكوس ، فاستعفاه وزغب عن ذلك ، فاختار ربيعة بن شرحبيل بن حسنة على المكس . وتوضح لنا إحدى أوراق البردي أنه في عام ٩١ هـ رفع المكس عن الحبوبيين في القسطنطينية وذلك لتجنب وقوع الغلاء .

وأيضا عن زريق بن حيان الذي كان على مكس مصر زمن الخليفة عمر ابن عبد العزيز أنه قال : ان الخليفة كتب اليه أن يراقب من مر عليه من المسلمين فيأخذ مما ظهر من أموالهم وما ظهر له من التجارات من كل أربعين دينارا ، وما نقص بحسابه حتى تبلغ عشرين دينارا ، فإذا نقصت عن ذلك تركها ولا يأخذ منها شيئا وإذا مر أهل الذمة أخذ منهم من كل عشرين دينارا دينارا ، وما نقص فبحسابه ذلك حتى تبلغ تجارتهم عشرة دنائير ، فإذا نقصت عن ذلك لا يأخذ منها شيئا .

(٨) كانت تقدر بمعرفة عرفاء القرى وغيرهم . في المدن ، يقول ابن عبد الحكم : « وإذا ما فرغوا من توزيع الخراج لكل قرية نظروا إلى أطراف العمال والصناع في كل قرية فقسموها عليهم بقدر احتمالهم » ومن الجدير بالذكر أن عمرو بن العاص أقر أهل الذمة على ما كان يتحصل منهم للزوم قبل اتمام الفتح ، فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٦ ، حسن إبراهيم ، وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ، ص ٣٧ .

(٩) أصل كلمة مكس في اللغة الجباية ، يقال مكس يمكس مكسا ، والمالكس وهو العشار وهو صاحب المكس . المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ .

ويذكر جروهمان أن كلمة مكس مشتقة من اللفظ السرياني ماكسو Maxco وكان المكس دراهم تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية .
Grohmann : Arabic papyri, vol. 3, p. 9.

وكان فقهاء المسلمين لا ينظرون الى هذه الضرائب بعين الرضا ، لأنها في نظرهم ضرائب غير شرعية ، وكانوا يطلقون عليها اسم المال الهلالى ، وقد عرف المقرئى هذه المكوس بأنها ما يدفع مشاهرة كأجرة الأملاك المسقفة من الدور والخوانيت والحمامات والأفران والطواحين وعداد الغنم ، وقيل ان عمر بن عبد العزيز نهى عن تحصيلها وكتب فى ذلك أن ضعوا عن الناس هذه المكوس فليس بالمكس ولكنه النجس .

ويذكر المقرئى أن الخليفة المهدي كان أول من فرض الضرائب على الخوانيت فى الاسلام وذلك فى سنة ١٦٧ هـ ، وعندما ولى موسى بن مصعب فى عهده تشدد فى استخراج الخراج ، وجعل خراجا على أهل الأسواق .

وتكشف لنا أوراق البردى أن انواعا أخرى من الالتزامات بخلاف الضرائب كانت مفروضة فى ظل الحكم العربى على أرباب الحرف من المصريين ، وكما كانت عليه الحال فى العصرين الرومانى والبيزنطى ، فان هذه الالتزامات كانت تأخذ شكل الخدمات (الليتورجيا) وذلك بتكليف أصحاب الحرف والصناع فى الكور المصرية كالتجارين والحدادين وغيرهم بصناعة وتشغيل مستلزمات السفن الحربية والتجارية داخل وخارج دار الصناعة ، كما كان يفرض على الكور المختلفة قدرا من الأدوات والآلات اللازمة لبناء السفن وتنظيفها ، وكذلك يفرض عليهم تموين الملاحين الذين يعملون فى اعداد وتجهيز الأسطول المصرى فى عصر الولاة .

وقد بلغ من شدة وطأة الضرائب بتنيس وكثرة الرسوم أن أهلها من عمال النسيج وغيرهم من الحرفيين شكوا الى البطريك ديونسيوس أثناء زيارته للمدينة حوالى سنة ٢٠٠ هـ ، وقيل له ان الواحد منهم يلزم بدفع خمسة دنائير فى كل عام ، وهو مبلغ لا يقدرعون عليه ، وتستعمل القسوة فى تحصيله منهم . ويذكر آدم ميتز أنه من كان يتخلف عن دفع هذه الضريبة فانه يتعرض للضرب والسجن بالإضافة الى أخذ الأبناء والبنات كرهان ، ويلزمون فيها بالعمل لديهم سنين لأجل كل دينار واحد على حد قوله .

ويشير البلوى الى الشدة التى استعملها أحمد بن مدبر عامل الخراج فى مصر قبيل الحكم الطولونى ، وما أسفرت عنه سياسة التشدد هذه من شكوى الرهبان بعد ذلك لأحمد بن طولون حينما تولى زمام الأمور عام ٢٥٤ هـ ، من صاحب الخراج ابن المدبر ومطالبتهم بدفع الجزية وكانوا معفين منها .

وتشير المصادر التاريخية الى انتظام الأحوال الاقتصادية أيام

الطولونيين ، حين هددت البلاد وخمدت الثورات ، ويرجع ذلك الى ما قام به أحمد بن طولون من اسقاط الضرائب التي كان ابن المدبر قد فرضها على كل شيء حتى المصايد والمراعى والشب والنطرون (١٠) . ويقول المقرئى : « وأول من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر أحمد بن محمد ابن مدبر ، فانه كان من دهاة الناس وشياطين الكتاب ، فابتدع في مصر بدعا صارت مستمرة من بعده لا تنقض ، فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد أن كان مباحا لجميع الناس . وقرر على الكلا الذى ترعاه البهائم مالا سماه المراعى (١١) ، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا وسماه المصايد (١٢) . الى غير ذلك » .

والواقع أن هذه الضرائب كانت مفروضة على المصريين منذ العصر اليونانى ، وظلت تؤدى فى العصور : الرومانى والبيزنطى . ويظهر أن الولاة والحكام لم يعملوا على تحصيلها فى فجر الاسلام ، الى أن أعادها أحمد بن مدبر الذى تقلد رئاسة بيت المال فى مصر سنة ٢٤٧ هـ .

ومهما يكن من أمر فائنا لا نسمع شيئا عن شكوى أصحاب الحرف وغيرهم من العسامة أيام حكم الطولونيين والاشيدين ، بسبب وطأة الضرائب واستخدام الشدة فى تحصيلها ، بالإضافة الى أن المصادر لم تحفظ لنا شيئا كثيرا عن عمال الخراج فى مصر الاشيدية ولا عن أساليبهم فى جباية الضرائب .

أما فى العصر الفاطمى فيذكر المقرئى أنه أعيدت الأموال الهلالية ، وصارت تعرف بالكنوس ، ويبدو من سياق النص أنها زيدت فى العصر الفاطمى الأخير من حيث نوعها ومقدارها وعددها . والذى يهمنا فى الواقع

(١٠) يذكر المقرئى أنها كانت تبلغ بمصر مائة ألف دينار فى كل سنة . الخطط ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

جرومان : أوراق البردى العربية ، ج ٤ ، ص ٧٩ .

(١١) والواقع أن هذه الضرائب وغيرها كانت مقررة منذ العصر الرومانى والبيزنطى ويذكر Johnson & Well أن ضريبة المراعى ظلت مفروضة على رعاة الأغنام بجهة أفروودتو (كوم اشقاو) وكانت لهم نقابة The guild of Chephers خاصة بهم مسئولة عن جمع الضرائب وتحصيلها .

Byzantine Egypt, Economic Studies, p. 153.

(١٢) كما يذكر لنا Milne أن صياد الطيور فى العصر الرومانى كان عليه أن يدفع ٤٠ دراخمة فى السنة ، أما صيادو الأسماك فى بحيرة مورييس فكانت الإدارة تزجر لهم حق الصيد فيها .

A History of Egypt under Roman rule, p. 157.

إن هذه الضرائب على كثرتها لم تكن بطبيعة الحال فى صالح أرباب الحرف والصناع ، ولا فى صالح المستهلكين من أفراد الشعب ، إذ تؤدى إلى ارتفاع تكاليف الإنتاج وأسعار السلع تبعاً لذلك .

وفى عهد المعز لدين الله وبداية الحكم الفاطمى للبلاد اشتد يعقوب ابن كلس فى طلب الخسراج (١٣) ، ويوضح لنا المقرئى قيمة ما تم استخراجها من الضرائب من أصحاب حرفة النسيج فى بعض المدن الصناعية فيقول : « أنه حصل فى يوم واحد من مال تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من مائتى وعشرين ألف دينار . . وهذا شيء لم يسمع قط بمثله فى بلد » ومن المعروف أن هذه المدن الثلاث كانت من أهم مراكز صناعة النسيج فى مصر فى ذلك الوقت .

كانت الضرائب التى فرضها الفاطميون على أنواع الصناعات ثقيلة ، فهى تشمل المواد الأولية وأماكن الصناعة والآلات المستعملة ، وقد عثر المقدسى الذى زار مصر فى عهد العزيز بالله عن ذلك حيث قال : « وأما الضرائب فتثقل بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، وأما ثياب الشطوية فلا يمكن للقبطى أن ينسج شيئاً منها إلا بعد أن يختم عليها بخاتم السلطان ، ولا أن تباع إلا على يد سماسرة قد عقدت عليهم ، وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته ، ثم تحمل إلى من يطويها ثم إلى من يشدها بالقش ، ثم إلى من يشدها فى السفط وإلى من يحزمها ، وكل واحد منهم له رسم يأخذه ثم على باب الفرضة يؤخذ أيضاً شيء (١٤) ، وكل واحد منهم له رسم يأخذه ، ثم تفتش المراكب عند اقلاعها . . كما كان يؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب .

والواقع أن الحكومة الفاطمية لم تدخر جهداً فى سبيل تحصيل هذه الرسوم أو الضرائب على أصحاب صناعة النسيج أو معاصر الزيت وغير ذلك ، بل إنها اتخذت من الاحتكار وسيلة لإنتاج بعض السلع وبيعها لزيادة إيراداتها ، مثل العمل على استخراج الشب وبيعه ، فكان يسلم منه للديوان

(١٣) قيل إن قيمة المتحصل من خسراج على يد ابن كلس بلغت ثماناً وخمسين ألف دينار فى يوم واحد ، المخطوط ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(١٤) الفرضة هى ضريبة الجمارك وهى نوع من ضرائب الميناء ، فضلاً كانت السفن التى تحمل البضائع من تنيس إلى ساحل مصر عليها أن تنفع ضريبة محبدة وهكذا . جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٥ ، ص ١٠٣ .

وقد ذكر المقدسى أنه كان يجلس بساحل تنيس أحد عمال الضرائب قيل أنه كان يحصل فى كل يوم ألف دينار . احسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

ما يبلغ اثني عشر ألف قنطار ، حيث كانت تبيعه لتجار الروم بأسعار تتراوح بين أربعة وستة دنانير للقنطار (١٥) ، ولا تخص السوق المحلية منه الا بمقدار ثمانين قنطارا فقط تباع بسعر أعلى .

ومما لا شك فيه أن سياسة الاحتكار كانت تقلل من قيمة المكاسب التي تعود على أصحاب الحرف أو العمال الذين كانوا يعملون في استخراج المعدن ، ونقله الى الاسكندرية حيث يتم بيعه هناك ، فلا يستطيع أحد من العربان ولا غيرهم من شراء أى مقدار من الشب ، كما يقول المقرئى : « فان عثر على أحد أنه اشترى منه شيئا أو باعه سوى الديوان نكل به واستهلك ما وجده معه » .

ولم يقتصر الأمر على احتكار استخراج الشب ، بل ان الفاطميين عملوا على انشاء المتجر لشراء بعض السلع والمواد الخام ، وبيعها بعد ذلك من أجل الحصول على الربح الناتج بين ثمنى الشراء والبيع ، ويتحدث المقرئى عن هذا المتجر وأنه كان فى الأصل لخزن الغلال ، ولكن الوزير اليازورى فى عهد الخليفة المستنصر أشار الى تحويله كمتجر لخزن الخشب والحديد والصابون والرصاص . واستمر الحال على ذلك حتى نهاية الدولة الفاطمية . ولا جدال فى ان مثل هذه السياسة كانت تقلل كثيرا من عائد أصحاب الحوانيت والحرف ودخلهم العام .

وعلى الرغم من اتخاذ سياسة التسامح الدينى مع اهل الذمة من جانب الفاطميين ، الا أنهم كانوا يحرصون كل الحرص على تحصيل الضرائب منهم ، وقد عبر اهل الاسكندرية من أصحاب الحرف والتجار عن صعوبة تدبير الضرائب الثقيلة المفروضة عليهم . ومن الجدير بالذكر أن الاسكندرية كانت تؤدى ما عليها من الضرائب والأموال الى خزانة السلطان رأسا كما كان عليه الحال منذ العصر البيزنطى .

وكان فقهاء المسلمين يعتبرون كل ما زاد عن الضرائب الشرعية ضرائب غير قانونية كما أشرنا من قبل ، ولهذا السبب نجد الخليفة الحاكم حينما أراد أن يطبق ذلك ، أمر باسقاط جميع الرسوم والمكوس التى جرت العادة بها . لكنه سرعان ما أعيدت فى عهد الخليفة الظاهر الى ما كانت عليه ، وهكذا ظلت الرسوم تجبى من الحرفيين وأصحاب المصانع الأهلية حتى سقوط الدولة الفاطمية .

(١٥) كانت الحكومة تنفق نحو ثلاثين درهما على استخراج القنطار أى ما يقرب من دينارين وكان صافى الربح لا يقل عن أربعين ألف دينار فى السنة . ابن مائى : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

ويشير ابن جبير الذي زار مصر بعد وفاة العاضد - آخر الخلفاء الفاطميين بقليل الى شناعة المكوس التي فرضوها في عهدهم (١٦) ، ولما قام به صلاح الدين بعد أن استولى على مقاليد الحكم من الغاء تلك الرسوم والمكوس التي قدرت بنحو ١٠٠ ألف دينار (١٧) . كما نقل أبو شامة عن ابن أبي طى قوله : « وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار ، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار . وكما ذكر القلقشندي فإنه كانت قد عمت البلوى بهذه المكوس وخرجت في التزويد عن الحد ، ودخلت الشبهة في أموال الكثير من الناس بسببها في أواخر أيام الفاطميين . »

ومهما قيل عن شناعة المكوس التي فرضها الفاطميون ، فإنها لا شك تعبر في جلاء عن مدى النشاط الصناعي والتجاري التي حظيت به البلاد في عهدهم ، وأن العبء الأكبر منها كان يقع على عاتق التجار والتجارة الخارجية .

كما عمل الفاطميون على إقامة الخانات في القاهرة والفسنطاظ وكانت تؤجر لهؤلاء الحرفيين مثل الخياطين والرفائين وغيرهم ، ويصف ناصر خسرو ما كان منها في مصر (يعني الفسطاظ) فيقول : « ورأيت هناك رباطا يسمى دار الوزير لا يباع فيه سوى القصب . وفي الدور الأسفل منه يجلس الخياطون وفي الأعلى الرفاءون . . . وسألت القيم عن أجر هذا الرباط الكبير فقال : كانت كل سنة عشرين ألف دينار مغربي ، ولكن جانبا منه قد تخرب وهو يعمر الآن ، فيحصل منه كل شهر ألف دينار ، يعني اثني عشر ألف دينار في السنة . . . وقيل إن في هذه المدينة مائتي رباط منه أو مثله ، ومهما كان الأمر من مبالغة الرحالة الفارسي حين جعل ايجار الواحد منها اثني عشر ألف دينار في السنة (١٨) ، إلا أن سياق النص يكشف لنا عما كان يتكبده الحرفيون من تلك الايجارات الباهظة التي فرضها الحكام الفاطميون ، والتي كانت بطبيعتها الحال تمتص مكاسبهم ، فلا يعود عليهم الا القليل من حرقهم ومعاشهم . »

(١٦) يصف ابن جبير أنواع الضرائب والمكوس المختلفة التي جباها الفاطميون ، فيقول : « كانت هناك ضرائب على كل ما يباع ويشترى مثلا دق أو جل حتى نان يؤدي على شرب الماء من النيل المكث فضلا على سواه . . . كتاب الرحلة ، ص ٢٥ . »

(١٧) أورد المقرئزي قائمة بتلك الرسوم التي تم إسقاطها وهي تشمل كل شيء في باب الصناعة والتجارة . الحطف ، ج ١ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(١٨) ولعل الرحالة الفارسي قصد التقدير بالدواهم فدفعه حملته إلى جعله بالدنانير وعلى كل حال فيجب التحفظ الشديد في هذه الأرقام التي أوردتها عن الحوائث والايجار فهي لم ينحر على ما يبدو الدقة في التقدير ، ولم يعتمد على بيانات رسمية ، وإنما هي أخبار تسقطها من هنا وهناك ومنجلها في كتابه .

٣ - طرق الاشراف على اصحاب الحرف والصناعات

عرفت مصر نظام النقابات قبل الفتح العربى بقرون طويلة ، فقد كان لكل حرفة من الحرف نقابة خاصة بها (١) ، كما عرفت نظام العرفاء ، حيث كان فى كل قرية عريف يتولى أمرها وينظر فى شئونها ، هذا وقد استعان عمرو بن العاص بعد اتمام الفتح للبلاد عام ٢١ هـ بالعرفاء فى جباية الجزية والحراج وفى تقدير الضرائب على أصحاب الحرف والصنائع فى ذلك الوقت ، كما استعان بهؤلاء فى اصلاح الطرق واقامة الجسور والأسواق .

كما يذكر ابن عبد الحكم أن عمرو جعل لكل طائفة من الجند الموابطين فى الاسكندرية عريفا يرعى شئونها ، وله قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه ، وليس من المستبعد أنه تم اختيار عرفاء جدد لطوائف الحرفيين فى ظل الحكم العربى الجديد للبلاد ، وذلك للاستعانة بهم فى الرقابة على الأسواق ، كما حدث فى الكوفة بالعراق .

هذا وقد حث الاسلام على العمل وجعله من بين سائر العبادات ، فجعل العمل عبادة لأنه من وراء العمل نفع للناس ، ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال « الخلق كلهم عيال الله وأحبهم اليه أنفعهم لعياله » ، وكذلك قوله : « العمل صدقة وكان من أبلغ الصدقات اتقان العمل كما قال عليه الصلاة والسلام « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

وكما زكى الاسلام العمل وحث على اتقانه ، منع الغش وحارب اساليبه فى كل شئ ، وكان الاشراف على الأسواق فى عهد الرسول صلى

(١) يشمل نظام النقابات الذى كان معروفا بمصر حتى اوائل القرن السابع الميلادى كافة الحرف والصناعات فى مصر ، ولم يستثن من ذلك شيئا فكانت توجد نقابات حتى لصيادى الاسماك ورعاة الأغنام مثل ما كان فى افروديتو (كوم اشقاو) بصعيد مصر .

Johnson. Economic Studies, p. 154.

الله عليه وسلم (٢) : فقد استعمل على سوق مكة سعيد بن العاص ، كما
كما استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب على سوق
المدينة . وذكر القلقشندي أن أول من قام بأمر الحسبة (٣) ، وصنع الدرة
في الاسلام هو عمر بن الخطاب .

ولا شك أن عمرو بن العاص وولاة مصر من بعده قد عملوا على
استعمال العرفاء بالاسواق بحسب قول النبي صلى الله عليه وسلم :
« استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها » . ويبدو أن دور العريف كان
أكثر تحديدا ووضوحا من دور المحتسب في عصر الولاة ، فلم تذكر لنا
المصادر شيئا عن استقلال وظيفة المحتسب ، كما أشارت إلى هؤلاء العرفاء
وذكرت أسماءهم . فقد ظلت أعمال الحسبة موزعة بين القضاة وعمال
الخراج وأصحاب الشرطة (٤) ، حيث تولى بعض القضاة الاشراف على دار
الضرب ، كما تولى بعض عمال الخراج الاشراف على دار العيار (٥) ، وجعل
فريق منهم خراجا على الحوانيت . وفام آخرون بكسر أواني الخمر وعطنوا
الحمامات .

أما عن العرفاء فهم المسئولون أمام القاضي وغيره من عمال الخراج ،
ذكر الكندي أن القاضي عبد الرحمن بن معاوية بن خديج في نظره أموال
اليتامى قد استعان بعرفاء القبائل وضبطها ، وأشهد فيها وذلك في
سنة ٨٦ هـ .

ومما لا شك فيه أنه لما توسعت الفسطاط ، وتعددت الأسواق ،
ونشط أصحاب الحرف وأهل الصنعة بها ، أصبح من المتعذر أن تدخل
الاحاطة بأفعال هؤلاء جميعا تحت وسع من يشرف على أعمال الحسبة في
عصر الولاة ، وعندئذ جاز للقضاة أو عمال الخراج أن يستعينوا بعمال

(٢) أخرج الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على صبرة طعام
فادخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللا ، نال : يا صاحب الطعام ما هذا ؟ قال : أصابته
السماء يارسول الله قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ثم قال : من غشنا
فليس منا « عبد الحى الكتاني : الترايب الادارية ، ج ١ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٣) يقصد بالحسبة والاحتساب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد نشأت هذه
الوظيفة لتراقب تنفيذ أحكام الشريعة فيما هو حادث في المجتمع الاسلامي على اختلاف طبقاته
وجميع طوائفه .

(٤) كان يونس بن عطية في مصر مجموعا له القضاء والشرطة وذلك في مستهل
سنة ٨٦ هـ . الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٣٢٣ .

(٥) هي الدار أو المكان الذي تعبر فيه جميع الموازين والصنح والمكاييل ونحو ذلك .
ابن ماتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٢ ، المقرئ : المخطوط ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

والعرف والصناعات - ٤١٧

الأسواق في الاشراف والرقابة على أهل الحرف ، وبهؤلاء العرفاء ، فجعل على كل صنعة عريفا من صالح أهلها خبيرا بصناعتهم بصيرا بنفسهم وتدليسهم ، مشهورا بالثقة والأمانة يكون مشرفا على أحوالهم وتعاملهم مع زبائنهم .

ولم تكن مهمة الاشراف والرقابة على أسواق القسطنطين وغيرها من المدن المصرية ، بالأمر الهين أو اليسير ، فهي تعكس جملة قضايا اقتصادية واجتماعية ودينية وفنية في وقت واحد ، كلها ذات صلة وثيقة بحياة المجتمع وأصحاب الحرف ، وبما جاء به الاسلام وعمل الفقهاء والتضاة والأولاء على تطبيقه منذ بداية العصر الاسلامي .

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) حينما انتظمت أحوال المدن الاسلامية ، وما ترتب على ذلك من توسع الأسواق ، وأصبح لكل صنف أو حرفة سوق خاص بها ، بدأت تظهر وظيفة الحسبة بشكل واضح ومستقل في بغداد . ويذكر الماوردي أنه لما تبع ذلك من ازدهار للتجارة وظهور النقود الزائفة في الأسواق ، عندئذ برز دور المحتسب وصار يتقاضى راتبا معيناً من بيت المال . ويبدو أنه على أثر ذلك فقد تم تعيين أحد القضاة أو عمال الخراج في مصر في هذه الوظيفة ، يؤيد ذلك وجود صنجة مصرية مؤرخة في سنة ١٦٩ هـ باسم اسماعيل بن صالح المحتسب في ولاية الفضل بن صالح على مصر (٦) .

ولكنه - مع الأسف - لم نثر على أسماء لهؤلاء المحتسبين على وجه التحديد حتى عام ٢٥٣ هـ ، فقد ذكر الكندي أن أرجوز بن أولغ ولى أمر الشرطة عام ٢٥٣ هـ ، وكان شديدا ، فمنع النساء من ارتياد الحمامات والذهاب الى المقابر ومنع النوح في الجنائز ، وعاقب من خالف ذلك بشدة .

ويبدو كذلك أن وظيفة المحتسب لم تستقل عن صاحب الشرطة أو القاضي في عهد الدولة الطولونية تماما ، بل كانت من أعمال القضاة الاشراف على دار العيار ودار الضرب والاستعانة بالعرفاء في الاشراف والرقابة على أهل السوق وما ينتجونه من أنواع السلع الغذائية أو المعدنية لزوم احتياجات الشعب ، هذا ولم تذكر المصادر شيئا عن أسماء المحتسبين ، وذلك كما أمدنا ابن سعيد ببعض الأسماء قبيل الاخشيديين . وكان من هؤلاء أبو مقاتل صالح بن محمد الذي تقلد منصب الحسبة قبيل ولاية محمد بن طغج الاخشيدي على مصر بسنوات قلائل ، ثم محمد بن جعفر

(٦) هذه الصنجة محفوظة الآن بالمتحف البريطاني . السيد الباز العريني : الحسبة والمحتسبون في مصر ، ص ١٦٠ - ١٦٢ .

القرطبي الذي قلده مؤنس الخادم هذا المنصب في تلك الفترة أيضا . ثم قلده الخراج .

ويشير ابن سعيد أيضا الى اهتمام مؤسس الدولة الاخشيدية بشئون الحسبة ، فمن ذلك أنه أمر القائمين على أمرها بهدم المواخير ودور المقامرین والعمل على اقتفاء آثارهم والقبض عليهم .

ومن المحتسبين الذين عرفت باسمه أحد الأزقة بمدينة الفسطاط صدقة بن الحسن الصدفي ، يذكر ابن سعيد أنه كان المشرف على دار الضرب في عهد محمد بن طغج الاخشيد .

ويمدنا المسبحي باسم أحد مشاهير العرفاء في عهد الاخشيديين وهو أبو الحسين بن تحرير الأرعلي ، ويقول عنه : « هو أكبر من بقى من عرفاء الاخشيدية » وقد عاش حتى زمن الخليفة الفاطمي الظاهر (٧) ، وكان على العرفاء أن يراقبوا طوائف الدقاقين أو الطحانين ، فانهم ربما خلطوا دقيق الحنطة أو القمح بدقيق الشعير المنخول أو دقيق الباقلا والحمص ونحو ذلك .

والظاهر أن شئون الحسبة قد أهملت في أواخر أيام الاخشيديين ، فقد روى ابن زولاق أن سيبيويه المصري وكان من الأدباء والمشاهير في عصره وقد ساء ولاية محمد بن جعفر بن سلام لشئون الحسبة ، فركب الى أبي الفضل جعفر بن الفضل الوزير وقال له : « أبا الفضل حفظك الله برعائك وصانك وأبقاك ، وليت علينا محتسبا قليل الوفا كثير الجفا ، طويل القفا ، فاما ان كفيتناه أو أبدلته لنا بسواه » . ويظهر من هذا النص أن الوزير الاخشيدى كان صاحب الرأي الأعلى في اختيار المحتسب وفي عزله .

ومن مظاهر اهمال شئون الحسبة ما شاع من اظهار للملاهي والمنكرات في أعياد المصريين القومية مثل عيد الغطاس ، وحصول بعض المحتسبين على البراطيل من الباعة وأصحاب الحرف المختلفة (٨) . وهكذا كان بعض الذين تقلدوا الحسبة بعيدين عن انفضائل ، حيث لا يميل

(٧) توفي سنة ٤١٥هـ . وحضر جنازته جمع غفير من العرفاء مما يدل على شأنهم في ذلك العصر . أخبار مصر ، ص ٢١٦ .

(٨) البراطيل : هي الأموال التي كانت تؤخذ من ولاء الملاد وقضاتها وعمالها ومحتسبيها ، وما يعزز وجودها فييل العصر الفاطمي ، ما يذكره المقريزي ، من أن جوهر في أعقاب النجح أمر في ذي الحجة سنة ٣٥٨هـ برفع البراطيل . المقريزي ، الخطط . ج ١ ، ص ٢٠٦ .

ولا يرتشى من الباعة فتسقط هيئته ويستخف به . وحسبنا ما رواه ابن زولاق أن سيبويه المصرى لقي المحتسب والحراس بين يديه فقال : وما هذه الأجراس يا أنجاس ، والله ما ثم حق أقمتموه ولا سعر أصلحتموه ، ولا جان أدبتموه ، ولا ذو حسب وقرتموه . وما هى الا أجراس تسمع لباطل يوضع وأقفاء تصفع وبراطيل تدفع ، لا حفظ الله من جعلك محتسبا ولا رحم الله ولا له أما ولا أبا ، . . . ولا شك أن هذا يفسر لنا ما بلغته الحسبة فى أواخر عهد الاخشيديين ، حين اضطربت الأسعار ، واختفى الخبز من الأسواق ووقعت ثورات الجند ، مما حدا بفريق منهم الى مكاتبة المعز لدين الله الفاطمى للقدوم الى مصر .

وعندما قدم جوهر الصقلى وتم له فتح البلاد واستولى على القسطنطينية عام ٣٥٨ هـ وجه اهتمامه الى معالجة أزمة الغلاء الواقعة ، وكان المحتسب الى أول عهد الفاطميين سيئا فأقاله القائد جوهر على اثر الفتح ، وعين مكانه رجلا من المغاربة فى ربيع الثانى سنة ٣٥٩ هـ . كما أمر برفع البراطيل ، لكنه سرعان ما تار عليه الصيارفة لأنه أنب جماعة منهم ، فاحتج عليه الباقون ، وقد توفى المحتسب المغربى أبو جعفر الخراسانى بعد قليل ، وتولى من بعده الحسبة سليمان بن عزه وكان عليه كما يقول السبكي النظر فى معالجة أزمة القوت وكشف غمة المسلمين فيما تدعو حاجتهم اليه ، فقد أمر بضرب جماعة من الطحانين ، وطيف بهم ، وجمع سماسرة الغلات بمكان واحد فلا تباع الغلات الا به وبحضور المحتسب نفسه .

والواقع أن دور المحتسب وأعوانه من العرفاء ، كان يبرز بشكل واضح أثناء وقوع الأزمات ، واحتكار طائفة الجبويين للحنطة والغلال ، واستغلال الطحانين والخبازين تلك الأزمات .

لكن ذلك لم يمنع أن يسند الى المحتسب مهام أخرى يشرف على متابعتها ، ففي بداية عهد العزيز بالله ، ذكر القاضي أن جامع القرافة الذى أمرت بينائه السيدة تغريد أم الخليفة على نفقتها سنة ٣٦٦ هـ كان تحت اشراف الحسين بن عبد العزيز الفارسى المحتسب ، فكان يشرف على البنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين الذين يعملون فى بناء الجامع ، وذلك على غرار عمارة الجامع الأزهر .

ولم تقتصر وظيفة المحتسب على القضاة أو الفقهاء خلال العصر الفاطمى ، بل ربما اختير صاحبها من بين التجار المياسير وأصحاب الحوانيت والمصانع ، فمن ذلك ما يذكره المقرئى من أن أحد أصحاب الحوانيت حينما ترقى أحواله وأصبح من مياسير التجار ، أمكن له تولى شئون الحسبة .

لكنه كما يقول المقرئى دخل فيما لا يليق به وأساء فى معاملة الناس ، وذلك بما يتعارض وهذه الوظيفة الدينية الجليلة ، وكان مضيره أن أمر الحاكم بقتله فى سنة ٣٩١ هـ .

وفى بعض الأحيان كان يتولى صاحب الشرطة شئون الحسبة ويجمع بينها وبين ولايته لمدينة القسطنطية كما حدث فى عهد الحاكم بأمر الله ، وفى سنة ٣٩٨ هـ ، قرىء سجل بالجامع العتيق وجامع ابن طولون بتولية غالب بن مالك الشرطتين والحسبة والنظر فى البلد ، وصرف خود ومسعود عن منصبيهما .

كما نسمع عن متولى الستر فى العصر الفاطمى من أنه كان يقوم بأعمال الحسبة (٩) ، وفى عهد الحاكم بأمر الله صدرت الأوامر الى مسعود الصقلبى متولى الستر بالنظر فى أمر الأسعار ، فجمع خزان الغلال والطحانين والخبازين ، وقبض على ما بالساحل من الغلال ، وأمر أن لا تباع الا للطحانين ، وسعر القمح كل تليس بدينار الا قيراطا والشعير عشر وبيات بدينار فسكن الناس بوجود الخبز .

ويصف ابن الطوير وظيفة الحسبة فى زمن الفاطميين بأنها خدمة دينية لا تسند الا الى وجوه المسلمين وأعيان المعدلين ، وكان المحتسب له نواب فى كل من القسطنطية والقاهرة وجميع أعمال الدولة ، وله الجلوس بجامعى القاهرة ومصر يوما بعد يوم .

وقد بلغت منزلة المحتسب فى عهدهم أنه أصبح كالأمير ، كما يقول المقدسى ، وله من النفوذ والسلطان ما للوزراء وكبار الدولة فى سائر أنحاء البلاد . ويوضح لنا القلقشندى أهمية هذه الوظيفة الجليلة فيقول : « وموضوعها التحدث فى الأمر والنهى ، والتحدث على المعاش والصنائع ، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح فى معيشتة وصناعته » . كما يتضح لنا من سياق النص أن هذه الوظيفة كانت موزعة بين ثلاثة من المحتسبين ، فأحدهم كان بالقاهرة وله التصرف بالحكم والتولية بالوجه البحرى ، فهو أعظمهم قدرا وأرفعهم شأنًا .

وكانت الاسكندرية لها محتسبها الخاص بها ، مما يدل على أهميتها فى عهد الفاطميين ، أما محتسب القسطنطية فهو يختص بالوجه القبلى بالإضافة الى مدينة القسطنطية .

(٩) ويظهر أن وظيفة متولى الستر كانت تخص شئون الحرم داخل القصر الفاطمى ، وذلك على عرار ما ذكره ابن الجوزى بمناسبة تعيين محتسب خاص بالحريم فى بغداد وذلك سنة ٤٧٢ هـ . المنتظم ، ج ٨ ، ص ٢٣ ٠

ونقل المقریزی عن ابن الطویر أن نواب المحتسب كانوا يطوفون على أرباب الحرف والصناعات ، وكان يأمر نوابه بالختم على قدور الهراسين ونظر لحومهم ، وكذلك الطبّاخون ويتبعون الطرقات ، ويمنعون من المضايقات منها . وكان لهم الإشراف على تنفيذ أصحاب المصانع للشروط الصحية المطلوبة ، مثل مراعاة سعة الأماكن وتهويتها وارتفاع سقفها ، ومراعاة إقامة الصناعات المقلقة للراحة أو الضارة بالصحة كمسابك النحاس وغيرها في أطراف المدينة . وكان والى المدينة يكلف بمراعاة تنفيذ ذلك بمعرفة ومساعدة عرفاء الأسواق وأمناء الصناعات تحت إشراف المحتسب .

ومما يدل على أهمية وظيفة المحتسب في العصر الفاطمي أنه تم أفراد ديوان لها من بين الدواوين كان يعرف بديوان العرائف ، ذكر المسيحي أن الجنود العبيد السودان ، قاموا بنهب إحدى الجهات بالأشمونين والعرب وحضر معهم دواس بن يعقوب المحتسب متولى ديوان العرائف فشكا إلى معضاد الخادم من سوء أفعال الجند العبيد ، فكان جوابه : انهم عبيد مولانا يعنى الخليفة الظاهر وكان في هذا الجواب ما فيه من فساد الأحوال وأطماع الجند في السلب والنهب والمتاعب التي كان يعاني منها المحتسب في ذلك الوقت .

والظاهر أن وظيفة المحتسب لم يكن يرغب فيها كثير من القضاة والفقهاء ، وغيرهم نظرا لتلك الظروف السيئة التي كانوا يتعرضون لها أثناء توليهم لها ، يشير المسيحي إلى ذلك ، فقد ذكر أن الخليفة لأعزاز دين الله ، عرض على محمد بن أحمد العميدى حسبة القسطنطين وكان يتولى ديوان الترتيب ، فطلب من الخليفة إعفاءه منها وقال : كنت بالأمس جليس أمير المؤمنين وصاحب خريطته ، أصبح اليوم محتسبا ، لم أكن لأفعل . فاستحضر الخليفة دواس بن يعقوب الكتامي وولاه أمور الحسبة وخلع عليه بثوب مقل وعمامة ، حدث ذلك في شهر رجب سنة ٤١٤ هـ .

ومما يذكره المسيحي أيضا أن المحتسب دواس بن يعقوب ، هذا حينما وقع الغلاء وتعذر وجود الأخباز بمصر (يعنى بالقسطنطين) في عهد الظاهر وكثرت الزحمة على الدكاكين ، فانه ألقي القبض على جماعة من الخبازين وشهر بهم بسبب ترافعهم في السعر ، وقام بفتح مخازن الغلال وأطلق من الساحل غلال كثيرة . كما ألزم الخبازين بالمقررات أو الحصص المفروضة عليهم ، وختم على مخازنهم ، وفتش طواحينهم . ويذكر المسيحي في موضع آخر أن المحتسب قام بضرب طائفة من الخبازين بسبب غشهم في الصنج والموازين التي يزنون بها الخبز .

وكان على المحتسب أن يعمل على تسجيل أسماء الخبازين فى القسطاط والقاهرة وأماكن حوانيتهم وذلك للرجوع اليها عند الحاجة . وكان يلزم الطحانين من أجل تنظيف الغلال وتنقيتها قبل طحنها ، كما يجب على أعوان المحتسب مراجعة مناخل الدقيق فى كل ثلاثة شهور أو أقل من ذلك حفاظا على جودة الدقيق وبياضه ونحو ذلك .

ويوضح لنا ابن الاخوة أنه كان على المحتسب أن يعرف على الفرانين رجلا ثقة من أهل صناعتهم ، كما يعرف على الغرابليين رجلا ثقة بصيرا بغشهم ، مما يدل على أهمية دور العرفاء واشرافهم على مراحل صناعة الخبز أولا بأول ، وهكذا كانت مهمة المحتسب وأعوانه من العرفاء للأسواق والأمناء فى مراقبة الطوائف الحرفية والاشراف عليها فى كل مراحل صناعاتها ، من أجل توفير القوت للشعب ، ومنع الاحتكار وغش الحرفيين وتدليسهم فى كل ما يصنعونه داخل حوانيتهم ، وليس العمل على قتل أية محاولة للعمل المستقل كما يقول برنارد لويس ، والعمل فقط على دز أخطار أرباب الحرف وأهل الصنائع وكيفية السيطرة عليهم فى كل وقت .

وخير دليل على ذلك ما حفلت به كتب الحسبة من تلك الشروط التى ينبغى توافرها فى كل من المحتسب وأعوانه من العرفاء ، وما أوضحتها من مهامهم ، وضمنها قول الشيزرى وابن الاخوة أنه يجب على المحتسب أن يعرف على أهل الصنعة رجلا ثقة أمينا من أهل صناعتهم بصيرا بصناعتهم عارفا بغشهم وتدليسهم ، بصيرا بأقوالهم . . له دين ، ينهى أخبارهم للمحتسب .

وكان العريف يستمد سلطته من ثقة المحتسب به وتصديقه لكل ما ينقله اليه من أخبار أبناء طائفته ، يعزز ذلك قول المقرئى : « والعادة جارية باستخدام عرفاء فى الأسواق على أرباب الصنائع ، ويقبل قولهم فيما يذكرونه » .

وكانت سلطة العريف تتيح له الحضور أثناء قيام أبناء طائفته بمراحل عملهم ، بل ان بعض الحرف كانت تشترط ألا تتم مراحل معينة منها الا بحضوره ، ومن هؤلاء الهرايسيين - وهم طباخو اللحوم المهروسة . اذ كان يشترط عليهم ألا ينزلوا اللحم فى القدر الا بحضرة العريف ، ثم يختم بخاتم المحتسب ، فاذا كان وقت السحر حضر العريف ، وكسر الخاتم وهرسوها بحضرة العريف لئلا ينزعوا اللحم منها .

وكان العريف هو الواسطة بين أرباب الحرف والحكومة ، وكثيرا ما كانوا يستغلون وظيفتهم من أجل صالح أنفسهم وخاصة أثناء وقوع

الآزمات ، وكانوا يبيعون بالأسعار المرتفعة اعتمادا على سلطانهم الحكومي ، يتضح ذلك فيما رواه المقرئى حينما أمر الوزير اليازورى فى عهد الخليفة المستنصر ، بصرف عريف الخبازين عن وظيفته ومعاقبته ، واغلاق دكانه ، ويرجع ذلك الى أنه كان لعريف الخبازين هذا دكان يبيع الخبز بها ومحاذيها مكان آخر لأحد الناس يبيع الخبز بها أيضا ، ويذكر المقرئى أنه حدث أن باع بسعر أقل مما يبيع به العريف ، فحنق لذلك ووكل به عريئين من الحسبة ، أغرماء عشرة دراهم ، ولجأ صاحب الدكان الى اليازورى ، فانضر المحتسب فأنكر عليه ما فعل بالرجل ، ودفع اليه ثلاثين ربا عيا من الذهب على سبيل التعويض .

ومما يذكر أنه حينما عاد صاحب الدكان ، فانه عمل على تخفيض سعر الخبز أكثر من ذى قبل حتى اضطر الخبازون الآخرون مجاراته والبيع بأقل من السعر الذى كانوا يبيعون به .

★ طرق الاشراف والرقابة على أصحاب الحرف فى العصر الفاطمى :

(أ) الاشراف على دار العيار :

كان من أهم واجبات المحتسب الاشراف على دار العيار التى أنشأها الفاطميون (١٠) ، وفيها كانت تعير جميع الصنوج والموازين ، وكان ينفق عليها من أموال الديوان فيما يحتاج اليه من المواد الخام اللازمة لصناعة الموازين والصنوج والمكايل ، من النحاس والحديد والخشب والزجاج ونحو ذلك من الآلات وأجر الصناع والمشارفين وغيرهم من العاملين بالدار .

وكان المحتسب يحضر الى هذه الدار أو نائبه ليصير المعمول فيها بحضوره ، فان صح ذلك أمضاه ، والا أمر باعادة عمله حتى يصح ، وكان بهذه الدار أمثلة ونماذج يصحح بها العيار ، فلا تباع الصنوج والموازين والاكياال الا بها . وكان الباعة والحرفيون يتوجهون الى شراء حاجتهم منها ، وخاصة اذا ما وجدت موازينهم أو صنجاتهم ما يخالف العيار ، فحينئذ يتم استهلاكها ويبيع لهم غيرها ، ويجعل من فضل الثمن ما يرد الى الدار . ويظهر من قول المقرئى أنه فى أواخر أيام الفاطميين تمت

(١٠) المقرئى : المخطوط ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

كان جارى المحتسب فى الشهر ثلاثين دينارا ويقرأ فى سجله بمصر والقاهرة على المنبر ، ولا يحال بينه وبين مصلحة اذا رآها .

المسامحة من ذلك ، وصار يلزم من يظهر في ميزانه أو صنجه خلل باصلاح ما فيها من فساد ، والاكتفاء بسداد أجرة ذلك فقط .

ومن الجدير بالذكر أنه كان على المحتسب ونوابه النظر في الأسواق ، وعليهم أن يعيروا على أهل السوق صنجاتهم وموازينهم ومكاييلهم كلها ، يقول ابن الاخوة : « وينبغي على المحتسب أن يتفقد عيار المناقيل والصنج والأرطال والحببات على حين غفلة من أصحابها ، فإن في الصيارف من يأخذ حبات الحنطة فينقعها في الماء ، ثم يفرس فيها رؤوس ابر انثولاذ . ثم تجفف فتعود الى سيرتها الاولى ، ولا يظهر فيها شيء . . . الخ » . وهكذا كان المحتسب يفاجئ هؤلاء الباعة وأهل الحرف فمن وجدوه قد غير ذلك تمت معاقبته واخراجه من السوق حتى تظهر منه التوبة والانابة الى الخير .

وقد ذكر المسبحي أن المحتسب ضرب رجلا من الحلوانيين بالفسطاط وكان يسكن على باب زقاق القناديل ، وطاف به على جمل بسبب أنه وجد أرطاله ينقص كل رطل منها أوقيتين ، وكل صنجة يزيد بها الدراهم تزيد بقدر درهم . وهكذا كانت المراقبة على الموازين والصنج والعمل على ضرورة اعادتها الى دار العيار من أجل تصحيحها وردها الى أصحابها من الحرفيين . ومن هؤلاء الذين تم ترشيحهم لتولى الاشراف على دار العيار ودار الضرب ، كان أبو النعمان المنذر بن علي ، وقد صدر سجل توليته في عهد الحاكم وذلك في سنة ٣٨٨ هـ .

ويتضح من سجل توليته هذا أنه كان مكافا بالنظر في دار العيار ودار الضرب معا ، فقد كان بعض السباكين يضربون بعض الدراهم المخلوطة بالنحاس ، فكان عليه أن ينوب عنه عامل السوق أو العريف في مراقبة ذلك ، وأن يشدد في ضرب هذه الدراهم ، ويبحث عن أحدثها ، فإذا ظفر به ان كان واحدا أو جماعة ، فلا بد أن ينالهم العريف بأشد العقوبة ، ويأمر أن يطاف بهم في الأسواق والتشهير بهم ثم يحبسهم على غشهم وسكهم للنقود المزيفة .

وكان من عادة تجار مصر في العصر الفاطمي أنهم لا يكذبون ويصدقون فيما يبيعونه ، وإذا كذب أحدهم على مشتر ، فانه يوضع على جمل ويعطى جرسا بيده ويطوف به في المدينة وهو يدق الجرس ، وينادي قائلا : قد كذبت وما أنا أعاقب وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب .

ومن الجدير بالذكر أن دار العيار ودار الضرب قد استمرت كل منهما باقية الى حين استولى الدين الأيوبي على السلطة ، حيث أقر

العمل بدار العيار هذه ، وجعلها وقفا على سور القاهرة مع بقية الأوقاف المحبوسة عليه .

(ب) بعض مظاهر الرقابة على أرباب الحرف في العصر الفاطمي :

حفلت كتب الحسبة بالعديد من الشروط والواجبات التي كان على المحتسب وأعوانه من عرفاء الأسواق وأمناء الصناعات اتباعها في تأدية عملهم ، والواقع أنها لا تدع مجالا للشك في دورهم الهام في الاشراف والرقابة على أرباب الحرف والصناعات . وقد عمل الفاطميون على تعيين عريف لكل طائفة من الطوائف حتى الجند ، فقد ذكر المقرئى أنه في عهد الخليفة الظاهر تعذر وجود الخبز في سنة ٤١٥ هـ ، بعث الخليفة في طلب واحضار عرفاء الجند السودان ، وشدد عليهم في احضار الجنة منيم والذين كانوا قد عاثوا في المدينة ونهبوا الحوانيت وما فيها بساحل مصر .

لم تقف مهمة العريف أو الأمين في الأسواق عند حد المراقبة ، بل كان من سلطته أن يكون حكما بين الصانع والعميل ، فاذا أخذ أحد الحاكة أو صاحب مصنع للقزازة غزلا لانسان لينسجه له ثوبا وادعى صاحب الغزل أن الحائك أبدله غزله ، عرضه المحتسب على العريف بدوره ، فان رجعا الى قوله كان بها ، والا حملهما الى حكم الشرع .

وقد افاضت مصادر الحسبة في الحديث عن الكتانيين والحريريين والقطانيين وغيرهم ، وما يجب على هؤلاء الأمناء من مراقبتهم حتى لا يحدث غش أو تدليس منهم . وكان عليهم منع الصباغين ان يصبغوا الأحمر بالبقم ، فانه لا يثبت لونه كما أشرنا من قبل ، وأن يمنع الرفائين والطرازين من أن يغيروا في رسم وطراز ملابس الناس .

كما ينبغي على الخياطين أو الحائكين ألا ينسجوا ما يحرم استعماله من الحرير أو نسج الثياب المصورة ونحو ذلك ، وألا يخطط هؤلاء الحرير ولا يجعلونه بطانة لمن يحرم عليه استعماله كالرجال ، ويجب عليهم أيضا الاحتراز عند قطع القماش وذلك وفق ما يريد صاحب الثوب من تفصيل وخياطة .

كما اشارت كتب الحسبة الى واجبات أمناء الصناعات ومراقبتهم لأصحاب صناعة الجلود ، ومنع الدباغين من بيع الجلود الرديئة التي لم تستوف مراحل دباغتها من حق الصنعة على النحو المطلوب .

وكان على المحتسب وأعوانه أن يطلبوا من صانع الخزف الذي راجت

صناعته خلال العصر الفاطمي أن ينتقى من الطين أحسنه ، ومن الوقود أنظفه وأفضله ، وعليه أن يحرص على جعل الأواني معتدلة تامة الحرق حتى لا تتفتت إذا ما وضع فيها الطعام ، كما يجب عليه أن تكون كاملة الدهان ، ولا يستعمل الخزاف في الصباغة إلا أحسن المواد وأنقاها .

أما عن حرفة الحدادة ، فكان على الأمناء والمفتشين مراقبة الحدادين . حتى لا يطرخوا المسامير القديمة داخل حوانيتهم ، يبيعونها على أنها جديدة ، ومراجعة أوزانها ، فإن الحدادين كانوا يغشون في أوزانها ، ومراعاتهم طبخ الحديد جيدا لئلا تنكسر عند الطرق عليها أو تتورق عند التطريق .

وهكذا تكشف لنا طرق الإشراف والرقابة على أعمال الحرفيين عن دراية وخبرة هؤلاء العرفاء والأمناء ، ومعرفتهم لأسرار الصناعات المختلفة . فكانت أعمالهم تقتضى الرقابة على سائر الحرف والصناعات ، يتضح لنا ذلك مما أوضحه ابن بسام وغيره من الكتاب ، فيؤشّر إلى ما ينبغي على صانعي السفن والمراكب من تجارين وقلافة عمله والأخذ به حيث قال : ينبغي أن يشرف عليهم عريف ثقة ، ثم إن هؤلاء التجارين والقلافة يأخذوه في الصناعة المعمورة بالعز الدائم من الساطان .

كما يتعين على النواتية والبحارة ألا يحملوا المراكب فوق الطائه . مع مراعاة تناسب هبوب الرياح ، وكذلك عدم الجمع بين الرجال والنساء على ظهورها إلا بالحجاب .

وتكشف لنا كتب الحسبة كذلك عن واجبات المحتسب وأهوانه نحو العاملين في الصناعات الخشبية في ذلك العصر ، فكان عليهم أن يأمروا النشارين للخشب الذين يستأجرونهم بالنهار أن يحدوا مناشيرهم قبل وقت الشروع في العمل ، ومحاسبتهم على أوقات العمل التي يقضونها في حوانيت الخشابين . كذلك الأمر بالنسبة لصناعة البناء وفن العمارة . وما يجب على البنائين والرقاصين وغيرهم من الجباسين والجيارين والدهانين مراعاته في أثناء عملهم ، ومراقبة العرفاء والأمناء لهم تفاديا لمنعهم من الغش أو البعد عن أصول الصناعة المتعارف عليها .

وكما كان على المحتسب مراقبة كتاب الرسائل وأصحاب صنعة الكتابة في القساطر وغيرها فالواجب عليهم ألا يجلسوا في درب ولا في حانوت ، بل على قاعة الطريق ، ويبعد معظم من يجلس عندهم من النسوة حتى لا تكون هناك ريبة عند تأدية أعمالهم . أما المزخرفون أو

الخطاطون ، فليس من حقهم ألا يذهبوا غير المصاحف الشريفة أثناء نسخها ،
فقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز زخرفة غير هذه المصاحف بالذهب .

ويظهر أن شئون الحسبة في مصر لم تكن تسير وفقا لما ورد في
مصادرها وبما يتناسب وأحكام الشرع على طول الخط ، وإنما أصابها من
الاهمال والجور في أواخر أيام الفاطميين ، كما حدث بالتقرب من نهاية
عهد الإخشيديين ، فقد ذكر المقرئ أنتم أنه تم استخدام ذخيرة الملك جعفر
في ولاية القاهرة والحسبة فظلم وعسف وبني مسجدا عرفت بمسجد
لا بالله (١١) وذلك عام ٥٠٧ هـ ، في عهد الأفضل .

ومهما يكن من أمر فإننا لم نسمع عن تعيين المحتسب في أيام
الفاطميين بطريق البذل أو البرطلة ، كما شاع في عهد المماليك مما عجل
بتدهورها وانهارها ، إذ لم يعد المحتسب بحاجة إلى مجرد تناول رشوة
مقنعة أو خفية ، وإنما وصل به الحال إلى فرض مقررات شهرية على الباعة
والتجار وأصحاب الحرف والصنائع .

هذا وإن كان المقرئ يشير إلى أن هذه البراطيل كان أول من عمل
بها في مصر الوزير الفاطمي الصالح بن رزيك ، لكنه يذكر أنها كانت
قاصرة على ولاية النواحي فقط ، ويقول : « ثم بطل ذلك » يعني قبل نهاية
أيام الفاطميين .

لقد أصبح دور المحتسب وأعوانه من العرفاء والأمناء هاما في
الإشراف والرقابة على أصحاب الحرف والصناعات ، ولم تكن هناك حرفة
أو أخرى غير خاضعة من جانب هؤلاء كما أشارت كتب الحسبة منذ عصر
الولاة وحتى سقوط الدولة الفاطمية .

(١١) وسبب تسميته بذلك أنه كان يقبض الناس من الطريق ويعسفهم ، فيقولون :

لا بالله ، فيتقدم ويستعملهم فيه بغير أجره . ولم يعمل فيه صانع إلا وهو مكره مقيد .
فأبلى الله ذخيرة الملك بأمراض شديدة .

٤ - مكانة أصحاب الحرف الاجتماعية

★ أجناس الحرفيين والصناع في مصر الاسلامية :

ترتبط مراكز الحرف والصناعات ارتباطا وثيقا بأجناس العاملين من الصناع وأرباب الحرف في مصر الاسلامية ، وتبدو أهمية ذلك اذا ما عرضنا للحقائق التاريخية التي ذكرها المؤرخون والجغرافيون والرحالة عن هؤلاء ، في العصور الوسطى .

فقد ظل العنصر القبطي هو الغالب في ممارسة أنواع الصناعات وسائر الحرف بعد الفتح العربي للبلاد ، وخير شاهد على ذلك ما كان في نجر الاسكندرية وكانت هذه المدينة قد بلغت الذروة في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد في سائر الفنون والآداب ، واستمرت كذلك بعد الفتح حيث كانت تضم العديد من الصناعات الهامة .

ولم يكن اليهود ، أو طائفة الروم التي ظلت بعد فتح الاسكندرية ولم تخرج من بين ما خرج كما يذكر ابن عبد الحكم (١) ، الا أقلية تشارك في أعمال الصناعة والتجارة بالمدينة ، يؤيد ذلك ما ورد في الخطاب الذي أرسله عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بعد تمام فتح الاسكندرية ، وجاء فيه أن بها أربعين ألف يهودي عليهم الجزية .

أما عن الرباط الذي أقامه الفاتح عمرو بالاسكندرية ، فلم يكن هؤلاء الجند به ليعملوا غير الجندية والجهاد ، وقد نهى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الجند الفاتحين عن الزرع والاشتغال بأي حرفة أخرى تشغلهم عن مهام الجهاد وتأمين الحدود للبلدان المفتوحة .

(١) كان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتي ألف من الرجال ، فيل ان المراكب حملت منهم ثلاثين ألفا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع وبقي من بقي من الاسارى ممن بلغ اثراج - فتوح العرب والمغرب ، ص ١٢١ .

وتشير المصادر الى أنه بعد تخطيط الفسطاط واقامة الأسواق ، نرح اليها كثير من سائر الكور والجهات المصرية ، وأصبح أهل الذمة من الأقباط المصريين وغيرهم من جملة أصحاب الحرف الذين امتلكوا المحال والحوانيت فى العاصمة الفسطاط . وكان من أوائل الأجناس الأخرى الذين نزحوا اليها وأخذوا فى مزاولة مهنتهم المختلفة وسكنى المدينة ، قوم من الفرس ، يذكر ابن عبد الحكم أنهم كانوا من الذين دخلوا مع عمرو ابن العاص وسمح لهم بالاختطاط بالجيزة مع طائفة من الروم يقال لهم الحمراء ، وكان حامل لواء طائفة الفرس ابن ينة الذى نسبت اليه احدى السقائف بالفسطاط . وليس من المستبعد احتراف الفارسيين لمهنة الصياغة منذ وقت مبكر بالفسطاط ، حيث كانت صناعة الحلى قد بلغت على أيديهم شأنا عظيما فى الدقة والجمال ، ولا سيما وأنهم وفدوا من صنعاء باليمن ، وقد اشتهر العنصر اليمنى منذ انقدم بحضارته الراقية وبفنونهِ الرائعة ، ويذكر المقدسى أن هؤلاء الفارسيين كانوا يرصعون الزجاج بالجوهر ويكتبون عليه بالذهب المجسم .

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان خرجت جماعة من البصرة فى طريقها الى مصر وذلك فى سنة ٥٣ هـ ، وكان عددهم مائتين وثلاثين ونزلوا باحدى خطط الفسطاط (٢) ، كما أشار المقرئى الى أنه كانت لهم سويقة باسمهم أطلق عليها سويقة الواقيين . ومن المرجح أن يكون هؤلاء من أوائل الوفود العربية الذين زاولوا أعمال التجارة والحرف بالفسطاط .

ودن الملاحظ أنه لم يهاجر الى وادى النيل فى بداية الفتح العربى عدد كبير من العرب ، واقتصر أمر الهجرة على الفسطاط وجهات الاسكندرية وبليبس بالشرقية (٣) . وظل الأقباط يعملون فى الوظائف المدنية ، وفى يدهم الصناعات والفنون المختلفة ، وقد عملوا على مسالة العرب الفاتحين وارضائهم ، فان الصناع منهم ما لبثوا أن بدأوا فى تطوير صناعاتهم ، دفعهم الى ذلك محاولة ارضاء المسلمين العرب والتحبب اليهم ، وانتاج العديد من السلع ما يوافق ميولهم وتعاليم الدين الاسلامى الحنيف .

كما تجدر الإشارة الى أن العرب لم ينزلوا الى معترك الحياة يكافحون

(٢) كانوا من الخوارج الذين خرجوا على زياد بن أبيه بالبصرة ، فكتب الى معاوية بشأنهم . فامر مفرئهم عن أوطانهم ، فسيرهم الى مصر فى ولاية مسلمة بن مخلد .

(٣) لبث حال العرب فى مصر على الحال التى بينها حتى أحضر ابن الحبحاب عامل الخراج فى العصر الأموى مائة بيت من قيس واقطعهم أرضا فى بليبس وزدوهم بأخيل والابل وجعل مهمتهم حراسة القوافل بين ساحل البحر الأحمر وداخل البلاد . الكندى : الولاة والقضاة . ص ١٧ .

فى سبيل الحصول على ما يقيم أودهم ، ويعملون فى ميدان الصناعة والتجارة الا بعد أن صدر قرار الخليفة المعتصم فى عام ٢١٨ هـ واستقاطهم من ديوان الجند وقطع أعطياتهم • أما القول بأنهم كانوا يستنكفون عن الاشتغال بالمهن والصنائع كما يرى ابن خلدون ، ومن الأنفة فى سبيل انتحالهم العلم ، ففى ذلك مجافاة للحقيقة التى تعوزها الحقائق والنصوص التاريخية (٤) •

فالعرب كانت مهمتهم الأولى فى بداية الفتح وحتى أوائل القرن الثالث الهجرى هى الجهاد وتأمين الفتوحات الإسلامية فهى شغلهم الشاغل ، وفى تلك الأثناء كانوا يشجعون الأقباط وغيرهم على انتاج أجود المصنوعات وأرقاها •

ولم يلبث العرب أن نزلوا القرى والمدن وخالفوا أهلها وشاركوا معهم فى سائر الأنشطة الاقتصادية القائمة حينذاك • ومن خير الأدلة التاريخية على اشتغال العرب أو القبائل العربية بأعمال الحرف والتجارة ، ما قامت به قبائل ربيعة ومنها بنو الكنز حين نزحوا الى مصر فى أعداد كبيرة وانتشروا فى نواحي الصعيد الأعلى ، حيث بدأوا فى استغلال مناجم العلاقى واستخراج الذهب منها (٥) •

وقد أجمع المؤرخون المسلمون على استمرار وجود معدن الذهب فى بلاد البجة وقت نزول ربيعة بها ، كما أشاروا الى أن البجة لم تكن تعمل فى هذه المعادن بل كان العرب وخاصة بنو ربيعة هم وحدهم الذين يعملون فيها • وكانت الحرف أو المهن مفتوحة أمام العرب المسلمين وغيرهم من هؤلاء الوافدين على مصر من الخارج ، وليس هناك من الأدلة ما يثبت عكس ذلك ، ويشير المقرئى وغيره من المؤرخين الى استمرار نزوح القبائل العربية واستيطانها فى المدن المصرية على كثرتها واختلاطهم بالمصريين واستقرارهم

(٤) وقد أفرد ابن رسة فى كتابه الإغلاق النفيسة وذكر العديد من صناعات الإشراف

كابل بن أبى طالب رابى بكر الصدين وغيرهما من كبار الصحابة ، ص ٢١٤ - ٢١٥ •

(٥) شاركت قبائل بنو ربيعة فى حملة عبد الله بن الجهم وذلك فى سنة ٢١٦ هـ لتأديب أهالى البجة الذين خرجوا وهاجموا أسوان - فقد ذكر اليعقوبى المؤفى ٢٨٤ هـ أنهم آثروا البقاء فى العلاقى والعمل فى مناجم الذهب هناك ، ولم يلبث أن لحقت بهم فى سنة ٢٢٨ هـ فى عهد الخليفة المتوكل تلك الأعداد الكبيرة من إخوانهم من عرب اليمامة ومعهم جماعات من عرب جهينة • البلدان ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ •

والمقدس : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠١ •

فى عهد الطولونيين والاختشيديين (٦) . ونذكر من هذه القبائل بنو هلال
وبنو قرة ، وبنو زيد الذين استقروا بجهة دلاص التى كانت مشهورة
بصناعة الدروع من الكتان وغيرها فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة .

ونذكر من المدن المصرية التى كانت من تخطيط العرب مدينة بنى
خصيب أو منية الخصيب (المنيا) (٧) ، ولا شك أن هذه المدينة ما لبثت
أن ازدهرت وتبحرت فى العمران بفضل نزوح القبائل العربية إليها
وسكنها ، ولم تكن لتبلغ مثل ذلك القدر من الاتساع والازدهار بين يوم
وليلة ، وإنما كان استقرار العرب ومشاركتهم فى سائر الحرف والصنائع ،
خير شاهد على أنهم لم يقفوا مكتوفى الأيدى فى تعمير المدينة وبلوغها من
نشاط الحركة التجارية والصناعية وسعة العمران ما عبر عنه ابن دقماق
حيث قال : « وبهذه المدينة من الأسواق والقياسر والبضائع والأقمشة كثير
يجعل من علاليتها (أى الضرائب والمكوس) فى اليوم ألف درهم » .

ولا يعنى اشتغال العرب بالزراعة والحرف والصنائع الأخرى. فى
القرنين الثالث والرابع من الهجرة أنهم أصبحوا يمثلون الغالبية فى ذلك ،
بل انه يمكن القول بأن الاقباط ظلوا يحملون لواء صناعة النسيج على سبيل
المثال لمدة طويلة لم يشاركهم فيها أحد ، ويدلنا على ذلك أن العرب كانوا
يطلقون على المنسوجات المصرية اسم قباطى ، ولابد أن التسمية كما أشرنا
من قبل نسبة الى قبط مصر الذين أظهروا مهارتهم الفنية فى ميدان النسيج ،
كذلك الذى عاش حتى أوائل القرن السابع الهجرى . يذكر ياقوت أن
ناسجى الثياب فى دمياط وتنبس من القبط .

وتشير الدراسات فى ذلك الوقت الى هجرة ونزوح أرباب الحرف
والصناعات من مكان الى آخر (٨) ، فكما وفد على العراق زمن الخليفة
المنصور المئات من البنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين

(٦) يذكر المقرئى من هذه المدن الكثيرة فى الصعيد مثلاً : الفيوم - دلاص -
اهناس - البهنسا - القيس - الأشمونين - انصنا - اسيوط - اخميم - البلىنا - قنا -
قوس - قفط - ادفو - أسوان .

الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .

(٧) يذكر المقرئى أن هذه المدينة تنسب الى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج
مصر فى عهد أمير المؤمنين هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

(٨) منذ التاريخ القديم وجد الصناع المصريون طريقهم الى بابل وإلى بلاد الحبشيين
كما عمل الآشوريون على نقل الصناع المهرة من كافة البلاد التى هزموها الى بلادهم ،
وكذا هذا البابليون حذوهم . جواتيان : دراسات فى التاريخ الإسلامى ، ص ١٧١ .

والحفارين وغيرهم من مصر وغيرها من البلدان ، وتكرر حدوث ذلك عند تخطيط سامرا وتعميرها بالأسواق . فانه وفد على مصر من خيرة الصناع من العراق وغيرها في صحبة ابن طولون لتشييد مدينة القطائع والمشاركة في النهضة العمرانية والفنية بمصر .

وفي العصر الفاطمي عمل الخلفاء الفاطميون على تشجيع واجتذاب مهرة الصناع من كل لون وصنف للعمل في القصور الفاطمية ويذكر المقرئزي ، ان المعز لدين الله عمل على جعل كل ماهر في صنعة ضائعا للخاص ، وأفرد لهم مكانا برسومهم . وكذلك فعل بطائفة الكتاب والأفاضل وشرط على ولاة الأعمال اختيار وإيفاد كافة من يتوسمون فيه من الرعية فسيروا اليه أعدادا كبيرة من هؤلاء الشباب فأفرد لهم دورا وسماها الحجر ، ولا شك أن هؤلاء كانوا جميعا من المصريين ومن بلاد الشام .

كما يذكر المسيحي أن دار ماتك التي كانت تقع بالقرب من دار الصناعة بالمقس كانت بها طائفة من الروم يعملون في بناء السفن . وتشير حركة الحرفيين في العصر الفاطمي الى نزوح كثير من المغاربة والأندلسيين الى مصر ، وقد أوضحت أوراق الجنيزة من هؤلاء الحرفيين الذين هاجروا مجموعات من الصباغين والصاغة والخياطين والأساكفة والنساجين والغرائين ، جاءوا من بيزنطة وغيرها من المدن والبلاد الأوروبية . كما تشير الوثائق أيضا الى هجرة بعض صناع الزجاج ومن غزالي الحرير والصباغين من بلاد الشام الى مصر مما جعل الصناع المحليون يحسبون بوطاتهم ومنافستهم لهم في مجال حرفهم المختلفة .

وقد شجع على هجرة هؤلاء الحرفيين والصناع الى مصر في العصر الفاطمي ، حرية الجميع في اختيارهم للمهن التي يرغبون في الاشتغال بها ، كما تشير أوراق الجنيزة الى أنه لم توضع أية قيود على أهل الذمة سواء من المسيحيين أو اليهود فيما يتعلق بممارستهم للأنشطة الاقتصادية المختلفة .

وكما شجع الفاطميون ذوي الفضل من العلماء والفلاسفة والأدباء من خارج البلاد واستدعائهم للمشاركة في المناسبات والأعياد ، وكان لكل منهم أرزاقا وهدايا نفيسة (٩) . فقد حرص الحكام الفاطميون على جعل

(٩) يذكر ناصر خسرو أن رزق الواحد من هؤلاء الأدباء لا يقل عن خمسمائة دينار .

سفر نامه ، ص ٥٣ .

القاهرة فى أيامهم تحتل المكانة السامية بين الحواضر الإسلامية من حيث الظهور بظهر الأبهة والثروة ، ومن ثم كانت سياستهم العمل على اجتذاب الخبرات والكفاءات من كل مكان ، لذلك رأينا أنهم شجعوا على هجرة الحرفيين والصناع الأكفاء واجتذابهم من بلاد الفرنج ، وخاصة عندما أنشأوا المناخ السعيد ويعنى المخزن . يقول المقرئى : « واليه يأوى الفرنج فى بيوت برسمهم ، وكانت عدتهم كثيرة من النجارين والجزارين والدهانين والخبازين والخياطين والفعلة ، ومن العجائين والطحانيين فى تلك الطواحين والفرائين فى أفران الجرايات » .

وتكشف لنا بعض خطابات الجنيزة أنه فى عهد الخليفة الظاهر كان اليهود يعيشون فى مصر ويحملون ألقابا تنسب الى المدن الفارسية التى نزحوا منها وذلك مثل الكازرونى ، والشنيزى ، والتوزى . كما أشار المقدسى من قبل تلك الفترة الى نزوح جالية كبيرة من الفرس منذ القرن الثالث ، ومساهمتها بنصيب موفور من الحركة التجارية فى البلاد فى عصر بنى طولون ، وكان لها شأنها فى الحياة الاقتصادية .

ومن العائلات اليهودية الفارسية التى استوطنت مصر عائلة التستري ، نسبة الى تستر احدى مدن فارس (١٠) ، وربما تجمع التستريون زمن الفاطميين فى أسواق الفسطاط (١١) وقاموا بنسج الثياب التسترية التى كانوا مشهورين بها فى موطنهم الأصيل ، وذلك على نحو ما فعلوه فى أسواق الكرخ فى بغداد .

وقد كان بمصر من اليهود فى العصر الفاطمى نحو سبعة آلاف بالقاهرة والفسطاط وبالإسكندرية ثلاثة آلاف ، وبمدين الدلتا نحو ثلاثة

(١٠) وقد سميت المحلة التى كانوا يسكنونها فى بغداد بهذا الاسم أيضا ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٩ .

(١١) وتجدر الإشارة هنا الى أن أم المستنصر التى اشتراها الخليفة الظاهر من أحد التجار اليهود كان يدعى أبو سعد سهل بن هارون التستري ، فهو من العائلة المشار إليها ، ولما أفضت الخلافة الى المستنصر عام ٤٢٧هـ/١٠٢٦م ، أصبح له من النفوذ ، وقد عملت أم المستنصر على بسط سلطانه ويده على شئون الحكم ، حتى صار الوزير الفسلاحى (صدقة بن يوسف) الذى تولى عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م (الوزارة ياتر بأمره ، مما أدى فى النهاية الى التآمر عليه وقتله . المقرئى : اتعاظ الخنفا ، ص ٢٧٨ ، كما يذكر ابن ميسر فى حوادث سنة ٤٥٦هـ أنه تم استناد الوزارة الى أحد أفراد عائلة التستري وهو أبو على الحسن بن ابراهيم بن سهل التستري .

أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ١٥ .

آلاف ، ونحو ستمائة فى المدن التجارية والصناعية بالصعيد (١٢) . وكان أكثر التجار من الجهابذة ومن الحرفيين العاملين فى حرفة الصباغة والدباغة والصيرفة فى بلاد الشام التابعة للحكم الفاطمى من اليهود . ويشير المقرئ الى أن طوائف الكتاب كان جلهم فى الجيش الفاطمى والوظائف المدنية من أهل الذمة ، ويخص منهم اليهود عند قوله : « ان كاتب الجيش كان فى غالب الأمر يهوديا » .

وقد بلغ الأمر أن دواوين الحكومة الفاطمية أصبحت كلها من طوائف الكتاب المسيحيين واليهود فى عهد العزيز بالله ، يقول ابن الجوزى : « وقلد عيسى بن نسطورس وكان نصرانيا من أقباط مصر فيه جلادة ، فضبط الأمور وجمع المال واستخدم النصارى فى الدواوين وصرف الكتاب المسلمين واستناب الشام رجلا يهوديا يعرف بمنشا بن ابراهيم بن القدار فسلك مع اليهود ما سلكه عيسى مع النصارى ، واستخدمهم فى الأعمال » . وتذكر المصادر أنه لما قبض العزيز بالله على عيسى بن نسطورس وسائر الكتاب بسبب شكوى المسلمين ، حاول ابن نسطورس استشفاع بنت الخليفة ست الملك ، وكتب اليه بشأن عودته الى الخدمة شريطة استخدام المسلمين فى دواوين أعماله وقبل الخليفة العزيز منه ذلك ، حدث ذلك عام ٣٨١ هـ ، وقد ظل الفاطميون يستخدمون طوائف الكتاب وغيرهم من الصناع والمهندسين من أهل الذمة حتى نهاية عهدهم . كما عملوا على اجتذاب الخبرات وأصحاب المهارات الفنية من الخارج ، وتشير الدراسات التاريخية والأثرية الى أن البوابات التى أقامها بدر الجمالى أيام توليه زمام الأمور ، ومنها باب زويلة الذى أنشأه عام ٤٨٥ هـ ، أنه تم تشييدها بمعرفة مهندسين أجانب من مدينة الرها ، وذلك على نحو العمارة الحربية التى عرفت فى القسطنطينية وغيرها من المدن الأوروبية فى العصور الوسطى على نحو ما أشرنا من قبل .

✧ مكانة أرباب الحرف والصنائع الاجتماعية :

أكدت الدراسات الميدانية فى مجال علم الاجتماع الصناعى وعلم الاجتماع المهنى أن الانسان يعمل أولا من أجل اشباع كل احتياجاته من

(١٢) ويذكر Jacob Mann أن المعلومات عن حياة اليهود فى مصر قليلة جدا وترجع أقدم اشارة اليها الى سنة ٧٥٠م ، وليس هناك من المصادر ما يكشف النقاب عن دور اليهود الهام خلال القرون الثلاثة من الهجرة .

The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, p. 13.

آدم متز : الحضارة الاسلاميه فى القرن الرابع الهجرى ، ج ٢ ، ص ٦٢ - ٦٣ .

الطعام والشراب والمأوى والأمن ، فإذا ما تحقق ذلك فإنه يسعى من جراء عمله للحصول على المكانة الاجتماعية التي يحظى من خلالها بالاحترام والتقدير لدى طبقات المجتمع الأخرى .

وقد عرف الناس منذ العصور القديمة قيمة العمل على هذا النحو ، فقد كان منهم الأثرياء والعلماء والحكام (١٣) ، وأشار الى هذه الحقيقة كل من ابن رسته والثعالبي والبيهقي وغيرهم من المؤرخين والأدباء المسلمين، فقد أشار ابن رسته الى صناعات الأشراف وقال ان أبا طالب كان يعالج العطر والبر ، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه بزازا ، وكان عمر ابن الخطاب بزازا كذلك .

وهكذا أقبل العرب المسلمون في مصر على الحرف والصناعات التي حث الاسلام على اتقانها ولا سيما في أواخر عصر الولاة ، وذلك فضلا عن أهل الذمة من المصريين .

وخلال الربع الأخير من القرن الثالث الهجري أصبح أهل الحرف يشتركون في بلاط الأمير أحمد بن طولون وأبنائه من بعده (١٤) ، ويتقاضون أرزاقا من الدولة ، وأفرد لكل حرفة موقعا لأهلها بالقطائع يمارس فيه الصناعات مهنهم المختلفة . كما تكشف سياسة التسامح الديني التي اتبعها أمراء الدولة الطولونية مع أهل الذمة عن تلك المعاملة الطيبة وما حظى به هؤلاء من الاحترام والتقدير لديهم .

كما نسمع عن طوائف العلماء والفقهاء والمحدثين وأهل الأدب واشتغالهم بالحرف والصناعات في ذلك الوقت ، وقد شجع الطولونيون

(١٣) من الأمثلة التي وردت في قصص الأنبياء أنه كان لكل نبي حرفة يعمل ويعيش منها . فقد عمل داود عليه السلام خوصا ، وعن هشام بن عروة عن أبيه قال : كان داود يخضب الناس على المنبر وأنه ليعمل الخوص بيده ، وكان ادريس عليه السلام خياطا يتصدق من كسبه بما يتفضل من قوته ، وكان زكريا نجارا ، وكان موسى عليه السلام أجيرا . وكان محمد عليه الصلاة والسلام تاجرا مع عمه أبي طالب ولحساب خديجة بنت خويلد قبل أن يتزوجها .

(١٤) هذا بنو طولون في مصر حذو البلاط العباسي في بغداد في اتخاذ طراز سامرا في العمارة ، وغير ذلك من مظاهر الترف والنعيم في مدينة القطائع وقصر الميسدان ، وتشير المصادر الى أنه أصبح أهل الحرف يشتركون في حشم الخليفة المقنص بالله ويتقاضون أرزاقا من الدولة ، ومنهم الصائغة والحياطون والأساكفة والحدادون والغراون والمطرزون والوراقون والنجارون والحراطين وغيرهم .

مسكويه : تجارب الأمم ، ج ١ ، ص ١٥٢ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ١٨٤ .
البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، ص ٥٣ - ٥٤ .

ذلك الاتجاه ، فقد ولى ابن طولون شجاع بن أسلم المصرى دار الصناعة بجزيرة الروضة ، وأشرف على الصناع والتجارين والنفاطين وغيرهم من أصحاب الحرف ممن يعملون فى بناء السفن . وكان شجاع بن أسلم من العلماء البارزين فى مجال الهندسة والرياضيات .

ولم تشكل الحرف أو الصناعات عائقا أمام أصحابها فى تحصيل العلم والأدب ، فقد واكبوا التطور الثقافى الذى شهدته الفسطاط والاسكندرية وغيرهما من المدن المصرية ، وأصبح فى مقدورهم أن يشاركوا فى حوادث عصرهم ، ويعبروا عن وجهة نظرهم فيها . نذكر من هؤلاء الذين ذاع صيتهم فى العهد الطولونى والاختشىدى أبا اسحق بن ابراهيم الزجاج (١٥) ، وأبا بكر النقاش ، والأنماطى وغيرهم .

ولا شك أنه كان لهؤلاء المنزلة السامية فى نفوس الناس وفى نظر الحكام ، كما يتضح لنا من أسمائهم أنهم كانوا يجمعون بين اشتغالهم بالحرف لصناعة الزجاج وأعمال النقش والدهان والحدادة وغيرها ، فضلا عما كان لهم من نشاط ملحوظ فى البحث والتأليف فى علوم اللغة والأدب .

كما تولى من أهل الحرف بعض الوظائف الدينية من أمثال الحسن ابن موسى الخياط فى عهد الاختشىدين ، ومما يدل على علو منزلة العاملين فى مجال الحرف والصناعات فى ذلك العهد ما ورد فى ترجمة ابن الوزير جعفر بن الفرات (١٦) فقد ذكر المسبحى أنه كان مشهورا بعمل الدنانير والدراهم والصناعة وخرط الزجاج ، وأنه كان مجيدا فى صناعته ، ولم تشكل منزلة أبيه عائقا فى مزاولته للعديد من المهن والصنائع ، واستمراره فيها حتى أوائل عهد الفاطميين .

أما فى العصر الفاطمى ، فقد حفلت المصادر العربية بالعديد من الأسماء والتراجم ممن ذاع صيتهم فى ميدان العلم والعمل معا ، نذكر

(١٥) كان من علماء النحو والصرف المشهورين فى عصره . كما كان يخرط الزجاج. توفى سنة ٣١٦هـ/١٢٢٨م . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ . ص ١٦ .

(١٦) من الجدير بالذكر أن الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات عمل على مضاهرة محمد بن داود الأختشى . فقد زوج ابنه الأختشى مؤسس الدولة الأختشيدية من ابن الوزير جعفر بن الفرات . وكان سبب هذه المضاهرة أنه كان بنو الفرات يكرهون الماذنانيين وبحسدوتهم على ما بلغوه فى مصر . فلم يكن غريبا أن يعمل الفضل على القضاء على نفوذهم وسلطانهم ، بعد أن عينه الخليفة العباسى وزيرا لكشف الأمور فى مصر ، ومنحه السلطات الواسعة فى ذلك .

ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ، ص ١٥٧ . سيدة كاشف : مصر فى عصر الأختشىدين ، ص ٤٧ .

منهم أبا بكر الادفوى المصرى المشهور ، فقد اشتهر بنبوغه فى علوم القرآن واصبح سيد اهل عصره بمصر ، وكان يعمل بتجارة الأخشاب . ومن هؤلاء نذكر أبا القاسم بن الطحان ، ذكر السيوطى أن بلال الأسوانى المالكى روى عن ابن أبى سفيان الوراق ، كما سمع منه أبو القاسم بن الطحان الفقيه والمحدث . كما كان من أشهر الفقهاء المالكية فى عهد العزيز بالله أبو بكر محمد النعال الذى عظم شأنه واليه قصد طلاب العلم من كل مكان .

ومن هؤلاء الذين ذاعت شهرتهم أيضا أبو الحسن عبد الملك ابن عبد الله الزجاج ، نسبة الى احترافه خرط الزجاج ، وكان فى الوقت نفسه من فقهاء الشافعية وله حلقة علمية . واشتهر بحرفة القزاة أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى المعروف بالقزاز ، وقد بلغ المكانة العالية فكان مهيبا عند الخلفاء الفاطميين والعلماء وخاصة الناس ، محبوبا عند العامة .

ومن اشتهر كذلك بحرفة القزاة وبلغ المنزلة السامية وجمع بين العلم والحرفة ، كان ابن الكيزانى الشاعر ، وكما أشرنا من قبل فانه كان يملك معملا للقزاة بالفسطاط ، نقل ابن الزيات عن ابن الجوزى أن والى مصر ومعه مندوب السلطان (يعنى الخليفة) توجهوا اليه للاطمئنان على حاله ، ويظهر من الرواية أن الخليفة الفاطمى أرسل له دينارا مكافأة وتقديرا له فردها عليه وامتنع من أخذها شأنه فى ذلك كشأن غيره من مشايخ عصره . ومن هؤلاء الأدباء والشعراء الذين ذاع صيتهم ، نذكر أبا منصور ظافر بن القاسم الحداد الشاعر السكندرى المتوفى سنة ٥٢٩ هـ ، يشير ابن خلكان الى أن والى الاسكندرية الأمير السعيد بن مظفر استدعاه يوما لقطع خاتم ضاق فى اصبعه ، فتوجه اليه وبعد أن تم له قطع هذا الخاتم أنشد فى ذلك أبياتا من شعره ، وكذلك كانت شهرة أبى بكر الحداد صانع المبارد المتوفى سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م ، وكان فى الوقت نفسه من الفقهاء الأصوليين المناظرين فى عصره .

ومن هؤلاء الذين بلغوا المكانة العالية طوائف الكتاب من أهل الذمة ، حيث تشير المصادر الى أنهم أصبحوا فى عهد العزيز بالله يسلكون التصرف فى

كل شيء داخل القصر الفاطمي وخارجه (١٧) . لدرجة أن المسلمين قدموا الشكوى للخليفة نتيجة عدم استخدامهم وحرمانهم من تولى الوظائف .

ويذكر ابن الجوزي أنه حينما قرأ الرقعة التي تحمل الشكوى هذه ورجع الى قصره استدعى قاضى القضاة محمد بن النعمان وسأله عن صحة ذلك ، فأكد له القاضى بما جاء فى الرقعة ، وعندئذ أمر بالقبض على عيسى ابن نسطورس ، وبعث الى الشام فقبض على منشأ اليهودى ، وبدأ فى استخدام المسلمين . وهكذا بلغ الكتاب من النصارى واليهود تلك المنزلة فى ظل سياسة التسامح الدينى ، التى اتبعها الأئمة الفاطميون حتى أنهم انفردوا دون سائر الكتاب بالوظائف فى الدواوين وفى حوادث سنة ٥٢٣ هـ ، وفى عهد الخليفة الأمر بلغ أحد الكتاب المسيحيين وكان يدعى بالراهب من السطوة والجبروت ما شكاه منه جميع الرؤساء والقضاة والكتاب ، وكان قد قدم الى القاهرة من جهة أشمون واتصل بخدمة ولى الله أبى البركات يحيى بن أبى الليث كاتب المجلس ، فلما قتل الوزير المأمون ، اتصل بالخليفة الأمر ، وبذل له فى مصادرة الكتاب النصارى ، مائة ألف دينار فأطلق يده فيهم . وبلغت منزلته أنه كان يعمل له فى تنيس ودمياط ملابس مخصصة به من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب فيلبسها ومن فوقها غفارة ديباج ، وكان يركب الحمر الفارهة بالسروج المحلاة بالذهب والفضة ، ويجلس بقاعة الخطابة من جامع مصر .

ومما لا شك فيه أن الثراء أصبح من المعايير التى يؤخذ بها لتحديد المركز الاجتماعى للفرد فى العصر الفاطمى ، فمن ذلك أنه كان بمصر يهودى وافر الثراء يتجر بالجواهر ، وكان مقربا من السلطان ، ويعتمد عليه فى شراء ما يريد من الجواهر الكريمة ، وقد بالغ ناصر خسرو فى وصف دار ذلك الجواهرجى حين قال : « كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة زرع فى كل منها شجرة كأنها حديقة مشمرة » .

كما يوضح لنا الرحالة ناصر خسرو مبلغ الثراء لدى أحد الحبوبيين بمصر ، ومحاولة الوزير الفاطمى اقتراض مقادير من الحنطة أو الغلال لمعالجة

(١٧) وقد مدحهم الشعراء بما بلغوه من حظوة ومكانة لدى الفاطميين ، أنشد أبو نصر كاتب الانشاء فى ذلك يقول :

قل لآبى نصر كاتب القصر	والناني لنقص فى الأمر
انقص الملك للوزير تعز	منه بحسن الثناء والذكر
واعط وامنح لا تخف أحدا	فصاحب القصر ليس فى القصر

ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣١٠ .

أزمة الغلاء في ذلك الوقت ، ويقول ناصر خسرو في رد هذا التاجر على الوزير : « أسعد الله السنطان والوزير ان لدى من الغلة ما يمكننى من اطعام أهل مصر (يعنى الفسطاط) الخبز ست سنوات ، وهكذا بلغت كميات القمح التى يمتلكها وكانت فى حوزته مما يدل على مبلغ الثروة لديه .

ولا غرابة فى ذلك فانه يمكن معرفة ما بلغه أهل الفسطاط من الثروة الوصف لأسواقها خلال العصر الفاطمى حيث يقول ناصر خسرو : « ان الحوانيت مملوءة بالسلع المختلفة والأقمشة الثمينة والذهب وسائر الحلى ، حتى أن المشتري لا يجد فيها مخلا يجلس فيه . ولا شك أن هذه الثروة كانت فى حوزة التجار وأرباب الحرف والصنائع ، فالثراء وسعة ذات اليد والسخاء كانت من جملة الشروط التى قد تؤهل صاحبها لأن يتولى الوظائف الهامة ، ويتمتع بالمكانة المرموقة فى ذلك الوقت .

والواقع أن اصحاب الحرف فى مدينة الفسطاط وفى غيرها من المدن المصرية كانوا ينقسمون الى فئتين كما أشار المقرئى وأيدته وثائق الجنيزة ، فكانت هناك فئة مياسير التجار واصحاب المعاش والباعة من أهل الحرف ، منهم غالبا ما يبيعون منتجاتهم وتدر عليهم الأموال الكثيرة : وكما هو الحال فى أولئك النساجين والحائكين بمدينة الاسكندرية ، اذ كانوا يملكون الحوانيت والمصانع الخاصة التى تدر عليهم أرباحا طائلة .

اما الفئة الثانية فهم طائفة الأجراء الذين يعملون بالأجر لدى غيرهم من اصحاب الحوانيت ، التى كان يملكها التجار أو السماسرة ، كما هو الحال فى حرفة النسيج فى مدينة تنيس وغيرها ، وكان هؤلاء الحرفيون فى المرتبة السفلى من السلم الاجتماعى .

وسواء كانت الخدمة بالأجر فى مجال الصناعة أو التجارة ، فقد كانت تعد عملا مهنيا فى ذلك العصر ، يتضح ذلك فيما ورد فى رسالة لأحد التجار ، غرقت سفينته ، واضطر للخدمة فى إحدى الشركات فهو يقول : « انى أحصل على قوتى بخدمة الآخرين وانى أتجرع فى كل دقيقة كأس الموت بسبب ضياع منزلتى ، وذلك من أجل أطفالى » (١٨) .

وهناك من الأدلة التى وردت فى خطابات الجنيزة ما يميظ اللثام عن تلك النظرة الاجتماعية السيئة لهؤلاء الأجراء من أمثال الحجامين وعمال الحمامات وغيرهم . فقد كان أفرادهم يمنعون من الزواج أو المصاهرة من الأسر ذات المكانة الطيبة ، أو حتى بالسماح لهم بالشهادة فى مجالس القضاء .

(١٨) جوانيائين : دراسات فى التاريخ الإسلامى ، ص ١٨٧ .

وبطبيعة الحال فإن الأجراء هؤلاء لم يكونوا يشكلون العصب الحيفي
أو يمثلون الصناع أو أصحاب المصانع الذين كانوا عماد الصناعة في العصر
الفاطمي وسائر العصور الإسلامية الأخرى .

وخلاصة القول أن غالبية الحرفيين والصناع بالقسطنطين والإسكندرية
وغيرها من المدن المصرية . كانوا يمتلكون المحال والمصانع الخاصة التي كانت
تدر عليهم أرزاقا وفيرة ، ولا شك أن هؤلاء كانوا يمثلون مياثير التجار
وأصحاب المعاش من أهل الحرف . وقد تمتعوا بالمكانة الاجتماعية السامية
لدى الحكام خاصة المعلمين منهم وشيوخ الطوائف الحرفية . وفي نفوس
المصريين .

كما يمكن القول أن هؤلاء الشيوخ من كبار أهل الصنعة وغيرهم من
الأمراء على الصناعات كانوا يتمتعون بنفوذ كبير لدى أرباب الحرف والمهين
المختلفة ، وقد كانوا مسئولين أمام المحتسب والجهات الحكومية الأخرى عن
اية اضطرابات تصدر عن أعضاء طوائفهم المنتمين إليها في ذلك العصر .

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى ، وما لعبته من دور حضارى هام فى توفير احتياجات المصريين من المواد الغذائية وأنواع الكساء وغيرها من السلع المصنوعة خلال تلك الحقبة من الزمن .

وقد كشفت الدراسة عن كثرة وجود المطاحن الخاصة والعامة بالفسطاط وغيرها من المدن المصرية وأن تلك المطاحن لم تكن تفى بحاجة سكان العاصمة فقط من الدقيق وما يصنع من الأخباز ، بل كان يتم ارسال المقادير الكبيرة منها الى بلاد الحجاز لتمير أهل الحرمين . كما كشفت النصوص عن توافر المعاصر لاستخراج الزيوت فى المدن المصرية ، وعن استغلالها فى صناعة الطيب والصابون وغيرها من أنواع العطور وأشارت الى حرفة النحالة وما كان يصدر من الأعسال الى سائر الأنحاء ، والى انتشار زراعة قصب السكر فى القرن الثانى الهجرى وما أقيم من المعاصر والمطابخ فى عهد الطولونيين والاختشيديين لصناعة السكر والعسل ، والى وفرة الانتاج من مقادير السكر التى كانت تزود بها دار الفطرة وخزانة الشراب وغيرها بالقصور الفاطمية ، فضلا عما كان يصدر منه الى سائر الدنيا .

أما صناعة النسيج ، فكانت لمصر شهرتها فى انتاج أنواع القباطى منذ الفتح العربى ، والثياب المشهورة من القصب والشروب من طراز دبيق وشطا ودميره وتنيس ودمياط والاسكندرية وغيرها من بلاد الفيوم والبهنسا والأشمونين والقيس واسيوط واخميم بصعيد مصر . وأشارت النصوص الى مدى اهتمام الطولونيين والاختشيديين بمصانع النسيج التى أطلق عليها دور الطراز واشرافهم الدقيق عليها وما كانت تنتجه من أنواع الخلع الثمينة المطرزة بأسماء الخلفاء العباسيين ووزرائهم فضلا عن كسوة الكعبة الشريفة . كما أوضحت تلك النصوص مظاهر تقدم صناعة النسيج وما بلغه الصناع وسائر الحرفيين بخزائن الكسوة والديباج من مهارة فائقة وغيرها من خزائن والفرش والأمتعة والخيام والبنود فى عاصمة الفاطميين ، وتلك

الشهرة التي حظيت بها المنسوجات المصرية وازدياد الطلب عليها من الخارج .

كما أوضحت الدراسة مدى أهمية حرفة الوراقة وصناعة الكتابة وشهرة المصريين في ذلك الأمر حيث انفردوا بصناعة أوراق البردى على مدى قرون طويلة وما كان يصدر من ميناء الاسكندرية من قراطيس البردى الى كل من دمشق وبغداد وبيزنطة في صدر الاسلام . وقد لعب كل من الوراقين والكتاب المصريين دورا ملحوظا في انتاج الورق وما يتصل بصناعة الأدوات الكتابة من الأقلام والمحابر ، وما يتصل بفن الكتابة وتفضيل الأمراء الطولونيين والاششيديين لهؤلاء الكتاب المصريين ، فضلا عن تفوق الوراقين في حرفة النسخ وغيرها من فنون التجليد خلال العصر الفاطمي .

وقد كشفت الدراسة كذلك عن مدى انتشار صناعة أنواع الفخار والخزف والزجاج ومحافظة الصناع على شهرتهم في أعقاب الفتح العربي . ولانتاجهم لأوان من الخزف ذي البريق المعدني في عهد الطولونيين وما وجد من مدارس لصناعة الخزف في العصر الفاطمي مثل مدرسة سعد ومدرسة مسلم بن الدهان . وقد حافظت الاسكندرية على شهرتها في صناعة الزجاج كما كشفت أوراق البردى عن شهرة البهنسا والأشمونين في انتاج الزجاج والبلور خلال عهد الطولونيين والاششيديين كما شجع الفاطميون على انتاج الأنواع المختلفة من الأباريق والتحف الزجاجية والبلورية التي كانوا يستخدمونها في بلاطهم .

كما ظهر جليا من دراسة الصناعات الخشبية ان الولاة على مصر قد شجعوا صناعة بناء السفن الحربية والعمل على استيراد الأخشاب اللازمة لذلك وعلى مشاركة الصناع من الأقباط المصريين في بناء كل من داري الصناعة بتونس وعكا ، وما كان يستورد من بلاد السودان والهند وبلاد الشام وآسيا الصغرى من أنواع الأبنوس وسن القيل ومن خشب الساج والصنوبر وغيرها . وقد كشفت الدراسة عن تفوق المصريين في حرفة النجارة وحفر الخشب وتطعيمه بالعاج وما أنتجه هؤلاء النجارون من أنواع الدكك والمحاريب والأسره خلال العصر الفاطمي . ومن تعدد دور بناء السفن التجارية والحربية في كل من جزيرة الروضة وساحل القسطنطينية والاسكندرية وغيرها من الثغور المصرية ، وما كان يصنع بها خصيصا من العشاريات لاستخدامها في التنزه على صفحة النيل .

وقد كشفت النصوص التاريخية عن استغلال المصريين للمحاجر في أسوان وتلال المقطم وغيرها ، والأعمدة الرخامية الموجودة في بعض الأماكن القديمة في صناعة البناء وعن انتشار صناعة الطوب وعمل القمائن واستغلالها في بناء المساجد والقصور وعن محاولة أحمد بن طولون

الاستعانة بالمهندسين من العراق ومشاركة الحرفيين المصريين فى عمارة المساجد الجامعة فى دمشق ومكة والمدينة وبيت المقدس الشهير وغيرها من المنشآت على طراز سامرا بالعراق والى شيوع صناعة النجص والرّخام وعمل الرسومات الهندسية والمقاييسات والنماذج المجسمة قبل تنفيذ المشروعات العمرانية فى عهد الطولونيين والابخشيدين وفى أيام الفاطميين ، كما تجلت قدرة المهندسين فيما شيده من القصور الزاهرة والمساجد والمناظر والحمامات والمصانع وفيما أبدعه المصورون وغيرهم من أنواع الزخرفة وطلاء الجدران ، خلال العصر الفاطمى ، وكذلك شهرة البصريين وبنى المعلم وغيرهم من المزوقين حيث غدت تلك المنشآت الفاطمية مشارع اعجاب الرحالة والأوربيين .

ومن خلال الدراسة للصناعات المعدنية ظهر جليا أنها ظلت تسير فى طريقها بعد الفتح العربى ، وان القبائل العربية التى نزحت الى مصر لم تشارك الا فى استخراج واستغلال مناجم الذهب بمنطقة العلاقى الممتدة على ساحل البحر الأحمر فى جنوب البلاد ، كما أشارت كتب الرحالة وغيرها الى استيراد أنواع الحديد والفضة والنحاس والقصدير وعن قيام مسابك الحديد والفولاذ والنحاس بالعاصمة الفسطاط ، كما أوضحت المصادر مدى ما بلغته صناعة الأدوات النحاسية والأواني المنزلية وشهرة الصناع المصريين من الصاغة والجواهرجية ورواج صناعاتهم بأسواق الفسطاط وغيرها من أسواق المدن المصرية ، وقد أشارت النصوص الى انشاء دار لسك النقود بالفسطاط ، والى شهرة الدينار الأحمدي التى تم ضربه بها فى عهد ابن طولون ، وأيضا الى ضرب دراهم جديدة من الفضة فى عهد الحاكم بأمر الله واستغلال مناجم الذهب وتأسيس دار للضرب لأول مرة بالقاهرة وأخرى بقوص فى عهد الأمر بأحكام الله ، كما تجلى اهتمام الولاة والأمراء الطولونيين والابخشيدين بصناعة السلاح واستفادتهم من خبرة المصريين فى صناعة المناجيق وغيرها من أنواع الأسلحة ، وأشارت النصوص الى خزائن السلاح الفاطمية وما حفلت به من السيوف والرماح والدروع وغيرها ، وما كانت تجهز به السفن الحربية من أنواع الأسلحة الثقيلة وتجريبها قبل استخدامها فى الجهاد أو الغزوات البحرية .

كما اتضح مدى نشاط الطوائف الحرفية من النفاطين والزرايين وغيرهم من الحدادين وما كان يعمل فى سوق السيوفيين وغيره من أسواق السلاح بالفسطاط والمدن المصرية الأخرى .

وقد ظهر جليا أن الطوائف الحرفية كانت تنتظم فى نقابات مختلفة منذ العصر البيزنطى وأنها استمرت تحافظ على تقاليدها الموروثة بعد الفتح .

العربي خاصة في مجال التدريب والترقي لهؤلاء الحرفيين والصناع الذين كانوا يتوارثون الحرف عن آبائهم وأجدادهم ، وكشفت النصوص عن اشتغال هؤلاء بتحصيل العلم والأدب في العصر الاسلامي وأوضحت ان الحرفة أو الصنعة لم تكن تشكل عائقا أمام أصحابها في سبيل ذلك .

وقد تبين أن أجور الصناع كانت زهيدة خاصة الأجراء منهم أما أصحاب المعاش من كانوا يملكون المصانع فانهم كانوا يحصلون على الأرزاق الوفيرة ، وقد كشفت النصوص عن أنواع الضرائب المختلفة التي كانوا يدفعونها منذ الفتح العربي وحتى أيام الفاطميين . كما أوضحت النصوص دور المحتسب وأعوانه من العرفاء والأمناء واشرافهم على سائر الحرفيين ، وخبرة هؤلاء واحاطتهم بأسرار كل حرفة والتصدى لأساليب الغش المختلفة التي كانوا يقترفونها .

وقد لوحظ أن غالبية الحرفيين ظلوا من أهل الذمة المصريين كما يبدو استفحال أمر الكتاب خاصة في العصر الفاطمي واستغلال أصحاب المطاحن والأفران لتلك الازمات الطارئة وقيام الدولة بالضرب على أيديهم والتصدى لأخطارهم .

كما لوحظ أيضا تمتع شيوخ الطوائف الحرفية وأصحاب المصانع الخاصة بالمكانة المرموقة لدى الحكام وفي نفوس المصريين لاسيما هؤلاء الذين لم يعملوا على استغلال مناصبهم أو ظروف عملهم ، حيث صاروا يتطلعون الى حياة الترف والنعيم كغيرهم من مياسير التجار وأعيان الدولة البارزين . وقد ساعدتهم على ذلك تماسكهم وشعورهم بالانتماء الى طوائفهم ، وعدم حدوث الانقسامات أو المنازعات فيما بينهم كما كان يحدث في بغداد وغيرها من الحواضر الاسلامية الأخرى .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

- (أ) المخطوطات
- (ب) المصادر العربية
- (ج) المراجع الحديثة
- (د) الدوريات والرسائل العلمية
- (هـ) المراجع الأجنبية

(١) المخطوطات :

الاسحاقى : محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح :

- ١ - كتاب لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب
الدول • مكتبة رفاة الطهطاوى بسوهاج رقم ٣٧٩ تاريخ •

ابن الجوزى ، أبو المظفر بن فيزوغلى (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) :

- ٢ - مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، الجزء الحادى عشر - دار
الكتب المصرية رقم ٥٥١ تاريخ •

ابن زولاق ، أبو محمد الحسن بن ابراهيم (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) :

- ٣ - كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، دار الكتب المصرية
رقم ٣٥٩١ تاريخ •

ابن سناء الملك (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م) :

- ٤ - دار الطراز - دار الكتب رقم ٢٠٣٨ أدب •

العينى ، محمد بن أحمد بن موسى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) :

- ٥ - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، الجزء الرابع - دار
الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ •

القضاعى ، أبو عبد الله بن سلامة (ت ٥٥٤ هـ / ١٠٦٢ م) :

- ٦ - عيون وفنون المعارف وفنون أخبار الخلايف - دار الكتب
المصرية رقم ١٧٧٩ تاريخ •

الحرف والصناعات - ٤٤٩

مؤلف مجهول :

٧ - عمدة الكتاب وعدة ذوى العقول والآداب والألباب فى عمل

الليق وصناعة الأذهان - دار الكتب المصرية .

رقم ١٥٩ علوم صناعية .

محمد بن مسلم الشافعى :

٨ - النوادر والطرف فى الوظائف والحرف - دار الكتب المصرية

رقم ٥٦٤٩ أدب .

محمود بن سليمان بن خليفة :

٩ - صناعة الورق والليق والجبر - دار الكتب المصرية

رقم ٣٩ علوم صناعية .

النعمان ، أبو حنيفة بن محمد المغربى (ت ٤٦٣ هـ / ٩٧٣ - ٩٧٤ م) :

١٠ - المجالس والمسائرات - مكتبة جامعة القاهرة

رقم ٢٦٠٦٠ .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) :

١١ - نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ٢٦ - دار الكتب المصرية

رقم ٥٤٦ معارف عامة .

(ب) المصادر العربية :

الأبشيهى ، الشيخ شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور

(ت ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م) :

١٢ - المستطرف فى كل فن مستظرف ، الطبعة الثانية -

القاهرة ١٢٧٩ هـ .

ابن الأثير ، على بن أحمد أبى الكوم (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) :

١٣ - الكامل فى التاريخ ، طبعة القاهرة ١٢٩٠ هـ .

أخوان الصفا :

١٤ - رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا - الجزء الأول والثانى

تصحيح خير الدين الزركلى - تقديم الدكتور طه حسين .

القاهرة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م .

ابن الاخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) :
١٥ - معالم القرية في احكام الحسبة ، تحقيق الدكتور محمد محمود وآخرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

القاهرة ١٩٧٦ م .

الادريسي ، محمد بن محمد بن عبد الله الشريف (ت ٥٦٠ / ١١٦٥ م) :
١٦ - صفة المغرب وأراضى السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق
ليدن ١٨٦٤ - ١٨٦٦ م .

الادفوى ، كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) :
١٧ - الطالع السعيد الجافع أسماء نجباء الصبيد ، تحقيق سعد محمد حسن . طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة .
القاهرة ١٩٦٦ م .

ابن الأزرق ، محمد بن علي بن محمد بن قاسم بن مسعود
(ت ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م) :
١٨ - بدايع السلك في طبائع الملك ، جزآن ، تحقيق وتعليق الدكتور علي سامي النشار .
طبعة بغداد ١٩٧٧ م .

الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله أحمد :
١٩ - أخبار مكة شرفها الله تعالى وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق ويستفيلد .
طبعة ليبزج ١٨٥٨ م .

الاصطخرى ، أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخرى المعروف بالكرخي (ت ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م) :
٢٠ - المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال .
القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .

ابن أمية ، أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م) :

- ٢١ - الرسالة المصرية ، تحقيق عبد السلام هارون .
القاهرة ١٣٧٠ هـ / ١٩٢١ م .

ابن إياس ، محمد بن أحمد المصري (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) :

- ٢٢ - تاريخ مصر المسمى بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الأول ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب .
القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٨٩٢ م .

ابن بسام ، محمد بن أحمد (عاش في القرن الثامن الهجري) :

- ٢٣ - أنيس الجليس في أخبار تنيس ، نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، والمجلد الرابع عشر ، ١٩٦٧ م .

ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) :

- ٢٤ - مهلب رحلة ابن بطوطة السماء تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جزآن ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، ١٩٣٤ م .

ابن بعره ، منصور الذهبي الكامل :

- ٢٥ - كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن فهمي ، مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر .
القاهرة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م .

البلاذري ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) :

- ٢٦ - فتوح البلدان ، تحقيق ومراجعة رضوان بن محمد رضوان ، طبعة بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

البلوي ، عبد الله بن محمد المديني (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري) :

- ٢٧ - سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد علي .
دمشق ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م .

البیهقی ، ابراهیم بن محمد (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م)

٢٨ - المحاسن والمساوی ، جزآن ، عنی بتصحیحه ، محمد
بدر الدین الحلبي ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٠٦ م .

ابن تغری بردی ، جمال الدین أبو المحاسن یوسف الأتابکی
(ت ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م) :

٢٩ - النجوم الزاهرة فی ملوک مصر والقاهرة ، ١٢ جزء ، مطبعة
دار الكتب ، وزارة الثقافة والارشاد ، القاهرة ١٩٥٦ م .

التيفاشی ، أحمد بن یوسف التيفاشی (ت ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م)
٣٠ - ازهار الأفكار فی جواهر الأحجار ، تحقیق الدكتور محمد
یوسف حسن ، محمود بسیونی خفاجی ، مطبوعات مرکز تحقیق
التراث ، الهيئة العامة للكتاب .
القاهرة ١٩٧٧ م .

الثعالبی ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعیل النیسابوری
(ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م) :

٣١ - لطایف المعارف ، تحقیق PDe, Jony

٣٢ - فقه اللغة وسر العربية ، دار الكتب العلمية ، طبعة بیروت .

الجاحظ ، أبو عثمان عمر بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) :

٣٣ - التبصر بالتجارة ، عنی بتصحیحه ونشره حسن حسنی
عبد الوهاب .

دمشق ١٩٣٢ م .

٣٤ - ثلاث رسائل ، نشر یوشع فینکل ، القاهرة ١٣٤٤ م .

٣٥ - رسالة الكندی فیما یطرح علی الحديد والسیوف فلا تتلم
ولا تكل ، نشر مجلة المورد ، العدد الرابع ، المجلد ١٢ .
بغداد ١٩٨٣ م .

ابن جبیر ، محمد بن أحمد الكتانی الأندلسی (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) :
٣٦ - الرحلة ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م .

- الجهشياري ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ / ٤٩٢ م) :
- ٣٧ - **الوزراء والكتاب** ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الايباري
وعبد الحفيظ الشلبي ، مطبعة الحلبي .
- القاهرة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .
- ابن الجيعان ، شرف الدين يحيى بن المعز (ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م) :
- ٣٨ - **التحفة السنية في أسماء البلاد المصرية** ، نشر مكتبة الكليات
الأزهرية .
- القاهرة ١٩٧٤ م .
- ابن الحاج ، أبو عبد الله محمد العبدري (ت ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م) :
- ٣٩ - **المدخل الى تنمية الأعمال بحسن النيات** ، ٤ أجزاء :
- ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى (توفى فى أواخر القرن
الرابع الهجرى) :
- ٤٠ - **المسالك والممالك** . طبعة ليدن ١٨٧٢ م .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) :
- ٤١ - **المقدمة** ، مطبوعات الحاج عبد السلام محمد ابن شقرون ،
القاهرة .
- ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم
(ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) :
- ٤٢ - **وفيات الأعيان** ، جزآن ، القاهرة ١٢٨٣ هـ .
- الخوارزمي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٤٠٧ هـ / ١١٠٣ م) :
- ٤٣ - **مفاتيح العلوم** ، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة
الثانية .
- ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ابن الداية ، أبو جعفر أحمد بن يوسف (ت ٣٣٠ هـ / ٣٤٠ م) :
- ٤٤ - **المكافأة** ، تصحيح وضبط أحمد أمين ، على الجارم ، المطبعة
الأميرية ببولاق .
- القاهرة ١٩٤١ م .
- ابن دقاق ، إبراهيم بن محمد العلاقى
(ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م)
- ٤٥ - **كتاب الانتصار بواسطة عقد الأمصار** ، المطبعة الكبرى
الأميرية ، الجزء الرابع والخامس ، مصر ١٣٠٩ م .

الدمشقي ، أبو الفضل جعفر بن علي (ت ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م) :
٤٦ - الإشارة الى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأغراض وغشوش
المدلسين فيها ، مطبعة المؤيد ، دمشق ١٣١٨ م .

الدميرى ، كمال الدين محمد بن موسى بن علي (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) :
٤٧ - حياة الحيوان الكبرى ، طبعة دار الشعب ، أجزاء .
ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) :
٤٨ - الأعلام النفيسة ، مطبعة بريل وليدن ١٨٩١ م .

ارنبغا الزردكاش :

٤٩ - الأنيق في المناجيق ، تحقيق الدكتور نبيل محمد عبد العزيز ،
مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨١ م .

ابن زولاق ، أبو محمد الحسن بن إبراهيم (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) :
٥٠ - أخبار سيويه المصري ، نشره الأساتذة محمد إبراهيم ،
وحسين الديب ، الطبعة الأولى . ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م .

ابن الزيات ، شمس الدين أبو عبد الله (ت ٨١٤ هـ / ١٤١١ م) :
٥١ - الكواكب السيارة ، المطبعة الأميرية ، ينصر ١٣٢٥ هـ /
١٩١٧ م .

السبكي ، تاج الدين أبو النضر عبد الوهاب (ت ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م) :
٥٢ - معيد النعم ومبيد النقم ، تصحيح وتقديم داود ولهلم موهرمن
طبع ليدن ١٩٠٨ م .

السقطي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد أبي محمد السقطي الأندلسي :
٥٣ - في آداب الحسبة ، الطبعة الدولية ، باريز ، ١٩٣١ م .

ابن سعيد ، علي بن موسى المغربي (ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م) :
٥٤ - المغرب في حل المغرب ، الجزء الأول ، نشر زكي محمد حسن ،
وشوقي ضيف ، وسيدة اسماعيل الكاشف ، طبعة جامعة
القاهرة ١٩٥٣ م .

- ابن سلام ، أبو عبيد الله بن سلام (ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م) :
- ٥٥ - كتاب السلاح ، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن ، نشر
مجلة المورد ، المجلد ١٢ ، العدد الرابع .
- بغداد ١٩٨٣ م
- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) :
- ٥٦ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، جزءان ، تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم ، نشر دار احياء الكتب العربية .
- القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م
- ٥٧ - كتاب السماح في اخبار الرماح ، تحقيق د. فوزي حمودي
القيسي ، نشر مجلة المورد ، المجلد ١٢ ، العدد الرابع .
- بغداد ١٩٨٣ م
- الشابشتي ، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م) :
- ٥٨ - الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ١٩٥١ م .
- أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ) :
- ٥٩ - كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، الجزء الاول ، تحقيق
الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- الشربيني ، الشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر :
- ٦٠ - هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف ، مطبعة العامرة
الشرقية .
- مصر ١٣٢٢ هـ
- الشيرزي ، عبد الرحمن بن نصر (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) :
- ٦١ - نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العريني ،
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦ هـ .
- صاعد الأندلسي ، أبو القاسم صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م) :
- ٦٢ - طبقات الأمم ، طبعة ، القاهرة .
- أبو صالح الأرمني ، أبو المكارم جرجس بن مسعود (توفي أوائل القرن
السابع الهجري) :

٦٣ - تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى المعروف بكنائس واديرة

مصر • طبعة ، اكسورد ١٨٩٤ م •

ابن الصيرفى ، أمين الدين أبو القاسم على بن منجب (ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م) :

٦٤ - الإشارة الى من نال الوزارة ، طبع بمطبعة المعهد العلمى

الفرنسى للآثار الشرقية ، ١٩٢٤ م •

٦٥ - قانون ديوان الرسائل ، القاهرة ١٩٠٥ م •

الطبرى ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) :

٦٦ - تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ أجزاء ، تحقيق محمد أبو الفضل

ابراهيم ، مطبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ م •

ابن ظهيرة ، أبو اسحق برهان الدين ابراهيم بن على (ت ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م)

« على الأرجح » :

٦٧ - الفضائل الباهرة ، فى معاصر مصر والقاهرة ، تحقيق

مصطفى السقا ، كامل المهندس ، مطبعة دار الكتب •

١٩٦٩ م •

ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ - ٨٧١ م) :

٦٨ - فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، طبعة لجنة

البيان العربى ، القاهرة •

عبد اللطيف البغدادى ، الشيخ موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف

(ت ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) :

٦٩ - الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض

مصر ، طبعة المجلة الجديدة ، سلامة موسى •

ابن العماد الحنبلى ، عبد الحل بن أحمد بن محمد الصالحى

(ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م) :

٧٠ - شلرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء •

القاهرة ١٣٥٠ هـ •

العمري ، شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م) :

٧١ - التعريف بالمصطلح الشريف ، طبعة القاهرة ١٣١٢ هـ •

٧٢ - مسالك الأبصار فى ممالك الأقطار ، طبعة دار الكتب •

٣٤٢ هـ / ٩٣٤ م •

الغزولي ، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي (ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) :
٧٣ - مطالع البدور في منازل السرور ، جزءان ، طبعة ، القاهرة
١٢٩٩ هـ .

قدامة بن جعفر ، (ت ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م) :
٧٤ - الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتعليق الدكتور محمد حسن
الزبيدي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨١ م .

القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) :
٧٥ - آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت .

القفطي . جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب
(ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) :
٧٦ - أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ليبزج ١٩٠٣ م .

القلقيسي ، ابو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) :
٧٧ - صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ١٤ جزءا ، طبعة دار الكتب
المصرية .

١٣٢٢ هـ / ١٩١٤ م .

٧٨ - ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر ، تصحيح ونشر
محمود سلامة .

القاهرة ١٣٢٤ هـ / م .

الكندي . أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) :
٧٩ - كتاب الولاة وكتاب القضاء ، طبعة ، بيروت ١٩٠٨ - ١٩١٢ م .

ابن الكندي ، عمر بن محمد بن يوسف (توفي في النصف الثاني من
القرن الرابع الهجري) :

٨٠ - فضائل مصر ، تحقيق الدكتور ابراهيم أحمد العدوي ، علي
محمد عمر .

القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

• الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) :

٨١ - الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، الطبعة الثالثة .

• القاهرة ١٩٧٣ م

• المسبحي ، محمد عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل بن عبد العزيز

(ت ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م) :

٨٢ - أخبار مصر (في سنتين ٤١٤ - ٤١٥ هـ) ، تحقيق وليم ج .

ميلورد ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب .

• القاهرة ١٩٨٠ م

• المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٥ هـ / أو ٣٤٦ هـ /

٩٥٦ - أو ٩٥٧ م) :

٨٣ - مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٤ أجزاء ، تحقيق محمد

محمي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة

الرابعة .

• ١٣٨٤ هـ / مايو ١٩٦٤ م

• المقدسي ، شمس الدين أبو عبيد الله (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) :

٨٤ - احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة ليدن ١٨٧٧ م .

• المقرئ ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد

(ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) :

٨٥ - المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، ٣ أجزاء ، طبعة

دار التحرير عن مطبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ .

٨٦ - إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق الدكتور

جمال الدين الشيال ، الجزءان الثاني والثالث ، تحقيق

الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ، نشر المجلس الأعلى

للشئون الإسلامية .

• ١٣٩٠ - ١٣٩٢ هـ

٨٧ - اغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق الدكتور بدر الدين

السباعي .

• القاهرة ١٩٥٦ م

٨٨ - نحل عبر النحل ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ،
نشر مكتبة الخانجي .

القاهرة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م .

٨٩ - البيان والاعراب عما بارض مصر من الأعراب ، تحقيق
الدكتور عبد المجيد عابدين .

القاهرة ١٩٦١ م .

المقري ، أحمد بن محمد بن علي (ت ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) :

٩٠ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير : تحقيق الدكتور

عبد العظيم الشناوي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ م .

ابن المقفع ، ساويرس أسقف الأشمونين (توفي أواخر القرن الرابع
الهجري / القرن ١٠ م) :

٩١ - سير الأباء البطارقة ، مطبوعات جمعية الآثار القبطية .

القاهرة ١٩٤٨ م .

ابن ماتي ، أبو المكارم أسعد بن مهنّب (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) :

٩٢ - قوانين الدواوين ، نشر وتعليق الدكتور عزيز سوريال ،

القاهرة ١٩٤٣ م .

ابن منكي ، محمد بن محمود منكي المصري (ت ٧٧٨ هـ / ١٢٧٦ م) :

٩٣ - التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية ، تحقيق

صادق محمود الحميلي ، نشر مجلة المورد ، المجلد ١٢ ، العدد

الرابع .

بغداد ١٩٨٣ م .

ابن ميسر ، محمد بن علي بن يوسف بن حلب (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) :

٩٤ - أخبار مصر ، الجزء الثاني ، طبع المعهد العلمي الفرنسي ،

وتصحيح هنري ماسيه .

القاهرة ١٩١٩ م .

النابلسي ، أبو عثمان النابلسي الصفدي الشافعي :

٩٥ - تاريخ الفيوم وبلاده .

القاهرة ١٨٩٨ م .

ناصر خسرو ، (ت ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) :

٩٦ - سفرنامه ، نقلها الى العربية الدكتور يحيى الخشاب .

القاهرة ١٩٤٥ م .

ابن النديم ، محمد بن اسحق (ت ٣٨٣ هـ / ٩٩٢ م) :

٩٧ - الفهرست .

القاهرة

ابن الوطواط ، أبو اسحق برهان الدين ابراهيم بن يحيى بن علي

(ت ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م)

٩٨ - غرر الخصائص الواضحة و غرر النقائص الفاضحة ، دار

الطباعة العامة ببولاق .

القاهرة

ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) :

٩٩ - معجم البلدان ، ١٢ جزءا ، القاهرة ١٩٠٦ م .

١٠٠ - معجم الأدباء ، القاهرة ، دار المأمون ، ١٩٣٦ م .

يحيى بن سعيد الانطاكي :

١٠١ - تاريخ يحيى بن سعيد ، طبعة باريس ، ١٩٢٤ م .

يحيى بن عمر ، (ت ٢٨٩ هـ / ٩٠١ م) :

١٠٢ - أحكام السوق ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، طبعة

الشركة التونسية للتوزيع .

مارس ١٩٧٥ م .

اليقوبى ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

(ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) :

١٠٣ - البلدان ، بريل ، لندن ١٨٩٢ م .

(ج) المراجع العربية الحديثة :

ابراهيم أحمد العليوى :

١٠٤ - تاريخ العالم الاسلامى .

القاهرة ١٩٨٣ م .

ابراهيم جمعة :

١٠٥ - دراسة فى تطور الكتابات الكوفية على الأحجار فى مصر فى

القرون الخمسة الأولى للهجرة ، دار الفكر العربى .

القاهرة ١٩٦٩ م .

أبو زيد شلبى :

١٠٦ - تاريخ الحضارة الاسلامية ، الطبعة الثالثة .

القاهرة ١٩٦٤ م .

أحمد أمين :

١٠٧ - ضعى الاسلام ، ٣ أجزاء ، الطبعة الثالثة . مطبعة لجنة

التأليف والنشر .

القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .

١٠٨ - ظهر الاسلام ، ٣ أجزاء ، الطبعة الثالثة .

القاهرة ١٩٥٢ م .

أحمد تيمور :

١٠٩ - اعلام المهندسين فى الاسلام ، القاهرة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م .

أحمد فكرى :

١١٠ - مساجد القاهرة ومدارسها ، الجزء الأول ، دار المعارف .

١٩٦٥ م .

أحمد يوسف :

١١١ - الفنون الجميلة قديما وحديثا ، القاهرة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٢ م .

آدم متنز :

١١٢ - الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جزان ،

ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ، لجنة التأليف

والترجمة ، الطبعة الثالثة .

القاهرة ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م .

السيد الباز العرينى :

- ١١٣ - مصر البيزنطية ، الجزء العاشر ، دار النهضة العربية .
- القاهرة ١٩٦١ م .

السيد عبد العزيز سالم :

- ١١٤ - تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامى .
- الاسكندرية ١٩٨٢ م .

الفريد ج . بتلر :

- ١١٥ - فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، طبعة دار الكتب المصرية .
- القاهرة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م .

الفريد لو كاس :

- ١١٦ - المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، نقله الى العربية زكى اسكندر ، محمد زكريا غنيم ، الطبعة الثالثة .
- القاهرة ١٩٤٥ م .

- ١١٧ - تاريخ الحضارة المصرية ، العصر اليونانى والرومانى والعصر الاسلامى ، ألفه نخبة من العلماء ، المجلد الثانى - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

أمين الخولى وآخرون :

- ١١٨ - الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ، ترجمة وتعليق ، حسن محمد جوهر ، عبد المنعم عبد الحليم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- القاهرة ١٩٧٥ م .

- ١١٩ - تراث الاسلام ، جزءان ، نقله الى العربية الدكتور زكى محمد حسن ، لجنة الجامعيين لنشر العلم .
- القاهرة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

بل ، هـ ١٠٠ :

- ١٢٠ - مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى ، نقله الى العربية و اضاف اليه الدكتور عبد اللطيف أحمد على .
- القاهرة ١٩٦٨ م .

جاك . س . ريسلر :

- ١٢١ - الحضارة العربية ، ترجمة د . غنيم عبدون ومراجعة أحمد
فؤاد الأهواني ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

جرجى زيدان :

- ١٢٢ - تاريخ التملق الاسلامى ، ج ٥ ، مراجعة د . حسين مؤنس ،
دار الهلال ، القاهرة .

جروهمان (أدولف) :

- ١٢٣ - أوراق البردى العربية ، ٦ أجزاء ، ترجمة كل من حسن
ابراهيم ، عبد الحميد حسن ، عبد العزيز الدالى ، نشر
دار الكتب المصرية ، ١٩٣٤ م ، ١٩٦٨ م ، ١٩٧٤ م .

- ١٢٤ - أربع محاضرات عن الأوراق البردية العربية ، تعريب
الأستاذ توفيق اسكاروس ، القاهرة ١٩٣٠ م .

جمال الدين الشيال :

- ١٢٥ - مذكرة فى تاريخ مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٤ م .
١٢٦ - مجموعة الوثائق الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٥ .

س . د . جواتيان :

- ١٢٧ - دراسات فى التاريخ الاسلامى والنظم الاسلامية ، تعريب
وتحقيق الدكتور عطية القوصى ، وكالة المطبوعات .
الكويت ١٩٨٠ م .

حسن ابراهيم حسن :

- ١٢٨ - تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ،
٣ أجزاء ، الطبعة الثامنة ، مكتبة النهضة المصرية .
القاهرة ١٩٧٣ م .

- ١٢٩ - النظم الاسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور على ابراهيم
حسن ، الطبعة الاولى .

- ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م .

١٣٠ - تاريخ الدولة الفاطمية •

• القاهرة ١٩٥٨ م

١٣١ - المعز لدين الله الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية ، بلاشتراك
مع طه شرف •

• القاهرة ١٩٤٨ م

حسن الباشا :

١٣٢ - الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ٣ أجزاء ،
دار النهضة العربية •

• القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م

١٣٣ - الألقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، الناشر
دار النهضة العربية •

• القاهرة ١٩٧٨ م

١٣٤ - القاهرة - تاريخها وفنونها وآثارها ، تأليف ومراجعة
الدكتور حسين الباشا وآخرين •

• القاهرة ١٩٧٠ م

حسن أحمد محمود :

١٣٥ - مصر في عصر الدولة الطولونية •

• القاهرة ١٩٦٠ م

حسين مؤنس :

١٣٦ - عالم الاسلام ، طبعة دار المعارف بمصر ،

• القاهرة ١٩٧٣ م

حمدان عبد المجيد الكبيسي :

١٣٧ - أسواق بغداد حتى العصر البويهي ، منشورات وزارة
الثقافة والفنون •

• بغداد ١٩٧٩ م

درويش النخيلي :

١٣٨ - السفن الاسلامية على حروف المعجم ، الطبعة الثانية ،
دار المعارف •

• الاسكندرية ١٩٧٩ م

الحرف والصناعات - ٤٦٥

م . س ديماند :

١٣٩ - الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف .

القاهرة ١٩٥٨ م .

راشد البراوى :

١٤٠ - حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين .

القاهرة ١٩٤٨ م .

زبيدة محمد عطا :

١٤١ - إقليم المنيا في العصر البيزنطى على ضوء أوراق البردى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

القاهرة ١٩٨٢ م .

زكى محمد حسن :

١٤٢ - الفن الاسلامى فى مصر ، الجزء الاول ، طبعة دار الكتب المصرية .

القاهرة ١٩٣٥ م .

١٤٣ - الكنوز الفاطمية ، نشر المجمع المصرى للثقافة العلمية .

القاهرة ١٩٣٨ م .

١٤٤ - فنون الاسلام ، الطبعة الاولى .

القاهرة ١٩٤٨ م .

١٤٥ - اطلس الفنون الزخرفية .

زيدان عبد الباقي :

١٤٦ - العمل والعمال والمهن فى الاسلام ، مكتبة وهبة .

القاهرة ١٩٧٨ م .

سعاد ماهر :

١٤٧ - الفن القبطى .

القاهرة ١٩٧٧ م .

١٤٨ - البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، الكاتب العربى
للطباعة والنشر .

• القاهرة ١٩٦٧ م

١٤٩ - النسيج الاسلامى .

• القاهرة ١٩٧٧ م

١٥٠ - محافظات الجمهورية العربية المتحدة ، وآثارها الباقية فى
العصر الاسلامى ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

• القاهرة ١٩٦٦ م

سعد الخادم :

١٥١ - الصناعات الشعبية فى مصر ، دار المعارف بمصر .

• القاهرة ١٩٥٧ م

سعد زغلول عبد الحميد :

١٥٢ - تاريخ المغرب العربى ، دار المعارف .

• القاهرة ١٩٦٥ م

سعيد عبد الفتاح عاشور :

١٥٣ - أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، والنظم والحضارة
الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية .

• القاهرة ١٩٧٢ م

سيدة اسماعيل كاشف :

١٥٤ - مصر فى فجر الاسلام ، دار الفكر العربى .

• القاهرة ١٩٤٧ م

١٥٥ - مصر فى عصر الاخشيديين ، دار النهضة العربية ، الطبعة
الثانية .

• القاهرة ١٩٧٠ م

أبو صالح الألفى :

١٥٦ - الفن الاسلامى ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية .

• القاهرة ١٩٧٤ م

عبد الرحمن زكى :

١٥٧ - القاهرة ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى .

القاهرة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م .

عبد الرحمن فهمي :

١٥٨ - صنع السكة في فجر الاسلام ، مطبوعات متحف الفن

الاسلامى ، مطبعة دار الكتب المصرية .

القاهرة ١٩٥٧ م .

١٥٩ - مجموعة النقود العربية وعلم النميات ، فجر السكة العربية ،

مطبعة دار الكتب المصرية .

القاهرة ١٩٦٤ م .

١٦٠ - النقود العربية ماضيها وحاضرها ، المكتبة الثقافية (١٠٣)

القاهرة ١٩٦٤ م .

عبد العزيز الدالى :

١٦١ - البرديات العربية ، الناشر مكتبة الخانجي .

القاهرة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م .

عبد العزيز الدورى :

١٦٢ - تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، مطبعة

المعارف .

بغداد ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .

عبد المنعم ماجد :

١٦٣ - التاريخ السياسى للدولة العربية ، جزآن ، مكتبة الأنجلو

المصرية ، الطبعة الثانية .

القاهرة ١٩٦٠ م .

١٦٤ - تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، مكتبة

الأنجلو المصرية ، الطبعة

١٦٥ - نظم الفاطميون ورسومهم في مصر ، الجزء الثاني ، الطبعة الثالثة .

القاهرة ١٩٧٨ م .

عبد المنعم المليجي النقيب :

١٦٦ - مجمع البدائع في الفنون والصنائع ، الجزء الاول ، الطبعة الثانية .

القاهرة ١٣١٠ هـ .

عصام الدين عبد الرؤوف الفقى :

١٦٧ - الحواضر الاسلامية الكبرى ، دار الفكر العربى .

القاهرة ١٩٧٦ م .

عطية القوصى :

١٦٨ - تجارة مصر في البحر الاحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، دار النهضة العربية .

القاهرة ١٩٧٦ م .

١٦٩ - تاريخ دولة الكنوز الاسلامية ، الطبعة الثانية دار المعارف بـ مصر .

القاهرة ١٩٨١ م .

عطية مصطفى مشرفة :

١٧٠ - نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين ، الناشر دار الفكر العربى .

١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .

علماء الحملة الفرنسية :

١٧١ - وصف مصر ، المجلد السادس ، مكتبة الخانجي بمصر ، ترجمة زهير الشمايب .

القاهرة ١٩٨٠ م .

على ابراهيم حسن :

١٧٢ - تاريخ جواهر الصقلي .

القاهرة ١٣٥١ هـ .

على بهجت :

١٧٣ - حفريات الفسطاط ، بالاشتراك مع السيد البير جبريل ،

نقله الى العربية على بهجت ومحمود عكوش ، مطبعة دار

الكتب المصرية .

القاهرة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م

على مبارك :

١٧٤ - الخطط التوفيقية ، ج ١ ، ج ٢ ، الهيئة المصرية العامة

للكتاب .

١٩٨٠ ، ١٩٨٢ م .

غوستاف لوبون :

١٧٥ - حضارة العرب ، نقله الى العربية عادل زعيتر ، الطبعة

الثانية .

القاهرة

فريد شافعى :

١٧٦ - العمارة العربية في مصر الاسلامية ، المجلد الاول ، عصر

الولاء ، الهيئة العامة للتأليف والنشر .

القاهرة ١٩٧٠ م .

كمال الدين سامح :

١٧٧ - العمارة الاسلامية في مصر ، الهيئة العامة للكتب والأجهزة

العلمية ، مطبعة جامعة القاهرة .

القاهرة ١٩٧٠ م .

١٧٨ - العمارة في صدر الاسلام ، الهيئة العامة للكتب والأجهزة

العلمية ، مطبعة جامعة القاهرة .

القاهرة ١٩٧١ م .

لينبول (ستانلي) :

- ١٧٩ - - سيرة القاهرة ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، على
ابراهيم حسن ، طبع مكتبة النهضة المصرية .
القاهرة ١٩٥٠ م .

محمد توفيق جاد :

- ١٨٠ - تاريخ الزخرفة ، بالاشتراك مع واسيلي حبيب أميرهم ،
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .
القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م

محمد جمال الدين سرور :

- ١٨١ - تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ، دار الفكر العربي ،
الطبعة الثالثة .

- ١٨٢ - مصر في عصر الدولة الفاطمية ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر .
القاهرة ١٩٦٠ م .

محمد عبد العزيز مرزوق :

- ١٨٣ - الفنون الزخرفية الاسلامية في مصر قبل الطولونيين ،
مكتبة الأنجلو المصرية .
القاهرة ١٩٧٤ م .

- ١٨٤ - الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ، نشر دار الكتب
المصرية .

القاهرة ١٩٤٢ م .

- ١٨٥ - الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب والأندلس ، طبعة
دار الثقافة .

بيروت

محمد كرد علي :

- ١٨٦ - الاسلام والحضارة العربية ، جزآن .
١٨٧ - خطط الشام ، ج ٦ .

دمشق ١٩٣٨ م .

محمود أحمد :

١٨٨ - جامع عمرو بن العاص بالفسطاط من الناحيتين التاريخية
والآثرية ، طبعة يولاق

• القاهرة ١٩٣٨ م

محمود عكوش :

١٨٩ - تاريخ ووصف الجامع الطولوني ، دار الكتب المصرية ،

• القاهرة ١٩٢٧ م

مختار القاضي :

١٩٠ - أثر المدنية الإسلامية في الحضارة الغربية ، نشر المجلس
الأعلى للشتون الإسلامية •

• القاهرة ١٩٧٣ م

مونتجومري ولت :

١٩١ - فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، نقله الى العربية حسين

أحمد أمين ، دار الشروق ، الطبعة الأولى •

• ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م

نعمت اسماعيل هلام :

١٩٢ - فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية ، الطبعة

الثانية ، دار المعارف •

• القاهرة ١٩٧٧ م

ي • هل :

١٩٣ - الحضارة العربية ، نقله الى العربية د • ابراهيم أحمد

العدوي ، ط • دار الهلال •

• القاهرة ١٩٧٩ م

هولز ، هارنيكولز :

١٩٤ - قصة الكيمياء ، ترجمة الفونس رياضي ، عبد العظيم عباس •

القاهرة

١٩٥ - جامع سيدنا عمرو بن العاص .

القاهرة ١٩٧٢ م .

(ء) الدوريات والرسائل العلمية

أحمد دارج :

١٩٦ - الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية ،

المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع عشر .

القاهرة ١٩٦٨ م .

أحمد مختار العبادي :

١٩٧ - الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية ، مجلة عالم الفكر ،

المجلد الحادي عشر العدد الأول .

القاهرة ١٩٨٠ م .

السيد الباز العريني :

١٩٨ - الحسبة والمحاسبون في مصر ، المجلة التاريخية المصرية ،

المجلد الثالث .

أكتوبر ١٩٥٠ م .

برنارد لويس :

١٩٩ - النقابات الإسلامية ، ترجمة الدكتور عبد العزيز الدوري

مجلة الرسالة ، الأعداد ٣٣٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ ،
السنة الثانية .

١٩٤٠ م .

حسن الباشا :

٢٠٠ - طبق من الخنزير باضم عين وكي الحاكم بأمر الله ، مجلة

كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٨ ، الجزء الأول .

مايو ١٩٥٦ م .

حسن عبد الوهاب :

٢٠١ - توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية ، نشر المجمع

العلمي المصري .

القاهرة ١٩٥٤ م .

٢٠٢ - الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية ، نشر المجمع
العلمي المصري .

٣٠٣ - الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة .

٢٠٤ - من روائع العمارة الإسلامية في مصر ، المجلد الخاص بالمؤتمر
الرابع للآثار في البلاد العربية في تونس .

١٨ - ٢٩ مايو ١٩٦٣ م .

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

حلمي محمد سالم :

٢٠٥ - حرف وصناعات الأطعمة والأشربة في مصر في العصر
المملوكي ، رسالة دكتوراه غير مطبوعة ، جامعة الاسكندرية .
١٩٧٠ م .

حورية عبده عبد المجيد سلام :

٢٠٦ - الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة القسطنطينية
العصر الفاطمي ، رسالة ماجستير جامعة القاهرة .

روبرت . س . لويز :

٢٠٧ - محمد وشرلمان ، إعادة نظر ، ترجمة توفيق اسكندر ،
المجلة التاريخية المصرية

القاهرة ١٩٦١ م .

زكي محمد حسن :

٢٠٨ - بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية ، مجلة جمعية
الآثار القبطية ، المجلد الثالث

١٩٣٧ م .

سعاد ماهر :

٢٠٩ - السيف المنسوب الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، مجلة
كلية الآثار ، العدد الأول .

١٩٧٦ م .

سعيد محمد مصيلحي :

٢١٠ - الاسطرلاب في مصر الاسلامية ، دراسة أثرية فنية ، رسالة

ماجستير غير منشورة ، كلية الآثار جامعة القاهرة .

١٩٧٧ م .

سيده اسماعيل كاشف :

٢١١ - علاقة الصين بديار الاسلام ، مجلة كلية الآثار ، جامعة

القاهرة ، العدد الأول .

١٩٧٥ م .

عبد الرؤوف هلى يوسف :

٢١٢ - طبق غين والخزف الفاطمى المبكر ، مجلة كلية الآداب ،

جامعة القاهرة ، المجلد الثامن عشر ، الجزء الأول .

مايو ١٩٥٦ م .

عبد الرؤوف عون :

٢١٣ - تاريخ فن الحرب ونظمها عند المسلمين حتى نهاية القرن

الثانى ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة .

عبد العزيز الدورى :

٢١٤ - نشوء الأصناف والخزف فى الاسلام ، مجلة كلية الآداب

جامعة بغداد ، العدد الأول .

١٩٥٩ م .

كارل جوهان لام :

٢١٥ - الخزف الفاطمى ، ترجمة وتعليق عبد الرحمن زكى ، مجلة

المقتطف ، المجلد ٩٠ .

١٩٣٧ م .

محمد عبد الستار عثمان :

٢١٦ - أضواء على المعمار الاسلامى ، مجلة الفيصل ، العدد ٩٠ .

الرياض ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

موريس لمبار :

٢١٧ - الذهب الاسلامى منذ القرن السابع الى القرن العاشر عشر

الميلادى ، ترجمة توفيق امكندر ، المجلة التاريخية المصرية .

القاهرة ١٩٨٤ م .

نعمت محمد ابو بكر :

٢١٨ - المناظر الخشبية فى مصر حتى العصر المملوكى ، رسالة

غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة .

(هـ) المراجع الأجنبية

1. Abu-Saleh, : *The Churches & Monasteries of Egypt*, London 1949.
2. Ameer. Ali Sayed, *A Short History of the Saracens*, London - 1949.
Aly Mohamed Fahmy.
3. *Muslim Sea-Power in the Eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century*, Second edition, Cairo-1980.
Arnold sir Thomas & Grohmann (Adolf).
4. Artz. F. B. : *The Islamic Book*.
5. Artz. F.B. : *The Mind of the Middle Ages*, Berlin, 1953.
6. Bell. H. I., *Jews and Christians in Egypt....*
7. *Translations of the Greek Aphrodito papyri (Der Islam)*
Vol 1-6.
8. Devonshire, Mrs. R. L. : *Moslem Builders of Cairo Second Edition*, Cairo, 1944.
9. Garner, H. : *Islamic pottery, A Comprehensive study based on the Barlow collection Geza Fehervari*, London 1973.
10. Gajori, F. : *A History of Mathematics* 2 edition London 1929 Grenfell, F.
11. *The Oxyrhynchus papyri*, vol, I-14.
London, 1899-1933.

12. Grohmann. A., : *Arabic papyri in the Egyptian Library*,
vol 3, 4. Cairo, 1938.
13. Holmyard E. J., : *Chemistry to the time of Dalton*, London
4 1925.
14. Jacog-Mann, : *The Jews in Egypt and in Palestine under
the Fatimid Caliphs*, 2 vols, Oxford, 1920.
15. Johanson, A.C., & West. L., : *Byzantine Egypt*, Economic
Studies London, 1940.
16. Lane-poole Stanley, : *A History of Egypt in the Middle
Ages*, Fourth Edition. London 1925.
17. *Catalogue of the collection of Arabic coins in the Khedi-
vial library at Cairo*, London 1891.
18. Milne, J.G. : *A History of Egypt under Roman rule*, Lon-
... don 1924.
19. Mohamed Ahmed, : *Concise Guide to principle Arabic
monuments in Cairo*, Bulak 1939.
20. O'leary, D. L. : *A Shory History of the Fatimed Khali-
fate*, London 1923.
21. Wiet, G., : *L'Egypte Musulmane* (Precis de l'Histoire
d'Egypte) tome, 2, Cairo 1932.
22. *Les Mosques du Caire*.
23. Wiet, G., : *Steles Funeraires*, tome, 1-8, Cairo, 1936-1941.

24. *Repertoire Chronologique D'Epigraphie Arabe*, tome, 1-8, le Caire, 1931 etc.
25. Wilson, G., : *Great Men of Science, Their lives and Discoveries*, New-York, 1942.
26. Zaky, M. Hassan : *Les Tulunides*, Paris, 1933.
27. *Encyclopedia of Islam (Art)*.

معجم صغير لأهم المصطلحات المستخدمة في الكتاب

الادم والدوق :

نوع من الجلود لصناعة معدات الركوب التي يستخدمها الفارس

الأرجيسة :

- الرقعة التي كان يكتب عليها

الأرمنى :

- نسيج اشتهر به الأرمن

الآس والسلجم :

- أنواع من الأشجار

الانخاخ :

- مواضع في الأسواق لانزال أحمال الإبل

اهل البجة :

- قبائل بدوية تقطن ساحل البحر الأحمر

الاهليلج :

- زيت يستخرج من نوع من الأشجار كالزيتون

برطلة (براطيل) :

- وهي الرشوة

بزاز :

- تاجر البز أو الثياب

البقم :

- نوع من صبغة الألوان

البلاتوس :

- نوع من الأزهار .

ابوقلمون :

- ١ - نوع من الأحجار التي كانت تستخرج بالقرب من شاطئ الاسكندرية .

- ٢ - نسيج انفردت تنيس بنسجه ، يتغير لونه بتغير ساعات النهار ، ظهر في العصر الفاطمي .

التابستري :

- نوع من النسيج المزخرف .

التراس (التراسون) :

- صانع التروس والدروع .

تنيس :

- مدينة كانت تقع وسط (بحيرة المنزلة) .

التوريق :

- الزخرفة بأشكال الأوراق النباتية .

جامة (جامات) :

- وهي الكأس المصنوع من البلور .

الجزع :

- نوع من الأحجار الكريمة .

جوسق (جواسق) :

- حصن .

جوشن (جواشن) :

- درع .

حبس (احباس) :

- وقف . (أوقاف) .

الجبوبي :

- تاجر الجبوب .

الحذاء (بتشديد الذال) :

• صانع الأحذية

الحصرى (الحصريون) :

• صانع الحصر أو البسط

خرايب :

• جمع خروبة وهى أصغر أنواع العملات

ديق :

• مدينة كانت شهيرة بصناعة النسيج بالقرب من دمياط

دق :

• الرقيق من الثياب

الدكاسة (الدكاسات) :

• نوع من أنواع السفن

دميرة :

• جهة فى الدلتا كانت شهيرة بصناعة البردى

الديباجى :

• صانع النسيج من الحرير

الرقام (الرقامون) :

• الذى يصنع علامات الثياب

الزجاج (بتشديد الجيم) :

• صانع الزجاج

السراج : (بتشديد الراء) :

• صانع السروج

سقط :

• وجمعها (أسقاط) وهى الثياب المطوية

سقلاطون :

• نوع من النسيج يشبه الحرير ، أخذ المصريون سر صناعته من

• بلاد الروم

السماجة (السماجات) :

• الحركات والألعاب القبيحة

السمار :

- نوع من النبات كان يصنع منه الحصير .

السميد :

- نوع من الخبز الجاف .

السنبوك :

- قارب مديب المقدمة .. وكان يستعمله أهل الحجاز وقد عرفته مصر الطولونية .

شاذروان :

- الشرفة البارزة من البنيان .

الشب والنظرون :

- مواد تستخرج من وادى النظرون وغيره .

الشبارة :

- سفينة نهريه صغيرة تستخدم فى العراق .

الشختورة :

- نوع من السفن الصغيرة يسار واحد فى الوسط وهى من المراكب النيلية التى كانت تستعمل لتعديده الناس فى النيل .

شطا :

- مدينة فى الوجه البحرى كانت شهيرة بالثياب .

الشطوية :

- ثياب تصنع بمدينة شطا .

الشلندية :

- مركب مسقف .

الشماع (بتشديد الميم) :

- صانع مادة الشمع المستخدمة فى الاضاءة .

الشمشم (بفتح الشين) :

- نوع من المسحوق لعلاج العين (الشمشم) .

الشيئى أو الشؤنة :

- الجمع (شوانى) وهى السفن الحربية الكبيرة .

صاحب الكورة :

- حاكم الاقليم أو المدينة وما حولها .

صولدى (صولدات) :

- نوع من العملة الصغيرة البيزنطية .

الضراب (بتشديد الراء) :

- الذى يقوم بسك العملة .

الطحان :

- صاحب حرفة طحن الغلال أو الحنطة .

طراز أشمون وانصنى :

- دارى صناعة النسيج بالأشمونين وانصنا بالقرب من المنيا .

الطريفة :

- سفينة الحرب .

طيفور (طيافر) :

- وهو نوع من الأواني .

الطلاء :

- الطلاء أو الدمان .

طيلسان (طيالس) :

- وهى طرحة توضع على المنكب ، وكان رجال القضاة ينسجون الطيالس .

العبابى :

- نسبة الى محلة ببغداد تنسب الى عتابى بن أسيد فكانت تعرف فى بغداد بحى العتبية .

العرادة (العرادات) :

- نوع من السفن الحربية الكبيرة .

العراض :

- الفضاء الواسع بين الدور والمنازل

العرصة :

- الفضاء وهو وسط الدار

العسجدة :

- لؤلؤة ثمينة ونادرة

العشارى أو العشارية .. والجمع (العشاريات) :

- نوع من السفن الكبرى يسير فى النيل ويجر بعشرين مجدافا وينقل البضائع

العص الشامى :

- المادة التى يستخرج منها الحبر أو مادة الكتابة

العص والزاج :

- المادة التى يتخذ منها الحبر

العقيق :

- نوع من الأحجار الثمينة

العار (العيارين) :

- الذى يعمل فى دور الضرب أو سك النقود

الغضار (بتشديد الضاد) :

- صانع الغضار أو الأوانى

الغضيرة (الغضائر) :

- الاناء المصنوع من الخزف

الفرش :

- البسط

الفوة :

- نوع من الصبغة لتلوين الثياب بها

انقباطى :

- الثياب المصرية الشهيرة وكانت تصنع من الكتان

قطرميز :

- برطمان من الزجاج

القزازة (بكسر القاف) :

- حرفة النسيج ومنها القزاز (بتشديد الزين) وهو النسيج والجمع قزازون

القيس :

- من مدن الصعيد الاوسط بالقرب من المنيا

قيصرية (قيساريات) :

- وهي الأسواق المسقوفة بالمدن

القشاش (بتشديد الشين) :

- صانع المقشات أو أدوات النظافة

القصب :

- نوع من النسيج الملون مما تلبس النساء

قللطة :

- دهان السفن بمادة القار والزفت

القند :

- عصير البصل

الكاغند :

- نوع من الورق كان يصنع بسمرقند

الكراع :

- الخيل

الكفت :

- صناعة الحفر على المعدن وزخرفته

الكلس :

- الحجر الجيري

كورة :

- الاقليم وكانت مقسمة الى عدة كور مصرية

الليتورجيا :

- أعمال السخرة

ليقة (الليق) :

- هي الطريقة التي تعمل بها الأحبار

المرعز العسلى :

- نوع من النسيج يصنع من شعر الماعز

الملاص :

- اسم شخص وكان عريف لقبيلة حضرموت اليمنية

النحال (النحالة) :

- صاحب خلايا النحل والذي يجمع العسل منه

النرد :

- الزهر (لعبة الطاولة)

نفاط (بتشديد الفاء) :

- صانعى كرات النفط أو الزيت

النقارة •• النقارات (بتشديد القاف) :

- آلات النقر والحفر فى الخشب

نمط (أنماط) :

- الأنماط نوع من الجلود واشتهرت أخميم بصناعتها

النيلوفر :

- نوع من الأزهار

الهراس (بتشديد الراء) :

- الدقاق والمهراس الحجر المطحون

الوراق (بتشديد الراء) :

- صاحب محل الوراقة وهو ناسخ الكتب وبائعها

ويبة :

- مكيال وهو سدس الأردب

فهرس كتاب الحرف والصناعات

مقدمة	٥
الفصل الأول : صناعة النسيج منذ فجر الاسلام حتى نهاية	
العصر الفاطمي	١٥
١ - صناعة النسيج في عصر الولاة	١٦
٢ - دور الطراز في عهد الطولونيين والاششيديين	٢٧
٣ - حرفة الصباغة وصناعة الألوان	٣٩
٤ - مظاهر تقدم صناعة النسيج في العصر الفاطمي	٤٧
٥ - مراكز صناعة النسيج وازدهار فن الزخرفة في العصر الفاطمي	٥٦
الفصل الثاني : حرفة الوراقة و فن الكتابة	
١ - صناعة البردي في عصر الولاة	٧١
٢ - الوراقة في عهد الطولونيين والاششيديين وصناعة الكتابة	٧٣
٣ - صناعة الكتابة في مصر منذ فجر الاسلام حتى نهاية عصر الطولونيين والاششيديين	٨١
٤ - ازدهار حرفة الوراقة وفن الكتابة في العصر الفاطمي	٩٢
٥ - الكتاب في العصر الفاطمي	١٠١
الفصل الثالث : صناعة الأواني والأدوات الخزفية والزجاجية منذ	
فجر الاسلام حتى نهاية العصر الفاطمي	١٠٦
١ - صناعة الفخار والخزف منذ فجر الاسلام حتى نهاية العصر الفاطمي	١١٠

- ٢ - صناعة الزجاج فى عصر الولاة والولاة المستقلين . . . ١٢٢
- ٣ - ازدهار صناعة الزجاج والبلور الصخرى فى العصر
الفاطمى ١٣٠

الفصل الرابع : الصناعات المعدنية من الفتح العربى الى نهاية

- العصر الفاطمى ١٣٧
- ١ - استخراج المعادن والحصول على المواد الخام والأحجار
الكريمة ١٤٠
- ٢ - صناعة الأدوات والآلات الحديدية والنحاسية وفن
التكفيت ١٥٢
- ٣ - صناعة الحلى والجواهر الكريمة ١٦٧
- ٤ - صناعة سك النقود ودور ضرب المصرية ١٨٠
- ٥ - صناعة الأسلحة ومعدات السفن الحربية فى مصر
الاسلامية فى عصر الولاة ١٩٧

الفصل الخامس : الحرف والصناعات الخشبية

- ١ - بناء السفن الحربية والتجارية فى عصر الولاة ٢١٦
- ٢ - مظاهر النهضة فى صناعة السفن الحربية والتجارية
فى عهد الطولونيين والاختشيديين ٢٢٤
- ٣ - ازدهار صناعة السفن وتجهيزها فى دور الصناعة
الفاطمية ٢٣٢
- ٤ - حرفة التجارة وصناعة الأثاث فى عصر الولاة ٢٤٢
- ٥ - الحفر على الخشب ومظاهر التأثير الحضارى فى عصر
الطولونيين والاختشيديين ٢٤٩
- ٦ - فن النحت والتطعيم بالعاج فى العصر الفاطمى ٢٥٤

الفصل السادس : الصناعات المعمارية فى مصر الاسلامية

- ١ - صناعة البناء فى عصر الولاة ٢٦٣
- ٢ - العمارة ومظاهر التأثير الحضارى فى عهد الطولونيين
والاختشيديين ٢٧٤
- ٣ - تقدم فن العمارة فى العصر الفاطمى ٢٨٨

الفصل السابع : صناعة المواد الغذائية .

- ١ - حرفة الحبوبين وطحن القلال ٣٠٧
- ٢ - صناعة الخبز والحلوى ٣١٩
- ٣ - صناعة استخراج الزيوت ٣٢٥
- ٤ - صناعة الصابون ٣٣٢
- ٥ - صناعة واستخدام الشمع ٣٤٢
- ٦ - حرفة النحالة ٣٤٧
- ٧ - حضارة الفراعين في مصر الاسلامية ٣٥١
- ٨ - صناعة السكر والعسل ٣٥٤

الفصل الثامن : حرفة الدباغة وصناعة الجلود

- ١ - حرفة الدباغة ٣٦٧
- ٢ - صناعة الجلود والأنماط ٣٧٠
- ٣ - صناعة الحصر في مصر الاسلامية ٣٧٥

الفصل التاسع : الطوائف الحرفية ودورها في الحياة العامة .

- ١ - نظم وتقاليذ طوائف الحرفيين ٣٨١
- ٢ - حياة الحرفيين الاقتصادية ٤٠١
- ٣ - طرق الاشراف والرقابة على الحرف والصناعات ٤١٦
- ٤ - مكانة اصحاب الحرف الاجتماعية ٤٢٩
- الخاتمة ٤٤٣

المصادر والمراجع العربية والأجنبية .

- المخطوطات ٤٤٩
- المصادر العربية ٤٥٠
- المراجع الحديثة ٤٦٢
- الدوريات والرسائل ٤٧٢
- المراجع الأجنبية ٤٧٧
- أهم المصطلحات ٤٨١

• • • كتب صدرت عن مشروع الألف كتاب (الثاني)

اسم المؤلف	اسم الكتاب
برتراند رسل •	١ - أحلام الأعلام وقصص أخرى
ي • رادونسكايا •	٢ - الألكترونيات والحياة الحديثة
ألدس هكسلي •	٣ - نقطة مقابل نقطة
ت • و • فريمان	٤ - الجغرافيا في مائة عام
رايوند وليامز •	٥ - الثقافة والمجتمع
ر • ج • فوربس	٦ - تاريخ العلم والتكنولوجيا • ج ٢ : القرن الثامن عشر والتاسع عشر
ليستر ديل راى	٧ - الأرض الفاضية
والتر ألن	٨ - الرواية الانجليزية
لويس فارجاس •	٩ - المرشد الى فن المسرح
فرانسوا دوماس •	١٠ - آلهة مصر
د • قدرى حفى وآخرون	١١ - الإنسان المصرى على الشاشة
أولج فولكف •	١٢ - القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
هاشم النحاس •	١٣ - الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكداول •	١٤ - مجموعات النقود صيانتها • • تصنيفها • • عرضها
عزيز الشوان	١٥ - الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق
د • محسن جاسم الموسوى	١٦ - عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى
اشراف س • بى • كوكس	١٧ - ديLAN توماس « مجموعة مقالات نقدية »
جون لويس	١٨ - الانسان ذلك الكائن الفريد
بول ويست	١٩ - الرواية الحديثة • ج ١
د • عبد المعطى شعراوى	٢٠ - المسرح المصرى المعاصر • أصله وبدايته
أنور المعداوى	٢١ - على محمود طه • « الشاعر والانسان »
بيل شيول وأدنبيت	٢٢ - القوة النفسية للأهرام
د • صفاء خلوصى	٢٣ - فن الترجمة
رالف ثى ماتلو	٢٤ - تولستوى
فيكتور برومير	٢٥ - مستندال
فيكتور هوجو	٢٦ - رسائل وأحاديث من المنفى

المؤلف	الاسم
فيرنر هيرنبرج	٢٧ - الجزء والكل (محاورات في مضمار الفيزياء الذرية)
سدنى هوك	٢٨ - التراث الغامض ماركس والماركسيون
ف . ع أدنيكوف	٢٩ - فن الأدب الروائي عند تولستوى
هارى نعمان الهيتى	٣٠ - أدب الأطفال . (فلسفته - فنونه - وسائله)
د . نعمة رحيم العزاوى	٣١ - أحمد حسن الزيات . كاتباً وناقداً
د . فاضل أحمد الطائى	٣٢ - أعلام العرب فى الكيمياء
فرنسيس فرحون	٣٣ - فكرة المسرح
هنرى باربوس	٣٤ - الجحيم
السيد عليوة	٣٥ - صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة
جوكوب برونوفسكى	٣٦ - التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)
د . روجر ستروجان	٣٧ - هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟
كاتى ثير	٣٨ - تربية الدواجن
ا . سبنسر	٣٩ - الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
د . ناعوم بيتر وفيتس	٤٠ - النحل والطب
جوزيف داهموس	٤١ - سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
د . لينوار تشامبرز رايت	٤٢ - سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
د . جون شندلر	٤٣ - كيف تعيش ٣٦٥ يوماً فى السنة
بيير البير	٤٤ - الصحافة
الدكتور غبريال وهبه	٤٥ - أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى
د . رمسيس عوض	٤٦ - الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها
د . محمد نعمان جلال	٤٧ - حركة عدم الانحياز فى عالم متغير
فرانكلين ل . باومر	٤٨ - الفكر الأوروبى الحديث
شوكت الربيعى	٤٩ - الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ - ١٩٨٥
د . محيى الدين أحمد حسنى	٥٠ - التشيئة الأسرية والأبناء الصغار

الاسم	المؤلف
٥١ - نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج . دارلى أندرو
٥٢ - مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
٥٣ - الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد ؟	د . جوهان دورشنر
٥٤ - مبادرة الدفاع الاستراتيجى	
حرب الفضاء (دراسة تحليلية لأسلحة	
واستراتيجيات حرب الفضاء)	طائفة من العلماء الأمريكىين
٥٥ - ادارة الصراعات الدولية (دراسة فى	
سياسات التعاون الدولى)	د . السيد عليوة
٥٦ - الميكروكمبيوتر	د . مصطفى عنانى
٥٧ - مختارات من الأدب اليابانى (الشعر -	مجموعة من الكتاب
الدراما - الحكاية - القصة القصيرة)	اليابانية القدماء والمحدثين
٥٨ - الفكر الأوروبى الحديث . ج ٢	
(الاتصال والتغير فى الأفكار) من	
١٦٠٠ - ١٩٥٠	فرانكلين ل . باومر
٥٩ - تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة	جابريل باير
٦٠ - اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	أنطونى دى كرسبنى
	وكينيت مينوج
٦١ - الفكر الأوروبى الحديث . ج ٣	فرانكلين ل . باومر
٦٢ - كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوبين
٦٣ - الزمن وقياسه	زافيلسكى ف . س
٦٤ - أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
٦٥ - الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
٦٦ - سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى .	جوزيف داهموس
	س . م بورا
٦٨ - مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د . عاصم محمد رزق
٦٩ - العلم والطلاب والمدارس	رونالد د . سمبسون
	و نورمان د . أندرسون
٧٠ - الشوارع المعصرى والفكر .	د . أنور عبد الملك
٧١ - حوار حول التنمية	والث روستو
٧٢ - تبسيط الكيمياء	فريد هيس
٧٣ - العادات والتقاليد المصرى	جون بوركهارت

اسم المؤلف	اسم الكتاب
آلان كاسبر	٧٤ - التذوق السينمائي
سامي عبد المعطي	٧٥ - التخطيط السياحي
فريد هويل	٧٦ - البذور الكونية
شندرا ويكرا ماسينج	
حسين حلمي المهندس	٧٧ - دراما الشاشة ج ١
روي روبرتسون	٧٨ - الهيروين والايدز
فرانكلين ل. باومر	٧٩ - الفكر الأوروبي الحديث ج ٤
هاشم النحاس	٨٠ - نجيب محفوظ على الشاشة
دوركاس ماكلينتوك	٨١ - صور افريقية
د. محمود سري طه	٨٢ - الكمبيوتر في مجالات الحياة
حسين حلمي المهندس	٨٣ - دراما الشاشة ج ٢
بيتر لوزي	٨٤ - المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
ويليام بينز	٨٥ - وظائف الاعضاء من الالف الى الياء بريس فيدوروفيتش سيرجيف
ديفيد الدرتون	٨٦ - الهندسة الوراثية
أحمد محمد الشنواني	٨٧ - تربية أسماك الزينة
جمعها : جون . ر . بورر	٨٨ - كتب غيرت الفكر الانساني
وميلتون جولد ينجر	٨٩ - الفلسفة وقضايا العصر ج ١
أرنولد توينبي	٩٠ - الفكر التاريخي عند الاغريق :
د. صالح رضا	٩١ - قضايا وملامح الفن التشكيلي
م. ه. كنج وآخرون	٩٢ - التغذية في البلدان النامية
جمعها : جون روبرد	٩٣ - الفلسفة وقضايا العصر ج ٢
وميلتون جولد ينجر	
جورج جافو	٩٤ - بداية بلا نهاية
السيد طه أبو سديره	٩٥ - الحرف والصناعات في مصر الاسلامية د.

يتناول هذا الكتاب جانبا هاما من جوانب الحضارة الإسلامية في مصر منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية العصر الفاطمي ، ويتناول الجهود التي بذلها الحرفيون والصناع في سائر أنواع الحرف والصناعات خاصة في مجال صناعة النسيج والبردي والشرف والرجاج والبور وصناعة السفن التجارية والحربية وفي صناعة الجلود والصناعات الغذائية مما اعطى مصر شهرة على مدى قرون طويلة في انتاج وتصدير بعض السلع وعسل النحل والسكر والشمع وافخر أنواع النسيج إلى كل من الشرق والغرب .

كما يتناول كيفية استخراج الزمرد والذهب من الصحراء النوبية والشرقية . ويعالج الكتاب دور الطوائف الحرفية في الحياة العامة ومدى تماسك اصحاب الحرف وحالتهم الاقتصادية ومكانتهم الاجتماعية .